ترجمان

جيمس ل. غيلفين

الولاءات المتضاربة

القومية والسياسة الجماهيرية في سورية مع أفول شمس الإمبراطورية

ترجمة: عمرو الملّاح



المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات
Arab Center for Research & Policy Studies

الولاءات المتضاربة

القومية والسياسة الجماهيرية
في سورية مع أفول شمس الإمبراطورية

هذه السلسلة

في سياق الرسالة الفكرية التي يضطلع بها «المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات»، وفي إطار نشاطه العلمي والبحثي، تُعنى «سلسلة ترجمان» بتعريف قادة الرأي والنخب التربوية والسياسية والاقتصادية العربية إلى الإنتاج الفكري الجديد والمهم خارج العالم العربي، من طريق الترجمة الأمينة الموثوقة المأذونة، للأعمال والمؤلفات الأجنبية الجديدة أو ذات القيمة المتجددة في مجالات الدراسات الإنسانية والاجتماعية عامة، وفي العلوم الاقتصادية والاجتماعية والإدارية والسياسية والثقافية بصورة خاصة.

وتستأنس «سلسلة ترجمان» وتسترشد بآراء نخبة من المفكرين والأكاديميين من مختلف البلدان العربية، لاقتراح الأعمال الجديرة بالترجمة، ومناقشة الإشكالات التي يواجهها الدارسون والباحثون والطلبة الجامعيون العرب كالافتقار إلى النتاج العلمي والثقافي للمؤلفين والمفكرين الأجانب، وشيوع الترجمات المشوَّهة أو المتدنية المستوى.

وتسعى هذه السلسلة، من خلال الترجمة عن مختلف اللغات الأجنبية، إلى المساهمة في تعزيز برامج «المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات» الرامية إلى إذكاء روح البحث والاستقصاء والنقد، وتطوير الأدوات والمفاهيم وآليات التراكم المعرفي، والتأثير في الحيز العام، لتواصل أداء رسالتها في خدمة النهوض الفكري، والتعليم الجامعي والأكاديمي، والثقافة العربية بصورة عامة.

الولاءات المتضاربة

القومية والسياسة الجماهيرية

في سورية مع أفول شمس الإمبراطورية

جيمس ل. غيلفين

ترجمة

عمرو الملّاح

المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات
Arab Center for Research & Policy Studies

الفهرسة في أثناء النشر - إعداد المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات
غيلفين، جيمس ل.
الولاءات المتضاربة: القومية والسياسة الجماهيرية في سورية مع أفول شمس الإمبراطورية/ جيمس ل. غيلفين؛ ترجمة عمرو الملاح.
464 ص.؛ 24 سم. - (سلسلة ترجمان)
يشتمل على ببليوغرافية (ص. 437-453) وفهرس عام.
ISBN 978-614-445-406-0
1. سوريا - تاريخ - الاحتلال الفرنسي، 1920-1946. 2. سوريا - تاريخ - العصر العثماني، 1516-1920. 3. سوريا - أحوال سياسية - الاحتلال الفرنسي، 1920-1946. 4. الوطنية - سوريا - تاريخ - القرن 20.
أ. الملاح، عمرو. ب. العنوان. ج. السلسلة.
956.9104

هذه ترجمة مأذون بها حصريًا من الناشر لكتاب

Divided Loyalties
Nationalism and Mass Politics in Syria at the Close of Empire

by James L. Gelvin

عن دار النشر
University of California Press

الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبّر بالضرورة عن
اتجاهات يتبناها المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات

الناشر
المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات
Arab Center for Research & Policy Studies

شارع الطرفة - منطقة 70
وادي البنات - ص. ب: 10277 - الظعاين، قطر
هاتف: 0097440356888

جادة الجنرال فؤاد شهاب شارع سليم تقلا بناية الصيفي 174
ص. ب: 4965 11 رياض الصلح بيروت 2180 1107 لبنان
هاتف: 8 991837 00961 فاكس: 1991839 00961
البريد الإلكتروني: beirutoffice@dohainstitute.org
الموقع الإلكتروني: www.dohainstitute.org

الطبعة الأولى
بيروت، تشرين الأول/ أكتوبر 2021

المحتويات

القسم الثالث
المراسم الاحتفالية القومية

مقدمة الترجمة العربية

يتناول المؤرخ الأميركي جيمس ل. غيلفين في كتابه المرجعي هذا دراسة مرحلة وجيزة ولكن مفصلية من التاريخ السوري المعاصر، تبدأ بانسحاب آخر جندي عثماني من مدينة حلب في نهاية الحرب العالمية الأولى، وتنتهي بوقوع سورية تحت الانتداب الفرنسي في عام 1920، إذ شهدت إقامة حكومة عربية عُدَّت تتويجًا للحركة العربية، ورمزًا متجسدًا لليقظة القومية الحديثة، وما تخلل ذلك من إعلان «الآباء المؤسسين» للدولة السورية الأولى الذين تشكلت منهم أول هيئة تشريعية منتخبة في تاريخ سورية الحديث واتخذت اسم «المؤتمر السوري العام» المنعقد بدمشق «إعلان استقلال سورية» بحدودها الطبيعية، بما فيها فلسطين، استقلالًا تامًا، ومبايعة فيصل الأول ملكًا دستوريًا على «المملكة السورية العربية»، وهي أول دولة سورية مستقلة بعد زوال الدولة العثمانية ونهاية الحرب العالمية الأولى، ويصادف هذا العام ذكراها المئوية الأولى.

غيلفين المولود في عام 1951، باحث أميركي متخصص في تاريخ الشرق الأوسط. ويعمل عضوًا في هيئة التدريس في قسم التاريخ بجامعة كاليفورنيا، لوس أنجلوس منذ عام 1995.

وقد كتب وما زال يكتب بشكل مستفيض عن تاريخ الشرق الأوسط الحديث، مع التركيز بوجه خاص على القومية والتاريخ الاجتماعي والثقافي للشرق الأوسط الحديث.

حصل غيلفين على الشهادة الجامعية الأولى من جامعة كولومبيا في عام

1983، ثم نال درجة الماجستير من كلية الشؤون الدولية والعامة في جامعة كولومبيا في عام 1985، فالدكتوراه من جامعة هارفرد في عام 1992.

وقبل أن ينضم إلى هيئة التدريس بجامعة كاليفورنيا، لوس أنجلوس، عمل أستاذًا في عدد من أقدم الجامعات الأميركية وأعرقها، ومن بينها معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا (MIT)، وجامعة بوسطن، وجامعة هارفرد.

نال غيلفين العديد من الجوائز التقديرية، ومن بينها جائزة التميز في التدريس الجامعي، التي منحته إياها جمعية دراسات الشرق الأوسط في عام 2015. ومنحته جمعية المكتبات الأميركية لقب الأكاديمي المتميز لعام 2006، تقديرًا لجهوده في المجال الأكاديمي والبحثي، التي تجلت في كتابه **الصراع الإسرائيلي الفلسطيني: مئة عام من الحرب**. كما نال جائزة زمالة مركز السياسة الأميركية والسياسة العامة، جامعة كاليفورنيا، لوس أنجلوس (2006-2007).

تشتمل قائمة مؤلفاته على خمسة كتب، هي **الشرق الأوسط الجديد: ما يحتاج الجميع إلى معرفته** (2017)؛ و**ثورات الربيع العربي: ما يحتاج الجميع إلى معرفته** (2012)؛ و**الصراع الإسرائيلي الفلسطيني: مئة عام من الحرب** (2005)؛ و**الشرق الأوسط الحديث: تاريخ** (2004)؛ و**الولاءات المتضاربة: القومية والسياسة الجماهيرية في سورية مع أفول شمس الإمبراطورية** (1998). إضافةً إلى مشاركته في تحرير كتاب **المسلمون العالميون في عصر البخار والطباعة، 1850-1930** (2013).

ولغيلفين العديد من البحوث المنشورة في مجلات علمية محكمة. كما نُشرت له فصول في كتب محررة. وله كتاب مشهور بعنوان **فلسطين، والصهيونية، والصراع العربي الإسرائيلي** (2002).

يقدم غيلفين في هذا الكتاب، الذي يستند إلى أطروحة نال بها درجة الدكتوراه، منظورًا جديدًا ومتميزًا لموضوع القومية في منطقة الشرق الأوسط العربي.

وبخلاف المؤرخين السابقين له، والذين انصب اهتمامهم على أنشطة جماعة صغيرة من النخب وأفكارهم، يعرض غيلفين بالتفصيل للدور الذي اضطلع به غير المنتمين إلى صفوف النخبة في السياسة القومية في مطالع القرن العشرين.

وإذ يعتمد هذا الكتاب على إجراء بحوث مستفيضة في مصادر غير مستغلة من قبل، فإنه يوثّق انبثاق شكل جديد من أشكال التنظيم السياسي ممثلًا باللجان الشعبية، التي نشأت في المدن والقرى في جميع أنحاء بلاد الشام بعدما وضعت الحرب العالمية الأولى أوزارها مباشرة.

وقد عملت هذه اللجان على تمكين نمط جديد من الزعامة القومية، وجعلت السياسة القومية ظاهرة جماهيرية للمرة الأولى، معبرة بذلك عن نظرة للأمة والنزعة القومية ما زالت توجه سياسة المنطقة في يومنا هذا وتغذيها.

ويرصد غيلفين التحولات الاجتماعية والسياسية العميقة التي شهدتها سورية إبان العهد الفيصلي القصير الأمد، الذي كانت سمته الأبرز الانتقال من سياسة الأعيان التي طبعت المرحلة العثمانية المتأخرة بطابعها إلى السياسة الجماهيرية، التي ألقت بظلالها على المشهد السوري برمته طوال المئة سنة المنصرمة.

ويتناول بالعرض والتحليل الولاءات المتضاربة التي كان يدين بها السوريون في سياق عملية التحول العاصف من العثمنة إلى العروبة، وما شهده العهد الفيصلي أيضًا من بروز لنزعة قومية تحدت فيها هوية سورية «إقليمية» هوية عربية.

والواقع إن عمل غيلفين هو أكثر من مجرد سرد لإحدى حلقات تاريخ القومية في الشرق الأوسط العربي؛ إذ يوفر تفحصه للمنشورات، والكتابات على الجدران، والخطب، والشائعات، والمقالات الافتتاحية رؤى جديدة بشأن البناء الرمزي للجماعات القومية.

وأما تحليله للمراسم الاحتفالية، بما في ذلك الاحتفالات العامة، والتظاهرات والمسرحيات، فيمثل مساهمة قيّمة في فهم موضوع انبثاق السياسة الجماهيرية في سورية.

إن من شأن وضع دراسة غيلفين في سياق تاريخي أوسع نطاقًا، أن يظهر بجلاء أنه وضع كتابًا مرجعيًا سيكون محل اهتمام كل من يرغب في فهم القومية في هذه المنطقة وخارجها.

منهج الترجمة

قام منهجي في ترجمة هذا الكتاب على توخي الدقة العلمية واللغوية في النقل، والرجوع إلى المصادر العربية، التي اعتمد المؤلف عليها ونقل عنها، ومحاولة تخريج النصوص التي استشهد بها من مصادرها العربية، على قدر ما تيسر لي.

وقمت بضبط الأسماء، وصححت مباشرة فقط الأسماء التي لم يتأت للمؤلف أن يرسمها على الوجه السليم. وللحفاظ على متن الكتاب، عمدت إلى وضع أي إضافة مني اقتضاها السياق شرحًا أو تصويبًا أو توضيحًا بين معقوفين – هكذا – <>. واستعنت أيضًا بالعديد من المصادر التاريخية، التي لم تكن متاحة للمؤلف حينما كان البحث في هذا الكتاب جاريًا. واعتنيت بالتحقق من التواريخ والأحداث ومقاطعة الروايات التاريخية، وبينت بعض الأوهام التي وقع فيها المؤلف، ونبهت إلى ذلك في الحواشي حيثما اقتضى الأمر ذلك، متوخيًا الإيجاز والاختصار مع ذكر المصادر مذيلة بكلمة (المترجم).

وقد تعمدت عدم إثقال هوامش الكتاب في أصله الإنكليزي التي تتسم بالكثرة والغزارة والثراء بالمعطيات والإحالات المرجعية، فذيلت الترجمة العربية بملحق يتضمن تراجم الأعلام الواردة في المتن بغية التعريف بأصحاب الأدوار في الفترة موضوع البحث، وقد جعلتها مرتبة ترتيبًا أبجديًا حسب اسم الأسرة أولًا ليسهل الرجوع إلى العلم المراد التعرف عليه.

لا يسعني إلا أن أؤكد أن ترجمة هذا الكتاب المرجعي قد استغرقت مني الكثير من الوقت والجهد لكي تأتي في بيان عربي سليم، وحرصت أيضًا على أن يكون منهجي في ترجمته أقرب إلى التحقيق والتوثيق قدر المستطاع، بحيث

تشكل الترجمة العربية رافدًا ومكملًا للكتاب في أصله الإنكليزي على نحو يليق بـ «المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات» والرسالة العلمية التي ينهض بأعبائها.

ختامًا، آمل أن أكون قد وُفقت بما قدمت، وأن يجد القارئ والباحث العربيان في مطالعة هذا الكتاب المتعة والفائدة.

عمرو الملّاح

بوردو، فرنسا

صيف 2020

شكر وتقدير

لم يكن لهذا الكتاب أن يبصر النور لولا دعم الأصدقاء والزملاء وتقديمهم يد العون. ولما كان هذا الكتاب يستند إلى أطروحتي التي نلت بها درجة الدكتوراه، أود بادئ ذي بدء أن أتوجه بالشكر لعضوَي اللجنة المشرفة على مناقشة أطروحتي، ألا وهما زخاري لقمان وفيليب س. خوري. فقد كانت الإرشادات التي قدماها لي بدءًا من مرحلة الأطروحة وحتى التنقيحات النهائية لمخطوطة الكتاب لا تقدر بثمن، وأعرب عن امتناني بوجه خاص لحماستهما ودعمهما المتواصلين. وإضافةً إلى ذلك، أود أن أعرب عن شكري لكل من ديفيد كومينز، وليلى فواز، ور. ستيفن همفريز، وفريد لوسون، وديفيد دبليو ليش، وآن مكانتس، ومايكل موروني، وروجر أوين، وتشيس روبنسون، ويوجين روغان، ومالكولم راسل، ونينا سافران، وليندا شاتكوفسكي شيلشر، وبيتر سلوغليت الذين تفضلوا بقراءة مجمل المخطوطة أو أجزاء منها في أثناء مرحلة صياغتها، وإبداء تعليقاتهم عليها. وقد وفر رونالد ميلور من قسم التاريخ بجامعة كاليفورنيا - لوس أنجلوس، ولين ويثي من مطابع جامعة كاليفورنيا التشجيع والمساندة طوال عملية إعداد هذه المخطوطة، مما عجل في إصدارها.

أجريت الدراسات البحثية من أجل هذا الكتاب في كل من سورية، ومصر، والأردن، وبريطانيا، وفرنسا، والولايات المتحدة، وأود أن أتوجه بالشكر لكل من يسر بحثي في تلك البلدان. وأرغب في أن أعرب عن امتناني، على وجه الخصوص، لأولئك السوريين الذي وافقوا على إجراء مقابلات معهم (وقد

أُدرجت أسماؤهم في قائمة المراجع)، ولكل من نجاة قصاب حسن، وفخري نوري الكيلاني، ومحمد كمال القاسمي، وعمر خادم السروجي الذين كانوا لي عونًا في إنجاز الترتيبات اللازمة لإجراء المقابلات تلك. كما أنني مدين بشدة لسيلفا أوغلانيان بولز في مكتبة الأسد بدمشق، ولأصحاب المكتبة السلفية بالقاهرة والعاملين فيها لما أظهروه من الحفاوة والكفاية، إضافةً إلى عبد الكريم رافق وخيرية قاسمية اللذين أرشداني عبر الأجهزة البيروقراطية السورية.

قدمت لجنة الأطروحات البحثية التابعة لبرنامج فولبرايت – هيز، ومجلس بحوث العلوم الاجتماعية، ومؤسسة شارلوت دبليو. نيوكومب المنح المتعلقة بإجراء البحوث ومتابعة الكتابة. كما أني مدين بالشكر المتأخر لروبرت فولكنر، ودينيس هيل من قسم العلوم السياسية في كلية بوسطن، ووليام غراهام من مركز الدراسات الشرق الأوسطية بجامعة هارفرد، وأعضاء هيئة التدريس والموظفين في أقسام التاريخ بمعهد ماساتشوستس للتكنولوجيا وجامعة كاليفورنيا، لوس أنجلوس، الذين أتاحوا لي بيئة استطعت فيها أن أتعلم من زملائي وأضع أفكاري على المحك.

أود أن أعرب عن شكري في المقام الأول لنجوى القطان، التي تحمّلتني على الرغم من تذمري بشأن التقدم المحرز في هذا المشروع، وعانت من قراءة عدد لا يحصى من المقالات غير المطلوبة التي تتناول النزعة القومية في سورية. وليس من شأن وضع قائمة بإسهاماتها التي لا عد لها ولا حصر في تأليف هذا الكتاب إلا أن ينتقص من قيمة إسهاماتها وحسب.

* * *

لقد أوردت في هذا الكتاب بعض النصوص المنشورة من قبل. وأود، في هذا الصدد، أن أتوجه بالشكر إلى محرري وناشري ثلاثة بحوث منشورة على منحي الإذن بالإفادة من الأعمال التالية، وأن أعيد طباعتها بإذن من الناشر:

- «Demonstrating Communities in Post-Ottoman Syria.» *Journal of Interdisciplinary History*. vol. 25, no. 1 (Summer 1994), pp. 23-44. Copyright © by Massachusetts Institute of Technology Press and the Editors of *The Journal of Interdisciplinary History*.

- «The Social Origins of Popular Nationalism in Syria: Evidence for a New Framework.» *International Journal of Middle East Studies*. vol. 26 (November 1994), pp. 645-662. Copyright © by Cambridge University Press and the Editors of *International Journal of Middle East Studies*.

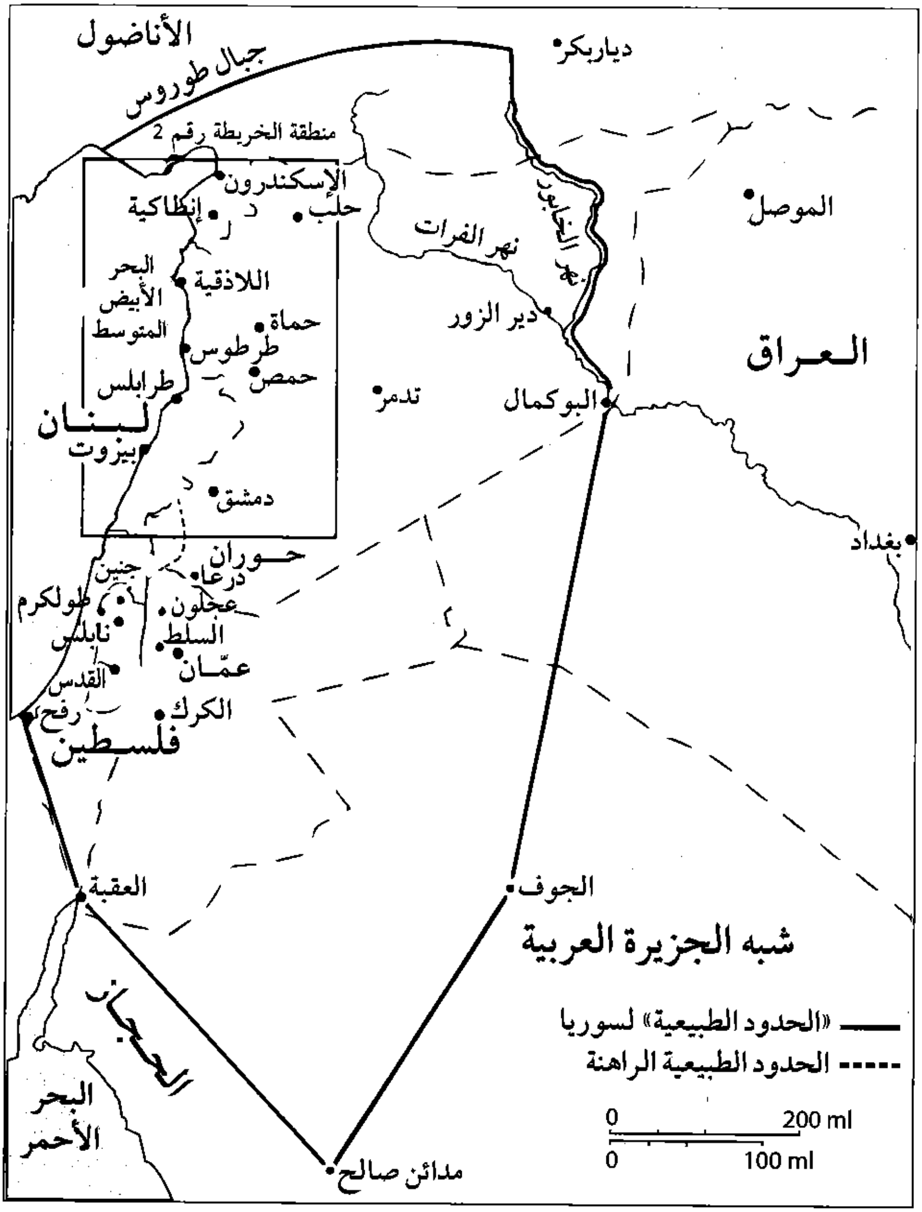
- «The Other Arab Nationalism: Syrian/Arab Populism in Its Historical and International Contexts.» In: *Rethinking Nationalisms in the Arab World*. ed. by James Jankowski and Israel Gershoni. Copyright © 1997 by Columbia University Press.

قائمة الاختصارات

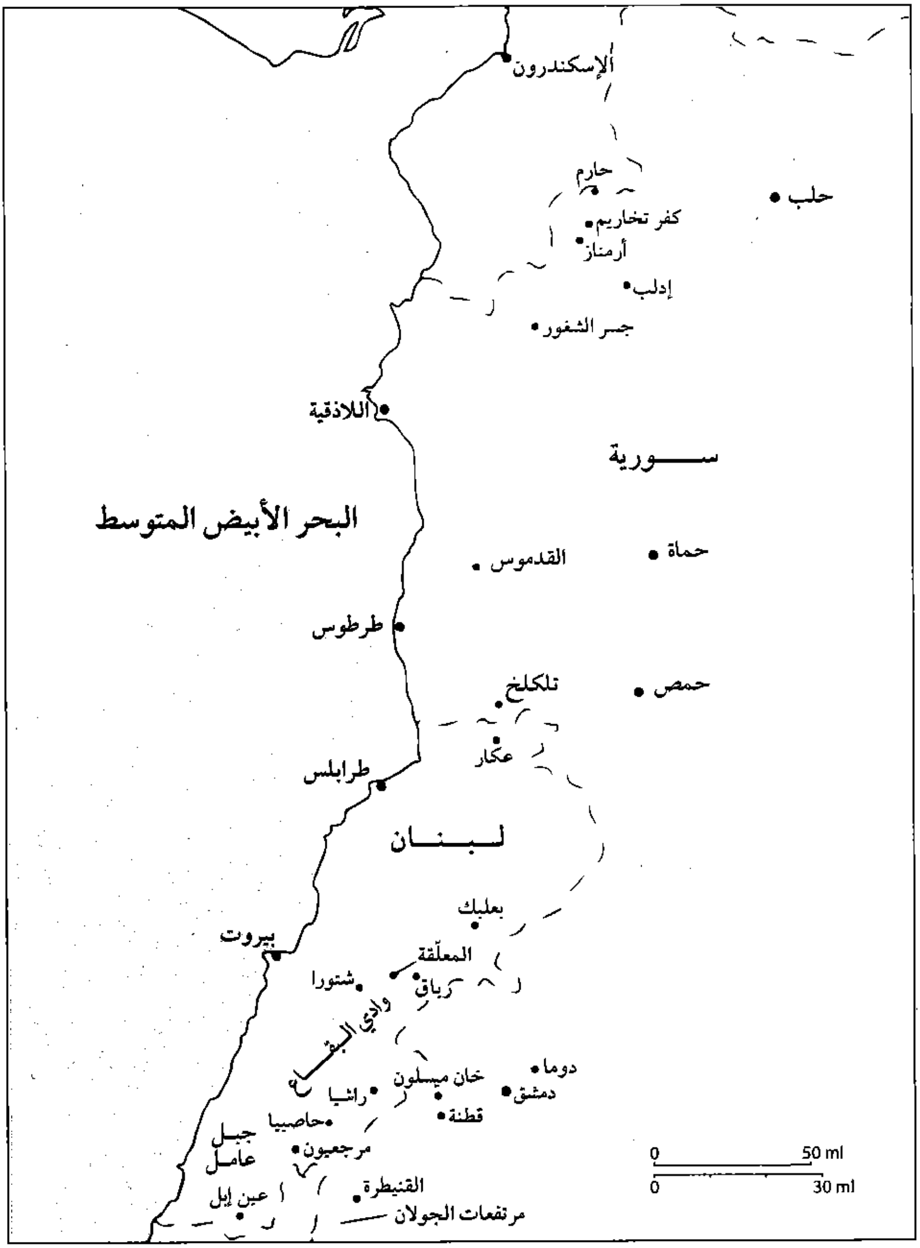
AD	Archives diplomatiques, Nantes, France	الأرشيف الدبلوماسي، نانت، فرنسا
BL	British Library	المكتبة البريطانية
DU SA	Durham University, Sudan Archives	جامعة درم، أرشيف السودان
FO	Foreign Office, London	وزارة الخارجية، لندن
GCC	Général commandant en chef, armée du Levant	القائد العام للقوات المسلحة، جيش المشرق
GHQ	General Headquarters - Egypt	المقر العام – مصر
HC	Haut commissionaire	المفوضية العليا
IO	India Office, London	وزارة الهند، لندن
MAE	Ministère des affaires étrangères, Paris	وزارة الخارجية، باريس
MD	Ministère de la défense, Vincennes, France	وزارة الدفاع، فانسين، فرنسا
SL:LD	Salafiyya Library, Cairo: Lajnat al-Difā‘ file	المكتبة السلفية، القاهرة: ملف لجنة الدفاع
SL:LW	Salafiyya Library, Cairo: Lajna Waṭaniyya file	المكتبة السلفية، القاهرة: ملف اللجنة الوطنية
USNA	U.S. National Archives, Washington, D.C.	الأرشيف الوطني للولايات المتحدة الأميركية في واشنطن العاصمة
WO	War Office, London	وزارة الحربية، لندن

الخريطة (1)

سورية داخل حدودها الطبيعية



الخريطة (2)
سورية الغربية ولبنان



مدخل

على الرغم من أن هذا الكتاب يركز على الأحداث التي وقعت في سورية[1] في الفترة الممتدة من تشرين الأول/ أكتوبر من عام 1918 ولغاية تموز/ يوليو من عام 1920 - التي شهدت قيام حكومة عربية تولت زمام الحكم في دمشق - إلا أنني لم أنتهج في بنائه الأسلوب المعتمد على الوصف السردي، بل لم يكن في نيتي ذلك. فقد جرت بالفعل كتابة السرديات تلك بدرجات متفاوتة من النجاح[2]. والغرض من هذا الكتاب مختلف أشد الاختلاف: إذ إنه يبحث في البنى المتضاربة للأمة والنزعة القومية في سورية مطلع القرن العشرين، ونشأة السياسة الجماهيرية والنزعة القومية الشعبية، وتطورهما المبكر في المنطقة ذاتها. وتتجلى الحاجة إلى مثل هذا البحث في عقد مقارنة بين واقعتين، لا يفصل بينهما سوى بضعة أشهر، جرتا على جانبي المحيط الأطلسي.

(1) سأستخدم مصطلح «سورية» للإشارة إلى عدة مناطق جغرافية مختلفة. وعادة ما سيشير المصطلح إلى الإقليم الخاضع لإدارة أراضي العدو المحتلة - شرق. وتشير «سورية»، في أحيان أخرى، ولا سيما في المناقشات بشأن المفاهيم المعاصرة للانقسامات الجغرافية، إلى «سورية القائمة ضمن حدودها الطبيعية» - ألا وهو الإقليم الذي يضم في الوقت الحاضر كلًا من سورية، ولبنان، والأردن، وإسرائيل، و«الكيان الفلسطيني»، والأراضي الخاضعة للاحتلال الإسرائيلي، وجزءًا صغيرًا من الجمهورية التركية جنوب جبال طوروس، ومحافظة إسكندرونة، وغرب العراق. ويتعين على القارئ أن يكون قادرًا على تحديد التعريف الملائم من السياق.

(2) يُنظر مثلًا: Malcolm Russell, *The First Modern Arab State: Syria under Faysal 1918-1920* (Minneapolis, 1985)؛ خيرية قاسمية، **الحكومة العربية في دمشق بين 1918-1920** (بيروت، 1982)؛ علي سلطان، **تاريخ سورية 1918-1920: حكم فيصل بن الحسين** (دمشق، 1987)؛ Zeine N. Zeine, *The Struggle for Arab Independence: Western Diplomacy and the Rise and Fall of Faisal's Kingdom in Syria* (Delmar, 1960).

وفي 20 تموز/يوليو من عام 1920، أي بعد مرور ستة أيام على توجيه الإنذار الفرنسي الأولي إلى حكومة الأمير فيصل، وقبل أربعة أيام من دخول القوات الفرنسية إلى دمشق إيذانًا ببداية احتلالها الذي استمر ربع قرن من الزمان، اندلع تمرد في العاصمة السورية. ونزل إلى الشوارع، في أرجاء المدينة كافة، التجار البرجوازيون الصغار، وأقوياء <قبضايات> الأحياء، والشبان العاطلون عن العمل، واللاجئون من وادي البقاع، والجنود الذين سُرحوا مؤخرًا من الجيش العربي النظامي، بينما انبرى أعضاء سابقون في المؤتمر السوري العام الذي عُلقت جلساته، وعلماء، ومحرضون سياسيون للتنديد بالحكومة التي انصاعت للمطالب الفرنسية من على المنابر ونواصي الشوارع. ورفع الزعماء الشعبيون السناجق <الرايات>[3]، ووزعوا منشورات تتضمن التحذير من المؤامرات التي تهدد الأمة، ووصفًا للأعمال الوحشية التي يرتكبها الجنود الفرنسيون المتمركزون في غرب البلاد. وسخرت الصحف - التي صدرت على شكل منشور مكون من ورقة ذات قطع كبير مطبوعة على وجه واحد - من العدو، مطلِقة تهديدات وطنية؛ فأعلنت صحيفة **الكنانة** بأحرف كبيرة تمتد على صفحتين: «أخبروا البابا ورجال الدين والرأسماليين والسياسيين الذين يستهدفون اجتياح بلادنا بأن سورية الفتية لن تستسلم أبدًا لفرنسا العجوز»[4]. وعمد سكان حيي الشاغور والميدان - الذين كانوا قبل أسبوعين قد تصدوا لأفراد من الشرطة العسكرية حاولوا تطبيق سياسة التجنيد المحتقرة التي تنتهجها الحكومة العربية وجردوهم من أسلحتهم وأوسعوهم ضربًا - إلى مهاجمة وحدة من القوات الموالية للأمير «الخائن» لاعتقادهم بأنه كان يتعاون مع أعداء الأمة[5].

---

(3) يتكون السنجق من لافتة عريضة تعلق على عارضة خشبية. ويحمل العارضة رجل، بينما يساعده رجلان آخران بإمساكهما الحبال المتصلة بالجزء السفلي لقطعة القماش لضمان أن تكون الأخبار أو الشعارات المطبوعة على اللافتة مقروءة. وعادة ما كانت تعرض السناجق في مناطق تتميز بحركة مرور كثيفة أو قرب الجوامع أو في المقابر. حسن الأمين، **ذكريات**، ج 1: **من الطفولة إلى الصبا** (بيروت، 1973)، ص 27.

(4) MD 4H114/695, «Renseignements,» n.d.; MD 4H114/4/691, Cousse to Gouraud, 13 July 1920; MD 4H114/5/282-283, Cousse to Gouraud, 15 July 1920;

الأمين، **ذكريات**، ج 1، ص 27؛ إحسان الهندي، **معركة ميسلون** (دمشق، 1967)، ص 59-60.

(5) MD 4H114/4/662, Cousse to Gouraud, 8 July 1920; FO 371/5037/E8509/74, Mackereth =

حينما حاولت الحكومة العربية استعادة سيطرتها على الشوارع، اندلع القتال بين وحدات من الجيش النظامي (مثل القوات البدوية واليمنية التي حاربت إلى جانب الأمير إبان الثورة العربية) والسكان. وهاجمت مجموعة من العصاة القصر الملكي (الذي نصب الأمير على سطحه رشاشات تحسبًا لحدوث حركة عصيان) وهم يرددون شعارات مناهضة لفيصل. واقتحمت مجموعة أخرى قلعة دمشق، التي كانت تخزن فيها الأسلحة والذخائر وحيث افترض المتمردون أن الحكومة كانت تحتجز الزعيم الشعبي كامل القصاب جنبًا إلى جنب مع سواه من السجناء السياسيين، ووفقًا للتقديرات البريطانية بلغ عدد الدمشقيين الذين لقوا مصرعهم في هذه الاشتباكات مئة شخص، بينما قدر فيصل ذاته لاحقًا عدد القتلى بمئة وعشرين شخصًا والجرحى بمئتي شخص[6].

اندلعت في اليوم التالي حركة عصيان مماثلة في حلب أطلقت شرارتها الأولى لجنة الدفاع الوطني المحلية التي استمدت إلهامها من الأحداث الجارية في دمشق. فقد عمد كل من الوالي ومدير الشرطة والزعماء المحليون إلى تعبئة أربعة آلاف رجل من حي باب النيرب الذي تسكنه أغلبية من الطبقة الدنيا – وتشير التقديرات إلى أنهم كانوا يمثلون ثلث سكان ذلك الحي – وهاجموا قلعة حلب ونهبوا كل ما حوته من أسلحة وتوزعوها في ما بينهم. وتسبب هجوم شنته جماعة أخرى من المتمردين في صبيحة اليوم التالي على مستودع للأسلحة في حدوث انفجار أفادت التقارير بأنه أسفر عن وقوع عدد من الضحايا يتراوح بين خمسمئة وستمئة شخص[7].

(Beirut) to FO, 16 July 1920; MD 4H114/5, Cousse to Gouraud, 20 July 1920; FO J71/5037/E8880/80, = Mackereth to FO, 23 July 1920; MD 4H60/1, «Bulletin quotidien 1270,» 23 July 1920;

استنادًا لما أورده غالب العياشي فقد نادت الحشود بسقوط المارقين، والمتآمرين. غالب العياشي، **الإيضاحات السياسية وأسرار الانتداب الفرنسي على سوريا** (بيروت، 1955) ص 105–106.

(6) MD 4H114/5, Cousse to Gouraud, 20 July 1920; MD 4H60/1, «Bulletin quotidien 1266,» 20 July 1920; MD 4H60/1, «Bulletin quotidien 1270,» 23 July 1920; IOL/PS/10/802/P5841, GHQ to WO, 24 July 1920;

محمود الجركس، **الدليل المصور للبلاد العربية** (دمشق، 1930)، ج 1، ص 119–121؛ أسعد داغر، **مذكراتي على هامش القضية العربية** (القاهرة، 1956)، ص 122، 139–142؛ محمد علي العجلوني، **ذكريات عن الثورة العربية الكبرى** (عمان، 1956)، ص 98؛ الهندي، **معركة ميسلون**، ص 59، 61–62.

(7) Jules Kersante, «Syrie: L'occupation d'Alep,» *Petites relations d'orient*, vol. 6 (Novembre = 1920), pp. 172-173;

تجول الزعماء الشعبيون في أحياء دمشق في ظهيرة يوم 21 تموز/ يوليو، مشجعين السكان على التجمع عند محطة البرامكة، ريثما يُصار إلى نقلهم غربًا إلى خان ميسلون، حيث كان العميد يوسف العظمة يعد العدة للتصدي للغزاة الفرنسيين. وفي البرامكة، أمَّ الشيخ كمال الخطيب المصلين في صلاة العشاء، وأقام صلاة الغائب على أرواح أولئك الذين يُتوقع أن يسقطوا قتلى في المعركة القادمة. ولم يحمل السلاح سوى سبعمئة شخص من أصل ألف وسبعمئة متطوع من أحد أحياء دمشق. وغادر الآن الكثير من المتطوعين الذين قاوموا في وقت سابق التجنيد في جيش الحكومة العربية متوجهين إلى الجبهة، وهم يتوقعون الموت البطولي في «الجهاد الوطني»[8].

بعد مرور خمسة أشهر فحسب على وقوع الأحداث تلك، ألقى ستيفن ب. داغان من معهد التعليم الدولي، كلمة أمام الجمعية التاريخية الأميركية أوجز فيها تطور النزعة القومية في سورية منذ أواخر القرن التاسع عشر وحتى الأشهر الأولى من الاحتلال الفرنسي[9]. وتضمنت محاضرة داغان، ما سماه هايدن وايت

= داغر، مذكراتي، ص 139؛ MD 4H114/9/70SP, Cousse to GCC, 21 July 1920; 10 LIPS/10/802.P5841, GHQ to WO, 24 July 1920; FO 371/5039/E 10316/38, J. B. Jackson (U.S. Consul, Aleppo), 30 July 1920; MAE L:SL/vol. 33/107-305, Gouraud, «Note au sujet des rapports entre le haut commissionaire de la République Française en Syrie Cilicie et l'émir Fayçal,» 22 September 1920;

العاصمة 13 تشرين الثاني/ نوفمبر 1919، ص 6؛ سليمان موسى، **المراسلات التاريخية**، ج 3: 1920–1923 (عمان، 1978)، ص 144. وللاطلاع على تقديرات أعلى للضحايا في دمشق، يُنظر: FO 371/5040/E11756, Gertrude Bell, 6 August 1920; John de Vere Loder, *The Truth about Mesopotamia, Palestine, and Syria* (London, 1923), p. 78;

كما اندلعت حركات التمرد في حمص وحماه. وللاطلاع على تفاصيل أوفى عن الأولى، يُنظر: P. G. Angelil, «L'occupation d'Homs: Angoisses et délivrance,» *Petites relations d'orient*, vol. 6 (November 1920).

(8) مقابلات أُجريت مع محمد رضا الخطيب، سليل كمال الخطيب (6 كانون الثاني/ يناير 1990)؛ وكمال دغمش (2 تشرين الثاني/ نوفمبر 1989)؛ وأبو رباح الجزائري (15 تشرين الثاني/ نوفمبر 1989)، وهم من قدامى المحاربين في معركة ميسلون؛ الهندي، **معركة ميسلون**، ص 113؛ إلياس فاضل ورامز محيثاوي، **الكتاب الذهبي للمجاهدين السوريين** (دمشق، 1972)؛ جان ألكسان، «زينب في ميسلون»، **الجندي** (19 نيسان/ أبريل 1976)، ص 32–33. ولا يتفق أي من المؤرخين والمراقبين المعاصرين على عدد المتطوعين الذين قاتلوا في معركة ميسلون. ويقدر الأمير فيصل، على سبيل المثال، عددهم بألفي شخص. يُنظر: «The Case of Emir Feisal,» *Current History*, vol. 13, no. 2 (February 1921).

(9) نُشرت كلمة داغان في وقت لاحق تحت عنوان: Stephen P. Duggan, «Syria and Its Tangled Problems,» *Current History*, vol. 13, no. 2 (February 1920).

استنادًا إلى العمل الذي أنجزه نورثروب فراي، «بنية العرض التفصيلي المحكم ما قبل الشامل» للمأساة[10]. وهكذا، بدأ عرضه بتتبع النشأة الميمونة لـ «القومية العربية» والبوادر الخيرة المبكرة (النهضة الأدبية العربية في القرن التاسع عشر، والمناداة بـ «مبادئ الحرية والمساواة والإخاء في ظل حكومة قومية وتمثيلية»)، وواصل سرده متناولًا الآمال الزائفة (المؤتمر العربي لعام 1913، والثورة العربية، والتصريح الأنكلو - فرنسي في تشرين الثاني/ نوفمبر من عام 1918، ولجنة كينغ - كرين)، والمحاكمات (القمع الذي مارسته جمعية الاتحاد والترقي، والتسييس الدفاعي للحركة بوساطة الجمعيات السرية، والسفربرلك[11]، وآلام الشهداء السوريين)، واختتم كلمته بسرد الخيانة والكارثة في نهاية المطاف (الاتفاقيات المبرمة زمن الحرب، والصهيونية، ووعد بلفور، والتخلي البريطاني، والاحتلال الفرنسي)[12]. وقد أغفل داغان الإشارة إلى أعمال التمرد التي شهدها شهر تموز/ يوليو: إذ إن بنية أي عرض تفصيلي محكم تقيد وتحدد طائفة من الخيارات المتاحة أمام المؤرخ - تتراوح من المسائل التي ينبغي تناولها وصولًا إلى اختيار المعطيات وتنظيمها - لم يكن بوسع داغان إلا أن يعتبر أحداث تموز/ يوليو، إن كانت محور اهتمامه أصلًا، تقع خارج نطاق بحثه أو غريبة في بابها. وأما العصاة الذين كانوا يلقبون أنفسهم بـ «الثوار»، فقد أصبحوا بعدئذ، «متطرفين» أو «رجال عصابات» لدى المؤرخ النادر الذي أدرجهم بالفعل في روايته للتاريخ.

يجدر بنا ألا نتجاهل الكلمة التي ألقاها داغان نظرًا إلى جدتها؛ بل على النقيض من ذلك، فهي جديرة بالملاحظة لأنها تمثل أحد الأمثلة الأولى

(10) يُنظر مناقشة استخدام «بنية العرض التفصيلي المحكم ما قبل الشامل» في كتابة التاريخ في: Hayden White, «Interpretation in History,» *New Literary History*, vol. 4, no. 2, *On Interpretation: II* (Winter 1973), pp. 51-80.

(11) تشير كلمة «سفربرلك» (وتعني حرفيًا السفر برًا) إلى المعاناة التي تعرض لها السوريون إبان الحرب العالمية الأولى، بما في ذلك المجاعة والترحيل. يُنظر: L. Schatkowski Schilcher, «The Famine of 1915-1918 in Greater Syria,» in: Albert Hourani, *Problems of the Modern Middle East in Historical Perspective: Essays in Honour of Albert Hourani*, John Spagnolo (ed.) (Reading, England, 1992), pp. 229-258.

(12) من أجل إبراز خطة داغان المفاهيمية جعل محررو مجلة **التاريخ المعاصر** (*Current History*) عنوان مقالته: «Story of the Allies' Promises, Mustapha Kemal's Ambitions, Emir Feisal's Disappointment, the Franco-British Rivalry and the Zionists in Palestine-French Difficulties in Syria».

للاستراتيجيا الرئيسة المستخدمة في العرض التاريخي لقصة النزعة القومية في الشرق الأوسط العربي منذ عصر النهضة (عنينا النهضة الأدبية العربية في أواخر القرن التاسع عشر) وحتى حقبة الانتداب. وإذا كان زملاء داغان - ألا وهم مؤرخو «القضية العربية» والمنافحون عنها أمثال ت. إ. لورنس، وجون دي فيري لودير، وهانز كون، وريتشارد كوك، وإليزابيث ب. ماك كالوم - يدرجون رواياتهم ضمن البنية السردية ذاتها، بيد أنه بعد ما يزيد على سبعين عامًا ما زال العديد من مؤرخي القومية المعاصرين في المنطقة يواصلون اتباع هذا النهج أيضًا[13]. ونتيجة لذلك، تشاطرت عدة أجيال من المؤرخين مختلف الافتراضات والاستدلالات المستمدة من تطبيق البنية تلك - بما في ذلك النزوع إلى معالجة تاريخ القومية بوصفه تاريخًا فكريًا (مثاليًا)، وإيلاء الاهتمام بجماعة منتقاة من النخب المحلية باعتبارهم المؤسسين الوحيدين للنزعة القومية وحاملي لوائها وناشريها.

لقد أدت الافتراضات المثالية والنخبوية على السواء إلى الحد من البحوث التاريخية الاستقصائية. وفي معرض إيثار «قومية عربية» متجذرة جوهريًا على سواها من بنى النزعة القومية، أخذ المؤرخون المثاليون ادعاءات مناصريها بظاهرها، مما جعلهم، في الواقع، ميالين إلى القبول بوجود نزعة قومية متجذرة في هوية عربية ثابتة ومتفردة - وهو ما أطلق عليه عالم الاجتماع أنتوني د. سميث تسمية «الانتماء الإثني العربي»[14]. ووفقًا لما ذكره زين نور الدين زين على سبيل المثال لا الحصر:

> إن معنى القومية تبدل مرارًا وتكرارًا في غضون تاريخ نشوء القوميات عند مختلف الشعوب. لكننا إذا أخذنا بعين الاعتبار العناصر الأساسية التي تدخل

---

(13) T. E. Lawrence, «Emir Feisal II: The Sykes-Picot Treaty, Impatient Arabs,» *Times* (London), 11/8/1920, p. 9; T. E. Lawrence, *Evolution of a Revolt*, Stanley & Rodelle Weintraub (eds.) (London, 1968); Loder, *The Truth About Mesopotamia;* Hans Kohn, *A History of Nationalism in the East* (London, 1929); Richard Coke, *The Arab's Place in the Sun* (London, 1929); Elizabeth P. MacCallum, «The Arab National Movement,» *Muslim World*, vol. 25 (October 1935);

يُقدم إدوارد سعيد وجهة نظر مماثلة، ولكنه يستخلص استنتاجات مختلفة، يُنظر: Edward W. Said, *Culture and Imperialism* (New York, 1994), p. 252.

(14) Anthony D. Smith, *National Identity* (Reno, 1991), pp. 19-42.

في تكوين القومية، من عرقية وحضارية وروحية، نجد أن القومية العربية، من هذه الناحية، هي من أقدم القوميات في العالم. إن القومية العربية ولدت ونشأت يوم مولد الإسلام... إن يقظة العرب المثقفين الواعين لم تكن يقظة «العروبة» فيهم، فإن عروبة العرب لم تقع يومًا في سبات، إذ كانوا يشعرون دومًا أنهم عرب، وإنما كانت اليقظة، كما أسلفنا، توقًا لنيل الاستقلال السياسي[15].

لما كان التعافي التام للانتماء الإثني العربي يتحين التطور التأملي والظروف السياسية الملائمة وحسب، فقد أهدر مؤرخو القومية في المنطقة قدرًا لا يستهان به من الزمن في مسعاهم الرامي إلى الكشف عن الإسهامات التي قدمها مختلف المفكرين في «إعادة اكتشاف» تلك الهوية وإيضاحها، والسلسلة التي انتقلت بوساطتها «النزعة القومية العربية الأولية» والقومية العربية من جيل إلى آخر، وتوقيت نشر القومية الأنموذجية بين ظهراني سكان الشرق الأوسط العربي.

وفر الانشغال بهذه المجموعة الضيقة من القضايا التركيز السردي على عدد لا يحصى من الشروحات بشأن «صعود القومية العربية»، بما في ذلك كتاب **يقظة العرب** لجورج أنطونيوس، الذي ربما يعد أكثر الكتب التي تتناول نشأة الحركة تلك وتاريخها المبكر شهرةً وأبعدها تأثيرًا[16]. فقد أورد أنطونيوس في عمله الكثير من التكهنات نفسها، واستخدم البنية السردية ذاتها على نحو ما فعل ستيفن ب. داغان قبله بقرابة عقدين من الزمان. وعلى الرغم من أنه ألمح بإيجاز إلى «البدايات الخاطئة» التي سبقت المسار التطوري الأصيل الذي سلكته «الحركة القومية العربية» - يرى أنطونيوس أن الحركة الوهابية في شبه الجزيرة العربية والدعاية التي نشرها محمد علي وولده إبراهيم إبان غزوهما لسورية تحملان في طياتهما ما يمكن تسميته بـ«الإرهاصات الأولى للنزعة القومية الأولية» - إلا أن

---

(15) Zeine N. Zeine, *The Emergence of Arab Nationalism with a Background Study of Arab-Turkish Relations in the Near East* (Delmar, 1958), pp. 129-130, 133.

(16) George Antonius, *The Arab Awakening: The Story of the Arab National Movement* (London, 1938);

يُنظر أيضًا: Albert Hourani, «The Arab Awakening Forty Years After,» in: *Emergence of the Modern Middle East* (Berkeley, 1981);

للاطلاع على وصف مفيد للوسط الذي نشأ فيه أنطونيوس ودوافعه، يُنظر: Edward Said, «Third World Intellectuals and Metropolitan Culture,» *Raritan*, vol. 9 (Winter 1990).

قصته تبدأ حقًا بالأوساط المسيحية العربية التي كان انجذابها نحو القومية نتيجة طبيعية للصلات التي تربطها بالغرب والأفكار الغربية؛ وبالتالي، فقد «بدأت قصة الحركة القومية للعرب في بلاد الشام عام 1847 بإنشاء جمعية أدبية قليلة الأعضاء في بيروت، في ظل رعاية أميركية»[17]. ووفقًا لما أورده أنطونيوس، فإن العقود التي تلت التبلور الأولي للنزعة القومية العربية الأولية والقومية العربية وصياغتهما، شهدت اجتيازهما الحدود الطائفية وشروعهما في التغلغل داخل الجماعة الإسلامية الأكبر حجمًا.

على الرغم من أن المؤرخين الذين وضعوا أعمالهم في أعقاب صدور كتاب **اليقظة العربية** قد سلموا بفرضيات أنطونيوس المنهجية عمومًا، إلا أنهم واصلوا اهتمامهم على نحو أكثر من اللازم بتفاصيل سرده. وعلى النقيض من أنطونيوس، طرح كل من هشام شرابي وسي. إرنست دون، مثلًا، جذورًا ومسارًا تطوريًا للقومية العربية مختلفين أشد الاختلاف، مبينين أن موضع خلافهما وإياه (على حد تعبير دون) يتمثل في: «أنه ثمة دليل مقنع على أن الأيديولوجيا السائدة لدى القوميين العرب قد نشأت في العشرينيات من القرن العشرين، على أبعد تقدير، عن جذور التحديث الإسلامي»[18]. بيد أنه ما زال هناك مؤرخون آخرون، مثل بسام الطيبي وسيلفيا حاييم، جمعوا بين المسارات التي حددها أنطونيوس وشرابي/ دون، وتتبعوا، بالتالي، سلسلة انتقال تولف بين العلمانية المسيحية والتحديث الإسلامي[19]. وأيًا كان المصدر والطريق الذي اختراه المؤرخون، فإنهم عادة ما يتجاهلون أو يتغاضون عن أوجه الاختلاف الأساسية التي أدت إلى انقسام أنصار القضية العربية - والأيديولوجيات التي ينافحون عنها - على أنفسهم. ونتيجة لذلك، حققت القومية في الشرق الأوسط العربي في أعمالهم تجانسًا استعاديًا متماسكًا، وأوجدت ترابطًا لم يتحقق في الواقع على الإطلاق[20].

(17) Antonius, *The Arab Awakening*, p. 13.

(18) C. Ernest Dawn, «The Origins of Arab Nationalism,» in: Rashid Khalidi et al. (eds.), *The Origins of Arab Nationalism* (New York, 1991); Hisham Sharabi, *Arab Intellectuals and the West: The Formative Years 1875-1914* (Baltimore, 1972), pp. 58-60, 64-65.

(19) Bassam Tibi, *Arab Nationalism: A Critical Enquiry* (New York, 1971), pp. 58-68; Sylvia Haim, *Arab Nationalism: An Anthology* (Berkeley, 1962), pp. ix-x, 25-27.

(20) يندرج تاريخ القوميات في الشرق الأوسط العربي منذ تأسيس الجمعيات القومية المبكرة =

ومما عزز الاهتمام الذي أولاه المؤرخون لأنشطة نخبة صغيرة اضطلعت بدور بارز في توليف الأيديولوجيا القومية ونشرها، على مدى العقدين الماضيين، ذلك العمل الذي أنجزه المؤرخون أمثال دون، وفيليب س. خوري، ورشيد الخالدي، الذين حللوا الشرائح الاجتماعية التي انبثق عنها العديد من أوائل دعاة القضية العربية[21]. ووفقًا لما أورده دون وخوري، فإن أشد مناصري «العروبة» (التي مهدت لظهور «القومية العربية») في سورية خرجوا من شريحة ضيقة من الأعيان البيروقراطيين – الملاك المدينيين الذين «أخفقوا في بلوغ قدر من السلطة والنفوذ يتناسبان وتوقعاتهم»[22]. وأعربت هذه النخب عن استيائها عبر إعادة

= حتى عام 1920 المكون من ثلاثة مجلدات والذي ألفه أليعازر تاوبر ضمن الجهود التي بُذلت مؤخرًا والرامية إلى إعادة النظر في عزو التجانس هذا. وعوضًا عن إيثار القومية «الغربية»، يحدد تاوبر أربعة مسارات قومية متنافسة: ألا وهي «العروبة»، و«القومية السورية»، و«القومية اللبنانية»، و«القومية العراقية». وعلى الرغم من أن كتب تاوبر تعد بمثابة خطوة في الاتجاه الصحيح ومصدرًا غنيًا بالتفاصيل، إلا أنها لا تزال تحافظ على التحيز النخبوي الذي اتسمت به الكتب السابقة لها. علاوة على ذلك، فإن تحليله لا يعترف بالطابع الشرطي للهوية. وإن استعاضته عن مسار قومي واحد بأربعة مسارات أساسية يذكرنا بالمحاولات التي بذلها علماء الفلك السابقون لكوبرنيكوس من أجل إنقاذ الخريطة البطلمية للكون عبر اقتراح أفلاك تدوير إضافية لشرح السلوك الكوكبي «غير المنتظم». يُنظر: Eliezer Tauber, *The Emergence of the Arab Movements* (London, 1993); Eliezer Tauber, *The Arab Movements in World War I* (London, 1993); Eliezer Tauber, *The Formation of Modern Syria and Iraq* (London, 1995).

(21) يُنظر على وجه الخصوص: C. Ernest Dawn, *From Ottomanism to Arabism: Essays on the Origins of Arab Nationalism* (Urbana, 1973); Philip S. Khoury, *Urban Notables and Arab Nationalism: The Politics of Damascus 1860-1920* (Princeton, 1983).

(22) Khoury, *Urban Notables*, pp. 67-68; عد مصطلح «العروبة»، الذي صاغه دون، مفهومًا فضفاضًا نوعًا ما. وكان دون قد استخدم هذا المصطلح للمرة الأولى مقابل نظرية «العثمنة» التي يرى بأنها كانت بمثابة ردة فعل عليها. وفي حين أن كلتا الأيديولوجيتين قد ولدتا من الجذور المشتركة للحداثة الإسلامية، يتتبع دون الأصل المتميز للعروبة ابتداء برفاعة رافع الطهطاوي ووصولًا إلى محمد عبده ورشيد رضا، معرفًا «العروبة» على أنها عقيدة ترى بأن العرب «كانوا شعبًا مميزًا يملكون فضائل وحقوقًا فريدة من نوعها». يُنظر: Dawn, *From Ottomanism to Arabism*, pp. 122-123, 133, 136-140, 142-144, 147-148; أضاف رشيد الخالدي أن العروبة كانت «نزعة قومية قائمة على أساس النزعة القومية الأولية لا النزعة القومية المكتملة» وأن «العثمنة» و«العروبة» لا تتعارضان، ولكن بدلًا من ذلك كانا «أنموذجين مثاليين» تفصل بينهما حدود سائلة. يُنظر: Rashid Khalidi, «The Origins of Arab Nationalism: Introduction,» p. ix, and Rashid Khalidi, «Ottomanism and Arabism in Syria Before 1914: A Reassessment,» pp. 51, 61-63, in: Khalidi et al. (eds.), *The Origins*.

تفسيرها لعقيدة «العثمنة» (التي مؤداها دمج الهويات المحلية والدينية والإثنية كافة داخل الإمبراطورية في هوية عثمانية مميزة)، ورفض السياسات المركزية التي انتهجتها جمعية الاتحاد والترقي، ودعم السياسات التي وعدت بتوفير ضوابط إدارية أكثر مرونة من شأنها زيادة الحكم الذاتي المحلي.

على النقيض من دون وخوري، دأب الخالدي على الدفاع عن الدور الذي اضطلعت به حلقة من المهنيين، ولا سيما الصحافيين، في تطوير العروبة وتعزيزها[23]. وكانت هذه الحلقة تضم «الطبقات الوسطى الجديدة» أو «الشرائح الوسطى» أو ربما الأقل مدعاة للإعجاب، «الرجال المهمشون» الذين كثيرًا ما نسب مؤرخو القومية الغربيون إليهم الفضل في تحديد الأهداف القومية، وتأجيج الشعور القومي، وتنظيم الحركات القومية في جميع أنحاء العالم الاستعماري القديم. وكما يبين الخالدي وسواه، فإن أولئك الذين بالإمكان إدراجهم في هذه الحلقة لم يكونوا من النخبة، التي يُقصد بها أولئك الذين كانوا يشغلون مناصب ذات أهمية اقتصادية أو اجتماعية أو سياسية. والواقع إنه نظرًا إلى تحدر هؤلاء المهنيين في معظم الأحيان من بيئات اجتماعية متواضعة، فقد عزا الباحثون في القومية في كثير من الأحيان أنشطتهم القومية، شأنهم شأن أنشطة البيروقراطيين - الملّاك الذين عكف على دراستهم خوري، إلى الاستياء الناشئ عن إقصائهم عن المناصب المؤثرة[24]. وأيًا كان دافعهم، فإن بيئتهم الاجتماعية المتواضعة نسبيًا تُبرز بوضوح أن امتياز الوصول إلى التعليم ذي النمط الغربي، والنظرة المميزة إلى العالم، والعصامية - هي عوامل محدِّدة لا تتوافق بالضرورة مع حق المولد - الذي ميز أولئك الذين قد تكون أسماؤهم مدرجة في فئة «النخب القومية».

على الرغم من أن بعض النتائج التي توصل إليها المؤرخون المثاليون، حينما طبقت بحذر، قد أسهمت في فهم التيارات الفكرية المنتقاة الموجودة في العالم

(23) يُنظر: Rashid Khalidi, «'Abd al-Ghani al-'Uraisi and *Al-Mufid:* The Press and Arab Nationalism before 1914,» in: Marwan Buheiry (ed.), *Intellectual Life in the Arab East, 1890-193* (Beirut, 1981); Rashid Khalidi, «Society and Ideology in Late Ottoman Syria,» in: Hourani, *Problems of the Modern Middle East,* particularly p. 123.

(24) يُنظر: Elie Kedourie, *Nationalism in Asia and Africa* (London, 1971), pp. 80-92.

العربي منذ أواخر القرن التاسع عشر ومطالع القرن العشرين، إلا أن المحاولة الساعية إلى حصر القومية في المنطقة ضمن نطاق النخب ذات النزعة القومية وحسب إنما تستند إلى تصور خاطئ. وعلى الرغم من أنه لا يمكن إغفال الدور الذي اضطلعت به هذه النخب في السياسة القومية، إلا أنها كانت بصرف النظر عن القوى الهائلة التي تعزى إلى «الكاريزما» وفعالية الحركية العمودية، بعيدة كل البعد عن أن تكون شاملة. ولما كانت قدرة هذه النخب القومية على تحديد المجال السياسي والهيمنة عليه مقيدة في نهاية المطاف بقدرة أفكارها على التعبير عن تطلعات عناصر أخرى من السكان، فإن التواريخ التي تضع السياسة القومية ضمن نطاق هذه النخب وحسب تمنى بالإخفاق، مما مرده إلى أنها لحظة واحدة فحسب من الجدلية القومية. وتغفل اللحظة الأخرى، ألا وهي مجال السياسة الشعبية، التي لا يمكن إرجاع خصائصها المتعددة بصورة كاملة إلى أهداف النخبة ومقاصدها. وإن إعادة الاندماج في الجدلية القومية للحركات السياسية التي اشتملت على هذه اللحظة، مثل تلك التي يمثلها متمردو تموز/ يوليو، ومن سبقهم، ومن أتى بعدهم، إضافةً إلى عرض للإسهامات التي قدمتها هذه الحركات في توليفة قومية لاحقة، تشكل موضوع هذا الكتاب.

ينقسم هذا الكتاب إلى ثلاثة أقسام. وأناقش في القسم الأول، كيف تغيرت طبيعة التنظيم السياسي في سورية قبل الحرب العالمية الأولى وإبانها وبعدها. وغداة هذه التغييرات، غالبًا ما حلت المنظمات السياسية المعقدة والشاملة محل أنماط التنظيم التقليدية والضيقة أو همشتها أو أعادت صياغة سياقها، ميسرة بذلك التعبئة البرنامجية لأعداد كبيرة من المكونات. ولم تتسبب هذه المنظمات في توسيع نطاق المشاركة السياسية فحسب، بل وأنهت احتكار الفئات المهيمنة سابقًا من النخب للسلطة، وأعادت تعريف الصلات التي تربط اللانخبة بزعمائهم وسيّستها. ونتيجة لذلك، لم تعد السياسة الجماهيرية ممكنة في سورية إبان الفترة التي أعقبت الحرب العالمية الأولى مباشرة فحسب، وإنما باتت أمرًا محتومًا.

لما كانت المنظمات الشعبية الجديدة شاملة وعقائدية، ودمجت أتباعها عبر مجموعة متنوعة من روابط الولاء المألوفة والأصيلة، فقد عملت على تبين

وتكثيف وتحقيق وصقل المعاني الممكنة التي بمقدورنا استخلاصها من مجموعة متماسكة من الرموز التي غالبًا ما كانت مميزة. وبالتالي لم يكن أولئك المرتبطون بالجماعات الشعبية من «الغوغاء» غير محددي المعالم، وإنما كانوا أعضاء في جماعة خطابية جرى تشكيلها بصورة سرية - على الرغم من تباينهم تباينًا شديدًا عن الجماعة الخطابية المكونة من أعضاء الحكومة العربية ومؤيديها - ممن ينبغي اعتبارهم أيضًا جزءًا من التيار القومي. وفي القسم الثاني أعقد مقارنة بين اثنتين من الجماعات الخطابية القومية الرئيسة نشأتا في سورية إبان العهد الفيصلي. وأقارن بالاستعانة بالمنشورات، والكتابات على الجدران، والمقالات الافتتاحية المنشورة في الصحف، والخطب، والإشاعات وغيرها من النصوص، بين أهم الرموز («الرموز الرئيسة») والشعارات والمجالات التي توجد فيها تلك الرموز والشعارات من أجل تتبع مراحل تطور هاتين الجماعتين الخطابيتين المتنافستين.

يتضمن القسم الثالث نقاشًا لأنشطة مثل التظاهرات، والاحتفالات العامة، والمسرح المنفذة في الفضاء العام/ الرمزي الذي يجمع الموضوعات التي جرى تطويرها على نحو منفصل في القسمين الأولين. ولما كانت الاحتفالات تتوازن بنسب مختلفة مع العناصر الاحتفالية والتعليمية، ونظرًا إلى أنها لا تحتوي على رموز فحسب وإنما تعد بمثابة رموز أيضًا، فإنني أستخدم تحليل الاحتفالية من أجل إضافة بُعد جديد لفهم فاعلية منظومات الرموز المتكاملة المتنافسة التي يروج لها الخصوم السياسيون لتوجيه قاعدتهم السياسية أو لحشد الدعم السياسي. علاوة على ذلك، سأوجز عبر تحليل الاحتفالات العامة، السمات الفريدة من نوعها التي مكنت التشكيلات السياسية الجديدة من اجتذاب جمهور من الأتباع والسيرورة التي ساهمت بوساطتها الزمر السياسية المتنافسة - سواء أكان عن قصد أم عن غير قصد - في إنشاء جمهور سياسي جديد.

قبل إجراء هذه التحليلات الخاصة، من الضروري أن نتناول مهمتين أوليتين. فبما أن التواريخ السابقة لبداية نشأة النزعة القومية وتطورها المبكر في الشرق الأوسط العربي، على النحو الذي جرت مناقشته أعلاه، كانت مثقلة أكثر من اللازم بالافتراضات المثالية والراسخة والنخبوية، فلم تقدم أي شيء سوى نظرة

خاطفة ضيقة ومشوهة على ما كانت تسعى إلى دراسته، وتتمثل المهمة الأولى في صوغ أنموذج فكري (براديغم) بديل يتجنب هذه المزالق. وأما المهمة الثانية فهي أشد وضوحًا إلى حد ما وتتمثل في عرض موجز لأهم الأحداث السياسية والدبلوماسية والاجتماعية والاقتصادية التي وقعت في سورية إبان الحرب العالمية الأولى، بعدما وضعت أوزارها مباشرة، وهي الأحداث التي شكلت سياق الظواهر التي جرى تحليلها في الفصول اللاحقة.

* * *

شهد العقدان الماضيان نهضة حقيقية في حقل الدراسات القومية. ونتيجة للبدء باستخدام استراتيجيات منهجية جديدة (تتراوح بين النظم العالمية والمناهج الماركسية الجديدة وصولًا إلى نقد ما بعد الحداثة وما بعد الاستعمار) وانتشار الدراسات المتعددة الاختصاصات والمقارنة، لم توضع الافتراضات التي قُبلت سابقًا بوصفها حقائق مؤكدة موضع الشك فحسب، بل وخضعت التصنيفات الأساسية، بما في ذلك «الأمة» و«القومية» و«الهوية القومية» إلى فحص دقيق متجدد و/ أو أدرجت ضمن أطر تحليلية غير تقليدية حتى الآن. وثمة أربعة جوانب للنقاش الراهن بشأن القومية والهُوية القومية الوثيقة الصلة على وجه الخصوص بالنقاش المقدم في هذا الكتاب.

أولًا، تعامل الباحثون الدارسون للقومية، طوال العشرين عامًا المنصرمة، مع موضوع بحثهم بقدر متنام من التشكيك. وصب العديد من المسهمين المتأخرين في مجال الدراسات القومية جهودهم على تفكيك التواريخ القومية الرسمية، والتقليل من أهمية الذرائع الغائية للقوميات المدعومة من الدولة التي يجري تصويرها على أنها التعبيرات الحتمية والفريدة من نوعها المدونة تاريخيًا للمصير القومي. وجعل آخرون سيرورة الهيمنة ذاتها، وكذلك مقاوماتها، موضوع بحثهم. ونتيجة لذلك، باتت عبارات من قبيل «اختراع التقاليد»، و«فلاحون يصبحون فرنسيين» جزءًا مألوفًا من الخطاب الأكاديمي بشأن القومية. ونظرًا إلى تلك الجهود، فإن التقصي عن التراكيب البديلة للأمة والهوية القومية الأقل نجاحًا التي كثيرًا ما يجري إهمالها، مثل تلك التي تتمسك بها مجموعات باتت خاضعة من

جراء المكانة الاجتماعية، والجنسانية، والطبقة، والانتماء الإثني أو الديني، و/ أو الموقع الجغرافي، أصبح أشبه بصناعة منزلية افتراضية، إذ لم يتعامل علماء الاجتماع والمؤرخون على نحو متزايد مع القومية بالصورة التي قُدمت بها في التواريخ الرسمية وإنما، على حد تعبير براسينجيت دوارا، باعتبارها «المسرح الذي تتنافس فيه مختلف تجسيدات الأمة وتتفاوض فيما بينها»[25]. ويتسق هذا الكتاب مع هذا البرنامج التفكيكي.

ثانيًا، يتفق معظم المراقبين الآن على أن القوميات «ذات وجهين». إذ تحمل القوميات، شأنها شأن الآلهة الرومانية القديمة، وجهين، ينظر أحدهما إلى الخلف إلى الماضي، بينما يتطلع الآخر إلى الأمام إلى المستقبل. فمن ناحية، تجسد الحركات القومية نفسها باعتبارها وريثة لتاريخ قومي قديم ومميز. وتمشيًا مع هذا المبدأ، فإنها تعيد بناء («إحياء») أمجاد، وتقاليد، ورموز، وأساطير قومية قديمة. ومن ناحية أخرى، تتبنى هذه الحركات في الوقت ذاته عقلانية عصري التنوير وما بعد التنوير وذرائعهما التقدمية والعالمية، واضعة نفسها بذلك ضمن مشروع الحداثة العالمية[26].

مع ذلك، فمن الضروري أن نضيف أنه في حين تجمع الحركات القومية بين الماضي والمستقبل، والتفرد والشمولية، فإن طريقة توحيد هذه العناصر التي تتناقض في ظاهرها تختلف من حركة إلى أخرى. وفيما يتصل ببعض الحركات القومية، مثل الصهيونية العلمانية، يكاد المكون الحداثي أن يغلب على المكون التقليدي، الذي يوفر وجوده في الخطاب القومي أكثر من ذريعة تاريخية للجهد الرامي إلى التحديث. وإن إحياء اللغة العبرية القديمة قد جرى في الأغلب من أجل تمييز الصهاينة العلمانيين عن إخوانهم الناطقين باليديشية الأكثر «تخلفًا» في الشتات اليهودي. وعلى النقيض من ذلك، تؤكد الحركات القومية الأخرى - التي يجب أن تُدرج بعض الحركات الإسلامية المعاصرة في عدادها - على صبغتها التقليدية، في سيرورة تحجب حقيقة مؤداها أن المبادئ ذاتها التي تمكّن حركاتها

---

(25) Prasenjit Duara, *Rescuing History from the Nation: Questioning Narratives of Modern China* (Chicago, 1995), p. 8.

(26) يُنظر: Tom Nairn, «The Modern Janus,» *New Left Review*, vol. 94 (1975).

ليست سوى تقليدية. وكما سيتضح مما هو آت، ساهمت الزمر القومية المتنافسة في سورية في أعقاب الحرب العالمية الأولى في تحقيق التوافق بين الوجوه «التقليدية» و«الحديثة» للقومية بطرق متباينة، مما أدى في الواقع إلى بناء حركات قومية متميزة ولكنها متزامنة تنافست في ما بينها على الفوز بولاء الشعب السوري.

ثالثًا، يجادل معظم الباحثين المعاصرين أيضًا بأن الهوية ظرفية. وبعبارة أخرى، فإن الهوية ليست ثابتة بصورة دائمة («أولية»)، وبالضرورة فإن تأكيد الهوية القومية لا يمنع الفرد من تأكيد أشكال أخرى من الهوية. ومع ذلك، قد تؤثر فترات الأزمات و/ أو الحركية القومية في إضفاء الطابع المادي الموقت على الحدود التي تفصل الموضوعات القومية المعزوة إلى الذات عن «الآخر» الخارجي وتحث تلك الموضوعات على إيثار أواصر الأمة على الارتباطات الأخرى(27). وحسبما سأبين في الصفحات التالية، تمثل هذه الحقبة إحدى تلك المراحل التي مر بها الشرق الأوسط العربي في أعقاب الحرب العالمية الأولى.

ختامًا، شكل التحول من النظريات النشوئية إلى النظريات البنائية بشأن الأصول القومية - من الاعتقاد بأن الأمم كيانات طبيعية وقديمة إلى الاعتقاد بأن الأمم محدثة وتمثل ظاهرة جديدة نسبيًا في تاريخ العالم - مصدر إلهام لعدد من الدراسات التي تستكشف الظروف الاجتماعية والتاريخية اللازمة لانبثاق شكل الأمة والأيديولوجيات القومية وانتشارها. وكما يبين كل من بندكت أندرسن وإرنست غيلنر وإيتيان باليبار ومن آخرين سواهم، فإن القومية تتصل بإطار محدد لتنظيم العلاقات الاجتماعية والتنشئة الاجتماعية، وضمنًا، انتشار السلطة وتوزيعها(28). ومن أجل بلوغ فهم لانبثاق النزعات القومية في الشرق الأوسط أو أي منطقة أخرى، ينبغي الخروج من السردية القومية والتركيز على تلك العوامل

---

(27) يُنظر، مثلًا: Stuart Hall, «Ethnicity: Identity and Difference,» in: Geoff Eley & Ronald Grigor Suny (eds.), *Becoming National: A Reader* (Oxford, 1996); John L. Comaroff, «Of Totemism and Ethnicity,» *Ethnos*, vol. 52 (1987); Duara, *Rescuing History from the Nation*, pp. 55, 65-66; Zdzislaw Mach, *Symbols, Conflict, and Identity: Essays in Political Anthropology* (Albany, 1993), pp. 15-16.

(28) يُنظر: Benedict Anderson, *Imagined Communities: Reflections on the Origin and Spread of Nationalism* (London, 1983); Ernest Gellner, *Nations and Nationalism* (Ithaca, 1983); Etienne Balibar, «The Nation Form: History and Ideology,» in: Eley & Suny (eds.), *Becoming National*.

التي دفعت إلى الانتقال من نظام اجتماعي غير مؤاتٍ للقومية إلى نظام ملائم للأيديولوجيا. ومن هنا سوف أبدأ.

يمكن إرجاع ظهور القوميات في الشرق الأوسط إلى الشروط الأساسية التي تؤذن بظهور النزعات القومية في مناطق أخرى. وتسببت سيرورتان وثيقتا الارتباط في ما بينهما في إحداث تغييرات اقتصادية وسياسية واجتماعية بعيدة المدى داخل الإمبراطورية العثمانية إبان القرن التاسع عشر. أولًا، عجل تسارع وتيرة اندماج الإمبراطورية في هامش النظام العالمي الرأسمالي، وإن كان على نحو متباين، في الاندماج المستمر لاقتصادات السوق المحلية في اقتصاد السوق الأوسع نطاقًا[29]. وبالنتيجة، فقد تعاظمت أهمية العلاقات التجارية والمؤسسات المرتبطة بها لدى عدد كبير من سكان الإمبراطورية الذين باتوا ينتجون الآن المحاصيل المعدة للأسواق الإقليمية والدولية، ويتنافسون مع العمال في الخارج، ويبيعون نتاجهم، ويقترضون الأموال أو يستدينونها بأسعار فائدة ربوية، ويساهمون بوصفهم سماسرة أو وسطاء في التجارة الخارجية. وقد تيسر توسيع نطاق العلاقات التجارية بفضل الظاهرة الثانية الممثلة بالمحاولات التي بذلتها الحكومة العثمانية طوال القرن من أجل تعزيز السيطرة المركزية وترشيدها. وبينما كان للقواعد التنظيمية الصادرة في اسطنبول في كثير من الأحيان تأثيرات عشوائية ومتقطعة، بل وحتى عكسية، حينما طبقت في الولايات (ربما يكون تطبيق قانون الأراضي العثماني لعام 1858 هو المثال الأسوأ على الإطلاق)، بيد أنها مكنت الحكومة وعلى جميع الأصعدة والمستويات من توسيع الدور الذي تضطلع به في المجتمع بشكل كبير وسيطرتها على المواطنين طوال الفترة الممتدة ما بين أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين. علاوة على ذلك، وبفضل انتهاج سياسات حكومية عززت بناء المؤسسات التي كانت تتوافق مع تلك الموجودة في أوروبا، حرضت على زيادة تغلغل رؤوس الأموال الأوروبية، وبالنتيجة انتشار العلاقات التجارية في جميع أنحاء الإمبراطورية[30].

---

(29) اقتبست هذه العبارة من: Winifred Barr Rothenberg, *From Market-Places to a Market Economy: The Transformation of Rural Massachusetts, 1750-1850* (Chicago, 1992).

(30) يُنظر، من جملة مراجع أخرى: Roger Owen, *The Middle East in the World Economy, 1800-1914* (London, 1981), pp. 153-179, 244-272; Moshe Ma'oz, «The Impact of Modernization on Syrian Politics and Society during the Early Tanzimat Period;» Shimon Shamir, «The Modernization of Syria: =

أدى توسع اقتصاد السوق واتساع نطاق سلطة الدولة إلى التأثير في مجموعة متنوعة من النتائج الموثقة توثيقًا جيدًا. فعلى سبيل المثال، غيّرت هاتان السيرورتان التوأمان حجم المدن وطبيعتها. وشهدت المدن الساحلية والمناطق الحضرية الواقعة خارج أسوار المدن توسعًا من جرّاء تغير الأنماط الاقتصادية والهجرة. ونتيجة لنمو التجارة الدولية، توسعت بيروت من مدينة «غير ذات شأن إلى حد ما» تضم ستة آلاف نسمة في الربع الأخير من القرن الثامن عشر إلى مدينة يقيم فيها مئة وعشرون ألف نسمة في بداية القرن العشرين. وعلى الرغم من الافتقار إلى بيانات قاطعة، يبدو أن عدد سكان دمشق قد زاد بنسبة تتراوح بين 60 و100 في المئة أو أكثر طوال الفترة الممتدة بين منتصف القرن التاسع عشر وعام 1917[31]. وغالبًا ما كان يستقر المقام بالوافدين الجدد إلى المدن في أحياء (مثل الميدان في دمشق والكلاسة في حلب)، وقد كانت روابط المحسوبية وعلاقات الرعاية فيها ضعيفة في أحسن الأحوال. علاوة على ذلك، فإن بناء المدن وإعادة بنائها (في بعض الأحيان، مثلما هو الحال في مناطق القاهرة واسطنبول وفقًا للأنماط الأوروبية)، والجهود الرامية إلى التجديد في المناطق الحضرية (مثل تلك التي جرت في دمشق قبل الحرب العالمية الأولى وإبانها)[32]، قد أدت إلى إحداث

Problems and Solutions in the Early Period of Abdulhamid,» in: William R. Polk & Richard L. Chambers (eds.), *Beginnings of Modernization in the Middle East: The Nineteenth Century* (Chicago, 1968); Gabriel Baer, «Village and Countryside in Egypt and Syria: 1500-1900,» in: A. L. Udovitch (eds.), *The Islamic Middle East 700-1900* (Princeton, 1981); Linda Schatkowski Schilcher, *Families in Politics: Damascene Factions and Estates of the 18th and 19th Century* (Stuttgart, 1985), pp. 60-86; James Anthony Reilly, «Origins of Peripheral Capitalism in the Damascus Region, 1830-1914,» Ph.D. Dissertation, Georgetown University, Washington D.C,1987. =

(31) يُنظر: Y. Eyup Ozveren, «Beirut,» *Review*, vol. 16 (Fall 1993); Schilcher, *Families in Politics*, pp. 5-6; Owen, *The Middle East*, p. 244.

(32) شهدت الفترة الممتدة ما بين أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين إعادة رسم خريطة المستطيل المركزي في دمشق على نحو متعمد، وجرى تركيب نظم حافلات الترامواي والبرق والهاتف والإنارة التابعة للبلدية. وأما شارع النصر، الذي يعد أحد الشرايين الرئيسة في دمشق وسيستخدم في تسيير التظاهرات العامة إبان العهد الفيصلي، فقد شقته الإدارة العثمانية إبان الحرب العالمية الأولى؛ وبالتزامن مع ذلك، أمرت نظارة الأوقاف <العثمانية> بتخريب كافة المنازل وسواها من المباني المحيطة بالجامع الأموي، مما أوجد مساحات ضخمة صالحة لإقامة الاحتفالات. يُنظر: **القبلة**، 22 ذي الحجة 1334هـ ص 4؛ محمد أديب تقي الدين الحصني، **كتاب منتخبات التواريخ لدمشق**، 3 ج (بيروت، 1969)، ج 1، ص 286. وللاستزادة بشأن التغييرات المادية الأخرى، يُنظر: نزيه الكواكبي، «المظهر =

تحول في طبيعة الحيز الحضري، مما يسر انهيار الولاءات التي تستند إلى الأحياء، وإحداث مناطق عامة يمكن أن تقام فيها، على سبيل المثال، الاحتفالات، وبالتالي التعجيل، مقتبسين عبارة استخدمها المؤرخ جورج ل. موس، في «إضفاء الطابع القومي على الجماهير»[33].

علاوة على ذلك، شجّع التوسع العمراني، وتوسيع نطاق العلاقات التجارية وتكثيفها على انتشار الصحف الحديثة، والصالونات الأدبية، والنوادي الخاصة، والمقاهي، التي جرى بوساطتها نشر الأخبار وتبادل المعلومات. واقترن ذلك بالجهود التي بذلتها الدولة العثمانية من أجل إعادة تشكيل أسس شرعيتها عبر إصدار أيديولوجيات معثمنة رسمية علمانية ومستندة إلى الدين[34]. وقد أسهمت كل من الصالونات الأدبية والأندية السياسية التي حولت المبتدئين السياسيين إلى نشطاء سياسيين؛ وعناوين الصحف الجديدة التي كانت تتردد بصوت عال في الشوارع في بيروت ودمشق ومدن أخرى؛ والأعمال المسرحية التعليمية المعدة للمقاهي والمقدمة فيها في نشوء جو سياسي محتدم، وانبثاق «مجال عام» عصري آخذ في الاتساع في سورية. وضمن هذا المجال العام الناشئ، شرع عدد صغير ولكن آخذ في الازدياد من السوريين في نهاية القرن في نقاش العديد من الأفكار والأيديولوجيات، بما في ذلك مجموعة متنوعة من الأيديولوجيات القومية.

حفز امتداد العلاقات التجارية والمحاولة الساعية إلى فرض جهاز موحد للسلطة في جميع أنحاء الإمبراطورية العثمانية على إعادة رسم الحدود، التي كانت قد فصلت في السابق الدولة عن المجتمع المدني. وفرضت الدولة التزامات جديدة، مثل سياسة التجنيد الإجباري المكروهة كرهًا شديدًا، واضطلعت بدرجات

= العمراني لدمشق في المنتصف الثاني للقرن التاسع عشر»، في: **دمشق: دراسات تاريخية وآثارية** (دمشق، 1980)؛ قتيبة الشهابي، **دمشق: تاريخ وصور** (دمشق، 1986).

(33) يُنظر: George L. Mosse, *The Nationalization of the Masses: Political Symbolism and Mass Movements in Germany from the Napoleonic Wars through the Third Reich* (New York, 1975).

(34) Kemal H. Karpat, «The Transformation of the Ottoman State, 1789-1908,» *International Journal of Middle East Studies*, vol. 3 (1971); Selim Deringil, «Legitimacy Structures in the Ottoman State: The Reign of Abdul Hamid II (1876-1909),» *International Journal of Middle Eastern Studies*, vol. 23 (1991).

متفاوتة من الالتزام والنجاح بمهام كانت تقع خارج نطاقها في السابق، بما في ذلك التعليم وأنواع معينة من الأشغال العامة. وتولت الحكومة على جميع الأصعدة كذلك الأشراف على مجموعة متنوعة من سياسات الرعاية، مثل توفير الإغاثة للفقراء، والمساعدات الزراعية، ودفع الرواتب التقاعدية للأرامل والأيتام[35]. وقد ساهم اتساع نطاق وحجم اختصاص الحكومة، واضطلاعها بالمسؤوليات المرتبطة بالدول الحديثة في تمزيق الولاءات الضيقة، وساعد - على حد تعبير موس مرة أخرى - في تحويل «العمل السياسي إلى مأساة يُفترض أن يتقاسمها الناس أنفسهم»[36].

أخيرًا، أثر تحول المجتمع العثماني، ولا سيما في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، على الدور الذي اضطلعت به النخب السياسية والاقتصادية المحلية وتكوينها. وتضخم في المدن الساحلية كبيروت، على سبيل المثال، حجم ما يُسمى بالبرجوازية المسيحية وقوتها الاقتصادية في ضوء انتزاع الحكومات الأوروبية من الحكومة العثمانية شروطًا ملائمة للتجارة وامتيازات خاصة لوكلائها. وتعاظمت في دمشق وحلب والمدن الأصغر في سورية مكانة تلك الأسر التي استمدت ثروتها من الاستثمار في الأراضي واتسع نطاق امتيازاتها وأقامت علاقات حسنة مع الإدارة العثمانية المركزية في اسطنبول - عنينا النخبة من ملّاك الأراضي الغائبين عن أطيانهم والبيروقراطيين الآنفة الذكر - مما أدى إلى انحسار مكانة وامتيازات تلك الأسر التي تفتقر إلى هذه الميزة أو تلك. وفي الوقت ذاته، بزغ نجم «الطبقة الوسطى»، التي تتكون من المهنيين المهرة، والأدباء، وموظفي الحكومة (أولئك الذين أطلق عليهم نيتشه عن جدارة «بدو الدولة الرحل الذين لا وطن لهم»)[37]، وضباط الجيش المدربين الذين تيسر لهم اكتساب المهارات بفضل التوسع المستمر لعلاقات السوق والجهاز الإداري، بل كانت ضرورية من أجلها[38].

(35) جرى نقاش هذه السياسات (وخرقها) على صفحات الجرائد السورية مثل **البشير**، و**المقتبس**.

(36) Mosse, *The Nationalization of the Masses*, p. 2.

(37) Friedrich Nietzsche, *The Will to Power*, Walter Kaufmann (ed.), Walter Kaufmann & R. J. Hollingdale (trans.) (New York, 1967), p. 40.

(38) يُنظر: Leila Tarazi Fawaz, *Merchants and Migrants in Nineteenth Century Beirut* (Cambridge, =

ووفقًا لمعظم السرديات التقليدية، فإن ما جذب واحدة أو أكثر من فئات النخب المذكورة أعلاه إلى العروبة، و«القومية العربية»، والإحياء الأدبي/ الثقافي السابق (النهضة الآنفة الذكر) هو الجاذبية المتأصلة لـ «مبادئ الحرية والمساواة والإخاء»؛ أو أواصر الألفة الاختيارية المتجذرة في الانتماء الديني المشترك أو الثقافة أو الخبرة التي ربطت النخب الشرق الأوسطية بنظرائهم الأوروبيين؛ أو النفور الغريزي من هيمنة الغريب (أي التركي والأوروبي). ومع ذلك، ففي حين أنه مما لا مراء فيه أن العديد من الفئات الاجتماعية تلك قد انضمت مع مرور الوقت إلى شتى التيارات القومية، إلا أن التفسيرات القائمة قصرًا على الاختيار المتعمد أو المناهضة الغريزية للإمبريالية لا تعد كافية. ولا تأخذ هذه السرديات في الحسبان أن القومية ليست نزعة مدرجة في قائمة أيديولوجية يصلح أن يختارها المرء أو يعرض عنها بحرية، وأنه بينما كانت الروابط الإرادية في كثير من الأحيان تعزز الأواصر التي تربط نخب الشرق الأوسط بنظرائها في الغرب وبمبادئ القومية المشتقة، بيد أن تلك الروابط ذاتها مثلت عاملًا مساعدًا.

لما كانت نشأة ما يُسمى بالبرجوازية المسيحية، ونخبة البيروقراطيين - ملّاك الأراضي، والطبقات الوسطى تعود كلها إلى اتساع نطاق الرأسمالية المحيطية، والمحاولة الساعية إلى إدخال مؤسسات موحدة للحكم الرشيد في جميع أنحاء الإمبراطورية العثمانية، فإن الفئات المحددة ومجموعة من الفئات التي يستخدمها الأفراد داخل هذه التجمعات لتنظيم عالمهم وترتيب مجتمعهم المنسجم بطبيعة الحال مع تلك الفئات التي فرضتها الثقافة السائدة - بل في بعض الحالات يجري استنساخها - داخل الحواضر الكبيرة. وقد أقرت هذه الفئات العديد من الأيديولوجيات المتناظرة بصورة أساسية - العثمنة، والعروبة، والنزعة الفينيقية، وما إلى ذلك - التي كان بقاؤها وانتشارها يتوقفان على عوامل لا علاقة لها بالأيديولوجيات ذاتها (درجة إضفاء الطابع المؤسسي على الأيديولوجيا، والموارد المتاحة لأولئك الذين روجوا الأيديولوجيا، والبيئة السياسية التي

Mass., 1983); Khoury, *Urban Notables*; Khalidi, «Society and Ideology»; Ruth Roded, «Ottoman Service = as a Vehicle for the Rise of New Upstarts among the Urban Elite Families of Syria in the Last Decades of Ottoman Rule,» *Asian and African Studies*, vol. 17 (1983).

تتوضع فيها الأيديولوجيات المتنافسة). ونتيجة لذلك، فإن الانقسام الأيديولوجي الجوهري داخل المجتمع الشرق الأوسطي إبان المرحلة الممتدة من أواخر القرن التاسع عشر وحتى أوائل القرن العشرين لم يفصل المتعثمنين عن العروبيين؛ بل إن الانقسام الأيديولوجي الجوهري فصل المتعثمنين والعروبيين وأمثالهم عن بقية المجتمع، الذي لم يحقق القدر ذاته من التحول والتكامل أو كانت تجربته في التحول أقل إبهاجًا. فعلى سبيل المثال، وفقًا لما ذكره المؤرخ جيمس رايلي:

> شكل المهندسون الذين كانوا يتمتعون برغد العيش ويتقاضون رواتب عالية جزءًا من نخبة الخدمة المدنية الجديدة.... ويبرز التناقض القائم بين حال هؤلاء المهندسين المتضلعين في مجال التكنولوجيا الحديثة، وحال العمال المزارعين في الغوطة الذين يستخدمون الأدوات التقليدية لقاء أجر يومي يبلغ ثلاثة قروش ونصف القرش، أوجه التفاوت في التنمية الذي قد بدأ يترسخ في دمشق وسورية إبان الحرب العالمية الأولى، مما أوجد في نهاية المطاف فجوة لم يسبق لها مثيل في التاريخ بين المدينة والريف، ومن شأنها أن تطبع التاريخ السياسي والاقتصادي لسورية في القرن العشرين بطابعها[39].

على نحو ما سيتبين في القسمين الثاني والثالث من هذا الكتاب، فإن العديد من النخب ذات النزعة القومية المرتبطة بحكومة الأمير فيصل إبان الحقبة اللاحقة للعهد العثماني مباشرة، أدركت ما لهذا الانقسام من أهمية محورية. ولم يكتف هؤلاء، عبر الخطاب والنشاط الاحتفالي، بتقسيم الشعب السوري إلى أولئك الذين يصلحون للحكم (تشتمل على مجموعة منتقاة من الأعيان، ومجموعة تنتمي إلى الطبقة الوسطى تعي ذاتها، ممن يطلق عليهم «المثقفون» [المتنورون، وما إلى ذلك]) والأغلبية الساحقة من الشعب التي لا تصلح إلا لأن تُحكم، لكن أوصاف المستقبل السوري التي عرضوا لها إنما تعكس نزعتهم الوضعية وبراغماتيتهم ذات الطابع التكنوقراطي:

> [وإذ تطلعت إلى المستقبل،] رأيت.... أن الناس يحولون انتباههم الآن إلى تأسيس المدارس والكليات، حتى إنه لم تبق قرية خالية من المدارس الابتدائية

(39) Reilly, «Origins of Peripheral Capitalism,» p. 174.

> الراقية. ورأيت الرخاء منتشرًا في البلاد وخطوط السكك الحديدية متصلة بالقرى والمزارع العامرة. ورأيت المزارعين يستخدمون أحسن الأساليب العصرية، والتجارة منتشرة على نحو واسع، والصناعة مزدهرة. وظهرت لي دمشق من أكثر المدن عمرانًا، وقد غطيت شوارعها وأزقتها بالإسفلت. وأصبح نهر بردى كنهر السين، يخترق المدينة من غربها إلى شرقها. وعلى ضفتيه جادتان عظيمتان أقيمت فيهما الأبنية الشامخة. ورأيت حلب، وقد جلب لها الماء بقناة من نهر الفرات، فأمدت حدائقها وجنانها بأسباب الحياة، وتخلصت من صحرائها المجدبة... وأُسست المعامل الصناعية في كل ناحية من أنحاء المملكة حتى استغنت البلاد عن مصنوعات الغرب، وبدلًا من الاستيراد صارت تصدر ما يفيض عن حاصلاتها إلى الهند والصين وأفريقيا. فاغتنى أهلها، واعتز سلطانها، وصارت في مقدمة البلاد الراقية[40].

تتسق هذه التطلعات إلى المستقبل السوري مع مجموعة كبيرة من المواقف الأخرى، بما في ذلك الدعوة إلى النظم الاقتصادية التي تقوم على حرية الأسواق، والاحتفال بـ«الرجال العصاميين»، و«الأمومة الجمهورية»، والإدانات الموجهة لتقاعس العامل عن أداء عمله وانصرافه إلى التسلية التي كانت تظهر يوميًا في الخطب والمنشورات المطبوعة العائدة لتلك النُخب القومية المتحالفة مع حكومة الأمير فيصل العربية[41]. وكانت النخب القومية الناشطة في فترة ما بعد الحرب العالمية الأولى - وفقًا لما أورده ألبرت حوراني - ترى أنه «لكي تكون البلاد مستقلة يجب أن تكون مقبولة على قدم المساواة من جانب الدول الأوروبية، وأن تلغى الامتيازات، والمزايا القانونية للمواطنين الأجانب، وأن تدخل إلى عصبة الأمم. ولكي تكون البلاد حديثة لا بد أن تكون لها حياة سياسية واجتماعية مماثلة

(40) **العاصمة**، 7 أيار/ مايو 1919، ص 1-2.

(41) يُنظر، مثلًا: **الكوكب**، 13 كانون الثاني/ يناير 1919، 11 ص؛ **العاصمة**، 7 أيار/ مايو 1919، ص 1-2؛ **العاصمة**، 16 حزيران/ يونيو 1919، ص 1-2؛ **العاصمة**، 25 آب/ أغسطس 1919، ص 1-2؛ **العاصمة**، 28 آب/ أغسطس 1919، ص 5-6؛ **العاصمة**، 11 أيلول/ سبتمبر 1919، ص 1؛ **الكوكب**، 30 أيلول/ سبتمبر 1919، ص 7-8؛ **الكوكب**، 21 تشرين الأول/ أكتوبر 1919، ص 7-8؛ **الكوكب**، 28 تشرين الأول/ أكتوبر 1919، ص 7-8؛ **الكوكب**، 11 تشرين الثاني/ نوفمبر 1919، ص 11؛ **الأمة**، 5 شباط/ فبراير 1920، ص 5؛ **العاصمة**، العدد 24 [د. ت.].

لتلك القائمة في بلدان أوروبا الغربية»[42]. ولكن بما أن النخب القومية هذه جعلت خطابها حافلًا بمفاهيم مبهمة مثل «التقدم» و«العلمانية»، ولما كان نطاق المصالح التي يمثلها خطابها ضيقًا، فلم تبدُ أيديولوجيتها «مستوردة» و«مقلدة» فحسب، بل لم يكن لها أي صدى لدى الكثير من السوريين الذين كانوا أكثر انسجامًا مع الخطاب الصادر عن خصومهم داخل التيار القومي.

لم تكن النخبة المذكورة أعلاه، بطبيعة الحال، الطبقة الوحيدة التي تأثرت بتحول المجتمع العثماني؛ فعلى امتداد القرن التاسع عشر، ولا سيما بعد بداية الكساد العظيم لعام 1873، وجد من هم من غير النخبة داخل الإمبراطورية أنفسهم تحت رحمة السوق والدولة على نحو ما فتئ يتعاظم؛ فراحوا ينفّسون عن غضبهم عبر تنفيذهم أعمال مقاومة تراوحت ما بين التهرُّب من التجنيد والهجرة وصولًا إلى التمرد العلني. وكانت الإضرابات للمطالبة بزيادة الأجور شائعة بين ظهراني عمال النسيج الدمشقيين الماهرين، الذين لم يتعرضوا للتهديد من جراء انخفاض الأجور الحقيقية فحسب، بل بسبب إضعاف النقابات وبرامج الرعاية التي ترعاها النقابات، وإيجاد طبقة عاملة مأجورة، والبطالة أو العمل في المصانع والورش التي تستغل العمال. ففي حوران، وهي المنطقة المنتجة للحبوب في سورية جنوب دمشق، شهدت التسعينيات من القرن التاسع عشر فرض المزيد من الضرائب، وزيادة فعالية نظام جباية الضرائب، ووجود سوق دولية للقمح تعاني من كساد شديد، وإعادة تنظيم حيازة الأراضي، وإعادة التفاوض بشأن حقوق الزراعة. ونتيجة لذلك، تخلى الفلاحون عن محاصيلهم، وأحجموا عن سداد الضرائب، بل خاضوا معارك ضارية مع القوات العثمانية المنتشرة في المنطقة لقمع الاضطرابات – مما تسبب في إحدى الحالات في وقوع أكثر من ستمئة إصابة[43].

---

(42) Albert Hourani, *A History of the Arab Peoples* (Cambridge, Mass., 1991), pp. 343-344.

(43) Reilly, «Origins of Peripheral Capitalism,» pp. 120, 155-158; Sherry Vatter, «Militant Journeymen in Nineteenth-Century Damascus: Implications for the Middle Eastern Labor History Agenda,» in: Zachary Lockman (ed.), *Workers and Working Classes in the Middle East: Struggles, Histories, Historiographies* (Albany, 1994);

أحمد حلمي العلاف، **دمشق في مطلع القرن العشرين**، تحقيق علي جميل نعيسة (دمشق، 1976)، =

ليست الإضرابات، والثورات المناهضة للضرائب، وهجر القرى الشامل إلا أمثلة على ما يسميه تشارلز تيلي «أعمالًا جماعية تفاعلية». وكانت أعمال المقاومة هذه المتخذة للدفاع عن النظام الاجتماعي العرفي المألوف أو الاقتصاد الأخلاقي، تفتقر إلى كل من البرنامج السياسي والهيكل التنظيمي اللذين سيمكنان المشاركين فيها من الحفاظ على التعبئة الواسعة النطاق والطويلة الأمد(44). ولكن العوامل ذاتها التي حرضت على اتخاذ الأعمال الجماعية التفاعلية في سورية كانت تبشر أيضًا بظهور الظروف اللازمة للتعبئة البرنامجية والمعقدة. وقد أسهم التأثير الآخذ في الاتساع الذي مارسه «التجار وصانعو الدولة» والسياسات المرتبطة بهم في انهيار النزعة شديدة المحلية والطابع العمودي اللذين، وفقًا لما أورده معظم المؤرخين، كانا في ما مضى قد طبعا النمط السائد للعلاقات السياسية والاجتماعية في الشرق الأوسط بطابعهما. وفي الوقت ذاته، أدى إضعاف و/ أو انحلال الروابط المعتادة للمحسوبية وصلة الدم الناجمة عن، على سبيل المثال، زيادة التنقل المادي والثورة على الوضع الاجتماعي الآنفة الذكر، إلى تيسير نشوء الصلات الأفقية والترابطية بين السوريين التي جرى تعيين حدودها وحسب بأبعد مدى لعلاقات السوق الإقليمية ودوائر الهجرة غير الرسمية. وأضحت هذه الصلات المعاد صياغتها تنافس وتستوعب، بل تحل محل، العلاقات العمودية الأضيق نطاقًا، التي كانت تتعارض مع المشهد الاجتماعي والاقتصادي المتغير إبان فترات الأزمات بصفة خاصة، وعلى نحو ما جرى إبان السنة الثانية بعد تأسيس حكومة عربية في دمشق(45).

كثيرًا ما اتخذت المناطق الحضرية التي كانت الروابط العمودية للمحسوبية

= ص 137؛ Linda Schatkowski Schilcher, «Violence in Rural Syria in the 1880s and 1890s: State Centralization, Rural Integration, and the World Market,» in: Farhad Kazemi & John Waterbury (eds.), *Peasants and Politics in the Modern Middle East* (Miami, 1991).

(44) Charles Tilly, Louise Tilly & Richard Tilly, *The Rebellious Century, 1830-1930* (Cambridge, Mass., 1975), pp. 50, 253-254; E. J. Hobsbawm, *Primitive Rebels: Studies in Archaic Forms of Social Movement in the Nineteenth and Twentieth Centuries* (New York, 1959), pp. 1-10, 108-125.

(45) Schilcher, «Violence in Rural Syria,» p. 76; James L. Gelvin, «The Social Origins of Popular Nationalism in Syria: Evidence for a New Framework,» *International Journal of Middle East Studies*, vol. 26 (November 1994).

فيها ضعيفة بوجه خاص أو غائبة نتيجة للهجرة و/ أو النمو السريع بؤرًا للتعبئة السياسية المستدامة. ونظرًا إلى اضطلاع حي الميدان بدمشق - مثلًا - على نحو متزايد بدور مركز تجاري لإعادة تصدير الحبوب وتجمع للمهاجرين القادمين من حوران في الفترة الممتدة ما بين أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، فقد ضم هذا الحي عددًا كبيرًا من الوافدين الجدد وعابري السبيل الذين غالبًا ما انقطعت صلاتهم بالمناطق الريفية النائية التي قدموا منها لتحل محلها صلاتهم ببيئتهم المدينية الجديدة. ونتيجة لذلك، قدم أهالي جي الميدان في أثناء الأشهر التي سبقت الاجتياح الفرنسي لسورية الداخلية، دعمًا يعول عليه وحماسيًا في أغلب الأحيان، للمنظمات التي اضطلعت بالدور الريادي في أشكال التعبئة السياسية الأفقية التي لا تتدخل فيها أطراف ثانية، وانضم متطوعو حي الميدان الذين جرى تدريبهم وتجهيزهم في دمشق إلى جماعات حرب العصابات، مثل الوحدات التي يقودها الدروز وتعمل في المناطق المحيطة براشيا وحاصبيا، وسرية من الفرسان بقيادة محمود فاعور في الجولان، التي جُمعت من أجل مضايقة الجيش الفرنسي الذي يحتل المناطق الساحلية السورية. وواصل حي الميدان، الذي لقبه الدبلوماسيون الفرنسيون بـ«الضاحية الثورية»، مقاومته المناهضة للفرنسيين بعدما جرت «تهدئة» معظم الأحياء الأخرى في دمشق، كما اضطلع سكان الحي بدور بارز في الثورة السورية الكبرى للعام 1925[46].

وهكذا، كان هناك بحلول العقود الأولى من القرن العشرين إطار اجتماعي واقتصادي من شأنه أن يسمح بتعبئة سياسية مستدامة واستباقية في الجزء الأكبر

---

(46) MAE L:SL/12/32-38, Cousse to HC, 6 April 1919; AD 2344/C1/305-306, Cousse to Picot, 31 October 1919; AD 2344/C1/311, Cousse to Picot, 3 November 1919; AD 2430/dossier confidentiel-départ/325-326, Cousse (?) to HC, 10 November 1919; AD 2375/chemise: division de la Syrie 1919-1920/442/2, Arlabosse to gen. cmdt. div. Syrie, 25 January 1920; AD 2375/chemise: division de la Syrie 1919-1920/445/2, Haak to GCC, 26 January 1920; MD 4H58/2, Haut commissionaire et armée du Levant état-major (deuxième bureau), «Rapport hebdomadaire,» 503, 29 July-4 August 1920; Schilcher, *Families in Politics*, pp. 9, 11, 16; Philip S. Khoury, *Syria and the French Mandate: The Politics of Arab Nationalism,1920-1945* (Princeton, 1987), pp. 180, 191, 291-292; Albert Hourani, «Ottoman Reform and the Politics of Notables,» in: Polk & Chambers (eds.), *Beginnings of Modernization*, p. 53; Jean-Paul Pascual, «La Syrie à l'époque ottomane (le XIXe siècle),» dans: André Raymond (éd.), *La Syrie d'aujourd'hui* (Paris, 1980), p. 39.

من سورية. وبناءً على ذلك، وفي أعقاب الأزمات الاقتصادية والسياسية التي عصفت بالدولة الفيصلية في خريف عام 1919 تشكل تحالف عريض من السوريين – وفي عدادهم المثقفون والمهنيون المناهضون للحكومة (كان الكثير منهم مستائين من حكومة زعموا أنها كانت خاضعة لهيمنة الغرباء، أي الحجازيين والعراقيين والفلسطينيين)، والشخصيات الدينية، وأصحاب المتاجر ممن ينتمون إلى الطبقة المتوسطة الدنيا، والأقوياء المحليون <القبضايات>، والأعيان المحافظون، وتجار المنسوجات والحبوب الذين ينتمون إلى مجموعة واسعة من البيئات الاجتماعية والاقتصادية – الذين استطاعوا أن يتحدوا في ما بينهم ليشكلوا لجانًا شعبية مثل («اللجنة الوطنية العليا»)، والفروع المحلية للجنة الوطنية العليا المعروفة باسم («اللجان الوطنية الفرعية»)، و(لجان الدفاع الوطني)، التي جذبت بنجاح المشاركة النشطة في السياسة من جانب أولئك الذين لا ينتمون إلى النخبة. وبفضل حشدها للعديد من الشبكات العائلية، والسوقية وتلك المستمدة من الموقع الجغرافي، لم توفر المنظمات تلك لأنصارها أنموذجًا للجماعة السياسية الملائمة للظروف المتغيرة بصورة جذرية التي عاشها السوريون فحسب، وإنما أجازت أيضًا إعادة تكليف المجتمع المدني بالاضطلاع بمجموعة متنوعة من المهام، تراوحت من ضمان «سعر منصف» للحبوب وصولًا إلى حشد ميليشيات من المتطوعين لتوفير الأمن الداخلي والاضطلاع بمهام الدفاع الوطني التي كانت تقودها في السابق الدولة أو الأعيان المرتبطون بالدولة أو مناطة بهم. وقد يُنظر إلى عصيان تموز/ يوليو على أنه نتيجة طبيعية للجهود الرامية إلى التعبئة والدعاية التي بذلتها هذه اللجان.

لعل مما له أبلغ الدلالة أن اللجان الشعبية التي ظهرت في سورية إبان العهد الفيصلي أظهرت السمات ذاتها التي، وفقًا لما أورده المؤرخ إريك هوبزباوم، طبعت «الأحزاب والحركات الجماهيرية» بطابعها وترافقت مع تعميم السياسة في أوروبا في أواخر القرن التاسع عشر[47]. وكما هو الحال مع نظرائهم الأوروبيين، فإن عرض مُخطط تمثيلي لهيكل المنظمات الشعبية السورية سيظهر هرمًا، تحتل

(47) E. J. Hobsbawm, *The Age of Empire, 1875-1914* (New York, 1987), pp. 92-94.

لجان الأحياء قاعدته، واللجان البلدية والجهوية قسمه الأوسط، بينما تتبوأ لجنة وطنية موقع قمة الهرم. ولم يساعد هذا الهيكل على التعجيل في تعبئة أعداد غفيرة من الأنصار، وتنسيق أنشطتهم، ومشاركتهم الديمقراطية (وإن كان ذلك في ظل أوضاع خاضعة للرقابة) فحسب، وإنما أعاد توجيه تركيزهم بعيدًا عن الاهتمامات المحلية ليكون منصبًا على الساحة القومية. وهكذا، شأنها شأن الحركات الشعبية الأخرى، «حطمت» التعبئة الشعبية السورية «الإطار السياسي القديم ذا الطابع المحلي أو الجهوي، أو دفعت به إلى الهامش، أو أدمجته» في سياق أوسع نطاقًا.

علاوة على ذلك، وبفضل مزيج من الاستعاضة والاستقطاب، أنهت اللجان الشعبية (بمساعدة سبق أن قدمتها الحكومة الفيصلية، التي، كما سيتضح في القسم الثالث، كانت قد شرعت في هذه السيرورة سواء أكان عن قصد أم عن غير قصد لأسباب متباينة تباينًا شديدًا) احتكار النخب المحلية للسلطة السياسية واستعاضت عنه بترتيب تتقاسم فيه زمر النخب القديمة و«الطبقات الوسطى» المتعلمة، من ناحية، ومنظمو اللجان الشعبية، من ناحية أخرى، السلطة السياسية المدينية على نحو غالبًا ما يكون مضطربًا. وهكذا، كما ذكر هوبزباوم، أحدث إضفاء الطابع القومي على السياسة الذي تلا ذلك تحولًا على نحو جزئي في دور الأعيان المحليين التقليديين، الذين بات يتعين عليهم الآن التوصل إلى تسوية موقتة مع «قادة» مستجدين مرتبطين بآلة سياسية قومية.

أخيرًا، اتخذت المنظمات الشعبية طابعًا أيديولوجيًا؛ إذ قدمت لأنصارها «رؤية شاملة للعالم». مما مكن المنظمات تلك من ضم أعضاء إلى صفوفها عبر الاستفادة من روابط الولاء المتعددة والمعقدة، بما في ذلك الشبكات العائلية والسوقية والشبكات المستمدة من الموقع الجهوي التي جمعت بين الروابط العمودية والأفقية الناشئة التي يسرت تركيب أنموذج جديد للجماعة السياسية. كما أنه منح المنظمات قدرة على توليد الرموز وحيازتها تفوق بكثير قدرة جماعات الضغط أو المصالح الخاصة البسيطة.

وهكذا، ربما باستثناء توفير سِني العهد الفيصلي في سورية ينبوعًا ثريًا مولدًا للأسطورة ولا قعر له ظاهريًا يمكن أن يفيد منه المؤرخون القوميون والأنظمة

اللاحقة في الشرق الأوسط العربي على حد سواء، يتمثل الموروث الأكثر متانةً لذلك العهد في تشكيل هذه اللجان الشعبية، وهي لجان لا تقدم صورة مصغرةً عن التحول الاجتماعي والسياسي الذي عاشه السوريون إبان الثلاثة أرباع القرن الأخيرة فحسب، وإنما عملت أيضًا على التعجيل ببروز السياسة الجماهيرية.

* * *

كانت سورية جزءًا من الإمبراطورية العثمانية طوال ما يقارب أربعمئة عام حينما اتخذت الحكومة في اسطنبول قرارًا سيئًا بدخول الحرب العالمية الأولى إلى جانب دول المركز. وكان لآثار هذا القرار، وما أعقب ذلك من اضطرابات اقتصادية وسياسية مرتبطة بالحرب، عواقب طويلة الأجل على جميع سكان سورية.

وقد عصفت الأزمات الاقتصادية بالطبقات الشعبية في سورية في الفترة الممتدة بين عامي 1914 و1918، بالتزامن مع انحدار مستوى معيشتهم واتساع الهوة بين الأغنياء والفقراء. وارتفعت أسعار السلع الأساسية كافة إبان الحرب، بينما كاد يكون في حكم المستحيل الحصول على سلع أخرى، مثل القهوة والسكر والأرز[48]. وفي الوقت ذاته، أدت ندرة العمالة والنقل، واحتجاز المواشي من جانب الجيش العثماني الرابع الذي يتخذ دمشق مقرًا له، وسلسلة من الكوارث الطبيعية - القحط المدمر الذي ساد في أثناء موسم الحصاد في عامي 1914-1915، وآفة الجراد التي ضربت البلاد في عام 1915، وموجة الحر التي أنزلت الخراب والدمار بالمحاصيل في عام 1916 - إلى انخفاض المحاصيل في المناطق الداخلية. وتفاقمت حالة نقص الأغذية من جراء الحصار البحري الذي فرضته دول الوفاق على شرق البحر الأبيض المتوسط، الذي كانت له آثار مدمرة على المدن الساحلية بوجه خاص وظل قائمًا بصورة أو بأخرى حتى شباط/ فبراير من عام 1919، بينما أدى انخفاض قيمة العملة والمضاربة وعمليات المصادرة القسرية من جانب الحكومة إلى ارتفاع أسعار السلع الأساسية إلى مستويات

(48) FO 371/2771, «Arab Bureau Intelligence Survey 10,» 14 July 1916; FO 371/3058/137867, «Internal Conditions,» 11 May 1917.

أعلى[49]. وفي تموز/ يوليو من عام 1917، في الوقت الذي كانت فيه قيمة العملة الورقية العثمانية تبلغ نحو 25 في المئة من قيمتها الاسمية، قاوم المزارعون الحوارنة بيع القمح مقابل أي شيء سوى الذهب. وبحلول عام 1918، حينما تدهورت قيمة العملة العثمانية إلى ما يقارب 14 في المئة من قيمتها الاسمية، رفض التجار بصورة عامة قبول الأوراق النقدية العثمانية حتى حينما جرى تهديدهم بإنزال عقوبات قاسية بحقهم، مما جعل معظم المعاملات تقتصر على المقايضة[50].

لقد كانت الحياة في المدن الداخلية السورية أشبه بكابوس لدى الكثير من الناس. وغالبًا ما كانت الحكومة العثمانية تحرم الأرامل والأيتام وموظفي الدولة والمتقاعدين من كامل رواتبهم المعتادة أو أجزاء منها. وحتى عند صرفها، كانت تُدفع قيمة الرواتب بالعملة الورقية العثمانية ذات القيمة المنخفضة، ولذلك فإنها كانت لا تكاد تكفي تكلفة المعيشة[51]. وقد أسفر انخفاض مستويات التغذية (التي تفاقمت بسبب الممارسة الشائعة المتمثلة في غش الدقيق، واعتماد نظام الحصص التموينية بعد عام 1916 الذي أدى إلى انخفاض نصيب الفرد الواحد من الاستهلاك على حدّ سواء) وانهيار الخدمات البلدية عن تفشي أوبئة الزحار، والتيفوس، والجدري، والدفتيريا، والملاريا، والكوليرا في المدن السورية الساحلية منها والداخلية[52]. وذكرت الصحف أن دمشق شهدت ارتفاعًا في

---

(49) FO 861/63, Vice Consul, Aleppo to L. Mallet, 31 August 1914; المقتبس، 23 حزيران/ يونيو 1915، ص 2؛ FO 371/2770/104598/296, «Internal Conditions: Enemy Countries (Athens),» 28 May 1916; FO 371/2771, «Arab Bureau Intelligence Survey 10,» 14 July 1916; FO 371/2781/193557, «Information from Two Arab Officers Recently Arrived in England from the Caucasus and Examined by Sir M. Sykes,» 25 September 1916; *Arab Bulletin,* 4 December 1916, pp. 504-507; FO 371/3058/137867, «Internal Conditions,» 11 May 1917; FO 371/2783/221220, «Report of an Inhabitant of Athlit, Mt. Carmel, Syria,» n.d.; MAE L:SL/vol. 78/1840, Amiral Gauchet to président de la république, 21 February 1919.

(50) يُنظر: Schilcher, «The Famine of 1915-1918»; FO 371/2771, «Arab Bureau Intelligence Survey 10,» 14 July 1916; FO 371/3050/142519, «Notes of an Interview with Mr. Edelman,» 6 July 1917; FO 371/3050/158286, William Yale, «Palestine-Syria Situation,» 10 July 1917; DU SA 493/15/85-98, G. B. Stewart (Treasurer, Syrian Protestant College) to Sa'id Shuqayr, 7 June 1919.

(51) **المقتبس**، 15 آذار/ مارس 1915، ص 2؛ **المقتبس**، 13 حزيران/ يونيو 1915، ص 2.

(52) **المقتبس**، 10 كانون الثاني/ يناير 1915، ص 2؛ *Arab* ... *The Near East*, 28 April 1916, p. 701; =

معدلات الانتحار، والجريمة، والتشرد. وبحلول منتصف الحرب، هددت عصابات من الفارين من الجيش العثماني أمن القرى المحيطة بالمدينة، ولم يؤد كل ذلك إلا إلى خنق التجارة المحلية. وأدى انعدام الأمن في الريف، في المقابل، إلى تدفق سيل اللاجئين إلى المدينة، مما زاد من حجم سكان المناطق الحضرية (وفقًا لتقرير مبالغ فيه في ما يُرجح) ليبلغ ما يناهز نصف مليون إنسان. كما أدى الاكتظاظ السكاني، إضافةً إلى المضاربة في العقارات، إلى رفع تكلفة السكن داخل أسوار دمشق وفي المناطق المجاورة لها على حد سواء، فبلغت من الارتفاع ما جعل المعدل المتوسط للربح في مجال العقارات الحضرية يتضاعف بحلول عام 1918 من 4 إلى 8 في المئة[53].

على الرغم من أنه كان للحرب أثر مدمر على صعيد الطبقات الشعبية بوجه عام، إلا أنه كانت لها تأثيرات مختلطة على الطبقات العليا. فمن ناحية، نفت الحكومة العثمانية عائلات «مرتكبي الجرائم الاقتصادية» (المضاربين)، والمجرمين السياسيين، والفارين من الخدمة، وصادرت ممتلكاتهم[54]. ففي كانون الأول/ ديسمبر من عام 1916، على سبيل المثال، ووفقًا لتقرير نشر في صحيفة **القبلة** التي كانت تصدر في مكة (المؤيدة للأشراف)، اعتقلت السلطات العثمانية 150 شخصيةً من أعيان دمشق، ونفت 100 عائلة إلى الأناضول.

Bulletin, 30 June 1916, p. 2; *Arab Bulletin*, 14 July 1916, pp. 3-4; FO 371/2779/165094, «Arabian Report N.S. No. V. (Week Ending August 16, 1916)»; FO 371/2779/170425, Dr. Franklin Hoskins, 29 August 1916; FO 371/3058/117734, «Memorandum of Conversation with Mr. Samuel Edelman, U.S. Consul at Damascus,» 10 June 1917.

(53) **المقتبس**، 16 كانون الثاني/ يناير 1915، ص 1؛ **القبلة**، 12 رجب 1335هـ ص 2؛ **القبلة**، 16 رجب 1335 هـ ص 3؛ FO 371/2783/221220, «Report of an Inhabitant of Athlit, Mt. Carmel, Syria,» n.d.; MAE L:SL/vol. 64/20, «Note sur les finances municipales, les travaux urbains, et la nécessité d'un crédit communal,» 8 January 1920(?); Schilcher, «The Famine of 1915-1918,» p. 241.

وفقًا لما أوردته صحيفة **الكوكب**، فقد حاول المجلس البلدي في دمشق، بعد إقامة الحكومة العربية، وضع برنامج لمراقبة الإيجارات نظرًا إلى أنه «يصح القول إن الزيادة في الإيجارات في هذه المدينة المزدحمة بالآلاف من الناس قد أصبحت موضوعًا للقيل والقال على نطاق واسع». **الكوكب**، 28 تشرين الأول/ أكتوبر 1919، ص 10.

(54) **المقتبس**، 9 نيسان/ أبريل 1915، ص 2؛ FO 371/2779/165094, «Arabian Report N.S. No. V. (Week Ending August 16, 1916)»; FO 371/3050/161668, «Mr. (William) Hall's Report on Syria,» 1 August 1917; Schilcher, *Families in Politics*, p. 17.

وبحلول تشرين الثاني/ نوفمبر من عام 1917، وفقًا لتقرير آخر نشرته الصحيفة، كان قد جرى نفي 450 عائلة ومصادرة ممتلكاتها[55]. ومن ناحية أخرى، أصاب بعض التجار الثراء من أعمال المضاربة والتهريب وبيع المؤن للجيش العثماني الرابع. ووفقًا لما أورده الصحافي محمد كرد علي، فقد «اغتنى كثير من التجار والعاملين والوسطاء من رجال الإدارة.. [جاءت النقود الذهبية إلى دمشق عبر إنفاق إدارات الجيشين العثماني والعربي].. حتى أصبحت البلاد في آخر سنتين للحرب في أحسن حالات اليسر والرخاء»[56].

إضافةً إلى ما أحدثته الحرب من آثار اجتماعية واقتصادية مباشرة على حياة سكان سورية، أعقب ذلك تأثيران سياسيان وثيقا الصلة متأتيان عن اندلاع الأعمال القتالية. أولًا، تحسبًا لهزيمة دول المركز وتقطيع أوصال الإمبراطورية العثمانية، أبرمت بريطانيا وفرنسا وسواهما من دول الوفاق مجموعة من الاتفاقات السرية التي تضمنت عرضًا موجزًا لخطط تهدف إلى التجزئة المنظمة للإمبراطورية العثمانية. ونصت إحدى هذه الاتفاقيات، عنينا اتفاقية سايكس - بيكو لعام 1916، على تقسيم الولايات العربية للإمبراطورية إلى مناطق تخضع للسيطرة البريطانية والفرنسية المباشرة منها وغير المباشرة[57]. وعلى الرغم مما طرأ عليها لاحقًا من تعديلات لاستيعاب الحالات الطارئة غير المتوقعة حينما جرى التفاوض بشأنها، فإن اتفاقية سايكس - بيكو وفرت التفسير المنطقي لما شهدته حقبة ما بعد الحرب العالمية الأولى من مطالب قومية متضاربة ومناورات دبلوماسية.

لقد تمثلت النتيجة السياسية الثانية ذات الصلة التي ترتبت على الحرب في تنصيب ممثل للأسرة الهاشمية المكية في دمشق. وفي عام 1916، شجع البريطانيون تمرد الشريف حسين وأبنائه على أسيادهم العثمانيين - عنينا «الثورة

(55) **القبلة**، 15 صفر 1335هـ، ص 2؛ **القبلة**، 16 محرم 1336هـ، ص 3.

(56) محمد كرد علي، **خطط الشام** (دمشق، 1983)، ج 4، ص 255؛ FO 371/3050/161668, «Mr. (William) Hall's Report on Syria,» 1 August 1917; FO 371/3413/179133, «Translation of a Document Captured by Desert Mounted Corps During Operation 19th to 21st September 1918».

(57) للاطلاع على النص الكامل لاتفاقية سايكس - بيكو وما طرأ عليها من تعديلات لاحقة، يُنظر: J. C. Hurewitz, *The Middle East and North Africa in World Politics: A Documentary Record*, vol. 2: *British-French Supremacy, 1914-1945* (New Haven, 1979), vol. 2, pp. 60-64, 118-128, 158-166.

العربية» - بوصفه جزءًا من الحملة الكبيرة المناهضة للإمبراطورية العثمانية. وفي تبادل للرسائل، تعهد البريطانيون بتقديم الدعم للحملة العسكرية وبقيام دولة أو دول عربية مستقلة عقب انتهاء الأعمال القتالية[58]. وتولى الأمير فيصل أحد أبناء الشريف <حسين> قيادة الجيش العربي الشمالي، الذي شارك في الحملة التي قادتها بريطانيا واتجهت شمالًا من الحجاز عبر فلسطين إلى سورية الحالية. ووفقًا للتقويمات السائدة (في هذه الحالة، تلك الصادرة عن مراقب أميركي الذي كتب لمحة موجزة بعد مدة وجيزة من دخول الأمير دمشق)، كان فيصل «ذا شخصية جذابة في المظهر والسلوك، ولديه عقلية ليبرالية، ومنفتح بكل محبة على الأطراف كافة. ولكنه ليس بالرجل القوي، وهو محاط بساسة أذكياء، ومحنكين، وعديمي الضمير، يمكنهم التأثير عليه بسهولة»[59]. وعلى الرغم من أنه بعد الاستيلاء على دمشق، كانت سلسلة القيادة التي تربط بين البريطانيين، وفيصل، والحاكم العسكري المعين في سورية مضطربة، إلا أن الاعتراف البريطاني - جنبًا إلى جنب مع المكانة العائلية (الانتساب إلى الأشراف) والعسكرية، وفي البداية، الاستخدام الحصيف للقوة - قد أدى إلى منح الأمير الشاب نفوذًا كافيًا لكي يوطد موقعه باعتباره «السلطة العليا على الشؤون العربية كافةً في سورية، الإدارية منها والعسكرية»[60].

بيد أن هذا الترتيب لم يجرِ التسليم به دون نقاش. وبحلول الوقت الذي دخلت فيه القوات البريطانية والأسترالية والعربية دمشق، كان الأتراك قد تخلوا عن المدينة بالفعل[61]. ومن أجل الحفاظ على النظام في أثناء الفترة الانتقالية، سعت

---

(58) يُنظر: Ibid., pp. 46-56.

(59) USNA 165/112/2075-2088, U.S. Military Attaché (Cairo), «The Political Situation in Syria,» 9 November 1918.

(60) Russell, *The First Modern Arab State*, p. 19.

(61) أفضل وصف لآخر أيام الحكومة التركية في دمشق وأحداث أواخر أيلول/ سبتمبر 1918 يمكن الاطلاع عليه في: وجيه الحفار، «الحكومات التي تعاقبت على الحكم في سورية»، **الشرطة والأمن العام**، السنة 1 (2 رمضان 1372هـ)، ص 12-13؛ (3 شوال 1372هـ)، ص 18-19، 47. يُنظر أيضًا: محمد جميل بيهم، **سورية ولبنان: 1918-1922** (بيروت، 1968)، ص 44-48؛ Elie Kedourie, «The Capture of Damascus, 1 October 1918,» in: *The Chatham House Version and Other Middle Eastern Studies* (Hanover, N.H., 1970), pp. 33-51; =

عدة جماعات إلى تنظيم سلطة حاكمة في المدينة. وما إن أوشكت دمشق على السقوط، حتى كلف جمال باشا (الصغير)، آخر حكام سورية العثمانيين، سعيد الجزائري بتأليف حرس مدني من بين عملائه للمحافظة على النظام. ولئن كان آل الجزائري وافدين جددًا نسبيًا على دمشق، إلا أن هذه الأسرة اكتسبت مكانةً بارزة في الشؤون المحلية نظرًا إلى الدور الذي اضطلعت به في إخماد أعمال الشغب بين الطوائف التي عصفت بالمدينة في عام 1860[62]. وقد التمس سعيد الجزائري المساعدة من الشيخ رضا العطار، وهو ضابط في الجيش العثماني وسليل عائلة بارزة من القضاة في دمشق، وأمين الطرابلسي، قائد الشرطة المحلية. وسرعان ما انضم إلى جهودهم تلك سواهم من البارزين المقيمين في دمشق، ومن بينهم فارس الخوري، وطاهر الجزائري، وعطا الأيوبي، وبديع المؤيد <العظم>، وشاكر الحنبلي، وسعدي كحالة، وأمين التميمي، والشيخ عبد القادر الخطيب، الخطيب السابق (الواعظ) في الجامع الأموي الذي عينه آل الجزائري رئيسًا لبلدية دمشق. وكان عدد من هؤلاء الرجال قد اجتمعوا من قبل في دار محمود البارودي، الذي يعد واحدًا من أغنى ملّاك الأراضي في دمشق، حيث أسسوا «لجنة وطنية» لضمان تسليم المدينة بشكل سلمي للجيش الأنكلو - عربي المتقدم. وبعد أن تفاوضت اللجنة الوطنية بشأن إبرام اتفاق بين سعيد الجزائري وممثل عن الجيش العربي، ألا وهو شكري الأيوبي[63]، عين الجزائري حكومة من بين الأفراد المذكورين أعلاه منصبًا نفسه «رئيس الحكومة السورية العربية»، وشقيقه، عبد القادر الجزائري، قائدًا لسلاح الفرسان العربي، وشكري الأيوبي حاكمًا عسكريًا.

= أنور الرفاعي، **جهاد نصف قرن: سمو الأمير سعيد الجزائري** (دمشق، [د. ت.])، ص 96-104؛ عبد العزيز العظمة، **مرآة الشام: تاريخ دمشق وأهلها** (لندن، 1987)، ص 235؛ سلطان، **تاريخ سورية**، ص 18؛ FO 882/7/352ff., T. E. Lawrence, «The Destruction of the Fourth Army,» *Arab Bulletin*, no. 106 (22 October 1918); FO 371/3383/169562/559ff., Clayton to FO, 8 October 1918.

(62) كان عبد القادر الجزائري، جد سعيد الجزائري، قد تولى قيادة المقاومة الجزائرية المناهضة للمطامح الاستعمارية الفرنسية في الثلاثينيات من القرن التاسع عشر. واستقر في دمشق في عام 1855 بعدما وقع في الأسر. يُنظر: John Ruedy, *Modern Algeria: The Origins and Development of a Nation* (Bloomington, 1992), pp. 57-66.

(63) وفقًا لما أورده الحفار، فإن قائد الجيش العثماني المغادر كان قد عهد إلى الأيوبي بمهمة الحفاظ على الأمن في المدينة.

ربما لن يكون الموقف الحقيقي الذي اتخذه آل الجزائري وحكومتهم إزاء فيصل والثورة العربية معروفًا على الإطلاق؛ وعلى نحو مماثل، من الصعب تقويم ما إذا كان الطرفان ربما قادرين في نهاية المطاف على بلوغ شكل من أشكال التسوية في ما لو كانا بمأمن من التدخل البريطاني أم لا[64]. وأيًا كانت الاحتمالات، لم يحدث هذا الأمر: إذ اعتبر ت. إ. لورنس الذي أخفت وظيفته التي كان يشغلها بوصفه ضابط ارتباط بين السلطات البريطانية والقوات العربية مدى التأثير الذي مارسه على الأمير الشاب – أن آل الجزائري وأنصارهم من الدمشقيين و«المغاربة» يمثلون تهديدًا للأمير الذي كان يحظى برعايته، ولذا تعامل مع الشقيقين <من آل الجزائري> وحكومتهما بازدراء سافر. وكتب قائلًا: «كلاهما مجنونان، ومؤيدان للأتراك أيضًا، ومتعصبان تعصبًا دينيًا أعمى».

> ونتيجة لذلك أرسلت في طلبهما، وأعلنت بوصفي ممثلًا لفيصل أمام هيئة البلدية وشيوخ الحارات عن إسناد منصب الحاكم العسكري إلى شكري الأيوبي (كان علي رضا <الركابي>، المعتزم تعيينه حاكمًا غائبًا)، وحل الإدارة المدنية الموقتة لآل الجزائري. وقد تقبلوا الأمر بصعوبة إلى حد ما، واضطرت إلى إعادتهم إلى منزلهم[65].

وعلى الرغم من أنه سرعان ما تمكن فيصل وأتباعه، بمساعدة بريطانية، من القضاء على مزاحميهم على مواقع السلطة (فقد أُردي عبد القادر الجزائري قتيلًا بالرصاص في ظروف مثيرة للجدل بعد وصول الجيش الأنكلو – عربي إلى دمشق بوقت وجيز، بينما نفى البريطانيون سعيد الجزائري إلى حيفا)، ظل العديد من أعيان دمشق ممتعضين من حكامهم الجدد، إذ انتابهم شعور بأنهم فرضوا عليهم بقوة السلاح.

بعد دخول الجيش الأنكلو – عربي إلى دمشق، تسابقت وحدات من الجيش العربي شمالًا للاستيلاء على حمص وحماه وحلب. وبالتزامن مع ذلك، تخلى

---

(64) يزعم الحفار أنه بينما تعهد آل الجزائري ظاهريًا بدعمهم للهاشميين، إلا أنهم كانوا في الواقع يستعدون للحرب الأهلية. يُنظر: الحفار، «الحكومات التي تعاقبت» (3 شوال 1372هـ)، ص 47.

(65) FO 882/7/352ff; Lawrence, «The Destruction».

الجيش البريطاني عن السيطرة على عمان في الجنوب لممثل محلي للأمير. وفي 22 تشرين الأول/ أكتوبر من عام 1918، قسم الجنرال السير إدموند إتش. أللنبي، القائد الأعلى لقوة التجريدة المصرية التي قادت الحملة السورية، الأراضي العثمانية السابقة الخاضعة لسلطته إلى منطقتين إداريتين. وأخضع الأراضي الداخلية الممتدة من الحجاز شمالًا إلى دمشق وحلب لسلطة إدارة أراضي العدو المحتلة - شرق. وأنشأ أللنبي في الغرب منطقة ساحلية شملت ولاية بيروت العثمانية في مرحلة ما قبل الحرب، وفي بادئ الأمر، البلدات الداخلية حاصبيا، وراشيا، والمعلقة، وبعلبك لتكون تحت إشراف إدارة أراضي العدو المحتلة - غرب. وبينما خضعت المنطقة الثانية هذه للإدارة الفرنسية، وافق البريطانيون على إقامة حكومة عربية مؤقتة بقيادة الأمير فيصل في المنطقة الداخلية (الشرقية)[66].

حاول فيصل، حتى قبل أن يكتمل أداء الإدارة العربية لوظائفها، ومعه أقرب أعوانه من الجيش العربي، ومجموعة مختارة من الأعوان غير العسكريين الفوز بالحظوة لدى عامة الشعب، وإرساء صلات مباشرة مع سكان منطقتهم. وقد واصلت حكومة فيصل العمل ببرامج الرعاية العثمانية التي كانت قد توقفت إبان الحرب، واستأنفت دفع الرواتب التقاعدية لأرامل الحرب والأيتام وموظفي الإدارة العثمانية السابقين وعائلاتهم[67]. كذلك حاولت الحكومة الحفاظ على استقرار الأسعار والحيلولة دون نقص الغذاء في المراكز المدينية عبر شراء الحبوب بصورة مباشرة من المزارعين في حوران، وتأسست اللجان في

---

(66) استحدثت سلطة ثالثة، ألا وهي إدارة أراضي العدو المحتلة - شمال، في كانون الثاني/ يناير 1919. وقد ادعت كلتا الحكومتين البريطانية والعربية الولاية القضائية على فلسطين. يُنظر: Russell, *First Modern Arab State,* pp. 17-21, 26-27.

ولعل الرواية الأكثر استحقاقًا للقراءة بشأن المناورات الدبلوماسية التي جرت بعد الحرب العالمية الأولى يمكن الاطلاع عليها في: David Fromkin, *A Peace to End All Peace: The Fall of the Ottoman Empire and the Creation of the Modern Middle East* (New York, 1989), pp. 338-339;

وللاطلاع على تقسيم الأراضي المحتلة، يُنظر ص 338-339.

(67) **العاصمة**، 17 نيسان/ أبريل 1919؛ DU SA 493/16/13-15, Sa'id Shuqayr, «Points to Be Discussed with Col. Waters-Taylor at Haifa on the 11th August, 1919»;

العاصمة، 23 شباط/ فبراير 1920، ص 4؛ DU SA 493/15/5, n.d.

كل حي للإشراف على توزيع المواد الغذائية. ووزعت الحبوب من المخازن المصادرة على السكان الفقراء، كما وزعت البذار على المزارعين الذين يعانون من الفاقة[68].

وبدافع الحرص على أن يدرك السكان من هو الطرف المسؤول عن أكبر عملية توزيع للهبات من جانب الحكومة العربية، غالبًا ما كان ينضم إلى المسؤولين الرفيعي المستوى، حاشية من البيروقراطيين، وصحافيون، بل وحتى شعراء كانوا يكلفون بنظم القصائد في مديح الأمير فيصل أو الحكومة، كما كان هؤلاء المسؤولون ومن معهم يزورون أحياء دمشق والمدن الأخرى ويجولون الريف حيث يوزعون الهدايا في الاحتفالات التي كانت تهدف إلى إضفاء المهابة على المناسبة. والمثال على ذلك، الجولة التي نفذها علي رضا الركابي، أول حاكم عسكري للمنطقة الشرقية، في أرجاء سورية في شهر كانون الثاني/ يناير من عام 1919. ووفقًا للرواية التي كتبها الصحافي الذي كان يرافقه، فما إن كان الركابي يدخل قرية، حتى يجمع الزارعين المحليين للبحث في الظروف والمشكلات التي يواجهونها، ويحث هؤلاء على تقديم العرائض له مباشرة إذا كانوا يعانون من أي ظلم. وفي حمص، أعلن الركابي عفوًا عامًا عن المجرمين، ومنح التكريمات، ووزع الأموال لنقل الجنود السوريين العائدين من الأناضول الذين قاتلوا في صفوف الجيش العثماني وتأمين المأوى لهم. وفي حماه وحلب، وزع البذار على القرويين المحليين، ووعد بتأجيل دفع ديون المزارعين، وأسهم في التبرعات الخيرية المحلية، وأمر بتركيب مرافق الأشغال العامة[69]. وقد واصل الركابي جولاته حتى ربيع عام 1920. وزار الركابي في أثناء آخر جولة موثقة له، ومرة أخرى بحضور صحافيين، مختلف أحياء دمشق، وتفقد أفران الخبز. وحين

---

(68) FO 371/3412/180073/148, Clayton to FO, 28 October 1918; FO 371/3412/189713/184, Clayton to FO, 14 November 1918; FO 371/4143/104019, Major General Sir Walter Lawrence to Commander in Chief (Egypt), 13 May 1919; DU SA 493/15/28-9, General Director of Agricultural Bank to Minister of Finance, 9 July 1919؛ **العاصمة** 1 كانون الأول/ ديسمبر 1919، ص 2؛ **العاصمة** 29 كانون الأول/ ديسمبر 1919، ص 2؛ سهيلة الريماوي، **التجربة الفيصلية في بلاد الشام** (عمان، 1988)، ص 41.

(69) نطالع سردًا كاملًا لرحلة علي رضا الركابي لدى، خليل مردم بك، **دمشق والقدس في العشرينات**، شرحه وقدم له عدنان مردم بك (بيروت، 1978)، ص 24-66.

اكتشف استخدام دقيق مغشوش أو تلاعبًا بالأوزان أمر باعتقال المسؤولين عن هذه الأعمال. كذلك أجرى مسؤولون رفيعو المستوى، ومنهم الأمير فيصل ذاته جولات مماثلة[70].

في أي حال، لم تقتصر هبات الحكومة ودعايتها على الفلاحين والجماهير في المدن وحسب، بل كثيرًا ما اشتكى المسؤولون البريطانيون من أن معظم أموال المعونة التي كانوا يقدمونها للحكومة العربية كانت تستخدم في شراء ولاءات السوريين من الأثرياء وأصحاب النفوذ. وكانت الحكومة معتادة على دفع الأموال لرؤساء العشائر والسياسيين وأعضاء الجمعيات السياسية والثقافية، والزعماء الروحيين لمختلف الأديان، والصحافيين. وتحفل سجلات المستشار المالي لدى الحكومة العربية سعيد شقير بإشارات إلى الرشى السياسية: توزيع 16 ألف جنيه مصري على أعيان جونية؛ و100 جنيه مصري لحاخام دمشق؛ و25 ألف جنيه لأغراض الدعاية في بيروت؛ و1500 جنيه مصري للكنائس الأرثوذكسية في دمشق[71]. وفي شهر حزيران/يونيو من عام 1919 وحده سجل شقير مدفوعات بوصفها «تبرعات» أو «نفقات غير منتظمة أو استثنائية» لكل من نسيب الأطرش، وعادل أرسلان وزعماء دروز آخرين؛ وشيوخ عشائر الذياب، والدهامشة، والمجالي؛ وعودة أبي تايه، وابن عودة أبي تايه شيخ قبيلة الحويطات؛ ونوري الشعلان شيخ قبيلة الرولة؛ ونادي الروم الكاثوليك، واللجنة الإسلامية - المسيحية، ولجنة الأليانس (الاتحاد الإسرائيلي؟)، والمنتدى الأدبي؛ وعبد القادر الخطيب؛ ويوسف العظمة الذي عينه فيصل لاحقًا رئيسًا للمجلس الحربي للحكومة العربية؛ والناشطين في النادي العربي فائز الخوري ومراد (محمد) رشدي؛ وجبرائيل حداد قائد الدرك (وتشير السجلات إلى أن هذه المدفوعات كانت مدرجة تحت بند «الأثاث»)؛ ومجموعة متنوعة من وفود البدو الذين يزورون دمشق (لتوفير الطعام والمأوى لهم)؛ وأصحاب الصحف، وآخرين

---

(70) العاصمة، 5 نيسان/ أبريل 1920، ص 5؛ MD 4H112/dossier 2b/68, «Renseignements d'officier liaison d' Alep,» 10 June 1920; AD 2346/c1a/sous-dossier 19: Voyage Fayçal à Alep/73, «Renseignements d'officier liaison d'Alep,» 15 July 1920; AD 2346/cia/sous-dossier 19: Voyage Faysal à Alep/77, «Renseignements d'officier liaison d' Alep,» 22 July 1920; Angelil, «L'occupation d'Homs».

(71) DU SA 493/13/25-35, Shuqayr to Waters-Taylor, 3 September 1919.

سواهم. وقد وصلت قيمة المدفوعات المشابهة في الشهر التالي إلى مبلغ قدره 22,378 جنيهًا مصريًا – أي ما يعادل قرابة عشر الإيرادات الحكومية المتوقعة(72).

على الرغم من الجهود التي بذلتها الحكومة العربية إلا أنها لم تكن قادرة على الحفاظ إلا على مظهر شكلي واهٍ للسلطة خارج دمشق. ولم يتسم الجهاز الحكومي الذي أنشئ من أجل الإشراف على المنطقة الشرقية بالبراعة والكفاية: فقد كان يتألف في الواقع من كتلة متشابكة من خطوط السلطة المرسومة بصورة غامضة، ومتناقضة أحيانًا تربط ما بين الجنرال أللنبي، وفيصل، والركابي، والجهاز البيروقراطي. وعلاوة على ذلك، واصل الأعيان المحليون الهيمنة على الحكومات المحلية التي تشرف على إدارة معظم المدن، وغالبًا ما اصطدمت اهتمامات هؤلاء الأعيان ومصالحهم باهتمامات ومصالح الحكومة العربية وممثليها الذين أرسلتهم دمشق. وانتاب الزعامة المدينية المحلية هذه شعور بالغيرة إزاء الاهتمام الذي راحت تغدقه الحكومة العربية على العاصمة، وباتت تتخوف من السياسات المركزية التي خطط لها أولئك الذين كانت تنظر إليهم على أنهم من محدثي النعمة والأجانب، وتشعر بالاستياء من حكومة لم تكتف بأن تدعي لنفسها الحق في مصادر الإيرادات المحلية والأجنبية وحسب، بل يبدو أنه اقترن لديها الافتقار إلى الكفاية بالغطرسة(73). واتسمت العلاقات القائمة بين أعيان حلب والحكومة في دمشق بالتوتر بصورة خاصة، وتفاقمت الأمور نظرًا إلى الخلافات بينهما بشأن قضايا السياسة الخارجية والتجارة. وفي أول رحلة للأمير إلى الشمال في عام

---

(72) DU SA 493/14/31-32; DU SA 493/13/4, Appendix to letter from Shuqayr to Waters-Taylor, 3 September 1919; DU SA 493/14/33; DU SA 493/13/7, Appendix to letter from Shuqayr to Waters-Taylor, 3 September 1919; DU SA 493/13/7, Appendix to letter from Shuqayr to Waters-Taylor, 3 September 1919; DU SA 493/9/19, «Statement of Estimated Expenditure Submitted to H.H. Emir Faisal on 5th June, 1919».

تشتمل تقديرات الإيرادات على المعونة المالية الشهرية البالغة قيمتها 150 ألف جنيه مصري المقدمة من الحكومة البريطانية. وتجدر الإشارة أيضًا إلى أن أحد الخبراء البريطانيين ممن درسوا هذه الأرقام استخدم كلمة «هزلية» لوصف توقعات إيرادات الحكومة العربية.

FO 371/5032/990/93-97, «Report by Col. Waters-Taylor on his visit to Beirut, and interviews with General Gouraud and the Emir Feisal,» 21 January 1920.

(73) *Arab Bulletin,* 11 July 1918, p. 200; FO 371/3385/199351/16, Sykes to FO, 2 December 1918; FO 371/3386/208324, Sir L. Mallet, Minutes to Telegram 11457 and 11513, 18 December 1918; FO 371/4143/39115, Lt. Col. R. W. Graves, «Finance in OETA-East,» 27 December 1918.

1918، ذكر صراحة إعراض سكان المدينة عن تقديم المساعدة للثورة العربية، ثم حل المجلس الإداري المحلي (مجلس الشورى) في المدينة، وعين لجنة حاكمة مؤلفة من أنصاره. وقد ظل التوتر الشديد يشوب العلاقات تلك على نحو ما تجلى حين وصل في ربيع عام 1920 إلى دمشق وفد من أعيان حلب في أثناء الاحتفال بتتويج فيصل ملكًا على سورية[74]، وتفيد التقارير أنهم طالبوا بالحكم الذاتي لمدينتهم والريف المحيط بها[75].

مع ذلك، ربما كان بإمكان الحكومة العربية أن تتحايل على الزعماء المحليين المتمردين أو أن تتدبر الحصول على دعمهم وأن تشكل توافقًا شعبيًا على المدى الطويل، فيما لو حصلت على دعم دولي، وحافظت على حرية الوصول إلى موارد اقتصادية يعول عليها، وتولت عملية التعافي الاقتصادي. بيد أنها، على أي حال، كانت عاجزة عن إنجاز أي من هذه الأمور. فمنذ نشأتها ابتليت المنطقة الشرقية بمشكلات مالية ونقدية. وحينما دخلت قوات دول الوفاق سورية، كانت مجموعة من العملات المعدنية والورقية قيد التداول فيها. ومن أجل وضع حد للفوضى المالية، فرض الجنرال أللنبي أن تكون العملة الرسمية هي الجنيه المصري المدعوم من الجنيه الإسترليني. وكان ذلك خيارًا منطقيًا: فقد كان الجيش البريطاني الذي يتخذ من مصر مركزًا له ويحتل سورية يتقاضى رواتبه بهذه العملة، بينما البديل - المحافظة على أن تكون العملة العثمانية الضعيفة قانونية - وهذا مؤداه الموافقة على استخدام نقود صادرة عن حكومة لم تعد قائمة ومدعومة من المارك الألماني الذي لم تعد له قيمة. إلا أن الأمر الذي أصدره أللنبي أدى إلى نشوء مجموعة من المشكلات غير المتوقعة. ولما كانت السلطات البريطانية قد

---

(74) ضم وفد حلب الذي وصل دمشق لتهنئة فيصل الأول بعد مبايعته ملكًا في عضويته كلًا من: الشيخ بشير الغزي قاضي حلب، ومطران الروم الأرثوذكس، ومطران الروم الكاثوليك، ورئيس حاخامي حلب، ووكيل مطران الأرمن الأرثوذكس، ووكيل مطران الأرمن الكاثوليك، وغالب إبراهيم باشا، وصادق الرفاعي، وبشير الكيخيا، وجرجي الخياط، وفاخر الجابري، ويوسف الأسود، وأحمد المدرس، والدكتور عبد الرحمن الكيالي، وحكمة العادلي، ورحمون نحماد. يُقارن مع: وفد حلب، **العاصمة**، السنة 2، العدد 11، الخميس 18 آذار/ مارس 1920، ص 5. (المترجم)

(75) كامل الغزي، **نهر الذهب في تاريخ حلب**، 3 ج (حلب، 1923-1926)، ج 3، ص 655-656؛ USNA 59/890d.00/9/473, J. B. Jackson to U.S. Secretary of State, 13 March 1920.

قيدت في البداية تداول الجنيه المصري للحيلولة دون التضخم، مما جعله نادرًا في المناطق الواقعة خارج دمشق والمدن الفلسطينية. علاوة على ذلك، لم يكن لدى السوريين حماسة على الإطلاق لاستخدام العملة الجديدة: إذ واجه العديد منهم صعوبات في التحويل من نظام للتقييم إلى نظام آخر. وكان التجار الذين يتعاملون مع مناطق الأناضول والساحل يخشون انقطاع تجارتهم من الأسواق الواقعة خارج سورية(76). ومما زاد الطين بلة، استمرار انخفاض قيمة الجنيه المصري بثبات لمدة عام بعد الحرب قبل أن يصل إلى حد الانهيار في خريف عام 1919.

وهكذا، استمر السوريون في تداول العملات العثمانية والأجنبية، وتقدير قيمتها بناء على ما تحتوي عليه من معادن. وقد برهن ذلك على أنه ليس عمليًا أيضًا: إذ إن القيمة النسبية للعملة كانت تتذبذب كثيرًا، وغالبًا ما كان ذلك استجابة للقرارات التي يجري اتخاذها في لندن، وباريس، واسطنبول، وحتى بغداد. فحينما أعلنت الإدارة البريطانية في بغداد، على سبيل المثال، عدم قانونية تداول النقود المعدنية العثمانية المسكوكة بالفضة والنيكل، أغرقت دمشق بتلك العملات، مما أدى إلى انخفاض حاد في قيمتها، لدرجة أن ذلك تسبب، حسبما أفاد أحد المراقبين البريطانيين، بـ «مصاعب جسيمة للسكان»(77).

لقد أدت تصرفات دول الوفاق، وضعف الجهاز البيروقراطي، والسياسات المالية التي انتهجتها الحكومة العربية إلى تضاؤل الموارد الحكومية. ولم يقتصر الأمر على كون الحكومة العثمانية قد حصلت مسبقًا ضرائب السنة القادمة في الوقت الذي وصل فيه الجيش الأنكلو - عربي إلى دمشق، بل إن الإدارة الجديدة كانت تفتقر في معظم مناطق سورية إلى السلطة الكافية لجمع الإيرادات. وإضافةً إلى ذلك، لم يكن من المألوف أن نجد وكلاء من ذوي الكفاية والولاء التامين

FO 371/3383/169803, Adam Block and Mark Sykes, addendum to minutes for 17 October (76) 1918; FO 371/3413/188081/Q.K.T. 4826, GHQ to WO, 10 November 1918; WO 106/189/75957, WO to GHQ 7 March 1919; FO 371/4171/63664/395, India Office Bank to FO, 24 March 1919.

76. FO 371/4140/104076/E. A. 2588, GHQ to WO, 13 July 1919; AD 2347/12350/427, Adel (77) Arslane [sic]to Cousse, 11 December 1919.

يتولون جباية الإيرادات وتحصيلها. وقد كتب سعيد شقير لمشرفيه البريطانيين في صيف عام 1919 قائلًا: «إنه لمن دواعي الأسف الشديد أن أعلمكم بأنه لن يكون بالإمكان أن نرسل لكم حسابات شهر حزيران/ يونيو بحلول منتصف هذا الشهر»،

> مما مرده إلى افتقار محاسبي المناطق للكفاية وأن حساباتهم متأخرة جدًا على نحو يبعث على الأسى. ولدى قدومي إلى هنا في أيار/ مايو الماضي لم أجد أيًا من حسابات العام الماضي (من تشرين الأول/ أكتوبر وحتى كانون الأول/ ديسمبر)، إضافةً إلى حسابات الربع الأول من هذا العام قد أغلقت... واسمحوا لي أن أقول إن بعض المحاسبين قد حرى فصلهم عن العمل إما بسبب افتقارهم للكفاية أو الفساد. وحل محلهم محاسبون آخرون، وآمل أن يجري الحفاظ على الحسابات في المستقبل على نحو أفضل[78].

حتى إن **الكوكب**، وهي صحيفة من المعتاد أن تكون داعمة للحكومة العربية، أقرت بأن الموظفين «لا يتقنون الكتابة باللغة العربية وحتى ليس لديهم القدرة على التعبير عن أفكارهم من دون أخطاء»[79]. فضلًا عن ذلك، كانت حاجة الحكومة إلى الإيرادات تتعارض مع استراتيجيتها الرامية إلى ضمان الحصول على الدعم الشعبي. ولما كانت الحكومة العربية تسعى في المقام الأول إلى الفوز بدعم السكان السوريين لها عبر منحهم إعفاءات ضريبية، فعمدت إلى إلغاء ضريبتين عثمانيتين كانتا مثار كراهية الأهالي واستيائهم: <أولاهما> ضريبة ويركو الحرب، التي أدت، من جملة أمور أخرى، إلى زيادة الضرائب على الرواتب بنسبة 3 في المئة، وعلى العقارات بمعدل 25 في المئة؛ و<ثانيهما> الضرائب الخاصة التي كانت قد فرضت بالأساس في عامي 1911-1912 لرفد الإيرادات. وأخيرًا، كانت إيرادات بعينها، مثل ضريبة العشر في سناجق دمشق، وحلب، وحماه، وضريبة الأغنام في حلب، غير متاحة للحكومة العربية نظرًا إلى كونها مرهونة لإدارة الدين العام العثماني من أجل سداد الديون التي جلبتها على نفسها الحكومة السابقة[80].

---

(78) DU SA 493/16/37/6/7762, Shuqayr, 7 July 1919.

(79) **الكوكب**، 4 تشرين الثاني/ نوفمبر 1919، ص 10.

(80) DU SA 493/9/6, Proclamation of General Sir Edmund Allenby, 7 May 1918; FO =

من أجل تعويض النقص في الإيرادات، قدم البريطانيون للحكومة العربية معونة مالية شهرية بلغت قيمتها 150 ألف جنيه مصري. ونظرًا إلى أن هذه المعونة وفرت للحكومة البريطانية الوسيلة لضمان كل من السيولة المالية والولاء المتواصل لحليفها أيام الحرب، ولربما كانت التعهدات البريطانية بتقديم مبلغ ثابت يدفع على شكل أقساط منتظمة حلًا سياسيًا مناسبًا للمشكلات المالية للحكومة العربية. بيد أن هذه الدفعات أدت كذلك إلى إحداث مشكلات أضعفت الاقتصاد: فالأموال التي ضختها المعونة بصورة مباشرة في الاقتصاد، وعززتها الأموال التي كان ينفقها جيش الاحتلال البريطاني، قد استهدفت عددًا محدودًا من البضائع، فكانت النتيجة تضخم الأسعار. كذلك فإن طول مدة الحظر والقيود التي فرضتها دول الوفاق على التجارة الداخلية، والتجارة مع تركيا، والمضاربة، والتخزين، والمخاطر التي تحف باستخدام وسائط النقل، أدت إلى المزيد من الارتفاع في الأسعار(81). وبالمجمل، لم يؤد التضخم إلى إضعاف القدرات المالية للحكومة العربية وحسب، وإنما أدى إلى ظهور مشكلة أخرى يبدو أنه لا سبيل إلى حلها؛ إذ إنها مست الحياة اليومية لمن كانت تحكمهم، فضلًا عن أنها قوضت سلطتها المعنوية.

لم يمكث فيصل ذاته في سورية سوى مدة وجيزة لم تمكنه من معالجة المشكلات السياسية ولا الاقتصادية. ففي 11 تشرين الثاني/ نوفمبر من عام 1918، وبعد أقل من ستة أسابيع على وصول الأمير إلى دمشق، عين الشريف حسين ابنه ممثلًا له في مؤتمر السلام في باريس الذي سوف تقرر فيه دول الوفاق مصير المناطق التي كانت خاضعة للسلطنة العثمانية. وقد مكث فيصل في أوروبا

371/4143/39115, Lt. Col. R. W. Graves, «Finance in OETA-East»; MAE L: AH/vol. 3/98, Moulin, «Examen = du budget de 1919. Zone Est,» 7 February 1919; DU SA 493/6/71-2. «Revenues for 1919»; DU SA 493/6/35-41, Shuqayr, 15 January 1920.

(81) Russell, *The First Modern Arab State,* pp. 142-146; FO 371/3412/177154/3222, Clayton to FO, 22 October 1918; MAE L:SL/vol. 78/1586, Paul Cambon, 28 December 1918; العاصمة، 26 نيسان/ أبريل 1919، ص 7-8؛ FO 371/4143/104019, Major General Sir Walter Lawrence to Commander in Chief (Egypt), 13 May 1919; FO 371/4228/111406, Balfour to Curzon, 21 July 1919; FO 371/4228/120623/EA2612, GHQ to WO, 6 August 1919; FO 371/4228/156929/501, Meinertzhagen to FO, 25 November 1919; MD 4H114/2/261, Cousse to Gouraud, 3 April 192o; MD 4H112/2b/25, «Renseignements du 24 au 30 Avril [1920]».

خمسة أشهر. وعاد إلى دمشق أوائل شهر أيار/ مايو من عام 1919 ليتولى مسؤولية الاستعداد لاستقبال اللجنة المشتركة بين الحلفاء بشأن سورية (أطلق عليها في ما بعد اسم لجنة كينغ - كرين) التي عينت بإلحاح من الرئيس الأميركي وودرو ويلسون «لاستجلاء الآراء [في سورية] بشأن الدولة التي ستنتدب لإدارتها»(82)، وتقديم اقتراحات للمؤتمر بشأن مستقبل سورية. وعقب زيارة اللجنة السيئة الطالع تلك، سافر فيصل مرة أخرى إلى أوروبا، ومكث فيها هذه المرة أربعة أشهر، وإبان غياب فيصل، فوض الشريف حسين الأمير زيد وهو شقيق فيصل البالغ من العمر واحدًا وعشرين عامًا، ليمثل الأسرة في دمشق. وكان أحد المراقبين البريطانيين قد وصف زيد بعبارات مثل «لين العريكة في تعامله وغامض في أفكاره»، و«مطواع [و] يتأثر كثيرًا بالمحيطين به» و«على دراية تامة بمبلغ جهله وينوء تحت أعباء مفرطة بسبب إحساسه بالقلق الناشئ عن منصبه الحالي»، و«مادة جيدة للطبيب النفسي» - لم يكن حاكمًا ملهمًا (ووفقًا لعدد من التقارير كان فاسقًا منغمسًا في الملذات) إلى درجة أن ضابط الارتباط الفرنسي في دمشق نصح الحكومة الفرنسية بإيقاف المفاوضات الجارية مع فيصل في باريس، لئلا يغدو السوريون الذين يزداد تعرفهم إلى زيد، مشمئزين من الأسرة الهاشمية بأكملها(83).

كان للإعلان عن الزيارة المرتقبة للجنة كينغ - كرين إلى الشرق الأوسط تداعيات على السياسة السورية لم يكن يتوقعها ممثلو دول الوفاق المجتمعون في باريس ولا الحكومة العربية في دمشق. فعلى الرغم من الالتزام الاسمي بـ«إقامة حكومات قومية [في الشرق الأوسط]... تستمد سلطتها من مبادرة

(82) Hurewitz, *The Middle East and North Africa,* vol. 2, p. 191;
يُنظر أيضًا: Arthur S. Link (ed.), *The Papers of Woodrow Wilson* (Princeton, 1987), vol. 56, p. 116.

(83) FO 371/2773/122968, Copy of report by Ronald Storrs, 10 June 1916; IO L/PS/10/802/11-13, Gertrude Bell, «Syria in October 1919,» 15 November 1919. AD 2368/10/2, Rapports du capt. Pichon et du lt. col. Cousse 1919/66, Cousse to HC, 9 January 1919.

وفقًا لتقرير آخر، «لا يبدي زيد أي قدر من الندم؛ ويمكن القول من دون مبالغة إنه تتناهى إلى مسامع المرء ألف فضيحة وفضيحة تتعلق بحياته الخاصة، وحفلات العربدة التي ينغمس فيها في منطقة المزة، والنساء اللاتي تعرضن للتعذيب أو القتل، و'التراخيص' المطلوبة بصورة شخصية من بعض التجار والمصدرين، إلخ.... مما يترك انطباعًا لدى الدمشقيين بأنه همجي حقيقي». MAE 4H114/5/no no., Cousse to Toulat, 1 August 1920.

السكان المحليين وخيارهم الحر»[84]، إلا أن ممثلي بريطانيا وفرنسا في مؤتمر السلام كانوا ينظرون إلى اللجنة على أنها ليست أكثر من مجرد أمر مزعج ورفضوا تعيين مندوبين لهم فيها أو الالتزام بالنتائج التي تمخضت عنها. وثبت أن الدعم الأميركي للجنة كان باهتًا[85]، ولكن مهما كانت الشكوك التي كان الأمير فيصل وأنصاره يحملونها سرًا حيال مصداقية دول الوفاق، إلا أنهم تمسكوا علنًا بهذه القشة. وفي مطالع حزيران/ يونيو من عام 1919، دعا الأمير النواب في المؤتمر السوري العام وعهد إليهم بمهمة صياغة لائحة بالمطالب التوافقية ليصار إلى عرضها على اللجنة الأميركية[86]. وبعيد ذلك وزعت الحكومة العربية خطبًا لتلقى في أثناء صلاة الجمعة، وبالاشتراك مع جمعيات سياسية وثقافية ونقابات مرخصة من الحكومة وفرت الرعاية لحملات توقيع العرائض وحشدت التظاهرات الداعمة لـ «برنامج دمشق» الذي أعلنه المؤتمر. ووجهت النشطاء السياسيين المحليين والمخاتير الذين هم موظفون حكوميون يتخذون من الأحياء مقار لهم في جميع أرجاء سورية ليفرضوا على أصحاب المنازل وأصحاب المحال التجارية تزيين منازلهم وواجهات محالهم بشعارات تطالب بوحدة سورية والاستقلال التام عن مفاوضي دول الوفاق المجتمعين في باريس[87].وخلاصة القول إنه على الرغم من إسناد دول الوفاق إلى اللجنة مهمة بسيطة تتمثل في تقصي الحقائق، إلا أن وجودها في سورية حفز على تعبئة سكان سورية على نحو لم يسبق له مثيل.

كان لتعيين لجنة كينغ - كرين أثر آخر غير مقصود. إذ إن النخب القومية التي

---

(84) Hurewitz, *The Middle East and North Africa,* vol. 2, p. 112.

(85) يُنظر: James L. Gelvin, «The Ironic Legacy of the King-Crane Commission,» in: David W. Lesch (ed.), *The Middle East and the United States: A Historical and Political Reassessment* (Boulder, 1995), pp. 13-14.

(86) يُنظر: Khoury, *Urban Notables,* pp. 86-88; يوسف الحكيم، ذكريات، ج 3: **سورية والعهد الفيصلي** (بيروت، 1966)، ص 90-97؛ Safiuddin Joarder, *Syria Under the French Mandate: The Early Phase, 1920-1927* (Dacca, 1977), pp. 209-211.

(87) MD L:SL/vol. 12/32-38, Cousse to HC, 6 April 1919; AD 2430/no no., Cousse to Dame, 18 April 1919; MAE L:AH/vol. 4/237-238, Picot to Pichon, 22 May 1919; MAE L:SL/vol. 14/897, Picot to MAE, 17 June 1919; MAE L:SL/vol. 44/3D, Minault (Latakia) to administrateur du vilayet de Beyrouth, 18 July 1919; MAE L:Sl/vol. 43/39-41, «Renseignements d'agent,» 10-20 July 1919; MD 7N4182/4/340, Picot to MAE, 21 July 1919; AD 2430/dossier confidentiel départ/ 240, 11 August 1919. For texts of sermons distributed 11 and 18 April 1919,

يُنظر: AD 2343/286, Cousse to HC, 24 April 1919.

استعدت لوصول اللجنة صممت تظاهراتها وحملاتها الدعائية بهدف أن تقدم للجمهور الخارجي صورة عن أمة مثقفة تواقة للاستقلال ومستعدة له. ولكن في عملية تحويل سورية إلى قرية كبيرة ثائرة تحاكي قصة فيلم «المدمرة بوتمكين»، فقد مُنوا بالإخفاق في دمج الغالبية العظمى من السكان في مشروعهم القومي. إذ إنهم لم يفاوضوا السكان بشأن العقيدة أو البرنامج مطلقًا، ولم يؤلفوا خطابًا سياسيًا يقتنع به أولئك الذين لا ينتمون إلى النخب، ولم ينشئوا على الإطلاق روابط مع السكان يمكن مقارنتها بتلك القائمة بين النخب القومية ومواطنيهم المستقبليين في بقاع أخرى من العالم. وخلاصة القول، كان الإعلان عن تشكيل لجنة كينغ - كرين وزيارتها لسورية التي تلت ذلك إيذانًا ببداية سلسلة من الأحداث غير المقصودة، التي بلغت ذروتها ببزوغ حركة قومية شعبية منفصلة عن توجيهات الحكومة العربية والنخب القومية. وفي هذا السياق، مما يدعو للسخرية على وجه الخصوص أن تقرير اللجنة، الذي نشر أخيرًا في عام 1922، لم يصل قط إلى مؤتمر السلام[88].

في شهر أيلول/ سبتمبر من عام 1919، وبعد أقل من شهرين على مغادرة لجنة كينغ - كرين الشرق الأوسط، تلقى الأمير فيصل دعوة ثانية لزيارة باريس. ولما كانت الحكومة البريطانية قلقة بشأن التوترات الحاصلة مع فرنسا والإنفاق العسكري الضخم، اتخذت القرار بسحب قواتها من سورية. ووفقًا للخطة التي تفاوضت بشأنها مع حلفائها الأوروبيين، تخلى البريطانيون موقتًا عن سيطرتهم على المنطقة الغربية (بما في ذلك وادي البقاع المتنازع عليه والواقع بين المنطقتين الشرقية والغربية) لمصلحة الاحتلال الفرنسي ريثما تجري مفاوضات تفضي إلى إبرام اتفاق دائم ما بين الفرنسيين والحكومة العربية، بينما تركت لفيصل وحكومته السيطرة موقتًا على المنطقة الشرقية. وقد عجل الاتفاق البريطاني - الفرنسي (الذي سمي بـ«اتفاق الخامس عشر من أيلول/ سبتمبر») إلى نشوء ما أطلق عليه المؤرخون «أزمة الاستبدال»، التي تعد بمثابة نقطة انعطاف في تاريخ سورية في ظل الحكم العربي. وكانت خطة إحلال القوات الفرنسية محل القوات

(88) Russell, *The First Modern Arab State,* p. 99.

البريطانية في وادي البقاع على وجه الخصوص تمثل كارثة سياسية لفيصل، لأنه كان الاعتقاد سائدًا بأنه، على النقيض من «الإرادة الشعبية»، سيبسط الفرنسيون في نهاية المطاف سيطرتهم على أرجاء سورية كافة. وهكذا تبين إفلاس استراتيجية الحكومة العربية للفوز باستقلال سورية الموحدة بإظهارها لدول الوفاق أن السوريين يرغبون بالاستقلال وعلى أتم الاستعداد له في آن. وكانت الأزمة السياسية في دمشق قد بلغت ذروتها في كانون الثاني/ يناير من عام 1920، بعدما وقع فيصل بالأحرف الأولى على اتفاق شامل مع الرئيس الفرنسي كليمنصو. ولم يؤد هذا الاتفاق إلى الحد من سيادة الدولة العربية فحسب، وإنما أكد أيضًا وجود إدارات منفصلة في المنطقتين الغربية والشرقية. وكان اتفاق فيصل - كليمنصو لدى الكثير من السوريين بمثابة المسوغ الرسمي لتقسيم سورية[89].

كانت الآثار الاقتصادية المترتبة على اتفاق 15 أيلول/ سبتمبر شديدة الوقع على نحو مماثل لما أحدثه الاتفاق من آثار سياسية. فقد أوصلت القرارات التي اتخذها البريطانيون والفرنسيون الحكومة العربية إلى حافة الإفلاس وقلصت قدرتها على توفير الخدمات الأساسية. وكان من شأن عجز الحكومة عن ضمان أمن الأرواح والممتلكات، أو وضع سياسة مالية، أو تسيير دوريات على حدودها، أو دفع الرواتب لموظفيها أن أدى إلى تقليص حاد في نشاطها الاقتصادي. ومما زاد الطين بلة أن الحكومة العربية سعت إلى تدارك عجزها المالي عبر فرض مجموعة متنوعة من الرسوم على سكان المنطقة، مما زاد في إفقارهم وسخطهم على الحكومة. وباختصار، مع بداية «أزمة الاستبدال» شهد اقتصاد سورية الفيصلية المصاب بالوهن أصلًا تدهورًا لم تتمكن الحكومة من التغلب عليه على الإطلاق.

ووفقًا لاتفاق 15 أيلول/ سبتمبر وافقت كل من فرنسا وبريطانيا على تقاسم المسؤولية عن تقديم معونة شهرية للحكومة العربية. ونظرًا إلى انعدام الحماسة لدى الحكومة لأن تكون أو أن ينظر إليها على أنها مدرجة على جدول الرواتب الفرنسي، رفضت في البداية الموافقة على هذا الترتيب الجديد[90]. والحقيقة أن كلًا

(89) للاطلاع على المفاوضات وشروط التسوية، يُنظر: Ibid., pp. 93-131.

(90) IO L/PS/10/802/P967, Waters-Taylor, 5 January 1920.

من البريطانيين والفرنسيين قد استخدم هذه المعونة وسيلة لضمان حسن السلوك من جانب الحكومة في دمشق، مما أدى إلى تفاقم الأزمة الاقتصادية للحكومة تلك. وقد حجب البريطانيون معونتهم المقررة لشهر أيلول/ سبتمبر لعام 1919 إلى أن توقف الحكومة العربية حملة تجنيد اثني عشر ألف متطوع في الجيش العربي، وكذلك تلك المقررة لشهري تشرين الأول/ أكتوبر وتشرين الثاني/ نوفمبر من عام 1919، بانتظار إتمام نجاح إجلاء القوات البريطانية. وأرجئت بعدئذ الدفعات اللاحقة ريثما يجري تحقيق بريطاني في «حادثة دير الزور» (وهو هجوم شنته قوات عربية غير نظامية على تلك المدينة الحدودية الواقعة حاليًا شرق سورية واشتبه البريطانيون بوجود تواطؤ فيه من جانب الحكومة العربية)[91] وحوادث أخرى كان ينظر إليها على أنها صادرة عن الحكومة الفيصلية، وترمي إلى إضعاف الموقف البريطاني في الشرق الأوسط. ونتيجة لذلك حصلت الحكومة العربية على الحصة البريطانية المقررة لشهر كانون الثاني/ يناير من عام 1920 في شهر حزيران/ يونيو من ذلك العام[92].

سعت الحكومة العربية إلى زيادة الضرائب والرسوم من أجل معالجة نقص الإيرادات. فرفعت الضرائب المفروضة على الأرباح، واستخدام الطرق، والطوابع بمعدل مئة في المئة، والضرائب المفروضة على العقارات والأغنام وإجراءات المحاكم العدلية بنسبة 50 في المئة. وفي الوقت ذاته، اقترحت فرض ضرائب خاصة على كل البلدات والقرى التي توجد فيها حيازات حكومية؛ وفرضت ضرائب جديدة على أعواد الثقاب، والسجائر، وأوراق اللعب؛ وزادت ضريبتا التمتع (ضريبة على المهنة) والبدل (الرسم الذي يدفع عوضًا عن الخدمة العسكرية). ومما يضيف إلى هذه الأعباء، أن خطة الحكومة الرامية إلى جباية الضرائب وفقًا لأسعار الصرف الرسمي للعملة قللت إلى حد كبير من القيمة

(91) يُنظر: Eliezer Tauber, «The Struggle for Dayr al-Zur: The Determination of Borders between Syria and Iraq,» *International Journal of Middle East Studies*, vol. 23 (1991), particularly pp. 366-371.

(92) FO 371/4183/132831/EA2697, GHQ to WO, 20 September 1919; FO 371/5149/E564/7, Meinertzhagen to FO, 24 February 1920; FO 371/5149/EA3084, GHQ to WO, 25 April 1920; FO 371/5036/E8177/7749/89, Faysal to Allenby, 21 June 1920.

السوقية الفعلية للجنيه المصري، مما فرض، في الواقع، ضريبة إضافية بمعدل 28 في المئة على المعدلات الآنفة الذكر. وفي بعض الأحيان زادت الحكومة من بؤس دافعي الضرائب عبر المطالبة بدفع الضرائب بالنقود الذهبية(93).

في ربيع عام 1920، وبينما كانت الخزينة ما تزال خاوية طرحت الحكومة قرضًا زاد من الالتزامات المالية الملقاة على كاهل العديد من السوريين. وعلى الرغم من أن المشاركة في القرض كانت من الناحية النظرية طوعية، إلا أن الحكومة العربية ألزمت الموظفين الحكوميين على استثمار راتب شهر واحد. وجرى إقناع آخرين على نحو مماثل: ففي حين زار رجال الدرك والمخاتير المحليون كلًا من التجار والأعيان، بل وحتى المقيمين الأجانب من أجل «تشجيعهم» على المشاركة في القرض، تولى عناصر التنظيم السري «العين الساهرة» ابتزاز الأموال من الأثرياء. وعلى الرغم من أننا لا نعلم الكثير عن الجماعة الأخيرة هذه، إلا أن المرجح أنها ضمت في عضويتها زملاء الزعيم الشعبي كامل القصاب الذي وقع اختيار الحكومة عليه بذكاء ليتولى رئاسة اللجنة التي سوقت القرض، على الرغم من سمعته التي اكتسبها عبر ما يمكن بالكاد أنْ يسمّى بـ «أعمال مالية طائشة»(94).

يلقي تعاظم إفقار الحكومة العربية في عامها الثاني بظلال من الشك على مصداقية قوائم الإنجازات الحكومية التي غالبًا ما تظهر في تواريخ هذه الفترة(95).

---

(93) **العاصمة**، 29 كانون الثاني/ يناير 1920، ص 2؛ **العاصمة**، 2 شباط/ فبراير 1920، ص 4؛ **العاصمة**، 26 نيسان/ أبريل 1920، ص 4؛ WO 106/196/39-41, Shuqayr, «Memorandum Drafted by the Minister of Finance in Damascus re: The Financial Position of the Syrian Government for 1920,» 20 May 1920; Russell, *The First Modern Arab State*, p. 145.

(94) MD 4H114/4/471, Cousse to Gouraud, 18 May 1920; MD 4H112/2b/162, Riza Sulh [sic] to gouverneur d'Alep, 2 June 1920; MD 4H112/2b/167, Fares Khoury [sic] to gouverneur d'Alep, 5 June 1920; MD 4H58/1, «Rapport hebdomadaire 383/2: 15 au 21 Juin [1920]»; FO 861/69, Dr. J. Bauer to J. B. Jackson, 1 July 1920; MD 4H114/4/671, Cousse to Gouraud, 7 July 1920; MD 4H60/1, «Bulletin quotidien 1260,» 19 July 1920.

(95) تظهر هذه القوائم في: Abdul-Karim Rafeq, «Arabism, Society, and Economy in Syria, 1918-1920,» in: Youssef M. Choueiri (ed.), *State and Society in Syria and Lebanon* (New York, 1993), pp. 16-17; قاسمية، **الحكومة العربية في دمشق**، ص 233-247؛ الحكيم، **ذكريات**، ج 3، ص 43-44.

وبينما كانت صفحات الجريدة الرسمية **العاصمة** حافلة بالخطط التي وضعتها الحكومة العربية للإصلاح الإداري وتأسيس و/ أو توسيع و/ أو دعم المؤسسات الاجتماعية والثقافية والتعليمية، على سبيل المثال، فينبغي ألا يثير الدهشة أنه ليس ثمة أدلة قوية تؤكد أن الحكومة قد حققت معظمها أو حتى أنها خصصت أموالًا كافية للبدء في تنفيذها. وهكذا، وعلى الرغم من أن هذا المدخل لا يتوخى الاحتفال بإنجازات الحكومة العربية أو الانتقاص من أهميتها، إلا أن الأدلة الدامغة تشير إلى حقيقة مفادها أنه ربما من المؤكد أن الجهود التي بذلتها الحكومة العربية (في ضوء السياق الاقتصادي والسياسي)، لاقت من الإخفاق أكثر مما صادفت من النجاح.

لم تؤد المحاولات التي بذلتها الحكومة العربية من أجل درء خطر الإفلاس التي اتسمت بأنها غير مجدية أحيانًا، ومتهورة في أحيان أخرى، إلا إلى تفاقم المشكلات الاقتصادية للمنطقة الشرقية. وحين أوشك الاقتصاد على الانهيار من الناحية الفعلية، مست الأزمة السوريين من الطبقات كافة. وكان أكثر المتضررين التجار بأطيافهم كافة، من الوكلاء الأثرياء وصولًا إلى تجار التجزئة الصغار. وبحلول ربيع عام 1920 وصلت التجارة ما بين دمشق وحلب والمناطق الريفية التابعة لهاتين المدينتين إلى حالة من الجمود. ويعزو المراقبون المعاصرون انهيار التجارة إلى عدد من العوامل: تقلبات أسعار العملة، والرسوم الجمركية التي بلغت ما نسبته 11 في المئة والمفروضة على السلع التي ترد إلى بلاد ما بين النهرين وتركيا من سورية، وإغارات البدو، الذين كان يجري في ما سبق كبح جماح أعمال السلب والنهب التي يمارسونها بوساطة الرشى التي تدفع لهم، إلا أن الحكومة لم تعد قادرة على دفعها. وكتبت غيرترود بيل متأملة في الأسباب التي أدت إلى سقوط الحكومة العربية قائلة: «شكل البدو [كذا!] الصخرة التي تحطمت عليها الحكومة العربية».

> ولم تبذل أي محاولة للسيطرة عليهم، فقد ألحقوا الضرر بالأراضي الزراعية النائية وفرض نوري [الشعلان] رسومًا باهظة على كافة البضائع الداخلة إليها والخارجة منها، وحتى إنه فرض رسومًا على أحمال الحمير في الشوارع...

كانت أعمال السلب وغطرسة البدو هي مصدر الشكاوى الرئيسة. وقد قيل في دمشق إن نوري كان هو الأمير وليس فيصل[96].

علاوة على ذلك، كان الأمن على خطوط السكك الحديد في دمشق وحولها سيئًا للغاية، حتى إن قائد القوات الفرنسية في المشرق الجنرال هنري غورو وجه شكوى رسمية للأمير فيصل أدرج فيها ما يربو على عشرين حادثة تشتمل على السرقة والخطف وقطع الطريق والابتزاز وقعت على خطوط السكك الحديد أو بقربها في الفترة الممتدة ما بين 9 كانون الأول/ ديسمبر من عام 1919 و9 كانون الثاني/ يناير من عام 1920[97].

وفي مسعى للتخفيف من آثار الانهيار التجاري، أحدثت الحكومة العربية وزارة للتموين[98]، وناطت بها مسؤولية تزويد المدن بالمؤن، وتثبيت الأسعار، و«تحطيم ظهر» المضاربين والمكتنزين. كذلك سنَّت الحكومة مجموعة من القوانين التي تمنع تصدير الذهب والحبوب خارج المنطقة الشرقية. وقد ثبت عدم إمكان تطبيق أي من هذه الإجراءات، وبينت التقارير أن التجار قد انخرطوا في مجموعة من الأنشطة الخارجة عن القانون، التي تراوحت من التهريب وصولًا إلى إنشاء تكتلات احتكارية سرية؛ وذلك للتحايل على القوانين تلك. وغالبًا ما كانت اللجان الشعبية تقدم لهم يد العون في هذه الأنشطة، إذ كانت اللجان تلك تستخدم نفوذها لدى التجار من أجل خدمة جمهورها وتمويل حركتها. وهكذا

(96) FO 371/5040/E11756/152-153, «Note by Miss G. L. Bell, C.B.E.,» 6 August 1920;

يُنظر أيضًا: MD 4H114/dossier 5/277, Cousse to GCC, 14 July 1920.

(97) FO 371/4214/103277, Baghdad to IO, 26 June 1919;

سورية الجديدة، 27 كانون الأول/ ديسمبر 1919، ص 1؛ AD 2330/A1a, Gouraud, «Memorandum des principaux faits relevés depuis l'arrivée du général h.c. jusqu'à ce jour,» 13 January 1920; WO 106/195/21, Wratislaw (Beirut) to FO, 4 March 1920; AD 2330/A1a/134, Roux (Baghdad) to GCC, 16 March 1920; FO 371/5034/E3182/FO41CPO31, Meinertzhagen, 31 March 1920; FO 371/5035/E5690/35, Wratislaw (Beirut) to FO, 13 May1920.

(98) الواقع إن ما جرى إحداثه هو «إدارة تموين للمملكة السورية»، وليس وزارة كما أشار المؤلف. ومما هو جدير بالذكر في هذا السياق أن هذه الإدارة كانت تتبع وزارة التجارة والزراعة والنافعة. يُقارن مع: اللائحة القانونية لتأسيس إدارة التموين، **العاصمة**، السنة 2، العدد 122، 3 أيار/ مايو 1920، ص 2-4. (المترجم)

لم تخفق القوانين الجديدة في تحقيق أهدافها فحسب، وإنما زادت في نأي التجار عن الحكومة الفيصلية أيضًا[99].

إضافةً إلى قوانينها العقابية، فقد أبعدت الحكومة العربية التجار عنها نظرًا إلى إخفاقها الذريع في إظهار استجابة فعالة تجاه السياسات المالية الفرنسية في المنطقة الشرقية. وفي كانون الثاني/ يناير من عام 1920، أخذت الإشاعات تنتشر بين التجار في كلتي المنطقتين ومفادها أن الفرنسيين يخططون لفرض عملة جديدة في منطقتهم، ألا وهي الليرة السورية. وقد شكّل احتمال تداول عملة جديدة في الساحل معضلة لدى التجار في المنطقة الشرقية. فإذا رفضت الحكومة العربية إجازة استخدام الليرة السورية في سورية الداخلية، سوف تنهار التجارة مع الساحل، ومن جهة ثانية، إذا أذعنت الحكومة العربية للمطالب الفرنسية وأجازت تداول الليرة السورية باعتبارها عملة رسمية في كلتا المنطقتين، فيمكن أن يواجه التجار السوريين تقليص تجارتهم مع العراق، ومصر، وفلسطين، وإغراق سورية الداخلية بالمستوردات الفرنسية. ومما ضاعف مشكلات العملة أن الليرة السورية المزمع طرحها سيجري ربطها بالفرنك الفرنسي السيئ الصيت نظرًا إلى عدم استقراره، إذ إن قيمته أخذت بالانخفاض على نحو منتظم منذ الهدنة. وكان مجرد تفكير الحكومة العربية باستخدام هذه العملة قد أفزع التجار المتخوفين أصلًا من جراء تردد الأمير في مناقشة اتفاقيته السابقة مع كليمنصو أو خططه المستقبلية[100]. وعلى النقيض من تردد الحكومة، فقد استجابت اللجان الشعبية إلى قلق المعنيين بالتجارة خارج المنطقة الشرقية بتنظيم التظاهرات وحملات توقيع العرائض المناهضة للعملة الجديدة.

---

(99) **العاصمة**، 15 كانون الأول/ ديسمبر 1919، ص 3؛ **العاصمة**، 12 كانون الثاني/ يناير 1920، ص 2؛ **العاصمة**، 1 آذار/ مارس 1920، ص 2؛ **العاصمة**، 3 أيار/ مايو 1920، ص 2-3؛ MAE L:SL/vol. 64/731, Gouraud to MAE, 26 March 1920;

العاصمة، 26 نيسان/ أبريل 1920، ص 7-8؛ FO 371/5037/E8350, Gertrude Bell, 29 May 1920; Russell, *The First Modern Arab State,* pp. 168-169;

الريماوي، **التجربة الفيصلية**، ص 41.

(100) AD 2347/1, Le président de la chambre de commerce et d'industrie (Beyrouth) to Lt. Col. Nieger, 13 January 1920; AD 2347/3as/d2, «Extraits du bulletin de renseignements du 10 Avril [1920]»; AD 2347/12, «Extraits du bulletin quotidien du 12 Avril [1920]»; MAE L:SL/vol. 64/823-826, Gouraud to MAE, 14 April 1920; MD 4H58/1, «Rapport hebdomadaire: 27 Avril au 3 Mai [1920].»

لم يكن التجار وحدهم الجماعة المهددة بفعل السياسات الحكومية والانكماش الاقتصادي. فقد وقع موظفو الحكومة المدنيون منهم والعسكريون ضحايا الانهيار الاقتصادي الناجم عن أزمة الاستبدال. ولم يقتصر الأمر على إرغام موظفي الحكومة على العيش عيشة الكفاف بالاعتماد على الرواتب الثابتة إبان فترة التضخم المرتفع، وإنما كان يجري، في كثير من الأحيان، تأخير دفع الرواتب أو احتجازها. وبحلول حزيران/ يونيو من عام 1920، كانت رواتب الموظفين والدرك متأخرة لمدة شهرين، بينما كانت رواتب ضباط الجيش متأخرة على نحو منتظم مدة تتراوح بين خمسة عشر إلى عشرين يومًا[101]. ووفقًا لتقرير بريطاني بشأن حال الجيش العربي، صدر في كانون الأول/ ديسمبر من عام 1919،

> كان الضباط يشكلون ثلث أفراد الجيش - وفي الحقيقة، كانوا جميعًا ضباطًا في بعض الأماكن. وهؤلاء الضباط الذي يستحقون الاهتمام كانوا أتراكًا جرى إهمالهم ومعظمهم من النمط الذي جاء لتقديم طلب للالتحاق بالقوات المجندة ورفض طلبهم - وكانوا يرتدون الأزياء الرسمية الرائعة ويتقلدون الأوسمة ويتقاضون الرواتب الضخمة على الورق - إلا أن الجيش لم يحصل في الواقع على أي مبلغ منذ شهرين، بيد أنهم أعلموني أن الأمير قال لهم إنهم سيحصلون على رواتبهم من أموال الضرائب - لكن يبدو أن القرويين ليس لديهم حماسة شديدة بشأن هذا الأمر، برغم أنهم ربما يفتقرون للروح القومية الصادقة - ويبلغ عدد هؤلاء الضباط الوسيمين في دمشق الستمئة، ومن بينهم قرابة الثمانين قيل إنهم بغداديون[102].

وحينما تمكنت الحكومة العربية من دفع رواتب موظفيها، كانت الأجور منخفضة وغالبًا ما كانت تخضع للخصم من دون أي سبب واضح. وبحلول مطلع عام 1920، شوهد الجنود الذين جرى تخفيض رواتبهم بمعدل 75 في المئة قبل التضخم، وهم يبيعون معداتهم وأزياءهم الرسمية في أسواق دمشق من أجل شراء الطعام. وتمثلت ردة فعل الجنود الآخرين على إفقارهم في الفرار من الخدمة،

(101) MD 4H58/1, «Rapport hebdomadaire: 11-18 Décembre [1919]»; IO L/PS/10/802/P967, Report of Waters-Taylor, 5 January 1920; WO 106/196/663G, GHQ to WO, 7 June 1920.

(102) IO L/PS/11/169/P1512/1920, Major C. A. Boyle, 3 December 1919.

وفي بعض الحالات التمرد[103]. وقد تدهورت الروح المعنوية لدى موظفي الحكومة لدرجة جعلت الحكومة تنشر إعلانات في جريدة **العاصمة** تتضمن تذكيرًا لموظفيها بساعات عملهم، وتحذرهم فيها من الانضمام إلى المنظمات المناهضة للحكومة[104].

كانت ندرة المال لدى الحكومة في المستويات كافة قد جعلت الحياة شاقة، بل مدعاةً لليأس لدى الكثير من بقية سكان المناطق الحضرية. وعلى الرغم من تراكم الديون على مدينة دمشق، على سبيل المثال، حتى بلغت 200 ألف جنيه مصري، إلا أن ميزانية البلدية في السنة الأولى من الحكم العربي كانت ضئيلة للغاية فبلغت 35 ألف جنيه[105]. ونتيجة لذلك، كان المجلس البلدي في دمشق، شأنه في ذلك شأن المجالس البلدية في المدن السورية الأخرى التي كانت على حافة الهاوية المالية، قد أهمل توفير الخدمات الأساسية مثل المياه الصالحة للشرب، والإنارة العامة، وتعزيز الصحة العامة ومنع تفشي الأمراض[106]. واشتكت إحدى الصحف الصادرة في دمشق، والمؤيدة عادة للحكومة، في كانون الثاني/ يناير من عام 1920 من أن «هطول الأمطار بلا انقطاع قد أدى إلى تحول الشوارع إلى أنهار». وأضافت أن «الافتقار إلى الدخل قد حال دون إنفاق المجلس البلدي

(103) **العاصمة**، 1 كانون الثاني/ يناير 1920، ص 2؛ AD 2380/5/21/184, Cdt. Rouchdi to cdt. de la troisième brigade de cavalerie (Alep), 25 October 1919; MAE L:SL/vol.19/1573, Gouraud to MAE, 30 November 1919; AD 2372/837, LEO (zone ouest) to cabinet politique, 20 April 1920; MD 4H58/1, «Rapport hebdomadaire: 20 au 26 avril [1920]»; MD 4H112/2b/51, «Renseignements,» 25 May 1920; MAE L:SL/vol. 33, Gouraud to Millerand, 22 September 1920.

(104) **العاصمة**، 8 كانون الثاني/ يناير 1920، ص 3.

(105) MAE L:SL/vol. 64/3-39/ «Note sur les finances municipales, les travaux urbains, et la nécessité d'un crédit communal,» 8 January 1920;

وفقًا لصحيفة **الكوكب**، فقد بلغت ميزانية دمشق 40,000 جنيه مصري، ينظر: **الكوكب**، 27 كانون الثاني/ يناير 1920، ص 11.

(106) للاطلاع على معلومات بشأن دمشق، يُنظر: **الكوكب**، 6 كانون الثاني/ يناير 1920، ص 6. وللاطلاع على معلومات بشأن حلب، يُنظر: IO MSS EUR F152 (Frank Lugard Brayne Mss.)/18b. «Palestine and Syria Autumn 1918,» 19-22 November 1918; IO MSS/EUR F152 (Frank Lugard Brayne Mss.)/20, 9 February 1919;

مردم بك، **دمشق والقدس**، ص 44-45.

على المشروعات الإصلاحية الضرورية»[107]. وقد كتب مراقب آخر في نهاية عام 1919 قائلًا:

> كانت السمة الأكثر بروزًا [في دمشق] تتمثل في أن درجات القذارة في المدينة كانت تفوق ما عرفته طوال أيام الحكم التركي. وكانت بقايا الخضروات وسواها من النفايات الأخرى مبعثرة في الأسواق، ولم تكن الزوايا المنعزلة الأخرى أفضل حالًا من الأوعية المليئة بشتى أنواع القاذورات[108].

يشير ازدياد معدلات الجرائم المرتكبة بحق الأشخاص والممتلكات إلى تدهور جودة الحياة في المناطق الحضرية. وذكرت التقارير أخبار المعارك التي كانت تجري بالأسلحة النارية بين العصابات المسلحة والشرطة في شوارع دمشق. وقد لاحظ المراقبون الأجانب أن معظم سكان العاصمة كانوا يرفضون مغادرة منازلهم بعد الغروب؛ أما من كان يغامر بالخروج ليلًا، فكان يفعل ذلك وهو مدجج بالسلاح[109]. وقد أدى ازدياد أعمال العنف في شوارع دمشق إلى إثارة الإحساس بالخطر في خريف عام 1919 مما حمل الأعيان المسلمين في المدينة وأقرانهم من غير المسلمين إلى رفع عريضة تطالب بإنشاء مخافر للشرطة في نقاط استراتيجية وتعزيز دوريات الشرطة بمدنيين مسلحين. ومما يبعث على السخرية، أن تقريرًا فرنسيًا يشير إلى تحسن الأمن تكذبه مقالة نشرت بعد شهرين في صحيفة مؤيّدة للحكومة تفيد بأن بلدية دمشق تدرس جديًا تعيين طبيب في مقر قيادة الشرطة للعناية بعدد غير مسبوق من ضحايا إطلاق النار[110]. كما ذكر مراقبون أجانب ظهور موجة من الجرائم المماثلة في كل من اللاذقية، ودوما،

---

(107) **الكوكب**، 6 كانون الثاني/ يناير 1920، ص 10.

(108) IO L/PS/10/802, Gertrude Bell, «Syria in October 1919,» 15 November 1919.

(109) USNA 59/867.00/1036/1717, Young (Damascus) to Wallace (Constantinople), 5 December 1919; FO 371/4186/162128/495, Telegram from acting Spanish consul (Damascus), forwarded by Spanish ambassador (London) to Curzon, 11 December 1919; USNA 867.00/1045/1825, Young (Damascus) to Secretary of State, 13 December 1919; *The Near East,* 8 April 1920, p. 495; FO 371/5037/E8350/4, «Note by Miss G. L. Bell C.B.E.,» 29 May 1920; Howard N. Sachar, *The Emergence of the Middle East: 1914-1924* (New York, 1969), p. 274.

(110) AD 2344/c1/Août-Décembre 1919/362, Cousse to HC, 21 November 1919; **الكوكب**، 27 كانون الثاني/ يناير 1920، ص 11.

ودير الزور، بينما اشتكى القنصل الأميركي المقيم في حلب في شباط/ فبراير من عام 1920 من أن «عائلات غابت عن منازلها وحين عادت إليها بعد ساعات قليلة وجدتها وقد نهبت حتى في وضح النهار»[111].

تجلى الاستمرار في تراجع جودة الحياة في المناطق الحضرية في ذلك الاكتظاظ السكاني الذي كان قد بدأ إبان الحرب العالمية الأولى، مما ساعد على بلوغ مستويات أعلى مما كانت عليه في السابق من الجريمة، والبطالة، والتوتر القائم بين الطوائف. ولم يستمر هذا الاكتظاظ السكاني طوال المرحلة الفيصلية فحسب، وإنما تفاقم بسبب تدفق اللاجئين من الأناضول، ووادي البقاع، والحدود الشرقية. وقد دخل اللاجئون إلى دمشق وحلب ومدن أخرى في المنطقة الشرقية في موجتين. حدثت أولاهما إبان الحرب العالمية الأولى وما بعدها مباشرة. وبينما شملت هذه الموجة قرابة 21 ألف جندي جرى تسريحهم من الجيش العثماني[112] واللاجئين من الحرب العربية، فإن العدد الأكبر كان قوامه اللاجئون الأرمن الذين اقتلعوا من موطنهم بسبب مجازر عام 1915. وقد كانت حلب ودمشق ملاذًا لأكبر عدد من اللاجئين الأرمن حيث بلغ عددهم نحوًا من سبعين ألفًا وثلاثين إلى خمسة وثلاثين ألفًا على التوالي[113]. وقد دخل معظم هؤلاء إلى سورية وليس معهم سوى القليل من الأمتعة أو دونما أمتعة على الإطلاق (ذكر أحد التقارير ويعود تاريخه إلى نهاية الحرب أن 78 في المئة من اللاجئين الأرمن دخلوا سورية وهم يعانون الفاقة). وفي حمص، مثلًا، ذكر البريطانيون أن عدد اللاجئين الأرمن المعدمين بلغ ألفي شخص. ونظرًا إلى ظروفهم العسيرة اعتمد

---

(111) USNA Aleppo Consulate RG84/121/800, J. B. Jackson to Adm. Mark Bristol (Constantinople), 9 February 1920; *The Near East,* 18 March 1920, p. 390; IO MSS Eur F152 (Frank Lugard Brayne Mss.)/20, F. B. Hanano (YMCA, Aleppo) to Brayne (?), 21 March 1920; *The Near East,* 8 April 1920, p. 495; FO 371/5076/E8007/74-79, «Note by Miss G. L. Bell-May 22, 1920».

(112) FO 371/4163/14536/74070, DMI to GHQ, 17 January 1919.

(113) وفقًا للتقارير، جرت إعادة قرابة ستين ألفًا من هؤلاء الأرمن إلى وطنهم من حلب في الفترة الممتدة من 1 كانون الثاني/ يناير إلى 20 تموز/ يوليو 1919. وأثناء هذه الفترة، جرت إعادة أربعة وسبعين ألف أرمني إلى وطنهم من سورية وجنوب تركيا، وتُرك اثنان وسبعون ألفًا آخرون ينتظرون إعادة التوطين. USNA Aleppo Consulate RG84/vol. 112/840.1/395, 23 August 1919.

الكثير منهم على ما كان يقدمه الجيش البريطاني والحكومة العربية من مخصصات خيرية. ففي الوقت الذي كانت فيه الحكومة العربية تواجه الإفلاس، أنفقت قرابة 45 ألف جنيه مصري من أجل مساعدة الأرمن(114).

أما الموجة الثانية من اللاجئين فبدأت بالتوافد على المدن السورية في مستهل أزمة الاستبدال. وقد أخذ معظم هؤلاء يهجرون مخيماتهم في الريف السوري بسبب انهيار الأمن في المناطق الريفية مما جعل الحياة في القرى محفوفة بالمخاطر. واستغلت جماعات متنوعة من الشركس، وعشائر العنزة، وبني صخر، وشمر، والحديديين والموالي توزعت مناطق سكناهم بين عمان، وحلب، وطرطوس، ودير الزور، وتدمر ضعف السلطة الحكومية من أجل تصفية الحسابات القديمة والإثراء عبر سلبهم القرى الصغيرة غير المحمية - وفي هذه العملية دفعوا الآلاف إلى الفرار(115). وقد هرب اللاجئون الآخرون من جحيم أعمال السلب والنهب التي كان يمارسها الفارون من الجيش العربي وقطاع الطرق. وقد تضرر سكان وادي البقاع المتنازع عليه على وجه الخصوص من جراء طغيان الصبغة العسكرية على الريف. ولم تؤد المنافسة بين الحكومتين الفرنسية والعربية إلى إفساح

---

(114) FO 371/3058/137867, «Internal Conditions,» 11 May 1917; WO 95/4372/C374, Sykes to OGS, 22 November 1918; FO 371/4143/32104/EA2135, GOC to WO, 22 January 1919; FO 371/4143/724011, Clayton to FO, 9 May 1919; FO 371/4143/104019, General Sir Walter Lawrence to Commander in Chief (Egypt), 13 May 1919; DU SA/493/6/46, Shuqayr to Faysal, 20 March 1920.

كان هناك مطبخ في حلب لطهي الحساء يديره البريطانيون يطعم عددًا يصل إلى ألف وخمسمئة أرمني، وتلقى أكثر من ثمانية آلاف أرمني في المدينة أشكالًا أخرى من المساعدة. إضافةً إلى ذلك، استضافت دار للأيتام يديرها البريطانيون ما يقرب من ألفي طفل أرمني، بينما كان أكثر من أربعة آلاف أرمني يعيشون في مساكن للإيواء وفرتها الثكنات العسكرية. يُنظر: Paul Monroe et al., *Reconstruction in the Near East* (New York, 1924).

(115) يُنظر: FO 371/4178/7094/264-268, Hogarth to Chief Political Officer, EEF, 18 December 1918; FO 371/4214/103277/3814, Telegram from Baghdad to IO, 26 June 1919; FO 371/4181/99833/512578, Col. French to WO, 7 July 1919; *The Near East,* 12 February 1920, p. 210; *The Near East,* 19 February 1920, 244; AD 2209/dossier: Bagdad jusqu'au 31 Décembre 1920/47, Roux to GCC, 28 February 1920; FO 371/5034/E2539/18, British Consul General (Beirut) to Secretary of State, 17 March 1920; AD 2348/C15As/d1/9, Hussein Moudir (Meskine) to directeur général des télégraphes, 13 May 1920; AD 2348/c15as/d1/781, Gouverneur d' Alep to min. intérieur, Damas, 12 May 1920; IO L/PS/10/802/P5172/3-4, French report for the period May 25-31; FO 371/5188/E6197, Arabic Press Extracts for Week Ended May 31 1920; MD 4H114/4/491, Cousse to Gouraud, 3 June 1920; MD 4H58/2, «Rapport hebdomadaire 433/2: 29 Juin à 5 Juillet».

المجال للاقتتال بين سكان القرى والطوائف وسقوط ضحايا وحسب، بل وغالبًا ما كان القرويون يجدون أنفسهم محاصرين بين الجيش الفرنسي والمقاتلين من رجال العصابات الوطنية اللذين كانا يخوضان غمار حرب حدودية مستمرة. وفي الفترة الممتدة من 6 كانون الأول/ ديسمبر من عام 1919 ولغاية 6 كانون الثاني/ يناير من عام 1920، عبرت العصابات المسلحة الحدود الفاصلة ما بين المنطقتين الشرقية والغربية، ونهبت ثلاثين قرية في منطقة مرجعيون الواقعة في لبنان حاليًا. وردًا على هذه الإغارات وما شابهها قصف الفرنسيون الوادي من البحر والجو معًا. ووفقًا لشكوى رسمية وجهها الأمير فيصل إلى الحكومة البريطانية، ذكر فيها أن إحدى الإغارات الانتقامية على جبل عامل في المنطقة الشرقية في أوائل عام 1920، قد خلفت عشرين ألف مشرد بلا مأوى، وأن الكثير منهم سعوا للحصول على ملاذ آمن داخل البلاد(116).

لقد جاءت ردة فعل الطبقات الشعبية، مماثلةً لما فعلته في أوقات سابقة على ما بدا لها أنها مصاعب اقتصادية لا مبرر لها وعسف أو قسوة من جانب الحكومة بشكل مقاومة فردية أو جماعية. ومع أنه يمكن تمييز هذه الفترة من سواها بأنها جاءت بمستوى غير مسبوق من التعبئة السياسية المنظمة، إلا أن جموع السكان واصلوا اللجوء إلى أنماط من الاحتجاج كانت تتسم بالعفوية وسرعة الزوال. ومن ذلك، على سبيل المثال، أن دمشق قد خبرت موجة من الإضرابات اشترك فيها عمال السكك الحديد، والمطابع، والتراموای، والزجاج، والنسيج، ومستخدمو شركة الكهرباء، بل وحتى الحرفيون الماهرون المستقلون ممن تركوا مراكز عملهم وطالبوا برفع الأجور(117). وفي ربيع عام 1920 اندلعت أعمال شغب اجتاحت

(116) AD 2380/5/21/184, Rouchdi (cdt. de la 3ème div.) to cdt. de la 3ème brigade de cavalerie (Alep), 25 October 1919; AD 2330/A1a, Gouraud to Faysal, «Memorandum des principaux faits relevés depuis l'arrivée du général H.C. jusqu'à ce jour,» 13 January 1920; FO 371/5035/5661/194-195, Faysal to Lloyd George, 1 June 1920; FO 371/5036/E7772/808, Shahbandar to Col. Easton (British liaison, Damascus), 5 June 1920.

يُنظر أيضًا: AD 2344/c1/Août-Décembre, 1919/149-150-151, 17 November 1919; FO 371/5035/E5690/35, Wratislaw to Secretary of State, 13 May 1920.

(117) **العاصمة**، 16 حزيران/ يونيو 1919، ص 1-2؛ **الكوكب**، 4 تشرين الثاني/ نوفمبر 1919، ص 10؛ **العاصمة**، 3 أيار/ مايو 1920، ص 5-6.

المنطقة كلها، وأخذ المضربون عن العمل في حماه يهتفون «أنتم تقدمون الحبوب لفرنسا بينما نحن نتضور جوعًا»، وطالبوا الحكومة في أثناء ذلك بتخفيض أسعار الطحين والقضاء على الاحتكار ومنع تصدير الحبوب إلى المنطقة الغربية. وطالب المحتجون في حلب الحكومة بأن تخطط للاحتفاظ بجزء احتياطي من الحبوب على غرار النمط الذي اختطته بلدية بيروت[118]. كذلك كانت حلب مسرحًا للمواجهة الأكثر دموية سبقت العصيان المسلح في شهر تموز/ يوليو، ففي شهر شباط/ فبراير من عام 1919 هاجم مثيرو الشغب من أبناء المدينة جماعة من اللاجئين الأرمن، وخلفوا وراءهم ثمانية وأربعين قتيلًا وقرابة مئتي جريح[119]. وعلى الرغم من أن الروايات اللاحقة تختلف بشأن الشرارة المباشرة التي تسببت في إشعال نيران المذبحة، إلا أنه ربما كان الحريق أمرًا محتمًا على الرغم مما اشتهرت به حلب من نزعة كوزموبوليتية: إذ أسهم تدفق اللاجئين إليها في ارتفاع معدلات البطالة واكتظاظ المدينة بالسكان، وشعر الحلبيون على نحو ما تفيد به التقارير بالانزعاج الشديد مما يحظى به اللاجئون إليها من معاملة خاصة من دول الوفاق، والحكومة العربية، والمخصصات الخيرية الخاصة، وباتوا يخشون من المنافسة التي فرضها عليهم اللاجئون (ضم أحد المخيمات أربعة آلاف نَزْل)[120].

---

(118) *The Near East,* 8 April 1920, p. 495; MD 4H112/2b/23, «Renseignements,» 29 April 1920; Russell, *The First Modern Arab State,* pp. 142-143;

قاسمية، **الحكومة العربية في دمشق**، ص 231.

(119) يؤكد المؤلف دور العامل الاقتصادي في خلفية اندلاع الاضطرابات التي شهدتها حلب في 28 شباط/ فبراير 1919 بين سكان المدينة الأصليين والمهجرين الأرمن، الذين اقتلعهم برنامج «الترانسفير» الاتحادي - العثماني (1915-1916) من موطنهم، مغفلًا العامل الحاسم في اندلاعها المتمثل في تطويع الفرنسيين بجيشهم في الساحل وكيليكيا عددًا كبيرًا من الأرمن، الذين أخذوا يسلبون ويعتدون على الجنود والضباط العرب السابقين في الجيش العثماني أو «المنحلين من الجيش التركي» على حد وصف جريدة **حلب الرسمية**، وهم عائدون إلى سورية في الممرات الجبلية، فامتلأت نفوس سكان حلب سخطًا وغضبًا. ومما يؤكد ذلك البرقية التي طيرها وجهاء الأرمن في حلب إلى المفوضية الفرنسية العليا في بيروت المتضمنة دعوة فرنسا «ألا تستخدم متطوعي الأرمن ضد سورية والسوريين»، ذاكرين ما لاقوه منهم من العطف الإنساني في أثناء محنتهم. للاستزادة بشأن اضطرابات حلب موضوع البحث، يُراجع: محمد جمال باروت، **التكوّن التاريخي الحديث للجزيرة السورية: أسئلة وإشكاليات التحوّل من البدونة إلى العمران الحضري** (الدوحة/ بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2013)، ص 296-301. (المترجم)

(120) WO 106/189/30629/EA2269, GHQ to WO, 3 March 1919; AD 2342, «Rapport sur les =

مما لا ريب فيه، على أي حال، أن البرنامج الذي أجج مشاعر الكراهية والنفور كان ذلك الذي ابتدأته الحكومة الفيصلية - وأطلق شرارة المقاومة الأشد - عنينا برنامج التجنيد الإلزامي. ومن المثير للسخرية، أن قانون التجنيد قد سن في كانون الأول/ ديسمبر من عام 1919، ثم جرى توسيع نطاقه وتعزيزه في شهر أيار/ مايو وحزيران/ يونيو من عام 1920[121]، والمصادقة عليه بعدئذ تحت وطأة الذعر الشديد الذي أثارته النوايا الفرنسية والمطالبة الشعبية المتزايدة بالمقاومة المسلحة. ولكن سرعان ما تبين السوريون الفارق بين المشاركة الطوعية في الميليشيا المحلية والعمل في جيش وطني ضعيف التسليح ولا يدفع للجنود إلا رواتب ضئيلة. إضافةً إلى ذلك، ونظرًا إلى أن زعماء اللجان الشعبية أدركوا حقًّا أن الحكومة العربية كانت تعتزم الاستعانة بقانون التجنيد من أجل استغلال الحركة القومية الشعبية وإنشاء جيش يمكنه سحق معارضته، فعمدوا إلى عرقلة تنفيذه[122]. وهكذا قوبل التجنيد بمقاومة فردية وجماعية في آن، في كل أنحاء المنطقة الشرقية. وعمد الشبان إلى تزوير شهادات ميلادهم ليتمكنوا من إثبات أنهم ليسوا في سن السوق إلى الخدمة العسكرية الإلزامية؛ بينما فر آخرون من المدينة وحتى من البلاد. ونظرًا إلى التكرار الشديد لحالات الفرار من التجنيد حظرت الحكومة العربية على الشبان الذين هم في سن التجنيد الهجرة من المنطقة الشرقية. وأرغم البالغون سن التجنيد الإلزامي على الالتحاق بالوحدات العسكرية لذا اضطروا إلى الفرار فرادى وجماعات؛ وكان الفرار من الجيش متفشيًا مما جعل فيصل نفسه يعلق على الأمر بقوله إنه غالبًا ما كان عدد الفارين من الجيش يفوق

---

troubles survenus le 28 Février 1919 à Alep,» 14 April 1919; MD 4H112, «Compte rendu du capitaine = Gautherot sur la situation politique à Alep,» 6 May 1920; FO 371/4143/104019, General Sir Walter Lawrence to Commander in Chief (Egypt), 13 May 1919; *Arab Bulletin*, no. 89 (14 May 1918), pp. 168-169;

كرد علي، **خطط الشام**، ج 3، ص 163-165؛ الغزي، **نهر الذهب**، ص 716-718؛ Monroe et al., *Reconstruction*, pp. 12-13, 34-35.

(121) **العاصمة**، 25 كانون الأول/ ديسمبر 1919، ص 3؛ **العاصمة**، 29 نيسان/ أبريل 1920، ص 4؛ **العاصمة**، 20 أيار/ مايو 1920، ص 1-2؛ **العاصمة**، 24 أيار/ مايو 1920، ص 1-2؛ MD 4H58/2, «Rapport hebdomadaire: 6 au 12 Juillet [1920]».

(122) **الكوكب**، 6 كانون الثاني/ يناير 1920، ص 10؛ MD 4H114/2/38, Cousse to Gouraud, 18 January 1920.

عدد المتطوعين. وقد اندلعت أعمال الشغب المناهضة للتجنيد الإلزامي في كل من درعا، وحاصبيا، وطبعًا في دمشق، وكانت الإعلانات مجهولة المصدر تعقد المقارنات بين سياسات الحكومة وسياسات جمعية الاتحاد والترقي. ومن أجل إخماد أعمال الشغب، أرسلت الحكومة العربية قوة قوامها أربعمئة جندي إلى حي الميدان المثير للمتاعب على الدوام[123].

لقد كان من الجلي، طوال عام 1920، أن ذلك الشريط من الأزمات المستمرة التي أصابت سورية لم يؤد إلا إلى انهيار السلطة السياسية والمعنوية للأمير فيصل والحكومة العربية. ومع ازدياد تحول ساحة النشاط السياسي من قصر الأمير إلى الشوارع تحركت الجهات المنظمة للجان الشعبية من أجل ملء الفراغ الذي أحدثته الحكومة الضعيفة. وفي ما بعد كتب الصحافي أسعد داغر في مذكراته،

> الحقيقة أن السياسة التي اتبعت في سورية كانت غريبة في بابها، فبينما كان المفكرون من قادة الرأي العام، ورجال الحكومة أنفسهم يتوسلون بجميع الوسائل الممكنة لإثارة حماسة الشعب وإبلاغها إلى أقصى حدودها. إذا بهم يتراجعون أمام أقل عقبة تعترض طريقهم، ويتركون الشعب حائرًا في أمره لا يدري كيف يعلل موقفهم. فقد كانوا يدفعونه إلى الاستعداد لمقاومة الفرنسيين، ويحثونه على مناوأتهم وعرقلة مواصلاتهم وإقامة العقبات في طريقهم من جهة. وكان بعضهم من الجهة الثانية، يلجأ إلى سياسة المجاملة واللين، ويعد الحكومة الفرنسوية بتسيير البلاد بغير الطريق الذي اشترك في تحريض الأمة على السير فيه.

(123) **سورية الجديدة**، 27 كانون الأول/ ديسمبر 1919، ص 2؛ AD 2375/chemise: division de la Syrie, 1919-1920/349/2, Lamothe to GCC (telephone message), 6 January 1920; AD 2375/chemise: division de la Syrie, 1919-1920/355/2, Arlabosse to GCC, 9 January 1920;

الدفاع، 13 كانون الثاني/ يناير 1920، ص 2؛ WO 106/195/1845S, GHQ to DMI, 9 March 1920; WO 106/196, «GHQ Intelligence Survey,» 15 May 1920; AD 2374/1032, «Rapport,» 18 May 1920; AD 2358/dossier: renseignements politiques/444, Cousse to HC, 24 May 1920; IO L/PS/10/802/P5172, «French Report for the period May 25-31 [1920]»; MD 4H114/4/478, Cousse to Gouraud, 1 June 1920; MD 4H114/4/483, Cousse to Gouraud, 3 June 1920; MD 4H58/1, «Rapport hebdomadaire: 1 au 7 Juin [1920]»; AD 2374/dossier: TEO zone ouest: adm., cabinet politique/1193/CP. «Zone est: situation générale,» 15 June 1920.

> وقد أحدثت هذه الحالة هياجًا عظيمًا في الأفكار وبددت الثقة التي وضعها الشعب بقادة أموره، فجعل يتهم بعضهم بالخيانة صراحة. وينفرط من حولهم بالتدريج، إلى أن أصبح الزعماء الذين وضع الشعب زمامه بين أيديهم غير قادرين على قيادته بعد أن انتزع ثقته منهم وقلب لهم ظهر المجن[124].

دعا فيصل المؤتمر السوري إلى الانعقاد في مطلع شهر آذار/ مارس <من العام 1920>. وأعلن المؤتمر سورية <مملكة> مستقلة في 8 آذار/ مارس في خطوة كانت بمثابة مقياس للرأي العام أكثر من كونها صانعة له. وبالطبع، فقد رفضت دول الوفاق الإقرار بإعلان الاستقلال، ومنحت فرنسا الانتداب على سورية في مؤتمر سان ريمو الذي انعقد بعد شهرين. وبينما كان الجيش الفرنسي يرابط على الساحل، وكانت القوى القومية الشعبية تحظى بتأييد واسع في البلاد، أصبح الصدام محتمًا. وفي 14 تموز/ يوليو وجه الجنرال هنري غورو إنذاره إلى الحكومة العربية. وبعد عشرة أيام تجاوزت القوات الفرنسية الحدود، واخترقت خطوط الدفاع السورية عند خان ميسلون واحتلت دمشق، منهية بذلك تجربة الحكم العربي الوجيزة، وعندئذ بدأت مرحلة امتدت خمسة وعشرين عامًا من هيمنة الانتداب الفرنسي على سورية.

---

(124) داغر، مذكراتي، ص 122.

القسم الأول

بنية المنظمة السياسية في سورية الفيصلية

الفصل الأول

من «تأجيج الشعور الوطني» إلى حلول السياسات الجماهيرية

كنا قد ناقشنا في المدخل التحول الاقتصادي والإداري للإمبراطورية العثمانية إبان القرن التاسع عشر، الذي وإن كان متباينًا من حيث التوزيع والأثر على حد سواء، بيد أنه أفضى إلى تغيير مترابط في العلاقات الاجتماعية والسياسية طال عددًا كبيرًا من سكان الإمبراطورية. وهناك ثلاثة جوانب لهذا التحول تتسم بأهمية خاصة من أجل فهم ظهور النزعة القومية والسياسة الجماهيرية في سورية ومسار تطورهما. أولًا، كما أشرنا آنفًا، اتسع مجال السياسة الرسمية مع اتخاذ الدولة لنفسها وظائف جديدة أو حين كافحت الدولة والمؤسسات المستقلة عنها للسيطرة على مهام متنوعة لم يسبق أن كانت بين يدي الأولى. ونتيجة لهذه السيرورة، أصبح عدد متزايد من السوريين الذين عبأتهم الدولة أو من يناوئها على اطلاع عبر منافذ وسائل الإعلام الجديدة - التي كفل فاعليتها توافر تجمعات كبيرة من السكان، وإعادة تنظيم الفضاء المديني، والبدء باستخدام التقنيات الحديثة في مجال المواصلات والاتصالات - فأخذ عدد القضايا العامة الخاضعة للنقاش بالازدياد.

وفي الوقت ذاته، كان لتوسع نطاق الاندماج الاقتصادي العثماني ومداه والآثار البنيوية المترتبة على إعادة تجديد الإدارة العامة العثمانية تأثير مضاعف

على التماسك الثقافي للإمبراطورية. وبأشد المعاني تجريدًا، فقد أفضى تكامل النشاط الاقتصادي، والنمو المديني، واشتداد التدخل الحكومي، واتساع مدى المجال العام الحديث إلى ازدياد التوحيد القياسي في القيم والممارسات الثقافية مع خضوع عدد كبير من السكان العثمانيين لقوى التسوية لدى السوق والدولة. وقد وسع هذا التوحيد القياسي نطاق التقبل لما سماه بندكت أندرسن «المنظومة الثقافية» للقومية(1). ولكن على مستوى آخر، فإن هذا التوحيد القياسي ترافق مع سيرورة تبدو مناقضة. ونظرًا إلى أن تحول المجتمع العثماني كان متباينًا من حيث التوزيع والأثر، فقد اختلفت طرق تأثيره في مختلف الطبقات الاجتماعية، وكانت نتيجته تأليب أولئك الذين نجحوا في اجتياز المشهد الاجتماعي، والاقتصادي، والسياسي الجديد على أولئك الذين لم يفلحوا في ذلك. ونتيجة لذلك تشعبت الثقافة العثمانية المتأخرة، شأنها في ذلك شأن الثقافات في الإمبراطوريات الأخرى والمستعمرات الواقعة بعيدًا من أوروبا إلى ثقافات فرعية متمايزة باطراد، عبرت عن استجابات متباينة للتغير الاجتماعي الاقتصادي. وكما سنلاحظ أدناه، فقد نظمت كل ثقافة من الثقافات الفرعية تلك نفسها بطبيعة الحال عبر المؤسسات، ومثلت ذاتها بفعاليات أنموذجية جسدت تصورها للترتيب المناسب والحقيقي للمجتمع.

بالتوازي مع ذلك، مكن تحول الظروف الاقتصادية والإدارية والمدينية من إجراء إعادة بناء مشروطة لعلاقات القوى لدى الكثير من السوريين. وقد جعلت التغييرات السالفة الذكر إعادة بناء علاقات القوى على امتداد الخطوط الأفقية، والجمعياتية، والقومية أمرًا ممكنًا من الناحية العملية على نحو ما تجلى بوضوح إبان الفترات التي شهدت تجاوز و/أو إنهاك حاجات السوريين ومصالحهم لقدرات الروابط العمودية للتبعية الشخصية المحددة بدقة.

بدأت إحدى الفترات تلك في خريف عام 1919. ففي ذلك الحين، كان الكثير من سكان المدن في سورية غير مستقرين بسبب الآثار المدمرة للحرب

(1) Benedict Anderson, *Imagined Communities: Reflections on the Origin and Spread of Nationalism* (London, 1983), p. 12.

العالمية الأولى ومعبئين جزئيًا من جانب الحكومة العربية وحلفائها عبر قنوات تحايلت على (وبالتالي قوضت) الوجهاء الأعيان والروابط المألوفة التي تصلهم بجماهير المدن، وأخذ هؤلاء يواجهون سلسلة جديدة من الأزمات الاقتصادية والسياسية. ونظرًا إلى عجزهم عن معالجة ما خبره الكثير من السوريين من فقدان أماكن استقرارهم، غدت الروابط التقليدية لعلاقات التبعية السياسية جوفاء على نحو مطرد، وإبان الفترة التالية التي امتدت ثمانية أشهر أفادت أعداد كبيرة من السوريين من نمط جديد من التنظيم السياسي - ممثلًا باللجنة الشعبية - مما أدى إلى مأسسة الروابط الأفقية والجمعياتية والقومية وتوسيعها على نحو لم يتحقق من قبل. وحينما واجه عدد من الزعماء الراسخين في المدن والريف خسارة رأس المال الاجتماعي والرمزي، فعلوا الشيء ذاته، في سبيل التعتيم على الطبيعة الثورية لتلك اللجان، التي مثلت عبر بنيتها وبرنامجها إطارًا جديدًا للشرعية الاجتماعية والسياسية.

وهكذا، ملأت اللجان الشعبية الفراغ الذي لم يكن بوسع الحكومة العربية ولا المنظمات القومية المرتبطة بها مثل جمعية العربية الفتاة والنادي العربي أن تملأه بنيويًا أو عقائديًا. ولسوف تكون الأسباب الكامنة وراء هذا القصور من جانب المنظمات القومية تلك والسمة المبتكرة للجان الشعبية موضوع هذا الفصل والفصل الذي يليه.

«تأجيج الشعور الوطني»

ركز النقاش بشأن القومية، حتى الآن، على الشروط الأساسية المسبقة اللازمة لانبثاقها. ومع ذلك، وعلى الرغم من أن ضرورة انتشار البنى والعلاقات المرتبطة بـ «الحداثة الكلاسيكية» لا تكفل ظهور النزعة القومية بين السكان. وتتطلب النزعات القومية قيام حركات قومية؛ أو المخاطرة بضرب ما هو واضح، إذ يستحيل تحقيق القومية من دون قوميين.

لم يكن المسار التطوري الذي اتخذته اللحظة القومية النخبوية في الشرق الأوسط العربي بالفريد من نوعه في المنطقة. بل بالأحرى، إن هذه اللحظة اتبعت

مسار تطور مشابه لذلك الذي أثاره أولئك الباحثون «السابقون للقوميين» ومن خلفهم من «الوطنيين»، الذين عكف على دراستهم ميروسلاف هروتش، وهم الذين اضطلعوا بالمسؤولية عن تحديد النزعة القومية وتشخيصها بين ظهراني «القوميات الصغيرة» في أوروبا. واستنادًا إلى هروتش، فإن هذه القوميات المتأخرة في الظهور (في السياق الأوروبي) - مثل النرويجية، والفلمنكية، والبوهيمية - يمكن تمييزها من القوميات الأوربية التي ظهرت في وقت أبكر بفضل حقيقة مفادها أنها «تميزت بوجود بنية اجتماعية لم تكتمل عند بلوغها عتبة وجودها المستقل». وبعبارة أخرى، يمكن القول إن وجه الاختلاف القائم، يعود إلى أن هذه القوميات «كانت خاضعة لسواها وتفتقر جزئيًا أو كليًا لطبقة حاكمة خاصة بها، وفي بعض الأحيان كانت هناك طبقات وفئات اجتماعية أخرى ممثلة على نحو غير مألوف»[2].

يقسم هروتش تاريخ الحركات القومية التي عكف على دراستها إلى ثلاث مراحل، تمتاز كل منها ببنية تنظيمية فريدة من نوعها، وجماعة مستهدفة من الأنصار، وزعامة محورية مميزة. وتتسم المرحلتان الأوليان في أنموذج هروتش بأهمية خاصة لفهم أصول وممارسات المنظمات التي ستكون مدار بحثنا في هذا الفصل. أولًا، المرحلة أ، وتسبق في الواقع ظهور الحركة القومية. وتمثل هذه المرحلة، حسب هروتش، فترة من الإحياء الثقافي «تتسم باهتمام عاطفي من جانب جماعة من الأفراد، مثقفون عادة، شغلهم الشاغل دراسة اللغة، والثقافة، وتاريخ القومية المضطهدة»[3]. وتماثل هذه المرحلة في الشرق الأوسط العربي تلك الحقبة التي أنجز فيها الأدباء والباحثون المرتبطون بحركة «النهضة» والحركة «السلفية» اللتين شهدهما أواخر القرن التاسع عشر أعمالهم معزولين عن أغلبية السكان، وغافلين، في معظم الأحيان، عن الآثار السياسية التي قد تترتب على دراساتهم.

---

(2) Miroslav Hroch, *Social Preconditions of National Revival in Europe: A Comparative Analysis of the Social Composition of Patriotic Groups among the Smaller European Nations*, Ben Fowkes (trans.) (Cambridge, England, 1985), p. 9.

(3) Ibid., pp. 22-23.

نظرًا لأن تحليلي أصول القومية الشعبية يختلف اختلافًا كبيرًا عن تحليل هروتش، لا أدرج هنا مناقشة بشأن ما يطلق عليه هروتش تسمية «المرحلة جيم» (Phase C).

وأما المرحلة ب، فيؤكد هروتش،

> أنها تمثل حقبة سمتها تأجيج الشعور الوطني الفعال: عنينا سيرورة تخمير للوعي القومي... وكانت القوة الدافعة في هذا العصر من تأجيج الشعور الوطني، جماعة من الوطنيين الذين كانوا غير راضين عن حصر الاهتمام بالمعالم الأثرية للأرض، واللغة، والثقافة، ورأوا أن مهمتهم تتمثل في نشر الوعي القومي بين الناس.

واستنادًا إلى محمد عزة دروزة، وكان من الأعضاء الأوائل في عدة جماعات قومية وفي الوقت ذاته كاتبًا غزير الإنتاج، الذي قسم تاريخ الحركة القومية إلى عدد من المراحل تشبه تلك التي عرض لها هروتش، وتمتد هذه المرحلة في الشرق الأوسط العربي من قرابة عام 1908 إلى عام 1915. وفي الفترة الممتدة بين عامي 1908 و1911 ركز «الشبان [العرب] المتنورون» اهتمامهم على القضايا المحلية، مثل إلغاء القوانين التي تنص على الاستخدام الرسمي للغة التركية في الولايات العربية من الإمبراطورية، وزيادة عدد المناصب البيروقراطية المتاحة للسوريين، وإعادة صياغة الهوية العربية/ العثمانية. وأخذت الحركة القومية العربية، حسبما يقول دروزة، تواجه إبان السنوات الأربع التالية، قضايا أوسع أفقًا ومدى، ونتيجة لذلك، بدأت الحركة بالانقسام وفقًا لخطوط الأجيال. فمن جهة، كما يؤكد دروزة، كانت المجموعة التي تضم الأفراد «الأكبر سنًا» تفضل العمل عبر الجمعيات العامة مثل حزب اللامركزية الإدارية العثماني، الذي قد يروق لطيف أوسع من السكان. ومع ذلك، باءت هذه الاستراتيجيا بالفشل في نهاية المطاف، فعلى الرغم من أن الحزب نظم في عام 1913 مؤتمرًا في باريس للناشطين الذين يعتنقون الآراء نفسها بغية الحصول على تنازلات من اسطنبول، إلا أن جمعية الاتحاد والترقي التي تحكم الإمبراطورية العثمانية نكثت وعودها بتنفيذ الإصلاح. ونتيجة لذلك، تحول ميزان القوى داخل الحركة القومية العربية إلى الجيل الأصغر سنًا، والأشد برمًا وضيقًا. وقد عمل أولئك القوميون الشبان عبر الجمعيات السرية مثل الفتاة والعهد، وعزلوا أنفسهم، شأنهم في ذلك شأن أسلافهم المثقفين، عن عموم السكان(4).

(4) كانت الحقبة الأخيرة (1915-1920)، وفقًا لما أورده دروزة، حقبة سمتها السياسة الجماهيرية. =

على الرغم من أن خطر القمع كان ماثلًا على الدوام تجاه أعضاء هاتين الجمعيتين السريتين، إلا أنه لم يكن السبب الوحيد لقرارهم بالانفصال عن أغلبية مواطنيهم. وقد اشتكى أحمد قدري، في مذكراته، وكان عضوًا مؤسسًا في الفتاة، وأصوله الاجتماعية مشابهة لتلك التي لدى دروزة، من أن مواطنيه أنفسهم يمثلون العقبة الرئيسة أمام التنظيم القومي. وقد قسم قدري المؤهلين للانضمام إلى القضية العربية إلى ثلاث فئات مهنية؛ التجار وهم «ليسوا هنا وليسوا هناك من وجهة نظر السياسة والإصلاح»؛ وطبقات المتعلمين «أطفال في بداية الشباب ولا يصلحون للسياسة»؛ وفئة تتألف من الضباط العسكريين، والموظفين البيروقراطيين، والمتقاعدين، والباحثين عن العمل. وكان هؤلاء شأنهم شأن الفئتين الأوليين غير قابلين للتنظيم أيضًا: ووفقًا لما أورده قدري، فإن ضباط الجيش كانوا يفتقرون للخبرة في العمل السياسي ويميلون إلى تفادي الانخراط فيه؛ والمتقاعدين «أشبه بالنساء العجائز، فلا شيء يرضيهم، ولا عمل يروق لهم»؛ والبيروقراطيين والباحثين عن العمل لا ينشدون سوى الحفاظ على مناصبهم أو الحصول على مناصب أخرى. أما أولئك الذين ينتمون إلى بقاع مختلفة من العالم العربي، فيؤكد قدري أن السوريين والعراقيين قد أمضوا ردحًا طويلًا من حياتهم في أغلال الخضوع مما يجعلهم لا يعرفون سبيلًا آخر للعمل سوى «التسول والاستسلام»، ويتطلب تنظيم عرب الخليج بذل مزيد من الجهد من دون «قطع وشائج [منظميها] بالحضارة».

> ومن هذا التفصيل يظهر لك أن العاصمة في حالتها الحاضرة ليس فيها عرب تستطيع جماعتنا أن تعتمد على أحد منهم، أو أن تعمل صلة ورابطة مع أحد منهم، اللهم إلا أن يكون «فلان وفلان» وكل ما أخبركم عنه «فلان» وهو سراب بقيعة جاءه أخوكم الظمآن فلم يجده شيئًا[5].

= ونظرًا لانتماءات دروزة السياسية وتحيزاته، فإنه يضع الفتاة وحزب الاستقلال العربي المنبثق عنها، في قلب السياسة في هذه الحقبة، متجاهلًا الدور الذي اضطلعت به اللجان الشعبية. محمد عزة دروزة، **حول الحركة العربية الحديثة** (صيدا، 1950)، ج 1، ص 21-79.

(5) أحمد قدري، **مذكراتي عن الثورة العربية الكبرى** (دمشق، 1956)، ص 27. للاطلاع على مزيد من المعلومات عن حياة قدري وأنشطته، يُنظر: MD 4H114/dossier 4/471, Cousse to Gouraud, 1 June 1920; خالد العظم، **مذكرات خالد العظم** (بيروت، 1973)، ج 1، ص 94-95؛ أمين سعيد، **ثورات العرب في القرن العشرين** (القاهرة، 1960)، ص 99، 112، 259.

وهكذا، فإن تأجيج الشعور الوطني عند قدري وزملائه كان وسيبقى مجال عمل لنخبة محدودة من المهنيين ذوي الإرادة القوية الذين يمتلكون تجربة اجتماعية وثقافية فريدة من نوعها توحد بينهم. وقد ميزت هذه التجربة أعضاء النخبة عن زملائهم اللامبالين، وبالطبع، الجماهير الأشد جهلًا على حد سواء.

الفتاة في سورية الفيصلية:
المتآمرون في عصر السياسات الجماهيرية

تأسست <جمعية العربية> الفتاة في عام 1909 أو 1911 (بحسب المصدر) على يد جماعة صغيرة من الطلبة العرب الذين يدرسون في باريس. وسرعان ما عمد هؤلاء بعد حين إلى نقل مقرهم إلى بيروت[6]. وعلى الرغم من أن حجم المنظمة لم يكن يتجاوز السبعين عضوًا في الفترة ما بين عامي 1911–1918، إلا أن الفتاة جذبت انتباه المؤرخين بصورة رئيسة لسببين. أولهما، كانت عضوية التنظيم شأنها شأن عضوية الجماعات المتفرعة عنها شديدة الميل إلى الباحثين والصحافيين والمهنيين – ذلك الضرب من الناس الذين يدونون المذكرات، ويكتبون افتتاحيات الصحف، ويدونون التواريخ المحلية، وكان الكثير من المؤرخين يعتمدون عليهم. ويذكر سي. إرنست دون الذي تولى تحليل الحركة العربية في الفترة ما قبل عام 1914 أن 67 في المئة من أعضاء العربية الفتاة، والعهد، وغير المنتسبين إليهما من «غلاة القوميين» ممن استطاع أن يتقصى بيئاتهم قد تلقوا تعليمًا عاليًا، بينما تلقى 17 في المئة منهم تعليمًا «غربيًا». فضلًا عن ذلك، كان 5 في المئة منهم باحثون، و11 في المئة صحافيون، و22 في المئة مهنيون، و30 في المئة ضباط عسكريون. ونظرًا إلى أن العضوية في العهد تقتصر على العسكريين، فمن الممكن أن أغلبية الذين صنفهم دون بوصفهم باحثين وصحافيين ومهنيين كانوا إما غير منتسبين أو منتمين إلى الفتاة[7].

(6) دروزة، **حول الحركة**، ص 27؛ قدري، **مذكراتي**، ص 12؛ سهيلة الريماوي، **جمعية العربية الفتاة السرية: دراسة وثائقية، 1909–1918** (عمان، 1988)، ص 65–69. تتباين روايتا دروزة وقدري من حيث التفاصيل.

(7) C. Ernest Dawn, *From Ottomanism to Arabism: Essays on the Origins of Arab Nationalism* = (Urbana, 1973), pp. 177-178.

لعل السبب الثاني لاكتساب الفتاة الشهرة بعد أن كاد يخبو ذكرها، إنما يعود إلى تلك الخيارات التكتيكية التي اتخذتها المنظمة بمحض الصدفة في أيامها الأولى. والواقع إن الفتاة لم تكن أول منظمة عربية تدعو قبل الحرب العالمية الأولى لاستقلال الولايات العربية عن الإمبراطورية العثمانية فحسب، بل إنها منذ عام 1916 ربطت مصيرها بالأسرة الهاشمية والثورة العربية. ونتيجة لذلك، فإن الكثير من أعضاء المنظمة الذين إما ظلوا مقيمين في سورية أو انضموا إلى صفوف الجيش العربي أو البلاط الحجازي إبان الحرب ضمنوا لأنفسهم موقعًا في الإدارة العربية في سورية ما بعد الحرب. ومع تنامي أسطورة الأمير فيصل والثورة العربية إبان فترة ما بعد الحرب، كذلك تنامت الأسطورة المحيطة بالفتاة. وقد بدأ ذلك حتى قبل تأكيد أنطونيوس على أنه «ليس ثمة من جمعية أخرى اضطلعت بدور حاسم في تاريخ الحركة القومية [مثل الفتاة]»، وقد دأب الكتاب على وصف الفتاة بأنها المنظمة القومية «الأكثر أهمية» أو «الأشد تأثيرًا» إذ كانت بين يديها «السيطرة السياسية الفعلية إبان الفترة الوجيزة لحكم فيصل في دمشق»(8).

تنطوي مشكلة مثل هذه التأكيدات على شقين. أولًا، إنها تدفع المنظمات الأخرى إلى الهامش أو تتجاهل تأثير هذه المنظمات المنخرطة بـ «تأجيج الشعور الوطني»، إضافةً إلى مسارات التطور الأخرى للقومية في سورية. ولسوف يكون

= يتسم آخر بيان إحصائي يتضمن النسبة المئوية للضباط العسكريين في الحركة القومية في فترة ما قبل الحرب العالمية الأولى بالاختلال بفعل حقيقة مؤداها أن التقرير يستند إلى أحد عشر شخصًا، عشرة منهم ينتمون إلى جمعية العهد.

(8) George Antonius, *The Arab Awakening: The Story of the Arab National Movement* (London, 1938), p. 111; Malcolm Russell, *The First Modern Arab State: Syria under Faysal 1918-1920* (Minneapolis, 1985), p. 72;

خيرية قاسمية، **الحكومة العربية في دمشق بين 1918-1920** (بيروت، 1982)، ص 20؛ Muhammad Y. Muslih, *The Origins of Palestinian Nationalism* (New York, 1988), p. 120.

لا يقدم مصلح هذا البيان الأخير بشأن الفتاة وحزب الاستقلال العربي المنبثق عنها أيضًا فحسب، وإنما، على نحو يبعث على الفضول، بشأن جمعية العهد العسكرية السرية التي تتنازعها الفصائل أيضًا. فبعد دخول الجيش العربي إلى دمشق، انقسمت جمعية العهد إلى فرعين أحدهما سوري والآخر عراقي. وبينما كان الفرع العراقي يشارك مشاركة نشطة في السياسة، فإنه ركز اهتمامه بصورة حصرية على مستقبل العراق؛ إذ لم يكن للفرع السوري أي تأثير مباشر على السياسة بوصفه منظمة إبان العهد الفيصلي.

أحد هذه المسارات موضوع بحث بمزيد من التفصيل في الفصل الثالث، ويتصل على نحو أساسي بالأنشطة المستقلة التي اضطلع بها (الاتحاد السوري) في أثناء الحرب، والذي جرى تأسيسه على يد سوريين مقيمين في مصر، وبات يهيمن واللجان الشعبية على الفعاليات السياسية في سورية بدءًا من خريف عام 1919[9]. ثانيًا، قصرت السرديات التي تركز على دور الفتاة عن الأخذ بعين الاعتبار التغيير الذي طرأ على طبيعة السياسة إبان أواخر الحقبة العثمانية وبدايات المرحلة ما بعد العثمانية، وهو التغيير الذي أدى إلى تحول النفوذ السياسي بعيدًا من أولئك الذين كانوا يطلقون على أنفسهم اسم «المتنورون»، والمنظمات التي أنشئت خصيصًا لتأييد «تأجيج الشعور الوطني» السري أو التلاعب من وراء الكواليس بالمنظمات ذات القواعد الجماهيرية.

على الرغم من دعوة الفتاة المبكرة لاستقلال العرب، إلا أنها دأبت على تفادي إمكان إثارة الشقاق بسبب إعلان رؤى عقائدية واضحة[10]. بل وحتى القرار بالتحالف والثورة التي قادها الهاشميون، على سبيل المثال، إنما كان يستند إلى المنفعة السياسية وأهواء الصلات السياسية بين الأسر في دمشق أكثر مما يستند إلى التقارب العقائدي بين السوريين والمكيين[11]. وقد كان أول اتصال للأمير فيصل بالفتاة في دار آل البكري في دمشق في عام 1915. وعلى الرغم من أن آل البكري يعدون من بين أسر الأعيان المحدثي النعمة نسبيًا في المدينة[12]،

---

(9) جرى تشكيل الاتحاد السوري في نهاية الحرب العالمية الأولى من بقايا حزب اللامركزية الإدارية العثمانية. وضمت لجنته التنفيذية في عضويتها كلًا من رفيق العظم، وخالد الحكيم، ووهبة عيسى، وميشيل لطف الله، وكامل القصاب، ورشيد رضا، وسليم سركيس، وعبد الرحمن الشهبندر. محمد عزة دروزة، **مذكرات وتسجيلات** (دمشق، 1984)، ج 2، ص 130–131؛ وللاطلاع على برنامجه (بالعربية والإنكليزية)، يُنظر: FO 371/4178/16051, 10 January 1919.

(10) الريماوي، **جمعية العربية الفتاة السرية**، ص 285.

(11) للاطلاع على أوجه الاختلاف الأيديولوجي الذي يفصل بين أعضاء العربية الفتاة والشريف حسين، يُنظر: Dawn, *From Ottomanism to Arabism*, pp. 69-86.

(12) اعتبار المؤلف آل البكري من بين أسر الأعيان المحدثي النعمة نسبيًا في دمشق يغفل حقيقة مؤداها أن هذه الأسرة، التي تدعي الانتساب إلى أول الخلفاء الراشدين أبي بكر الصديق، استقرت في هذه المدينة قادمة من مصر في القرن الرابع عشر. وأخذ أفرادها بالهيمنة على المناصب الدينية الرئيسة في دمشق (القضاء والإفتاء الحنفي) في الفترة الممتدة من أواسط القرن السابع عشر ولغاية الربع الأول من القرن الثامن عشر، =

إلا أنهم شكلوا تحالفًا مع آل العابد في نهاية القرن التاسع عشر وشرعوا في مزاحمة آل العظم واليوسف الأشد رسوخًا منهم في السياسة المحلية. وإبان ذلك الصراع الذي كان يدور بين السلطان عبد الحميد الثاني وجمعية الاتحاد والترقي للسيطرة على الإمبراطورية العثمانية، انحاز آل العابد إلى السلطان، بينما ساند آل العظم واليوسف الاتحاديين. ونظرًا إلى خشية الشريف حسين من السياسات المركزية التي انتهجتها جمعية الاتحاد والترقي وضع نفسه في مواجهتها، وبالتالي، أنهى علاقته مع عبد الرحمن اليوسف أمير الحج، وسعى إلى صداقة آل البكري، وأتم تحالفه مع هذه الأسرة بتعيين فوزي البكري حارسًا شخصيًا له، وكان فوزي وأخواه نسيب وسامي، من بين الأعضاء الأوائل في الفتاة. وقد حظي هؤلاء الثلاثة برعاية أشراف مكة في نهاية الحرب(13).

= حينما جرى إقصاؤهم عن الإفتاء على يد ولاة دمشق من آل العظم، وإن تخلل ذلك عودتهم لإشغال منصب الإفتاء لمدة وجيزة في نهايات القرن الثامن عشر. كما استأثر آل البكري بإدارة أوقاف المدرسة الجقمقية، التي هي إحدى أهم المدارس الدينية بدمشق طوال الفترة الممتدة بين أواسط القرن السابع عشر وحتى عهد متأخر من القرن العشرين. وقد تحول آل البكري لإشغال مناصب عالية في البيروقراطية المحلية في مرحلة التنظيمات. للاستزادة بشأن آل البكري، يُراجع: ليندا شيلشر، **دمشق في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر**، ترجمة عمرو الملّاح ودينا الملّاح (دمشق: الناشر خاص، 1998)، ص 189-193. (المترجم)

(13) William Ochsenwald, «Ironic Origins: Arab Nationalism in the Hijaz, 1882-1914,» in: Rashid Khalidi et al. (eds.), *The Origins of Arab Nationalism* (New York, 1991), pp. 194-196; Linda Schatkowski Schilcher, *Families in Politics: Damascene Factions and Estates of the 18th and 19th Century* (Stuttgart, 1985), pp. 153, 160; Philip S. Khoury, *Urban Notables and Arab Nationalism: The Politics of Damascus 1860-1920* (Cambridge, England, 1983), p. 87; Antonius, *The Arab Awakening*, pp. 149, 188-191;

العظم، **مذكرات**، ج 1، ص 90؛ محمود الجركس، **الدليل المصور للبلاد العربية** (دمشق، 1930)، ج 1، ص 66؛ Mary Wilson, «The Hashemites, the Arab Revolt, and Arab Nationalism,» in: Khalidi et al. (eds.), *The Origins*, pp. 207-208; FO 882/24/128-134, «Who's Who in Damascus,» 14 May 1919;

تؤكد الأنشطة اللاحقة لآل البكري الأصغر سنًا (نسيب وفوزي وسامي) أن التزامهم «القومية العربية» لم يكن ضاربًا جذوره بعمق في الأيديولوجيا. وعلى الرغم من إشغال نسيب البكري منصب رئيس الديوان الأميري في ظل الأمير فيصل، وأنه غالبًا ما يدرج اسمه بوصفه الرئيس الأول للذراع السياسي للفتاة، ألا وهو حزب الاستقلال العربي، إلا أنه انسحب لاحقًا من صفوف الحزب لكي يكون إلى جانب شقيقيه فوزي وأنور عونًا في تأسيس الحزب الوطني السوري الأصلاني السوري. كما جرت محاولة إقامة زواج تحالف بين آل اليوسف المعادين بحدة للهاشميين وآل البكري حينما خطب سامي البكري ابنة عبد الرحمن اليوسف في عام 1919. عبد العزيز العظمة، **مرآة الشام: تاريخ دمشق وأهلها** (لندن، 1987)، ص 245؛ دروزة، **مذكرات**، ج 2، ص 143-144.

لم يكن الإخوة من آل البكري، بالطبع، الوحيدين من أعضاء العربية الفتاة الذين جنوا منافع ما بعد الحرب الناجمة عن تحالف المنظمة والهاشميين إبان الحرب، كذلك فإن حسن الطالع الذي ناله الإخوة من آل البكري وزملاؤهم لم يغب عن أنظار السوريين والفلسطينيين والعراقيين الطموحين. وبدا جليًا مع زوال السلطة العثمانية من سورية في أيلول/ سبتمبر- تشرين الأول/ أكتوبر من عام 1918، أن الوصول إلى السلطة السياسية، والوظائف، وأموال الحكومة يعتمد على عضوية المنظمة أو الانتساب إليها، فسعى الدمشقيون والقادمون حديثًا إلى العاصمة للانضمام إلى الفتاة بأعداد غفيرة. ونتيجة لذلك، سرعان ما تحولت الفتاة من جمعية سرية لتصبح الذراع الذي يقود الرعاية السياسية حالما تخلت عن القواعد الصارمة التي كانت في ما مضى تنظم الالتحاق بصفوفها[14]. وعلى النقيض من ذلك، لم تمتلك قيادة المنظمة سلطة الموافقة أو عدم الموافقة على تعيين المتنافسين حتى على الوظائف الحكومية المتواضعة فحسب، بل وضمنت أن يكون كل الذين يشغلون وظائف مهمة في الحكومة، مثل أصحاب المناصب الوزارية، من أعضائها. وفي بعض الحالات، أدى هذا التقييد إلى وضع هؤلاء المعينين في موضع يبلغ حد التهكم - مثل عبد الرحمن الشهبندر الذي شغل ذات مرة منصب وزير الخارجية في الحكومة العربية - إذ حُملوا على أداء القسم أمام المنظمة على عجل بعد إعلان تعيينهم على الملأ[15]. وهكذا، استنادًا إلى دروزة، بدأت المنظمة تضم إليها:

> عددًا غير قليل بسائق هذه الرغبة [إشغال الوظائف]... وكان منهم المائع في أخلاقه وروحه وقلبه ووطنيته والانتهازي للفرص، ومن هنا يفهم سر كون كثير منهم بقوا في وظائفهم وسايروا أدوار الاحتلال الإفرنسي بعد انهيار العهد[16].

ومن أجل معالجة الظروف المستجدة بينما يحافظون على امتيازاتهم، سعى قادة الفتاة إلى إصلاح بنية المنظمة. واستهلوا ذلك، بتقسيم العضوية إلى فئتين:

---

(14) دروزة، **مذكرات**، ج 2، ص 80، 111؛ قدري، **مذكراتي**، ص 72.

(15) دروزة، **مذكرات**، ج 2، ص 196.

(16) دروزة، **حول الحركة العربية**، ج 1، ص 75-76.

المؤسسين (الذين انضموا إلى الفتاة قبل نهاية الحرب) والمحتسبين أو العاديين (وهم الأعضاء الجدد). وكان الأعضاء المؤسسون يجتمعون شهريًا للتشاور، والنقد، وإذا ما استدعى الأمر ينتخبون لجنة إدارية جديدة لوضع سياسة عامة للمنظمة، وإبلاغ المحتسبين بقراراتهم بوساطة ممثل خاص[17]. وعلى الرغم من أن المقصود بهذا النظام المحافظة على «قدر من الهيبة والأهمية والسرية... في المنظمة»، بيد أن هذا النظام القائم على هاتين المرتبتين تعرض للخطر من جراء تشكيل قيادة الفتاة لجنة خاصة نيط بها ترقية محتسبين محددين إلى مستوى المؤسسين. فإضافةً إلى الشهبندر، تضمنت قائمة الذين جرى تغيير مرتبتهم كلًا من عادل أرسلان، المستشار السياسي للأمير فيصل؛ ووصفي الأتاسي وصبحي الطويل العضوين في المؤتمر السوري العام؛ والعميد يوسف العظمة؛ ومحمد النحاس، مدير الدخل في الحكومة العربية؛ ورشيد رضا الذي تولى ذات مرة رئاسة المؤتمر السوري العام؛ وسامي السراج، رئيس تحرير صحيفة **العرب** الحلبية؛ وسعيد طليع، الكاتب في المؤتمر السوري العام؛ وأمين التميمي، مدير الأمن العام في حكومة سعيد الجزائري القصيرة الأجل[18].

ولما تجاوز عدد أعضاء العربية الفتاة المئتي عضو، شعرت قيادتها بالقلق من أن يؤدي الالتزام الضعيف وتدني السوية لدى المنضمين للمنظمة إلى النيل من قدرتها على وضع برنامج عمل للحكومة العربية. لذلك كلفت اللجنة الإدارية للفتاة في 5 شباط/ فبراير من عام 1919، بتأسيس حزب سياسي عام عرف باسم (حزب الاستقلال العربي) لاستيعاب المتطوعين من ذوي السوية المتدنية، وبحسب ما جاء في ميثاق الحزب فقد تأسس ليكون بمثابة جبهة شعبية للمنظمة، ويسعى إلى «إيصال الأمة العربية إلى مصاف الأمم المتقدمة»، ونشر الدعاية التي تدعو إلى وحدة الأراضي العربية كافة التي كانت تحت السلطة العثمانية[19].

---

(17) المرجع نفسه، ج 1، ص 78.

(18) الريماوي، **جمعية العربية الفتاة السرية**، ص 89.

(19) دروزة، **مذكرات**، ج 2، ص 141. يُنظر أيضًا: علي سلطان، **تاريخ سورية 1918-1920: حكم فيصل بن الحسين** (دمشق، 1987)، ص 102؛ الريماوي، **جمعية العربية الفتاة السرية**، ص 97. يضع محمد مصلح التاريخ في 17 كانون الأول/ ديسمبر 1918، Muslih, *The Origins of Palestinian*, p. 132. =

كان ثمة، مع ذلك، تناقض أساسي في التفكير الذي يبرر تأسيس هذا الحزب. فمن جهة، كانت اللجنة الإدارية ترى فيه وسيلة لنشر الدعاية للفتاة في أرجاء سورية كافة، إذ كان يفترض ببرنامج الحزب أن يعكس المواقف التي تتخذها اللجنة. ومن جهة أخرى، كانت اللجنة الإدارية ترى في هذا الحزب مكانًا تلقي فيه كل أولئك الذين يريدون الوصول إلى الرعاية لكنهم ليسوا ملائمين للتنظيم السري. وهكذا، على الرغم من أنه كان لزامًا، من الناحية النظرية، على كافة أعضاء حزب الاستقلال العربي أن يخضعوا للتدقيق عبر عملية الترشيح والانتقاء قبل أن يتاح لهم الانضمام إلى الحزب، إلا أنه كان لدى كافة أعضاء العربية الفتاة، سواء كانوا من المؤسسين أو من المحتسبين (الذين اضطروا هم أنفسهم للانضمام إلى الحزب) الحق في ترشيح الأعضاء الجدد. ونتيجة لذلك، حتى أولئك الذين نالوا الشهرة لمعارضتهم استراتيجية الفتاة وأهدافها أدرجت أسماؤهم في قوائم الحزب. وكان ضمن هؤلاء كل من تاج الدين الحسني، وعبد القادر الخطيب، وراشد مردم بك (انتسب هؤلاء جميعًا في وقت لاحق إلى «الحزب الوطني السوري»، الذي تأسس في المقام الأول لحفظ المناصب الحكومية لأبناء سورية)؛ وتوفيق شامية (أصبح لاحقًا، شأنه شأن عبد القادر الخطيب، عضوًا في اللجنة الوطنية العليا)؛ وفارس الخوري. وقد أحجمت قيادة الحزب، على أي حال، عن تلبية طلب محمد فوزي العظم وعبد الرحمن اليوسف، وهما دعامتا ما يسمى بالمعارضة «المحافظة»، الانتساب إلى الحزب. وبناء على اقتراح من الأمير فيصل دعي الاثنان إلى الانضمام إلى «اللجنة الاستشارية» التي ليست لها أي وظيفة حقيقية[20].

يمكن القول عمومًا إن حزب الاستقلال العربي لم يضطلع إلا بدور يكاد لا

= وتختلف المصادر في أسماء أولئك الذين كلفوا على يد اللجنة الادارية بتأسيس الحزب. وأما الأفراد الذين غالبًا ما ترد أسماؤهم فهم توفيق الناطور (أحد مؤسسي الفتاة الأصليين في باريس ورئيس تحرير جريدة **الفجر**) و/ أو نسيب البكري، يعاونه محمد عزة دروزة و/ أو سعيد الغزي. يُنظر: العظمة، **مرآة الشام**، ص 245؛ قدري، **مذكراتي**، ص 82؛ دروزة، **مذكرات**، ج 2، ص 142.

(20) دروزة، **مذكرات**، ج 2، ص 142؛ أسعد داغر، **مذكراتي على هامش القضية العربية** (القاهرة، 1956)، ص 110.

يذكر في السياسة السورية في هذه الفترة، وبرهن - وفقًا لتقرير بريطاني - على أنه كان يمثل عائقًا إلى درجة أن الأمير فيصل حظر مشاركته في الفعاليات العامة، بعيد عودته من أوروبا في ربيع عام 1919[21]. وبعد ذلك، ولا سيما إبان الفترة التي امتدت حتى وصول لجنة كينغ - كرين إلى دمشق، اعتمدت الحكومة العربية على منظمات ومؤسسات أخرى، وخاصة تلك التي يرعاها النادي العربي والموظفون الموالون للحكومة، لنشر الدعاية وتعبئة السكان.

كانت الصعوبات التي تواجهها الفتاة، على أي حال، تتجاوز المشكلات البنيوية. فقد بدأ الشقاق الحزبي، الذي ظل كامنًا ضمن تنظيم كان أعضاؤه متحدين بفضل معارضتهم لأوجه معينة في الحكم العثماني وحسب، يظهر بعد الحرب بشكل قضايا جديدة باعثة على الفرقة - عنينا السياسة التي جرى انتهاجها حيال دول الوفاق، وحدود الدولة العربية المعتزم تأسيسها، والدفاع، والولاءات المحلية، وما إلى ذلك - وأدت إلى تمزيق المنظمة. ولما كانت الفتاة تفتقر إلى الآليات اللازمة لفرض الانضباط، فغالبًا ما كان الأعضاء يتجاهلون أو يعمدون إلى تخريب القرارات التي لا يوافقون عليها[22]. وقد حاول كل من ياسين الهاشمي (رئيس ديوان الشورى الحربي الذي كان مرتبطًا بالخط السياسي العسكري المتصلب) وعلي رضا الركابي (الذي كان بوصفه حاكمًا عسكريًا ينافح عن انتهاج سياسة أكثر استرضاء لدول الوفاق) استخدام عضويتهما في اللجنة الإدارية للفتاة، وفي الدائرة الضيقة المحيطة بفيصل لفرض برنامجهما السياسي على المنظمة. وحاول كل منهما، في أوقات مختلفة المناورة تجاه الآخر وحشد أعضاء اللجنة الإدارية إلى صفه. بينما عمد آخرون إلى تأسيس منظمات أو الانتساب إلى منظمات خارجية تتمتع بقاعدة أوسع من المؤيدين أو تؤيد أهدافًا أشد وضوحًا وتحديدًا من تلك التي تدعو إليها الفتاة. وعلى وجه الإجمال، فمن بين خمسة وسبعين من الأعضاء البارزين في الفتاة، إبان العهد الفيصلي - الذين كانت لديهم صفة «المؤسسين»، أو أعضاء في اللجنة الإدارية، أو كلاهما معًا -

---

(21) FO 371/4181/89850/117-120/24, Clayton to Curzon, 17 June 1919.

(22) دروزة، حول الحركة العربية، ج 1، ص 81-88.

كان 5 في المئة أيضًا أعضاء في الحزب الوطني السوري أو أصبحوا كذلك، و7 في المئة أعضاء في الاتحاد السوري، و7 في المئة أعضاء بارزين في الفرع العراقي من حزب العهد، و8 في المئة أعضاء في لجنة الدفاع الوطني، و12 في المئة أعضاء في اللجنة الوطنية العليا[23].

لقد أسهم التدخل المباشر من جانب الغرباء في الشؤون الداخلية للفتاة في تفاقم الانشقاق الحزبي داخل المنظمة ذاتها. وبعيد تأسيس الحكومة العربية في دمشق تسلل محازبو الاتحاد السوري المناهض لأشراف مكة على وجه الإجمال – وكان العديد من أعضائه يناصرون الجمهورية – إلى صفوف الفتاة، في محاولة منهم للتأثير في التعيينات والسياسات. وذلكم هو ما فعله الفرنسيون أيضًا، على الرغم من أن دوافعهم كانت ذات طابع تمزيقي على نحو أوضح[24]. ومن جهتها، مارست الحكومة العربية – والأمير فيصل شخصيًا – الضغوط والترهيب على أعضاء فرادى في المنظمة، فضلًا عن التلاعب بالانتخابات الداخلية لكي تحظى سياسات الحكومة بدعم هؤلاء وتأييدهم. وكان المال، بطبيعة الحال، السلاح الأمضى في ترسانة الحكومة؛ فلم تكتف الحكومة بتقديم الرشى إلى كل عضو، بل ومولت أيضًا الأنشطة اليومية للمنظمة. ونتيجة لذلك، ووفقًا لما أورده أمين سعيد، وجد الفرنسيون حينما دخلوا إلى دمشق ستة عشر ألف جنيه مصري في خزينة الفتاة[25].

تخلى الأعضاء عن كافة المحاولات الرامية إلى الاتحاد حول القضايا

(23) كان بعض أعضاء العربية الفتاة (مثل كامل القصاب) ينتمون إلى أكثر من حزب. وعلى الرغم من أن هناك بعض الأدلة التي تشير إلى أن الفتاة قد أنشأت اللجنة الوطنية العليا، إلا أن اللجنة أعادت تنظيم صفوفها واعتمدت سياسات تتعارض مع الفتاة في غضون ثلاثة أشهر من تأسيسها.

(24) دروزة، **حول الحركة العربية**، ج 1، ص 81–88، 91؛ AD 2429/131, Mercier(?) to Picot, 13 December 1918.

(25) دروزة، **مذكرات**، ج 2، ص 164، 180–181؛ دروزة، **حول الحركة العربية**، ج 1، ص 74، 80؛ أمين سعيد، **الثورة العربية الكبرى: تاريخ مفصل جامع للقضية العربية في ربع قرن**، ج 2: **نضال بين العرب والفرنسيين والإنكليز** (القاهرة، 1934)، ج 2، ص 36، 126. في حين أن سجلات سعيد شقير لا تظهر أي مدفوعات مباشرة للفتاة، غير أنها تبين قطعًا بأنه جرى تسديد دفعات ضخمة وغير مبررة لأعضاء اللجنة الإدارية مثل ياسين الهاشمي ونسيب البكري.

الاستراتيجية، بالتزامن مع بدء ضعف التماسك الداخلي للمنظمة. ويروي دروزة أن الفتاة انقسمت بشأن توقيت زيارة لجنة كينغ - كرين إلى سورية إلى ثلاث زمر. وكانت الزمرة الأولى تعرف باسم (الرافضون) وتضم دروزة، وسعيد حيدر، وأحمد مريود، ورفيق التميمي، وخالد الحكيم، وكامل القصاب، وإبراهيم القاسم. ودان أعضاء هذه الزمرة كلًا من بريطانيا وفرنسا بسبب مخططاتهما الرامية إلى تنفيذ اتفاقية سايكس - بيكو، وإعلان بلفور، ورفضوا تأييد أي من هاتين الدولتين لتكون قوة منتدبة. وانتسب الكثير من هؤلاء في ما بعد إلى اللجان الشعبية. وأما الزمرة الثانية فقد ضمت الأمير فيصل، وأخاه زيدًا، وآخرين سواهما ممن كانوا يفضلون البريطانيين على الفرنسيين، لكنهم، مع ذلك، يوافقون على ضرورة إجراء تعديل على اتفاقية سايكس - بيكو في ضوء النصر الذي حققه الجيش العربي، وكانت الزمرة الأخيرة تضم في عضويتها أولئك الذين تمسكوا بالأمل بإقرار الانتداب الأميركي[26]. وقد تحطم هذا الأمل، بالطبع، بسبب عدم استعداد الولايات المتحدة لأن تأخذ على عاتقها مسؤولية سورية، إضافةً إلى اتفاق الخامس عشر من أيلول/ سبتمبر المبرم بين بريطانيا وفرنسا.

حينما عاد فيصل إلى سورية قادمًا من أوروبا في شهر كانون الثاني/ يناير من عام 1920 بعد التفاوض على إبرام اتفاقية موقتة مع الفرنسيين، أضحت الهوة بين الزمر الباقية في الفتاة غير قابلة للردم. وللحصول على موافقة المنظمة على اتفاق فيصل - كليمنصو، حاول الأمير وعلي رضا الركابي التلاعب بالانتخابات لتفوز لجنة إدارية جديدة[27]. وفي حين أثارت مناوراتهما غضب جميع الرافضين، لم يصدر عن أي منهم ما يضارع ردة الفعل الغاضبة جدًا التي أظهرها كامل القصاب رئيس اللجنة الوطنية العليا. إذ اتهم القصاب اللجنة الإدارية بـ «التقاعس» و«إهمال المصلحة القومية»، وقطع الصلات التي تربط تنظيمه بالفتاة. وفي الوقت ذاته، وفي مسعى للإفادة مما وصفه أحمد قدري «[ذلك] الشرخ الذي بدا للعيان ما بين الفتاة والتشكيلات الوطنية الشعبية»، أسس مجموعة من الأعيان

---

(26) دروزة، **مذكرات**، ج 2، ص 76-77، 81-82.

(27) سعيد، **الثورة العربية الكبرى**، ج 2: **نضال بين العرب والفرنسيين والإنكليز**، ص 126.

السوريين ممن كانوا داخل الفتاة وخارجها الحزب الوطني السوري ليكون بديل كلٍّ من حزب الاستقلال العربي وسياسة الشارع. وعلى الرغم من أن حجم الحزب الوطني السوري ظل صغيرًا، إلا أن تأييده لإقامة دولة مستقلة ألا وهي «سورية في حدودها الطبيعية» أضاف صوتًا آخر إلى المطلب المرتبط بلجان القصاب الشعبية[28].

كان المراقبون المعاصرون خارج الفتاة غافلين عن كل من مواطن الضعف البنيوية التي حدت من كفاية المنظمة والنزاعات ذات الطابع التمزيقي الآخذة في التزايد بشأن الاستراتيجيا التي أدت إلى انقسام أعضائها. فكانت النتيجة، تعزيز صورة عن الفتاة تفوق كثيرًا واقع قدراتها. وقد كتب وليام بيل، المستشار الفني لدى لجنة كينغ - كرين عند اختتام جولته في سورية قائلًا: «إن المثقفين والطبقة العليا من المسلمين... قد اكتشفوا السلطة السياسية التي يتمتعون بها تجاه عامة المسلمين الجاهلين. وإن هذه الجماعة تشكل العمود الفقري لحزب الشباب العربي. [و] في أيديهم تكمن السلطة الحقيقية.....»[29]. بيد أنه في ضوء

---

(28) قدري، **مذكراتي**، ص 172-173؛ العظمة، **مرآة الشام**، ص 245؛ دروزة، **مذكرات**، ج 2، ص 143-144؛ سعيد، **الثورة العربية الكبرى**، ص 42. إن التاريخ الدقيق للحزب الوطني السوري يبعث على الحيرة. وبينما تشير معظم المصادر إلى أنه أنشئ في كانون الثاني/ يناير 1920، تشير مصادر أخرى إلى أنه إما تأسس في حزيران/ يونيو 1920 أو تشكل في كانون الثاني/ يناير، وما لبث أن أضحى خاملًا، ثم أعيد إنشاؤه في حزيران/ يونيو. وعلى الرغم من إشارة معظم المصادر العربية (بل وميثاق المنظمة ذاتها) إلى أن الحزب كان، باستثناء نزعته الأصلانية القوية، يتدرج على نحو تام ضمن التيار الرئيس للنزعة القومية العربية، إلا أن المصادر الفرنسية لتلك الفترة تشير إلى أن الحزب كان مؤيدًا لفرنسا في وقت انضم فيه إلى تحالف مع اللجنة الوطنية العليا «المتطرفة». وفي هذا السياق، فإن تأكيد محمد حرب فرزات أن هنالك حزبين مختلفين يحملان اسمين متطابقين يتمتع بالمصداقية. وأنشئ أولهما في كانون الثاني/ يناير 1920، وقد اتسم بالخصائص المبينة أعلاه. وأما ثانيهما الذي تأسس في يونيو/ حزيران 1920 (على يد محمد كرد علي، وفقًا لفرزات) فكان أيضًا حزبًا من الأعيان ومؤيدًا للفرنسيين، أو سعى على أقل تقدير إلى إنجاز تسوية مع الفرنسيين أثناء الأيام الأخيرة من النظام الفيصلي. يُنظر: محمد حرب فرزات، **الحياة الحزبية في سوريا: دراسة تاريخية لنشوء الأحزاب السياسية وتطورها بين 1908-1955** (دمشق، 1955)، ص 77. للاطلاع على وجهة نظر بديلة، يُنظر: Russell, *The First Modern Arab State*, pp. 147, 185;

الريماوي، **التجربة الفيصلية**، ص 98.

(29) «A Report on Syria, Palestine and Mount Lebanon for the American Commissioners,» =

المشكلات الداخلية للمنظمة، وميلها إلى الصفقات السياسية التي تعقد في الحجرات السرية، وبغضها الشديد لتنظيم عامة الناس غير «المتنورين» للمشاركة في السياسة على نحو فعال، فليس من المثير للدهشة أن «السلطة الحقيقية» المعزوة للفتاة لم تمتد إلى أبعد من دوائر الحكم. وقد منيت لائحة المنظمة للمرشحين لتمثيل دمشق في المؤتمر السوري العام بهزيمة ساحقة في الانتخابات التي جرت في حزيران/ يونيو من عام 1919 بعد أن تغلبت عليها اللائحة التي شكلها محمد فوزي العظم كبير أسرة العظم النافذة، و«عميد» طبقة الأعيان من ملّاك الأراضي الدمشقيين التقليديين[30]. وفي الوقت ذاته تقريبًا، عانت العناصر الرئيسة للبرنامج الذي صادق عليه حزب الاستقلال العربي انتكاسات خطيرة؛ إذ لم يطغَ المطلب الشعبي بالاستقلال الكامل لسورية في حدودها الطبيعية على مطلب الوحدة العربية (بما في ذلك الحجاز) الذي صادق عليه الحزب فحسب، بل وتجاوزت الأحداث دعم الحزب لانتداب أميركي أو بريطاني. ومما له دلالة، بعد بدء أزمة الاستبدال، أنه لم تكن الفتاة ولا حزب الاستقلال العربي يرعيان أو حتى يشاركان في التظاهرات الضخمة التي شهدتها العاصمة السورية. وخلاصة القول إنه مع ازدياد اتساع ساحة السياسة السورية، تعرضت هاتان المجموعتان للأفول بسبب أسلوب في السياسة كانتا عاجزتين عن توجيهه أو التحكم به.

---

prepared by Captain William Yale, Technical Advisor to the American Section of the International = Commission on Mandates in Turkey, 1919, p. 24.

(30) وفقًا لما ذكره خالد العظم، فإن جميل مردم بك ومحمد عزة دروزة أخبرا محمد فوزي العظم أنهما يمثلان جماعة من الشبان تُدعى «رجال الغيب» (وهو تعبير يستخدمه دروزة <العظم> في مذكراته في وصفه الحلقة الداخلية للفتاة) الذين قرروا ترشيح العظم بوصفه ممثلًا في المؤتمر السوري العام. وللتدليل على من كان يمتلك السلطة في دمشق بالفعل، ألف العظم القائمة الانتخابية الخاصة به التي ضمت في عضويتها بالإضافة إليه، عبد الرحمن اليوسف، وتاج الدين الحسني، وعبد القادر الخطيب، والشيخ محمد المجتهد، وفوزي البكري، وأحمد القضماني، وجورج حرفوش، ويوسف لينيادو، وعزة الشاوي. (بعد وفاة العظم، شغل مسلم الحصني مقعده في المؤتمر). وأصبح سبعة من بين المذكورين أعلاه أعضاء بارزين في الحزب الوطني السوري. ولقد فازت هذه القائمة بالكامل على الرغم من أن القائمة المعارضة كانت تعضد الأمير فيصل وتحظى بتأييد علي رضا الركابي. وقد هزم محمد فوزي العظم في وقت لاحق هاشم الأتاسي، المرشح عن رجال الغيب في الانتخابات التي جرت لتحديد من سيترأس المؤتمر السوري العام. العظم، **مذكرات**، ج 1، ص 94-95.

النادي العربي

يشترك النادي العربي مع الفتاة في سمات مهمة. ويتجلى ذلك مبدئيًا في أن كلًا من الفتاة والنادي العربي في دمشق يستمدان معظم قادتهما من الصفين الأول والثاني من شرائح متماثلة من السكان: أعضاء من الطبقة الوسطى ومن الصف الثاني من الأعيان الدمشقيين[31]. علاوة على ذلك، لم يكن الأعضاء الأصليون من المنظمتين على وعي شديد بالفوارق الاجتماعية والثقافية التي تفصلهم عن الأغلبية من مواطنيهم وحسب، بل إن ما يتمتعون به من امتياز الوصول إلى الحكومة العربية ساعد على تعزيز نظرتهم إلى السياسة باعتبارها ميدانًا للتآمر والتلاعب. وكما ناقشنا أعلاه، كان المؤسسون في الفتاة قد حاولوا التمييز بين الأدوار التي منحوها لأنفسهم، والمحتسبين، وأعضاء حزب الاستقلال الجماهيري. وعلى نحو مشابه، لما كان هدف النادي العربي يتمثل في انخراط العناصر «المستنيرة» من المجتمع (الذين كانوا يطلقون على أنفسهم اسم المتنورين) في العمل السياسي إلى جانب الحكومة العربية، فإن قيادة النادي كانت تنظر إلى السياسة باعتبارها الوسيلة التي بوساطتها يمكن لنخبة قليلة العدد أن تفرض قيمها، وأهدافها، جنبًا إلى جنب مع مؤسساتها الداعمة، على السكان المتخلفين والمنفعلين. وقد صمم النادي العربي فعالياته وفق هذه النظرة ذات التفرع الثنائي للشعب السوري: فاستضاف حفلات شاي واستقبال اقتصرت الدعوة إليها على المتنورين المحليين وضيوفهم، ووضع الخطط لإلقاء المحاضرات الهادفة إلى «النهوض بالوطن»، واهتم برعاية أعمال تعليمية تغرس «القيم القومية» في أذهان السكان، كما شرع في إطلاق حملات توقيع العرائض، ونظم فعليًا التظاهرات المعبرة عن «إرادة الأمة» الصادقة تجاه السوريين والمراقبين الأجانب على حد سواء.

ومن ناحية أخرى، ونظرًا إلى البنية الهجينة للنادي العربي، يمكن اعتباره

(31) يقسم فيليب خوري القيادة السياسية لدمشق في مطلع القرن العشرين إلى فئتين: مجموعة يقارب عددها اثنتي عشرة أسرة تحتل قمة هرم المجتمع (أسر مثل آل العظم والعابد واليوسف وما إلى ذلك) ومجموعة مؤلفة من نحو خمسين أسرة ممن هم دونهم مكانة. وكانت المجموعة الأولى أشد نفوذًا نظرًا إلى قدرتها على احتكار أعلى المناصب الإدارية وتمتعها بثروة أضخم. ووفقًا لما ذكره خوري، فإن أغلب الناشطين في مرحلة ما قبل الحرب كانوا مرتبطين بالفئة الثانية، Khoury, *Urban Notables*, pp. 44-45.

بمثابة صلة انتقالية تربط الشكل التآمري المبكر للمنظمة القومية كما تمثله الفتاة مع اللجان الشعبية. وقد كان النادي العربي يشبه، في الكثير من الأوجه، حزب الاستقلال العربي أكثر مما يشبه الفتاة. وفي حين أن كلًا من النادي العربي وحزب الاستقلال العربي كانا يتشاطران بنية متشابهة ويتبعان صفات جماعة فطرية وسرية من الناشطين السياسيين، فإن كلاهما شجعا، بل وحتى طالبا أحيانًا بالمشاركة العامة في أنشطتهما[32]. إضافةً إلى ذلك، لم تكن علاقة النادي العربي بالحكومة العربية تماثل علاقة حزب الاستقلال العربي بالفتاة فحسب، وإنما كانت وظيفته – المتمثلة بالترويج للقيم التي تعتنقها المؤسسة التي أنتجته وتحديد وتعيين المشاركة الشعبية المباشرة في الحكومة والسياسة – مماثلة لتلك التي ينتهجها الحزب. هكذا، وبسبب من أن جزءًا من هدفه يتمثل في التوسط ما بين زعامة نخبة قومية وزعامة شعب، بدأ النادي العربي، شأنه شأن حزب الاستقلال العربي، باجتذاب «كافة الشبان المتهورين في سورية» على حد تعبير مراقب بريطاني[33].

كان بعض أولئك المتهورين ممن يسعون الآن للمشاركة في السياسة القومية ينتمون إلى أصول مشابهة لأصول أولئك الأفراد الذين انضموا إلى الجمعيات السرية التي أغلقت قبل الحرب العالمية الأولى أو إبانها. ولما كانوا كارهين للمشاركة في وقت أبكر، أو حال دون ذلك حداثة سنهم أو خوفهم، فقد انتظروا حتى تأسست الحكومة العربية لينخرطوا في نشاط سياسي. وهناك آخرون ينتمون إلى شرائح اجتماعية لم يسبق لها أن اضطلعت بدور في السياسة القومية، وقد جربت هاتان المجموعتان من السياسيين المبتدئين أساليب جديدة في التعبئة مثل نشر فرق سريعة الحركة لبث الدعاية في المقاهي العامة وأماكن محلية أخرى وتنظيم الميليشيات التي تستند إلى الأحياء. وهكذا، كان لنشر فروع النادي العربي

---

(32) ليس من المستغرب أن ثلاثة أعضاء في اللجنة التنفيذية الأولى لحزب الاستقلال العربي – فوزي البكري، وسليم عبد الرحمن الحاج إبراهيم، ومحمد عزة دروزة – كانوا أيضًا أعضاء في اللجنة التنفيذية للنادي العربي. وإلى جانب ذلك، عمل توفيق الناطور، الذي كان، وفقًا لما ذكره أحمد قدري، الفرد المكلف من جانب الفتاة لإنشاء الحزب، أيضًا في اللجنة التنفيذية للنادي العربي. دروزة، **مذكرات**، ص 142؛ قدري، **مذكراتي**، ص 82؛ AD 2430/dossier confidentiel-départ/161s, 21 February 1919.

(33) FO 882/24/100/6890, Director, Arab Bureau to Major G. W. Courtney, 11 May 1920.

في أرجاء سورية كافة أثر غير مقصود تمثل في انفتاح صفوف الزعامة القومية وتوسيع نطاق القاعدة الشعبية للسياسة القومية المنظمة.

النادي العربي في دمشق

كان النادي العربي قد تشكل أصلًا على غرار منظمة إصلاحية ثقافية أخرى، ألا وهي «المنتدى الأدبي»، الذي كان ينشط في اسطنبول في الفترة الممتدة من عام 1909 ولغاية عام 1915، وقد وصفه دروزة بأنه «أحد أهم مظاهر الحركة العربية وسندها» إبان حقبة ما قبل الحرب مباشرة[34]. وكان أوائل أعضاء هذا المنتدى من الطلبة العرب المغتربين الذين أنشأوا هذه المنظمة لتقوية الروابط في ما بينهم ومناقشة القضايا الثقافية والتاريخية. ومن بين هؤلاء المؤسسين عبد الكريم الخليل (غالبًا ما كان يشار إليه بأنه كبير مؤسسي المنتدى)، ورفيق رزق سلوم، وعبد الحميد الزهراوي (من حمص)، وجميل الحسيني (من القدس)، وعصام بسيسو (من غزة) ويوسف حيدر (من بعلبك)، وعزة العظمة (من بغداد)[35] وشكري العسلي (من دمشق). وقد انضم إلى هؤلاء في ما بعد كل من ثابت عبد النور، وعلي عزيز[36]، وعادل أرسلان، وجعفر العسكري، وتوفيق البساط، وعبد الله الدملوجي، وخالد الحكيم، وسعيد حيدر، وعبد الوهاب الإنكليزي، وسليم الجزائري، وسيف الدين الخطيب، ويوسف مخيبر سليمان، وعبد الرحمن الشهبندر، ورمضان شلاش، ونجيب شقير، وشكري القوتلي، ورشدي الشمعة، وعارف الشهابي. وكان المنتدى يتولى عقد اجتماعات وإلقاء محاضرات يحضرها النواب العرب في المجلس النيابي العثماني <المبعوثان>، والطلبة، والساسة، وموظفو الحكومة، كذلك أصدر مجلة باسمه[37].

---

(34) فرزات، **الحياة الحزبية في سوريا**، ص 65؛ دروزة، **حول الحركة العربية**، ج 1، ص 23-24، 91.

(35) الواقع إن عزة العظمة ليس من بغداد، وإنما من دمشق. وهو سهو من المؤلف. يُنظر ترجمته في ملحق التراجم. (المترجم)

(36) المقصود هنا عزيز علي المصري. وهو سهو من المؤلف. يُنظر ترجمته في ملحق التراجم. (المترجم)

(37) قدري، **مذكراتي**، ص 11؛ داغر، **مذكراتي**، ص 35؛ دروزة، **حول الحركة العربية**، ج 1، ص 23-24.

كان أعضاء المنتدى الأدبي، في بادئ الأمر، يتجنبون الخوض في موضوع السياسة القومية. والحق أن عبد الكريم الخليل، المؤسس وأول رئيس للمنظمة تلك، عاد إلى دمشق وبرفقته عدد من أصحابه في أثناء الحرب العالمية الأولى، وكان في وقت من الأوقات، مؤيدًا وصديقًا مقربًا من حاكم سورية السيئ الصيت جمال باشا (الملقب بـ «السفاح»). ووفقًا لما أورده أسعد داغر، فإن جمال باشا علم لأول مرة بوجود الحركة العربية من الخليل، ومن ثم سعى في وقت لاحق إلى اجتثاثها[38]. بيد أنه حينما بدأ موقف جمعية الاتحاد والترقي بالتشدد تجاه الحركة العربية عشية الحرب، لم يعد أمام أعضاء المنتدى الأدبي سوى الانجرار إلى الجدل السياسي. لكن وحتى في ذلك الحين، اختلف الموقف السياسي الذي اتخذته المنظمة عن موقف الفتاة، وعارض الكثير من أعضاء المنتدى حركة الاستقلال العربي، لأنهم شعروا بأن هذا قد يفضي إلى إضعاف الإمبراطورية العثمانية ويجعلها مكشوفة أمام العدوان الأوروبي، فأصبحوا الناطقين باسم حداثة إسلامية معتدلة[39]. ويستذكر داغر في مذكراته بعض القضايا التي أثيرت في سياق المناقشات الداخلية في المنظمة، على النحو التالي:

توفيق البساط: هل نريد اتحادًا إسلاميًا؟ لماذا نحاول <عندئذ> نشر فكرة العروبة؟

عبد الكريم الخليل: إن فكرة الاتحاد الإسلامي تقود إلى الضعف أكثر مما تؤدي إلى القوة. ورفض الغرب سوف يجعله غير قادر على توفير القوة للشرق.

جلال البخاري: كيف يمكن التوفيق بين اعتناقنا الإسلام والثورة على دولة الخلافة؟

وعلى الرغم من أوجه الاختلاف القائمة بينهما، إلا أنه كان لدى المنتدى الأدبي والفتاة أعضاء مشتركون بينهما. وفي حين أن المنتدى الأدبي كان لا يزال موجودًا في اسطنبول والفتاة في باريس، على سبيل المثال، فقد قبلت المنظمة الأخيرة أن

(38) داغر، **مذكراتي**، ص 86.

(39) المرجع نفسه، ص 86. يُنظر أيضًا: دروزة، **حول الحركة العربية**، ج 1، ص 23-24؛ توفيق برو، «المنتدى الأدبي ودوره في النضال العربي»، **المعرفة**، العدد 38 (نيسان/ أبريل 1965)، ص 35-44.

تضم إلى صفوفها كلًا من سيف الدين الخطيب، ويوسف مخيبر سليمان، ورفيق رزق سلوم، وكان هؤلاء جميعًا أعضاء في المنتدى الأدبي، وعملوا وسطاء بين هاتين المنظمتين[40].

وفي ما يتصل بالأحداث اللاحقة، فقد كانت الصلة التي تربط المنتدى الأدبي بالبريطانيين أشد أهمية من الصلة التي تربطه بالفتاة، فاتصل المنتدى بالثورة العربية عبر هؤلاء البريطانيين. وفي تشرين الأول/ أكتوبر من عام 1916 بدأ المكتب العربي البريطاني بتمويل صحيفة **الكوكب** الصادرة في مصر، للترويج لأنشطة المنتدى (وفي ما بعد النادي العربي أيضًا) في تلك المناطق من فلسطين التي انتزعت من السيطرة العثمانية وباتت لاحقًا تحت الاحتلال البريطاني. ويبدو أن الدافع وراء المستعربين البريطانيين كان ذا شقين. أولًا، كان أعضاء المكتب العربي يسعون إلى استخدام **الكوكب** لنشر قومية عربية «معتدلة»، مؤيدة للبريطانيين، وهي قومية تسعى إلى التعايش مع الغرب أكثر مما تنشد رفضهم. ثانيًا، سعى المكتب إلى تعزيز العقائد الإسلامية العصرية المنتشرة بين ظهراني أعضاء المنتدى الأدبي. وكانت هذه العقائد التي تشكل أيضًا سياسة رئاسة تحرير **الكوكب**، لا تنسجم وذلك المذهب في القومية التي يقرها المكتب وحسب، بل تضع القومية في إطار مفاهيمي أكثر شمولًا. علاوة على ذلك، كان أعضاء المكتب العربي يرون أنه يمكنهم عبر تزكيتهم للأخذ بالحداثة الإسلامية تهدئة جماعتين مختلفتين من المنتقدين. فمن جهة، كان المكتب يأمل أن يبدد شكوك التقليديين الذين يعتبرون الثورة العربية لا تعدو أن تكون مؤامرة لضرب الإسلام عمومًا والخلافة خصوصًا. ومن جهة أخرى، كان المكتب بحاجة إلى تهدئة مخاوف أولئك الفلسطينيين والسوريين الذين ينفرون من سياسة شريف مكة التي زعموا أنها تستند إلى تفسير محافظ للشريعة الإسلامية لا يتلاءم والحال في المشرق العربي[41].

(40) قدري، مذكراتي، ص 12-13.

(41) DU Wingate Files 143/2/167 (AB202), Arbur (Cairo) to Sirdar (Khartoum), 13 November 1916; FO 371/2781, «Report of the Arab Bureau for November 1916,» 31 October 1916; AD 2326/dossier du Hedjaz, Extraits de la lettre 94M de M. Bensaci, envoye du gouvernement de la république à la Mecque, 16 May 1919; FO 371/4206/139468, «Note on the Accounts of the Arab Bureau,» 17 September 1919.

لقد وافق البريطانيون أولًا على تعيين عبد الرحمن الشهبندر، ومن ثم الشيخ محمد القلقيلي رئيسين لتحرير **الكوكب**. وكان الدكتور الشهبندر، خريج الجامعة الأميركية في بيروت، عضوًا في الاتحاد السوري، ومن الموقعين على «مذكرة السوريين السبعة» الشهير في حزيران/ يونيو من عام 1918، وهو وثيقة قدمها السوريون المنفيون في مصر إلى الحكومة البريطانية يطالبون فيها بتوضيح المقاصد الحربية البريطانية[42]. كما كان للشهبندر، صلات وثيقة العرى بديفيد هوغارث، مدير المكتب البريطاني العربي، ثم تولى بعدئذ مهمة ضابط الارتباط بين فيصل والحكومة البريطانية. وكان الشيخ القلقيلي، شأنه شأن الشهبندر، قد أمضى فترة الحرب في مصر، وقريبًا بما فيه الكفاية من أوساط الاتحاد السوري كي يسافر سرًا إلى بيروت ممثلًا للاتحاد قبل اندلاع الحرب مباشرة[43].

وقد اجتاح البريطانيون جنوب فلسطين في شهر كانون الثاني/ يناير من عام 1917. وحين تحركت القوات البريطانية نحو الشمال، تعهد البريطانيون بصورة مباشرة وغير مباشرة (عنينا، عبر فيصل والفتاة) بتشكيل أندية سياسية على غرار المنتدى الأدبي. وقد شكلت هذه الأندية في وقت لاحق النواة لفروع النادي العربي في المنطقة. وفي الوقت ذاته جرى اختيار زمرة من الأتباع الفلسطينيين الذين اضطلعوا في وقت لاحق بأدوار مهمة في النادي العربي، وفي أحيان كثيرة،

---

(42) في مسعى لتعزيز بريطانيا هيمنتها على كافة أعضاء الحركة القومية، حتى أولئك الذين تنتابهم شكوك بشأن الثورة العربية أو يناصبونها العداء، وكان أوسموند وروند، عضو المكتب العربي البريطاني في القاهرة، قد طلب إلى الجمعيات القومية السورية في مصر أن يقع اختيارهم على سبعة ممثلين يقدمون المخاوف التي تساور المنفيين إلى البريطانيين. يُنظر: FO 371/4217/69267, «Note by the Arab Bureau, Cairo,» 6 May 1919; David Fromkin, *A Peace to End All Peace: The Fall of the Ottoman Empire and the Creation of the Modern Middle East* (New York, 1989), p. 331;

وللاطلاع على الاستجابة البريطانية، يُنظر: J. C. Hurewitz, *The Middle East and North Africa in World Politics: A Documentary Record*, vol. 2: *British-French Supremacy, 1914-1945* (New Haven, 1979), pp. 110-112.

(43) Philip S. Khoury, *Syria and the French Mandate: The Politics of Arab Nationalism, 1920-1945* (Princeton, 1987), p. 121; Antonius, *The Arab Awakening*, p. 433; MAE L:SL/vol. 8/64-70, Lutfallah to Pichon, 23 January 1919; FO 371/3397/83621, «Arab Bureau Report for March 1918,» 1 April 1918;

الريماوي، **جمعية العربية الفتاة السرية**، ص 223. قبل اندلاع الحرب، أوفد رشيد رضا ورفيق العظم، وكانا كلاهما يقيمان في مصر ومن أعضاء حزب اللامركزية الإدارية العثماني، وحزب الاتحاد السوري لاحقًا، الشيخ القلقيلي إلى بيروت للبت في إمكان اندلاع ثورة مناهضة للعثمانيين تنطلق شرارتها الأولى من سورية.

في الحكومة العربية أيضًا. وكان من بين هؤلاء سليم عبد الرحمن الحاج إبراهيم من طولكرم الذي تولى في ما بعد قيادة النادي العربي في دمشق؛ ومحمد علي بك التميمي من نابلس الذي غدا لاحقًا رئيس شرطة دمشق في العهد الفيصلي؛ وصبحي الخضراء من صفد الذي أصبح رئيس الدرك في العهد الفيصلي؛ ومحمد عزة دروزة من نابلس[44].

تأسس النادي العربي في دمشق بعيد دخول قوات أشراف مكة إلى المدينة، بزعم تيسير تكامل وصول القوات الجديدة إلى العاصمة ونشر الدعاية القومية والموالية لأشراف مكة[45]. وعلى الرغم من أن الحاكم العسكري علي رضا الركابي غدا الرئيس الفخري للمنظمة، إلا أنه كان بوسع الرئيس واللجنة التنفيذية إدارة شؤونها اليومية. ويكشف التحليل لتجارب أربعة وعشرين من أبرز أعضاء النادي العربي في دمشق وثقافتهم وبيئتهم - وكانوا مؤسسي النادي وأعضاء اللجنة التنفيذية، اعتبارًا من شباط/ فبراير من عام 1919 - أنهم جماعة من الأفراد ينحدرون من بيئة مشابهة لتلك التي قدمت منها الشخصيات المهيمنة في الجمعيات السرية[46]. ومن بين هؤلاء ممثلون عن أبرز الأسر في سورية، بمن في ذلك آل العظم، والمؤيد <العظم>، ومردم بك، والبكري (وجميعهم من دمشق) وآل حيدر (من بعلبك)، إضافةً إلى مهنيين أمثال عمر شاكر (مهندس) ومحمد علي التميمي (محامٍ)، وثابت

(44) Anne Mosely Lesch, *Arab Politics in Palestine, 1917-1939: The Frustration of a Nationalist Movement* (Ithaca, 1979), p. 83; العظمة، **مرآة الشام**، ص 244؛ دروزة، **حول الحركة العربية**، ج 1، ص 74؛ Yehoshua Porath, *The Emergence of the Palestinian-Arab National Movement, 1918-1929* (London, 1974), p. 77.

ونظرًا إلى تركيزه على فلسطين واعتماده على مواد من الأرشيف الصهيوني، ربما يبالغ بورات شأنه شأن محمد مصلح في أهمية الصلة الفلسطينية في نشأة النادي العربي بدمشق وأنشطته.

(45) سلطان، **تاريخ سورية**، ص 107؛ العظمة، **مرآة الشام**، ص 244. ووفقًا لما ذكره سلطان، كان تاريخ تأسيس النادي العربي بدمشق في 18 تشرين الثاني/ نوفمبر 1918.

(46) AD 2430/dossier confidentiel-départ/161s, 21 February 1919; Porath, *The Emergence of the Palestinian-Arab*, p. 77,

والواقع أن تسعة من بين الأربعة والعشرين عضوًا - ألا وهم فوزي البكري، ونسيب البكري، ومحمد عزة دروزة، وسليم عبد الرحمن الحاج إبراهيم، وإبراهيم هاشم، ومعين الماضي، وأحمد مريود، وتوفيق الناطور، ومحمد علي التميمي - كانوا أيضًا من المؤسسين الأوائل للمنتدى الأدبي. وكان ثابت عبد النور ويوسف حيدر عضوين أيضًا في المنتدى الأدبي الأصلي.

عبد النور (أديب)، وخير الدين الزركلي (شاعر وصحافي)، وتوفيق الناطور (محام ورئيس تحرير صحيفة)، ومحمد عزة دروزة.

اختار الأمير فيصل بنفسه أول رئيس للمنظمة، ألا وهو الشيخ عبد القادر المظفر. وكان المظفر أول مفتٍ للجيش الثامن الذي مقره في نابلس والبقاع. ولما عين جمال باشا المرسيني (الصغير) قائدًا للجيش العثماني، في أواخر أيام الحرب سافر المظفر برفقته إلى دمشق[47]. وعلى الرغم من أنه كان يدين بتعيينه رئيسًا للنادي العربي، إلى مكانته، بوصفه خطيبًا يحظى بشعبية واسعة، إلا أن مؤهلاته القومية وقدراته الفكرية كانت ضعيفة. وكان، وفقًا لما ورد في تقويم بريطاني متأخر،

> من القدس، ويعد مناهضًا قويًا للصهيونية، وداعيًا للعروبة. وفي ظل حكم الأتراك كان يلقي المواعظ التي تدعو إلى مناهضة البريطانيين وشريف مكة. لكنه الآن يشتم الأتراك ويمدح الشريف. إنه أنموذج للانتهازي، وأمثاله كثيرون في حزب الاستقلال العربي، إنه «سيئ جدًا» بكل ما للكلمة من معنى[48].

لم يكن المظفر، على أي حال، الزعيم الوحيد للنادي العربي الذي جاء متأخرًا نسبيًا إلى سياسة القومية العربية. فمن بين خمسة عشر عضوًا في اللجنة التنفيذية للنادي، على سبيل المثال، كان خمسة أعضاء فقط هم - إبراهيم هاشم، وفوزي البكري، ونسيب البكري، ومعين الماضي، وأحمد مريود - أعضاء في الفتاة أو أي مجموعة قومية تشكلت قبل الحرب. علاوة على هذا، كان هناك أربعة آخرون وهم - سامي العظم، ويوسف حيدر، ورضا مردم بك، وخير الدين الزركلي - لم ينضموا إلى الفتاة إلا بعد احتلال دمشق على يد قوات أشراف مكة. والحقيقة أن الكثير من زعماء النادي الذين أشرفوا على أنشطته اليومية كانوا مستجدين في شؤون السياسة وأثروا في فاعلية النادي العربي: فالخصومات السياسية والشخصية التي فرقت الزعماء وانتشرت بين ظهراني صفوف المنظمة إنما نشأت، جزئيًا، من

(47) العظمة، **مرآة الشام**، ص 244؛ دروزة، **مذكرات**، ج 2، ص 146؛ AD 2371, Gouraud to Cousse, 10 February 1920.

(48) FO 882/24/128-34, «Who's Who in Damascus,» 14 May 1919.

افتقار القيادة إلى الخبرة في توجيه العمليات السياسية والإدارية إضافة إلى العجز الناجم عن ذلك الضرب من الترابط الذي يأتي من التهديد المستمر بالاضطهاد.

كانت الحكومتان البريطانية والعربية ترغبان في أن يظل النادي العربي فوق السياسة. والحق، أنه كانت هناك لافتة كتب عليها، «تحظر المناقشات السياسية»، ثبتت في البداية على أحد جدران النادي العربي. ولكن مثل هذه السياسة لابد أن تكون محكومة بالفشل، ويمكن للمرء أن يتخيل مقدار سخط الأمير فيصل حينما وجه الانتباه، في أثناء إلقائه خطابًا أمام النادي في كانون الثاني/ يناير من عام 1920، إلى حقيقة مؤداها أن اللافتة قد أزيلت[49]. فالنادي العربي، برغم كل شيء، قد تأسس أصلًا للترويج للقيم التي تستند إليها العروبة، وامتدادًا، الحكومة العربية التي كانت التجسيد المعلن للعروبة. وبالنتيجة، لم يشارك موظفو الحكومة في النادي العربي (والعكس بالعكس) فحسب، بل إن الحكومة واصلت بصورة مباشرة وغير مباشرة، تمويل أنشطة النادي طوال العهد الفيصلي، وتشهد على ذلك السجلات التي يحتفظ بها سعيد شقير[50]. وبالمقابل، تقاسم النادي

---

(49) قدري، مذكراتي، ص 163.

(50) تشتمل سجلات شقير على النفقات التالية للفترة الممتدة من تشرين الأول/ أكتوبر 1918 ولغاية 31 تموز/ يوليو 1919:

1- تحت العنوان «الخدمة السرية» (مجموع النفقات: 104,170 جنيهًا مصريًا): 500 جنيه مصري إلى عبد القادر المظفر.

2- تحت العنوان «تبرعات» (مجموع النفقات: 46,645 جنيهًا مصريًا): 50 جنيهًا مصريًا إلى عضو النادي العربي يوسف اسطفان في أيلول/ سبتمبر 1919؛ 200 جنيه مصري إلى حداد باشا، عضو النادي ومدير الأمن العام في كانون الثاني/ يناير وحزيران/ يونيو 1919؛ 100 جنيه مصري إلى المنتدى الأدبي في حزيران/ يونيو 1919؛ و1117 جنيهًا مصريًا إلى «36 عضوًا من أعضاء النادي العربي» في تموز/ يوليو 1919.

3- تحت العنوان «مدفوعات غير منتظمة» (مجموع النفقات: 68,902 من الجنيهات المصرية): 50 جنيهًا مصريًا إلى النادي العربي ببيروت؛ 150 جنيهًا مصريًا إلى النادي العربي بدمشق؛ 60 جنيهًا مصريًا إلى سليم عبد الرحمن الحاج إبراهيم؛ 100 جنيه مصري إلى المنتدى الأدبي في فلسطين.

4- تحت العنوان «مدفوعات استثنائية»: 600 جنيه مصري إلى عبد القادر المظفر؛ 100 جنيه مصري إلى معين الماضي وسعيد طليع.

وبالنظر إلى إيراد بعض النفقات المدرجة داخل كل فئة في شكل بنود، وتكشف الحسابات المذكورة أعلاه الحد الأدنى من المدفوعات التي وزعت على الأفراد والمجموعات المحددة فحسب. =

والحكومة العربية تحمل مسؤولية توفير خدمات عامة معينة كانت تحت سيطرة الدولة حصرًا، مثل تنظيم قوة رديفة للشرطة في دمشق كانت على اتصال مباشر بالمخاتير، وزعماء الأحياء، وإعادة تنظيم النقابات الحرفية والتعليم(51). علاوة على أن النادي العربي، اضطلع بدور كبير في تنظيم حملات توقيع العرائض نيابةً عن الحكومة العربية، والتظاهرات التي كانت تنظم لتظهر لممثلي دول الوفاق في دمشق وباريس وحدة سكان سورية، والتعبير عن ثقتهم بالأمير فيصل والحكومة العربية وأهلية السوريين للاستقلال.

ومن الأسباب التي حالت دون تنفيذ الخطة الرامية لإبقاء النادي العربي فوق السياسة أن الحكومة العربية لم تضطلع بدور المراقب الحيادي في النضال لنيل السلطة السياسية في سورية ما بعد الحقبة العثمانية؛ بل الواقع أنها كانت طرفًا من بين عدة أطراف أخرى متنافسة. إضافةً إلى ذلك، لما كان التنافس على تحديد جوهر القومية العربية ذاته يوازي معركة امتلاك السلطة السياسية، والمناقشات والمحاضرات بشأن التقدم وفق النمط الغربي، والطبيعة الأساسية للثقافة العربية وأسس الوحدة العربية، والجذور المشتركة بين ديانات التوحيد الثلاث، والفوائد المبتغاة من المبادرة الاقتصادية الفردية تكاد ألا تخلو من دلالات معيارية، والواقع أنها تمثل جوهر النقاشات السياسية التي كانت تجري إبان المرحلة الفيصلية. ولذلك فقد انخرط النادي العربي بالضرورة، بعيدًا من كونه الناطق الرسمي باسم «الأمة»، في الجدالات عينها التي لم تفرق بين القوميين وغير القوميين فحسب، وإنما زرعت بذور الفرقة بين أصحاب النزعة القومية أيضًا.

وفي منتصف شهر كانون الأول/ ديسمبر من عام 1918، وبينما كان فيصل

DU SA 493/13/25-35, Shuqayr to Waters-Taylor; DU SA 493/13/1-6, Appendices to letter from Shuqayr to = Waters-Taylor; DU SA 493/14/31-38; DU SA494/2.

يُنظر أيضًا: العظمة، **مرآة الشام**، ص 244؛ دروزة، **مذكرات**، ج 2، ص 72.

(51) مصطفى بلاوي، «الأحزاب السياسية في سورية (1920-1939)»، أطروحة ماجستير، جامعة دمشق، 1985، ص 26؛ FO 371/4181/89850/24, Clayton to Curzon, 17 June 1919.

تعزى مشاركة النادي العربي في إنشاء قوة رديفة للشرطة على الأرجح إلى عضوية كل من محمد علي التميمي رئيس شرطة دمشق، وصبحي الخضراء قائد الدرك في النادي.

في أوروبا، عقد عدد من أعضاء النادي العربي في دمشق سلسلة من الاجتماعات في مسعى لصوغ برنامج سياسي. وقد ضمت الاجتماعات، وفق مصادر فرنسية، قرابة ثلاثين مسلمًا وخمسة مسيحيين، من بينهم عادل أرسلان، وسامي العظم، ومحمد التميمي، وسامي مردم بك، وناجي بك السويدي، وسعيد حيدر، وأسعد حيدر، وإسماعيل شهابي، وفؤاد شهابي، وأمين بك هاشمي، ورشيد طليع، وشكري القوتلي، وشاكر الحنبلي، وعبد القادر المظفر، ونسيب البكري، وفارس الخوري، ونيكولا شاغوري، وخليل معتوق، وعزة شاوي، وجوزيف سابا. وكانت المناقشات محتدمة. فعارض كل من معتوق وشاوي، وكلاهما من الكاثوليك، أي صلة تربط سورية بالشريف حسين أو الحجاز وأوردا الحجج لمصلحة إقامة محمية فرنسية[52]. ومن ناحية أخرى، دافع المظفر والسويدي عن الاستقلال بضمانة بريطانية وحسب. وفي حين طالب السويدي، وهو عراقي، بإنشاء دولة عربية موحدة تضم العراق والحجاز تحت راية الشريف حسين، سعى البكري للوصول إلى تسوية تنحى فيها كل المسائل الدينية جانبًا، وحث النادي على الإعداد المنظم لاستقلال سورية ضمن حدودها الطبيعية (أي سورية الحالية ولبنان وفلسطين وأجزاء من الغراق).

على الرغم من أن زعماء النادي العربي كانت لديهم، عمومًا، نظرة مشتركة للعالم ورؤية للمستقبل، إلا أنهم انقسموا مبدئيًا إلى مجموعات بشأن خصائص معينة للاستراتيجيا السياسية، وبالتلازم، بشأن الحدود التي تتصل بمستقبل الدولة العربية أو السورية. وبناء عليه، وبينما كان بعضهم يؤيد تأسيس اتحاد عربي يضم سورية، وفلسطين، والعراق، وشبه الجزيرة العربية تحت سلطة الشريف حسين، أصر آخرون على فصل سورية تمامًا عن الحجاز وبقية شبه الجزيرة العربية. وفي حين أن أعضاء من الجماعة السابقة قدموا تأكيدات بأنهم لم يؤيدوا تأسيس خلافة عربية تحت راية الشريف حسين، فقد أفيد بأن المساومات استمرت بشأن قضايا

(52) يبدو أن الثلاثة كانوا يكررون الحجة التي ساقها في وقت سابق من الشهر ممثلو «دائرة الشباب الكاثوليكي». وكانت المحاولة التي بذلها النادي العربي من أجل ضم الدائرة قد منيت بالإخفاق نظرًا لاعتراض الجماعة الأخيرة على ولاء النادي المعلن للشريف حسين، وموقفه المؤيد لبريطانيا والمناهض لفرنسا.
AD 2429/dossier 1918/115, Mercier to HC, 9 December 1918.

أخرى: الحدود؛ وما إذا كان ينبغي أن يترك لبريطانيا وفرنسا، أو دول الوفاق الأربع (بريطانيا، وفرنسا، والولايات المتحدة، وإيطاليا) أن تعمل بالتنسيق في ما بينها على توجيه سورية نحو الاستقلال؛ وما إذا كان اختيار دولة أو دول غربية لتتولى مهمة توفير المعونة الفنية فحسب أو أن يسمح لها بالاضطلاع بدور إشرافي أكثر تطفلاً(53).

لقد ازدادت الضغائن داخل النادي العربي، على أي حال، بقدر ما ازداد عدد أولئك الذين كانت الحكومة والمراقبون الأجانب على حد سواء ينظرون إليهم على أنهم «متطرفون»(54) جاهدوا من أجل بسط سيطرتهم على سياسة هذه المنظمة ومناوراتها. وقد أدى اتحاد عدد من الأعضاء المتمردين مع بعضهم بعضًا بصورة غير رسمية، إلى تعطيل فعاليات النادي العربي. ففي آذار/ مارس من العام 1919، على سبيل المثال، تولت «عصبة من شبان النادي العربي» بقيادة سعد الدين المؤيد <العظم>، وهو عضو في اللجنة التنفيذية للنادي العربي، وفائز الخوري شقيق فارس الخوري الأصغر اعتراض حملة لجمع التبرعات لمصلحة الاتحاد الإسرائيلي برعاية علي رضا الركابي والأمير زيد. ووفقًا لتقرير فرنسي، فقد قطعت المجموعة

(53) AD 2429/144, Mercier to HC, 16 December 1918; AD 2429/161, Mercier to HC, 26 December 1918.

(54) استخدم المصطلح «متطرف» على نطاق واسع في الرسائل البريطانية والأميركية، وخاصة الفرنسية (ولا سيما تلك التي كتبها ضابط الارتباط الفرنسي في دمشق اللفتنانت كولونيل كوس) في مجموعة متنوعة من السياقات، وتغير مدلوله تبعًا لذلك. وعادة ما كان يطلق على الأفراد أو الاتجاهات السياسية ممن لم يكونوا على استعداد للتوصل إلى حل وسط مع دول الوفاق بشأن أي من القضايا العديدة (تقسيم سورية، وطبيعة السيادة السورية، السلطات التي ينبغي منحها للحكومة الانتدابية أو هويتها)، وكان لديهم ميل إلى العنف، و/ أو شجعوا على مشاركة اللانخبة في السياسة القومية. واستخدم المصطلح أيضًا لتعيين تلك المنظمات أو الأفراد الذين كانوا يعدون أصلانيين على وجه العموم والمسلمين/ المناهضين للمسيحيين على وجه الخصوص. وغالبًا ما كانت المصطلحات متعصب، وبلشفي، وفَتاتي (أي المشارك في مؤامرة مزعومة تقودها جمعية العربية الفتاة) تستخدم باعتبارها مرادفات لكلمة متطرف. يُنظر: MAE L:SL/vol. 12/32-38, Cousse to Gouraud, 6 April 1919; WO 106/191/MI2B, «Report from GHQ-EEF,» 22 April 1919; FO 371/4181/89850, Clayton to Curzon, «Report by British Liaison Officer (Cornwallis) on Political Situation in Arabia,» 17 June 1919; AD 2358/dossier: mystification chérifienne, Gautherot, 13 September 1919; MD 4H58/1, «Rapport hebdomadaire: 9 au 16 Février 1920»; FO 371/5035/E4858, Wratislaw to FO, 15 May 1920; MD 4H114/4/594, Cousse to Gouraud, 24 June 1920.

الاجتماع الذي رأوا أنه لا يتفق وعقائدهم الرشيدة... كانت الحادثة غير ذات شأن بحد ذاتها، لكنها تشير إلى القضايا التي نشأت، شيئًا فشيئًا، عن جماعة صغيرة استولت على النادي وتريد توجيه شؤون سورية وفقًا لهواها...»[55].

لم يقتصر احتجاج الأعضاء المنشقين عن النادي العربي، على أي حال، على الأنشطة التي كانت تجري في اجتماعات مغلقة. ولما كانت الحكومة العربية تروج للنادي بوصفه وسيلة لردم الفجوة التي تفصل الحكومة عن الأهالي، ونظرًا إلى أن الحكومة العربية كانت قد ناطت بالنادي مهمة توجيه السكان وتعبئتهم، فإن نطاق الانشقاقات الداخلية تجاوز جدران مقر النادي حين نقل أعضاء النادي خلافاتهم مع المنظمة أو الحكومة العربية إلى الشوارع. ومن ذلك أن أحد أعضاء النادي، ألا وهو الكاتب المسرحي والمحرر الصحافي معروف الأرناؤوط، على سبيل المثال، كان ناجحًا جدًا في ريادة الأساليب المسرحية المبتكرة لنشر الأخبار والدعاية السياسية «المتطرفة» و«المعادية للمسيحيين» من مقهى إلى آخر، مما جعل السلطات البريطانية تطالب بإبعاده من دمشق ومن ثم اعتقلته لاحقًا لارتكابه التجاوزات ذاتها في حلب[56].

ربما يُنظر إلى أنشطة الأرناؤوط وسواه على أنها خطوة مهمة في السيرورة التي عبرها خسرت الحكومة العربية والنادي العربي السيطرة على النقاش السياسي والشوارع لمصلحة اللجان الشعبية التي انبثقت بعد السنة الأولى من الحكم الفيصلي. وفي حين أفاد الشبان «المتهورون»، الذين شرعوا في ملء الصفوف في النادي العربي في دمشق أو أخذوا يتصرفون بصورة مستقلة، من الفضاء العام المسيس حديثًا، فإنهم جلبوا معهم جدول أعمال سياسيًا مختلفًا اختلافًا جذريًا، وبصورة متزايدة، صلات عضوية مع سكان دمشق. وقد انتسب إلى النادي بصورة تسمح لهم بحرية في العمل أعضاء مثل رضا الحريري، وأبو محمد حسن الخراط (قبضاي من حي الشاغور اضطلع لاحقًا بدور بارز في الثورة الكبرى لعام

---

(55) MAE L:AH/vol. 4/66-67, Cousse to Gouraud, 21 March 1919.

(56) MAE L:SL/vol. 12/32-38, Cousse to HC, 6 April 1919; AD 2430/dossier confidentiel-départ/634, Cousse to HC, 24 October 1919.

1925)[57] وشكري الحصري، وحسن معروف، وديب سعيد وإخوته، وأمين الطرابلسي، ومصطفى الزاغات، وخليل زرابيلي الذين نشروا نوعًا خاصًا بهم من القومية العربية في سوقي الحميدية، ومأذنة الشحم، وفي أحياء الشاغور، وباب سريجة، والسويقة[58]. وقد اشتكى مراقب فرنسي «لا نسمع خطابات طنانة، على أي حال؛ ولا نرى تجمعات تخطف الأبصار».

> بل على العكس، هناك العديد من الاجتماعات المغلقة حيث... يدعو العملاء ذاتهم السوريين الشجعان إلى التضحية بأنفسهم في سبيل قضية الاستقلال الناجز من دون حماية أو إشراف. وتزداد الأكاذيب عنا وتنتشر في تحركاتهم. وبالأحرى أن الصينيين وليس الفرنسيين، هم من يسعى للنيل من الدين الحق وينتهكون حرمة النساء. وفي المقاهي تنسج القصص على ألسنة رواة الحكايات حول موضوعات الاستقلال والإسلام. فأصبح كراكوز [ذاته] وطنيًا غيورًا بمجرد تلقيه دعوة من النادي العربي[59].

وهكذا، إبان الإقامة القصيرة الأولى للأمير فيصل في أوروبا (الذي عاد إلى دمشق في بداية أيار/ مايو من عام 1919)، تأرجحت المعركة التي كانت دائرة للهيمنة على النادي العربي للأمام والخلف ما بين مؤيدي الحكومة العربية وخصومهم المعروفين بالجناح «المتطرف» في المنظمة. وما إن عاد الأمير، حتى استجاب للشكاوى البريطانية والفرنسية من النادي العربي وأشرف على إعادة تنظيم النادي بمساعدة مستشاره للشؤون العسكرية نوري السعيد. وقد شرح فيصل دوافعه لاحقًا في خطاب ألقاه أمام النادي العربي في حلب:

> يجب عليّ أيضًا أن أكرر القول: إن أول عمل ينبغي علينا القيام به بعد ذهاب اللجنة [لجنة كينغ - كرين] - وما هو بعيد الأمد - أن تكون مجتمعاتنا علمية وأدبية لا سياسية. وإني أنشّط جميع مواطنيَّ الذين يسعون في إنشاء جمعيات علمية، وأكون سعيدًا إذا رأيت اسمي مقيدًا بين أسمائهم.

---

(57) Khoury, *Syria and the French Mandate*, pp. 174-176.

(58) مقابلة مع أبو رباح الجزائري، 15 تشرين الثاني/ نوفمبر 1989؛ MAE L:SL/vol. 12/32-38, Cousse to HC, 6 April 1919; AD 2430/dossier confidentiel-départ/945, Lt. Col. F.L.O. (DCPO Damas), 26 September 1919.

(59) AD 2430, Cousse to Dame, 18 April 1919.

كان كراكوز شخصية في عروض مسرحيات الظل الشعبية التي تقام في المقاهي.

تريدون أن أتكلم عن السياسة أكثر من ذلك فحسبي ما جئت به، ولكني أتكلم الآن عن العلم، وإني أتمنى أن يكون هذا النادي الذي أتشرف اليوم بالوقوف فيه خادمًا للعلم ومصدرًا للآداب كافة. وأطلب من الأمة أن تنظر إلى مستقبلها بعين الارتياح.

ينبغي أن نكون إخوانًا ولا نتفرق ولا يكون بيننا أحزاب، حتى لا يؤثر شيء في مصيرنا. ومن أصابه أدنى ظلم من أي شخص كان فليصبر على ما يصيبه وليأت إلى المرجع المسؤول فيخبره بما أصابه. وربما يوجد مضلّون يحبون أن تتنازعوا - كما وقع قبل مدة - حتى يقولوا: إننا لسنا بمستحقين للحكم الذاتي، وتسوء سمعتنا أمام العالم بمثل ذلك. فإني أحذركم عواقب هذه الأمور التي لن تسمع ولن ترى إن شاء الله[60].

على الرغم من ميل دول الوفاق والأمير فيصل على حد سواء إلى حظر هذه المنظمة بصورة تامة، إلا أنهما كانا راضيين عن إعادة تنظيمها. وفي حين أن البريطانيين على وجه الخصوص أدركوا أن المنظمة «أثبتت أنها صمام أمان وأن إلغاءها لن يؤدي إلا إلى النزول إلى العمل السري تحت الأرض وربما إلى مؤامرات خطيرة»، وخشي فيصل أن يؤدي تفكيك النادي إلى التحريض على إنشاء حزب معارض منظم[61]. ولذلك عمد الأمير إلى ملء روابط النادي العربي بحلفاء الحكومة العربية، مستبدلًا في هذه العملية الشيخ عبد القادر المظفر بسليم عبد الرحمن الحاج إبراهيم الأكثر جدارة بالثقة في ما يبدو. ولئن كان الحاج إبراهيم فلسطينيًا شأنه في ذلك شأن مظفر؛ إلا أنه كان على النقيض من الرئيس السابق للنادي العربي عضوًا في الفتاة إبان الحرب العالمية الأولى، وعمل في أثنائها ممثلًا لقضية أشراف مكة[62].

(60) نقلًا عن: أبو خلدون ساطع الحصري، يوم ميسلون: **صفحة من تاريخ العرب الحديث** (بيروت، 1947)، ص 112-114؛ **العاصمة**، العدد 35 [د. ت.]، ص 3.

(61) FO 371/4181/89850/24, Clayton to Curzon, «Report by British Liaison Officer (Cornwallis) on Political Situation in Arabia,» 17 June 1919; FO 882/24/100/6890, Director Arab Bureau to Major G. W. Courtney, 11 May 1920.

(62) سعيد، **ثورة العرب**، ص 258-259؛ دروزة، **حول الحركة العربية**، ج 1، ص 27. ومما يؤسف له أن المعلومات المفصلة بشأن الإدارة اليومية للنادي العربي، ولا سيما في أعقاب إعادة تنظيمه، =

ومن جهة ثانية، ونظرًا إلى عدم اقتصار اتساع نطاق أنشطة النادي وأعضائه المنشقين، على نحو مقصود ونحو غير مقصود، على عدد السوريين الذين جرت تعبئتهم في العمل السياسي، وإنما شمل أيضًا توسيع مجال أنشطتهم السياسية، فلم يتسن للمنظمة الاضطلاع بوظيفتها المتمثلة في مجرد أن تكون «خادمًا للعلم ومصدرًا للآداب كافة». وقد وسع بعض المنظمين، الذين أجازت مساعيهم قيادة النادي العربي المعاد تشكيلها حديثًا، نطاق أنشطتهم على نحو يتجاوز التعبئة المضبوطة للسكان، وفي أثناء سعيهم للحصول على تأييد الرأي العام، أشركوا المنشقين في الحوار العام. وبعيد إعادة تنظيم النادي العربي، على سبيل المثال، أذنت اللجنة التنفيذية بتوزيع منشورات مؤيدة لأشراف مكة ودول الوفاق في كافة أرجاء دمشق، ممهورة باسم «السيف، والنار، وحماس الشباب». وفي ما يلي أنموذج لنص يمثل هذا الاتجاه:

> هناك أفراد معينون من بينكم يفتقرون للأخلاق وقد باعوا شرفهم لأولئك الذين سوف يضعون على رقابكم نير الاستعمار. ونشر هؤلاء الأفراد إشاعات وأقاويل كاذبة لكسب ممثلي قوى معينة، آملين بهذه المكائد الدنيئة أن تتحقق رغباتهم. لقد نشروا، واستمروا في نشر أن فرنسا سوف تحتل سورية. إنهم يتجاهلون أخطاءهم بأفعالهم تلك، لأن فرنسا النبيلة التي قاتلت مع الحلفاء من أجل تحرير الأمم واستقلال الشعوب، سوف تتجاهل سلوكهم المنحط.

= تفتقر إلى التكامل: إذ تتسم محاضر الاجتماعات بالندرة، والمحاضر الموجودة هي في معظمها من الأرشيف الفرنسي. وعلى الرغم من أن الفرنسيين كانت لديهم شبكة فعالة من الجواسيس، بل إنهم تمكنوا من إدراج يوسف سيوفي أمين سر مكتب التنسيب لدى النادي العربي بدمشق على جدول رواتبهم، إلا أن المعلومات التي جرى نقلها كانت اعتباطية وخاطئة بطبيعة الحال على نحو يعكس المخاوف الفرنسية. ففي حين لا تتوافر، على سبيل المثال، معلومات دقيقة بشأن اختيار رئيس النادي العربي بدمشق، يبدو أنه بعد المظفر تعاقبت عدة شخصيات على الرئاسة، ولعل ذلك يعكس العلاقة المضطربة بين الحكومة العربية والنادي، من جهة، وأعضاء اللجنة التنفيذية، من جهة أخرى. وقد ذكر كل من سامي العظم وفوزي البكري بصور مختلفة في الوثائق بوصفهما رئيسين للنادي العربي. ينظر: FO 882/24/128-34, «Who's Who in Damascus,» 14 May 1919; AD 2324/dossier a-1: politique, 25 June 1919; MD 7N4182/4/340, Picot to MAE, 21 July 1919; AD 2430/696, Sayufi to Cousse, 22 August 1919.

إلى هؤلاء الأفراد الذين يسعون وراء الذهب الذي سيكون مكافأتهم، نقول لهم إن بريطانيا وفرنسا قد وافقتا، بإرادتهما الحرة، على استقلال سورية. عار على هؤلاء الأفاقين! إن مواطنينا الذين يتجاهلون هذه الأكاذيب يعلمون أن سورية سوف تكون حرة!

تحياتنا إلى أولئك الذين يتبعون الحقيقة[63].

وتكشف اللغة المستخدمة في هذا المنشور وما يتسم به من منطق غريب المدى الذي وصل إليه خصوم الحكومة العربية، وفي عدادهم المنشقون عن النادي العربي، حين شرعوا في وقت مبكر من ربيع عام 1919 في تحديد شروط الجدل السياسي وفي نهاية المطاف الهيمنة عليها. وعلى سبيل المثال، واصل أعضاء في النادي هم خير الدين الزركلي، وتوفيق المفرج، وحبيب كحالة - وكانوا على التوالي، رؤساء تحرير صحف **المفيد** و**المؤيد** و**حرمون** و**سورية الجديدة** - أنشطتهم ذات الطابع الانشقاقي المتمثلة في تنظيم الجماعات السرية المعادية لأشراف مكة مثل «الكف الأسود» وتلك الجماعة التي تحمل اسم «القضاء المبرم» المنذر بالشر. ومن بين تلك المنشورات، التي أصدرتها هذه الجماعة السابقة وظهرت في ذلك الحين، منشور مكون من ورقة ذات قطع كبير مطبوعة على وجه واحد تضمن إدانة لفيصل بسبب عمله على تقسيم العالم الإسلامي في مواجهة الإمبريالية الغربية. وعقد أيضًا مقارنة بين ضعف الحكومة العربية وصلابة الكماليين الذين يقاتلون الفرنسيين في الأناضول:

ويل لمن باع أرض الأسلاف! استيقظوا أيها السوريون، وكونوا حذرين! لقد بيعت أرض أجدادكم ويجب عليكم الانتقام من أولئك الذين باعوها[64]!

على الرغم من مواصلة النادي العربي تنظيم التظاهرات والانخراط في أنشطة الدعاية الهادفة إلى تعزيز سياسات الحكومة العربية حتى بعد بداية أزمة الاستبدال والتوقيع بالأحرف الأولى على اتفاق فيصل - كليمنصو، إلا أن سلطة الحكومة العربية ما برحت تتضاءل حالها كحال استراتيجيتها من أجل تحقيق الاستقلال

---

(63) MAE L:AH/vol. 4/48 (in Arabic and French); AD 2430/dossier confidentiel-départ, Cousse to HC, 17 May 1919.

(64) AD 2343/c1: Janvier-Juillet 1919, Cousse, n.d.; AD 2324/dossier a-1: politique, 25 June 1919.

لسورية الموحدة من جراء تهاوي الدبلوماسية وانهيار الاقتصاد السوري. وقد أدى ضعف السلطة الحكومية، بطبيعة الحال، إلى النيل من الرصيد السياسي لحلفائها من بين المتنورين في النادي العربي. وبينما أخذت قضية الدفاع تهيمن على النقاش السياسي، وفيما شجع منطق الاستعداد العسكري إنشاء المنظمات ذات القواعد الشعبية التي تتوافق مع التعبئة الجماهيرية، ومع ازدياد قدرة تلك المنظمات ذات القواعد الشعبية على الهيمنة على البرنامج القومي، فإن هدف النادي العربي المتمثل في تحديد ملامح الأمة وصوغ الرأي العام ليتماشى مع تلك الملامح قد ثبت أنه ما زال بعيد المنال أكثر من أي وقت مضى.

النادي العربي خارج دمشق

لم يقتصر عمل من سيكونون، في صيف وخريف عام 1918، قادة الحكومة العربية مستقبلًا وحلفائهم على تدعيم فروع النادي العربي في أنحاء فلسطين كافة ودمشق، بل إنهم نظموا أو شجعوا المنظمات على تنسيب أنصار جدد في كل من حلب، وحمص وحماه. وطوال العام التالي أخذ منظمو النادي العربي في تأسيس فروع في أرجاء منطقة سورية كافة وما بعدها، بدءًا من السلط جنوبًا إلى اسطنبول شمالًا، حيث ما زال أفراد من الشتات السوري يقيمون هناك[65]. وفي معظم الحالات، تولت الفروع الكبيرة والمقامة في وسط المدن تنظيم و/ أو المحافظة على الفروع الثانوية المؤسسة في الأماكن المحيطة بها. وقد أخذ النادي العربي في دمشق على عاتقه مسؤولية الإشراف على المنتسبين في القرى المجاورة للمدينة؛ وتولى النادي العربي في حلب تنظيم الفروع التابعة له شرقًا في كل من الفرات، وبغداد والموصل؛ ونقل النادي العربي في نابلس الموارد المالية والتوجيهات من المقر الرئيس في دمشق إلى الفروع الأخرى في فلسطين، بما في ذلك الفرع الكبير الذي مقره القدس[66].

---

(65) الكوكب، 29 تموز/ يوليو 1919، ص 9-10؛ FO 371/5168/E6631, «Weekly Summary of Intelligence Reports Issued by M.I.1C, Constantinople Branch, for Week Ending 20th May 1920».

(66) بلاوي، «الأحزاب السياسية في سورية»، ص 26؛ AD 2358/dossier: Emir Fayçal, «Mystification chérifienne,» 13 September 1919; دروزة، مذكرات، ج 2، ص 25-26؛ Muslih, *The Origins of Palestinian*, pp. 167-168.

كانت فروع النادي العربي في أرجاء المنطقة كافة مرتبطة بالفرع الرئيس الذي مقره دمشق. وقد اعترفت الفروع المحلية بأن النادي العربي في العاصمة هو الأول بين أقرانه، وكانت الفروع، في بعض الأحيان، تشارك في الحملات السياسية على صعيد المنطقة التي كان ينظمها النادي العربي في دمشق. ومع ذلك، حافظ كل فرع من الفروع الكبرى على استقلال يكفل استمرار التعاون، على أن يبقى، في أفضل الأحوال، متقطعًا. وفي ربيع عام 1919، على سبيل المثال، جال عبد القادر المظفر ممثل النادي العربي بدمشق في فلسطين بهدف إقناع زعماء النادي العربي المحليين بتنسيق شهاداتهم التي سوف يدلون بها أمام لجنة كينغ - كرين والمصادقة على دعوة فرع النادي العربي في دمشق بريطانيا لتقديم الدعم والمعونة الفنية لسورية. ومع أن الأمير فيصل ذاته كان يؤيد عمل المظفر، وعلى الرغم من أن المظفر، وفقًا لما أورده دروزة، عرض رشى على القيادة الفلسطينية لقاء دعمهم، إلا أن المنظمات المحلية رفضت عرضه[67].

لم يحاول النادي العربي في دمشق إعادة تنظيم صفوفه إلا عشية أزمة الاستبدال - وقد سرت إبان هذه الفترة شائعات عن «خيانة» دول الوفاق، وبدأ تنظيم الميليشيات في الأحياء على نحو جدي - ويبدو أن نادي دمشق حاول ممارسة قدر من الرقابة على منتسبيه أشد من ذي قبل، وربما كان ذلك بمثابة ردة فعل على التأجيج الشعبي. وفي أيلول/ سبتمبر من عام 1919، ظهرت مقالة في جريدة **العاصمة** تعلن عن خطط تتصل بالاجتماع القادم المعتزم عقده في دمشق وتهدف إلى وضع قوانين عامة للأندية كافة. وبعد شهر من ذلك التاريخ التقى الممثلون عن منتسبي فروع النادي في العاصمة واتفقوا على إصدار مجلة، **الأندية**، وأن يؤسسوا في كل مدينة سورية زمرًا أطلقوا عليها تسمية (أرهاط النادي العربي) تضم أعضاء النادي العربي في دمشق للإشراف على ما يضطلع به المتطوعون من «أعمال خيرية»، لكن ليس ثمة دليل على أن هذه الخطط قد أثمرت. والواقع أنه إذا كانت الحكومة العربية وقيادة النادي العربي في دمشق اقترحتا إنشاء الزمر - الأرهاط لصرف اهتمام السوريين عن الأنشطة العسكرية

(67) دروزة، مذكرات، ج 2، ص 59.

بإشغالهم بالمعادل الأخلاقي للحرب، فإن خطتهم هذه منيت بالإخفاق، وبعد ذلك سرعان ما اتصل النادي العربي بدمشق نفسُه بأندية حمص، وحماه، وحلب من أجل «دعوة المتطوعين للانضمام فورًا للقوات المرابطة على الحدود»[68].

كانت أنشطة منتسبي النادي العربي خارج دمشق وبنيتهم، تعكس، في معظم الوقت، الظروف والاهتمامات المحلية. ولربما كان تأثير الأنماط الأهلية للتنظيم السياسي والاجتماعي على كل فرع من فروع النادي العربي يتجلى في أوضح صورة في فلسطين، حيث إن ناديي نابلس والقدس، على سبيل المثال، لم يختلفا اختلافًا جوهريًا عن الأندية خارج فلسطين فحسب، بل بعضهما عن بعض أيضًا.

اضطلعت نخبة تجارية تتسم بقدر كبير من التجانس، وترتبط بصلات تجارية بالمدن الأخرى في المشرق، بدور مهم في مجتمع نابلس[69]. وكان التحالف بين الأفراد الذين أسسوا النادي العربي في المدينة وتولوا الهيمنة عليه يماثل من حيث المهنة والبيئة الاجتماعية ذلك التحالف القائم بين الناشطين المنتمين للطبقة الوسطى وملاك الأراضي الذين كانوا يشكلون العمود الفقري لناديي دمشق وحلب: فكان حافظ كنعان طبيبًا ومن أوائل أعضاء العربية الفتاة؛ والحاج توفيق حماد أحد ملاك الأراض، ونائبًا سابقًا في المجلس النيابي العثماني <المبعوثان>، ورئيس الجمعية الإسلامية – المسيحية المحلية؛ ومحمد عزة دروزة الذي تلقى التأهيل والتدريب ليكون موظفًا حكوميًا إلا أنه أمضى معظم حياته ناشطًا سياسيًا. وعلى النقيض من ذلك، كانت النخب الأكثر انعزاليةً في القدس أقل اعتمادًا على التجارة والصناعة، وأقل اتصالًا بالقضايا السورية الأوسع نطاقًا، وأشد عرضة للأخذ بالاستراتيجيات التنظيمية التي ورد وصفها في أنموذج «سياسة الأعيان» الذي يعكس مستوى عاليًا من التنافس المتبادل بين الأسر. وكان النادي العربي في القدس بقيادة الحاج أمين الحسيني، وحلمي الحسيني، وإبراهيم الحسيني،

(68) **الكوكب**، 28 تشرين الأول/ أكتوبر 1919، ص 9؛ **العاصمة**، 4 أيلول/ سبتمبر 1919، ص 3؛ MD 4H114/1, Cousse to Gouraud, 29 November 1919.

(69) Muslih, *The Origins of Palestinian*, pp. 98-100; يُنظر أيضًا: Beshara Doumani, *Rediscovering Palestine: Merchants and Peasants in Jabal Nablus, 1700-1900* (Berkeley, 1995).

وجميل الحسيني، والشيخ حسن أبو السعود (المفتي الشافعي للقدس) والموظف المتقاعد الشيخ محمد صالح، مدير مدرسة روضة المعارف التابعة للنادي العربي، وأصبح أكثر قليلًا من مجرد أداة في أيدي آل الحسيني الأقوياء. وهكذا، ففي حين سعى المنظمون في نابلس إلى تجاوز الولاءات الدينية والعشائرية على نحو واع عبر إقامة تحالفات مع منظمات قومية سياسية أخرى مثل الفتاة والجمعية الإسلامية - المسيحية، بقي النادي العربي في القدس أسيرًا للنزاع الدائم مع فرع المنتدى الأدبي في القدس الذي كانت تهيمن عليه عشيرة النشاشيبي المنافسة[70].

يبدو أن القليل المتاح من أعمال التوثيق المتوافرة عن الأنشطة اليومية للناديين العربيين يؤكد أوجه الاختلاف الكامن بينهما. وفي حين يشجع الفرعان كلاهما الكثير من المساعي ذاتها، يبدو أن فرع نابلس يركز على الترويج للأنشطة الموازية لتلك التي يأخذها على عاتقه النادي العربي في العاصمة السورية. وشأنه شأن النادي العربي في دمشق، على سبيل المثال، نظم فرع نابلس أعمالًا خيرية، ومحاضرات، وعروضًا مسرحية، للإفادة من ريعها، وكان يدعو إليها المتنورين المحليين[71]. ومن الناحية الثانية، لا ريب بأن فرع القدس الذي كانت تحركه المنافسات داخل النخبة، قد أعلى من شأن الروح النضالية، وركز على الأنشطة المناهضة للصهيونية. ووفقًا لأحد المراقبين البريطانيين، سلح الفرع أعضاءه بأسلحة خفيفة، وأعد لوائح بأسماء وعناوين الصهاينة المحليين وأنصارهم، ونظم الموالين في عمان، وتولى تدريب وتوظيف العملاء لجمع المعلومات عن الأنشطة الصهيونية، وسرب عناصره إلى قوات الشرطة والدرك وبث الدعاية بين

(70) دروزة، **مذكرات**، ج 2، ص 20-26؛ Porath, *The Emergence of the Palestinian-Arab*, p. 76, وصف مراقب بريطاني الخصومة بين النادي العربي والمنتدى الأدبي في القدس على النحو التالي: «إن معظم الأعضاء المهمين [في النادي العربي في القدس] ينتمون إلى أسرة الحسيني، وكثير منهم ليسوا على وفاق مع القياديين المرموقين في المنتدى الأدبي. وإن الغرض من النادي العربي مماثل تقريبًا للهدف من المنتدى. ولكن أعضاء النادي ليسوا متطرفين إلى هذا الحد. أي أنهم ليسوا متشددين إزاء الاستقلال العربي، ولكنهم يبدون القدر ذاته من المعارضة للصهيونية والهجرة اليهودية». FO 371/4182/125609/M56, J. N. Camp (Jerusalem) to CPO (Cairo), «Arab Movement and Zionism,» 24 October 1919.

(71) وكانت صحيفة **الكوكب** تستعرض الأنشطة تلك بصفة منتظمة. ينظر، على سبيل المثال، **الكوكب**، 31 كانون الأول/ ديسمبر 1918، ص 10-11؛ 14 كانون الثاني/ يناير 1920، ص 12.

ظهرانيهم، و«[علم]...الأطفال مثل الوحدة العربية، ولا سيما أولئك الذين كانوا يدرسون في المدرسة الرشيدية ومدرسة روضة المعارف [كذا!]»[72].

وكما هو الحال مع الأندية العربية في فلسطين، فقد شجعت الحكومة العربية في البداية، بل يسرت تكوين أكبر الأندية وأكثرها نفوذًا خارج العاصمة[73] - ألا وهو النادي العربي في حلب. ومع ذلك، وكما كان حال النوادي العربية في فلسطين، طوال العهد الفيصلي الذي امتد اثنين وعشرين شهرًا، كانت الظروف المحلية أشد أهمية من توجيهات تصدر عن دمشق لتشكيل بنية النادي وأنشطته على حد سواء.

سبق أن تناولنا في المدخل العديد من المصاعب التي واجهها الحلبيون عقب انتهاء الحرب مباشرة. ولما كانت حلب هي المركز التجاري الذي يتوجه نحو الأناضول والعمق العراقي، فإن معاناة اقتصاد حلب لم تقتصر على الاختلالات الشديدة التي أصابته إبان الحرب العالمية الأولى فحسب، بل استمرت أحوال التجارة في التدهور حتى بعد تأسيس الحكومة العربية في دمشق. والواقع أن الجيش العثماني لم يكتف بمصادرة بضائع التجار والدواب الضرورية للأعمال التجارية داخل المناطق البرية، إبان الحرب، على سبيل المثال، بل ودمر وصلات السكك الحديد المهمة التي تربط المدينة بالأسواق الخارجية للحيلولة دون وقوعها بأيدي الجيش الإنكليزي - العربي الذي كان يتقدم. وأصبحت وصلات سكك حديدية أخرى سواها في حالة من العطب في فترة ما بعد الحرب. كذلك عانت التجارة من الإغارات وأعمال السلب والنهب التي كان يمارسها البدو والجتا (عصابات من الجنود الأتراك غير النظاميين)، مما جعل الوصول إلى المناطق الداخلية المحيطة بحلب أمرًا مستحيلًا فعليًا على التجار والمسافرين. وأخيرًا أدت إقامة الحواجز الجمركية التي فرضت بعد الحرب إلى تقييد التجارة مع تركيا والعراق والمدن الساحلية الحيوية من الناحية التجارية[74].

---

(72) FO 371/4182/125609/M56, J. N. Camp (Jerusalem) to CPO (Cairo), «Arab Movement and Zionism,» 24 October 1919.

(73) يُنظر، على سبيل المثال: MAE L:SL/vol. 10/151Y154, «Rapport du capitaine Pichon, officier français de liaison à Alep sur la société de Nadi-el-arabi,» 4 March 1919.

(74) يُنظر: FO 371/3412/187713/184, Clayton to FO, 14 November 1918; FO 371/4214/103277, =

تكشف مقابلة أجرتها غيرترود بيل مع إحسان الجابري في شهر تشرين الأول/ أكتوبر من عام 1919 العلاقة التي تربط ما بين القلق الاقتصادي الذي تعيشه النخب الحلبية وما لديها من ميول سياسية. فقد جسد الجابري، وهو سليل أسرة بارزة من ملاك الأراضي، وعضو في النادي العربي في حلب، ورئيس بلدية حلب لمرة واحدة، كافة التناقضات المتأصلة في النزعة القومية في حلب. إذ كان، من جهة، عضوًا في الفتاة (انضم إليها بعد الحرب) ولازم الأمير فيصل بصفته كبير أمنائه. وبناء على طلب من الحكومة العربية شارك في «لجنة الإخوة العربية»، وهي منظمة تأسست بعد مجزرة الأرمن التي جرت في شباط/ فبراير من عام 1919 وهدفها تعزيز الوئام في ما بين الجماعات الإثنية والمذهبية، ولإظهار أن المجزرة كانت حالة عارضة ولا تعكس المستوى الحضاري الحقيقي في سورية أمام دول الوفاق. ومن ناحية ثانية، لم يكتف الجابري بخدمة الحكومة العثمانية، بل عاد إلى سورية بعد عدة شهور من انتهاء الأعمال العدائية، ولكنه كان شأنه شأن سواه من الحلبيين المنتمين إلى البيئة الاجتماعية ذاتها يضمر عواطف مناصرة للأتراك في فترة ما بعد الحرب[75]. وقد أعرب الجابري، في المقابلة تلك عن قلقه بشأن إمكانية اتصال حلب بمرفأ إسكندرون، ومستقبل سكة حديد بغداد، وما ينطوي عليه الفصل المقترح لسورية عن العراق من «كوارث» اقتصادية. ووفقًا لما أوردته بيل فإن «التسوية التي يؤثرها [،] وكان رأيه صدى لآراء آخرين سواه، من علماء وأشراف.... أن يكون لتركيا سيادة اسمية على كافة المناطق العربية [كذا!] مع إدارة عربية لامركزية تحت حماية بريطانية»[76]. كما أشارت مصادر فرنسية إلى أن ما يقلق الجابري بشأن العقابيل الاقتصادية لتقسيم سورية لم يكن فريدًا من نوعه: فقبل شهر واحد وحسب من احتلال فرنسا لسورية الداخلية، على سبيل المثال،

Baghdad to IO, 26 June 1919; FO 371/4237/137623, «Middle East Political Situation: Notes by Col. = Brayne, P.O., Aleppo,» 1 August 1919; FO 371/4228/120623/EA26121, GHQ (Egypt) to WO, 6 August 1919; Khoury, *Syria and the French Mandate*, p. 17.

(75) دروزة، **حول الحركة العربية**، ج 1، ص 77-78؛ Safiuddin Joarder, *Syria Under the French Mandate: The Early Phase, 1920-1927* (Dacca, 1977), pp. 207-209; MAE L:SL/vol. 25/285-290, Extrait du journal Difah, 9 March 1920; MD 4H112/2A/38/R, «Renseignements,» 20 February 1920; USNA 59/890d.00/9/473, Jackson (Aleppo) to Sec. of State, 13 March 1920; AD 409/dossiers de principe: Congrès syriens 1920-1938, 21 December 1929.

(76) IO L/PS/10/802, Gertrude Bell, «Syria in October 1919,» 15 November 1919.

أعد «عدد كبير» من التجار عريضة لتقديمها إلى المفوض السامي في بيروت تطالب بتوحيد إسكندرون وحلب وكيليكيا تحت السيطرة الفرنسية(77).

لم يكن الاقتصاد السبب الوحيد الكامن وراء نفور أهالي حلب من الحكومة العربية والشعور الذي يخامر بعض المراقبين، بعد انتهاء الحرب مباشرة، إذ من المرجح أن المدينة كانت تضم أنصارًا للأتراك أكثر مما تضم من مناصري أشراف مكة(78). ويمكن أن نعزو بعض الميل العاطفي نحو الأتراك إلى أوجه التقارب الثقافي الذي يربط أهالي حلب بجيرانهم في الشمال. وعلاوة على ذلك، فإن النجاح الذي حققته المقاومة المناهضة للفرنسيين التي أطلقها الكماليون – وهي مقاومة نشطة كانت على تناقض تام مع الاستراتيجيا الدبلوماسية المترددة التي انتهجتها الحكومة العربية – والفرص المدرَّة للدخل التي وفرتها لهم المشاركة في الإغارات التي شنها أنصار الأتراك، أججت أيضًا روح الحماسة المؤيدة للأتراك في المدينة. إضافةً إلى ذلك، بينما كان الكثيرون، عن حق أم بدون حق، يعزون تدهور الأوضاع المدينية في حلب إلى اللامبالاة من جانب الحكومة العربية أو سياساتها، فمما أثار حفيظة آخرين سواهم حقيقة مؤداها أن حق اختيار المناصب الحكومية – في حلب ودمشق على حد سواء – كان على ما يبدو محفوظًا للعراقيين والفلسطينيين الذين شاركوا في الثورة العربية أو أظهروا أنفسهم على أنهم موالون للنظام. وسواء كانوا «مقتنعين أم لا بأن البدو [عنينا أشراف مكة] أقل شأنًا بكثير ليفرضوا أنفسهم على الأرستقراطية الحلبية» وفقًا لما أورده أحد المراقبين الفرنسيين، فقد استجاب الكثير من النخب في المدينة بمرارة للحكم من دمشق(79).

ينبغي أن يأخذ تاريخ النادي العربي في حلب مكانه ضمن هذا السياق.

---

(77) MD 4H114/4/562, Cousse to Gouraud, 16 June 1920.

(78) IO Curzon Papers 112/265, Notes in Curzon's hand, 27(?) November 1918.

(79) MAE L:SL/vol. 13/171-81, Pilley to Picot, 22 May 1919; AD 2358/dossier: emir Fayçal, Gautherot, «Mystification chérifienne: Récit d'un témoin oculaire,» 13 September 1919; MD 4H112/2A, Agent 1, 2 February 1920; FO 371/5129/E5005, «Precis of an Interview with Mr. Sassoun Hezkail,» 10 March 1920; MD 4H112., «Compte rendu du capitaine Gautherot sur la situation politique à Alep,» 6 May 1920.

فقد دخل الشريف ناصر، ابن أخي الأمير فيصل، إلى حلب على رأس الجيش العربي ليلة 23 تشرين الأول/أكتوبر من عام 1918. ووفقًا للمؤرخ كامل الغزي، اجتاحت جماعة من «الشبان العرب» مقر جمعية الاتحاد والترقي المحلية بعد مضي أكثر من أسبوع ونصف الأسبوع، وغيرت اسمه إلى «نادي العرب»، وشرعت في إصدار صحيفة **العرب**[80]. وأيًا كانت هوية هؤلاء الشبان، فإن زعامة النادي العربي سرعان ما برزت من بين صفوف أبناء بعض أبرز الأسر والسياسيين في المدينة. وكان أول رئيس للنادي العربي في حلب مسعود الكواكبي الذي ينتمي إلى أسرة دينية مرموقة تحظى بالاحترام[81]. وكان مساعده الحاج محمد نجيب باقي زادة سليل أسرة محلية ثرية وذات نفوذ، الذي أصبح أول أمين سر لهذا الفرع. وأما رشيد طليع (والي حلب)، وإبراهيم هنانو (رئيس ديوان الولاية)، ورشدي بك الصفدي (قائد الجيش العربي في حلب)، ونبيه العظمة (قائد الشرطة في حلب و<ابن> شقيق يوسف العظمة بطل ميسلون)، وطاهر الكيالي (أحد أفراد الأسرة الأبرز من بين الأسر التي تملك الأراضي في المدينة)، وسامي السراج، فجميعهم شغلوا مواقع ذات نفوذ في إدارة النادي[82].

لم تكن أنشطة النادي العربي في حلب تختلف، في بادئ الأمر، إلا قليلًا عن أنشطة النادي العربي في دمشق التي وضع خطتها المتنورون. وهكذا، فقد تولى النادي <في حلب> تنظيم مراسم الترحيب لاستقبال فيصل في أثناء زيارته الأولى للشمال، وإقامة حفلات استقبال لرضا الركابي وفرانسوا جورج بيكو، وتنظيم حملات توقيع العرائض في المدينة وضواحيها لدعم تعيين فيصل ليكون ممثلًا

(80) كامل الغزي، **نهر الذهب في تاريخ حلب**، 3 ج (حلب، 1923-1926)، ج 3، ص 654.

(81) خليل مردم بك، **دمشق والقدس في العشرينات**، شرحه وقدم له عدنان مردم بك (بيروت، 1978)، ص 47، 52.

(82) كان سامي السراج، الذي اضطلع بدور الوسيط بين الناديين العربي في دمشق وحلب، وفقًا لما أورده مصدر فرنسي، عضوًا أيضًا في «حلقة التضحية»، وهي خلية إرهابية كان هدفها الوحيد «القضاء» على كل من يدافع عن السياسات المؤيدة لفرنسا. يُنظر: MAE L:SL/vol. 10/151-154, «Rapport du capitaine Pichon, officier français de liaison Alep, sur la société de Nadi-el-arabi,» 4 March 1919; AD 2342, «Rapport sur les troubles survenus le 28 Février 1919 à Alep,» 14 April 1919; MD 4H112/1, «Compte rendu du capitaine Gautherot sur la situation politique à Alep,» 6 May 1920; Khoury, *Syria and the French Mandate*, p. 422;

دروزة، **حول الحركة العربية**، ج 1، ص 77-78.

لسورية في مؤتمر باريس[83]. ولكن في حين أن مؤسسي وقادة النادي العربي في حلب كانوا ينتمون إلى الفئات المهنية والاجتماعية ذاتها التي ينتمي إليها نظراؤهم المؤسسون للنادي العربي في دمشق وقادته، وبينما استمر بعضهم على ولائهم لسياسات الحكومة العربية، إلا أن بعضهم الآخر داخل النادي لم يكن لديهم الميل ذاته. ونتيجة لأزمة خريف عام 1919 التي أضعفت سلطة الحكومة العربية ومصداقيتها، وقسمت النادي العربي في دمشق، وأربكت العديد من مؤيدي ذلك النادي، مما شجع جماعة من التجار والأعيان داخل النادي العربي في حلب على عقد تحالفات واتخاذ صيغ غير تقليدية من النشاط السياسي.

وهكذا، عشية أزمة الاستبدال، أخذ أعضاء من النادي العربي في حلب يعملون مع الكوميتاد جيين (أعضاء في عصابات أنصار <الأتراك الكماليين>) الناشطين في المنطقة ومعهم أيضًا أعضاء من لجنة الدفاع الوطني المحلية، وأقام هؤلاء النظام السياسي الخاص بهم في حلب وأطرافها. وكما سيرد تفصيله في الفصل التالي، فقد أصبح إبراهيم هنانو، الذي كان يعمل عبر لجنة الدفاع الوطني في حلب، منظمًا أساسيًا للحملة العسكرية المناهضة للفرنسيين في شمال سورية، تلك الحملة التي استمرت طوال عام 1921. وكان الحاج محمد نجيب باقي زادة يعمل طوال المراحل الأولى من هذا العصيان المسلح وسيطًا بين هنانو واللجنة المحلية، ويتولى جمع المال والسلاح وتوزيعهما من أجل أنشطة جماعات حرب العصابات. كذلك تولى كل من رشيد طليع ورشدي بك الصفدي دعم الأنشطة التي تضطلع بها لجنة الدفاع الوطني في حلب. وفي حين أن رئيس النادي العربي في حلب الصفدي لم يكتف بجعل النادي يقف إلى جانب اللجنة <الوطنية>، وإنما أسهم شخصيًا بتنظيم الميليشيات في الأحياء. وأما طاهر الكيالي، الذي خلف الصفدي في رئاسة النادي العربي، فقد كان أيضًا عضوًا في لجنة الدفاع الوطني المحلية، كما عمل رئيسًا لإحدى جماعات حرب العصابات المؤيدة للكماليين التي تركزت أنشطتها

(83) الغزي، **نهر الذهب**، ص 654-656؛ مردم بك، **دمشق والقدس**، ص 47، 52؛ أدهم آل جندي، **تاريخ الثورات السورية في عهد الانتداب الفرنسي** (دمشق، 1960)، ص 63.

في إدلب المجاورة(84)، وكان أفراد آخرون من أسرة الكيالي - ألا وهم الدكتور عبد الرحمن الكيالي، وعبد الوهاب الكيالي، والشيخ كامل الكيالي، ومحمد درويش الكيالي، وسامي الكيالي - شأنهم شأن طاهر الكيالي، أعضاء في النادي العربي، أو لجنة الدفاع الوطني أو كليهما معًا(85). وخلاصة القول إن جماعة من المواطنين الأكثر شهرة في المدينة قد حركتهم الأزمة العامة في خريف عام 1919 والمصالح المحلية، فحولوا النادي العربي في حلب إلى أن يكون بمثابة همزة وصل تربط ما بين العصابات المسلحة والجمعيات السياسية الشعبية على صعيد المنطقة.

على الرغم من أن النادي العربي في حلب كان يقيم تحالفاته السياسية في ظل ظروف فريدة من نوعها، إلا أن إعادة توجيه النادي يغالط الاتجاه العام الذي اتخذته السياسة السورية إبان هذه الحقبة. وطوال عام تقريبًا من انتهاء الحرب العالمية الأولى، ما برحت النخب القومية التي كانت تعمل عبر كل من الحكومة العربية ومنظمات مثل النادي العربي تدعي لنفسها الحق في السلطة السياسية. وبالمقابل، ادعت القدرة على إيجاد مؤسسات للحكم الرشيد تقود الأمة نحو الاستقلال وتكفل الأمن والرخاء. وبحلول خريف عام 1919 أدركوا أنهم لم يحققوا أيًا من هذه الأهداف. وبدلًا من ذلك، أنجزوا عن غير قصد أمرًا مختلفًا

---

(84) التبس الأمر على المؤلف، وخلط بين الشيخ طاهر الكيالي المعروف أيضًا بالشيخ طاهر الطيار الكيالي الناشط السياسي في مدينة حلب إبان العهد الفيصلي من جهة، والشيخ محمد طاهر الكيالي المعروف أيضًا بالشيخ محمد طاهر المنلا الكيالي مفتي إدلب ونقيب أشرافها الذي اضطلع بدور بارز في ثورة الشمال من جهة أخرى. يُنظر ترجمتهما في ملحق التراجم. (المترجم)

(85) آل جندي، **تاريخ الثورات السورية**، ص 63، 116؛ دروزة، **حول الحركة العربية**، ج 1، ص 77-78؛ دروزة، **مذكرات**، ج 2، ص 148-149؛ مصطفى الشهابي (الأمير)، **محاضرات في الاستعمار** ([د. م.]، 1956)، ج 2، ص 96؛ قدري، **مذكراتي**، ص 133؛ Khoury, *Syria and the French Mandate*, p. 10; AD 2429/144, Mercier to HC, 16 December 1918; AD 2429/161, Mercier to HC, 26 December 1918; AD 2375, Cousse to HC, 19 October 1919; FO 371/4186/163275/139-141, Meinertzhagen to Curzon, 19 December 1919; MD 4H112/2A/38R, «Renseignements,» 20 February 1920; FO 882/23/221-223, Military Intelligence Division Commander (Aleppo), «Personalities: Arab Government of Syria,» March 1920; MD 4H112/2B/2, Rapport politique (période du 16 au 30 Avril 1920); AD 2346/c1a, 25 May 1920; MD L:SL/vol. 33, Gouraud to Millerand, «Note au sujet des rapports entre le haut-commissionaire de la République Française en Syrie-Cilicie et l'emir Fayçal,» 22 September 1920.

شديد الاختلاف: فنتيجة التعبئة التي كانت ترعاها الحكومة العربية والنادي العربي، وسعت النخب القومية نطاق الآمال التي علقها الجمهور على السياسة، وكذلك مشاركة الجمهور في النشاط السياسي. ونتيجة لذلك، فقد وجد هؤلاء أنفسهم مضطرين للتعامل مع أصحاب دعاوى جدد يطالبون بالزعامة السياسية وأشكال جديدة من التنظيم السياسي.

الفصل الثاني

اللجان الشعبية

اتخذت الحكومة البريطانية قرارًا أحادي الجانب بسحب قواتها من سورية، ومن ثم تلاه إبرام الاتفاق الإنكليزي - الفرنسي، وكلاهما كانا بمثابة نقطة انعطاف رمزية وحقيقية في تاريخ سورية الفيصلية. ونظرًا إلى أن التوصل إلى كل من القرار والاتفاق قد جرى من دون التشاور مع الحكومة العربية، كان جليًا أن الاستراتيجيا التي انتهجتها الأخيرة من أجل الفوز بالاستقلال عبر إظهارها لدول الوفاق أن سورية كانت مستعدة بالفعل للاستقلال قد منيت بالإخفاق. وأما الحكومة العربية ومن يدعمها في الفتاة والنادي العربي، فقد وجدوا أنفسهم الآن في موقع دفاعي، لا يواجهون فيه معارضة استعادت نشاطها بقيادة النخبة السياسية فحسب، بل والسكان الذين كانوا قد أذنوا لهم بالتعبئة الجزئية وإنما لم يعودوا الآن قادرين على التحكم بهم.

خفضت الحكومة البريطانية عشية قرار الانسحاب المعونة التي كانت تدفعها إلى الحكومة العربية بمقدار النصف ومن ثم حجبت الدفعات الشهرية أو أخرتها لمعاقبة الحكومة العربية على مجموعة متنوعة من التجاوزات. ونتيجة لذلك التقتير البريطاني، لم تعد الحكومة العربية قادرة على شراء خصومها السياسيين. والأدهى من ذلك، أن الحكومة لم تعد قادرة أيضًا على أن تدفع أموال «الحماية» للبدو لضمان دعمهم وحسن سلوكهم. وقد امتد انهيار الأمن من الريف إلى المناطق الحضرية، مما زاد من تفاقم الظروف الاقتصادية الصعبة بالفعل. وقد

وصل الاقتصاد في المناطق الداخلية في سورية إلى شفا الانهيار، آخذًا معه كلًا من سلطة الحكومة العربية وجزءًا كبيرًا مما تبقى لها من الاستحسان.

مع دخول اللاجئين من وادي البقاع ومناطق الصراع الأخرى إلى الأحياء الشعبية في دمشق المكتظة بالسكان أصلًا وسواها من المدن السورية، إضافةً إلى الفلاحين الذين يسعون لإيجاد ملاذ من أعمال النهب والسلب من جانب العصابات التي كانت تغير عليهم من دون أن تخشى العقاب، وترنح سورية من جراء انتقالها من أزمة اقتصادية وسياسية إلى أخرى، تصاعدت وتيرة سرعة الانهيار المستمر للأنماط التقليدية للتنظيم السياسي والاجتماعي. وفي حين، رهنًا بالظروف، كانت الأنماط الجديدة المنبثقة للتنظيم السياسي والاجتماعي إما مصنفة في السابق بأنها تقيم علاقات داخل إطار جديد أو أنها تجاوزتها كلها، إلا أنه كان لديها التأثير الكلي على تمكين السوريين من التعامل على نحو أكثر فاعلية مع ظروفهم المتغيرة.

شرعت جماعة متنوعة من السوريين، بعيد بداية أزمة الاستبدال، في إنشاء مجموعة متشابكة من اللجان التي، وإن تأسست في الظاهر لتنظيم الدفاع عن سورية، أو لتأخذ على عاتقها وظائف تخلت الحكومة العربية عن الاضطلاع بها، فمن الممكن النظر إليها على أنها التعبير المؤسسي عن هذه الأنماط الجديدة من التنظيم السياسي والاجتماعي. وعلى الرغم من أن المبادرة الأصلية التي أدت إلى إيجاد المنظمات الجديدة تلك، أتت في جزء منها من عدد قليل من الناشطين السياسيين المنتمين إلى أسر بارزة، وكانوا قد شاركوا في أنشطة الفتاة أو الاتحاد السوري، أو كليهما، إلا أن القيادة لم تعد مستمرة حصرًا بين أيدي هؤلاء. وبدلًا من ذلك، فقد ظهر نمط جديد من القيادة المحلية، غالبًا ما كان يجري اختيارها عبر الانتخابات التي يشارك فيها أعداد غفيرة من الذكور السوريين البالغين. ونظرًا إلى أن المسؤولية عن تنظيم اللجان المحلية وأنشطتها انتقلت نحو القاعدة، فقد أخذ التجار الصغار، والعلماء، والتجار - العلماء، والقبضايات، واللاجئون حديثًا إلى المدن، وسواهم ممن كانوا في السابق مستبعدين من السياسات القومية أو أن إسهامهم فيها كان سطحيًا، في الاضطلاع بدور محوري في الحياة العامة.

فراحوا يوزعون المساعدة الإغاثية في حالات الطوارئ، ويسيرون الدوريات للحماية المحلية، ويجهزون الميليشيات ويدربونها من أجل الدفاع الوطني، ويؤمنون المؤن لأحيائهم ومدنهم، ويتولون تحديد الضرائب وجبايتها، وفي بعض الحالات، يقيمون العدالة ويسنون القوانين. علاوة على ذلك، ونظرًا إلى أنهم جلبوا معهم قيمًا ورموزًا ملائمة للبيئة التي ينحدرون منها، فإن مشاركتهم في النشاط السياسي غيرت طابع النزعة القومية في سورية.

نشأة اللجان الشعبية

صادقت الحكومتان البريطانية والفرنسية على الاتفاق الذي حدد شروط الانسحاب البريطاني من سورية في الخامس عشر من أيلول/ سبتمبر من عام 1919. ووجه ياسين الهاشمي رئيس ديوان الشورى الحربي في الحكومة العربية، عقب ذلك مباشرة، الدعوة على الفور إلى تجنيد اثني عشر ألفًا من المتطوعين للدفاع عن سورية[1]. وفي حين أن الروح الوطنية قد تكون من العوامل التي أثرت في الهاشمي، فمن المؤكد أنها ليست العامل الوحيد. وكان الهاشمي، وهو جندي محترف ينحدر من أسرة عراقية تنتمي إلى الطبقة المتوسطة الدنيا ومؤيد مبكر للفتاة، قد رفض مع ذلك أن يتولى قيادة الجيش العربي إبان الحرب العالمية الأولى واستمر في الخدمة العثمانية. ولم يكن يثق بالبريطانيين والهاشميين، وكان يزدري الثورة العربية، وتفيد التقارير بأنه كان يعتقد أن الضباط العرب في الجيش العثماني ينبغي أن يكونوا رأس الحربة في وجه أي ثورة مناهضة للأتراك. وبعد أن وضعت الحرب أوزارها، تسلم الهاشمي مهامه من الحكومة العربية وما لبث أن بذل كل الجهود الممكنة الرامية إلى تعزيز قوات الجيش العربي التي تخضع لإمرته حصريًا. وقد اشتكى أحد المراقبين في لمحة تعريفية موجزة عن حياته وضعها بناء على تعليمات من الحكومة البريطانية قائلًا: «لقد وسمه التأهيل والتدريب التركيان بميسمه وجعله تركيًا، فهو العسكري التركي ذو الطابع التيوتوني، وليس الأفندي. إنه شديد الطموح، ويتمثل غرضه في تبجيل الذات، ولا يشعر في الحقيقة بالتعاطف مع السوريين أو الأمير فيصل». وكان الهاشمي يحاجّ بأن القوات الشريفية كانت

(1) AD2430/dossier confidentiel-départ/263, Cousse to HC, 15 September 1919.

تفتقر إلى الانضباط وأن مهمتها قد انتهت مع دخولها دمشق، لذلك أمر بتسريحها، وعمد في بعض الأحيان إلى تجريد الوحدات التي تدين بالولاء الشخصي للأمير فيصل من سلاحها قسرًا(2).

استغل الهاشمي، الذي كثيرًا ما كان في صراع مع الأعضاء الآخرين في الحلقة الداخلية للحكومة العربية، غياب فيصل (ما كادت تمضي ثلاثة أيام على غياب الأمير عن البلاد، حتى بدأ تجنيد المتطوعين)، وحداثة سن الأمير زيد الذي حل محل فيصل في غيابه وسذاجته، للشروع في إنشاء هيكل عسكري جديد، عنينا لجنة الدفاع الوطني. ووفقًا لخطة الهاشمي، كان يتعين على الأعيان المحليين الذين يعملون عبر «لجان التجنيد»، تجنيد المتطوعين للعمل في قوة عسكرية تكون تحت إشراف اللجنة، واستطرادًا، أن يكون ولاؤهم للهاشمي وحده(3). وقد أدى الضغط الذي مارسه البريطانيون إلى إرغام الحكومة العربية على التنصل من لجنة الدفاع الوطني في غضون أقل من أسبوع. إذ أوردت **العاصمة** وهي الجريدة الرسمية التي تصدرها الحكومة إعلانًا ورد فيه أنه «ليس للجنة الدفاع الوطني ومنشوراتها المذاعة صفة رسمية. ولا إجبار في التجنيد أصلًا»(4). وقد فككت الحكومة العربية اللجنة تلك، وخطف البريطانيون الهاشمي ونفوه إلى فلسطين بعد شهرين.

---

(2) FO 882/23/221-223, «Personalities: Arab Government of Syria,» *Military Intelligence* (March 1920); FO 882/24/128-134, «Who's Who in Damascus,» 14 May 1919; MAE L:SL/vol. 15/324, Picot to Pichon, 18 July 1919;

أمين سعيد، **ثورات العرب في القرن العشرين** (القاهرة، 1960)، ص 258؛ محمد علي العجلوني، **ذكريات عن الثورة العربية الكبرى** (عمان، 1956)، ص 72-73، 83؛ أحمد قدري، **مذكراتي عن الثورة العربية الكبرى** (دمشق، 1956)، ص 81.

(3) Richard Meinertzhagen, *Middle East Diary, 1917-1956* (New York, 1960), p. 48;

وجيه الحفار، «الحكومات التي تعاقبت على الحكم في سورية»، **الشرطة والأمن العام**، السنة 1 (15 تشرين الثاني/ نوفمبر 1372هـ)، ص 10؛

AD 2430/dossier confidentiel-départ/263, Cousse to HC, 15 September 1919; IO L/PS/10/801/P6132/450; Meinertzhagen to FO, 23 September 1919,

ينبغي ألا نخلط بين لجنة الدفاع الوطني هذه والمنظمة الأخرى التي تحمل الاسم ذاته، وجرى تأسيسها في وقت لاحق، والتابعة للجنة الوطنية العليا.

(4) **العاصمة**، 22 أيلول/ سبتمبر 1919، ص 3.

لم يؤد حل لجنة الدفاع الوطني التي أنشأها الهاشمي إلى التأثير في الحملة الموجهة من أجل المتطوعين. فحتى قبل اتفاق الخامس عشر من أيلول/ سبتمبر، كان خصوم السياسة التي تنتهجها الحكومة العربية والقائمة على المفاوضات والحلول التوفيقية مع دول الوفاق قد شرعوا في تجنيد الوحدات العسكرية. وبعد التوقيع على الاتفاق، أخذ نطاق التجنيد في الاتساع بالتزامن مع تسابق العديد من الجمعيات السياسية وأعيان المناطق الحضرية والريفية لتشكيل سرايا من المتطوعين. وقد عهد النادي العربي، على سبيل المثال، إلى فخري البارودي، عضو العربية الفتاة في أثناء الحرب، ونسيب البكري مهمة تنظيم وحدات من المتطوعين وتجهيزها. وكان تعداد كتيبة البكري، على الورق، قرابة الثلاثمئة رجل، كان ثلثهم على وجه التقريب من الفرسان(5).

كان الخوف، جزئيًا، قد دفع الأعيان لتجنيد كتائب من المتطوعين: ومع تسليح بعض الأعيان لعملائهم، اقتضى الحذر أن يستجيب الآخرون على نحو مشابه، ولا سيما مع انهيار البنى الرسمية التي ينبغي أن تضمن الأمن في المناطق الحضرية والريف. ووفقًا لما أورده دبلوماسي أميركي كان مقر عمله في حلب،

> إن الظروف السائدة محليًا وفي كل أرجاء الريف المجاور تزداد خطورة يومًا بعد يوم. لقد أصبحت حلب مكانًا يلتقي فيه زعماء مئات القرى في المناطق المجاورة، ويتولى هؤلاء وكافة ملاك الأراضي المهمين في حلب، تزويد الفلاحين بالأسلحة والذخائر الحديثة. وينظر كل زعيم إلى جاره وحتى إلى رجاله بعين الشك والريبة(6).

وإضافةً إلى الخوف، على أي حال، اتخذ الانتساب إلى وحدات المتطوعين ودعمها طابعًا زخرفيًا يرمز للمكانة الاجتماعية. وقد انتهى تقرير أوردته جريدة **العاصمة** بشأن الكتيبة التي جندها النادي العربي من بين أعضائه بتوضيح تشوبه

---

(5) AD 2344/c1/Août-Décembre 1919/305-306, «Cousse to Picot,» 31 October 1919; AD 2430, Letter from Cousse, 1 November 1919; AD 2344/c1/310, Cousse to Picot, 3 November 1919; AD 2325/a1, «Journaux de l'intérieur» (extract from al- Urdunn 47), TEO zone ouest-Bureau de la presse (24 November 1919); AD 2334, dossier E/1/50/S.R., TEO zone ouest, 9 December 1919.

(6) USNA Aleppo Consulate RG84/vol. 121/800, Jesse Jackson (Aleppo) to Mark Bristol (Constantinople), 9 February 1920.

لمسة من السخرية مفاده «إن العدد العديد من أفاضل العلماء والأدباء وأبناء كبار الوجهاء ينتظرون انتهاء الخياطين من تفصيل بدلاتهم العسكرية ليلبسوها»[7]. ووفقًا لتقرير آخر في الجريدة ذاتها، كان خالد العظم، نجل مالك الأراضي المحافظ محمد فوزي العظم (كنا قد عرضنا لموقفه من الأمير فيصل والفتاة في الفصل السابق)، يرتدي بانتظام زيًا عسكريًا قبل أن يخرج من منزله في المساء[8]. وقد جرفت الحماسة حتى الأمير زيد السريع التأثر، فانضم إلى الكتيبة التي نظمها النادي العربي «بوصفه جنديًا» ووهب وحدته خمسة وعشرين زيًا عسكريًا[9].

إنه لمن الصعوبة بمكان أن نعتبر الكتائب تلك «ميليشيات شعبية»، وأن لا نعتبر تأسيسها مؤشرًا لبروز حركة سياسية شعبية في حد ذاتها. وعلى الرغم من أن كلًا من الأعيان الذين يعملون بمفردهم أو عبر منظمات مثل النادي العربي، والضباط العسكريين الموالين للهاشمي كانوا يجندون المتطوعين ممن ينتمون إلى الطبقات الدنيا، ظلت كل ميليشيا قائمة بذاتها وتعمل بصورة مستقلة، وكأنها الجيش التابع لسيد إقطاعي. وفي حين أن الحماسة التي أثارها التأجيج والتجنيد للدفاع قد حفزت سيرورة التعبئة، إلا أن استقلالية كل ميليشيا وبنيتها العمودية أحبطتا انبثاق إطار مؤسسي لربما كان من الممكن أن يعزز مجموعة أوسع من الولاءات. ولقد أخذ ذلك الإطار شكله بالفعل بفضل الجهود التي بذلها أفراد مثل كامل القصاب، مؤسس اللجنة الوطنية العليا، الذي وضع تصورًا لحركة قومية كانت مختلفة اختلافًا جذريًا عن تلك التي كانت تدعمها الحكومة العربية وحلفاؤها.

كان كامل القصاب شأنه شأن الكثير من الناشطين الآخرين المرتبطين باللجنة

---

(7) **العاصمة**، 15 أيلول/ سبتمبر 1919، ص 4. يُنظر أيضًا: **العاصمة**، 4 أيلول/ سبتمبر 1919، ص 3.

(8) لا يخلو كلام المؤلف من المبالغة. والواقع إن ارتداء خالد العظم «لباس الجندية»، وفقًا للتقرير الذي نشرته جريدة **العاصمة** الرسمية، قد اقتصر على ليلة زفافه على كريمة الوجيه الدمشقي راشد باشا مردم بك. يُقارن مع: حركة التجنيد، **العاصمة**، السنة 1، العدد 58، 15 أيلول/ سبتمبر، ص 4-5. (المترجم)

(9) **العاصمة**، 15 أيلول/ سبتمبر 1919، ص 4؛ يوسف الحكيم، **ذكريات**، ج 3: **سورية والعهد الفيصلي** (بيروت، 1966)، ص 123.

الوطنية العليا، ينتمي إلى بيئة متواضعة. وكان والده، وهو تاجر من حمص، قد انتقل إلى دمشق قبل مولد ابنه وتوفي حينما كان كامل القصاب في السابعة من عمره. وأما والدته (اتخذ القصاب اسم أسرتها عندما كان يافعًا)، فكانت تنتمي إلى أسرة كريم في حي العقيبة الدمشقي، وتلكم هي أسرة لا تضم تجارًا فحسب بل وقبضايات أيضًا[10]. وقد تلقى القصاب تعليمًا تقليديًا في حيه، وبعدئذ، حينما بلغ الخامسة والعشرين من عمره أكمل تعليمه في الأزهر بمصر، حيث تتلمذ على يد العلامة الإسلامي المجدد محمد عبده من جملة علماء آخرين. وحين عودته إلى دمشق، أنشأ مدرسة كانت تسمى المدرسة العثمانية (أصبح اسمها لاحقًا المدرسة الكاملية) في حي البزورية[11].

وفقًا لما أورده أحمد حلمي العلاف، وهو طالب في المدرسة العثمانية، كانت المناهج الدراسية، والعلوم التربوية المقدمة في هذه المدرسة تعكس مزيجًا ذا خصوصية معينة من التأثيرات التقليدية والحديثة. فمن جهة، اكتسبت المدرسة شهرة في ما يتعلق باستقطاب المدرسين من ذوي السوية العالية، وتوفير التعليم في الموضوعات غير التقليدية، مثل المسرح، والرياضيات، والجغرافيا. ومن جهة ثانية، استمرت المدرسة في التركيز على الموضوعات التقليدية، مثل القواعد

---

(10) مقابلة مع عدنان الخطيب، 8 تشرين الثاني/ نوفمبر 1989. مقابلة مع الشيخ محمد مراد الطباع، والشيخ عبد الغني الدقر، والشيخ ياسين عرفة، 2 كانون الثاني/ يناير 1990؛ مقابلة مع الشيخ ياسين عرفة، 4 كانون الثاني/ يناير 1990؛ سميح حمودة، **الوعي والثورة: دراسة في حياة وجهاد الشيخ عز الدين القسام، 1868-1935** (عمان، 1987)، ص 119-120. استمد القصاب جزءًا من جاذبيته من أصوله الطبقية التي ترجع إلى الطبقة المتوسطة الدنيا، ونُسجت من جراء ذلك العديد من الأساطير بشأن دنيويّته. وكانت إحدى الحكايات عن القصاب قد رويت لي في عدة مقابلات أجريتها. ووفقًا لهذه الحكاية، بعد عودة القصاب إلى سورية في أعقاب فرض الانتداب الفرنسي وإعلان عفو عام، كان يستقل عربة القطار مع ضابط فرنسي وعائلته. وعرض الضابط على القصاب بعض النبيذ الذي رفضه الشيخ. وقد لاحظ الضابط في وقت لاحق أن القصاب كان يتناول العنب، وسأله عن سبب تناوله الفاكهة وليس المنتج المستخلص منها. فأشار القصاب إلى مرافقتي الضابط وسأله إن كانتا زوجته وابنته. وحينما أكد الضابط ذلك، سأله القصاب، مستخدمًا المنطق ذاته، عن سبب مطارحته الأم الفراش فحسب وليس الابنة أيضًا.

(11) محمد مطيع الحافظ ونزار أباظة، **تاريخ علماء دمشق في القرن الرابع عشر الهجري** (دمشق، 1986)، ص 657؛ خير الدين الزركلي، **الأعلام: قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين** ([د. م.]، 1984)، ص 13.

والصرف، التي وصفها العلاف بأنها تقدم بأسلوب «قديم وعقيم»، يعتمد على الاستظهار والتكرار. وكان القصاب يتولى تعليم الصرف بنفسه («فكان يكلفنا... استظهار 'فاعلم أن أبواب التصريف هي خمسة وثلاثون بابًا'... وهكذا على هذا الشكل إلى نهايته دون فهم...»، و«نستمر بهذه الطريقة إلى النهاية من دون أن نفهم شيئًا»)، وقد عُرِف عنه عقابه القاسي الذي كان ينزله بكل طالب ضعيف التحضير أو غير منضبط:

> فالطالب كان يقرأ هذا المطلوب وينظر بعين الشيخ كامل [القصاب] التي كان يتطاير منها الشر والشرر، عابس الوجه، والعصا تحت إبطه وكتاب الصرف بيده يتتبع ما نقرأ فإذا أخطأ أو تلعثم أو توقف قامت الخيزرانة بنشاطها الكامل من الأستاذ الكامل.
>
> ومما يلفت النظر أن الشيخ ما كان يستعمل الضرب لتوجيه الطالب وإنما كان يستعمله نتيجةً لعراك كان قائمًا بينه وبين زوجته، أو أحد الناس أو أمر آخر، فيعود يتمم عراكه مع الطالب المخطئ فينهال عليه حتى يشفي غليله منه، وكان أحيانًا لا يكتفي بضرب الرجلين بدون أُدَم بل يجعل عليها الماء أُدَمًا وينزل بكل قواه فيصل أحيانًا إلى العشرين ضربًا أو أكثر[12].

ونظرًا إلى أن العقوبة البدنية، وفقًا للعلاف، لم تكن ممارسة شائعة في المدارس في تلك الفترة، فقد أشار إلى أن استخدامها في المدرسة العثمانية ربما كان مسؤولًا عن ارتفاع معدل تغيير المدرسين وتدهور سمعة المدرسة. وقد غادرها العلاف، شأنه شأن الكثير من الطلبة، والتحق بمدرسة ترعاها الحكومة زعم أنها أقل تقليدية[13].

(12) أحمد حلمي العلاف، **دمشق في مطلع القرن العشرين**، تحقيق علي جميل نعيسة (دمشق، 1976)، ص 202.

(13) عمل القصاب في المدرسة على إقامة شبكة من المعلمين الذين اضطلعوا في ما بعد بأدوار متنوعة في السياسة القومية. وأضحى رشيد بقدونس، معلم الرياضيات، في وقت لاحق عضوًا في الفرع السوري لجمعية العهد. وانضم الدكتور أسعد الحكيم، وهو طبيب ومدرب مسرحي، إلى الفتاة بعد انتقال المنظمة تلك من باريس إلى بيروت. وأصبح بعد الحرب عضوًا في اللجنة التنفيذية للجنة الوطنية العليا، وأحد الأعضاء المؤسسين للحزب الديمقراطي، الذي يعد الذراع السياسية للجنة الوطنية العليا. وكان عبد الوهاب الإنكليزي والأمير عارف الشهابي معلمي الجغرافيا واللغة العربية على التوالي. وكان أولهما =

كان كامل القصاب قد انضم إلى الفتاة حينما انتقلت المنظمة تلك من باريس إلى بيروت في عام 1913. وأوفد إبان الحرب في بعثتين لمصلحة الجمعية. ففي عام 1915، أرسلته الفتاة إلى مصر للوقوف على الآراء السياسية للسوريين المنفيين في مصر، وليحدد مواقف البريطانيين تجاه الحركة القومية. وقد اعتقل القصاب في الإسكندرية، وأطلق سراحه نتيجة المناشدات التي قدمها نيابة عنه كل من رشيد رضا ورفيق العظم، وهما عضوان في حزب اللامركزية الإدارية العثماني[14]. وفي وقت لاحق من ذلك العام، سافر القصاب مرة أخرى بالنيابة عن الفتاة، ميمّمًا شطر الحجاز في هذه المرة، حيث شغل هناك منصب موفد إلى الشريف حسين. وبقي مع الشريف حتى مطلع عام 1918، مما منحه وقتًا كافيًا لتكوين رأي بشأن زعماء الحجاز والثورة العربية حمله معه حين عودته إلى سورية بعد الحرب. وكما أفاد في وقت لاحق الصحافي والسياسي المشاكس محب الدين الخطيب:

> أراد محب الدين الخطيب والشيخ كامل القصاب كل الخير للملك حسين وأنجاله، شريطة أن يكونوا يريدون كل الخير للأمة التي سيقودونها. ولكن الملك حسين وأبناءه عاشوا وماتوا مع معتقدات عصر الإقطاع، وأن الأمة ملك للملك[15].

= أحد الأعضاء المؤسسين للمنتدى الأدبي في اسطنبول، وثانيهما عضوًا في الفتاة. وقد أعدمهما جمال باشا إبان الحرب العالمية الأولى. ومن بين المعلمين الآخرين سليم الجندي (النحو) الذي كان أحد المساهمين الأوائل في المجلس الوطني لحزب الاستقلال العربي، وعبد الرحمن الشهبندر (الخطابة) وخير الدين الزركلي (الإنشاء في اللغة العربية). يُنظر: العلاف، **دمشق**، ص 203؛ محمد عزة دروزة، **مذكرات وتسجيلات** (دمشق، 1984)، ج 2، ص 130-131، 139؛ أسعد داغر، **مذكراتي على هامش القضية العربية** (القاهرة، 1956)، ص 35؛ مقابلة مع الشيخ أحمد القاسمي، 6 تشرين الثاني/ نوفمبر 1989؛ **العاصمة**، 10 آذار/ مارس 1919، 4؛ **العاصمة**، 7 تشرين الثاني/ نوفمبر 1919، ص 5؛ **الكنانة**، 26 حزيران/ يونيو 1920، ص 2؛ AD 2323/A-1/91, M. P. Lefévre-Pontalis to Picot, 26 November 1918; AD 2430/dossier confidentiel-départ/161s, Cousse to HC, 21 February 1919; FO 371/4217/69267, Note by Arab Bureau, Cairo, 6 May 1919: FO 371/4183/136154. Lutfallah to Lloyd George, 16 September 1919; FO 882/24/209-210, Major G. W. Courtney, 21 May 1920.

(14) سعيد، **ثورات العرب**، ص 38-39؛ قدري، **مذكراتي**، ص 37؛ Philip S. Khoury, *Urban Notables and Arab Nationalism: The Politics of Damascus 1860-1920* (Cambridge, England, 1983), p. 64.

بعد عودته من مصر، اعتقل القصاب على يد جمال باشا. وقد أطلق سراحه بعدما حاجّ بأنه كان قد ذهب إلى مصر لشراء لوازم مدرسية.

(15) سعيد، **ثورات العرب**، ص 56، 241-243؛ الحافظ وأباظة، **تاريخ علماء دمشق**، ص 659؛ =

ثمة دليل على أن القصاب كان يعد العدة، من دون علم السلطات البريطانية وحكومة أشراف مكة في الحجاز، لإنشاء لجنة سياسية مستقلة حينما كان في مكة. وتطالعنا عريضة وقعها عشرات السوريين المقيمين في المدينة (كان جلهم ضباطًا سابقين في الجيش العثماني)، وموجهة إلى القصاب تنص على ما يلي:

> إلى القصاب (15 تموز/ يوليو من عام 1918): نحن، السوريين في مكة، نود أن نحيط لجنتكم القومية علمًا بأننا نؤيدها، وندعم مبادئها، وأنشطتها، وبأننا نتابعها طوال سنوات عديدة. لقد قدمت بلادنا زهرة شبابها وأفضل رجالها ضحايا غالية [لهذه المبادئ] على أعواد المشانق وأمام الخنادق. وتتمثل تلك المبادئ، التي سوف ندعمها ما دمنا أحياء، في النضال من أجل استقلال بلادنا العربية، ووحدتها، وأن تحكمها بنى مدنية تستند إلى الحرية، والمساواة، والأخوة بين أبنائها كافة بصرف النظر عن المعتقدات الشخصية أو الدينية. وسندعم كل الاجراءات التي تتخذونها لتحقيق هذه المبادئ بكل ما أوتينا من القوة. ندعو الله أن يمكّنكم ويمكّننا من تحقيق هدفنا المتمثل في النهوض بأرض الأجداد والرخاء لأبنائها(16).

وبالرغم من إمكان أن يكون الموقعون يشيرون إلى الفتاة أو العهد، إلا أن

= فائز الغصين، **مذكراتي عن الثورة** (دمشق، 1956)، ص 213؛ محب الدين الخطيب، مخطوطة تتضمن سيرته الذاتية محفوظة في كل من المكتبة السلفية في القاهرة، ومركز الوثائق التاريخية في دمشق، ص 43. يُنظر أيضًا سلسلة السيرة الذاتية للخطيب في مجلة **الثقافة** (الجزائر)، التي نشرت متسلسلة في الفترة الممتدة بين كانون الثاني/ يناير 1972 (1: 6) وكانون الأول/ ديسمبر - كانون الثاني/ يناير 1973 (3: 18). كان محب الدين الخطيب شخصية يكتنفها الغموض: إذ عمل رئيسًا لتحرير صحيفة **القبلة** التي كان يصدرها الشريف حسين، في وقت كان فيه، وفقًا لما أورده في كتاباته اللاحقة، يشعر بالفعل بخيبة الأمل واليأس من الثورة العربية الكبرى، وترأس تحرير **العاصمة**، وهي الصحيفة التي كانت تصدرها الحكومة العربية، وكتب مقالات فيها، في أثناء عمل أمين سر للجنة الوطنية العليا. وتحاكي أنشطته وأفكاره السياسية التي تبدو متناقضة جزئيًا التناقضات المتأصلة في السلفية، التي تحاول التوفيق بين مُثل عصر التنوير والأصالة الإسلامية. على الرغم من أن وجهات نظره الفعلية قد لا نعلم عنها شيئًا على الاطلاق، إلا أن كتاباته توفر، مع ذلك، معلومات قيمة بشأن المناقشات المعاصرة، ويدين المؤرخون له بالامتنان لحفاظه على الوثائق المتعلقة بالحركة القومية المبكرة. للاطلاع على رؤية مختلفة لأنشطة الخطيب القومية، يُنظر: Muhammad Y. Muslih, «Rise of Local Nationalism in the Arab East,» in: Rashid Khalidi et al. (eds.), *The Origins of Arab Nationalism* (New York, 1991), pp. 174-175.

(16) الوثيقة تتضمنها المكتبة السلفية، القاهرة: ملف اللجنة الوطنية.

وجود «لجنة قومية» مستقلة للسوريين المنفيين في الحجاز هو أمر ليس بعيد الاحتمال، بالنظر إلى الشكوك التي كانت تراود القصاب إزاء الثورة العربية وقلقه بشأن العلاقة التي نشأت بين المسؤولين البريطانيين والقوميين المنفيين في مصر. وما كان من الخارج عن المألوف على القصاب، الذي قضى وقته في الخارج في إقامة صلات بين شبكات تضم المقيمين في سورية والسوريين في الشتات، أن يؤسس مثل هذه اللجنة[17]. كما أن تأسيس مثل هذه اللجنة لم يكن أمرًا غير مجدٍ: فخيبة الأمل التي أصابت القصاب تجاه أشراف مكة ليست فريدة من نوعها، وبينما كان بعض السوريين يفضلون البقاء في مصر لحين انتهاء الحرب عوضًا عن الانضمام إلى جيش فيصل العربي، كان آخرون سواهم يسيرون على خطى القصاب ويتخلون عن قضية أشراف مكة قبل احتلال دمشق.

كان البريطانيون يتعاملون، أحيانًا، مع أنشطة المنفيين السوريين من ذوي النزعة القومية باعتبارها مصدرًا للإزعاج؛ وفي أحيان أخرى، بوصفها تمثل تهديدًا للحصان الذي يدعمونه. وهكذا فإنهم تبنوا استراتيجيا ذات محورين في التعامل مع المنفيين: فإن لم يتمكنوا من احتضانهم (على غرار ما حاولوا القيام به عبر التشجيع على تأسيس اللجنة التي صاغت «مذكرة السوريين السبعة»)، كان بإمكانهم في الأقل الحيلولة دون اتصال القوميين المقيمين في مصر بمواطنيهم في سورية. وفي وقت متأخر مثل منتصف كانون الأول/ ديسمبر 1918، اشتكى الملحق العسكري في سفارة الولايات المتحدة في القاهرة من أن البريطانيين لم يكتفوا بفرض رقابة على المراسلات الخاصة التي تدخل مصر من سورية وفلسطين، بل ورفضوا السماح باستيراد الصحف المطبوعة في دمشق وبيروت وتوزيعها في العاصمة المصرية.

> لقد جرى إبقاء الزعماء السوريين في مصر في حالة من الجهل التام بالوضع الراهن في سورية. ولم يبلغ الفرنسيون ولا البريطانيون هؤلاء السوريين البارزين بحقيقةٍ مؤداها أنه ثمة حكومة تابعة لأشراف مكة قد تأسست بالفعل

(17) MAE L:SL/vol. 7/179, Service des informations de la marine dans le Levant à marine, Paris, 24 December 1918; FO 882/24/85-90, Walrond to Cornwallis, 13 January 1919.

في أرجاء سورية كافة، باستثناء لبنان والساحل! ويبدو أن هذه وسيلة متعمدة لإبقاء السوريين مكممي الأفواه، لئلا يستطيعوا أن يجعلوا صوتهم مسموعًا في مؤتمر السلام في باريس.

ويقول د. نمر، رئيس تحرير <صحيفة> **المقطم**، أنه قد التمس مرات ومرات أن يمنح الإذن بنشر افتتاحيات ومقالات تعبر عن رغبات السوريين بشأن مستقبل بلادهم. فأبلغه مراقب <المطبوعات> أن بمقدوره أن يقول ما يحلو له عن سورية والمسألة السورية، وإنما ينبغي عليه ألا يكتب أي شيء يمس بريطانيا العظمى، أو فرنسا، أو شريف مكة، أو مصالحهم في سورية[18]!

ولم يقتصر الحصار البريطاني على منع وصول أخبار سورية إلى مصر؛ بل إن الحكومة البريطانية أعاقت على نحو متعمد مغادرة السوريين من ذوي النزعة القومية المقيمين في مصر الراغبين في العودة إلى وطنهم. ونتيجة لذلك، أرغم القصاب، الذي كان قد سافر إلى مصر بعد إقامته الموقتة في الحجاز، على البقاء في مصر حتى شهر نيسان/ أبريل من عام 1919[19].

يمكن القول عمومًا إن حياة كامل القصاب كانت حافلة بمجموعة متنوعة من التناقضات الظاهرية. فقد كانت بيئته وتعليمه المبكر متواضعين، وأما نسبه من جهة أمه فكان مطعونًا في صحته نوعًا ما، وكان يحظى بولاء قبضايات الأحياء والتجار ممن ينتمون إلى البرجوازية الصغيرة والعلماء. ومع ذلك، كان يخالط القوميين ممن ينتمون إلى بيئات أكثر تميزًا وينافحون عن أيديولوجيا تعكس مكانتهم بوصفهم «نخبًا صاعدة». كما تتلمذ على يد العلامة الإسلامي المجدد

---

(18) USNA 165/2075-108/173, U.S. Military Attaché (Cairo), «Facts in Connection with the Syrian Question Which Have Recently Been Learned,» 16 December 1918.

وفقًا لما أورده رشيد رضا، فقد فرض البريطانيون في مصر رقابة على الأنباء الواردة من سورية إلى حين مغادرة لجنة كينغ - كرين في صيف عام 1919. **المنار** (حزيران/ يونيو 1920)، ص 428-429.

(19) بالإضافة إلى القصاب، كان من بين أولئك الذين تعيَّن عليهم الانتظار عدة أشهر قبل حصولهم على أذون سفر إلى سورية كل من أسعد داغر (الذي حصل على إذن بالعودة إلى دمشق في أواخر كانون الأول/ ديسمبر من العام 1918)، وفوزي البكري، وعبد الرحمن الشهبندر، وخالد <رفيق> العظم، ورشيد رضا (الذي لم يسمح له بالعودة إلى الوطن إلا في أواخر صيف العام 1919). داغر، **مذكراتي**، ص 100-101، 106؛ **المنار** (حزيران/ يونيو 1920)، ص 428-429؛ الحكيم، **ذكريات**، ج 3، ص 83.

الرائد في عصره، محمد عبده، ودعم أنشطة الفتاة حتى قبل اتساع نطاقها في مرحلة ما بعد الحرب. ومع ذلك، قاد حركة اجتماعية تقليدية رفضت ذلك الجانب من تعاليم عبده التي ألهمت سواه من الناشطين القوميين أن يتبنوا الأساليب التبريرية الحداثية ويعتنقوا المثل المستعارة من أوروبا.

ربما تعزى هذه التناقضات، جزئيًا، إلى حقيقة مؤداها أن التأثيرات المتفاوتة التي شكلت حياة القصاب وكونت نظرته إلى العالم قد وضعته عند نقطة انعطاف الانقسام الثقافي المبين في المدخل. وعلى الرغم من أن القصاب وعددًا منتقى من زملائه في اللجان الشعبية كانوا معتادين على ثقافة النخب القومية ولغتها، إلا أن القيود التي فرضتها تجاربهم وغموض وضعهم الاجتماعي وهشاشته، حالت دون اندماجهم داخل عالم النخب تلك، وهيأتهم عوضًا عن ذلك للاضطلاع بدور الوسيط بين الانقسامات الثقافية. وهكذا، على الرغم من أنهم كانوا يستخلصون على نحو انتقائي اللغة والرموز من المجادلات والمهاترات الجارية بين النخب القومية، إلا أنهم رفضوا في الوقت ذاته الكثير من المفاهيم الأيديولوجية، التي كانت النخب القومية تلك قد استخدمتها لدعم هذه المجادلات والمهاترات، بوصفها دخيلة. وقد عبر القصاب وزملاؤه، بوساطة هذه السيرورة من الانتقاء وتجديد السياق، عن نزعة قومية أعادت التأكيد ظاهريًا لـ «القيم التقليدية»، وإنما فعلوا ذلك داخل الإطار المؤسسي والخطابي لحركة قومية حديثة.

اللجنة الوطنية العليا

تتسم المعطيات المتصلة بنشأة اللجنة الوطنية العليا، ولا سيما الدور الذي اضطلعت به المنظمات الأخرى في تأسيسها، بالشح والتضارب شأنها في ذلك شأن معظم المعلومات المتعلقة باللجان الشعبية. وتشهد مصادر عديدة على حقيقة مفادها أن اللجنة تلك قد بدأت بوصفها مشروعًا أطلقته الفتاة، أو حزب الاستقلال العربي المتفرع عنها، أو كليهما. وقد زعم أحمد قدري، وهو عضو في الفتاة إبان فترة ما قبل الحرب وأصبح لاحقًا الطبيب الخاص للأمير فيصل، أنه اقترح تشكيل اللجنة للحيلولة دون خضوع فيصل للضغط الذي كان يمارسه أولئك الذين يشجعون الأمير على التوصل إلى تفاهم مع الفرنسيين. وأوضح

قدري «كنت قد لحظت أن جميع من في معية الأمير يشجعه على عقد اتفاق مع كليمنصو»، <مردفًا>،

> كتبت إلى هيئة إدارة الفتاة بدمشق بغية مقاومة هذه الفكرة، والإفادة من الشيخ كامل القصاب باندفاعه وخبرته في أساليب التأثير على عقول الجماهير لنتمكن من الوصول لرفض الاتفاق، فلبى القصاب الرجاء، وحضر في 27 تشرين الثاني اجتماعًا بالقنوات بدار آل البارودي، وخطب خطبة حماسية طالب فيها بالاستقلال التام، كما طلب من الحاضرين توقيع ميثاق برفض كل اتفاق يحد من سيادة الأمة ويقيد استقلالها. ولم يخرج الحاضرون إلا بعد توقيعه. وهكذا أصبحت للقصاب الكلمة الأولى في اللجنة الوطنية[20].

وعلى النقيض من ذلك، يعرض محب الدين الخطيب، الذي يغفل في كتاباته وجود انقسام بين القوميين، لما يبدو أنه رواية تضفي صبغة أسطورية بصورة مماثلة على تأسيس اللجنة الوطنية العليا. فحينما غادر الأمير فيصل قاصدًا أوروبا، يستذكر الخطيب بعد سنوات عديدة، التفت إلى القصاب وقال له: «أتوقع أن تؤسس وإخوانك من الوطنيين حركة شعبية سوف تسلح الأمة، وأن تحولوا دمشق وسواها من المدن السورية إلى ثكنات عسكرية والبلاد إلى معسكر مسلح»[21].

لنضع أوجه الاختلاف جانبًا، فكلتا الروايتين تتفقان على أن اللجنة الوطنية العليا قد تأسست بوصفها استجابة للمناخ السياسي الجديد الذي خيم على سورية عشية أزمة الاستبدال. وفي مواجهة الغضب الشعبي المتعاظم إزاء أعمال بريطانيا وفرنسا، بحثت المنظمات السياسية القائمة عن وسائل لتوجيه الانفعالات الشعبية وبسط سيطرتها على الحركة التي تدعو إلى الدفاع. وعلى الرغم من أن الغموض يكتنف الدور الدقيق الذي اضطلعت به تلك المنظمات، إلا أن سجلات اللجنة الوطنية العليا تبين بجلاء أنها بدأت في أواخر تشرين الأول/ أكتوبر، حين

---

(20) قدري، **مذكراتي**، ص 149-150. يُنظر أيضًا: داغر، **مذكراتي**، ص 107؛ خيرية قاسمية، **الحكومة العربية في دمشق بين 1918-1920** (بيروت، 1982)، ص 144-145.

(21) محب الدين الخطيب، «مذكرات محب الدين الخطيب»، **الثقافة** (الجزائر)، السنة 3 (حزيران/ يونيو - تموز/ يوليو 1973)، ص 92؛ سهيلة الريماوي، **جمعية العربية الفتاة السريّة، 1909-1918** (عمان، 1988)، ص 104.

شرع الأعيان الذين كانوا قد نظموا الميليشيات في أحيائهم في عقد اجتماعات لتنسيق أنشطتهم[22]. وتكشف محاضر أحد هذه الاجتماعات، ويرجح أنه عقد عشية تشكيل اللجنة الوطنية العليا، عن أسماء المشاركين في صياغة الخطط النهائية للجنة تلك وهواجسهم. ويتوزع المشاركون، وفقًا لما تورده المحاضر، على فئتين إحداهما غير مصنفة وتضم الأخرى من يصنفون في فئة «الأعيان». وتطالعنا القائمة الأولى بأسماء كل من «الشيخ كامل» (القصاب)، وزين مرتضى (أحد أفراد أسرة شيعية مشهورة)، وياسين دياب (تاجر بارز)، وأسعد داغر (ممثل اللجنة التنفيذية في حزب الاستقلال العربي)، والأب ميخائيل شحادة، ومحمد حمدي السفرجلاني (عالم ديني). بينما تظهر أسماء كل من فوزي بك (البكري؟)، وأحمد أفندي الحسيني (عضو في الفتاة والحزب الوطني السوري لاحقًا)، وتوفيق بك شامية، وسليم بك العنحوري (تاجر مسيحي)، وسعيد آغا المهايني (تاحر ولديه صلات بالقبضايات)، وفخري بك (البارودي؟) في القائمة الثانية. ومما يثير الاهتمام أن نلاحظ أنه حتى في تلك المرحلة المبكرة من التطور التنظيمي، نجد أن قائمة الأسماء المرتبطة باللجنة الوطنية العليا تضم نسبة مئوية من الأشخاص الذين ينتمون إلى فئتي العلماء والتجار، على سبيل المثال، أعلى مما قد نجده بين مؤسسي الفتاة أو النادي العربي في دمشق.

وفي ما يلي نص محضر الاجتماع:

بعد قراءة محاضر الاجتماع الأخير والموافقة عليها، جرت قراءة قائمة اللوائح التنظيمية، وناقش الحضور اسم المجموعة، وتقرر بالأغلبية أن يكون اللجنة الوطنية.

البند # 1: اقترح عشرة من [الحاضرين] إضافة عبارة بشأن جميع أنحاء سورية.

الصهيونية [القومية اليهودية]: تقرر إضافة عبارة «مقاومة كل مبدأ يؤدي إلى ترسيخ قومية تهدد الوجود السياسي للبلاد والوحدة السورية».

---

(22) أمين سعيد، **الثورة العربية الكبرى: تاريخ مفصل جامع للقضية العربية في ربع قرن، نضال بين العرب والفرنسيين والإنكليز** (القاهرة، 1934)، ج 2، ص 101-103.

اقترح عشرة أعضاء إضافة فقرة تشير إلى أن عملنا مرتبط بكافة الأنشطة المماثلة الأخرى الجارية في بقية البلدان العربية، ولكن الأغلبية اعترضت على ذلك.

تقدم الشيخ كامل باقتراح يتعلق بانتخاب الحاج عيسى دياب[23].

ثمة بندان على جدول أعمال محضر الاجتماع هذا يتسمان بأهمية خاصة. أولهما، يبدو أنه، على النقيض من تكهنات بعض المؤرخين، لم تصبح مناهضة الصهيونية مكونًا من مكونات القومية السورية لمجرد اضطلاع الفلسطينيين بدور مهم في المنظمات القومية مثل النادي العربي. وكما هو متوقع، فإن النضال ضد «القوميات كافة باستثناء القومية العربية» (على نحو ما جرى وصف المواجهة مع الصهيونية بعبارات ملطفة)[24] كان عنصرًا حاسمًا لتمييز الحدود الفاصلة وتوضيح طبيعة الجماعة القومية السورية ذاتها على حد سواء. ثانيهما، يكشف محضر الاجتماعات عن أن بعض مؤسسي اللجنة الوطنية العليا، في الأقل، كانوا يخططون على الدوام لقطع الصلات التي تربط اللجنة بالمنظمات السياسية الأخرى وإنشاء منظمة مستقلة بذاتها تمامًا. ولهذا الأمر أهمية خاصة نظرًا إلى أن اللجنة، كما تشكلت في الأصل، كانت أكثر قليلًا من ائتلاف جرى إنشاؤه على نحو فضفاض، كانت الأحزاب والجمعيات السياسية التي تتخذ من دمشق مقرًا لها ترسل إليه ممثلين عنها. ففي بادئ الأمر، على سبيل المثال، كان محمد عزة دروزة، وسعيد حيدر، وتوفيق شامية يمثلون مصالح حزب الاستقلال العربي في اللجنة، بينما كان حسن الحكيم، وحسني البرازي، ومصطفى وصفي <السمان>، ومحيي الدين صادق يمثلون مصالح العهد[25].

تولت اللجنة الوطنية العليا، وفقًا لروايات عديدة، رعاية الانتخابات التي جرت يوم السبت في 1 تشرين الثاني/ نوفمبر من عام 1919، بهدف اختيار أربعة ممثلين في اللجنة عن كل حي من الأحياء الثمانية والأربعين في دمشق. وبعد ذلك بأربعة أيام، عقد الممثلون اجتماعًا في دار أحمد الحسيبي، صهر علي رضا

---

(23) هذا المحضر تتضمنه المكتبة السلفية، القاهرة: ملف اللجنة الوطنية.

(24) يُنظر، على سبيل المثال: **العاصمة**، 17 تشرين الثاني/ نوفمبر 1919، ص 3-4.

(25) دروزة، **مذكرات**، ج 2، ص 154-155؛ داغر، **مذكراتي**، ص 107؛ سعيد، **الثورة العربية الكبرى**، ج 2، ص 103-105.

الركابي ورئيس المجلس البلدي في دمشق، لانتقاء ممثل عن كل حي يحق له التصويت لانتخاب قادة اللجنة السبعة والعشرين[26]. وأشرف على أنشطة اللجنة في الفترة الممتدة من منتصف شهر تشرين الثاني/ نوفمبر ولغاية مطلع شهر شباط/ فبراير من عام 1920، ممثلون عن كل ثمن (<في إشارة إلى> واحدة من ثماني، في الأصل، ثم تسع مناطق إدارية في المدينة)، وثلاثة موظفين، هم أمين سر، ومحاسب، وأمين صندوق. ولم يكن هناك رئيس دائم يترأس هذه الاجتماعات. وبدلًا من ذلك، ووفقًا لميثاق اللجنة، كان الحاضرون هم الذين يختارون واحدًا من بينهم ليترأس كل اجتماع من اجتماعات اللجنة. وهكذا، على الرغم من أن كامل القصاب سرعان ما سيبرز بوصفه الزعيم الأبرز للمنظمة، إلا أن صفته الرسمية، شأنه شأن زميليه صالح الكلفوندي ومحب الدين الخطيب، كانت في الأصل ممثلًا عن حي القيمرية[27].

كان ميثاق اللجنة الوطنية العليا يجيز حق الاقتراع لجميع (الذكور البالغين ضمنًا) المقيمين في دمشق من أجل انتخاب الممثلين المحليين في اللجنة. وبينما انتشر تنظيم صفوف اللجنة من دمشق إلى سواها من المدن والبلدات وصولًا إلى أماكن بعيدة مثل عمان، كذلك انتشرت الأنشطة الانتخابية للجنة. ولم تكن

---

(26) سعيد، **الثورة العربية الكبرى**، ج 2، ص 101-103؛ قاسمية، **الحكومة العربية في دمشق**، ص 144؛ **العاصمة**، 4 تشرين الثاني/ نوفمبر 1919، ص 5؛ المكتبة السلفية، القاهرة: ملف اللجنة الوطنية، «نظام اللجنة الوطنية في العاصمة السورية»، 17 تشرين الثاني/ نوفمبر 1919. وقد أعيد طبع نص ميثاق اللجنة الوطنية العليا في: إحسان عسكر، **نشأة الصحافة السورية: عرض للقومية في طور النشأة من العهد العثماني حتى قيام الدولة العربية** (القاهرة، 1972)، ص 500-506. (ملاحظة: ربما كان تاريخ النشر الفعلي للعدد الآنف الذكر 6 تشرين الثاني/ نوفمبر 1919). وتدرج إحدى الوثائق غير المؤرخة في أرشيف المكتبة السلفية الأحياء وأسماء واحد وأربعين ممثلًا حضروا أحد اجتماعات اللجنة الوطنية العليا. وتغيب عن الاجتماع ممثلون من أحياء الأكراد والمهاجرين وسوق الميدان، وأرسلت بعض الأحياء أكثر من ممثل واحد، وتقاسمت أحياء أخرى الممثلين. ومن المثير للاهتمام، أن القائمة اشتملت على ممثل يهودي في الأقل (يوسف عراري) من حارة اليهود وممثل مسيحي في الأقل (توفيق شامية) من حي باب توما.

(27) المكتبة السلفية، القاهرة: ملف اللجنة الوطنية، القصاب وآخرون إلى الركابي، 13 تشرين الثاني/ نوفمبر 1919؛ المكتبة السلفية، القاهرة: ملف اللجنة الوطنية، «نظام اللجان الوطنية الفرعية في بلاد سورية»، 17 تشرين الثاني/ نوفمبر 1919. كما أعيد طبع نص ميثاق اللجان الفرعية في: عسكر، **نشأة الصحافة السورية**، 507-513.

الانتخابات هذه تنطوي على المراوغة والخديعة. وعلى النقيض من حملات توقيع العرائض التي نظمها النادي العربي لإقناع الجمهور الأجنبي بصورة الدعم الشعبي للحكومة العربية وسياساتها، لم تستمد اللجنة الوطنية العليا شرعيتها من الانتخابات فحسب، بل كانت الانتخابات أيضًا الوسيلة التي حاولت اللجنة بوساطتها إعادة تعريف الجماعة القومية السورية. وقد أعلن ميثاق الجمعية أن «كل فرد من أفراد الأمة مرتبط قانونيًا باللجنة الوطنية بفضل المصلحة القومية، نظرًا إلى أن الأمة لم تجمع قط على المشاركة في أي مهمة من هذا القبيل، ولأنه جرت الموافقة على تحديد أهدافها بالإجماع، ولأن ممثليها قد جرى اختيارهم بطريقة جدية ومنظمة. ونتيجة لتلك الرابطة القانونية القائمة بين اللجنة [الوطنية] العليا والأفراد، فإن مواطني الأمة كافة هم ناخبو اللجنة [الوطنية] العليا وداعمو أهدافها المعلنة»[28].

لقد أخذ منظمو اللجنة الوطنية العليا وأعضاؤها على حد سواء، إذًا، الانتخابات على محمل الجد. وفي إحدى المناطق، ألا وهي القيمرية، أشارت اللجنة الفرعية علنًا إلى استخدام الاقتراع السري في انتخاب ممثلين في اللجنة الوطنية العليا لإظهار موثوقية العملية الانتخابية[29]. وفي حالات أخرى، كانت أسماء المرشحين والمنتخبين تظهر في الصحف المتعاطفة[30]. ويتكون جزء كبير من ملف «اللجنة الوطنية» في المكتبة السلفية في القاهرة، التي تعد المستودع الرئيس للمواد المتعلقة باللجان الشعبية، من تقارير عن نتائج الانتخابات المحلية التي صادق عليها الناخبون أنفسهم. وقد وقع هؤلاء الناخبون على إفادات خطية من قبيل ما يلي:

(28) المكتبة السلفية، القاهرة: ملف اللجنة الوطنية، «نظام اللجان الوطنية الفرعية في بلاد سورية»، 17 تشرين الثاني/ نوفمبر 1919.

(29) انتُخب، في هذه الحالة، الشيخ موسى الطويل. المكتبة السلفية، القاهرة: ملف اللجنة الوطنية، أمين سر لجنة فرع القيمرية إلى رئيس وأعضاء اللجنة الوطنية [العليا]، 16 كانون الأول/ ديسمبر 1919.

(30) المكتبة السلفية، القاهرة: ملف اللجنة الوطنية. وفي ما يلي نص إحدى الرسائل الموجهة إلى محب الدين الخطيب: «أكتب إليكم لأطلب أسماء أولئك الذين انتخبوا أثناء اجتماع اللجنة أمس ورشحوا ليكونوا أعضاء في اللجنة <الوطنية> العليا لكي أستطيع طباعتها على صفحات المفيد. وإذا تفضلتم، أرجو إضافة اسمي سعيد أفندي المالح وكامل أفندي إياس، إذ إن ذلك هو ما يرغب به بعض الأعضاء».

نحن أهالي حي مأذنة الشحم، ومن بيننا الأفندية، والتجار، والشبان والمسنون، قد أعدنا انتخاب السيد طلعت أفندي جبري ليكون ممثلنا في اللجنة الوطنية. وقد كان، وما زال، وسيبقى جديرًا بثقتنا. وعليه أعطينا هذا الصك مذيلًا بإمضاءاتنا ليكون مذكرة رسمية يجب العمل بموجبها.

وقد رافق الإفادة الخطية هذه قرابة مئة توقيع[31]. وثمة إفادات خطية أخرى محفوظة من بينها إفادات أولئك الذين فازوا بالانتخابات تشهد على حقهم في العمل بوصفهم ممثلين لأحيائهم، إضافةً إلى تلك الصادرة عن ممثلين يبدو أنهم انتخبوا بدون علمهم وزعموا أنهم عاجزون عن النهوض بأعباء العضوية، لأسباب صحية عادة. وقد وردت إحدى أكثر هذه الرسائل إثارة للاهتمام من الصحافي محمد كرد علي، رئيس تحرير صحيفة **المقتبس**، الذي أصبح بعدئذ أحد مؤسسي الحزب الوطني السوري (المؤيد للفرنسيين). وكانت رسالته، التي يضفي نصها المصداقية على ملاحظة بريطانية مفادها أنه كان «مجردًا من المبادئ... ودجالًا»، تنص على ما يلي:

لقد تلقيت نبأ قرار اللجنة الوطنية بشأن انتخابي عضوًا فيها. وإنني ممتن لكم على إيلائكم الاهتمام لهذا العاجز، وإني كنت أود من أعماق قلبي أن أستجيب على نحو إيجابي لهذا الطلب لولا تدهور صحتي مؤخرًا. أرجو أن تقبلوا اعتذاري عن عدم قدرتي على حمل أعباء هذه المسؤولية. أسأل الله التوفيق والنجاح للجنة[32].

وقد توفي كرد علي في عام 1953.

استنادًا إلى هذه الانتخابات، ادعت اللجنة الوطنية العليا، وفروعها، ولجان الدفاع الوطني التابعة لها، لنفسها الحق في الاضطلاع بدور الممثل الحقيقي

(31) من المثير للاهتمام أن التوقيعات التي أعقبت هذه الشهادة تنقسم إلى فئتين: الأعضاء (قرابة خمس مجموع التوقيعات) وغير الأعضاء. المكتبة السلفية، القاهرة: ملف اللجنة الوطنية، 17 كانون الأول/ ديسمبر 1919.

(32) المكتبة السلفية، القاهرة: ملف اللجنة الوطنية، محمد كرد علي إلى اللجنة الوطنية [العليا]، 7 كانون الأول/ ديسمبر 1919؛ FO 882/24, «Who's Who in Damascus,» 14 May 1919.

للشعب السوري. وقد أوردت صحيفة **الكوكب** تقريرًا جاء فيه «لقد أحدثت لجان الدفاع الوطني، المرتبطة باللجنة الوطنية في العاصمة، في كافة أرجاء سورية» <ثم أردفت الصحيفة قائلة>:

> إن طريقة إنشاء هذه اللجان تقوم بناء على الانتخاب الحقيقي والقانوني، لكي تمثل الأمة بصورة شرعية.... وتحل اللجنة محل المؤتمر السوري في ما تقدمه من خدمات، بل، يمكننا القول إن خدماتها أشمل نظرًا لوجود فروع دائمة لها في كافة أنحاء سورية، من حلب إلى الكرك[33].

لم يكن هذا التأكيد، بطبيعة الحال، أمرًا لا جدال فيه. فقد استخدم الأمير فيصل وسائل متعددة - ألا وهي حملات توقيع العرائض، والاحتفالات التي تعهد الأعيان البارزون، ورجال الدين، وزعماء القبائل فيها بتقديم الولاء له ومبايعته وما إلى ذلك - من أجل إثبات صحة حقه الاضطلاع بدور الممثل الوحيد للشعب السوري. وعلى نحو مماثل، فلربما طعن المؤتمر السوري العام، الذي كان قد استند في ادعائه تمثيل السوريين إلى أن أعضاءه منتخبون أيضًا، في المزاعم التي ادعتها اللجنة الوطنية العليا لو لم يلغها الأمير زيد في مطلع كانون الأول/ ديسمبر من عام 1919[34]. بيد أنه لما كانت اللجنة الوطنية العليا، شأنها شأن المؤتمر السوري قبلها، لا تستطيع رعاية الانتخابات في المناطق التي يديرها البريطانيون أو الفرنسيون - عنينا، في فلسطين والمنطقة التي هي اليوم لبنان - فقد شكك الخصوم السياسيون للجنة في تأكيدها أنها وحدها الممثل الحقيقي لـ«سورية داخل حدودها الطبيعية»، وأن سلطتها بناءً على ذلك قد حلت محل سلطة المؤتمر. وقد احتج كاتب المقالات الافتتاحية في صحيفة **سورية الجديدة** قائلًا «لم يمض وقت طويل قبل أن نسمع أن اللجنة [الوطنية العليا] دعت بعض

(33) **الكوكب**، 6 كانون الثاني/ يناير 1920، ص 10. للاطلاع على تأسيس إحدى اللجان تلك في النبك، يُنظر المكتبة السلفية، القاهرة: ملف لجنة الدفاع، مطران الكاثوليكية، والمفتي، ورئيس البلدية وآخرون إلى كامل القصاب، 18 كانون الأول/ ديسمبر 1919.

(34) بحلول الوقت الذي عاد فيه المؤتمر إلى الانعقاد في مطلع شهر آذار/ مارس، كانت اللجنة الوطنية العليا تمتلك ما يكفي من القوة لتحديد البرنامج القومي. ينظر: Malcolm Russell, *The First Modern Arab State: Syria under Faysal 1918-1920* (Minneapolis, 1985), pp. 114, 132.

الأعيان من بعض المدن في المنطقة الشرقية وحسب، متجاوزة في ذلك ممثلي الساحل وفلسطين. كيف يمكن أن نفسر حقيقة مؤداها أن نواب الساحل لم تجر دعوتهم للمشاركة في الجمعية على الرغم من أن الحركة بأكملها تدعو إلى ضم الساحل للمملكة السورية...؟»[35]. وللتحايل على الأسئلة التي أثارها غياب التمثيل الفلسطيني في اللجنة ولتأكيد نفوذها في فلسطين، شكلت اللجنة الوطنية العليا، بالتعاون مع جماعات أخرى ونواب المؤتمر السوري في دمشق، المؤتمر الفلسطيني، ودفعت باتجاه إصدار قرارات أعلنت أن فلسطين جزء لا يتجزأ من سورية ودانت الصهيونية وهجرة الصهاينة[36].

لقد أدت الانتخابات التي أجرتها اللجان الشعبية إلى التعجيل في انبثاق جيل جديد من الناشطين القوميين في دمشق والأجزاء الأخرى من سورية والمصادقة عليهم والاعتراف بهم. وكان هؤلاء الناشطون يختلفون اختلافًا كبيرًا عن أولئك الذين كانوا قد نظموا في الأصل الفتاة أو النادي العربي. وبالاستناد إلى اللوائح الانتخابية الموجودة في المكتبة السلفية والمصادر المكتوبة الأخرى، فإن إجراء تحليل لخمسة وأربعين من القادة الثانويين للجان الشعبية في دمشق الذين بالإمكان تتبع بيئتهم الاجتماعية والثقافية – ألا وهم مديرو اللجان الفرعية، وممثلو اللجان الفرعية في اللجنة الوطنية العليا، والمنظمون الذين عملوا جنبًا إلى جنب مع اللجان المختلفة – تكشف عن وجود مجموعة يتكون ثلثها من التجار، وثلثها الآخر من العلماء. وكان قرابة ثلث الفئة الأخيرة ممن يعملون بالتجارة أيضًا. وعلى النقيض من المنظمات التي أشرنا إليها سابقًا، كان ربع القادة الثانويين للجان الشعبية من موظفي الحكومة، وقرابة العشر فحسب ممن تلقوا التأهيل والتدريب المهني.

كان النشاط الانتخابي، وانتشار الممثلين الرئيسين، والمشاركة الواسعة النطاق في الأنشطة التي ترعاها اللجنة الوطنية العليا وفروعها، إيذانًا بنشوء علاقات سلطة جديدة بين ظهراني السوريين ممن يقيمون في المناطق الحضرية السورية، مما بشر

---

(35) **سورية الجديدة**، 27 كانون الأول/ ديسمبر 1919، ص 1.

(36) AD 2372/dossier: propagande anti-française/5-8, 3 March 1920; FO 371/5034/E2915/2/44, CPO, EEF to Curzon, 27 March 1920; Russell, *The First Modern Arab State*, pp. 132-133.

بظهور نمط مختلف من القيادة السياسية المحلية في سورية. ومع ذلك، لم تتجاهل اللجان الشعبية أو حتى تتحدى بشكل مباشر النظم السياسية والاجتماعية التي كانت قائمة من قبل. وكما سيتبين أدناه، فإن اللجنة الوطنية العليا، وفروعها، ولجان الدفاع الوطني التابعة لها استوعبت كلًا من هياكل السلطة القائمة منها والناشئة داخل إطار واحد. ولم يكن هذا التعايش الموقت بين القديم والجديد فريدًا من نوعه. ويصف إريك هوبزباوم حالة مماثلة في أوروبا في أواخر القرن التاسع عشر مع ظهور «الأحزاب والحركات الجماهيرية»، التي ناقشناها في المدخل. ويرى هوبزباوم، أن ما هو مهم في الحركات تلك ليس الغياب التام للراعي أو الزعيم، لكن بالأحرى التحول الذي طرأ على دوره حين اندماجه ضمن آلة سياسية أكبر. وذلكم هو أمر أدى على نحو متزايد إلى «تكون الوجيه، أو في الأقل... نجاته من العزلة والعجز السياسي، بدلًا من العكس». ويضيف هوبزباوم،

> من المحتمل جدًا أن تبادر النخب القديمة الآخذة في التحول لتتلاءم مع الديمقراطية إلى تطوير توليفات تجمع بين سياسات المحسوبية والنفوذ المحليين والسياسات الديمقراطية. والواقع أن العقود الأخيرة من القرن المنصرم والعقود الأولى من القرن الجديد كانت حافلة بالنزاعات المعقدة بين «الوجاهة» ذات النمط القديم، والفاعلين السياسيين الجدد، والزعماء المحليين، أو العناصر الرئيسة الأخرى التي تهيمن على مصائر الحزب المحلي[37].

أعادت اللجنة الوطنية العليا وفروعها صوغ الهياكل التقليدية للسلطة بأربع طرق. أولًا، أكدت صلاحيات الهيئات التمثيلية على جميع الأصعدة، مما أدى إلى تضاؤل غلبة أولئك الذين وقفوا خارج العملية الانتخابية في هذا السياق. ثانيًا، أثار وجود اللجان الشعبية التنافس على مواقع السلطة بين أفراد الأسر الراسخة والمستجدين على عالم السياسة، والأتباع. ثالثًا، أضعفت اللجان التي تعمل باسم «الأمة» قوة أعيان المدن ومكانتهم بفعل إحكامها السيطرة على الموارد واضطلاعها بالمهام التي كانت مناطة بهم أو مخصصة لهم في السابق. أخيرًا،

(37) E. J. Hobsbawm, *The Age of Empire, 1875-1914* (New York, 1987), p. 94.

قلصت اللجان بروز سماسرة السلطة التقليديين في الأحياء عبر رعاية انتخاب قيادة سياسية امتد نطاق مسؤوليتها إلى ما يتعدى حدود حيهم المديني ليشمل البلاد كلها. ويمكن القول عمومًا إن اللجان الشعبية تمكنت عبر إدماجها الهياكل التقليدية للسلطة ضمن إطار أوسع من إضعاف الهياكل تلك وعجلت بانهيارها.

تمكنت اللجنة الوطنية العليا من المحافظة على استمرار وجودها في أحياء دمشق عبر لجانها الفرعية. وكما هو مبين في ميثاقها، كان مقررًا أن تضم هذه اللجان في عضويتها عددًا يتراوح ما بين ستة رجال إلى اثني عشر رجلًا يجري انتخابهم عن كل حي ليضطلعوا بدور الوسيط بين السكان واللجنة الوطنية العليا. فمن ناحية، عهد إلى اللجان الفرعية أن تضع سياسة اللجنة الوطنية العليا موضع التنفيذ: فقد كان من المقرر أن تنتخب كل لجنة فرعية «لجنة تفتيشية» كي «تشرف على أهالي الحي أو المدينة، وترشدهم لما فيه المصلحة العامة، وتحثهم على تحقيق أهداف اللجنة الوطنية، وتغرس في نفوسهم روح الوئام والنظام». ومن ناحية أخرى، كانت اللجان الفرعية مسؤولة عن نقل اهتمامات السكان إلى اللجنة الوطنية العليا. وكان مقررًا أن يجري هذا في اجتماعات عامة تعقد شهريًا ويُدعى إليها كل سكان الحي (أو القرية). إضافةً إلى ذلك، كان من المقرر أن تظل كل لجنة فرعية على إطلاع على سياسات اللجنة الوطنية العليا عبر إرسال أربعة أعضاء لمراقبة الاجتماعات التي تعقدها المنظمة الأم مرتين كل شهر[38].

في حين أنه من غير المؤكد أن اللجان الفرعية كانت تمتثل امتثالًا كاملًا للتوجيهات التنظيمية للجنة الوطنية العليا، تؤكد التقارير أن اللجان قد وطدت حضورها بالفعل في جميع أنحاء المنطقة. ونتيجة للمبادرة المحلية، ظهرت اللجان الفرعية في أحياء دمشق مثل الميدان، والشاغور، ومأذنة الشحم، وباب الجابية، وفي حمص، وحماه، وفي مناطق بعيدة كجنين في فلسطين وعمان وعجلون في الأردن الحالي[39]. وأرسلت اللجنة الفرعية لمأذنة الشحم، في

---

(38) المكتبة السلفية، القاهرة: ملف اللجنة الوطنية، «نظام اللجان الوطنية الفرعية في بلاد سورية»، 17 تشرين الثاني/ نوفمبر 1919.

(39) سعيد، **الثورة العربية الكبرى**، ج 2، ص 101-103؛ **العاصمة**، 18 كانون الأول/ ديسمبر =

مسعى منها للحصول على الاعتراف من اللجنة الوطنية العليا، البرقية التالية التي تصف تأسيسها وتناشد اللجنة <العليا> الموافقة عليه:

إلى مكتب اللجنة الوطنية: ندعو الله أن يكلل جهودكم بالنجاح.

نود إحاطتكم علمًا بأن مجموعة من سكان مأذنة الشحم قد خصصوا مكانًا لإقامة مكاتب في حيهم، وشرعوا في عقد الاجتماعات لكي يناقشوا القضايا القومية بصفتهم فرعًا للجنتكم، [وبدأوا] بتأمين التبرعات الوطنية من سكان الحي وتسجيل أسماء المتطوعين للدفاع عن أرض أسلافنا الحبيبة. ولكي نحصل على الوضع القانوني الذي يمنحنا الحق في عقد الاجتماعات لمناقشة التطوع والتبرعات، وقد عممنا هذا الالتماس لإقراره بالموافقة عليه.

إننا ندعو الله العلي القدير أن يكلل مسعاكم بالنجاح[40].

من المرجح أن لجان الدفاع الوطني المحلية كانت تضطلع، في أغلب الأحوال، بدور اللجان الفرعية خارج دمشق. وكانت أنشطة هذه اللجان تتداخل مع تلك التي تضطلع بها اللجان الفرعية وتتضمن، تبعًا لموقعها، المهام الإدارية، وإغاثة اللاجئين والفقراء، ومثلما هو الحال في تنظيم فرع مأذنة الشحم، تقدير «التبرعات» وجمعها. أما الأمر الأشد أهميةً فكان متمثلًا في أنه يقع على عاتق لجان الدفاع الوطني المحلية (على حد تعبير صحيفة **الكوكب**)، «تنظيم حركة الدفاع وإعدادها لكي يتسنى لها أن تظهر أمام العالم بمظهر قوي وحازم؛ وجمع المؤن والأموال بطرق معقولة لإعالة المتطوعين وعائلاتهم؛ وابتياع ما يحتاجون إليه من مؤن، وذخائر، وملابس؛ وتوحيد الحركة الوطنية وكافة الأعمال العظيمة والسير جنبًا إلى جنب مع الحكومة من أجل خير البلاد وسعادتها»[41].

= 1919، ص 3–4؛ المكتبة السلفية، القاهرة: ملف اللجنة الوطنية، رسالة إلى اللجنة الوطنية من باب الجابية، 21 كانون الأول/ ديسمبر 1919؛ المكتبة السلفية، القاهرة: ملف اللجنة الوطنية، رسالة إلى محب الدين [الخطيب]، 22 جمادى الأولى؛ المكتبة السلفية، القاهرة: ملف اللجنة الوطنية، سعيد الحلاوة وآخرون إلى رئاسة اللجنة الوطنية العليا، 16 كانون الأول/ ديسمبر 1919؛ المكتبة السلفية، القاهرة: ملف اللجنة الوطنية، سعيد خير وآخرون إلى رئاسة اللجنة الوطنية العليا، 3 آذار/ مارس 1920؛ MD 4H114/4/53911, Cousse to Gouraud, 13 June 1920.

(40) المكتبة السلفية، القاهرة: ملف اللجنة الوطنية، 26 تشرين الثاني/ نوفمبر 1919.

(41) **الكوكب**، 6 كانون الثاني/ يناير 1920، ص 10.

على الرغم من أن روايات شهود العيان تشهد على أن الاجتماعات التي تعقد في أحياء دمشق غالبًا ما كانت تجذب المئات من المشاركين[42]، إلا أنه ليس هناك أي سجل يتضمن سير العمل اليومي لتلك المنظمات المحلية، أو ما يتولد منها من الولاء. ويبدو أنه، بعد موجة أولى من الحماسة الشعبية، تأرجح حجم الدعم الممنوح لأنشطة اللجنة الوطنية العليا وفروعها كما كشفت الأحداث السياسية.

وتظهر السجلات التي يعود تاريخها إلى كانون الأول/ ديسمبر، على سبيل المثال، إقبالًا مخيبًا للآمال على التدريبات العسكرية التي ترعاها اللجنة الوطنية العليا في دمشق: ففي حين كانت اللجنة قد خططت لتجنيد ميليشيا قوامها ألف رجل من أتباعها في دمشق، لم تتعهد اللجان الفرعية المحلية سوى بتقديم 527 متطوعًا فحسب. ومن بين هؤلاء لم يأت للتدريبات العسكرية في الصباح الباكر سوى ما يفوق النصف بقليل[43]. وفي حين أن هذه الإحصائيات يجب التعامل معها بشيء من الشك بالطبع - فهي، على سبيل المثال، لا تضع في الحسبان المصاعب اللوجستية التي لا بد وأن ممارسي المهن والتجار قد واجهوها حينما طلب إليهم حضور تدريبات الصباح الباكر في أنحاء المدينة كافة، أو الكراهية السيئة الصيت التي يكنها سكان دمشق لأي نشاط يماثل الخدمة العسكرية الإلزامية - إلا أنها تدعم الملاحظة التي أبداها مراسل **الكوكب**، وهي صحيفة غير متعاطفة مع اللجنة بصورة عامة، ومفادها:

> تواظب اللجنة الوطنية على عملها، وتواصل نشر فروعها في جميع أرجاء المنطقة، ولكن لا يمكنني إنكار أن ذلك الاهتمام الكبير الذي شهدناه في الأسابيع الماضية يكاد أن يتلاشى. ولعل هذا التوقف الجزئي قد نشأ عن الرغبة في التأجيل حتى تتمكن من الوقوف على ما يريده الأمير فيصل بعد عودته. ولهذا السبب، قد يكون هناك بعض المبررات....[44].

---

(42) يُنظر، على سبيل المثال: دروزة، **مذكرات**، ج 2، ص 154.

(43) يُنظر الرسائل المرسلة من قائد الحرس المدني بدمشق (قائد اللواء الملكي بدمشق) إلى رئاسة اللجنة الوطنية، 8 كانون الأول/ ديسمبر 1919، 10 كانون الأول/ ديسمبر 1919، 13 كانون الأول/ ديسمبر 1919، 19-20 كانون الأول/ ديسمبر 1919 في: المكتبة السلفية، القاهرة: ملف اللجنة الوطنية.

(44) **الكوكب**، 13 كانون الثاني/ يناير 1920، ص 12. على الرغم من أن قلة من سكان الميدان والشاغور قد شاركوا في هذه التدريبات العسكرية، إلا أن سواهم تطوع لتهيئة الأرض المعدة لإجراء التدريبات، =

حفز الاستقطاب السياسي الذي جرى بعد توقيع اتفاق فيصل - كليمنصو بالأحرف الأولى وعودة الأمير من أوروبا في كانون الثاني/ يناير من عام 1920 - وهو استقطاب يبدو أنه مزق الهدوء السياسي الموقت الذي شهدته سورية - على إعادة تنشيط اللجنة الوطنية العليا فضلًا عن إعادة هيكلتها. وتمثل ردة فعل فيصل على الأوضاع المتفجرة في العاصمة التي كان اتفاقه الموقت مع كليمنصو قد أثارها، في مسعاه الرامي إلى إضعاف الشعبية الآخذة في البزوغ من جديد للجنة الوطنية العليا عبر شق صفوف المعارضة واستمالتها. فعمد إلى تأديب أولئك الضباط في الجيش العربي الذين شاركوا في تدريب ميليشيات من المتطوعين، ونظم حزبًا من المعارضة الموالية، وخطط لنفي الزعماء الذين يحظون بالشعبية مثل كامل القصاب[45]. وقد ردت قيادة اللجنة الوطنية العليا على ذلك عبر ترشيد هيكل منظمتهم وتعزيز الدور المعارض الذي تضطلع به.

انعقد أول مؤتمر عام لممثلي المنطقة الشرقية لدى اللجنة الوطنية العليا في أثناء الأسبوع الثالث من كانون الثاني/ يناير بغية التخطيط لإضفاء الطابع المركزي على الأنشطة مثل جمع التبرعات وتنسيقها[46]. وفي 1 شباط/ فبراير اختار المندوبون المجتمعون اللجنة الإدارية الأولى للجنة الوطنية العليا، التي كان الغرض منها أن تتمتع بسلطات إشراف واسعة على أنشطة اللجنة الوطنية كافة. وكانت فكرة إنشاء اللجنة الإدارية متداولة بين قادة اللجنة الوطنية طوال عدة أشهر. وفي كانون الأول/ ديسمبر من العام 1919، اقترح عمر شاكر، وكان عضوًا في كل من اللجنة الوطنية العليا والنادي العربي في دمشق، إحداث مجلس إداري،

= ونصب الخيام لأولئك الذين نفذوا التدريبات. يُنظر: سعيد، **الثورة العربية الكبرى**، ج 2، ص 101-103.

(45) MD 4H114/1/434, Cousse to Gouraud, 28 December 1919; MD 4H114/2/no no., Cousse to Gouraud, 1 January 1920; MD 4H114/2/38, Cousse to Gouraud, 18 January 1920; AD 2375/chemise: division de la Syrie, 1919-1920/406/2, Record of telephone message from Arlabosse to GCDS, 19 January 1920; AD 2347/serie: c admin. personnel/dossier b/65, Cousse to HC, 20 January 1920; FO 371/5032/E990/93-97, «Report by Col. Waters-Taylor on his visit to Beirut, and Interviews with General Gouraud and the Emir Feisal,» 21 January 1920;

سعيد، **ثورات العرب**، ص 62.

(46) بالإضافة إلى ذلك، اقترح عبد الرحمن الشهبندر، الذي كان حاضرًا في الجلسة، إرسال مصورين إلى القرى التي دمرها الفرنسيون وتقديم الصور بوصفها وثائق إلى «المحققين الدوليين الرفيعي المستوى» إذا دعت الحاجة إلى ذلك. **الكوكب**، 27 كانون الثاني/ يناير 1920، ص 11.

تقتصر مهمته على تنفيذ قرارات اللجنة وتنظيم أنشطتها وأنشطة فروعها. ويتكون [المجلس الإداري] من سبعة أعضاء إضافةً إلى أمين سر، ومحاسب، وأمين صندوق. وستكون وظيفته إعداد النقاط المهمة في جدول أعمال الاجتماعات. وسيكون له [أيضًا] الحق في دعوة اللجنة الوطنية إلى الانعقاد متى رأى أن الحاجة تقتضي ذلك.

كما اقترح شاكر، في الوقت ذاته، إنشاء مكتب للمعلومات (لجنة الاستخبارات)، لا تنحصر مهمته في نشر الدعاية وإصدار أوامر التحرك فحسب وإنما سيتولى «معاقبة الذين ينشرون الخيانة»[47]. وبعد مرور أسبوع على تشكيل اللجنة الإدارية الأولى، نشر القصاب بيانًا أعلن فيه أن اللجنة الوطنية فوق الأحزاب كافة ولن تكون خاضعة لأي جماعة خارجية[48].

تشير السجلات إلى انتخاب لجنتين إداريتين، أولاهما في شباط/ فبراير من عام 1920 وثانيتهما في حزيران/ يونيو. وظلت عضوية اللجنتين الإداريتين مستقرة إلى حد ما: إذ عمل ستة أعضاء من اللجنتين المكونة إحداهما من أحد عشر رجلًا والأخرى من اثني عشر رجلًا في الفترة الممتدة من شباط/ فبراير من عام 1920 ولغاية فرض الانتداب الفرنسي. وإلى جانب كامل القصاب، كان من بين الأعضاء أربعة تجار (أحمد دياب، الذي يعمل في تجارة المنسوجات والأرز؛ وأسعد المهايني وعبد القادر سكر، وهما من حي الميدان ويعملان في تجارة الحبوب؛ وشكري الطباع الذي يعمل في تجارة التبغ وسلع أخرى)، وثلاثة تجار - علماء

(47) المكتبة السلفية، القاهرة: ملف اللجنة الوطنية، شاكر إلى رئاسة اللجنة الوطنية العليا، 2 كانون الأول/ ديسمبر 1919. حثت رسالة غير موقعة في الملف نفسه، مؤرخة في 30 ربيع الأول وموجهة إلى أعضاء اللجنة الوطنية، على تشكيل «لجنة إدارية تجتمع باستمرار وتكون مسؤولة أمام اللجنة، لكي تكون اللجنة قادرة على دراسة كل مسألة تعرض عليها وفقًا لجدول أعمال تحديد أولويات المسائل ويسرع عملها». يُنظر أيضًا FO 371/4183/136154, Lotfallah [sic] to Lloyd George, 16 September 1919; AD 2430/ dossier confidentiel-départ/325, Cousse to HC, 10 November 1919.

سعيد، **الثورة العربية الكبرى**، ص 101-103؛ الحفار، «الحكومات التي تعاقبت»، ص 10.

(48) محمد حرب فرزات، **الحياة الحزبية في سوريا: دراسة تاريخية لنشأة الأحزاب السياسية وتطورها بين 1908-1955** (دمشق، 1955)، ص 73-74. يدعي فرزات أن الغاية من نشر بيان القصاب تبرير التحالف مع الحزب الديمقراطي المحافظ من الناحية الاجتماعية.

(عيد الحلبي، وعبد القادر الخطيب، وعبد الله الكزبري)، وعالمان آخران (محمد التاجي، إمام وخطيب جامع الجسر؛ ونسيب حمزة[49]، الرئيس السابق لبلدية دمشق وأحد ملاك الأراضي)، وأربعة مهنيين وضباط عسكريين من ذوي الخبرة السياسية (أسعد الحكيم، طبيب؛ وخالد الحكيم، مهندس؛ وأسعد المالكي، ضابط سابق في الجيش العثماني؛ وعوني القضماني، رائد سابق في الجيش العثماني وعضو في المجلس النيابي العثماني <المبعوثان>)، وثلاثة سياسيين أو محرضين سياسيين من ذوي الخبرة (جميل مردم بك؛ وابن عمه سامي مردم بك، عضو سابق في المجلس النيابي العثماني، ومحكمة الاستئناف في دمشق، وعضو مجلس إدارة <ولاية> دمشق إبان العهد الفيصلي؛ ومحمد النحاس، معاون مدير الويركو في دمشق ومدير الإيرادات في الحكومة العربية)[50].

---

(49) لئن كان نسيب أفندي حمزة ينتمي إلى أسرة دمشقية عريقة من العلماء-الأشراف ونجلًا لمفتي دمشق محمود أفندي حمزة (المتوفى في عام 1887)، إلا أنه لم يكن رجل دين كما يشير المؤلف، وإنما أحد أصحاب الرتب المُلكية-المدنية الرفيعة في الهرمية العثمانية. يُقارن مع: **سالنامه دولت عليه عثمانيه**، دفعة 62، 1324هـ (در سعادت: مطبعه احمد احسان، 1322 مالية/ 1906م)، ص 99. (المترجم)

(50) جرى الحصول على كافة بيانات السيرة الذاتية للجنة الإدارية للجنة الوطنية العليا من المصادر التالية: مقابلة مع الشيخ أحمد القاسمي، 6 تشرين الثاني/ نوفمبر 1989؛ مقابلة مع أبو رباح الجزائري، 15 تشرين الثاني/ نوفمبر 1989؛ مقابلة مع الشيخ عبد الرزاق الحلبي، 3 كانون الثاني/ يناير 1990. مقابلة مع الشيخ ياسين عرفة، 4 كانون الثاني/ يناير 1990؛ **العاصمة**، 6 أيار/ مايو 1920، ص 5؛ **الكنانة**، 26 حزيران/ يونيو 1920، ص 2؛ DU SA/493/7/33: AD 2323/a-1/91, M.P. Lefévre-Pontalis to Picot, 26 November 1918; MAE L:SL/vol. 8/64-70, Lutfallah to Pichon, 23 January 1919, AD 2367/10/1/146, Cousse to HC, 14 February 1919; MAE L:SL/vol. 12/32-38, Cousse to HC, 6 April 1919; FO 371/4217/69267, Note by Arab Bureau, Cairo, 6 May 1919; FO 882/24/128-134. «Who's Who in Damascus, 14 May 1919; FO 371/4183/136154; Lotfallah [sic] to Lloyd George, 16 September 1919; AD 2430/dossier confidentiel-départ/634, Cousse to HC, 24 October 1919; FO 882/24/209-210, G. W. Courtney, 21 May 1920; AD 2347/500, Cousse to HC, 5 June 1920; MD 4H60/1, «Bulletin quotidien 1260,» 19 July 1920; FO 317/5040/E13211/1171, Ernest Scott to Curzon, 18 October 1920;

محمد أديب آل تقي الدين الحصني، **كتاب منتخبات التواريخ لدمشق**، 3 ج (بيروت، 1969)، ج 2، ص 829، 871-872، 873، 876، 883، 910؛ العلاف، **دمشق**، ص 203؛ محمد عزة دروزة، **حول الحركة العربية الحديثة** (صيدا، 1950)، ج 1، ص27، 77-78؛ ظافر القاسمي، **مكتب عنبر: صور وذكريات من حياتنا الثقافية والسياسية والاجتماعية** (بيروت، 1964)، ص 23؛ داغر، **مذكراتي**، ص 106؛ دروزة، **مذكرات**، ج 2، ص 76-77، 81-82، 110-111، 130-131، 142-144، 188؛ الغصين، **مذكراتي عن الثورة**، ص 38؛ أدهم آل جندي، **تاريخ الثورات السورية في عهد الانتداب الفرنسي** (دمشق، 1960)، ص 172؛ Khoury, *Urban Notables*, pp. 34, 41, 44, 63, 66-67, 73, 114, 130, notes 60-61; =

وهكذا، نجد أن بعض أعضاء اللجنة الإدارية كانوا من المهنيين أو ينتمون إلى بيئة أسرية مماثلة لأولئك القوميين الذين شاركوا في الجمعيات السرية في فترة ما قبل الحرب أو الذين أسسوا النادي العربي في دمشق. والواقع إن القصاب، وأسعد وخالد الحكيم، وجميل مردم بك كانوا من بين الأعضاء الأوائل للفتاة. ومع ذلك، شأنها شأن القيادة الثانوية للجان الشعبية في دمشق، اختلف التكوين الكلي للجنة الإدارية اختلافًا كبيرًا عن التجمعات القومية التي نوقشت سابقًا. وكان ستة من أصل سبعة عشر عضوًا قد تلقوا التأهيل و/ أو حصلوا على عمل بوصفهم علماء، وعمل سبعةٌ تجارًا في وقت ما إبان حياتهم المهنية، وكانت لدى أربعة (القصاب، والمهايني، وسكر، والطباع) صلات بالقبضايات. وعلى الرغم من أن أربعة أعضاء في اللجنة الإدارية قد شاركوا في التشكيلات السياسية العربية في فترة ما قبل الحرب، إلا أن عدة أشخاص غيرهم كانوا مناهضين صريحين للعروبة. وكان سامي مردم بك، الذي رشحه جمال باشا ليمثل دمشق في المجلس النيابي العثماني، قد هاجم حزب اللامركزية الإدارية العثماني باسم جمعية الاتحاد والترقي، على غرار ما فعله نسيب حمزة. وشغل عوني القضماني، وهو أحد الأنصار الصريحين لجمعية الاتحاد والترقي أيضًا، مقعده في المجلس النيابي العثماني بعد فوزه في الانتخابات التي جرت في نيسان/ أبريل من عام 1914 ولم تشهد منافسة قوية. واضطلع آخرون بدور في المحاولة التي لم تدم طويلًا الرامية إلى تأسيس حكومة محلية قبل دخول القوات العربية إلى دمشق في تشرين الأول/ أكتوبر من عام 1918: فإضافةً إلى الدور الآنف الذكر الذي اضطلع به عبد القادر الخطيب في حكومة سعيد الجزائري التي قامت في مرحلة ما بعد خروج العثمانيين، تولى كل من آل المهايني وسكر تجنيد وحدات متطوعة من «الحرس المدني» في الميدان بغية الحفاظ على النظام بالنيابة عن حكومة الجزائري. ومن المثير للاهتمام أنه خلافًا لما رآه أولئك الذين وجدوا أن جذور «القومية العربية» تكمن حصرًا في

= سعيد، **الثورة العربية الكبرى**، ج 2، ص 101-103؛ الحفار، «الحكومات التي تعاقبت»، 1 (3 شوال 1372هـ)، ص 19، (تشرين الثاني/ نوفمبر 1372هـ)، ص 10؛ الحافظ وأباظة، **تاريخ علماء دمشق**، ص 460-464؛ خالد العظم، **مذكرات خالد العظم** (بيروت، 1973)، ج 1، ص 94-95؛ الحكيم، **ذكريات**، ج 3، ص 19؛ Linda Schatkowski Schilcher, *Families in Politics: Damascene Factions and Estates of the 18th and 19th Century* (Stuttgart, 1985), p. 214.

الحركة السلفية، كان عبد القادر الخطيب معارضًا معروفًا للنزعة السلفية وشجب ذات يوم رشيد رضا بوصفه أحد دعاة «الوهابية»[51].

ليس من المستغرب أنه كان حريًا ببعض أعضاء اللجنة الادارية في الأقل تأييد المحاولة الساعية إلى إقامة حكومة محلية في دمشق. وعلى النقيض من القيادة المتنوعة جغرافيًا للفتاة والنادي العربي في دمشق، كان كل أعضاء اللجنة الإدارية من الدمشقيين. وكان إحساسهم بالريبة والاستياء من الغرباء – سواء كان هؤلاء الغرباء عراقيين أو فلسطينيين أو حجازيين التحقوا بالإدارة العربية أم دول الوفاق التي بدت مصممة على تقسيم سورية – يتجلى في أن ثلاثة أعضاء (القصاب، وخالد الحكيم، وسامي مردم بك) كانوا ينتمون إلى الاتحاد السوري الذي لم يتخلَّ قط، انطلاقًا من قاعدته في مصر، عن انعدام ثقته بالأمير فيصل والثورة العربية، وخمسة أعضاء (حمزة، والخطيب، والقضماني، وفردان من أسرة مردم بك) كانوا ينتمون في الوقت ذاته إلى اللجنة الوطنية العليا والحزب الوطني السوري ذي النزعة الأصلانية. ووفقًا لبعض التقارير، ونتيجة للشعور العام بالاستياء من أشراف مكة لدى قادة كل من اللجنة الوطنية العليا والحزب الوطني السوري، اتحد الفريقان في بداية صيف عام 1920 ليشكلا الحزب الديمقراطي[52]. وطرح الحزب، الذي سمي باسم الكتلة <النيابية> المرتبطة باللجنة <الوطنية العليا> في المؤتمر السوري العام، برنامجًا كان على النقيض من البرنامج الاجتماعي التقليدي والنظرة العضوية للمجتمع السوري تجاه الهيمنة السياسية والعقائدية الأجنبية التي رأى أنها تقترن بحكم أشراف مكة.

ثمة فارق آخر يميز أعضاء اللجنة الإدارية التابعة للجنة الوطنية العليا عن أغلبية العروبيين في فترة ما قبل الحرب ممن يصفون أنفسهم بالمتنورين والمتحالفين مع الحكومة العربية: عنينا السن. فعلى الرغم من أننا نستطيع تحديد

---

(51) يُنظر: David Dean Commins, «Religious Reformers and Arabists in Damascus, 1885-1914,» *International Journal of Middle East Studies*, vol. 18 (1986), p. 414.

(52) يرجع تاريخ تأسيس الحزب إلى وقت مبكر من نيسان/ أبريل ووقت متأخر من منتصف تموز/ يوليو 1920؛ MD 4H114/5/700, Cousse to Gouraud, 16 July 1920; FO 371/5188/E4829/36, «Arabic Press Abstracts for Week Ending May 3,» 28 April 1920.

تاريخ مولد خمسة وحسب من قادة اللجنة الإدارية على نحو مؤكد - عيد الحلبي (1863)، وعبد القادر الخطيب (1874)، وجميل مردم بك (1869)[53]، وكامل القصاب (1873)، وشكري الطباع (1865) - وهؤلاء الأفراد هم أبناء جيل سياسي سابق لأولئك القوميين الذين ينتمون إلى إحدى الفئتين السالفتَي الذكر. وفي حين أن متوسط عام الولادة لأعضاء اللجنة الإدارية الخمسة هو 1869، إلا أن الإحصاءات التي جمعها سي. إرنست دون تشير إلى أن متوسط أعوام الولادة في المجال الكلي لـ «قوميي ما قبل عام 1914» و«قوميي 1919-1920» هو 1886,5 و1883 على التوالي[54]. وعلى نحو ما سيتبين في القسم الثاني، فقد جعل أولئك الذين يعدون أنفسهم متنورين قضية روابط الصداقة والمودة القائمة بين أبناء الجيل الواحد مثار خلاف عبر إبراز وتجسيد أوجه التباين التجريبية بين خطاب الجيلين السياسيين، ولا سيما بوساطة مجاورتهم المعتادة لـ «الشباب» مع «الشيخوخة» و«التقدم» مع «الجمود».

كانت البيئة المميزة والخبرة الواسعة لأعضاء اللجنة الإدارية، في جزء منها، بمثابة نعمة على اللجنة الوطنية العليا، نظرًا إلى أنها غالبًا ما كانت تكفل نجاح المشروعات التي تبادر بها اللجنة. وقد استفاد كل من أحمد دياب وشكري الطباع من الروابط التجارية التي غذياها على مر الأعوام لكي يتاجرا بالأسلحة لمصلحة اللجنة؛ كما استخدم أحمد دياب وابن عمه ياسين دياب معارفهما من أجل تزويد العاصمة بالمواد الغذائية المستوردة[55]. ونظم شكري الطباع وحدة قوامها خمسون رجلًا من أتباعه في حي القنوات لخوض «الجهاد» ضد الفرنسيين. وتولى عبد القادر سكر، الذي يمتلك أفرانًا في الميدان وأفيد بأنه كان يوزع الخبز على الفقراء في حيه، تعبئة جماعة من الأتباع الذين استقطبهم عشية معركة

(53) المقصود هنا سامي باشا مردم بك، عضو اللجنة الوطنية العليا. وهو سهو من المؤلف. يُنظر ترجمته في ملحق التراجم. (المترجم)

(54) يُنظر: C. Ernest Dawn, *From Ottomanism to Arabism: Essays on the Origins of Arab Nationalism* (Urbana, 1973), p. 176.

(55) المكتبة السلفية، القاهرة: ملف اللجنة الوطنية، أحمد دياب إلى اللجنة الوطنية العليا، 19 كانون الأول/ ديسمبر 1919.

ميسلون. وحافظ عيد الحلبي، وهو تاجر وعالم ديني، على صلته بكلا العالمين: فبوصفه تاجرًا يتعاطى تجارة الأقمشة في سوق الحميدية، وهي السوق الرئيسة في دمشق، عمل لدى اللجنة الوطنية العليا بوصفه «مفوضًا تجاريًا»، يضطلع بدور الوسيط بين اللجنة والتجار الآخرين لضمان دعمهم المالي والتزامهم بتدابير تثبيت الأسعار التي بدأتها اللجنة. علاوة على ذلك، فبوصفه ممثلًا لأسرة بارزة من العلماء في حي القيمرية بقي على اتصال دائم بسواه من العلماء الذين شاركوا في العمل السياسي، مثل تاج الدين الحسني وعبد القادر الخطيب.

مع ذلك، يبدو أن قدرة اللجنة الإدارية على ممارسة السيطرة على الأنشطة اليومية للفروع المحلية للجنة الوطنية العليا كانت ضئيلة للغاية. ويظهر من التقارير والتحليلات الإخبارية وسجلات المنظمة أن اللجنة الإدارية كانت بمثابة واجهة مزخرفة أكثر من كونها هيئة تنفيذية حقيقية. وعلاوة على ذلك، فإن سلطة اللجنة الإدارية لم تخل من التحديات. فقد تساءل أعضاء في اللجان الفرعية عن أنشطة قادة المنظمة بل وما يتمتعون به من استقامة. وكان عبد القادر الخطيب، الذي وصفه البريطانيون ذات يوم بأنه «انتهازي ودجال متعصب»، هدفًا لقدح مماثل في منشورات وزعتها منظمة تابعة للجنة الوطنية العليا، بل وصل الأمر إلى حد أن وبخ أعضاء اللجان الفرعية المحلية كامل القصاب علنًا بشأن الزعم باختلاسه أموال التبرعات – وتلكم هي ادعاءات ربما أتت بها الحكومة العربية أو أطلقها الفرنسيون[56].

على الرغم من الموارد المتاحة لمختلف أعضاء اللجنة الإدارية، وعلى الرغم من وجود الادعاءات المتعلقة بالفساد، يبدو أن السلطة داخل المنظمة بعد

(56) FO 882/24/128-134, «Who's Who in Damascus,» 14 May 1919; MD 4H114/4, Leaflet signed «The Eye That Watches,» 6 July 1920; MD 4H114/4/241, Cousse to Gouraud, 14 June 1920; FO 371/5038/E9625, Lt. Col. Easton, «Haut Comité National, Damascus,» 23 June 1920;

الكنانة، 26 حزيران/ يونيو 1920، ص 2؛ MD 4H114/4/613, Cousse to Gouraud, 28 June 1920; AD 2372/no no., «Note du colonel Cousse du 1er Juillet 1920: Damas»;

أيًا كانت صحتها في هذه الحالة، كانت مزاعم الفساد تُستخدم عادةً إبان هذه الفترة لتشويه سمعة الخصوم السياسيين. وحاول الأمير فيصل ذاته، على سبيل المثال، استخدامها ضد ياسين الهاشمي الذي يحظى بالشعبية. يُنظر: FO 371/5032/EA2989, GHQ (Egypt) to WO, 4 February 1920.

إعادة تنظيمها قد ظلت بين يدي كامل القصاب الذي كان يعمل عبر عدد محدود من أقرب معاونيه، مثل عيد الحلبي. وكانت معظم المراسلات التي ترد إلى اللجنة الوطنية العليا من الأعضاء، والمتعاطفين معها، والمنظمات الفرعية، بل والحكومة العربية موجهة إما إلى «رئاسة اللجنة الوطنية» أو إلى القصاب شخصيًا. وليس ثمة فرد آخر داخل اللجنة حظي بسلطة مماثلة أو حاز ولاءً مشابهًا: فحتى بعد أن اتهمه عوني القضماني علنًا بالفساد في حزيران/ يونيو من عام 1920 – وتلكم هي تهمة أرغمت القصاب على تقديم استقالته من رئاسة اللجنة الوطنية العليا – سرعان ما عاد الشيخ ذو الشخصية الكاريزمية إلى الظهور بوصفه زعيمًا، إذ حاز عددًا من الأصوات يفوق أي مرشح آخر في انتخابات اللجنة الإدارية[57]. وأما الولاء الفريد من نوعه الذي انتزعه القصاب من التجار المنتمين للبرجوازية الصغيرة والعلماء في دمشق الذين كانوا يشكلون معظم القيادة الثانوية للمنظمة فيتجلى في قصة تروى عن الشيخ كامل القصاب. ففي عشية الاجتياح الفرنسي،

> قام العلماء والخطباء على المنابر يحرضون الناس على الجهاد ضد الفرنسيين، وكان [كمال الخطيب] من أشد الخطباء والعلماء حماسة، ومن أجرئهم خطابة. وفي يوم من الأيام بينما كان يخطب، إذ سأله سائل: «وماذا أعددت أنت للجهاد؟ هل ستجاهد بالسلاح أم تكتفي بالخطابة؟» فأثر فيه هذا الكلام، واشترى... بندقية عثمانية ومعها عشرة أمشاط من الذخيرة... وعلق البندقية والذخيرة في صدر دكانه واستعد للقتال. وفي أثناء ذلك مر به الشيخ الوطني الثائر كامل القصاب؛ وهو راكب على عربة يدور بها في الطرقات والأسواق يحرض الناس على قتال الفرنسيين... فلما رأى <الخطيب> توقف عنده وقال له: «أين أنت يا شيخ كمال؟» فبين له أنه على استعداد، وأن بندقيته جاهزة[58].

---

(57) في انتخابات اللجنة الإدارية التي أجريت في 24 حزيران/ يونيو من العام 1920، حصل القصاب على أكبر عدد من الأصوات (47)، تلاه عوني القضماني وشكري الطباع (46 لكل منهما)، وخالد الحكيم (45)، وعبد القادر سكر (43)، وعبد الله الكزبري (39)؛ ومحمد التاجي (38)، وعيد الحلبي (35)، وأحمد دياب (33)، وسامي مردم بك (30)، وأسعد الحكيم (29). **الكنانة**، 26 حزيران/ يونيو 1920، ص 2؛ MD 4H114/4/493, Cousse to Gouraud, 4 June 1920

(58) الحافظ وأباظة، **تاريخ علماء دمشق**، ص 381–382؛ يُنظر أيضًا: نصوح بابيل، **صحافة وسياسة: سورية في القرن العشرين** (لندن، 1987)، ص 18.

وقد لقي كمال الخطيب حتفه بعد هذه الأحداث بمدة وجيزة في معركة ميسلون.

سيكون من قبيل التبسيط، بطبيعة الحال، أن نعزو القبول والاستحسان الشعبي الذي حظيت به اللجنة الوطنية العليا وفروعها إلى الخصال الشخصية لكامل القصاب فحسب. فقد تمتعت اللجان، من ناحية، بالدعم الشعبي نظرًا إلى دمجها مجموعة متنوعة من الشبكات غير الرسمية القائمة مسبقًا، التي تربط الأفراد معًا داخل أحيائهم وقراهم، في هيكل رسمي متوائم مع الممارسات اليومية. فعلى سبيل المثال، ثمة عدد كبير من الرجال الذين ينتمون إلى الأسر الممتدة ذاتها كانوا نشطين في اللجان الشعبية؛ ففي دمشق وحدها، هناك في الأقل أربعة أعضاء من أسرة الحكيم (أسعد، وهاشم، وحسن، وخالد)، وخمسة أعضاء من أسرة الحلبي (عبد الله، وهاشم، وعيد، وكامل، ونزيه)، وتسعة أعضاء من أسرة الخطيب (عبد القادر، وعبد الرحمن، وعبد الرزاق، وحسن، وخالد، ومحمد رضا، ومحب الدين، وصلاح الدين، وزكي) وخمسة أعضاء من أسرة القضماني (أحمد، وعوني، ومحمود، ورضا، وصبحي) شغلوا مناصب رئيسة أو ثانوية في قيادة اللجنة الوطنية العليا. علاوة على ذلك، ثمة أكثر من فرد واحد من أسر عاقل، ودياب، وخير، واللحام، ومردم بك، والموصلي، والمهايني، والمحايري، والقباني، والسمان، وشيخ الأرض، والسباعي أدرجت أسماؤهم في وثائق اللجنة بوصفهم من قيادات الصف الثاني. وقد وفرت الشبكات الأسرية رابطة جامعة بالغة الأهمية، وإن كانت غير رسمية، بين قيادات الصفين الأول والثاني للجمعية. ويصف محب الدين الخطيب، في إحدى نسخ سيرته الذاتية، كيف يسرت الروابط الأسرية هذه التعبئة التي كانت توجهها اللجنة في أثناء الأيام التي سبقت الاحتلال الفرنسي لدمشق:

> كان الحي الذي يقيم فيه كاتب هذه المذكرات هو القيمرية، المتاخم لأحياء المسيحيين. ونظرًا لخشيته من نشوب صراع طائفي أثناء فترة الفوضى [تموز/يوليو من العام 1920]، جمع عددًا كبيرًا من أقربائه الذين ينتمون إلى أسرة الخطيب، وخاصة العلماء منهم، وسلحهم بالبنادق... وكان الكثير من المشايخ في أسرة الخطيب من بين أعضاء اللجنة الوطنية العليا... وقد رابط هؤلاء في

نقاط متنوعة في الشوارع والأحياء المسيحية المجاورة، لحفظ السلام وإدخال الرعب في نفس أي شخص بدا وكأنه يسعى لإثارة المتاعب[59].

لقد تداخلت صلة القرابة مع الروابط الأخرى التي توحد سكان الأحياء بعضهم مع بعض ومع اللجان وعززتها. ولعل الدور الذي اضطلع به من يطلق عليهم تسمية «التجار - العلماء» في تنظيم صفوف اللجان يوفر لنا ربما المثال الأبرز على كيفية إفادة اللجنة الوطنية العليا وفروعها من التفاعل ما بين الروابط الأسرية والمهنية والسوقية. وكان التجار - العلماء بصورة رئيسة من تجار التجزئة الذين يتاجرون بسلع مثل المنسوجات. وعلى الرغم من أنهم كانوا من المستفيدين من التعليم الديني، إلا أنهم غالبًا ما كانوا يفتقرون إلى الروابط الأسرية المناسبة التي من شأنها أن تضمن لهم إشغال وظائف منتظمة بوصفهم خطباء، أو أئمة، أو مفتين. ولذلك، مروا بفترات من حياتهم كانوا منكبين فيها إما على طلب العلم، أو على إشغال الوظائف الدينية، أو على التدريس، وتخللت ذلك فترات كانوا يزاولون فيها التجارة، أو قسموا أيامهم ما بين السوق والمسجد[60]. ولما كان التجار - العلماء يتحدرون من بيئات برجوازية صغيرة، أو أسر بارزة واجهت أحوالًا عصيبة، أو الفروع الأكثر فقرًا في الأسر البارزة، فإنهم ظلوا يقيمون في الأحياء المكتظة بالناس في دمشق في وقت كان فيه أصحاب المكانة الاجتماعية الأعلى بين ظهراني ملاك الأراضي - البيروقراطيين يغادرون تلك الأحياء بصورة متزايدة. وبناء على ذلك واصلوا بناء رؤيتهم للعالم وفقًا لمحيط حيهم، وسوقهم المحلية، وثقافتهم التقليدية[61].

تطالعنا أسرة الخطيب بأحد الأمثلة الأنموذجية. ولئن اضطلعت هذه الأسرة

(59) مخطوطة سيرة ذاتية غير منشورة وُجِدت في مركز الوثائق التاريخية (دمشق) والمكتبة السلفية، ص 47-48.

(60) مقابلة مع الشيخ أحمد القاسمي، 6 تشرين الثاني/ نوفمبر 1989؛ مقابلة مع إحسان حقي، 10 تشرين الثاني/ نوفمبر 1989؛ مقابلة مع الشيوخ الطباع ودقر وعرفة 2 كانون الثاني/ يناير 1990؛ مقابلة مع الشيخ ياسين عرفة، 4 كانون الثاني/ يناير 1990؛ الحافظ وأباظة، **تاريخ علماء دمشق**، ص 535.

(61) Philip S. Khoury, *Syria and the French Mandate: The Politics of Arab Nationalism, 1920-1945* (Princeton, 1987), pp. 296-297.

بدور بارز في شؤون دمشق منذ مطلع القرن التاسع عشر، إلا أن الناشطين في اللجان من أفرادها كانوا ينحدرون من أحد فروع شجرة العائلة الذي من الصعوبة بمكان اعتباره يتربع على قمة المجتمع. ولم يستمد أفراد آل الخطيب، الذين تولوا قيادة الصف الثاني في اللجنة الوطنية العليا وانتزعوا احترام جيرانهم، مكانتهم عبر تعزيز روابط التبعية الشخصية. وعوضًا عن ذلك، كان منبع قوتهم أكثر واقعيةً: إذ كانوا معروفين لدى دائرة واسعة النطاق من الدمشقيين الذين كانوا على اتصال يومي بهم ويحظون باحترامهم، مما مرده إلى أن خمسة في الأقل من أفراد أسرة الخطيب كانوا من العلماء الذين درجوا في الوقت ذاته على العمل في مجال التجارة الصغيرة في سوقي البزورية والقلبقجية[62].

لعل وجود شبكات متداخلة ومترابطة في كثير من الأحيان تضم التجار، والتجار - العلماء، والعلماء يمثل السبب الأكثر أهمية وراء تحول الأسواق والمساجد في جميع أنحاء دمشق إلى معاقل للتنظيم السياسي إبان العهد الفيصلي. فقد خالط آل الخطيب في سوق القلبقجية سواهم من التجار - العلماء مثل نجيب كيوان وطه كيوان. ومثلما حصل في حالة آل الخطيب، كانت السياسة القومية تعد شأنًا أسريًا بالنسبة إلى آل كيوان: إذ نظم ياسين كيوان، بالتعاون مع الشيخ حمدي الجويجاتي، وحدات من الميليشيات حاربت في ميسلون، ولقي مصرعه هو وعبد القادر كيوان، الذي سبق له أن عمل إمامًا في الجامع الأموي. وعلى نحو مماثل، عمل الناشط السياسي الشيخ محمود أبو الشامات وأبناؤه العشرة مع التجار - العلماء من عائلة الطباع في سوق مدحت باشا[63].

التحق علماء آخرون ينتمون إلى الوسط الاجتماعي ذاته بالميليشيات الشعبية و/ أو استغلوا مواقعهم من أجل تعبئة المحيطين بهم. وحارب كل من

(62) مقابلة مع الشيخ ياسين عرفة، 4 كانون الثاني/ يناير 1990؛ Schilcher, *Families in Politics*, pp. 191-193;

الحافظ وأباظة، **تاريخ علماء دمشق**، ص 535.

(63) مقابلة مع الشيخ أحمد القاسمي، 6 تشرين الثاني/ نوفمبر 1989. مقابلة مع الشيوخ الطباع، ودقر، وعرفة، 2 كانون الثاني/ يناير 1990؛ مقابلة مع الشيخ ياسين عرفة، 4 كانون الثاني/ يناير 1990؛ الحافظ وأباظة، **تاريخ علماء دمشق**، ص 384، 386، 535.

الشيخ سعيد البرهاني <خطيب وإمام> جامع التوبة، ومحمد الفحل <خطيب> المدرسة القلبقجية، ومحمد الأشمر، وهو أحد زعماء «القبضايات» وبرفقته عدد يتراوح بين أربعين وخمسين رجلًا يأتمرون بأمره[64] في ميسلون، شأنهم في ذلك شأن عبد الحميد كريم، وهو رجل شرطة تحول إلى عالم ديني وأحد أقرباء كامل القصاب. وحينما أرغم الفرنسيون القصاب على العيش في المنفى بعد المعركة تلك، تولى كريم <التدريس> في المدرسة الكاملية. ولقي توفيق الدرة، وهو تاجر ومفت سابق في الجيش العثماني الخامس كان يحث على الجهاد عشية الاجتياح الفرنسي، مصرعه في المعركة تلك. وكان علي الدقر <إمام وخطيب ومدرس> مسجدي السادات وسنان باشا أوفر حظًا: إذ إنه بعدما نجا من معركة ميسلون تجول في الريف السوري برفقة عمدة علماء دمشق، الشيخ بدر الدين الحسني، حيث راح يدعو إلى مقاومة الحكم الفرنسي[65]. وكان هؤلاء العلماء يمتلكون سلطة معنوية ألهمت جيرانهم وزملاءهم، وجعلت الصلة التي تربطهم باللجان الشعبية مفيدة على وجه الخصوص. وبناء على ذلك، قاد محمد الشريف اليعقوبي، الذي أسس مدارس دينية للمهاجرين القادمين من شمال أفريقيا وأولاد التجار، وحدة من طلبته في ميسلون، وحينما عقد فرع «منظمة علماء الدين» الدمشقية عشية الاجتياح الفرنسي لسورية الداخلية اجتماعًا في قرية دوما المجاورة حث فيه على الجهاد ضد العدو الزاحف، تجمع خمسمئة متطوع في دمشق استجابة لذلك وفقًا لما أفادت به التقارير[66].

(64) وفقًا للشيخ أحمد القاسمي، فإن مؤهّلات الأشمر بوصفه عالم دين لم تبق من دون اعتراض. مقابلة، 6 تشرين الثاني/ نوفمبر 1989.

(65) مقابلة مع الشيخ أحمد القاسمي، 6 تشرين الثاني/ نوفمبر 1989؛ مقابلة مع إحسان حقي، 10 تشرين الثاني/ نوفمبر 1989؛ مقابلة مع أبو رباح الجزائري، 15 تشرين الثاني/ نوفمبر 1989؛ مقابلة مع الشيوخ الطباع، ودقر، وعرفة، 2 كانون الثاني/ يناير 1990؛ مقابلة مع الشيخ ياسين عرفة، 4 كانون الثاني/ يناير 1990؛ مقابلة مع محمد رضا الخطيب، 6 كانون الثاني/ يناير 1990؛ محيي الدين السفرجلاني، **فاجعة ميسلون والبطل العظيم يوسف العظمة** (دمشق، 1937)، ص 340؛ الحافظ وأباظة، **تاريخ علماء دمشق**، ص 409، 420، 535، 540-542، 579-585، 588، 794-802، 878-891، 917، 963؛ آل جندي، **تاريخ الثورات السورية**، ص 170.

(66) الحافظ وأباظة، **تاريخ علماء دمشق**، ص 579-585؛ آل جندي، **تاريخ الثورات السورية**، ص 160.

تشاطرت مجموعة كبيرة من التجار الأكثر ثراء، ومن بينهم آل المهايني وسكر ممن تعتمد سبل كسب عيشهم على الإتجار بالحبوب، السمات الرئيسة مع التجار – العلماء والعلماء؛ ونتيجة لذلك، كانت مشاركتهم في أنشطة اللجنة الوطنية العليا إلى حد ما أمرًا حتميًا ولا يقدر بثمن. وكما نوه فيليب خوري، تتمثل إحدى السمات المميزة التي وحدت «البرجوازية التجارية الإسلامية» الدمشقية الثرية مع التجار الذين هم دونهم مرتبة في السلم الاجتماعي في تجربة التعليم «التقليدي» المستند إلى الأحياء. وذلكم هو ما ميزهم بطبيعة الحال عن أولئك الذين كانوا في الحركة القومية وتلقوا تأهيلًا متقدمًا في المدارس المهنية الغربية أو العثمانية[67]. ولأنهم لم يتشاطروا، بالتالي، التحيزات الشائعة فحسب وإنما أجبروا، بحكم مكانتهم الاجتماعية، على إيجاد توازن بين متطلبات السوق ومطالب جمهورهم المحلي، فإنهم ظلوا يستجيبون للحوافز الشعبية – على نحو ما تجلى في استجابتهم للنداءات الموجهة من أجل الدفاع. علاوة على ذلك، فقد كانوا، بفضل الروابط الأسرية والمهنية على حد سواء والالتزامات التي تستند إلى الوضع الاجتماعي، متصلين بسلسلة مترابطة من العلاقات الاجتماعية شملت إخوتهم الأكثر فقرًا – التي شكلت تلك الشبكات التي يسرت التعبئة الشعبية.

ثمة أسباب أخرى أيضًا تكمن وراء نظرة اللجنة الوطنية العليا إلى الطبقات التجارية على أنها جمهور طبيعي. وعلى النحو المبيَّن في المدخل، فقد توافرت لدى جميع الفئات من التجار، بدءًا بالتاجر – العالم البرجوازي الصغير الذي شارك في تجارة التجزئة ووصولًا إلى الذين يعملون في مشروعات تجارية بعيدة المدى أو واسعة النطاق، دواعٍ كثيرة تسوغ لهم ذلك الشعور بالاستياء تجاه نظام أشراف مكة الحاكم وتوقع حدوث الأسوأ من جانب دول الوفاق. ولم تكن مشاعر العداء لديهم غير متبادلة: إذ ألقت الحكومة العربية باللائمة على التجار بشأن المأزق المالي الذي كانت تعاني منه المنطقة الشرقية وحاولت أن تتعامل معهم عبر مصادرة سلعهم، وتقييد التجارة بالسلع الكمالية، وإصدار قوانين تجارية صارمة ترمي إلى منع التخزين، ووضع حد للاحتكارات، وخفض الأسعار. وقد اختلف

(67) Khoury, *Syria and the French Mandate*, p. 209.

الموقف الذي اتخذته اللجنة الوطنية العليا إزاء الطبقات التجارية اختلافًا شديدًا. ونظرًا إلى أن الأمر يعود جزئيًا إلى ضم اللجنة الوطنية العليا التجار إلى قيادتها، ويعزى في بعضه الآخر إلى أن التنفيذ الناجح لسياسات اللجنة كان يتطلب تعاون التجار والحصول على تبرعاتهم المالية، فقد التمست اللجنة بصورة نشطة الدعم من التجار عبر إقامة شعبة تجارية اختصت بالتعامل معهم، وإصدار التراخيص للشركات الاحتكارية التي أنشأها التجار المنتسبون إليها، وتنظيم حملة سياسية مناهضة للسياسات النقدية والتجارية الفرنسية ذات القدرة التدميرية الكامنة[68].

لم تربط الأواصر الجمعياتية والعائلية التجار والتجار - العلماء والعلماء فحسب، وإنما ربطت أيضًا الجماعات تلك بـ «القبضايات» الذين كانت اللجنة الوطنية العليا تعتمد عليهم لتعبئة سكان المناطق الحضرية. وقد استمد «القبضايات»، الذين عادة ما كانوا يجندون من أسر تنتمي إلى الطبقة الدنيا والوسطى الدنيا، المكانة التي كانوا يتمتعون بها في مجتمعاتهم المحلية من مصدرين: أحدهما الخدمات التي يقدمونها، والآخر أسطورة تُعظّم الذات ونظرًا إلى أن الحكومة في دمشق نادرًا ما وفرت في مستهل القرن العشرين حماية أمنية فعالة، فقد كان عدد من «القبضايات» يتراوح بين عشرين إلى أربعين رجلًا في كل حي يذرعون الشوارع ليلًا ويتولون حراسة متاجر هؤلاء التجار الذين دفعوا مبلغًا أسطوريًا قدره «ألف ليرة». وقد عزز توفيرهم الحماية للمجتمع المحلي من المجرمين أو جماعات من مثيري المتاعب القادمين من أحياء أخرى من صورتهم بوصفهم المدافعين عن الضعفاء ضد أعمال النهب التي يمارسها الدخلاء والأقوياء، وكفل قيام صلة وثيقة مع المشتغلين بالتجارة[69].

---

(68) للاطلاع على أنشطة اللجنة الوطنية العليا الموجهة نحو التجار، يُنظر: المكتبة السلفية، القاهرة: ملف اللجنة الوطنية، رسالة، 20 تشرين الثاني/ نوفمبر 1919؛ MD 4H114/2/155, Cousse to Gouraud, 9 April 1920; MD 4H114/2/157, Cousse to Gouraud, 10 April 1920; AD 2347/12, «Extraits du bulletin quotidien du 12 Avril 1920»; MAE L:SL/vol. 64/823/6, 824/6, Gouraud to MAE, 14 April 1920.

(69) Michael Johnson, «Political Bosses and Their Gangs: Zu‘ama and Qabadayat in the Sunni Muslim Quarters of Beirut,» in: Ernest Gellner & John Waterbury (eds.), *Patrons and Clients in Mediterranean Societies* (London, 1977), pp. 207-224 (particularly 211);

العلاف، دمشق، ص 41؛ مقابلة مع أبو رياح الجزائري، 15 تشرين الثاني/ نوفمبر 1989.

إن ما ميز «القبضايات» عن «الزعران» (المجرمين العاديين) كان تلك الأسطورة التي ارتبطوا بها. وشأنهم شأن تنظيمات «الفتوة» الأخوية القديمة الذين جرت نمذجتهم على غرارها، كان «القبضايات» يقسمون على التمسك بنظام الفروسية الذي لا يقتصر على توفير الحماية المادية للضعفاء فحسب، بل ويشمل حماية الفقراء من جشع الأثرياء أيضًا. فعلى سبيل المثال، كانوا يحرصون على أن يكون سعر الحبوب والخبز «عادلًا»، ويتولون الإشراف على توزيع الرعاية الاجتماعية على المحتاجين في الحي. وهكذا، تداخلت أنشطة «القبضايات» مع أنشطة الجماعة الاخرى التي كانت على دراية بالسلوك القانوني والأخلاقي ومسؤولة عنه، ألا وهم العلماء المحليون. وكان «القبضايات» يستخدمون المساجد المحلية لعقد الاجتماعات، وإقامة الاحتفالات، كما كانوا، من الناحية النظرية في الأقل، مسؤولين عن الامتثال لأوامر العلماء. وبالتالي، كانت هناك صلة وظيفية وكذلك عائلية بين التاجر، والعالم، والقبضاي. وفي ما يتعلق باللجان الشعبية، كان تعاون «القبضايات» شرطًا أساسيًا لإغلاق حي أو سوق محلية من أجل التظاهرات، وتجنيد متطوعين للميليشيات، والحيلولة دون دخول الشرطة العسكرية وعملاء آخرين للحكومة إلى الأحياء، وجمع «التبرعات» التي كانوا بحاجة إليها من أجل مواصلة عملياتهم[70].

بينما كانت الصلة بين التاجر والقبضاي ربما تعود عليهما بالنفع، إلا أنها لم تخل من الاحتكاك بينهما. فعلى النقيض من ذلك، استمرت الصلة عبر ابتزاز المبالغ المدفوعة مقابل الحماية والتهديد باستخدام العنف بقدر ما استمرت بوساطة الروابط الاختيارية أو الأسرية. واستفادت اللجنة الوطنية العليا مما يتمتع به «القبضايات» من سمعة ويتوافرون عليه من مهارات عند توليها أنشطة جمع التبرعات. وعلى الرغم من أن مواثيق اللجنة الوطنية العليا واللجان الفرعية نصت على ضرورة أن تكون التبرعات هي المصدر الرئيس لإيرادات المنظمة، ولئن

(70) مقابلة مع فخري نوري الكيلاني، 8 تشرين الثاني/نوفمبر 1989؛ مقابلة مع أبو رباح الجزائري، 15 تشرين الثاني/نوفمبر 1989؛ مقابلة مع الشيوخ الطباع، ودقر، وعرفة، 2 كانون الثاني/يناير 1990؛ مقابلة مع الشيخ ياسين عرفة، 4 كانون الثاني/يناير 1990؛ العلاف، دمشق، ص 244-245؛ Khoury, *Syria and the French Mandate*, pp. 302-303, 316-317.

جرى تجهيز حجرات في المساجد لكي يجمع ممثلو اللجان «رسم الاشتراك»، إلا أنه سرعان ما تجاوزت النفقات الإيرادات[71]. ونتيجة لذلك، أذنت اللجنة لوكلاء محليين جباية ضريبة جرى تقديرها بمعدل 2 في المئة من ثروة الفرد. وقد تبين أن جمع الضريبة المقدرة أمر دونه صعوبات، بيد أن اللجنة فرضت الضريبة على نحو غير متكافئ، وتولت جبايتها، وفقًا لما أورده تقرير بريطاني، «بوساطة التهديد والابتزاز إلى حد كبير... من التجار الأثرياء والملاك في الحي»[72].

اعتمدت اللجنة الوطنية العليا في دمشق وفروعها خارج العاصمة على حد سواء على مجموعة من استراتيجيات جمع التبرعات الإضافية أيضًا. وذكر المراقبون الأجانب إشاعات عن المضاربة في الحبوب وتجارة السلاح، فضلًا عن التمويل المقدم من جانب الكماليين الذين كانوا يأملون بأن يستخدم السوريون إعاناتهم من أجل فتح جبهة ثانية مناوئة للفرنسيين[73]. ويبدو أن اللجنة الوطنية العليا أتاحت، بصفة عامة، لفروعها قدرًا كبيرًا من الحرية في تجربة مجموعة متنوعة من الأساليب المتبعة في جمع التبرعات. فحدد فرع اللجنة الذي أنشئ في عجلون، على سبيل المثال، استيفاء «التبرعات» بمعدل 50 في المئة من

(71) المكتبة السلفية، القاهرة: ملف اللجنة الوطنية، «نظام اللجان الوطنية الفرعية في بلاد سورية»، 17 تشرين الثاني/ نوفمبر 1919؛ المكتبة السلفية، القاهرة: ملف اللجنة الوطنية، «نظام اللجنة الوطنية في العاصمة السورية»، 17 تشرين الثاني/ نوفمبر 1919؛ مقابلة مع «عدنان الخطيب»، 8 تشرين الثاني/ نوفمبر 1989. وفقًا للوثيقة الأولى، فإن ما نسبته 10 في المئة من عائدات اللجان الفرعية ستكون من نصيب اللجنة الوطنية العليا، التي بدورها ستعيد توزيعها حسب الضرورة. وفي ظل ظروف استثنائية، فإن جميع العائدات المحصلة محليًا ستؤول إلى اللجنة الوطنية العليا.

(72) أضاف التقرير أن «العناصر الأكثر ثراء في دمشق شكلوا حزبًا من الشبان لوضع حد للابتزاز الذي كانت تمارسه اللجنة، وحققوا قدرًا معقولًا من النجاح». FO 371/5038/E9625, «Haut Comité National, Damascus,» 23 June 1920;

سعيد، **الثورة العربية الكبرى**، ج 2، ص 101-103.

(73) يُنظر: MAE L:SL/vol. 121, «Rapport de renseignements hebdomadaire 7,» 10-17 November 1919; MD 4H114/4/483, Cousse to Gouraud, 3 June 1919; MD 4H114/4/493, Cousse to Gouraud, 4 June 1919; AD 2211/693-94/6, Gouraud to Diplomatie Paris, 3 March 1920; AD 2345, Leaflet, «Le Cri du Droit,» 5 March 1920; AD 2345/C1A5/221, Cousse to HC, 15 March 1920.

ووفقًا للمصادر الفرنسية، فإن توفيق الشركس (المصري)، وهو أحد عملاء مصطفى كمال في سورية، التمس الحصول على مساهمات من أجل اللجنة الوطنية العليا والحزب الديمقراطي، مشيرًا إلى ضرورة قيام تحالف عربي تركي إسلامي لمناهضة «المستعمر».

ضريبة «الويركو» التي تجري جبايتها من القرى في تلك المنطقة. كما زعمت لجنة عجلون أنها جمعت مبلغًا قدره 10,000 قرش من موظفي (الحكومة؟)، وتلقت تبرعات بقيمة 350 مجيدي (عملات فضية تبلغ قيمة الواحدة منها 20 قرشًا)، و10,000 قرش جرى جمعها على يد الجمعية النسائية المحلية ومن الأعيان المحليين، على التوالي. وبعدما جمعت مبلغًا يعادل 600,000 قرش بغية تجهيز إحدى الميليشيات وإطعامها، شرعت لجنة عجلون في تجنيد المتطوعين وتسجيل جميع الرجال الذين تتراوح أعمارهم بين العشرين والأربعين عامًا. وكتب قائمقام (حاكم) قضاء <عجلون> إلى محرري جريدة **العاصمة** قائلًا على نحو لا يخلو من غلو مفرط: «الدفع متواصل، وإن عموم الأهلين يتحمسون بالحماسة الوطنية بدرجة فوق الأمل. وقد أعلنوا بلسان العموم أنهم حين الإيجاب يقدمون أنفسهم وأموالهم عمومًا»[74].

كما طالبت اللجنة الوطنية العليا بالحصول على مكافأة من الحكومة العربية بذريعة أن اللجنة قدمت خدمات عامة مثل الدفاع والإغاثة التي كان ينبغي على الحكومة العربية أن توفرها، ولكنها لم تفعل. وسرعان ما طالب القصاب الحكومة، عقب إعادة تنظيم اللجنة، بتسليم كامل العائدات المتأتية من البدل «للمساعدة في التجنيد وزيادة مستوى رفاه أولئك الجنود الموجودين في الخدمة بالفعل». وحينما رفض فيصل، طالب القصاب مجددًا من دون جدوى بـ 5 في المئة من الإيرادات التي تجنيها الحكومة العربية من ضريبة «الويركو»[75]. ولربما أحرز قدرًا أكبر من النجاح في التماساته اللاحقة: إذ أفاد ضابط الارتباط الفرنسي في دمشق عشية الاجتياح الفرنسي بأن اللجنة كانت قد حصلت على ائتمانات بلغت قيمتها 20,000 جنيه مصري من وزارة الدفاع، خصص نصفها لتأسيس الميليشيات، ونصفها الآخر للإنفاق التقديري[76].

لم يكن زعم القصاب بأن اللجنة الوطنية العليا، وفروعها، ولجان الدفاع

(74) **العاصمة**، 18 كانون الأول/ ديسمبر 1919، ص 3-4.

(75) MD 4H114/2/132, Cousse to Gouraud, 19 February 1920.

(76) MD 4H114/4/241, Cousse to Gouraud, 14 June 1920.

الوطني كانت توفر الخدمات الأساسية للحكومة أو تقود السلطة التي تتمتع بها الحكومة مجرد تباه في صلف وادعاء: إذ لم يتطلع أعضاء الحكومة وكثير من السكان على حد سواء إلى اللجان باعتبارها تقدم الخدمات فحسب، وإنما لتوسطها بين الدولة والمواطنين أيضًا. وحينما أُغرقت حمص بسيل من اللاجئين من قرية مجاورة أحرقها الفرنسيون، أهابت وزارة الداخلية باللجنة الوطنية العليا أن توفر المأوى الموقت والغذاء لهم(77). وبناء على طلب سكان العاصمة، تدخلت اللجنة الوطنية العليا لدى المجلس البلدي للمطالبة بتوفير إمدادات كافية من الأرز بأسعار زهيدة، وبعدئذ، حصلت اللجنة على تصريح من الحكومة باستيراد الأرز والحبوب الأخرى (لقاء ربح) من مصر، معتمدة في ذلك على شبكات تضم تجارًا مقيمين في سورية وخارجها على حد سواء(78). وعلى نحو مماثل، أفادت صحيفة **الكنانة** في حزيران/ يونيو من عام 1920 بأن «الكثير من الناس [في دمشق] قصدوا [القصاب] وأخذوا يشتكون له من إدارة المدينة، فما كان منه إلا أن توجه إلى الحكومة وطالب بأن تنظر في مطالبهم»(79). وفي نهاية المطاف، اضطرت الحكومة العربية ذاتها إلى التسليم بنفوذ اللجنة الوطنية العليا: إذ عهدت الحكومة العربية إلى القصاب برئاسة لجنة مكونة من تسعة أعضاء نيط بها الإشراف على حملة العلاقات العامة التي اضطلعت بها الحكومة، من أجل ضمان الدعم الشعبي للقرض الوطني. وتمثلت إحدى نتائج الحملة في ظهور إعلان من صفحة كاملة على غرار الإعلان التالي المنشور في الصحف الصادرة في دمشق إبان صيف عام 1920:

هل تريد أن تكون لديك حكومة دفاع، واستقلال، وحرية، وأن تحظى باحترام

(77) المكتبة السلفية، القاهرة: ملف اللجنة الوطنية، مستشار وزارة الداخلية إلى القصاب، 18 نيسان/ أبريل 1920.

(78) جرى تقديم الطلب الرسمي الذي يدعو إلى تدخل اللجنة الوطنية العليا على يد ياسين دياب، شقيق أحمد دياب عضو كل من اللجنة الإدارية وغرفة تجارة دمشق، الذي تصرف بالنيابة عن الملتمسين. المكتبة السلفية، القاهرة: ملف اللجنة الوطنية، ياسين دياب إلى اللجنة الوطنية [العليا]، 19 كانون الأول/ ديسمبر 1919؛ MD 4H114/4/493, Cousse to HC, 4 June 1920;
يُنظر أيضًا: قاسمية، **الحكومة العربية في دمشق**، ص 231-232.

(79) **الكنانة**، 26 حزيران/ يونيو 1920، ص 2.

الأجانب؟ وهل تريد أن تكون سيدًا في بلدك، ومنزلك؟ شارك في القرض الوطني السوري - لأن الاستقلال يؤخذ بالقوة، ولا يعطى هدية[80].

لئن كان مبرر وجود اللجنة الوطنية العليا هو الدفاع، وتشكيل ميليشيا يبلغ قوامها ألف رجل للدفاع عن دمشق إلا أنه لم يمثل سوى جانب صغير من الجهود التي بذلتها اللجنة. وإلى جانب دعمها لأنشطة لجان الدفاع الوطني (التي سيجري تناولها في القسم التالي)، شجعت اللجنة الوطنية العليا على تنظيم جماعات حرب العصابات، وعبأت «الجتا» والعشائر من أجل القضية القومية، وقدمت يد العون إلى مجموعة متنوعة من التشكيلات العسكرية وشبه العسكرية من أجل الحملة المستمرة المناهضة للفرنسيين.

انتشرت جماعات حرب العصابات إبان العام الثاني للحكومة العربية، نتيجة لانهيار الأمن في المناطق الريفية والاقتصاد في المنطقة الشرقية. وأغرقت أنشطة السلب والنهب للجماعات البدوية و«الجتا» المغيرة معظم أنحاء الريف في فوضى عارمة، وولّدت ما يمكن تسميته بالاقتصاد الذاتي القائم على السلب: ونظرًا إلى الدمار الذي لحق بمنازلهم ومحاصيلهم والجمود الذي أصاب النشاط التجاري، فقد تفادى الفلاحون، واللاجئون، والفارون من الخدمة في الجيشين العثماني والعربي الموت جوعًا بالانضمام إلى الجماعات المسلحة، والمشاركة في نهب منازل جيرانهم ومحاصيلهم. ولم يكن لدى هؤلاء (الجيران)، بدورهم، سوى خيارات قليلة والتصرف بطريقة مماثلة وممارسة أعمال السلب والنهب في الريف، وبذلك واصلوا هذه الحلقة. وقد قدمت اللجنة الوطنية العليا إلى قادة مجموعات حرب العصابات المال والأسلحة لتجنيد أولئك الذين فروا من منازلهم، ولا سيما الذين التمسوا اللجوء إلى المدن السورية المكتظة بالسكان[81]. ووفقًا لمخبر

---

(80) **الكنانة**، 1 حزيران/ يونيو 1920، ص 4. يُنظر أيضًا: AD 2347/500, Cousse to HC, 5 June 1920.

(81) المكتبة السلفية، القاهرة: ملف اللجنة الوطنية، عمر شاكر إلى اللجنة الوطنية، 2 كانون الأول/ ديسمبر 1919؛ المكتبة السلفية، القاهرة: ملف اللجنة الوطنية، قائد الفرج الملي؟ بدمشق إلى رئاسة اللجنة الوطنية، 15 كانون الأول/ ديسمبر 1919؛ المكتبة السلفية، القاهرة: ملف اللجنة الوطنية، فوزي ونسيب البكري إلى اللجنة الوطنية، 19 كانون الأول/ ديسمبر 1919؛ المكتبة السلفية، القاهرة: ملف اللجنة الوطنية، رسالة إلى اللجنة الوطنية [د. ت.]؛ المكتبة السلفية، القاهرة: ملف اللجنة الوطنية، رئيس بلدية =

قابلته غيرترود بيل فقد كان «يأتي جميع الفلاحين إلى حلب قادمين من القرى الواقعة حول حلب، وأورفة، وعينتاب، وكليس، وبيره جك، ومرعش، ورأس العين، وجرابلس وغيرها ويسجلون أنفسهم بوصفهم من الـ 'جتا'، ويتلقون الأسلحة والذخيرة من دمشق... لقد كانت [أيام السفربرلك أحسن بكثير]»[82].

قررت مجموعة متنوعة من زعماء العشائر والطوائف والمناطق الريفية الانضمام أيضًا إلى اللجنة الوطنية العليا. وكان محمود الفاعور شيخ عشيرة الفضل من القنيطرة، المطلة على مرتفعات الجولان، يقود أنشطة قوة تجمع ما يقرب من ألفين من الفرسان والمشاة من رجال العشائر ومعهم أربعمئة متطوع من حي الميدان[83]. وأما أحمد مريود، وهو عضو في زمرة «الرافضين» في الفتاة ونائب في المؤتمر السوري العام، فقد استقال من مقعده النيابي وعاد إلى دياره في قطنا بغرض تنظيم جماعة مؤلفة من سبعين فارسًا متطوعًا. وتولى فرسان مريود بالاشتراك مع مجندين من الأكراد والشركس ورجال العشائر (بما في ذلك قرابة ألف رجل من رجال الفاعور شيخ عشيرة الفضل) الاشتباك مع القوات الفرنسية في مرجعيون، وراشيا، وشتورا، والمعلقة الواقعة في لبنان في الوقت الحاضر[84].

= [دوما] إلى اللجنة الوطنية [د. ت.]؛ MD 4H58/dossier 1, «Rapport hebdomadaire,» 26 Janvier au 2 Février 1920; MD 4H58/dossier 1, «Rapport hebdomadaire» 23 au 29 Mars 1920; USNA 59/890d.00/17/507, Jackson (Aleppo) to Adm. Bristol (Constantinople), 19 May 1920, MD 4H114/dossier 4/483, Cousse to Gouraud, 3 June 1920.

(82) FO 371/5076/E8007/74 -79. «Note by Miss G. L. Bell,» 22 May 1920.

(83) MD 4H114/2, «Tribus de la Syrie intérieur,» 16 December 1919; MD 20N171/2, «Rapport hebdomadaire 18-25 Janvier 1920»; AD 2375/chemise: division de la Syrie, 1919-20/442/2, Arlabosse to général commandant division de la Syrie (telephone message), 27 January 1920; MD 4H114/4/491, Cousse to Gouraud, 3 June 1920; FO 371/5o337/E9014, «Extracts from French Report for Week 8th to 14th June 1920»; MD 4H114/4, Cousse, «Renseignements,» 13 July 1920; MD 4H114/8, Arlabosse to Catroux, 13 October 1920; FO 317/5040/E13211/1171, Report by Col. G. L. Easton, sent by Ernest Scott (Acting High Commissioner, Ramleh) to Curzon, 18 October 1920;

أحمد وصفي زكريا، **عشائر الشام** (دمشق، 1983)، ص 396.

(84) AD 2375/dossier: Division de la Syrie/259. Arlabosse to général commandant en chef l'AFL, 18 December 1920; MD 4H114/2/12, Cousse to Gouraud, 6 January 1920; FO 371/5188/E4829/36, Arabic Press Abstracts for Week Ending May 3 (1920); MD 4H114/4/491, Cousse to Gouraud, 3 June 1920; MD 4H114/4/no no., «Renseignements,» Cousse, 13 July 1920; MD 4H114/8, Arlabosse to Catroux, 13 October 1920;

دروزة، **مذكرات**، ج 2، ص 76-77، 81-82؛ آل جندي، **تاريخ الثورات السورية**، ص 157، 394.

وقاد كامل الأسعد، الذي كان ينتمي إلى إحدى الأسر «المقاطعجية» (الإقطاعية) الكبيرة الست وزعيم المتاولة (طائفة من الشيعة السوريين) الذين يصل تعدادهم إلى أربعين ألف شخص، عددًا يتراوح من ألفين إلى ستّة آلاف من أتباعه ضدّ قرية عين إبل المسيحية التي يُزعم أنها موالية للفرنسيين، وكانت تلك بلدة تقع بالقرب من الحدود الفلسطينية، مما أوقع إصابات ما بين قتيل وجريح تراوحت من خمسين إلى ثمانين شخصًا[85].

في حين كانت الجماعات تلك تعيش بالقرب من الشريط الحدودي الفاصل بين المنطقتين الشرقية والغربية، راحت اللجنة تتطلع إلى ما وراء حدود الأراضي الخاضعة لولاية الحكومة العربية أيضًا. وقد اعتزم نشطاء اللجنة تنظيم جولات في فلسطين، والأردن، والمنطقة الساحلية ووضعوا قوائم بأسماء الزعماء المتعاطفين المقيمين هناك، مشيرين إلى عدد المناصرين المسلحين الذين بالإمكان جمعهم. واشتكى أحد أعضاء اللجنة من أن «هؤلاء الفلسطينيين هنا <في دمشق> لا يمثلون موطنهم»، وقدم برنامجًا لرحلة مدتها ثلاثون يومًا يتضمن تنظيم جولة في سائر أرجاء فلسطين. وقد شملت الجولة المقترحة التي بدأت من القنيطرة التوقف في جسر بنات يعقوب، وطبريا، والناصرة، وصفد، وحيفا، وطولكرم، ونابلس، والقدس، والرملة، وغزة، وجبل الخليل، وبئر السبع، والسلط، والغور، والبلقاء، وعمان. وأكد أن من شأن الرحلة هذه أن تمكن اللجنة من ضمان ولاء «الأمراء» و«الوجهاء» (شيوخ العشائر وأعيانها) المدرجة أسماؤهم في القائمة، الذين «سيشعلون البلاد» عبر حشدهم ما يقرب من مئة ألف مقاتل لمصلحة اللجنة الوطنية العليا. وفي نهاية المطاف، يبدو أن اللجنة أذنت بوضع صيغة مختزلة للمهمة تلك. وعرض ناشط آخر بأن يسافر في أنحاء لبنان كافة ليحث الزّعماء المحلّيّين على «الشروع في تشكيل جماعات حرب العصابات من بين رجالهم. وسيكون لدى [هؤلاء الزعماء] سلطة مطلقة للاضطلاع بتنفيذ [الثورة

(85) **الكوكب**، 6 كانون الثاني/ يناير 1920، ص 5؛ AD 2375/chemise: division de la Syrie, 1919-1920/406/2, Arlabosse to général commandant division de la Syrie (telephone message), 19 January 1920; *The Near East*, 19 February 1920, p. 244; FO 371/5120/E6193, Military Governor Safed to Military Governor Galilee, «Attack on Ain Ibl,» 11 May 1920; IO L/PS/10/802/P4953/40, Wratislaw (Beirut) to FO, 25 May 1920; Meir Zamir, *The Formation of Modern Lebanon* (Ithaca, 1985), pp. 85-86.

الوطنية] وإشعال نيرانها في غرب سورية ضد الاحتلال الأجنبي». وأشفع اقتراحه بقائمة تضمنت أسماء أربعين شخصية بارزة أكد أنهم يستطيعون جمع ثلاثين ألف رجل[86].

إذا ما نحينا الحس الوطني جانبًا، ثمة عدد من العوامل التي حفزت زعماء العشائر وجماعات حرب العصابات الذين نظموا اللجنة الوطنية العليا ولجان الدفاع الوطني أو انضموا إليها أو تعاونوا معها. فقد وفر انعدام سيطرة الحكومة على الريف لدى بعضهم فرصة لتصفية حسابات قديمة أو ممارسة أعمال النهب ببساطة. وإبان الهجوم على عين إبل الذي شنه المتاولة المنضوون تحت زعامة كامل الأسعد، على سبيل المثال، «قدمت نساؤهم لحثهم على مواصلة الهجوم ولكي يكن [عونًا] لهم في حمل المنهوبات، بما في ذلك الأثاث وإطارات النوافذ والمكانس وحتى الأخشاب». وبالنسبة إلى آخرين سواهم، مثل عشيرة الفضل المستقرة، فقد حال إضفاء طابع عسكري على الريف دون اللجوء إلى خيارات أخرى. ومع ذلك استاء بعضهم الآخر من التدخل الحكومي أو أعرب عن خشيته من العواقب الاجتماعية والاقتصادية المترتبة على الهيمنة الفرنسية أو البريطانية. ووفقًا لأحد المراقبين، على سبيل المثال، فقد بدأ الزعيم العلوي صالح العلي تمرده - وهو التمرد الأول المناوئ للفرنسيين - بعد أن عرض الفرنسيون على القرويين الذين تعاونوا معهم أراضِيَ بأسعار مخفضة[87].

حققت اللجنة الوطنية العليا، من جانبها، من تعبئة الريف ما هو أكثر من مجرد فرص لمضايقة الفرنسيين. وما إن كان الزعماء المحليون يشنون غارة «بطولية»، سواء على القواعد الفرنسية أم على جيرانهم (المسيحيين في كثير من الأحيان)، حتى كان قادة اللجنة يدعونهم إلى عقد اجتماعات في دمشق، أو يقدمونهم في أثناء التظاهرات، أو يصطحبونهم في جولة، في سياق عملية تشجيع الأوهام المدينية

(86) المكتبة السلفية، القاهرة: ملف اللجنة الوطنية، مؤلف مجهول [د. ت.]؛ المكتبة السلفية، القاهرة: ملف اللجنة الوطنية «القحطاني الفلسطيني» إلى رئاسة اللجنة الوطنية، 15 كانون الأول/ ديسمبر 1919؛ المكتبة السلفية، القاهرة: ملف لجنة الدفاع، «أحد الوطنيين»، 20 تشرين الثاني/ نوفمبر 1919.

(87) قدري، **مذكراتي**، ص 133. يُنظر أيضًا: WO95/4373/EA2613, Egypforce (Cairo) to Troopers (London), 6 August 1919.

للقدرات العسكرية للبدو الأسطوريين الذين ديدنهم الترحال[88]. وبعد أن وجه الفرنسيون إنذارهم الأول إلى الحكومة العربية في تموز/ يوليو من عام 1920، على سبيل المثال، ألقى كامل القصاب كلمة في جمع حاشد للحزب الديمقراطي، معلنًا بصورة جزئية أن،

> [غورو] قد اشترط تسليم زعماء البلاد الذين عملوا على تعبئة الحركة المنادية بالذود عن شرفكم وبلدكم.
>
> أعلينا أن نسلم أمراء الدنادشة، والأمير محمود، وكامل الأسعد، والشيخ صالح العلي وسواهم من الزعماء؟
>
> وها أنا ذا أزف لكم نبأً سارًا: فقد بلغني من أحد الزعماء، وهو مصدر موثوق به، أن الشيخ صالح العلي قد جمع جماعة قوامها ثلاثة آلاف رجل ممن أقسموا يمين الولاء لحزبكم، الحزب الديمقراطي، وقال لي إنه سيمتثل لمجلس الحزب الديمقراطي بدمشق.
>
> يا إخوتي! لم يكن أسلافنا جبناء. لقد شنوا الحرب على أعدائهم الأقوياء بقلوب ملآى بالإيمان وعقيدة عميقة الجذور. فلنحذو [فلنحذُ] حذو أجدادنا، ولنمزج دمنا بالدموع في الأرض التي ورثناها عنهم.... واعلموا أن حزبكم هو الحزب الأقوى في سورية، نظرًا لانضمام الدنادشة والحوارنة ودروز حوران والعلويين إلى صفوف حزبكم الديمقراطي. كونوا يدًا واحدة، واقطعوا الذراع التي تسعى لإيذائكم، وحافظوا على الوئام مع كل من يريد لنا السعادة والتقدم[89].

وهكذا، استغلت اللجنة الوطنية العليا صلتها بالبدو ومقاتلي حرب العصابات بغية جذب اهتمام أصحاب المتاجر والطبقات الدنيا في المناطق الحضرية الذين كانوا يمثلون أنصارها الرئيسين والتأثير فيهم. وفي سياق الاحتفال بغارات صغيرة بوصفها انتصارات حربية عظيمة، عزت الدعاية التي اتبعتها اللجنة وفروعها الانطباع بأن أي تحرك فرنسي باتجاه المنطقة الشرقية من شأنه أن يفضي لا محالة إلى هزيمتهم على أيدي جماعة من المقاتلين العرب النبلاء[90].

(88) **العاصمة**، 25 آذار/ مارس 1920، ص 5؛ FO 371/5188/E4829/36, «Arabic Press Abstracts for Week Ending May 3 1920»; MD 4H112/2b, «Habib Bey Estephane».

(89) **الكنانة**، 15 تموز/ يوليو 1920، ص 3.

(90) يُنظر: AD 2375/chemise: division de la Syrie, 1919-1920/406/2, Arlabosse to général =

لجان الدفاع الوطني

فضلًا عن تقديم الدعم للجتا والعشائر، عملت اللجنة الوطنية العليا جنبًا إلى جنب مع لجان الدفاع الوطني المحلية. وفي حين كان الغرض الأصلي المراد من تأسيس هذه اللجان عسكريًا، فقد أرغمتها مقتضيات التعبئة على الاضطلاع بالعديد من الوظائف الأخرى أيضًا. ولهذا السبب، كان لانتشار لجان الدفاع الوطني المحلية عواقب واسعة النطاق وغير متوقعة في كثير من الأحيان. فقد ربطت اللجان الزعماء المحليين ببعضهم بعضًا وبآلة سياسية قومية[91]، وأضفت طابعًا سياسيًا على الروابط التي تجمع بين المدينة والريف، ووسعت نطاق استخدام لغة قومية شعبية، وعززت في بعض الحالات انبثاق قيادة محلية جديدة ومؤسسات جديدة للحكم.

لئن شجعت اللجنة الوطنية العليا على انتشار اللجان هذه (وإن كان معظمها على ما يبدو قد تأسس على أيدي جماعات محلية كانت تتصرف من تلقاء نفسها) وقدمت لها أنواعًا شتى من العون والمساعدة في عملياتهم اليومية، إلا أن العلاقة الدقيقة القائمة بين اللجان تلك واللجنة الوطنية العليا يكتنفها الغموض. وتلمح نشرة محفوظة في الأرشيف القنصلي الفرنسي إلى «مؤتمر لجان الدفاع الوطني»[92]، بيد أننا لا نصادف أي ذكر لهذه الهيئة في المكتبة السلفية. وبافتراض وجود ذلك المؤتمر فإن انعقاده لم يكن بصفة رسمية ولا دائمة[93]. ومع ذلك،

---

commandant division de la Syrie (telephone message), 19 January 1920; MD 4H112/2b, «Habib Bey = Estephane»;

العاصمة، 27 تشرين الثاني/ نوفمبر 1919، ص 6؛ **العاصمة**، 25 آذار/ مارس 1920، ص 5.

(91) وفقًا لبرقية أُرسلت إلى كامل القصاب من شخصيات بارزة في المنطقة بين حمص ودمشق، على سبيل المثال، وتكاتفت بعض الشخصيات البارزة من سكان دير عطية ويبرود والنبك وقارة من أجل تأسيس لجنة جهوية للدفاع الوطني في كانون الأول/ ديسمبر 1919. المكتبة السلفية، القاهرة: ملف لجنة الدفاع، رسالة إلى القصاب، 18 كانون الأول/ ديسمبر 1919.

(92) اسمه الفعلي «مؤتمر اللجان الوطنية العام». وقد عقد بدمشق في 6 كانون الثاني/ يناير من العام 1920. يُقارن مع: **وفد اللجنة الوطنية، حلب**: الجريدة الرسمية، السنة 2، العدد 113، 8 كانون الثاني/ يناير 1920، ص 5. (المترجم)

(93) AD 2372/dossier: propagande anti-française, 17 January 1920.

تبرز الوثيقة المحفوظة في المكتبة بكل جلاء العلاقة القائمة بين اللجنة الوطنية العليا و«اللجنة الإدارية للجنة الدفاع الوطني». وتعزو الوثيقة خمس وظائف إلى اللجنة الإدارية:

1- تنفيذ قرارات اللجنة الوطنية العليا، ووضع جدول أعمال اجتماعات العضوية العامة، وعقد اجتماعات استثنائية.

2- الإشراف على عمل اللجان الفرعية، والتفاوض معها بشأن المسائل التي تهم اللجنة الوطنية العليا.

3- رفع تقارير يومية عن أعمال اللجان الفرعية في ما يتصل بالدفاع.

4- التفاوض مع اللجان خارج العاصمة وتنسيق أنشطتها.

5- تبادل الرسائل مع الزعماء المحليين بشأن قضايا الدفاع الوطني، وتنسيق أنشطتهم، وتزويدهم بالمعلومات، ونقل أخبار أنشطتهم في الخارج، وإحاطة اللجنة الوطنية العليا علمًا بالتطورات المحلية[94].

يتضح من الوثيقة هذه وغيرها من السجلات أنه على الرغم من استمرار الاتصالات الشخصية والبرقية والهاتفية مع دمشق، إلا أن اللجان المحلية كانت تتمتع بقدر عظيم من الاستقلال الذاتي. وقد بلغ الأمر باللجان المحلية، وفقًا لإحدى الروايات، أن اختلفت مع اللجنة الوطنية العليا بشأن مسائل مهمة تتعلق بالسياسة، من قبيل الرد المناسب على الإنذار الفرنسي النهائي للحكومة العربية[95].

ينبغي ألا يكون باعثًا على الدهشة، عندئذ، أنه غالبًا ما كانت لجان الدفاع الوطني المحلية، شأنها شأن الفروع المحلية للنادي العربي التي نوقشت في الفصل الأول، تحاكي في صورة مصغرة البنى السياسية والاجتماعية الجهوية.

---

(94) المكتبة السلفية، القاهرة: ملف لجنة الدفاع، «الغرض من اللجنة الإدارية للجنة الدفاع الوطني»، [د. ت.].

(95) جميل إبراهيم باشا، **نضال الأحرار في سبيل الاستقلال** (حلب، 1959)، ص 20.

فعلى سبيل المثال، كانت الهيمنة على لجنة بعلبك للدفاع الوطني في وادي البقاع الشمالي معقودة لأفراد فرع سليمان من آل حيدر، وهم أكثر أسر المتاولة مالكة الأراضي نفوذًا في المنطقة. وقد أشرفت القيادة السياسية للجنة، التي تضم توفيق بك سليمان وابنيه (فريد ومصطفى) والدكتور محمد حيدر، على توزيع الأسلحة والأموال وتنظيم التظاهرات المناهضة للفرنسيين في القرى المحيطة ببعلبك. وأشرفت أيضًا على العلاقات القائمة مع اللجنة الوطنية العليا في دمشق، التي زودت لجنة الدفاع الوطني بالمستشارين العسكريين، والمساعدة المالية، والإمدادات اللوجستية. وقد يسرت المكانة التي يحظى بها فرع سليمان من آل حيدر جهودهم الرامية إلى جمع التبرعات المحلية: ولم تلتمس الأسرة «التبرعات» من الأعيان المحليين وأتباعهم فحسب، وإنما استولت أيضًا على حصة من الغنائم التي جرى الاستيلاء عليها عقب الغارات التي كانت تشن على القرى المجاورة، وتلك التي كانت تشن على خط السكة الحديد الذي يمر عبر وادي البقاع. وكانت الغارات الأخيرة هذه على وجه الخصوص مصدر دخل مجز للجنة. وتذمر أحد المراقبين الفرنسيين من «إغارة المئات من الفلاحين على القطارات، الذين جذبهم إغراء الغنائم»[96].

تولى يوسف مخيبر سليمان، الذي كان قد تلقى التأهيل لممارسة مهنة المحاماة وشارك في أنشطة «المنتدى الأدبي» قبل الحرب، قيادة الحملات العسكرية للجنة. وكانت النواة الأولى لجماعة حرب العصابات التي أسسها قد اجتذبت أتباع أسرته والأشخاص الذين تعيلهم ممن كانوا يقيمون في قريته الأصلية بيت نايل، حيث ضمت، وفقًا للمصادر الفرنسية، «ذوي الدخل المتوسط، والحرفيين العاطلين عن العمل، والفلاحين من الأرياف، وممتهني قطع الطرق». وقادت لجنة بعلبك الحملة العسكرية على الفرنسيين في الوادي، التي شهدت بعضًا من المعارك الأكثر دموية إبان الفترة هذه. وما بدأ «شجارًا غير ذي أهمية»

(96) MAE L:SL/vol. 33/167, «Rapport du lt. Sol, sur l'ensemble des faits qui se sont déroulés dans la région de Baalbeck, entre le départ des troupes anglaises et l'occupation de la ville par les troupes françaises,» 6 January 1920; AD 2375/chemise: division de la Syrie, 1919-1920/361/2, Arlabosse to G.C.C., 11 January 1920; AD 2375/chemise: division de la Syrie, 1919-1920/361A, Col. Sousselier to GCC, 7 February 1920.

بالقرب من بلدة رياق في بداية شهر كانون الأول/ ديسمبر من عام 1919، على حد وصف أحد المراقبين البريطانيين له، سرعان ما انقلب إلى مواجهات بعدما أجبر المتمردون ضابط الارتباط الفرنسي على مغادرة بعلبك قسرًا. وسعت القوات الفرنسية طوال الفترة المتبقية من ذلك الشهر إلى أن تفرض من جديد سيطرتها على الوادي عبر احتلال المعلقة ورياق وبعلبك، بعد أن تكبدت «خسائر فادحة» على أيدي «ما يسمى بقطاع الطرق الذين يعملون من دون أدنى شك تحت إمرة الحزب المتطرف في دمشق»(97).

هكذا، استفادت لجان الدفاع الوطني من الصلات التي كانت تربط ما بين الأعيان في المناطق الريفية والحضرية وأولئك الذين كانوا يعملون في أراضيهم، ويقترضون أموالهم، ويعتمدون بوجه عام على ما يوفره الآخرون من موارد. واتسع في بعض الأحيان نطاق الشبكات التي تضم الأتباع والعملاء الذين يشرف عليهم الأعيان المقيمون في المناطق الحضرية ليشمل الريف. وكانت كل أسرة من الأسر الأكثر ثراء في حمص، على سبيل المثال، تمتلك عددًا من القرى يتراوح بين خمس وأربعين وستين قرية تقع في السهل المحيط بالمدينة، وكان البدو المستقرون يقطنون جزءًا منها(98). وعلى الرغم من أنه كانت تطلق عليهم تسمية «فلاحين» على أيدي أقاربهم من البدو الرحل وأنصاف الرحل، إلا أن الزراع لم يكونوا أبناء العشائر الوحيدين الذين أقاموا علاقات وثيقة مع الأسر المدينية البارزة. فقد كان سكان المدن يعملون بوصفهم مصرفيين وتجارًا لدى زعماء القبائل، وعززوا في بعض الأحيان علاقاتهم الاقتصادية عبر أواصر المصاهرة. والواقع إن هذا المزيج

(97) FO 371/4186/174490, Meinertzhagen to GHQ, EEF, 13 January 1920;
للاطلاع على وصف مختلف للأحداث، يُنظر: **الكوكب**، 6 كانون الثاني/ يناير 1920، ص 4-5.

(98) وفقًا لما أورده أحد التقارير الفرنسية، على سبيل المثال، أبقى آل الجندلي والجندي «البالغ تعدادهم قرابة ستين عائلة فلاحيهم الكثيري العدد في [حالة من] الطاعة المطلقة». وكان كل من غريب وسعد الدين وصالح جندلي من الأعضاء البارزين في لجنة الدفاع الوطني بحمص. المكتبة السلفية، القاهرة: ملف لجنة الدفاع، محيي الدين الدروبي وآخرون إلى لجنة الدفاع الوطني، دمشق، 21 تشرين الثاني/ نوفمبر 1919؛ AD 2372/dossier: affaires militaires et politiques, J. Jacottet, «Renseignements sur les villes de Homs, de Hama, et les régions qui en dépendent,» 10 July 1920;
يُنظر أيضًا: إحسان الهندي، **كفاح الشعب العربي السوري، 1908-1948** (دمشق، 1962)، ص 89.

من الأواصر قد ربط بين عائلتي الأتاسي والرفاعي النافذتين في حمص، وعشيرتي بني خالد والأحسنة على التوالي، وبين عائلة الدروبي الحمصية أيضًا وعشائر ولد علي، والعقيدات، والموالي[99]. وكان ممثلون من عائلتي الأتاسي والدروبي شخصيات بارزة في لجنة الدفاع الوطني بحمص: إذ شغل كل من عمر الأتاسي ومحيي الدين الدروبي منصب رئيس اللجنة، وحصل عمر ووصفي الأتاسي على إعانات من دمشق استخدماها لتسيير أنشطة اللجنة وإدارتها[100]. وإلى جانب «الأتاسيين» و«الرفاعيين»، لم يحارب المجندون من أبناء العشائر الفرنسيين في معركة تل كلخ في وادي البقاع التي دارت رحاها في كانون الأول/ ديسمبر من عام 1919 فحسب، وإنما بعدما شرعت لجنة الدفاع الوطني بحمص في التحضير لمقاومة الجيش الفرنسي الغازي في شهر تموز/ يوليو من عام 1920 أيضًا، وجاء بدو قادمون من مناطق بعيدة عن حمص مثل تدمر - تراوحت التقديرات بشأن أعدادهم بين ألف وخمسمئة وستة آلاف شخص - فنزلوا إلى المدينة في غضون يومين[101].

لم تكن لجان الدفاع الوطني قادرة على الاستعانة بشبكة واسعة تضم المجندين والأتباع من أبناء العشائر فحسب، بل عززت قواتها بصورة دورية عبر العمل في تناغم بعضها مع بعض. وأسس أفراد من أبرز أسر ملاك الأراضي في تل كلخ، عنينا عشيرة آل الدندشي، لجنة للدفاع الوطني بعد أن قاوم سكان البلدة المحاولات الفرنسية الساعية إلى إقامة وجود عسكري هناك. ومع تصاعد حدة القتال في البلدة، أرسلت لجنتا الدفاع الوطني في حمص وطرابلس تعزيزات

(99) AD 2372/dossier: affaires militaires et politiques, J. Jacottet, «Renseignements sur les villes de Homs, de Hama, et les régions qui en dépendent,» 10 July 1920; AD 4H114/2/n.d., «Tribus de la Syrie intérieure»;

للمزيد من المعلومات عن هذه القبائل، يُنظر: زكريا، **عشائر الشام**، ص 404-409، 434-442، 444-449، 499-500، 507-521.

(100) المكتبة السلفية، القاهرة: ملف لجنة الدفاع، محيي الدين الدروبي وآخرون إلى لجنة الدفاع الوطني، دمشق، 21 تشرين الثاني/ نوفمبر 1919؛ AD 2375/chemise: division de la Syrie 1919-1920/384/2, Arlabosse to GCC, 15 January 1919; MD 4H112/1/84/6, Gouraud to Lt. Dejean, 19-24 February 1920; AD 2372/dossier: affaires militaires et politiques/no no., «Renseignements sur les villes de Homs, de Hama et les régions qui en dépendent,» 10 July 1920.

(101) **الكوكب**، 6 كانون الثاني/ يناير 1920، ص 5؛ MD 4H58/1, «Rapport hebdomadaire: 24 Février au 1 Mars 1920»; MD 4H60/1, «Bulletin quotidien 1266,» 21 July 1920; P. G. Angelil, «L'occupation d'Homs: Angoisses et délivrance,» *Petites relations d'orient*, vol. 6 (November 1920).

قاتلت جنبًا إلى جنب مع وحدة أرسلت من دمشق بقيادة الزعيم الدرزي سلطان الأطرش[102]. وعلى نحو مماثل، لم يكتف صالح العلي بتولي قيادة أتباعه في الهجمات التي شنت على مستودع فرنسي في طرطوس، وكذلك على القرى المسيحية في المنطقة، وإنما أسس أيضًا بمساعدة لجان الدفاع الوطني في حمص وحماه واللجنة الوطنية العليا في دمشق معسكرًا في بلدة القدموس غرب سورية لتدريب المقاتلين المتطوعين[103].

توفر لجنة الدفاع الوطني في حلب صورة موثقة على نحو غير عادي لتوزيع السلطة في ما بين الأعيان المقيمين في المدينة، ولجنة الدفاع الوطني المحلية ورجال العشائر، وجماعات حرب العصابات. ونشأت اللجنة نتيجة للجهود التي بذلتها جماعة من الشخصيات الحلبية البارزة ممن وصفوا أنفسهم بـ «أنصار» مصطفى كمال بدافع من مزيج من المشاعر الموالية لتركيا، وانعدام الثقة في النوايا الإنكليزية - الفرنسية، والنأي عن دمشق[104]. وقد بدأ «الأنصار» في آب/أغسطس من عام 1919 - أي قبل شهر واحد من بداية أزمة الاستبدال وقبل ثلاثة أشهر من تنظيم اللجنة الوطنية العليا - بالتخطيط لإطلاق حملة عسكرية مناهضة للفرنسيين في سورية، وأن تكون عملياتها منسقة مع تلك التي تضطلع بها الحركة القومية التركية. وعلى الرغم من أن هذه الجماعة عقدت اجتماعاتها طوال شهر آب/أغسطس، إلا أنها لم تتمكن من تحقيق أي إنجاز يذكر باستثناء تأسيس صحيفة، وإقامة حفلات استقبال لأعيان المدينة الآخرين[105].

---

(102) **الكوكب**، 6 كانون الثاني/يناير 1920، ص 5؛ MD 4H114/4/no no., «Renseignements,» Cousse, 13 July 1920;

Khoury, *Syria and the French Mandate*, p. 9; دروزة، **مذكرات**، ج 2، ص 160؛ الهندي، **كفاح الشعب**، ص 89؛ سعيد، **الثورة العربية الكبرى**، ج 2، ص 111؛ زكريا، **عشائر الشام**، ص 477-478، 485-487.

(103) MD 4H58/1, «Rapport hebdomadaire: 24 Février au 1 Mars 1920»; FO 371/5034/E2539/18, British Consul General (Beirut) to Secretary of State, 17 March 1920; MD 4H58/1/ «Rapport hebdomadaire: 23 au 29 Mars 1920»; MD 4H58/1, «Rapport hebdomadaire: 20 au 26 Avril 1920»; MD 4H58/2, «Rapport hebdomadaire: 13-19 Juillet 1920»; MD 4H60/1/1327/cp., «Bulletin quotidien,» 12 August 1920;

الهندي، **كفاح الشعب**، ص 56-57.

(104) كان من بينهم جميل إبراهيم باشا، وشاكر الشعباني، والحاج فاتح المرعشي، ومصطفى برمدا، وبدر الدين النعساني، وفؤاد العادلي، قاسم السباهي، وعبد القادر الكيخيا، وفؤاد المدرس.

(105) IO L/PS/10/802, Gertrude Bell, «Syria in October 1919,» 15 November 1919; MD =

وقد اتسع نطاق دائرة أولئك الذين استجابوا لدعاية «الأنصار»، مع بداية أزمة الاستبدال، نظرًا لتفاعل الحلبيين مع الانسحاب البريطاني على نحو يشبه كثيرًا ما فعله الدمشقيون. وبناء على دعوة رشدي الصفدي، قائد فرقة الجيش العربي المتمركزة في حلب الذي كان أيضًا عضوًا في النادي العربي المحلي ومقربًا من ياسين الهاشمي، شرع عدد من الأعيان في تنظيم ميليشيات من المتطوعين في كل الأحياء والأماكن العامة في المدينة. ومنح كل منظم رتبة رائد، وصدرت له تعليمات بتعيين نقباء وملازمين تابعين له(106). فشكل أحمد كدرو المصري في حي القصيلة، على سبيل المثال، قوة ميليشياوية قوامها 680 رجلًا للمساعدة على حفظ الأمن في المدينة، واضطلع عبر عمله جنبًا إلى جنب مع الحاج محمد نجيب باقي زادة عضو النادي العربي المحلي بدور فعال في حشد موارد حيه وتعبئتها من أجل تقديم الدعم اللوجستي لثورة هنانو(107). وأما في حي باب النيرب، الذي يبلغ تعداد سكانه 12000 نسمة والشبيه بحي الميدان بدمشق، فقد أسس كنجو حمادة وعبد الفتاح البيطار اللذان كانا ينتميان إلى عائلتين نافذتين فيه، جنبًا إلى جنب مع أفراد من عائلة بري ذات المكانة المماثلة لعائلتيهما والعديد من وجوه الحي الأقل

4H112/2a/38r, «Renseignements,» 20 February 1920; USNA 59/890d.00/8/468, Jackson to Secretary of= State, 13 March 1920; MD 4H112/2b/2, «Rapport politique: période du 16 au 30 Avril 1920»; MD 4H112/2b/51, «Renseignements,» 25 May 1920;

آل جندي، **تاريخ الثورات السورية**، ص 62-63، 74؛ إبراهيم باشا، **نضال الأحرار**، ص 3، 6، 11-14؛ كامل الغزي، **نهر الذهب في تاريخ حلب**، 3 ج (حلب، 1923-1926)، ج 2، ص 136-137، 156، 177، 215، 275، 335؛

Khoury, *Syria and the French Mandate*, pp. 10, 113.

(106) MD 4H112/1/84/6, Gouraud to Lt. Dejean, February 1920;

للاطلاع على قائمة بقادة الأحياء، يُنظر: MAE L:SL/vol. 33/120-121, Gouraud, «Note au sujet des rapports entre le haut commissionaire de la République Française en Syrie- Cilicie et l'emir Fayçal,» 22 September 1920.

كتب الصفدي لاحقًا إلى وزارة الحربية قائلًا: «على الرغم من أن المتطوعين يصلون في الوقت المناسب إلى الأرض المعدة لإجراء التدريب، إلا أنه يتعين علينا ألا نعول على تعاون عشرين في المئة منهم في وقت الأزمات، نظرًا لكونهم، في معظمهم، من الملاك، أو رجال الأعمال، أو ينتمون إلى أسر معروفة».

(107) MAE L:SL/vol. 33/119, Gouraud, «Note au sujet des rapports entre le haut commissionaire de la République Française en Syrie-Cilicie et l'emir Fayçal,» 22 September 1920;

إبراهيم باشا، **نضال الأحرار**، ص 6؛ آل جندي، **تاريخ الثورات السورية**، ص 62.

مكانة، قوة ميليشياوية قوامها كتيبة من المسلحين بالبنادق والمشاة والخيالة. وكان سكان هذه المحلة في السابق، شأنهم شأن سكان حي الميدان، يقاومون بشدة سياسة التجنيد التي تنتهجها الحكومة العربية. ويذكر ضابط الارتباط الفرنسي المعين في المدينة في تقرير قدمه إلى رؤسائه في باريس: «إذا تمكن العدو من الوصول، فإنهم يعلمون أنهم قادرون على الصمود من دون الاضطرار إلى أن يتزين أبناؤهم بالزي الرسمي الذي لن يجعلهم أكثر وطنية أو أشد إقدامًا. علاوة على ذلك، فإنهم يدركون أن التجنيد هو مجرد وسيلة لتعبئة الخزائن الخاوية لوزارة المالية بدمشق التي لن يحصل الضباط على رواتبهم منها، ولن تزود الجنود بالمؤن والعتاد». ومع ذلك، شكل سكان الحي الذين جرى تجنيدهم لاحقًا النواة الأولى لوحدات المتطوعين البالغ تعدادهم أربعة آلاف من المتمردين الذين هاجموا قلعة حلب في 21 تموز/ يوليو من عام 1920[108].

بادر قادة الميليشيات، وزعماء النادي العربي، والأنصار، والمسؤولون المحليون، والمديرون في الولاية إلى دمج الميليشيات في لجنة الدفاع الوطني على نطاق المدينة في أوائل تشرين الثاني/ نوفمبر. وتشتمل قائمة المشاركين في اللجنة على العديد من الشخصيات العامة في حلب. فقد ضمت الجمعية في عضويتها قادة الحكومة (إحسان الجابري، رئيس البلدية؛ وفاخر الجابري، عضو مجلس الإدارة؛ وراغب المدرس، مدير الضرائب المحلي؛ وشافع بك <أبو ريشة>، مدير السجل العقاري)، والنشطاء في النادي العربي (عبد الرحمن الكيالي، وعبد الوهاب طلس، وصبحي بركات)، والأنصار (فؤاد العادلي، وفاتح المرعشي)، وقادة الميليشيات (رضا الرفاعي، وصادق الرفاعي). إضافةً إلى ذلك، انضم إلى صفوف الجمعية كل من منيب الناطور، رئيس تحرير صحيفة **الراية**، وعبد القادر الحزماتي، والحاج أحمد ميسر، وهما من التجار الأثرياء[109].

(108) **العاصمة**، 13 تشرين الثاني/ نوفمبر 1919، ص 6؛ MD 4H112/2b/55, «Renseignements,» 29 May 1920; MAE L:SL/vol. 33/119, Gouraud, «Note au sujet des rapports entre le haut commissionaire de la République Française en Syrie-Cilicie et l'emir Fayçal,» 22 September 1920; الغزي، **نهر الذهب**، ج 2، ص 356، 372؛ Jules Kersante, «Syrie: L'occupation d'Alep,» *Petites relations d'orient*, vol. 6 (Novembre 1920), p. 172.

(109) = MD 4H112/2A/38R, «Renseignements,» 20 February 1920;

وبعدما تشكلت لجنة الدفاع الوطني[110] في حلب على هذا النحو رعت إجراء تدريبات مرتين في الأسبوع تحت إشراف الضباط في الجيش النظامي، ونظمت تظاهرات مسلحة لكل من أفراد الميليشيات والمجندين من أبناء العشائر في فترة ما بعد الظهر من كل خميس في مركز المدينة[111].

ثمة مجموعة من العوامل حثت بعض المواطنين الأكثر بروزًا في حلب على المشاركة في تأسيس اللجنة هذه. ومما لا ريب فيه أن الدافع من وراء انضمام بعضهم كان يتمثل في الفرصة المتاحة أمامهم للمشاركة في منظمة تعد بتوفير وسيلة للوصول إلى السلطة في فترة تسودها الاضطرابات. ولربما

= يتضمن التقرير الأعضاء الإضافيين التالية أسماؤهم في النادي العربي الذين كانوا على اتصال بـ «الكوميتادجيين»: إبراهيم هنانو، وتوفيق البيسار، وسنوسي بك، وسامي السراج، وسامي الكيالي، وغالب بك <إبراهيم باشا> (زاده؟)، والشيخ نوري الجسري.

(110) اسمها الفعلي «اللجنة الوطنية». ولعلي أشير، بهذا الصدد، إلى أن عرض المؤلف للظروف التي أحاطت بنشأة اللجنة الوطنية في حلب وتطورها لا يخلو من دمج في سيرورات الأحداث على مستوى التسلسل الفعلي الوقائعي، وهو أمر قد يعزى إلى اعتماده على تقارير متأخرة نسبيًا اطلع عليها في محفوظات وزارة الدفاع الفرنسية، وتعود بتاريخها إلى شهر شباط/ فبراير 1920. كما أن تركيبة اللجنة التي أوردها في كتابه مختلفة عن تلك التي جرى انتخابها بالفعل للمرة الأولى؛ إذ تذكر صحيفة **المصباح** لصاحبها الشيخ طاهر الطيار الكيالي العضو المنتخب في اللجنة أن «منتخبي الحارات» عقدوا اجتماعًا في مقر النادي العربي في حلب في 27 تشرين الثاني/ نوفمبر 1919، لانتخاب أعضاء «اللجنة الوطية» أسفر عن انتخاب «حضرات الذوات المحترمين» التالية أسماؤهم، وقد رُتبت في الخبر الذي أوردته الصحيفة بحسب أكثرية الأصوات التي حازها كل عضو على النحو التالي: الحاج فاتح أفندي المرعشي، مصطفى بك برمدا، صادق أفندي الرفاعي، عارف بك إبراهيم باشا، أبو كدرو المصري، مرعي باشا الملاح، كنجو آغا أبو الكنج، الشيخ علي أفندي الكيالي العالم، فتاح بيطار، راجي أفندي جاسر، إحسان بك الجابري، أمين آغا اليكن، الحاج شاهين ختام، الدكتور عبد الرحمن أفندي الكيالي، الشيخ عبد اللطيف خياطة، مصطفى بك سواس، محمد أفندي فداوي، محمود أفندي عيسى، رضا أفندي الرفاعي، زكي أفندي عيسى، الشيخ طاهر أفندي الكيالي، الشيخ الحمد فلاحة، السيد محمود أبو صالح، نافع أفندي طلس، السيد عبد الرحمن رحماني، الدكتور عارف أفندي قلعة جي، الشيخ راغب الطباخ. يُقارن مع: اللجنة الوطنية، **المصباح** (حلب)، السنة 1، العدد 86، 30 تشرين الثاني/ نوفمبر 1919، ص 2. يود المترجم هنا أن يعرب عن امتنانه للمؤرخ الأستاذ جمال باروت الذي تفضل - مشكورًا - بلفت انتباهه إلى هذه المعطيات البالغة الأهمية والدلالة. (المترجم)

(111) MAE L:SL/vol. 33/120-21, Gouraud, «Note au sujet des rapports entre le haut commissionaire de la République Française en Syrie-Cilicie et l'emir Fayçal,» 22 September 1920.

اجتذب بعضهم الشعور القومي، أو على العكس من ذلك، الأمل بأن وجودهم في اللجنة قد يجعل الأهداف القومية أكثر اعتدالاً. وفي حالة آل الجابري، على سبيل المثال، ربما اضطلعت الخصومات الأسرية بدور أيضًا: إذ كانوا يخوضون منافسة مع أسرة ثرية ونافذة، ألا وهم آل الشعباني، الذين كانوا منخرطين في تأجيج الحماسة المؤيدة للكماليين. وإن لم يكن هناك شيء آخر، فإن المشاركة في اللجنة مكنت آل الجابري من إظهار مؤهلاتهم القومية. ومن الجائز أيضًا أن يكون الناشطون الأقل بروزًا في اللجنة التمسوا الدعم من نبلاء المدينة فوضعوهم في مناصب رفيعة من أجل توسيع نطاق قاعدة جاذبية المنظمة وشرعيتها وأُسس جمع التبرعات.

إلا أنه بحلول ربيع عام 1920 أخذت جماعة من الأسر الحلبية النافذة، وفي عدادها أسرة الجابري، تنأى بنفسها عن هذه المنظمة التي بدأت تتخذ صبغة شعبوية على نحو متزايد. ولم يقتصر الأمر على استقالة عبد الحميد الجابري من رئاستها، بل إن آل الجابري وحلفاءهم أرسلوا عرائض تتضمن شكاوى من أنشطة الجمعية إلى والي حلب والمؤتمر السوري[112]. وقد برزت جماعة جديدة من الزعماء الذين حلوا محلهم، ومن بينهم فاتح المرعشي، وهو أحد «الأنصار» الأصليين الذي كان قد أجرى بشكل شخصي مفاوضات مع مصطفى كمال؛ وصادق شاهين الختام، الذي كان، وفقًا للتقارير، بارعًا في الحصول على الأموال من التجار؛ ورضا الرفاعي، الذي شارك إلى جانب كل من كامل القصاب وعبد الله الكزبري وعيد الحلبي وشكري الطبّاع بتأسيس «الحزب الديمقراطي»[113].

تتمثل المسألتان الأكثر أهمية واللتان انقسمت اللجنة بشأنهما في جمع التبرعات ودعم جماعات حرب العصابات. ومع تدهور الأوضاع الاقتصادية،

---

(112) MD 4H112/2b/2, «Rapport politique: période du 16 au 30 Avril 1920»; MD 4H112/2b/26, «Renseignements,» to Trenga, 1 May 1920; MD 4H112/2b/31, «Renseignments,» to Trenga, 5 May 1920; MD 4H114/4, Cousse to Gouraud, 14 May 1920.

(113) MD 4H112/2a/38r, «Renseignements,» 20 February 1920; MD 4H112/2b/2, «Rapport politique: période du 16 au 30 Avril 1920; FO 882/24/209-210, Major G. W. Courtney, 21 May 1920; Khoury, *Syria and the French Mandate*, p. 10.

انخفضت الهبات الطوعية المقدمة للجنة بشدة. وبالتزامن مع ذلك، وافق الكماليون على إبرام هدنة مع الفرنسيين، وتوقفوا عن تقديم الدعم المالي لحلفائهم في الجنوب. فاعتمدت اللجنة من أجل تمويل عملياتها العسكرية ومواصلة سداد الدفعات الماليّة لعائلات رجال حرب العصابات المتفرغين بصورة مطردة على الابتزاز، وجباية الضرائب القسرية، وإصدار التراخيص للشركات الاحتكارية (مثل تلك المتخصصة بالأرز والحبوب الأخرى) وتهريب الأسلحة (التي أفادت التقارير بأن المرعشي جنى منها أرباحًا طائلة)[114].

وقد استهل أحد نداءات جمع التبرعات التي تنذر بالشر على وجه الخصوص والممهور بتوقيع المرعشي والرفاعي والختام بالقول:

> نحن لا نطالب إما بالصدقات أو الإحسان اللذين ستكافؤون عليهما. وإنما ندعوكم لأداء واجبكم في الدفاع عن الوطن.

واختتم بالتحذير،

> إذا استجبتم لندائنا، ستكونون قد أديتم واجبكم. وإذا رفضتم، لن نتوانى عن رصد أفعالكم[115].

مما زاد من حدة الخلاف شكاوى كبار ملاك الأراضي بشأن عمليات النهب التي كانت تمارسها العصابات المسلحة. وكان الترويج لأنشطة حرب العصابات أهم مهمة نهضت بأعبائها لجنة الدفاع الوطني في حلب. وقد التمست المنظمة انضمام مجندين جدد إلى جماعات حرب العصابات في أثناء إقامة التظاهرات والاجتماعات السياسية والعروض المسرحية والسينمائية، وأرسلت الأموال والإمدادات إلى قادة العصابات المسلحة وأتباعهم. ووفقًا لما أشار إليه أحد المصادر الفرنسية، زودت اللجنة الأفراد الجدد في جماعات «الجتا» بخمسة

---

(114) إبراهيم باشا، **نضال الأحرار**، ص 6. يُنظر أيضًا: MD 4H112/2b/51, «Renseignements,» 25 May 1920; MAE/vol. 33/125-126, Gouraud, «Note au sujet des rapports entre le haut commissionaire de la République Française en Syrie-Cilicie et l'emir Fayçal,» 22 September 1920.

(115) MD 4H112/2b/2, «Rapport politique: période du 16 au 30 Avril 1920»; MD 4H112/2b/51, «Renseignements,» 25 May 1920; MD 4H114/4/483, Cousse to Gouraud, 3 June 1920;

آل جندي، **تاريخ الثورات السورية**، ص 76، 80.

ليرات ذهبية، وبندقية، ومئة طلقة ذخيرة، وحصان في بعض الحالات. كما نسقت اللجنة الغارات التي شنتها العصابات المسلحة، وقدمت المنازل الآمنة للمقاتلين الذين يزورون المدينة[116].

ربما كان إبراهيم هنانو أكثر قادة حرب العصابات التابعة للجنة فعالية. وكان هنانو ابنًا لأحد الأعيان الريفيين الأثرياء، وشغل عدة مناصب حكومية في حلب. وبعد أن انتخب مندوبًا في المؤتمر السوري العام عن قريته الأصلية كفر تخاريم، استقال إبراهيم هنانو من مقعده النيابي وعاد إلى دياره للانضمام إلى الحملة العسكرية على الفرنسيين. وفي بادئ الأمر، تولى تنظيم الدعم في مجال النقل والإمداد لعمليات صبحي بركات، وهو القيادي النشط في حرب العصابات في المنطقة المحيطة بأنطاكية. وبوساطة الدعم الذي تلقاه من لجنة الدفاع الوطني في حلب، سرعان ما تولى هنانو قيادة شبكته الخاصة من رجال حرب العصابات[117]. وقد ثبت أن الدعم الذي وفرته اللجنة كان عاملًا حاسمًا من عوامل نجاح حملة هنانو: إذ لم تقتصر اللجنة على تزويد هنانو بالأسلحة ومنحه الإعانة المالية فحسب، وإنما روجت لأنشطته في أوساط العلماء المحليين أيضًا، وأقنعتهم بتأييد حملته عبر الدعوة إلى الجهاد ضد الفرنسيين. كما استعانت اللجنة بإبراهيم الشغوري قائد الفرقة الثانية في الجيش العربي. وبمساعدة من الشغوري، أشرف هنانو في البداية على نشر أربع كتائب، تتكون كل منها من عشرة مجاهدين، من قاعدته في كفر تخاريم. وبحلول شهر نيسان/ أبريل من عام 1920، كانت النجاحات العسكرية سببًا في تضخم عدد المجاهدين الخاضعين لسلطة هنانو مباشرة إلى ما يقارب أربعمئة رجل.

كان هنانو قائدًا عسكريًا ناجحًا للغاية، وينسق وحدات من العصابات المسلحة يتراوح تعدادها في كثير من الأحيان من ثلاثمئة إلى ستمئة رجل. وعلى الرغم من ذلك، فقد اشتهرت «ثورة هنانو» بالمؤسسات التي جرى إنشاؤها لإدارة

---

(116) USNA 59/890d.00/17/507, Jackson to Bristol, 19 May 1920; MD 4H112/2a/38r, «Renseignements,» 20 February 1920.

(117) آل جندي، **تاريخ الثورات السورية**، ص 74-76؛ الهندي، **كفاح الشعب**، ص 70.

الأراضي المحررة وضمان أن يبقى التمرد قائمًا بذاته. وبدأ المجاهدون بإعادة تنظيم حكومة قرية أرمناز، والعمل عبر رئيس البلدية الأسبق على فرض ضرائب جديدة على ملاك الأراضي، والمزارعين، ومربي الماشية دعمًا لأنشطتهم. واتسع نطاق المنطقة الخاضعة لسلطتهم الإدارية والمالية من أرمناز وحتى مركز قضاء حارم. ونسق هنانو في أوج توليه مهمة التنظيم، أنشطة العصابات المسلحة والدوائر البلدية في إدلب، وكفر تخاريم، وجسر الشغور، وحارم. وبينما ظلت المجالس البلدية في الأراضي التي تحتلها قوات هنانو في أيدي المسؤولين المحليين، إلا أنه أعيد تشكيلها لضمان توافقها مع الاحتياجات العسكرية والمعتقدات الاجتماعية للمتمردين. وعلى الصعيد الجهوي، تولت اللجنة التشريعية التي تتخذ من كفر تخاريم مقرًا لها جمع الأموال والأسلحة من المصادر المحلية للمجاهدين، بينما تولى مجلس الثورة، الذي حلت سلطته محل سلطة المحاكم المحلية، الإشراف على الشؤون القضائية. والواقع إن العصابات المسلحة التابعة لهنانو أقامت دولة مستقلة امتدت من غرب حلب وحتى البحر الأبيض المتوسط[118].

جرت التعبئة النهائية التي نفذتها لجنة الدفاع الوطني في حلب عشية الاجتياح الفرنسي، حينما نظم قادة النادي العربي واللجنة أمثال رشيد طليع ونبيه العظمة ومنيب الناطور وسامي السراج، بالتعاون مع ضباط الجيش العربي النظامي، الدفاع عن المدينة[119]. وحفر المتطوعون الخنادق لحراسة مشارف المدينة تحت إشراف قادة اللجنة وضباط الجيش، وهاجموا محطة سكة حديد بغداد والقلعة واستولوا عليهما. ونشر بلاغ على صفحة كاملة في صحيفة **الراية** التي كان يصدرها مهيب الناطور بعنوان «إلى الدفاع، إلى الدفاع»، يتضمن نص البرقية المرسلة من الحكومة العربية إلى المجلس البلدي في حلب:

---

(118) آل جندي، **تاريخ الثورات السورية**، ص 62-63، 74-79؛ إبراهيم باشا، **نضال الأحرار**، ص 6، 70.

(119) كان طليع، بوصفه متصرفًا للواء حماه، قد مد يد العون لصالح العلي. ووفقًا لأحد المصادر، فإن طليع هو الذي أقنع هنانو بأن يبدأ تمرده. يُنظر: آل جندي، **تاريخ الثورات السورية**، ص 62-63؛ قدري، **مذكراتي**، ص 133؛ الهندي، **كفاح الشعب**، ص 70.

> الإفرنسيون الذين خانوا العهد وتجاوزوا على المنطقة التي كان يجب أن يقفوا بها تجاوزوها، وهم متوجهون على العاصمة. صدرت إرادة جلالة مولاي المعظم أن تستحضروا كل ما عندكم من وسائط الدفاع وتدعوا الأمة بأجمعها إلى إراقة آخر نقطة من دمها.... متكلًا على الله وعلى روحانية الرسول تقرير الدفاع. إن الوطن يناديكم والدين ينشدكم بأن تقوموا بكل وجائبكم.

وبعد أن وزعت الصحيفة الصادرة على شكل منشور مكون من ورقة ذات قطع كبير مطبوعة على وجه واحد في أنحاء حلب كافة؛ هتف المتمردون الذين هاجموا قلعة حلب بشعارات تردد صدى عباراتها[120].

بيد أنه على الرغم من الاستعدادات تلك، لم تدم مقاومة الحلبيين للاجتياح الفرنسي طويلًا. فقد أثار دخول قرابة ثلاثة آلاف من رجال القبائل إلى المدينة الشعور بالخوف لدى المواطنين بقدر ما أثاره الفرنسيون الآخذون في الاقتراب من المدينة. وبحلول الوقت الذي اقترب الفرنسيون فيه من المدينة، تخلى الحلبيون عن سيطرتهم على الشوارع لمصلحة أولئك الغرباء: فأغلقت الأسواق، وبدأ الحلبيون في إبداء ردة فعل تجاه أوجه النقص من حيث السلع التي باتت تهددهم. وقد أدى الانفجار الذي وقع في مستودع للأسلحة وأسفر عن مصرع عدد يتراوح ما بين خمسمئة وستمئة من المدنيين في مساء يوم 21 تموز/ يوليو إلى استنزاف طاقة السكان وتبديد حماستهم للحرب أيضًا: إذ تخلى الآن المتطوعون الذين عبأتهم اللجنة عن مواقعهم الدفاعية وتجمعوا في موقع الانفجار للبحث عن الضحايا. وفى الوقت ذاته، فر قادة لجنة الدفاع الوطني من المدينة أمام التقدم الفرنسي، وتخلوا عن السلطة التي تولوها في الآونة الأخيرة لجماعة صغيرة من المسؤولين المدنيين والعسكريين. وتمكنت السلطة الجديدة، بتشجيع من القنصل الأميركي ودعمه، من تنظيم دوريات مسلحة للمحافظة على النظام والتحضير لاستسلام المدينة للفرنسيين بصورة سلمية. وفي يوم 23 تموز/ يوليو، دخل الجيش الفرنسي المدينة من دون مقاومة.

---

(120) USNA 890d.00/34, Jackson (Aleppo) to Bristol (Constantinople), 21 July 1920; FO 371/5039/E10316/38, J. B. Jackson, 30 July 1920; Kersante, «Syrie: L'occupation d'Alep».

السياسة الشعبية والسلطة السياسية

مع وصول القوات الفرنسية وهروب الزعماء الشعبيين الذين كانوا يخشون الاعتقال أو ما هو أسوأ، انتهت المقاومة التي ظهرت في أجلى مظاهرها في المدن التي كانت اللجنة الوطنية العليا وفروعها، ولجان الدفاع الوطني قد ركزت فيها أنشطتها. ويبدو أن المقاومة المسلحة المتقطعة التي تواصلت في حي الميدان في دمشق وحي باب النيرب في حلب تناقض تلك الروايات التي تصف المشاعر التي ولدتها اللجان الشعبية قبل مدة وجيزة. ولم يكن انهيار المقاومة بالحدث المفاجئ للمراقبين الأجانب: إذ تضمنت تقاريرهم حتى قبل الاجتياح الفرنسي لسورية الداخلية وصفًا لفترتين - ألا وهما، النصف الأول من شهر كانون الثاني/ يناير من عام 1920 (قبل عودة فيصل إلى دمشق وإعادة تنظيم اللجنة الوطنية العليا) والنصف الثاني من منتصف شهر أيار/ مايو من عام 1920 (في أعقاب اتفاقية سان ريمو) - يبدو أن أنشطة اللجان الشعبية إبانهما قد قوبلت باللامبالاة من جانب أغلب سكان المناطق الحضرية[121]. كيف، إذن، يمكن للمراقب المعاصر أن يفهم أهمية اللجان الشعبية؟

لقد أدى تقطيع أوصال الإمبراطورية العثمانية عقب الحرب العالمية الأولى إلى القضاء على الهيكل السياسي الشامل الذي ربط على نحو غير محكم طبقة ناشئة من النخب المتغربة بمعظم باقي السكان. ونتيجة لذلك، شهدت السنتان اللتان شكلتا المرحلة الفاصلة ما بين نهاية الحرب العالمية الأولى والاجتياح الفرنسي لسورية الداخلية مزاحمة شديدة تنافست فيها الرؤى المتضاربة بشأن مستقبل سورية على نحو مباشر.

ربما كان بمقدور الحكومة العربية وحلفائها من بين النخب القومية، إذا ما توافرت لديهم الموارد الملائمة والوقت الكافي، الحصول تدرجيًا على دعم بقية

---

(121) يُنظر: MD 4H114/2/no no., Cousse to Gouraud, 1 January 1920.

الكوكب، 13 كانون الثاني/ يناير 1920، ص 12؛ MD 4H114/2/28, Cousse to Gouraud, 14 January 1920; AD 2374/dossier: TEO zone ouest: adm., cabinet politique/1032/cp., 18 May 1920; MD 4H114/4/451, Cousse to Gouraud, 25 May 1920; MD 4H114/4/459, Cousse to Gouraud, 27 May 1920; Russell, *The First Modern Arab State*, pp. 147, 180.

السكان. بيد أن القرار البريطاني بخفض المعونة المالية التي تقدمها للحكومة العربية بمقدار النصف، وسحب القوات البريطانية من سورية قد أديا إلى إضعاف القدرات الاقتصادية والسياسية للحكومة العربية وحلفائها، مما أحدث أزمة لم تتعافَ منها على الإطلاق. وكانت السياسة الخارجية للحكومة في حالة من الفوضى، أو عاجزة عن ضمان الاستقرار الاقتصادي، أو توفير حد أدنى من الأمن، أو الإعلان عن رؤية للمستقبل السوري يكون لها صدى لدى معظم السكان، ولم تكتف، ومعها حلفاؤها، بإقصاء الأعيان المحليين الذين سعت إلى تجاوزهم أو استمالتهم أو الضغط عليهم، بل والتجار، والحرفيين، والعلماء ذوي الشعبية الواسعة والقبضايات. وتلكم هي التجمعات التي شكلت العمود الفقري للجان الشعبية.

يمثل بروز اللجان شاهدًا على فعالية السيرورات التي حولت الإمبراطورية العثمانية إبان القرن التاسع عشر. فقد جعلت السيرورات هذه الكثير من السوريين قادرين على «تصور» الجماعة القومية، فراحوا يتطلعون إلى اللجان الشعبية من أجل تحقيقها. ولكن «تصور» الجماعة القومية ينطوي على آثار بالنسبة إلى هيكلة علاقات السلطة، وقد وفرت اللجان الشعبية بديلًا للهياكل التقليدية للسلطة التي ثبت أنها غير ملائمة للظروف التي واجهها العديد من سكان سورية في مطالع القرن العشرين. وعلى الرغم من أن اللجان الشعبية غالبًا ما أفادت من الشبكات المحلية للرعاة والأتباع، وقوضت أيضًا الشبكات تلك عبر التنظيم خارج النطاق المحلي، وترشيد اتجاهات السلطة السياسية، وتجاهلها من أجل توفير الخدمات لأنصارها. وأما المهام التي كانت مناطة بالأعيان المحليين فقد أضحت الآن مسؤوليات موزعة عبر مجال سياسي جرى تحديده على نحو أسع نطاقًا، وأصبح الأتباع أعضاء في «الأمة»، وبات تقديم الخدمات مرتبطًا ارتباطًا وثيقًا لا ينفصم بأيديولوجيا تسير على هدي الرموز الشعبية والمفاهيم الشائعة عن الإنصاف.

القسم الثاني

الجماعات الخطابية القومية

الفصل الثالث

المكون الرمزي للمجالات الخطابية القومية المتنافسة

نشرت صحيفة **الكوكب** في عددها الصادر في 27 كانون الثاني/ يناير من عام 1920 التقرير التالي بشأن التظاهرة التي جرت في دمشق احتفالًا بعودة الأمير فيصل من أوروبا:

> التقى سمو الأمير فيصل اليوم في السرايا، وفدًا من متمني الخير الذين نظموا مظاهرة ضخمة ضمت 120 ألف مشارك، يهتفون مطالبين بالوحدة والاستقلال التام. وقد أعلن سموه التزامه الأكيد بالوحدة وأنه لن يقبل إلا بالاستقلال التام. وأثنى سموه على نظام التجنيد الإلزامي بغية الحفاظ على النظام... وكانت المدينة بأكملها قد أقفلت على نحو محكم بحيث يمكن للجميع المشاركة في المظاهرة، وكان الحماس شديدًا[1].

كان هذا التقرير من النوع الذي يمكن لقارئ صحيفة **الكوكب** أن يتوقع مطالعته في صفحاتها، وكما ذكرنا في الفصل الأول، فقد صدرت **الكوكب** عن المكتب العربي - البريطاني من أجل «دعم الحركة العربية وتعزيز العلاقات الطيبة بين إنكلترا والعرب»[2]. وهكذا كانت الصحيفة تنشر بانتظام أخبار الثورة

---

(1) **الكوكب**، 27 كانون الثاني/ يناير 1920، ص 5.

(2) DU, Wingate Files 143/2/167 (AB202), Arbur (Cairo) to Sirdar (Khartoum), 13 November 1916.

العربية على نحو إيجابي، وتنقل أخبار أنشطة زعيمها الأمير فيصل، أيام الحرب وما بعدها، وأنشطة الجمعيات الأدبية والنوادي السياسية الفلسطينية والسورية المناصرة لفيصل، مثل المنتدى الأدبي والنادي العربي.

ولربما ارتبك القارئ ذاته، على أي حال، من المقالة التي نُشرت في أسفل الأول مباشرة، ألا وهي المقالة التي كتبها كامل القصاب، وعرض فيها صورة مختلفة عن التظاهرة ذاتها:

> جرت اليوم مظاهرة وطنية ضخمة ضمت إليها أكثر من مئة ألف متظاهر من الطبقات كافة. وظهر من بينهم أعضاء مؤتمر لجان الدفاع الوطني السوري، والأحزاب السياسية، والعلماء، والأعيان، والمجلس البلدي، والموظفون المدنيون والعسكريون، والمزارعون، والأطباء، والصيادلة، والصحافيون، والنوادي العربية، والمدارس الملكية للقانون والطب، والمدارس العادية لتأهيل مدرسي المدارس الثانوية، والمدارس الأميرية والعامة، وأعضاء الطوائف الدينية كافة، والتجار والحرفيون، والنقابات، وزعماء الأحياء والقرى المجاورة.
>
> وقدمت المظاهرة تصريحًا من الأمة ينادي بالاستقلال التام، ووحدة سورية، ودعم الأمير للتجنيد الإلزامي الذي كانت الامة تخطط لاستخدامه ليكون درعًا يحميها. وقد تجمع الناس أمام دوائر الحكومة، وتحدث الخطباء، ونزل الأمير وأخذ يتحدث إليهم، قائلًا إنه لم ولن يجاهد إلا في سبيل الاستقلال التام، وأنه لا يوجد أي شيء يمكن أن يفصله عن الأمة – وأنه كان هناك بالأساس اتفاق على أن تكون سورية مستقلة وموحدة وغير قابلة للانقسام. وأثنى الأمير على الأمة لمطالبتها بالتجنيد الإلزامي.

أصبح جليًا أن ثمة اتجاهين متعارضين عند المقارنة بين المقالتين الأولى والثانية. فمن الناحية الأولى، تستخدم كلتاهما العبارات ذاتها وتشددان على الكثير من الظواهر نفسها: شعارات تدعو إلى «الاستقلال التام» و«الوحدة»؛ والمطالبة بالتجنيد الإلزامي؛ ووصف الحماسة وضخامة حجم الجمهور. ومن الناحية الثانية، ثمة تباينات ملموسة بين المقالتين. فالأمر الأشد وضوحًا في المقالة الأولى أن بؤرة الاهتمام كانت الأمير فيصل؛ والحشد من متمني الخير إنما وجد في ما

يتصل بالأمير، وهو المتلقي السلبي لهباته السخية. بينما الجماهير - «الأمة» - عند القصاب هي الفعالة؛ وفيصل هو السيف الذي عليه أن يستجيب لإرادتها. ولكن إضافةً إلى التغير في بؤرة الاهتمام، ثمة فوارق أشد دقة بين المقالتين. فعلى سبيل المثال، من المرجح أن كاتب المقالة الأولى لم يقسم الجماهير، أو في هذه المسألة لم يقسم المجتمع السوري، إلى طبقات؛ والأرجح أنه لم يفصل الأمة عن المؤسسة الحاكمة.

تؤكد الفوارق بين المقالتين على مسألة سبقت الإشارة إليها في المدخل: ألا وهي الميل، من جانب المؤرخين الذين يعملون ضمن إطار مثالي، إلى التشديد على الوحدة والتخفيف من أثر التنوع حينما يتناولون موضوع تطور الشعور القومي في الشرق الأوسط الحديث. بل إن استخدام مصطلح «القومية العربية» للدلالة على ما يجب دراسته ينطوي على تقييد للإطار المرجعي على نحو ملحوظ. وقد كتب أحد الباحثين في مطلع التسعينيات من القرن العشرين قائلًا إن «الدراسات العلمية بشأن أصول القومية العربية وأفكارها كثيرة».

> ومع ذلك، فقليلة هي الأعمال التي تستقصي صعود النزعة القومية المحلية (الوطنية) والظروف العربية الداخلية التي جعلتها تضرب جذورها في المشرق العربي بعد الحرب العالمية الأولى. وتسعى هذه الدراسة إلى أن تملأ هذه الفجوة. إنها تحليل للعوامل العربية التي أسهمت في إضعاف إطار القومية العربية في سورية، وكانت بالتالي إيذانًا بوجود قوى قومية إقليمية[3].

ومع ذلك، لا تبرر الأدلة المتعلقة بتلك الفترة التي تلت الحقبة العثمانية مباشرة منح الامتياز التاريخي لهوية «عربية» تعلو فوق سواها، أو النظر إلى الهويات الأخرى تلك على أنها عملية بتر غير طبيعي للهوية العربية «الحقيقية». وثمة أقل من ثلث المنشورات والملصقات الإعلانية الموزعة أو المعروضة في دمشق في الفترة الممتدة من تشرين الأول/ أكتوبر 1918 ولغاية تموز/ يوليو 1920، التي يمكن أن يجدها المرء في دور المحفوظات في أوروبا والشرق الأوسط

(3) Muhammad Muslih, «Rise of Local Nationalism in the Arab East,» in: Rashid Khalidi et al. (eds.), *The Origins of Arab Nationalism* (New York, 1991), p. 167.

أو في الصحف المعاصرة كانت موجهة إلى «العرب». بينما كانت المنشورات الأخرى موجهة نحو «السوريين» أو استخدمت عبارات تحية متعددة أو أشد التباسًا («المواطنون»، «الإخوة المواطنون»). وفيما يتصل بسكان سورية، فإن الهوية «العربية» لا تمثل هوية واحدة من بين هويات عدة محتملة أو ممكنة وحسب، بل تشير، كما سوف نرى أدناه، إلى الانتساب إلى جماعة مختارة ذات مواقف تجاه العلاقات المتبادلة بين الطوائف، وطبيعة الصلات التي توحد أفراد الجماعة، والعلاقة ما بين الحكومة و«الأمة»، ودور أسرة أشراف مكة في مستقبل سورية، والعلاقات مع الحجاز وتركيا والعراق، ومجموعة متنوعة من القضايا الأخرى.

علاوة على ذلك، فإن منح المؤرخين الامتياز لـ «القومية العربية» مؤداه إيثارهم لمجموعة مختارة من المثقفين والناشطين، والجمعيات السياسية، والمؤسسات التي لا تمثل بالضرورة تطلعات أغلبية أولئك المشاركين بالسياسة القومية، وهم أقل بكثير من أغلبية السوريين، إبان الحقبة الفيصلية. وفي حين أن بعض الذين داخل المعسكر القومي – وكانوا أعضاء في الحكومة العربية متحالفين مع الأمير فيصل، والحجازيين، والفلسطينيين، والعراقيين الذين كانوا قد دخلوا دمشق مع الجيش العربي، ممن يطلقون على أنفسهم صفة المثقفين، إضافة إلى المهنيين من المسلمين وطوائف الأقليات الذين جعلتهم خبراتهم يتميزون من أغلبية سكان سورية – لربما استمدوا جذور نزعتهم القومية من التأملات الفلسفية أو، على نحو أكثر واقعية، من السياسة النفعية أو الوعد الذي قطعته دول الوفاق في أثناء الحرب بشأن حق تقرير المصير، وغيرهم – بمن في ذلك العديد من المسلمين السوريين الذين لا ينتمون إلى النخبة ومناصريهم في اللجان الشعبية مثل كامل القصاب – الذين تتجذر تطلعاتهم القومية في مجموعة مختلفة من الخبرات والأعراف.

هكذا، ضم المجال القومي، في سورية ما بعد الحقبة العثمانية، جماعة متباينة من الناشطين، والمنظمات، والناخبين الذين عبروا عن نزعاتهم القومية عبر

الخطابات التي كانت متباينة على نحو مماثل[4]. ولو كانت الإمبراطورية العثمانية متجانسة، ولو لم يكن ثمة أوجه اختلاف ذات طابع طائفي وطبقي، ولو كانت التأثيرات المترتبة على علاقات السوق الآخذة في التوسع وفاعلية الإصلاحات الإدارية العثمانية موحدة ومتزامنة، لكان مبررًا للمؤرخين افتراض وجود استجابة أيديولوجية موحدة للظروف المتغيرة. ومع ذلك، فمن الواضح أن الحال ليس كذلك. إذ عملت هاتان السيرورتان التوأمان على نحو متفاوت، وأثرتا في مناطق وشرائح اجتماعية مختلفة بصورة غير متزامنة وغير متساوية. ونتيجة لذلك، ففي حين أن كل الخطابات القومية عكست السيرورات العالمية التي تعمل في الشرق الأوسط، إلا أن نطاق عملها وأسلوبه كانا متباينين. إضافة إلى ذلك، لما كانت الإمبراطورية العثمانية وحكومة الأمير فيصل العربية كلتاهما تعانيان من الضعف، ونظرًا إلى اتساع مدى التحول الاقتصادي والسياسي، فلا يمكن خطابًا قوميًّا مهيمنًا بمفرده أن يكون مقنعًا ولا أن يجبر الآخرين على التسليم له.

ليس المراد من هذا أن يقال إن مكونات الخطاب السياسي لم تصبح ملكًا مشتركًا لدى العديد من التجمعات القومية، أو كلها، في سورية ما بعد الحرب العالمية الأولى. وقد تشاطرت تشكيلة متنوعة من المنظمات القومية، بل وحتى تلك المنظمات التي تلقى استحسانًا أو تسعى إلى تعبئة دوائر جماهيرية مختلفة تمامًا، عددًا من الشعارات («نطالب بالاستقلال التام»)، والرموز الحسية (العلم العربي، والأمير فيصل)، والمفردات (كلمة طامعون، ويقصد بهم الذين يريدون الاستحواذ على ملك غيرهم، لوصف الإمبرياليين)، والاستعارات. ولم تسلم أي منظمة قومية من تأثير أنشطة الآخرين: وفي حين أن كامل القصاب، على سبيل المثال، قد أفاد وزملاءه من موقع الوسيط للتوفيق بين اللغة القومية والرموز الشعبية والممارسات الخطابية، ولم تكن النخب القومية غير واعية كليًا للقيود التي تضعها تلك الرموز والممارسات أيضًا على تنظيماتها.

(4) للاطلاع على تعريف «المجال السياسي» المماثل، يُنظر: Victor Turner, «Hidalgo: History as Social Drama,» in: *Dramas, Fields, and Metaphors: Symbolic Action in Human Society* (Ithaca, 1974), p. 127.

لقد يسر الجو السياسي المشحون في سورية ما بعد الحرب التبادل بين الجماعات القومية أيضًا. وتولت الحكومة العربية ومختلف الجمعيات السياسية تنظيم التظاهرات (مثل تلك التي وصفتها آنفًا التقارير الصحافية) التي شارك فيها عشرات الآلاف. وابتكرت الحكومة الأعياد الدنيوية الوطنية إحياءً للذكرى السنوية لدخول الجيش العربي الحرب العالمية الأولى إلى جانب دول الوفاق، والحداد على «الشهداء» العرب الذين أعدمهم جمال باشا، والاحتفال بيوم الاستقلال. ولم تقتصر الملصقات السياسية على تزيين جدران المباني في المدن من حلب إلى عمان بالحبال التي تحمل الأشرطة والأعلام، بل وشوهدت الزينات فوق العمائر في الكثير من القرى. وأعاد الناشطون صياغة مفاهيم الأنشطة الثقافية الشعبية وأعادوا كتابة المسرحيات، والروايات التاريخية، ومسرحيات خيال الظل كراكوز <وعيواظ> من أجل تضمينها رسائل قومية. وغرست المدارس في أذهان الطلبة عقيدة حب الوطن وقادت جموع الطلبة في التظاهرات. وكانت الحكومة، وحلفاؤها في المنظمات غير الحكومية، واللجان الشعبية تغلق الأسواق في أيام الأعياد القومية، وتخصص أيامًا للاحتجاج، وتتداول العرائض بمساعدة المخاتير، والقبضايات، والشرطة، وتنتزع التبرعات من التجار الأثرياء من أجل القرض الوطني. وقصارى القول إن جمهورًا سياسيًا جديدًا قد جرى خلقه وتعبئته معًا.

على الرغم من القواسم المشتركة هذه إلا أنه من الواضح، مع ذلك، أن المنظمات القومية المتنافسة بينت رؤاها البديلة للأمة والمستقبل. وكانت النتيجة أن بواكير الفترة ما بعد العثمانية – ألا وهي الفترة التي أضحت فيها أنواع مختلفة من النزعة القومية البنية الأيديولوجية التي عبرت بوساطتها قطاعات كبيرة من سكان سورية عن مفهومها للمجتمع المحلي – كانت فترة اتسمت بالمنافسة الشديدة بين «الجماعات الخطابية».

على العموم، تمتلك الجماعات الخطابية ثلاث خصائص متميزة ترتبط في ما بينها بعلاقات متبادلة. أولًا، يشارك الأفراد داخل كل جماعة ويتفاعلون عبر مؤسسات عامة وممارسات اجتماعية متوافق عليها. وترسخ هذه المؤسسات والممارسات الترتيب المنظم والمناسب للعلاقات الاجتماعية كما يعيها أعضاء

الجماعة وكما توضحت عبر الأيديولوجيا المشتركة. وعلى العكس، يكفل إضفاء الطابع المؤسسي استقلال الجماعة الخطابية والمجال الخطابي المكون لها: عبر المؤسسات، وبقاء الأفراد داخل الجماعة على اتصال دائم، مما يعزز ويعيد تمثيل التزامهم الجماعة بوساطة، على سبيل المثال، الدعاية والاحتفالات العامة. ثانيًا، على الرغم من أن الجماعات الخطابية المتنافسة وإنما المتعاصرة غالبًا ما تستخدم رموزًا متماثلة، إلا أن أعضاء كل جماعة يستمدون المعاني الملائمة والمميزة لكل جماعة من الرموز الأكثر أهمية (مثل «الرموز الرئيسة» التي سنناقشها أدناه) والإجراءات الرمزية (مثل «طقوس العنف» التي حددتها نتالي زيمون ديفيس، أو «المسرح المضاد» لـ إ. ب. تومسون). وأخيرًا، يتشاطر أعضاء الجماعة مجالاً خطابيًا متفردًا - «الحيّز» الذي يشمل، وينظم، ويوحد الرموز البارزة للجماعة. ونظرًا إلى أن المجال الخطابي يحدد نطاق المعاني المحتملة التي يمكن استخلاصها مما تنطوي عليه الرموز، فإنه يصوغ المقولات ويعين الحدود التي توجه الأفكار والأنشطة والمناقشات التي تدور ضمن الجماعة[5].

كانت الحكومة العربية والفتاة (إبان الشطر الأعظم من العهد الفيصلي)، والنوادي العربية التي كان نفوذ المتنورين يهيمن عليها، من جهة، واللجان الشعبية وحلفاؤها، من جهة ثانية، تجسيدًا لإطارين مؤسساتيين متمايزين يؤازران الجماعات الخطابية المتنافسة في سورية ما بعد الحقبة العثمانية. ولما كان تكوين الجمعيات السياسية وبنيتها تلك موضوع الباب الأول، فسوف نكتفي بمقارنة الرموز والمجالات الخطابية التي تميز هاتين الجماعتين الخطابيتين في هذا الفصل وذاك الذي يليه.

---

(5) Robert Wuthnow, *Communities of Discourse: Ideology and Social Structure in the Reformation, the Enlightenment, and European Socialism* (Cambridge, Mass., 1989), pp. 13-15, 553, 555; François Furet, *Interpreting the French Revolution*, Elborg Forster (trans.) (Cambridge, England, 1981), pp. 37-38, 52, 130, 173-176; Cornelius Castoriadis, *The Imaginary Institution of Society*, Kathleen Blarney (trans.) (Cambridge, Mass., 1987), p. 124; Clifford Geertz, «After the Revolution: The Fate of Nationalism in New States,» in: *The Interpretation of Cultures* (New York, 1973), pp. 249-254; Natalie Zemon Davis, «The Rites of Violence: Religious Riot in Sixteenth-Century France,» *Past and Present*, vol. 59 (1973), p. 59; E. P. Thompson, *Customs in Common: Studies in Traditional Popular Culture* (New York, 1991), pp. 64-69.

بينما سيصبح الفصل الذي أدين به لكتاب روبرت وثناو الموسوم بـ **الجماعات الخطابية** (*Communities of Discourse*) جليًا على مدار الباب الثاني، إلا أنني أبحث لنفسي تعديل إطار تحليل وثناو.

يستند التقسيم الثنائي بصورة أساسية للنزعة القومية في سورية إبان الحقبة ما بعد المرحلة العثمانية مباشرة التي نعرض لها هنا وفي الفصول التالية إلى افتراضين كنا قد تناولناهما في المدخل. أولًا، إنه يفترض أن العوامل الخارجية المقابلة للأيديولوجيات القومية المتميزة ذاتها تضطلع بدور مهم في نجاح الحركات القومية أو إخفاقها. وهكذا، فعلى الرغم من ظهور جماعات خطابية أخرى بعد تقطيع أوصال الإمبراطورية العثمانية، إلا أن الوصول إلى موارد مثل الطاقة البشرية، ووسائل الإعلام، والبنى السياسية التي نعمت بها الجماعتان اللتان سوف نتفحصهما أدناه ومكنتاهما من تهميش أو إدماج منافسيهما الطبيعيين، وهكذا هيمنتا على المجال القومي[6]. ثانيًا، على الرغم من أن الحدود التخيلية للهوية عادة ما تكون «رخوة» - عنينا، مرنة نسبيًا، ولا تقتصر على جماعة بعينها، ولا تعي ذاتها - إلا أنها تغدو مادية في أثناء فترات التعبئة والأزمات، عندما يكون الأفراد والجماعات التي هم جزء منها في مواجهة مباشرة مع نظرائهم بوصفهم «الآخر». كما ينبغي أن يكون جليًا الآن أن الشهور الاثنين والعشرين التي تلت نهاية الحرب العالمية الأولى، وبخاصة الفترة الفاصلة التي تمتد من كانون الثاني/ يناير إلى تموز/ يوليو من عام 1920، هي التي تشكل هذه الفترة.

الرموز الرئيسة والشعارات

قبل الشروع في تحليل الرموز التي هيمنت على الخطاب القومي إبان العهد الفيصلي، من الضروري أولًا أن نحدد فئتين من الرموز التي سوف نعكف على

(6) كان المجتمع السوري في مرحلة ما بعد العهد العثماني، شأنه شأن كافة المجتمعات، مكونًا من جماعات أصغر حجمًا، وكثيرًا ما كانت متداخلة، شاركت في أنشطة متميزة وينتابها القلق حيال «هواجس بؤرية» معينة. يُنظر: John Clark et al., «Sub Cultures, Cultures, Class,» in: Tony Bennett et al. (eds.), *Culture, Ideology, and Social Process: A Reader* (London, 1981), p. 56.

وفي حين رسمت الاستجابات المتباينة إزاء اتساع نطاق علاقات السوق ومؤسسات الدولة الحديثة خط الصدع الرئيس الذي قسم المجتمع السوري، فإنه لا يمكن استبعاد العوامل الأخرى - الجهوية، والجيلية، والتجريبية، والدينية، و«الطبقية»، والمهنية - تمامًا. واحتوت، على سبيل المثال، الجماعة الخطابية التي دعمتها اللجان الشعبية على عدة جماعات فرعية وتنوعات محلية. وقد تشتمل التنوعات تلك على تنوع فلسطيني، اضطلعت فيه مناهضة الصهيونية بدور محوري، وتنوع حلبي، تعامل مع التمايز الإثني واللغوي التركي/ العربي بقدر نسبي من اللامبالاة.

دراستها في هذا الفصل: «الرموز الرئيسة» والشعارات. وقد طبق نيلز جونسون ما توصلت إليه الاختصاصية بالأنثروبولوجيا شيريل ب. أورتنر على دراسته للنزعة القومية في فلسطين وعرف الرموز الرئيسة بأنها «تلك [الرموز] التي تهيمن على منظومة المفاهيم بفضل طاقتها الكبيرة نسبيًا إما على تلخيص النظام الاجتماعي أو توسيعه[7]، ووفقًا لأورتنر، تعد الرموز الرئيسة «إشارة إلى أكثر من مؤشر من المؤشرات [التالية]»:

1- يخبرنا الأهالي أن «س» يتمتع بالأهمية من الناحية الثقافية.

2- يبدو أن «س» يستحث الأهالي على نحو إيجابي أو سلبي، بدلًا من أن يكونوا غير مبالين.

3- يظهر «س» في العديد من السياقات المختلفة...

4- هناك قدر أكبر من التوسع الثقافي المحيط بـ «س»، مثلًا، التوسع في المفردات، أو التوسع في تفاصيل طبيعة «س»، بالمقارنة مع ظاهرة مماثلة في الثقافة.

5- هناك قدر أكبر من القيود الثقافية المحيطة بـ «س» إما بسبب العدد الكبير من القواعد، أو قسوة المحظورات المتعلقة باستخدامها[8].

وتظهر الرموز التي نحللها في هذا الفصل بعض هذه السمات أو كلها.

ولا تقتصر دراسة أورتنر للرموز الرئيسة على تلك الرموز المتضمنة في وسائل التواصل المكتوبة أو الشفهية، كيفما اتفق؛ إذ أثبتت أن الأشياء المادية المصنوعة قد تحدث الأثر نفسه الذي تحدثه الرموز الرئيسة أيضًا. وعلى الرغم من أن هذا الفصل سوف يركز على الرموز المكتوبة والمنطوقة، فقد تظهر الأشياء الصفات المميزة للرموز الرئيسة إبان العهد الفيصلي. وتعد الملابس

---

(7) Nels Johnson, *Islam and the Politics of Meaning in Palestinian Nationalism* (London, 1982), p. 66.

(8) Sherry B. Ortner, «On Key Symbols,» *American Anthropologist*, vol. 75 (1973).

من بين مثل هذه الأشياء. ونظرًا إلى وجه الاختلاف ذي الطابع الجهوي للأزياء، فقد كانت الملابس في البداية بمثابة مؤشر جغرافي. ولكن بسبب من القوالب النمطية الجهوية، فإن الجغرافيا لا تنفصل عن سواها من الدلالات. وكان قد وقع انشقاق، حتى قبل احتلال قوات الوفاق لدمشق في تشرين الأول/ أكتوبر من عام 1918، بين سكان سورية الذين لم يغادروا وطنهم إبان الحرب، من جهة، والضباط الحجازيين والعراقيين الذين شاركوا في الثورة العربية، من جهة ثانية. وقد نال الحجازيون، على وجه الخصوص، نصيبًا من السخرية والهزء لافتقارهم للكياسة وآداب السلوك، وبحلول شهر تشرين الثاني/ نوفمبر من عام 1918 بات الدمشقيون يشيرون إليهم، على سبيل الازدراء، بعبارة «البدو»[9]. ونظرًا إلى تعرض أفراد الجيش العربي علنًا للسخرية تخلوا عن الكوفية التي كانوا يضعونها فوق رؤوسهم. واتخذوا سدارة على الطراز الأوروبي أصبحت تعرف باسم الفيصلية. وقد وصف شاهد عيان تحول فيصل ذاته على النحو التالي:

> حين يصل الدار ويقص على جده ما رآه في يومه، لا يكتمه أن الملك كان، وهو أمير، أجمل منه اليوم وأكثر هيبة. فقد كان في الزيارة السابقة يلبس ثوبًا عربيًا أبيض فضفاضًا. تعلوه عباءة سوداء رقيقة ناعمة (مزوية)، ويعتمر بكوفية بيضاء هفهافة يمسكها عقال أسود (بريم) فهو، بذلك، مثال العربي البدوي الصريح. أما اليوم فهو يرتدي بزة عسكرية ويحمل على كتفيه وصدره (نياشين) وأوسمة، ويعتمر بسدارة من سدارات الضباط - كان يقال لها فيصلية نسبة إليه - فلا يوحي منظره بأكثر من أنه ضابط كبير[10].

وقد تبنى زيد، الأخ الأصغر لفيصل، وابن عمه ناصر هذا الزي الأوروبي «استجابة للتلميحات»[11]. وكان الحجازيون بتحولهم إلى ارتداء هذا الطراز من الملابس

---

(9) IO L/PS/11/140 P497/1918 (P1171), Sir Mark Sykes, «Appreciation of the Situation in Syria, Palestine, and Lesser Armenia,» 15 November 1918; FO 371/4178/7094, Hogarth to CPO, EEF, 18 December 1918; AD 2358/dossier: emir Fayçal, «Mystification chérifienne,» 13 September 1919; MD 4H112/1, «Compte rendu du capitaine Gautherot sur la situation politique à Alep,» 6 May 1920.

(10) رضا صافي، **على جناح الذكرى** (دمشق، 1982)، ج 1، ص 234.

(11) IO L/PS/11/140P497/1918 (P1171), Sir Mark Sykes, «Appreciation of the Situation in Syria, Palestine, and Lesser Armenia,» 15 November 1918.

المخيطة يعلنون، في الواقع، أنهم يحملون التطلعات «الحضارية» ذاتها التي يحملها متنورو دمشق الأكثر تحضرًا.

قدم المراقبون البريطانيون في العاصمة السورية في وقت مبكر مثل شهر أيار/ مايو من عام 1919 تقريرًا عن حركة تهدف إلى عدم التشجيع على ارتداء الملابس الأوروبية والظهور بها علنًا[12]. وإبان أزمة الاستبدال التي شهدها خريف عام 1919 وما بعدها بدا واضحًا باطراد أن دول الوفاق كانت تخطط لتقسيم سورية «ضمن حدودها الطبيعية» ووضع المنطقتين الساحلية والشرقية تحت الانتداب الفرنسي، فتحولت المشاعر الشعبية في دمشق وغدت معادية للغرب على نحو خاص. وقد استجاب الشبان من الطبقات الدنيا للحماسة الوطنية، من جراء السلطة التي منحتهم إياها اللجان الشعبية، وتجرأوا على التعبير عن استيائهم من الطبقية علنًا، فوجهوا الإهانات إلى النساء اللواتي يرتدين الأزياء الأوروبية، بل وهاجموهن علنًا. واستجابة لذلك، أصدرت الحكومة العربية بيانًا لم تكتف فيه بتهديد المهاجمين بالعقوبات وحسب، بل وحذرت النساء من أن موظفي الحكومة المدربين سوف يسيرون من الآن فصاعدًا دوريات في الشوارع، وألقت اللوم على أوصياء كل امرأة «تتجاوز الحدود في زينتها وتبتعد عن الأعراف»[13]. وهكذا تحولت الملابس طوال العهد الفيصلي من مؤشر جغرافي إلى مؤشر سياسي، واتخذت الملابس الدور الذي تدعوه أورتنر «الرمز الملخص»: وهو الرمز الذي «رأوا أنه يلخص ويعبر ويمثل للمشاركين بصورة عاطفية وبطريقة ليس فيها أي تمييز نسبيًا، ماذا يعني النظام لهم»[14].

أما الفئة الأخرى من الرموز التي سنتناولها بالدراسة في هذا الفصل فهي الشعارات التي تنطوي على علاقة بالرموز الرئيسة ذات شقين: إذ إنها شعارات قد تضم رموزًا رئيسة، أو تصبح هي ذاتها رموزًا رئيسة[15]. وفي سياق جهودها

(12) FO 371/4149/114964, Civil Commission Baghdad, «Confidential Report for Week Ending 31/5/19».

(13) **العاصمة**، 29 نيسان/ أبريل 1920، ص 4.

(14) Ortner, «On Key,» p. 1339

(15) للاطلاع على الشعارات التي تؤدي الدور الأخير، يُنظر: George Rudé, *The Crowd in History: A Study of Popular Disturbances in France and England, 1730-1848* (London, 1964), p. 245; =

الرامية إلى التعبئة، حاولت الحكومة العربية، وحلفاؤها، والجماعات السياسية المنافسة مثل اللجان الشعبية، أن تجتذب أوسع قطاع ممكن من الجمهور بوساطة ابتكار الشعارات ونشرها. وبينما ثبت أن بعض هذه الشعارات حظي بالرواج لدى الناس، إلا أن الشعارات الأخرى منيت بالإخفاق لأسباب متنوعة. وقد عملت الحكومة العربية بنشاط على ردع نشر بعض الشعارات، مثل تلك التي تتهم الحكومة بالخيانة أو تلك الرسائل التي تتضمن معاداة الصهيونية(16). وكان ثمة شعارات أخرى تفتقر إلى الثراء الرمزي الذي من شأنه أن يجعلها تلقى القبول لدى العديد من أنصارها في آن واحد. وقد أقصت الشعارات المؤثرة تلك الشعارات غير الفعالة، وفي سيرورة تشبه الانتقاء الطبيعي الزمرَ السياسية التي لم تمثل أو لم تتمكن من تمثيل نفسها أو برنامجها عبر شعارات مؤثرة ورموز رئيسة فلم يكن بوسعها لا أن تكسب التأييد الشعبي ولا أن تحافظ عليه. ونتيجة لذلك، تمكنت الزمر التي كان بوسعها تمثيل برامجها من أن تحل، بما لا يدع مجالًا للشك، محل تلك الزمر التي لم تكن قادرة على ذلك(17). وهكذا يمكن للشعارات أن تتوضّع عند نقاط الاتصال التي تربط بين التطلعات الشعبية والمقتضيات التنظيمية للمشروعات السياسية.

تستند الدراسة التالية للرموز التمثيلية والشعارات على العديد من المصادر المتنوعة بما في ذلك النشرات الدعائية، ونصوص الخطابات، ونسخ من المنشورات المكونة من ورقة ذات قطع كبير مطبوعة على وجه واحد والكتابات على الجدران، ودواوين الشعر، وتقارير عن الشعارات التي كانت تنشد في التظاهرات أو يهتف بها في أعمال الشغب، ومقالات الصحف وافتتاحياتها،

= ووفقًا لما أورده هارولد دي. لاسويل، يمكن تعريف الشعارات بأنها «البيانات الموجزة المقدمة إلى الجمهور لكي يسترشد بها»، التي «[تضطلع بدور الوسيط] بين الكلمة الواحدة والطروحات القانونية أو الفلسفية الطويلة، وتكتسب مغزى لها بوساطة التكرار والسياق»، Harold D. Lasswell, «The Language of Power,» in: Harold D. Lasswell et al. (eds.), *Language of Politics: Studies in Quantitative Semantics* (New York, 1949), p. 17.

(16) للاطلاع على موقف الحكومة العربية من الدعاية المناهضة للصهيونية، يُنظر: MAE L:SL/vol. 12/32-38, Cousse to HC, 6 April 1919.

(17) للاطلاع على تحليل مواز لـ «الاصطفاء الطبيعي» للشائعات، يُنظر: Tamotsu Shibutani, *Improvised News: A Sociological Study of Rumor* (Indianapolis, 1966), pp. 176-182.

والبرقيات، والمذكرات، وثمة مجموعة تتألف من قرابة خمسين منشورًا أصليًا، جمعت من مجموعة متنوعة من دور المحفوظات، التي تعد ذات قيمة كبيرة بصفة خاصة لهذه الدراسة. ولما كان القصد من هذه الأوراق جميعها الإفادة منها لتحقيق الهدف ذاته على وجه التقريب وبناء على ذلك كانت محكومة بالقواعد المرعية ذاتها، وبما أن الدبلوماسيين والرحالة والجواسيس الذين تولوا جمعها كانوا يدونون مواعيد تسجيلها والظروف المحيطة بتوزيعها، فإنهم يوفرون وسائل علمية للتحقق من تطور الاستخدامات الرمزية التي تقع داخل وسط متسق وهادف بشكل استثنائي وتقويمه[18].

من «بروتوكول دمشق» إلى «الاستقلال التام لسورية...»

في شهر أيار/ مايو من عام 1915، قبل بدء الثورة العربية، وصل الأمير فيصل إلى دمشق وهي الزيارة الثانية له في غضون شهرين للالتقاء بزعماء الفتاة والعهد ممن استعصى على جمال باشا اكتشاف أمرهم. ووفقًا لما أورده أنطونيوس فقد قدموا إلى الأمير مشروع ما سمي «بروتوكول دمشق»، وهي وثيقة تحدد الشروط الرئيسة التي يجب أن يوافق عليها البريطانيون قبل أن تمد الجمعيات السرية يد العون إلى دول الوفاق[19]. وفي تموز/ يوليو التالي بعث الأمير عبد الله، الابن الثاني لحسين شريف مكة، رسالة نيابة عن والده إلى رونالد ستورز، السكرتير الشرقي في دار الاعتماد البريطاني في القاهرة للبدء بالمفاوضات التي سوف تبلغ ذروتها بالثورة العربية. وقد طلب عبد الله في هذه الرسالة أن توافق بريطانيا على إنشاء خلافة عربية وتعترف بـ «استقلال البلدان العربية» ضمن الحدود المعينة في الشمال بمرسين وأضنة وبموازاة خط العرض ثلاثة وسبعين، وفي الشرق عند حدود فارس، وفي الجنوب عند المحيط الهندي (ما عدا عدن)، وفي الغرب

(18) جميع الاقتباسات منقولة عن الأصل العربي، ما لم يذكر خلاف ذلك. وقد حاولت أن أقدم الاقتباسات باللغة التي تتقيد بالنص الأصلي قدر المستطاع.

(19) للاطلاع على تقويم نقدي لقصة «بروتوكول دمشق» التي يتضمنها «يقظة العرب» (The Arab Awakening) لمؤلفه جورج أنطونيوس، يُنظر: Liora Lukitz, «The Antonius Papers and *The Arab Awakening*, Over Fifty Years On,» *Middle Eastern Studies*, vol. 30 (October 1994).

البحر الأحمر والبحر الأبيض المتوسط. وكانت هذه الحدود مماثلة لتلك التي طالبت بها هاتان الجمعيتان السريتان في البروتوكول الذي قدمتاه[20].

كانت العاصمة بعد قرابة أربعة أعوام، وقبيل زيارة لجنة كينغ - كرين لدمشق وفي أثنائها، ممتلئةً بآلاف المنشورات[21]. ومن بينها البيان المعنون بـ«الاستقلال أو الموت!» ويتضمن الفقرات التالية:

تطالب كافة الأمم المضطهدة اليوم باستقلالها وحريتها، وتضحي بدمائها وأموالها في سبيل هذا الهدف. أفلا يجدر بنا نحن السوريون <السوريين> العرب أن نوحد صفوفنا ونغدو كتلة واحدة للمطالبة باستقلالنا التام، وأن نكون أحرارًا من نير الحماية أو الوصاية؟ إن يد الله مع الجماعة. (الحماية والانتداب مترادفان، وكلاهما ينذران بالضم).

إننا لا ننكر ما فعله الحلفاء حين مدوا لنا يد العون لبلوغ أهدافنا، لكن هل من العدل والإنصاف أن نتنازل لهم عن بلادنا لقاء هذه المساعدة؟ هل من المعقول والمناسب أن نضع بلادنا تحت نير الحماية أو الانتداب من واحد منهما؟ لا - قطعًا لا....

إن كافة أجزاء سورية - جنوبها، وشمالها، وغربها، يعقدون الآمال عليكم وكذلك فلسطين (جنوب سورية)، وهي أول من ينبغي أن تتشاور معها اللجنة، وهي تطالب بالاستقلال التام من دون تقسيم سورية وترفض كل حماية، أو وصاية، أو انتداب، ولا ريب بأن الأجزاء الأخرى من سورية لن تكون أقل وطنية وحماسة من شعب فلسطين الذي أدهش اللجنة بوحدته واتفاق آرائه. أفليس حريًا بنا أيضًا أن نوحد آراءنا وقلوبنا لنزيل العار والاستعمار عن أرض آبائنا ونرفض كل حماية ووصاية وانتداب، أو أي أمر أخر يقصد به استعبادنا؟ وهاكم ما يجب أن نطالب به:

---

(20) J. C. Hurewitz, *The Middle East and North Africa in World Politics: A Documentary Record,* vol. 2: *British-French Supremacy, 1914-1945* (New Haven, 1979), pp. 47-48; George Antonius, *The Arab Awakening: The Story of the Arab National Movement* (London, 1938), p. 157; David Fromkin, *A Peace to End All Peace: The Fall of the Ottoman Empire and the Creation of the Modern Middle East* (New York, 1989), p. 175.

(21) يمكن الاطلاع على مجموعة مختارة كبيرة من المنشورات في: MAE L:SL/vol. 15/340/92-95, Picot to Pichon, 21 July, 1919; MD 7N4182/4/340, Picot to MAE, 21 July, 1919.

1- الاستقلال التام لسورية والأراضي العربية المحررة الأخرى مثل العراق.

2- رفض كل حماية أو وصاية أو انتداب أو ما يشابهها. وإننا نبدي أشد الاحتجاج على المادة 22 من ميثاق عصبة الأمم.

3- وحدة كافة أجزاء سورية (من جبال طوروس في الشمال، ونهري الخابور والفرات في الشرق، والصحراء العربية ومدائن صالح في الجنوب، والبحر الأحمر وخط العقبة - رفح، والبحر الأبيض المتوسط في الغرب). ونرفض رفضًا قاطعًا كل هجرة صهيونية.

4- لا يمكن للتاريخ أن ينكر المستوى الذي بلغته السلالات الحاكمة العظيمة مثل الأمويين والعباسيين، وما أنجزته بفضل استقلالها التام. وبقدر ما نحن بحاجة إلى أخصائيين في بعض المسائل إلا أننا سوف نشتري خدماتهم بأموالنا على نحو ما جرى في أكثر البلاد تحضرًا.

يوضح هذا المنشور - وهو أنموذج لتلك المنشورات الموزعة في أرجاء سورية كافة في ربيع وصيف عام 1919 - مدى التقدم الذي وصل إليه الحوار بشأن الاستقلال في غضون أربعة أعوام. ولئن كان هذا المنشور موجهًا إلى «العرب والمسلمين والمسيحيين واليهود» وموقعًا بعبارة «وطني عربي»، وعلى الرغم من مطالبته باستقلال «سورية وسواها من الأراضي العربية المحررة مثل العراق»، إلا أنه يعتبر بوضوح أن الكاتب والجمهور أعضاء في جماعة متميزة من «عرب سوريين» فهم (معشر، جماعة) سكان المنطقة الذين يقيمون داخل ما يسمى «الحدود الطبيعية لسورية». علاوة على ذلك، يعرض واضع المنشور عددًا متنوعًا من صيغ الشعار المربك ولكنه مع ذلك أكثر وضوحًا ويحظى بشعبية أكبر، والقائل «نطالب بالاستقلال التام لسورية داخل حدودها الطبيعية، لا حماية ولا وصاية ولا انتداب» الذي يكفل مزيدًا من الجاذبية للعبارة الأشد غموضًا «الاستقلال للبلدان العربية الأخرى» التي يتضمنها بروتوكول دمشق ورسالة الأمير عبد الله.

يمكن إحراز فهم أوضح لتطور مصطلحات النقاش القومي عبر عينات من المنشورات تلك. فقد بلغت نسبة المنشورات الموجهة إلى العرب ما معدله 55 في المئة من المنشورات الصادرة في الفترة الممتدة ما بين تشرين الأول/ أكتوبر 1918

وحتى نيسان/ أبريل 1919 التي من الممكن الاطلاع عليها في دور المحفوظات الفرنسية والبريطانية والسورية والأميركية، أو تلك التي أعيد طبعها في الصحف المعاصرة الموجهة إلى العرب، في حين أن 16 في المئة من المنشورات كانت موجهة إلى السوريين، إضافةً إلى ذلك فإن ما معدله 16 في المئة من المنشورات كانت تنادي بالوحدة العربية، و9 في المئة تطالب «بالاستقلال التام». ولم يأت أي من المنشورات على ذكر الحدود الطبيعية لسورية. وفي الشهور الخمسة التالية، من جهة أخرى، بلغت نسبة المنشورات الموجهة إلى العرب ما معدله 5 في المئة وحسب، بينما كان 23 بالمئة من المنشورات موجهًا إلى السوريين(22). ولم يكن أي من المنشورات يدعو إلى الوحدة العربية، وقد بلغت نسبة المنشورات التي أتت على ذكر الحدود الطبيعية لسورية 45 في المئة، وتضمنت 68 في المئة من المنشورات المطالبة بـ «الاستقلال التام».

وفقًا للمصادر الفرنسية، فإن شعار «نطالب بالاستقلال التام»، لوحده أو مرفقًا بأحد الشرطين المبينين في المنشور الآنف الذكر أو كلاهما («من أجل سورية في حدودها الطبيعية»، «لا حماية، ولا وصاية، ولا انتداب») كان قد حقق عند وصول لجنة كينغ – كرين إلى دمشق في صيف عام 1919 الوجود المطلق في المنشورات القومية، والكتابات على الجدران، والمنشورات المكونة من ورقة ذات قطع كبير مطبوعة على وجه واحد؛ وذلك في صورة عز نظيرها إبان العهد الفيصلي(23). وقد حدث هذا على الرغم من أن الشعار يتضمن آراء في موضوعين – ألا وهما طبيعة الاستقلال، ورسم حدود الأمة – اللذين كانا محور نقاش واسع تخلله الجدل إبان الحرب والأشهر الأولى من الحقبة ما بعد العثمانية على حد سواء. كما أنه حدث من دون مساعدة اللجان الشعبية – النصير المؤسساتي الأساسي للشعار – التي ما زال ينتظر تشكيلها شهورًا عدة في المستقبل.

لئن كانت سرعة انتشار الشعار تعيق استعادة نشأته وتاريخه إلا أنها

---

(22) وجه 23 في المئة إلى المواطنين وأبناء الوطن، وهلم جرّا، بينما تخلو البقية من أي تحية.

(23) MAE L:SL/vol. 15/340/92-95, Picot to Pichon, 21 July 1919.

لا تفسده تمامًا، بل على العكس، إذ ما زال بالإمكان تتبع أصل هذا الشعار وتحديده بطريقتين. أولًا، يتضمن الشعار عناصر – استخدام كلمات الاستقلال التام وعبارة لا حماية، ولا وصاية، ولا انتداب للتعبير عن الرفض المطلق لهيمنة دول الوفاق – التي هي مميزة جدًا بحيث يمكن تتبعها رجوعًا إلى صياغتها الأولية بقدر من الدقة. ثانيًا، نظرًا إلى أن الشعار على العموم يعد جزءًا لا يتجزأ من بعض النصوص أو مرفقًا ببعضها الآخر، فغالبًا ما تكون كلماتها وعباراتها معبرة على نحو يتسم بالتحديد والوضوح. وذلكم هو ما جعل ربط تلك الكلمات والعبارات بمنظمات قومية أو جهات منظمة أو مبادرات سياسية بعينها أمرًا يسيرًا. وإن سرد مجموعة معينة من المراجع الجغرافية في المنشور الآنف الذكر، على سبيل المثال، يربط الشعار بجهود سابقة ترمي إلى تحديد الامتدادات البعيدة للجماعة القومية. ويمكن القول عمومًا إنه من الممكن، عندئذ، إعادة بناء تاريخ المطالبة بـ «الاستقلال التام لسورية...» كما يلي:

كنا قد ناقشنا في الفصول السابقة أن الثورة العربية وداعميها يمثلون واحدة من بين الجماعات العديدة التي تتألف منها الحركة القومية السورية/ العربية إبان الحرب العالمية الأولى. والواقع، إن الدعم الذي حظيت به الثورة العربية لدى زمرة كبيرة من السوريين المنفيين الناشطين سياسيًا في مصر، على سبيل المثال، كان ضنينًا في أحسن الأحوال، فقد شعرت هذه الزمرة بالريبة إزاء الدافع الذي حمل البريطانيين وأشراف مكة للوصول إلى عقد تحالفهما، وشككت بقدرة المكيين على قيادة حركة قومية حديثة و/ أو خشيت أن يؤدي ارتباط الحركة بعناصر خلافة عربية أو هاشمية إلى نفور السكان المسيحيين في لبنان وسورية. «ليس ثمة شك بأن السبب الحقيقي للخوف لدى السوريين أن يجدوا أنفسهم تحت ظل حكومة يكون فيها النظام الأبوي العشائري المكي هو المسيطر». كان هذا ما كتبه جيلبرت كلايتون كبير المسؤولين السياسيين لدى الجيش البريطاني الذي أردف مخاطبًا السير مارك سايكس في وزارة الحربية.

> إنهم يدركون أن المبادئ الرجعية التي لا يستطيع شريف مكة الفكاك منها لا تتنافى مع التقدم والأخذ بالحداثة. وإن ازدياد التماس بين المثقفين المسيحيين

والمسلمين ومكة يؤكد هذا الشعور بدلًا من أن يقلله بسبب الكشف عن القصور الذاتي والافتقار للياقة لدى حكومة أشراف مكة[24].

علاوة على ذلك، لعل المنزلة الفريدة من نوعها للمنفيين السوريين في مصر قد أسهمت في تكوينهم فكرة واضحة عن أنفسهم بأنهم سوريون، ونتيجة لذلك، ربما لم يقتنع الكثير منهم بتأييد الثورة العربية والوعد باستقلال «العرب». وبينما كان العديد من المنفيين يحتلون مواقع ذات امتيازات في المجتمع المصري، إلا أنهم ظلوا مع ذلك غير مندمجين في هذا المجتمع، كما كانوا منعزلين سياسيًا: نظرًا إلى أن التجربة المصرية بالاحتلال من قوة أوروبية أجبرت القوميين من أهالي البلاد على مواجهة مشكلات تختلف عن تلك التحديات التي واجهها القوميون في مناطق أخرى من الإمبراطورية العثمانية، وقد نشأت الحركة القومية المصرية بمعزل عن الحركات القومية التي ظهرت في الشمال، وظلت في معظم الوقت غير مبالية بالنداءات المطالبة بهوية عربية مشتركة. وقد جرى إبعاد السوريين المنفيين عن السياسة القومية المصرية، وكان المصريون ينظرون إليهم بعين الشك والريبة بسبب من «سوريتهم»، وبالتالي حول المنفيون السوريون هذه الصفة المميزة لهم إلى تعريف اجتماعي للذات[25].

لقد جاء الدليل المباشر على نفاق دول الوفاق ليزيد من شكوك القوميين المنفيين حيال الثورة العربية. ففي أوائل عام 1918 نشرت الحكومة البلشفية الحديثة العهد في روسيا نصوصًا من الاتفاقيات السرية المبرمة بين دول الوفاق. وعلى المنوال نفسه، نشر وأعلن نص <وعد> بلفور في صحيفة **التايمز** (لندن)، وبات معروفًا على نطاق واسع[26]. وفي سياق ردة الفعل على هذه الكشوفات أصدر الناشطون القوميون السوريون، في مصر «مذكرة السوريين السبعة» وأنشأوا

---

(24) FO 371/3054/227658, Clayton to Sykes, 28 November 1917.

(25) يُنظر: Thomas Philipp, *The Syrians in Egypt, 1725-1975* (Stuttgart, 1985), p. 114.

(26) يُنظر: رشيد رضا، **مختارات سياسية من مجلة «المنار»**، تقديم ودراسة وجيه كوثراني (بيروت، 1980)، ص 241؛ Hurewitz, *The Middle East and North Africa*, vol. 2, pp. 102, 110; Fromkin, *A Peace to End All Peace*, pp. 297-299.

تنظيم الاتحاد السوري، الذي كان من جملة الموقعين على المذكرة إضافةً إلى بقايا حزب اللامركزية الإدارية العثماني[27].

في مقالة نشرت في شهر حزيران/ يونيو من عام 1919 في الدورية المصرية **المنار**، وصف رشيد رضا الجدال الدائر بشأن البرنامج بين مؤسسي الاتحاد[28]. فقد ميز المنفيون القوميون بين عدة قضايا مترابطة، وفي عدادها مسألة حدود الأمة التي ينبغي أن ينظمها المنفيون ومستقبل العلاقات بين سورية وبقية العالم العربي، ولا سيما الحجاز. وكانت المراوغة التي أبدتها بريطانيا بشأن خططها المتعلقة بمرحلة ما بعد الحرب قد أطلقت أكثر الجدالات المثيرة للخلافات ما بين أعضاء الاتحاد: فعلى سبيل المثال كان الرد البريطاني على «مذكرة السوريين السبعة» غاية في الالتباس والغموض، ففي حين أن البريطانيين تعهدوا بمنح «الاستقلال التام والسيادة» لتلك «المناطق في شبه الجزيرة العربية التي كانت حرة ومستقلة قبل الحرب» و«تلك المناطق التي حررت من السيطرة التركية بفعل العرب أنفسهم في أثناء الحرب الحالية». فقد كانوا غامضين بشأن خططهم المتعلقة بالمناطق الأخرى[29]. ونظرًا إلى عدم تأكد الاتحاد السوري من النوايا البريطانية، وبالتالي عدم قدرته على صياغة رد متماسك، فقد انقسم الأعضاء إلى زمرتين هما «الاحتلاليون» و«الاستقلاليون». وقد تألفت المجموعة الأولى من أولئك الذين كانوا على استعداد لتأييد الاحتلال الموقَّت لسورية من جانب إحدى دول الوفاق مقابل تقديم معونة مالية وفنية – ألا وهي مهمة «نشر الحضارة» التي نصت

(27) اشتمل الأعضاء المؤسسون على رفيق العظم، وخالد الحكيم، ووهبة عيسى، وميشال لطف الله، وكامل القصاب، ورشيد رضا، وسليم سركيس، وعبد الرحمن الشهبندر، وإسكندر عمون، وحقي العظم، ومحب الدين الخطيب. دروزة، **مذكرات وتسجيلات**، ج 2 (دمشق، 1984)، ص 130-131؛ Zeine N. Zeine, *Struggle for Arab Independence: Western Diplomacy and the Rise and Fall of Faisals Kingdom in Syria* (Delmar, 1960), p. 22; FO 371/4178/16051, 10 January 1919

(28) يُنظر: رضا، **مختارات سياسية**، ص 245-247.

(29) في تلك الأراضي الخاضعة للسلطة العثمانية التي جرى احتلالها على يد دول الوفاق إبان الحرب، تعهد «الإعلان» بأنه «ينبغي أن تقوم الحكومة المقبلة على مبدأ موافقة المحكومين»؛ وفي تلك المناطق التي «لا تزال خاضعة للسيطرة التركية... تود حكومة جلالة الملك وتتمنى للشعوب المقهورة في هذه المناطق أن تحصل على حريتها واستقلالها». يُنظر: Hurewitz, *The Middle East and North Africa*, vol. 2, pp. 111-112.

عليها لاحقًا المادة 22 من ميثاق عصبة الأمم. وعلى النقيض من ذلك طالب الاستقلاليون باستقلال فوري (حالي) و(تام، ناجز) لسورية[30].

يكشف البرنامج الذي استقر عليه الاتحاد في نهاية المطاف عن نتيجة الصراع الذي دار بين هاتين الزمرتين. وكما هي الحال مع المنشور الآنف الذكر، تحدد المادة الأولى من برنامج الاتحاد السوري أن سورية هي وحدة متكاملة تقع ما بين جبال طوروس شمالاً، ونهري الخابور والفرات شرقًا، وصحراء شبه الجزيرة العربية، ومدائن صالح، والبحر الأحمر جنوبًا، والخط الذي يربط مدينتي العقبة ورفح بالبحر الأبيض المتوسط غربًا. ووفقًا للمادة الثانية «سوف تتمتع سورية بالاستقلال التام» بضمانة عصبة الأمم. وأخيرًا تعلن المادة الرابعة عشرة «في حال أن الأمة العربية حققت وحدتها القومية، سوف تنضم سورية إلى هذه الوحدة شريطة ألا يؤدي ذلك إلي تقويض أي من الوحدة القومية السورية وشكل الحكومة السورية بأي شكل من الأشكال»[31].

كان اثنان في الأقل من مؤسسي الاتحاد السوري قد تركا سجلات بالمواقف التي اتخذاها في أثناء المناقشات الدائرة بشأن البرنامج. وفي حين أن رشيد رضا يلمح إلى أنه اتفق مع أولئك الذين سعوا إلى الحد من دور دول الوفاق في الشؤون العربية في مرحلة ما بعد الحرب وأنه قد راودته الشكوك بشأن أشراف مكة والصلة الشريفية – البريطانية، بيد أنه يقر بأنه عارض في البداية قطع الصلات المباشرة التي تربط سورية بالحجاز والعراق. وكتب قائلًا إنه مما أقنعه بالقبول بحل وسط إدراكه أن الأمر يتطلب الاختيار ما بين المسيحيين السوريين المشاركين في الاتحاد السوري (إذ كان هناك العديد من المسيحيين بين مؤسسي هذه المنظمة) والاندماج السوري في دولة تضم الحجاز. وقد دافع عن استعداده للقبول بهذا الحل الوسط بتأكيده أنه استنتج أن اتحادًا فضفاضًا بين المناطق العربية – وهو الحل الذي صادق عليه الاتحاد – لن يحول دون مساعدة سورية والحجاز بعضهما بعضًا في كفاحهما المشترك في سبيل الاستقلال[32].

(30) رضا، **مختارات سياسية**، ص 247.

(31) تتناول معظم المواد المتبقية مسائل الحكم المحلي، وحقوق الأقلية، وما إلى ذلك، FO 371/4178/16051, «Program of the Syrian Union» (in Arabic and French), 10 January 1919.

(32) رضا، **مختارات سياسية**، ص 247.

رفض محب الدين الخطيب، من ناحية ثانية، أن يفكر مليًا في مسألة التخلي عن موقفه المعادي لأشراف مكة والاندماج السوري/ الحجازي. وفي مقابلة أجراها مع المندوب الفرنسي في مكة في ربيع عام 1919، ساوى الخطيب بين النضال السوري ضد أطماع أشراف مكة والنضال ضد انتداب دول الوفاق.

> يجب أن يكون لسورية، إنني أعدكم، حدودها الطبيعية وأن تكون دولة عربية مستقلة، بكل ما للكلمة من معنى. وإننا لا نريد أن يكون لنا أي اتصال بالعنصر الحجازي، وفي هذه النقطة، إنني على اتفاق تام مع رأي أبناء بلدي. وعلى السوريين الآن توحيد جهودهم والنضال في سبيل هدف واحد: ألا وهو استقلال وطنهم، ويجب عليهم أن يكافحوا بالقدر ذاته، من جهة، ضد مزاعم أمم معينة تريد أن تجعل سورية تحت وصايتها، ومن جهة ثانية، ضد الرغبة الفعلية للملك الذي يبحث عن طريقة لتطبيق القرآن ليكون شريعة سورية. فإذا ثابر الملك على هذه الفكرة فسيكون مآلنا أن ننتهي [وسوف] نبعد أنفسنا عنه تمامًا[33].

وما إن صادق الاتحاد السوري على برنامجه حتى شرع في توزيعه. ومع ذلك، فإن اتخاذ قرار بشأن برنامج لمنظمة من المنفيين هو أمر بعيد من الفوز بتأييد واسع في سورية لهذا البرنامج. وكما بينا أعلاه، فإن الحكومة العربية لم تكتف بالترويج مبدئيًا لبرنامج مختلف جدًا عن ذلك الذي أقره الاتحاد السوري - برنامج الوحدة العربية الذي أعلنه الأمير فيصل في مؤتمر السلام في باريس المنعقد ما بين 29 كانون الثاني/ يناير و6 شباط/ فبراير من عام 1919[34] - بل كان لدى الحكومة إمكان الوصول إلى موارد مالية بريطانية تكفل لها نشره. وعلى النقيض من ذلك، كانت السلطات البريطانية في مصر على دراية بوجود برنامج للاتحاد السوري وخطط الجماعة تلك للتنظيم في سورية، فحاولت تقويض أنشطته عبر فرض الرقابة على الرسائل بين مصر وسورية وتأخير عودة الكثير من الناشطين

---

(33) AD 2326/dossier du Hedjaz, «Extraits de la lettre 94M de M. Bensaci, envoyé du gouvernement de la république à la Mecque,» 16 May 1919.

(34) يُنظر، في جملة مراجع أخرى: حسن الحكيم، **الوثائق التاريخية المتعلقة بالقضية السورية في العهدين العربي الفيصلي والانتدابي الفرنسي 1915-1946** (بيروت، 1974)، ص 43-44؛ Antonius, *The Arab Awakening*, pp. 286-287.

السياسيين المنفيين(35). إذًا، كيف تمكن برنامج الاتحاد السوري من الهيمنة بمثل هذه السرعة على النقاش السياسي في سورية الفيصلية؟

لقد فاز الشعار الواضح المصاغ بعناية الذي يدعو إلى الاستقلال التام لسورية ضمن حدودها الطبيعية بتأييد واسع النطاق في سورية لثلاثة أسباب. أولًا، على الرغم من الإجراءات التي اتخذها البريطانيون للحجر على كل من الناشطين السوريين الاتحاديين والدعاية، تمكن الاتحاد مع ذلك من إطلاق ما ثبت أنه حملة فعالة ومنظمة من أجل برنامجه في سورية. وفي حين أن الأدلة التي تثبت بالتفصيل الأنشطة التي اضطلع بها أولئك المنظمون المنتمون للاتحاد السوري الذي نجحوا في دخول سورية كانت ضئيلة، إلا أنها تشير بالفعل إلى أن المنفيين يعتبرون انتشار برنامج الاتحاد مسألة ملحة وأن الجهود التي بذلوها لقيت المساعدة من جانب ناشطين لزموا سورية إبان سنوات الحرب. ووفقًا لما أورده رشيد رضا، حتى قبل التأسيس الرسمي للاتحاد، سافرت هيئة من المنظمين، وفي عدادها ضباط في الجيش العربي [والقصاب والخطيب؟]، متنقلة بين مصر، والحجاز، وسورية و«أوعزت إلى الآخرين بالعمل على إبقاء هذه الرسالة حية».

> ونتيجة لذلك بات العديد من سكان سورية يعلمون الحقيقة، وأعربوا عن وطيد أملهم في بلوغ الاستقلال التام. [وقد وجه هؤلاء] نزعة التشاؤم والالتباس لديهم نحو الصلة القائمة بين سورية والحكومة العربية، بحيث لم يعد هناك أحد من الذين علموا بالحقيقة يؤيد الصلة تلك(36).

مع دنو الحرب من نهايتها، خطط الاتحاد السوري لإيفاد عدد من المنظمين إلى سورية: ألا وهم خالد الحكيم إلى حمص وحماه؛ ورشيد رضا إلى اللاذقية وطرابلس؛ وحسن خالد إلى حلب ودير الزور؛ ومختار الصلح إلى بيروت؛ وحسن حمادة إلى حوران؛ ورفيق العظم وكامل القصاب وعبد الرحمن الشهبندر إلى دمشق؛ ووهبة عيسى وشبلي الجمل والعظم والشهبندر إلى فلسطين. وفي حين أجهضت الخطة تلك في نهاية المطاف، إلا أن منظمين آخرين نجحوا في الوصول

(35) FO 882/24/85-90, Walrond to Cornwallis, 13 January 1919.

(36) رضا، **مختارات سياسية**، ص 245.

إلى سورية، ومن بينهم ميشيل لطف الله وشقيقه جورج، الذي سافر تحت غطاء تنظيم حملة للإغاثة من المجاعة. وشرع في توزيع ألفي جنيه مصري نقدًا، وقد قدم آل لطف الله معونات مالية للنفقات الإدارية، وأعمال الترجمة والنسخ في سورية، وأنفقوا مبالغ طائلة على البرقيات التي تتضمن طلب العون من المهاجرين السوريين في أوروبا والأميركتين[37]. وكان من بين المواد التي وزعها الشقيقان وزملاؤهما في سورية تلك المرسلة من مصر على يد إسكندر عمون، وهو نائب الرئيس السابق لحزب اللامركزية الإدارية العثماني وأحد مؤسسي الاتحاد السوري. وقد ذكر مخبر فرنسي في كانون الثاني/يناير من عام 1919، على سبيل المثال، أن عمون كان يشحن «عدة آلاف» من المواد إلى سورية، ومن بينها نسخة تقرير استفزازي أصدره في عام 1915 إيثيان فلاندين عضو لجنة الدفاع عن مصالح فرنسا في الخارج في مجلس الشيوخ الفرنسي. ونظرًا إلى أن التقرير تضمن عبارات مثل «تصلح سورية أن تكون مستعمرة ممتازة لفرنسا» و«هل بوسعنا أن نتخلى عن وسيلة لا تقدر بثمن [أي سورية] لاختراق أراض تقع في قلب الإسلام؟»، فقد انتهى التقرير إلى خدمة مصالح عمون والاتحاد بدلًا من خدمة من هم في حزب الاستعمار[38].

ما إن حل منظمو الاتحاد السوري في سورية حتى أخذوا بالعمل جنبًا إلى جنب مع القوميين المقيمين فيها ممن لا ينتسبون إلى الاتحاد. ووفقًا لما أورده تقرير بريطاني، فقد تبنت مجموعة من القوميين المقيمين في دمشق الدعوة إلى استقلال سورية بحدودها الطبيعية ووزعت دعاية تستنسخ بدقة الحدود التي رسمها ميثاق الاتحاد. وبعد تنسيق مع نظراء لها في بيروت، أرسلت منظمين إلى حلب وحمص وحماه واللاذقية لجمع الأنصار لبرنامجها. «وفي صيدا [كذا!] ونابلس طاف الوكلاء الذين سافروا على ظهور الحمير أو على متن العربات»، وأضاف التقرير «وكان هؤلاء.... يعملون في جنوب فلسطين»[39].

---

(37) المرجع نفسه، ص 249؛ FO 882/24/85-90, Walrond to Cornwallis, 13 January 1919; MD 16N/3202/book19/599, Feer to MAE, 23 April 1919; AD 2209/145, Cousse to Picot, 28 April 1919.

(38) MAE L:SL/vol. 8/230, Cousse to HC, 14 January 1919.

(39) FO 882/24/85-90, Walrond to Cornwallis, 13 January 1919.

إضافةً إلى الجهود الرامية إلى التنظيم المباشر التي بذلها الاتحاد السوري، فإن شعبية الشعار المنادي بالاستقلال التام لسورية ضمن حدودها الطبيعية قد يعزى إلى الشحنة العاطفية التي تحملها رسالته. ومن أجل تحقيق النجاح، كان يجب أن يلقى إعادة تفسير التاريخ القومي صدى لدى السكان، ولئن كان القوميون يملكون قدرًا كبيرًا من حرية التصرف في بناء سردياتهم، إلا أنهم لم يكونوا قادرين على نسج تلك السرديات من العدم. ومن ثم، فإن المطالبة باستقلال سورية صادفت، في نهاية المطاف، النجاح لأن السوريين وجدوا الأمر مقنعًا، وفي الأقل بالنسبة إلى العهد الفيصلي القصير الأجل، يبدو أن أغلبهم وجدوا الأمر مقنعًا أكثر من رؤيا الوحدة العربية التي نادى بها أشراف مكة في البداية.

إذا ما تقصينا فكرة سورية بوصفها وحدة متكاملة نجد أنها تعود إلى العصور الوسطى[40]. وعلى الرغم من أن العثمانيين قسموا المنطقة إلى وحدات إدارية منفصلة، وبالتالي طمسوا سورية (ضمن حدودها الطبيعية) بوصفها مؤشرًا سياسيًا، إلا أن سورية الكبرى واصلت طوال الحقبة العثمانية الاضطلاع بوظائفها باعتبارها فضاء اجتماعيًا - اقتصاديًا، تعزز عبر السوق والهجرة، على سبيل المثال، بل وحتى - بين النخب - بعادات الزواج. وفي أوقات الأزمة أو المجاعة، مثلًا، كان الفلاحون ورجال العشائر من حوران يهاجرون دوريًا نحو الشمال إلى دمشق أو غربًا إلى فلسطين، بينما كان الفلاحون ورجال العشائر الفلسطينيون - في ظل الظروف نفسها - يهاجرون في الاتجاه المعاكس. وابتداءً من القرن الثامن عشر أدمج التقسيم الإقليمي للعمل (وما صاحبه من تبادل للعمالة وتخصصات في المحاصيل) المنطقة الممتدة من حلب في الشمال مرورًا بجبال لبنان وفلسطين في الجنوب. فاجتازت الشبكات التجارية المنطقة وربطت ما بين التجار من بيروت ويافا ونابلس ودمشق وحلب. وأدى اكتمال إنجاز منظومة السكك الحديد في العقد الأخير من القرن التاسع عشر، إلى اتصال المدن الساحلية بمدن الداخل،

(40) يُنظر: Dominique Chevallier, «Consciences syriennes et représentations cartographiques à la fin du XIXe siècle et au début du XXe siècle,» dans: Thomas Philipp (ed.), *The Syrian Land in the 18th and 19th Century: The Common and the Specific in the Historical Experience* (Stuttgart, 1992), p. 2.

ومدن الداخل بالمناطق التي تزودها بالمؤن، وستوجد هذه السيرورة ما أطلق عليه أحد الباحثين «اقتصادًا سياسيًا قوميًا ناشئًا»[41].

كانت الصلات الاقتصادية والاجتماعية التي تربط سكان المنطقة بعضهم ببعض، إلى جانب التعود الثقافي على الدلالة «سورية»، قد ألهمت وثبتت في آن واحد الاستئثار القومي بعبارات مثل سورية وعربي - سوري. ومع انصرام القرن بدأت هذه العبارات بالظهور في مجموعة متنوعة من النصوص القومية، بما في ذلك إعلان المؤتمر العربي في باريس لعام 1913 (الذي اضطلع فيه سوريون من حزب اللامركزية الإدارية العثماني - وفي عدادهم من جملة شخصيات أخرى، إسكندر عمون - بدور حاسم) وبرنامج الاتحاد السوري[42].

ليس مطروحًا للنقاش هنا إن كان لدى فكرة سورية ضمن حدودها الطبيعية حق أكثر شرعية بالمطالبة بالشعور الشعبي من سواها من التمثيلات القومية أو أن مثل هذا الشعور كان أساسيًا، أو ثابتًا أو حتى حصريًا. بل ولا جدال هنا أن التأييد الشعبي لسلامة أراضي سورية ضمن حدودها الطبيعية، قد نتج بصورة حتمية من سيرورات التعزيز المشار إليها الآنفة الذكر. والأحرى، أن النقاش هنا يتصل بمفهوم سورية من حيث إنها وحدة جغرافية مميزة كان من الممكن الوصول إليها بيسر إبان المرحلة هذه، وبأن الأحداث السياسية الطارئة والجهود التنظيمية التي

---

(41) L. S. Schilcher, «The Impact of the Railways on the Grain Trade of Southern Syria, 1890-1925,» in: Thomas Philipp & Birgit Schaebler (eds.), *Infrastructures and Communication: Processes of Integration and Separation in Bilad al-Sham from the Eighteenth Century to the Mandatory Period* (Gotha, Forthcoming);

ينظر أيضًا: Beshara Doumani, *Rediscovering Palestine: Merchants and Peasants in Jabal Nablus, 1700-1900* (Berkeley, 1995), pp. 56, 74-76; Faruk Tabak, «Agrarian Fluctuations and Modes of Labor Control in the Western Arc of the Fertile Crescent, c. 1700-1850,» in: Çağlar Keyder & Faruk Tabak (eds.), *Landholding and Commercial Agriculture in the Middle East* (Albany, 1991), pp. 146-152; Gad G. Gilbar, «Changing Patterns of Economic Ties: The Syrian and Iraqi Provinces in the 18th and 19th Centuries,» in: Philipp (ed.), *The Syrian Land.*

(42) يُنظر، في جملة مراجع أخرى: محب الدين الخطيب، **المؤتمر العربي الأول** (القاهرة، 1913)؛ Antonius, *The Arab Awakening*, p. 115; Ahmed Turabein, «Abd al-Hamid al-Zahrawi: The Career and Thought of an Arab Nationalist,» p. 102; James Jankowski, «Egypt and Early Arab Nationalism, 1908-1922,» p. 246, in: Khalidi et al. (eds.), *The Origins*, p. 246; Chevallier, «Consciences syriennes,» p. 4.

بذلها الناشطون المرتبطون بالاتحاد السوري واللجان الشعبية - وتلكم هي جهود تنظيمية تتضمن نشر مجال خطابي شامل أضفى على «سورية ضمن حدودها الطبيعية» معنى جديدًا وتميزًا - منحت هذا التمثيل القومي الصدارة ضمن النزعة القومية.

ربما يعزى انتشار الشعار المطالب بالاستقلال التام لسورية ضمن حدودها الطبيعية في نهاية المطاف، من سخرية القدر، إلى أنشطة الأمير فيصل والحكومة العربية. وكان الوضع السياسي للأمير في ختام الحرب يكاد من الصعب أن يحسد عليه. فمن جهة، كانت الجهود التنظيمية التي بذلها الناشطون في الاتحاد السوري والمتحالفون معهم في سورية والاستجابة الشعبية لبرنامجهم قد هددت بخلق انشقاقات داخل النزعة القومية إلى حد أن الأمير خشي أن يضعف ذلك موقفه في الداخل والخارج معًا. ومن جهة ثانية، ثمة مجموعة متنوعة من العوامل الخارجية - التذبذبات البريطانية، والأطماع الفرنسية في سورية، والمطامع البريطانية في العراق وفلسطين، والترتيبات العلنية والسرية بين الحكومتين الأوروبيتين، والقيود التي فرضها وضعه الملتبس في المؤتمر - حدت من الخيارات المتاحة أمام الأمير لاحتواء الاستياء في الداخل. ونتيجة لذلك، كان على فيصل أن يسير على حبل مشدود، معربًا عن تأييده للشعور الشعبي من أجل توحيد الحركة القومية أو تبديد الشكوك بشأن استقلاله وإخلاصه، في حين أنه كان في الوقت ذاته منخرطًا في دبلوماسية تحفظ ماء وجهه وعملية. ولا عجب أنه واجه التحدي بنهج قائم على مزيج من المراوغة، والمساومة، والتعتيم[43].

(43) وفقًا لتقرير قدمه الميجور كينهان كورنواليس، ضابط الارتباط البريطاني، عشية وصول لجنة كينغ - كرين إلى سورية، «تولى فيصل زمام الحملة السياسية برمتها بنفسه، وأرسل بالفعل تعليمات إلى أنحاء البلاد كافة. وسيجري إبلاغ الشعب بهذه التعليمات على يد المسؤولين الحكوميين، الذين سيستغلونها، بلا شك، لأغراض سياسية بصورة أكثر علنية من ذي قبل. وقد طلب إلى الشعب أن يطالب باستقلال سورية التام، وفي الوقت ذاته، أن يعرب عن أمله في أن يمنح لدول عربية أخرى. وبوساطة هذا الحل التوفيقي وفق فيصل بين حزب الاتحاد السوري، الذي لا يفكر إلا بسورية، والمتحمسين للإمبراطورية العربية الشاملة ممثلين بحزب الاستقلال العربي، FO 371/4181/89850/24, Clayton to Curzon: «Report by British Liaison Officer (Cornwallis) on Political Situation in Arabia,» 17 June 1919.

تبنى فيصل ظاهريًا النداء من أجل «الاستقلال التام» باعتباره شأنًا يخصه طوال أشهر قبل أن يقبل بصيغة توفيقية في قضية الوحدة العربية. وفي حين أن شعبية التعبير «الاستقلال التام» قد أسهمت بالتأكيد في إجازة استخدامه واصطفافه مع المؤيدين له، فإن ثمة عاملين آخرين أثرا في قراره بتبني الشعار: إيمانه المبدئي بالبريطانيين والتزامهم الوعود التي قطعوها لوالده في أثناء الحرب، ورغبته في ترسيخ مؤهلاته القومية بتصوير تحقيق «الاستقلال التام» بوصفه ميراثًا يعود للثورة العربية حصرًا. وبالتالي لم يكتف الأمير في أول بيان وجهه إلى الشعب السوري (5 تشرين الأول/ أكتوبر من عام 1918) بالإعلان عن تشكيل «حكومة عربية دستورية مستقلة استقلالًا مطلقًا لا شائبة فيه»، ولكنه في أثناء السنة الأولى من حكومته – وحتى بعد أن قرر دعم انتداب بريطاني على سورية – أيد بنشر الشعار[44].

وهكذا تشجعت، الحكومة في المستويات كافة، إضافةً إلى المنظمات السياسية المتحالفة معها، على تبني الدعوة إلى «الاستقلال التام» ونشرها. وقبيل مغادرة فيصل الأولى إلى أوروبا في تشرين الثاني/ نوفمبر من عام 1918، على سبيل المثال، اشتكى ضابط الارتباط الفرنسي في دمشق لرؤسائه من أن عبد القادر المظفر من النادي العربي في دمشق، بتواطؤ من الأمير، نظم تظاهرات يومية على شرف «محرر سورية وبطل الاستقلال العربي التام من دون وصاية»[45]. وفي نيسان/ أبريل من عام 1919، بعد أقل من أسبوع من تعيين هنري تشرشل كينغ وتشارلز ر. كرين لقيادة لجنة التحقيق المشتركة بين الحلفاء، أرسل دبلوماسي فرنسي آخر مقيم في دمشق تقريرًا مفاده بأن عصابات من الشبان، قد تكون مرتبطة بالنادي العربي، كانوا يكتبون على الجدران عبارة «الاستقلال العربي التام» في أرجاء المدينة كافة، وقد جرى «نصح التجار بصنع لافتات مطبوع عليها الشعار

(44) حسن الحكيم، **الوثائق التاريخية**، ص 35؛ AD 2324/379, Cousse to HC, 16 June 1919; FO 371/4181/89850/24, Clayton to Curzon, «Report by British Liaison Officer (Cornwallis) on Political Situation in Arabia,» 17 June 1919;

يُنظر أيضًا التعليقات التي أدلى بها في: سليمان موسى، **المراسلات التاريخية**، ج 2: 1919 (عمان، 1975)، ص 78.

(45) MAE L:SL/vol. 5/58-61, Mercier to HC, 20 November 1918.

ذاته وأن يضعوها في واجهات محالهم»[46]. وفي الشهر التالي، أصدر المجلس البلدي في دمشق توجيهات للنقابات المهنية بالإسهام في التظاهرات التي تجيزها الحكومة العربية للترحيب بعودة فيصل إلى الوطن بعد إقامته الوجيزة في أوروبا وأن يطلوا أو يزينوا اللافتات بعبارة «يحيا الاستقلال العربي»، وأن ينشدوا «يحيا الأمير والاستقلال العربي التام»[47]. فلا غرابة عندئذ في أنه بعيد ذلك، وحينما التمس فيصل، وقد خففت الأحداث التي شهدتها باريس من اندفاعته، المعونة من محمد فوزي العظم لإقناع الشعب السوري بالحاجة إلى قبول الانتداب البريطاني، أن أنحى هذا العجوز باللائمة في تأجيج المشاعر الشعبية من أجل «الاستقلال التام» بوضوح على فيصل[48].

ولا غرابة في أن يستوعب مفهوم «الاستقلال التام» - أذا أخذنا بعين الاعتبار صعوبة الوضع الذي كان فيه فيصل- قدرًا أكبر من المرونة لدى الأمير مما هو عليه الحال لدى ناشطي الاتحاد السوري أو معظم باقي السكان. وفي اليوم الذي كتب فيه الممثل الفرنسي في دمشق عن التظاهرات التي أقيمت تكريمًا لـ «محرر سورية وبطل الاستقلال العربي من دون وصاية»، على سبيل المثال، أرسل الأمير برقية لوالده وفَّق فيها ما بين «الاستقلال التام» وما أطلق عليه «الارتباط النهائي مع البريطانيين».

> إنني سأكلف بريطانيا بالتحالف النهائي بينها وبين العرب على شرط ألا يكون للملل الأجنبية غير إنكلترا علاقة. ولقاء ذلك نكفل للإنكليز الاستفادة من جميع المصالح التي يمكنهم أن يستفيدوا منها، ونطلب منها جميع نواقصنا من مأمورين ومستشارين ونفود وأسلحة على ألا نضيع ذرة من استقلالنا، وأن نكون أمة تحكم نفسها بنفسها. ثم أنظر ماذا يجيبونا على هذا التكليف، وبأي حال يتلقونه، فإن وافقوا كان به[49].

---

(46) MAE L:SL/vol. 12/32-38, Cousse to HC, 6 April 1919.

(47) MAE L:AH/vol. 4/237-238, Picot to Pichon, 25 May 1919.

(48) خالد العظم، **مذكرات خالد العظم** (بيروت، 1973)، ج 1، ص 96.

(49) سليمان موسى، **المراسلات التاريخية**، ج 1: 1914-1918 (عمان، 1973)، ص 244-245.

وكان الدافع الكامن وراء عرض فيصل السخي الذي سيضع العرب، في واقع الأمر، تحت الحماية البريطانية، الخشية من المطامع الفرنسية في الشرق الأوسط وافتراض أن مصالح البريطانيين والعرب قد تلاقت للحيلولة دون تحقيق المطامح تلك:

> إنني رفضت كل مساعدة تأتيني من فرنسا لأنني رأيت فيها الطمع في احتلال البلاد، فيلزم أن يكون ارتباطنا بإنكلترا ارتباطًا نهائيًا، ولا حياة للعرب إلا بالثبات على مخالصتهم ومحبتهم. إنني لا أدري ما يفعلونه سياسة أم حقيقة. ولكن على كل حال نحن نلتزم سياستهم لأن مصلحتنا متعلقة بمصلحتهم.

كان فيصل يأمل بوساطة هذه الصيغة – «الاستقلال التام» تحت حماية فعلية – أن يحقق توازنًا بين مطالب مؤيديه في الوطن والشروط التي فرضتها عليه دول الوفاق على مائدة المفاوضات في باريس.

لم يكن اعتراف دول الوفاق بالاستقلال التام المطلب الوحيد الذي تقدم به فيصل إلى الدبلوماسيين المجتمعين. ففي خطابه الأول أمام المؤتمر، الذي ألقاه في 29 كانون الثاني/ يناير من عام 1919، على سبيل المثال، توسع فيصل في عرض آرائه، معلنًا أنه سعى بالنيابة عن والده وباعتباره قائد الثورة العربية إلى الحصول على الاعتراف باستقلال جميع الناطقين باللغة العربية في آسيا من خط إسكندرون – ديار بكر في الشمال وحتى المحيط الهندي جنوبًا، باستثناء الحجاز وعدن[50]. وبعد أسبوع، عاد فيصل ليكرر المطالب تلك، مبديًا ثقته بوعود دول الوفاق في «العهد للسوريين السبعة» والإعلان الأنكلو – فرنسي في 7 تشرين الثاني/ نوفمبر من عام 1918 إضافةً إلى تأكيد وودرو ويلسون بأن حق تقرير المصير كان «مبدأ ملزمًا بالعمل، وإن من شأن تجاهل رجال الدولة له من الآن فصاعدًا أن يعرضهم للخطر»[51]، واقترح تشكيل لجنة سوف تتحقق من مشيئة العرب من سكان الإمبراطورية العثمانية سابقًا.

---

(50) الحكيم، **الوثائق التاريخية**، ص 43-44.

(51) Ray Stannard Baker & William E. Dodd (eds.), *Public Papers of Woodrow Wilson*, vols. 5-6: *War and Peace: Presidential Messages, Addresses, and Public Papers (1917-1925)* (New York, 1927), vol. 5, p. 180.

كانت دعوة فيصل دول الوفاق إلى الاعتراف بدولة عربية تقوم على مبدأ حق تقرير المصير قد تصادمت مباشرة مع الحقائق الدبلوماسية. بداية، كان الدور الذي اضطلع به فيصل في المؤتمر بحد ذاته موضعًا للجدال، وفي أعقاب المقاومة التي أبداها الفرنسيون لادعائه بتمثيل العرب كلهم، جرى تخفيض مكانة الأمير إلى مستوى ممثل لملك الحجاز. وإضافة إلى ذلك، لم تكن الحكومة الفرنسية على استعداد للتخلي عن المبادئ الأساسية لاتفاقية سايكس - بيكو، ولكن بعيد اجتماع مندوبي دول الوفاق إلى المؤتمر في باريس، قبلوا من حيث المبدأ إنشاء نظام الانتداب وبحلول ربيع عام 1919، ومع إغلاق الخيارات الأخرى، غادر الأمير المؤتمر وعاد إلى دمشق، وكان مرغمًا على السعي لاستغلال أفضل ما في هذا الوضع السيئ عبر التخلي عن إصراره على الاعتراف بأمة عربية واحدة ومقاومته لفرض الانتداب على حد سواء[52].

يمكننا أن ندرك التحول في موقف فيصل إزاء إقامة دولة عربية تضم سورية عبر عقد مقارنة ما بين تصريحين أدلى بهما الأمير قبل وبعد رحلته الأولى إلى أوروبا. فبعد شهر من دخول دمشق في تشرين الأول/ أكتوبر من عام 1918 أصدر فيصل بيانًا وجهه إلى السوريين الخائفين من هيمنة الحجازيين على دولة الوحدة العربية:

> العرب أمم وشعوب مختلفة باختلاف الإقليم، فالحلبي ليس كالحجازي والشامي ليس كاليماني - ولذا فقد قرر والدي أن يجعل البلاد مناطق يطبق عليها قوانين خاصة، بنسبة أطوار وأحوال أهلها[53].

وبعد إقامته الموقتة في باريس، تحدث فيصل عن نمط مختلف من الدولة العربية

(52) العظم، **مذكرات**، ص 95؛ Antonius, *The Arab Awakening*, p. 286; Stephen Hemsley Longrigg, *Syria and Lebanon under French Mandate* (London, 1958), p. 71; Malcom Russell, *The First Modern Arab State: Syria under Faysal 1918-1920* (Minneapolis, 1985), p. 36;

وفقًا لما ذكره أنطونيوس، كان فيصل على علم بالمباحثات الجارية بين فرنسا وبريطانيا التي أدت إلى تنقيح اتفاقية سايكس - بيكو في 20 آذار/ مارس 1919. ووافق ممثلو الوفاق على ميثاق عصبة الأمم، التي أذنت بنظام الانتداب في 28 نيسان/ أبريل 1919، بعد مدة وجيزة من مغادرة فيصل إلى سورية.

(53) أبو خلدون ساطع الحصري، **يوم ميسلون: صفحة من تاريخ العرب الحديث** (بيروت، 1947)، ص 198.

القائمة على الـ «لامركزية»، التي اقتربت على نحو أوثق من المقترحات التي نادى بها الاتحاد السوري وواضع المنشور السالف الذكر. وقد أعيد طبع هذا الخطاب جزئيًا في جريدة **العاصمة** وجرى تداوله على نطاق واسع بهذه الصيغة، حيث أعلن:

> إن سورية والحجاز والعراق قطعات عربية. وكل قطعة فيها يطلب أهلها الاستقلال. وقلت إن نجدًا والبلاد المساوية للحجاز من الأقطار العربية، هي تابعة للحجاز ليس إلا. أما سورية فيجب أن تكون مستقلة... بحدودها الطبيعية... العراق مستقلة، بلا علاقة بسورية، كما أن سورية لا علاقة لها بسائر البلاد العربية[54].

ولتتأكد الصحيفة من أن معنى تصريح فيصل كان واضحًا لدى قرائها أضافت، «من هذه البيانات العالية يظهر أن سمو الأمير أيده الله يستحسن تأسيس حكومات مستقلة في كل من سورية والعراق تجمعها مع الحجاز المستقلة جامعة سياسية خارجية وجامعة اقتصادية داخلية». وفي شهر حزيران/ يونيو من عام 1919، وزعت الحكومة العربية منشورات دعائية في مختلف أنحاء دمشق وسواها من المدن الواقعة في المنطقة الشرقية لم تقتصر على تكرار نداء الأمير من أجل «الاستقلال التام لسورية ضمن حدودها الطبيعية». بل وأعربت عن «أمله باستقلال المناطق الأخرى»[55].

على نحو مماثل، في ربيع عام 1919، ترافق تحول الظروف الدبلوماسية، مع الخوف المتواصل من فرنسا، مما حث فيصل على المناداة بـ «الاستقلال التام لسورية» تحت انتداب بريطاني[56]. وقبل ذلك بأشهر في مؤتمر السلام،

---

(54) **العاصمة**، 12 أيار/ مايو 1919، ص 1-2. يختلف نص الخطاب بعض الشيء في ما يلي: علي سلطان، **تاريخ سورية 1918-1920: حكم فيصل بن الحسين** (دمشق، 1987)، ص 431-442؛ AD 2343, «Annexe au journal 'Hermon' 35,» 7 May 1919; FO 371/4181/89850/24, Clayton to Curzon: «Report by British Liaison Officer (Cornwallis) on Political Situation in Arabia,» 17 May 1919.

(55) AD 2324/379, Cousse to HC, 16 June 1919; FO 371/4181/89850/24, Clayton to Curzon, «Report by British Liaison Officer (Cornwallis) on Political Situation in Arabia,» 17 June 1919.

(56) يُنظر، في جملة مراجع أخرى: العظم، **مذكرات**، ص 96؛ يوسف الحكيم، **ذكريات**، ج 3: **سورية والعهد الفيصلي** (بيروت، 1966)، ص 80؛ Russell, *The First Modern Arab State*, pp. 86-87. =

كان وودرو ويلسون قد نادى بتشكيل لجنة دولية لمساعدة دول الوفاق في تحديد مستقبل سورية. ولكن اللجنة، حينما أنشئت، كانت مختلفة من ناحيتين مهمتين عن تلك التي حظيت بتأييد فيصل. أولًا لم تشارك في أنشطتها أي من فرنسا وبريطانيا، مما جعل صحة النتائج التي توصلت إليها غير مؤكدة. إضافةً إلى أنه بدلًا من تفويض اللجنة أن تقرر ما إذا كان نظام الانتداب يجب أن يطبق في سورية أم لا عهد ويلسون إلى اللجنة بمهمة «استجلاء الآراء في <سورية> بشأن الدولة التي ستنتدب لإدارتها». وما إن جرى اختيار أعضاء اللجنة، حتى كانت تعليمات ويلسون أشد فظاظة. فقد كتب «إن هدف المؤتمر يتمثل في فصل مناطق معينة من الإمبراطورية التركية تضم، على سبيل المثال، فلسطين وسورية، وبلاد ما بين النهرين، وأرمينيا، وكيليكيا، وربما مناطق إضافية في آسيا الصغرى، وأن يوضع تطور شعوبها تحت توجيه من جانب حكومات تعمل بوصفها دولًا منتدبة من عصبة الأمم»[57]. وقد أدى القبول بالدور الذي اضطلعت به اللجنة ومبدأ نظام الانتداب إلى وضع الحكومة العربية في موقع الدفاع بيسر على يد أولئك الذين، وإن قبلوا بوجود مستشارين من الخارج، إلا أنهم كانوا يصورون نظام الانتداب على أنه لا يزيد إلا قليلًا عن ورقة التين التي تخفي الدول الأوروبية وراءها أطماعها الإمبريالية. وقد نظم الشاعر خير الدين الزركلي في ذلك الحين <هذه الأبيات>[58]،

لبس العداة لها الرياء جلابيا ... وطووا لها الأحقاد والأضغانا

= ووفقًا لما ذكره تقرير بريطاني، ادعى ميشيل لطف الله أن القبول الذي أبداه فيصل لم يقتصر على الانتداب البريطاني فحسب، وإنما على «تحقيق التقدم عبر الانتداب إلى وضع سيادة الحكم الذاتي داخل الإمبراطورية البريطانية». كما يذكر التقرير ذاته أن لطف الله أخبر مندوبًا بريطانيًا بأن حزب الاتحاد السوري كان أيضًا على استعداد لقبول الحكم الذاتي داخل الإمبراطورية البريطانية، ولكنه يعارض فرض الانتداب لأسباب تكتيكية. FO 371/4182/125032/CPO, «Report on a conversation in Cairo with Michel Bey Lotfullah on his return from Syria August 5th 1919».

(57) Albert H. Lybyer Papers (R.S. 15/13/22), University of llinois at Urbana- Champaign, «Instructions for Commissioners from the Peace Conference,» 25 March 1919.

يُنظر أيضًا: «Condensation of Instructions,» 1 May 1919; «Supplementary Instructions,» 1 May 1919, also contained among the Lybyer Papers.

(58) خير الدين الزركلي، **ديوان الزركلي الأعمال الشعرية الكاملة** (عمان، [د. ت.])، ص 24-25.

هم عاهدوك على الوفاء وما وفوا ووثقـت منهم بالحليف فخـانا

عطفوا على الضعفاء حتى خيلـوا لهـم المخـاوف مـوئـلًا وأمانا

وحنوا على الإنسـان حتى اسـتوثقوا متحكميـن، فأنكـروا الإنسـانا!

ما بـال من حملت موازين الهدى أعضادهم لـم يحسنوا البرهـانا

إن لـم يغيثوا المسـتغيث وينصروا مسـتنصـرًا فليكسـروا الميـزانا

أو بكلمات المنشور الذي أعدنا نشره أعلاه «الحماية والانتداب مترادفان وهما النذير بالضم والإلحاق».

استقطب استعداد فيصل للقبول بانتداب بريطاني الحركة القومية. وعلى نحو ما ورد وصفه في القسم السابق، فقد انقسمت اللجنة الإدارية في الفتاة إلى ثلاث زمر من بينها من أطلقت عليهم صفة «الرافضون» وقد رفض هؤلاء وأي سلطة منتدبة. ووفقًا لإحدى الروايات ربما كان كامل القصاب الصوت الأكثر صراحة من بين الرافضين، إذ ألحق عبارات «لا حماية ولا وصاية ولا انتداب» بالشعار المنادي بـ «الاستقلال التام لسورية ضمن حدودها الطبيعية» للحيلولة دون المزيد من الانزلاق في معنى «الاستقلال التام»[59]. وعشية وصول اللجنة، اعتبرت الحكومة العربية التظاهرات التي جرت في دمشق احتجاجًا على موقف فيصل بالغة الخطورة؛ فمنعت المزيد من التجمعات العامة وأمرت بوضع أعشاش المدافع الرشاشة في الشوارع[60].

تراجع فيصل، عقب هذه الأزمة، عن مناداته بانتداب بريطاني، وأظهر أولًا تأييده الإدلاء بشهادات لمصلحة طلب «انتداب محدود» أمام لجنة كنيغ - كرين، ومن ثم عدل عن هذه الفكرة عدولًا كاملًا في مأدبة أقامها ميشيل لطف الله

(59) الأمين، **ذكريات**، ج 1، ص 57. كان انتشار الشعار سريعًا: إذ يظهر في قرابة 40 في المئة من عينة من المنشورات المؤرخة في حدود ثلاثة أشهر من طرحه.

(60) **العاصمة**، 24 تموز/ يوليو 1919، ص 5؛ FO 371/4182/125032/CPO, «Report on a conversation in Cairo with Michel Bey Lotfullah on his return from Syria August 5th 1919». يعزو التقرير التظاهرات إلى حزب الاستقلال العربي.

لهذا الغرض[61]. وفي غضون ذلك، على أي حال، كان المؤتمر السوري العام قد صاغ برنامجًا ليقدمه إلى اللجنة أدمج فيه، في الواقع، العديد من المطالب ومعظم مفردات اللغة التي كان الاتحاد السوري قد أدخلها إلى النقاش القومي. ونظرًا إلى أن المؤتمر كان منفعلًا أكثر منه فاعلًا، وذلكم هو أمر يمكن تبينه من محاضر مداولاته وقراراته، فإن برنامج دمشق يوفر مقياسًا مفيدًا (وإن كان، بطبيعة الحال، يفتقر إلى الدقة) يمكن بوساطته سبر الرأي العام في سورية. ويكتسب هذا البرنامج دلالة خاصة نظرًا إلى أن نطاق الآراء الممثلة في المؤتمر قد امتد إلى ما هو أبعد من المجال القومي: إذ لم يكن محمد فوزي العظم اللاقومي، على سبيل المثال، عميد نواب دمشق فحسب، وإنما قيل إنه اضطلع بدور مهم في صياغة هذا البرنامج وإرغام النواب على إقراره[62].

لقد رفض برنامج دمشق تطبيق المادة 22 من ميثاق عصبة الأمم على سورية بإعلانه أن «الشعب العربي الساكن في البلاد السورية شعب لا يقل رقيًا من حيث الفطرة عن سائر الشعوب الراقية، وليس هو في حالة أحط من حالات شعوب البلغار والصرب واليونان ورومانيا في مبدأ استقلالها». إضافةً إلى ذلك، فقد تضمن البرنامج المطالب التالية: الاستقلال التام الناجز لسورية، التي تحدها شمالًا جبال طوروس وجنوبًا (رفح) فالخط المار من جنوب (الجوف) إلى جنوب (العقبة الشامية) و(العقبة الحجازية) وشرقًا نهر الفرات فالخابور والخط الممتد شرق (أبي كمال) إلى شرق (الجوف) وغربًا البحر المتوسط؛ والاستقلال «بدون حماية ولا وصاية»؛ وحكومة تقوم على أساس «اللامركزية الواسعة» في سورية، وعلى أن يكون ملكها الأمير فيصل؛ وعدم الاعتراف بأي حق يدعيه الفرنسيون والصهاينة على حد سواء؛ والاستقلال التام للعراق. أخيرًا، أوصت الوثيقة بأنه إذا أصرت دول الوفاق على تقديم المساعدة لسورية، فستقبل سورية مساعدة فنية واقتصادية من الولايات المتحدة شريطة ألا تمس هذه المساعدة «الاستقلال السياسي التام» ووحدة سورية وألا تستمر لأكثر من عشرين عامًا. وإذا

---

(61) Russell, *The First Modern Arab State*, p. 90; FO 371/4182/125032/CPO, «Report on a conversation in Cairo with Michel Bey Lotfullah on his return from Syria August 5th 1919».

(62) العظم، مذكرات، ص 95-97.

ثبت أن الولايات المتحدة غير قادرة على تقديم المساعدة تلك، فقد تقبل سورية المساعدة من بريطانيا العظمى، على أن تخضع للشروط ذاتها[63].

وهكذا، وعلى الرغم من أن أحد المؤرخين أشاد به باعتباره يمثل «مزيجًا بارعًا من الآراء»[64]، إلا أن هذا البرنامج الذي أطلق عليه أنطونيوس بتنميق نمطي «البيان الرسمي بالموقف العربي تجاه القضايا الراهنة»[65]، يبين في الحقيقة مدى تحول محور النقاش القومي وتضاؤله إبان العام الذي سبق تأسيس اللجان الشعبية.

الثورة العربية والثوار السوريون و«الشهداء»

كان البيان الأول الذي وجهه فيصل إلى الشعب السوري، المشار إليه أعلاه، يتضمن عبارات مميزة: فبإعلانه «تشكلت في سورية حكومة دستورية عربية مستقلة استقلالًا مطلقًا»، كان فيصل، في الواقع، يؤكد أنه مع دخول الجيش العربي إلى دمشق، يكون النضال من أجل تحقيق استقلال العرب قد بلغ خواتيمه. وقد استند الأمير في تصريحه على التعهدات التي تضمنها «العهد للسوريين السبعة» الذي وعدت فيه بريطانيا بمنح «الاستقلال التام والسيادة» لسكان المناطق التي تحررت بفضل «الأعمال التي نفذها العرب أنفسهم». لقد كان الزعم الأول الذي أعلنه فيصل - سواء أكان صحيحًا أم لا - بأنه لما كان «العرب» هم أول من دخل دمشق، فهذا أمر مؤداه أنهم قد وفوا بشروط الاستقلال المنصوص عليها في الوثيقة[66]. وهكذا، كما أعلن فيصل في الكلمة التي ألقاها في 29 كانون الثاني/ يناير من عام 1919 أمام مؤتمر السلام في باريس، فإن المهمة الوحيدة المتبقية لممثلي دول الوفاق تتمثل في الاعتراف الرسمي بالأمر الواقع.

مثل تقيد فيصل بالعبارات التي تضمنها «العهد للسوريين السبعة» أمام

---

(63) للاطلاع على النص الكامل لبرنامج دمشق، يُنظر: الحكيم، **الوثائق التاريخية**، ص 85-88.

(64) Russell, *The First Modern Arab State*, p. 89.

(65) Antonius, *The Arab Awakening*, p. 293.

(66) للاطلاع على لمحة عامة عن الجدل بشأن تحرير دمشق، يُنظر: Elie Kedourie, «The Capture of Damascus, 1 October 1918,» in: *The Chatham House Version and Other Middle Eastern Studies* (Hanover, N.H., 1970).

المؤتمر استراتيجيا دبلوماسية منطقية، إذا أخذنا بعين الاعتبار المدى الذي وصلت إليه بريطانيا في تأكيدها أن الجيش العربي قد حظي بشرف دخول دمشق قبل أي قوة عسكرية أخرى(67) وكان اعتقاد الأمير، الذي وصفناه أعلاه، أنه في ما يتصل بالعلاقات العربية - البريطانية، فإن «مصالحنا ترتبط بمصالحهم». ولكن مزاعم فيصل لا يمكن أن تعزى كليًا إلى الضرورات الدبلوماسية، إذ واصل الأمير وحلفاؤه التأكيد للجمهور العربي أنه جرى الفوز بـ «الاستقلال التام» حتى بعدما بات جليًا أن دول الوفاق، ومن بينها بريطانيا، كانت تفكر بطريقة أخرى(68). وكان الحفاظ على الرواية القائلة إن الاستقلال العربي قد تحقق في 1 تشرين الأول/ أكتوبر من عام 1918 أمرًا ذا أهمية خطيرة بالنسبة إلى فيصل وأنصاره داخل الحكومة وخارجها، وبعملهم هذا فقد عززوا مكانة الحملة العسكرية التي قاتلت للفوز بهذا الاستقلال. وهكذا أضحت الثورة العربية على الحكم العثماني - وهي الأساس الوحيد الذي استند إليه أشراف مكة في ادعائهم التفوق بين ظهراني المنادين بالنزعة القومية وحقهم في حكم دمشق - الرمز المحوري لإضفاء الشرعية على أشراف مكة.

بالاعتماد إلى حد كبير على الاعتراف الواسع النطاق بهذا الرمز من جانب السكان واستحسانهم له، انشغلت الحكومة العربية وحلفاؤها بحملة نشطة لنشر أسطورة الثورة العربية وأبطالها في مختلف أرجاء سورية. وأعلنت لافتة علقت خلسة على أبواب إحدى الحدائق في بيروت «إذا ادعى السوري المخلص بأنه ممتن، فعليه إثبات ذلك باحترامه لمحرر السوريين من نير الأتراك. وإن هذا المحرر هو أميرنا المحبوب فيصل. ولا يمكن للرجل الشريف إلا أن يتمنى له الخير»(69). وقد سافر ثابت عبد النور، وهو أحد المؤسسين الأوائل للمنتدى الأدبي في

(67) Ibid., p. 51.

(68) جاءت مثل هذه المطالبة في الخطب المقدمة من الحكومة العربية لكي تلقى في جوامع دمشق يومي 11 و15 نيسان/ أبريل 1919. ومن المثير للاهتمام أنه تخلل الخطب حث السوريين على «حماية استقلالكم» مع المسؤولية المتناقضة المناطة بهم من أجل أن «يطالبوا ويثابروا على مطالبتهم بالاستقلال».
AD 2343/286, Cousse to HC, 24 April 1919 (Arabic and French).

(69) AD 2372/297/bureau b., 13 March 1919.

اسطنبول، من العقبة إلى عمان، وكان يوزع بطاقات بريدية تصور ضابطًا شريفيًا غير محدد الهوية (ملامحه قريبة الشبه بالأمير فيصل) يلوح بالعلم الشريفي. وكان يزين البطاقات تلك أسطورتان «تحيات من الفدائيين [الذين يضحون بأنفسهم] إلى العرب المحررين» و«العلم يخفق في يده»[70]. وقدم أعضاء أحد الأندية القومية في طولكرم (فلسطين) عرضًا مسرحيًا يعود عليهم بالنفع، ألا وهو «معركة طفيلة»، حيث أعاد أعضاء النادي تمثيل المعركة التي جرت بين الجيش العربي بقيادة الأمير زيد والأتراك[71]. بل إن الحكومة أحدثت يوم عطلة، ألا وهو «عيد الثورة» في نيسان/ أبريل من عام 1920 إحياء لذكرى أبطال الجيش العربي و - بعد عام ونصف العام على تأسيس الحكومة العربية - للاحتفال «بانقضاء السنة الرابعة للثورة»[72].

كان القادة العسكريون البريطانيون في سورية يشعرون بالقلق إزاء التحديات الداخلية منها والخارجية التي تواجه حكم أشراف مكة، كما كانوا يشجعون على نشر أسطورة الثورة العربية. وعشية رحلة فيصل الأولى إلى أوروبا، أرسل ضابط الارتباط الفرنسي في دمشق برقية إلى رؤسائه ينتقد فيها البريطانيين لنشرهم الدعاية «لترسيخ أسطورة تحرير المناطق العربية، بما في ذلك فلسطين وسورية على يد جيش الأمير فيصل وحده». وأبدى تحسره على حقيقة مؤداها أن «أسطورة» الثورة العربية قد غذتها المقابلات التي تجريها صحف لخدمة مصالحها الذاتية مع قادة الثورة، وأن نشر البرقية التي أرسلها قائد قوات دول الوفاق، الجنرال السير إدموند أللنبي، إلى فيصل المتضمنة الإشادة بـ«الانتصارات الرائعة» التي حققها الأمير قد جعلت شهرته تمتد بعيدًا حتى وصلت إلى أوروبا[73].

من ناحية، لم تكن الجهود التي بذلتها الحكومة العربية وسواها غير فعالة: إذ إن كافة الزمر القومية، حتى تلك التي تضم أفرادًا تجنبوا عمدًا المشاركة في الثورة

---

(70) MAE L:SL/vol. 3/3, Durieux (délégué du haut-commissariat de France à Jerusalem) to capt. Coulandre (Beirut), 28 October 1918.

(71) **الكوكب**، 7 تشرين الأول/ أكتوبر 1919، ص 12.

(72) **العاصمة**، 29 نيسان/ أبريل 1920، ص 4.

(73) MAE L:SL/vol. 5/58-61, Mercier to HC, 20 November 1918.

العربية أو تخلوا عن الشريف حسين في أثناء الحرب لأنهم كرهوا السياسات التي كان ينتهجها أو خشوا من ارتباطاته الأجنبية، أو شعروا بأنهم مرغمون على مبايعته، أو في الأقل الاعتراف بالثورة العربية. وغالبًا ما كان رمز الثورة الذي بوساطته ارتفعت مكانة الشريف حسين والأمير فيصل إلى مصاف الأيقونات يتخذ دلالات على مناهضة الإمبريالية في فلسطين ولبنان، وهما المنطقتان اللتان فصلتهما بريطانيا وفرنسا على نحو فعال عن سورية الداخلية ووضعتهما تحت هيمنتهما المباشرة. وحينما منعت فرنسا الخطباء في المنطقة الساحلية من إلقاء الخطب باسم الشريف حسين في أثناء صلوات الجمعة، على سبيل المثال، وفي إحدى الحالات نفت خطيبًا يحظى بشعبية واسعة لأنه لم يطع الأوامر هذه، اندلعت الاحتجاجات في بيروت وعمت كلتا المنطقتين(74).

بيد أن معنى الثورة العربية كان أكثر وضوحًا في المنطقة الشرقية حيث كان يرتبط ارتباطًا وثيقًا بإضفاء الشرعية على أشراف مكة في دلالة على مناهضة الإمبريالية وحسب. ويمكن أن يعزى هذا من جديد إلى الدعاية الفعالة التي اتبعتها الحكومة العربية: ونظرًا إلى أن الحكومة العربية والجمعيات الحليفة لها كانتا تقدمان التفسيرات المعتمدة للثورة عبر فن الخطابة، والمقالات الصحافية الموضوعة على نحو استراتيجي، والاستعراضات التمثيلية والمسرحية، فقد أفلت هذا الرمز في معظم الأحيان من إعادة التفسير الذاتي والانتقائي. ومع ذلك، ولما كانت إعادة تفسير الرمز يجري بالفعل – عبر وضعه في معظم الأحيان في سياق

---

(74) MD 7N4182/4, M. X. de Laforcarde to Pichon, 19 August 1919; MD 4H114/2, Toulat to Gouraud, 10 April 1920; MD 4H112/2b/215.

ترجمة لمقالة في صحيفة **الراية** «احتجاج على أعمال الحكومة الساحلية»، 14 نيسان/ أبريل 1920. وأعاد الفرنسيون في نهاية المطاف الشيخ محمد المكاوي إلى منصبه خطيبًا في جامع المجيدية. ومن المثير للاهتمام أن التطورات اللاحقة أدت إلى جعل الشيخ يكره الأمير. ووفقًا لما أورده تقرير فرنسي في 22 تموز/ يوليو 1920، قبل سقوط دمشق مباشرة، توجه أفراد من جماعة المكاوي إليه بالسؤال عما إذا كان يعتزم ذكر اسم فيصل قبل خطبته. وتضمن رده عبارة شاعت على يد اللجان الشعبية حينما حذر من استعداد فيصل للتوصل الى حل وسط مع دول الوفاق: «لعنة الله عليه، لقد خاننا». وفي اليوم التالي، استطلع الفرنسيون جوامع بيروت بغية تحديد من سيجري ذكر اسمه في بداية الخطب؛ إذ استقر عزم الشيخ مكاوي على ألا يذكر أحدًا. MD 4H60/1, «Bulletin quotidien,» 24 July 1920.

النصوص غير الموالية لأشراف مكة أو المناهضة لهم - فإن استحضار الثورة لم يقتصر على الجماعات الخطابية التي تضم أشراف مكة ومؤيديهم.

لقد قدم الأمير فيصل وحده من بين أشراف مكة ما يُعد ربما الشرح الأشمل لمعنى الثورة العربية في الخطاب الذي ألقاه أمام الأعيان السوريين في الخامس من أيار/ مايو من عام 1919. ونظرًا إلى أهمية هذا الاجتماع - فقد دعا إليه فيصل لكي يحصل على تفويض من المدعوين ومن يمثلونهم، بالوكالة، يخوله الاستمرار في «توجيه السياسات الخارجية والداخلية للحكومة» - ولم تكتف الحكومة العربية بنشر تصريحات فيصل على نطاق واسع (وفي إحدى الحالات منحت إحدى الصحف إعانة مالية لتوزيع نسخ مجانية من طبعة خاصة أُعيد فيها طبع الخطاب) وإنما جعلت نسخًا من الخطاب تتضمن إقحامًا للتأييد الجماهيري الذي يحظى به فيصل(75).

كان خطاب فيصل، في جوهره دفاعًا عن مزاعم أشراف مكة، حيث مزج فيه ببراعة بين فكرتين. أولًا، شدد فيصل على أن الحجازيين يستحقون استمرار ثقة العرب بهم وإخلاصهم لهم، لأنهم، عبر ثورتهم على السلطنة العثمانية في وقت خلد فيه «معظم الأعيان» إلى الهدوء أو اتهموا الحجازيين بالخيانة، أظهروا وحدهم فهمًا حقيقيًا للشؤون الدولية. ونتيجة لتبصرهم، فقد صان الحجازيون بصورة عامة والشريف حسين على وجه الخصوص جزءًا من الإمبراطورية العثمانية في الأقل من الهزيمة المحتمة وتقطيع الأوصال الذي لا مفر منه:

> إن والدي الذي قام بالثورة في أثناء النزاع العظيم الدنيوي بعد ما رأى أن الأتراك انقادوا إلى التيار الألماني وأوردوا الأمة العثمانية موارد الهلاك، ورأى أن دوام العرب في الحرب مع الأتراك المتحدين مع الألمان سيوقع البلاد التركية في ذات الموقع، ورأى أن الأمة العربية التي طالما تمنت الخروج من نير الاستعباد والنهوض إلى ما كانت عليه في سابق التاريخ، طامحة بأنظارها إلى الإفلات من أشراك العدو(76).

(75) **العاصمة** 24 [د. ت.]؛ AD 2343/ «Annexe au journal 'Hermon' 35,» 7 May 1919; FO 371/4181/89850/24, Clayton to Curzon, 17 June 1919.

(76) الحكيم، **الوثائق التاريخية**، ص 50-51.

وفي ما يتصل بالفكرة الأساسية الثانية، فقد وضع فيصل الثورة العربية ضمن سياق الحركة القومية الأوسع التي تشمل السوريين. وعلى الرغم من أنه سلم بأن السوريين كانوا أول من صاغ عقيدة العروبة، بيد أنه نسب الفضل إلى الحجازيين والثورة العربية بتحويل مبادئ لا تزال في مرحلتها الأولية إلى أفعال. ولذلك كانت الثورة العربية تمثل الشرط الذي لا غنى عنه لاستقلال العرب، وبوصفهم مخلصي العرب، كان أشراف مكة جديرين بتبوُّؤ أسمى مكانة بين عظماء القوميين.

> ولا شك أن المسؤول في الحركة، أي الحركة الثورية العربية أولًا: والدي. ثم الحجازيون مادة، الذين قاموا فعلًا. أما السوريون فإنهم مسؤولون عنها معنى، لأنهم قد شوقوا الحجازيين لهذه الحركة. فنرى ولله الحمد أن الفخر وإن كان أولًا للحجازيين، فهو فخر للجميع، لأن هذه الثورة هي ثورة قومية لا يمكن أن نسندها إلا إلى الأمة جمعاء....
>
> ولما وصلت إلى دمشق، ورأيت ما رأيت من رجال الثورة، رجعت إلى الحجاز، وأخبرت والدي كيف أنهم قاموا بواجبهم، وعليه قام. ولكن تقدير الباري جعل السوريين في موقف لا يمكنهم في مؤازرة الحجاز بما قام به، لأسباب تعلمونها، وهو ضغط الأتراك عليهم وما أتوه من الأفعال التي سيسطرها التاريخ ويخلد ذكر من قتل ومن استشهد في تلك الأثناء من السوريين بأحرف ذهبية. قام والدي ولم يفكر في ما يقع على الحجاز والحجازيين من القيام ضد الأتراك، ولم يتيقن من النتيجة. إلا أن الباري سبحانه وتعالى يسر هذه الأمور. فجلا الأتراك عن سورية كافة.

في الوقت ذاته الذي كان فيه فيصل منشغلًا باحتفاله بالثورة العربية أمام مجموعة مختارة من أعيان سورية، كانت جماعات متنوعة من القوميين، من جهة ثانية، توزع منشورات في شوارع دمشق لم تلمح إلا نادرًا وبصورة عرضية إما إلى الثورة العربية أو إلى «العهد للسوريين السبعة». واستند واضعو المنشورات تلك إلى السوابق التاريخية و/ أو حق تقرير المصير في مطالبتهم باستقلال سورية، بدلًا من الحديث عن الثورة العربية. وقد جاء في أحد المنشورات تلك «يا أيها الناس: لقد حرر آباؤنا وأسلافنا البلاد بإراقة دمائهم والتضحية بحياتهم. ولم يكن

آباؤنا وأجدادنا مستعمرين، بل كانوا عربًا أحرارًا كرهوا الظلم والاضطهاد وازدروا الاستعباد»[77].

ربما وجد المسؤولون الحكوميون قدرًا أعظم من العزوف عن تبني أسطورة الثورة العربية لدى القوميين في حلب، حيث جاذبية الأسطورة التي تلقي بالأبطال الحجازيين في مواجهة العثمانيين الظلمة تتنافى مع المشاعر المعلنة المؤيدة للأتراك. وقد أقر أعضاء الحكومة العربية الزائرون للمدينة بأن أهالي حلب يمثلون جمهورًا يسوده الشك على نحو خاص. وحينما سافر فيصل إلى المدينة تلك للمرة الأولى في شهر تشرين الثاني/ نوفمبر من عام 1918، على سبيل المثال، سعى إلى معالجة هذا الشك بالتسليم بأن «حلب هي من أقاصي بلاد العرب» من حيث الموقع، مما أبعد القاطنين فيها عن الثورة العربية وجعل «بعض البسطاء» منهم يميلون إلى تصديق الدعاية المناهضة لأشراف مكة التي نشرها العثمانيون[78].

لذلك، ينبغي ألا يكون مستغربًا أن عبد الرحمن الكيالي، الذي كان ذات يوم رئيسًا للنادي العربي في حلب وعضوًا في اللجنة المحلية للدفاع الوطني، قد اكتفى بالإشارة إلى الثورة العربية إشارة مقتضبة في الكلمة التي ألقاها في الاحتفال الذي أقيم بمناسبة إعلان استقلال سورية وتتويج فيصل ملكًا عليها. وركز بدلًا من ذلك على المعاناة الجماعية التي حلت بالسوريين عبر التاريخ، وبخاصة في أثناء الحرب العالمية الأولى، باعتبارها الأساس لاستقلال سورية. ويرى الكيالي أن الكفاح ضد العثمانيين لم يكن فريدًا من نوعه والحدث الأساسي المحوري في التاريخ السوري، ولكنه بالأحرى حلقة في صراع أوسع نطاقًا حرض السكان في سورية التي هي – «طلسم الفاتحين... تربتها مدفن لجنوده وسبب لهلاكه... سلوا الفراعنة والأكاسرة والقياصرة وسلاطين التتر والترك وأمراء فرنسا وإنكلترا أين كانت مدافنهم يوم مروا من هذه البلاد جسر الشرق». وأما بالنسبة إلى فيصل، فإن

(77) هذه الجمل مستقاة من منشور من بين مجموعة من المنشورات الأصلية في MAE L:SL/vol. 43, ويتكرر هذا الشعور في منشورات أخرى.

(78) الحصري، **يوم ميسلون**، ص 196؛ كامل الغزي، **نهر الذهب في تاريخ حلب**، 3 ج (حلب، 1923–1926)، ص 656. يُنظر أيضًا الكلمة التي ألقاها علي رضا الركابي مودعًا سكان حلب في: خليل مردم بك، **دمشق والقدس في العشرينات**، شرحه وقدم له عدنان مردم بك (بيروت، 1978)، ص 59.

الكيالي ينسب الفضل إلى الملك الجديد باعتباره محاربًا - وإن يكن «عاش بالعز مليك جاهد بزوغ شمسك» - وقع اختيار السوريين عليه ليهبوه العرش ليس بسبب قيادته للثورة، بل لأنه «استحق ذلك عن جدارة وأهلية ثبتتا في صدقه وإخلاصه وعزمه وحزمه ودرايته وحسبه وشرفه». ومن عجيب المفارقات هنا أن الكيالي قلب أسطورة الثورة العربية رأسًا على عقب، فجعل واجب الحفاظ على استقلال سورية ينتقل بعيدًا من فيصل إلى السوريين أنفسهم، معلنًا، «اهتفوا معي فليعش مليكنا [فيصل] مؤيدًا بالحق والعدل ولتحيا سوريا»[79].

ليست كلمة الكيالي سوى أحد الأمثلة على استئثار السوريين بتحمل المسؤولية الجماعية من أجل حريتهم. ويتجلى استئثار مماثل في النزاع القائم بين أشراف مكة وغير المؤيدين أو المناهضين لهم للإفصاح عن معنى كلمات ثورة وثائر/ ثوار. وكانت كلمة ثورة هي الكلمة الأكثر شيوعًا من بين عدة كلمات (بما في ذلك انقلاب ونهضة) التي استخدمها الخطباء والصحافيون في وصف الثورة العربية[80]. وقد استخدم فيصل ذاته في العرض الذي قدمه في 5 أيار/ مايو من عام 1919، على سبيل المثال، مصطلحات الثورة، والثوار، والحركة الثورية، وما إلى ذلك، ما لا يقل عن تسع مرات في وصف الثورة أو المشاركين فيها. بيد أنه على الرغم من أن هذا المصطلح قد راج استخدامه عبر القنوات الحكومية، إلا أن معانيه بدأت تتغير بالتزامن مع انتحال الجماعات الأخرى، ومن بينها اللجان الشعبية، والصحافيون المتعاطفون معها، والعصابات غير النظامية التي كانت تغير على المناطق التي يحتلها الفرنسيون والبريطانيون، [صفة الثوار] عن غير وجه حق. وبإخفاء الجماعات تلك ومؤيديها أنشطتهم تحت عباءة الثورة، فقد سعوا

---

(79) AD 2346/c1a;
«ذكرى عيد الاستقلال السوري: مجموعة خطب وقصائد ألقيت في عيد الاستقلال»، جمعها ونشرها النادي العربي في حلب [د. ت.]، ص 8-12.

(80) للاطلاع على استخدام كلمة انقلاب، يُنظر، على سبيل المثال، الكلمة التي ألقاها خليل السكاكيني أمام النادي العربي بدمشق وترد مقتطفات منها في جريدة **العاصمة**، 22 آب/ أغسطس 1919، 4؛ وللاطلاع على استخدام كلمة نهضة، يُنظر الكلمة التي ألقاها وديع أفندي البستاني أمام الجمعية الأدبية في القدس، وترد مقتطفات منها في: صحيفة **الكوكب**، 27 أيار/ مايو 1919، ص 9.

إلى الحصول على شرعية كان يأمل خصومهم في إنكارها عليهم، وأن تبدو أعمال اللصوصية وقطع الطرق، والإغارة، والابتزاز التي كثيرًا ما كانوا يقترفونها أو يدعمونها بمثابة أكذوبة.

إن توسيع نطاق عدد المدلولات التي يشير إليها هذا المصطلح يتنافى مع المحاولات التي بذلها أشراف مكة من أجل التأكيد أن الثورة العربية كانت حدثًا فريدًا من نوعه، وبذلك عملت على جعل الأساس الذي تقوم عليه شرعية أشراف مكة يتآكل، ولا سيما في سياق اتساع نطاق خيبة الأمل بأشراف مكة لإذعانهم أولًا للانتداب البريطاني، ومن ثم لاتفاق فيصل - كليمنصو في كانون الثاني/ يناير من عام 1920. وعلى سبيل المثال، بينما أثارت بمكر صحيفة **الدفاع**، وهي إحدى المطبوعات المرتبطة باللجان الشعبية، في عددها الصادر في 13 كانون الثاني/ يناير من عام 1920 الشكوك بشأن مصداقية الأمير في مقالة نشرت على الصفحة الأولى بعنوان، «هل اتفق الأمير مع فرنسا بشأن انتدابها على سورية؟ هل هذا ممكن؟» («إننا نعلم، كما يعلم أي إنسان آخر في هذه البلاد أن سمو الأمير فيصل لا يمكنه أن يعقد اتفاقية مع الحكومة الفرنسية باسمنا في مسألة لم نفوضه بها»)، شنت الصحيفة هجومًا على وكالة الأنباء الفرنسية هافاس لأنها نعتت «ثوارنا باللصوص». وعلى نحو مماثل، دأبت الصحيفة على توظيف مصطلحي ثائر/ ثوار في التقارير الإخبارية عن أنشطة جماعات حرب العصابات المناهضة للفرنسيين[81]. ونتيجة لمثل هذا الترويج، فقد تبنى حزب الاستقلال العربي

(81) تضمن العدد ذاته من صحيفة **الدفاع**، على سبيل المثال، ما يلي:

الصفحة 2. استخدمت الصحيفة في مقالة بعنوان «كيف يصور الأجانب أعمال ثوارنا» كلمة ثوارنا.

الصفحة 3. تضمن مقالة «على جبهة إسكندرون» هذه الأسطر: «يبدو أن لهيب الثورة قد امتد إلى الشمال وبات يلتهم كافة أنحاء المنطقة الغزبية. وقد وصلت بالأمس أخبار تنبئنا عن شن مجموعة من الثائرين هجومًا على قافلة فرنسية».

الصفحة 3. «على جبهة مرجعيون»: «بلغ مسامعنا أن المتطوعين ما زالوا يتوافدون من العديد من المناطق وهم يمتطون ظهور الخيل ويسيرون على الأقدام لكي يلتحقوا بالثائرين ويرووا أرض الأجداد بدمائهم الزكية».

إضافة إلى ذلك، أعادت الصحيفة طبع قصة عن رمضان شلاش ظهرت أصلًا في صحيفة **الكوكب** في 6 كانون الثاني/ يناير 1920، تحت عنوان «الثائر الجديد». **الدفاع**، 13 كانون الثاني/ يناير 1920.

الموالي عادة لأشراف مكة مصطلحات اللجان الشعبية، واصفًا أنشطة جماعات حرب العصابات بأنها «ليست إلا ثورة الشعب»[82].

لكن اللجان الشعبية والمتعاطفين معها لم يجعلوا نطاق استخدام مصطلح الثورة مقصورًا على أنشطة جماعات حرب العصابات الموجهة ضد البريطانيين والفرنسيين. وفي أعقاب أزمة الاستبدال، وبينما بدأت تتضح على نحو جلي ملامح الخطوط العريضة للخطط التي أعدتها دول الوفاق تجاه سورية، وظفت اللجان هذا المصطلح للإشارة إلى أي أنشطة مناهضة للأمير فيصل، وحكومته، وأنصاره، الذين شعروا أنهم كانوا على استعداد لتعريض مصالح الأمة للخطر بدافع من النفعية أو الخيانة. وقد وزعت اللجنة الوطنية العليا في شهر تشرين الثاني/ نوفمبر من عام 1919، على سبيل المثال، المنشور التالي المعنون «الخيانة والغضب» في شوارع دمشق:

> نظرًا لأن حلفاءنا خانونا وسخروا منا، فلم يعد أمامنا سوى أن نطرق باب الثورة التي ستتطاير شرارتها وتمتد حرائقها وتصعد ألسنة نيرانها إلى عنان السماء. أيها المواطنون: استعدوا للثورة. الثورة، الثورة إذا خانونا. الثورة، الثورة إن لم يحافظوا على وعودهم. فليسقط الخونة! وليسقط المارقون! ستأكلهم النار. فليسقطوا في ذاك اليوم المشؤوم[83].

ومن المثير للدهشة أن فيصل وأخاه زيد اعتمدا هذا الاستخدام لكلمة الثورة في مراسلاتهما. وحينما كان فيصل خارج البلاد، حذر زيد من ثورة توشك أن تندلع ضد أشراف مكة في برقيات متتالية أرسلها إلى أخيه وأبيه: «إنني لا أستطيع إيقاف الثورة»، «الثورة على الأبواب»، وناشدهما أن يمدا له يد العون[84]. وعندما علم فيصل بالهجوم على دير الزور، كتب قائلًا إن أناسًا من أمثال رمضان شلاش هم «ثوار لا يستحقون إلا العصا»[85].

---

(82) **العاصمة**، 22 كانون الأول/ ديسمبر 1919، ص 2.

(83) AD 2344/325 (original leaflet enclosed), Cousse to Picot, 8 November 1918.

(84) موسى، **المراسلات التاريخية**، ج 2، ص205، 224، 232، 234، 235، 236؛ FO 371/4185/154755, Zayd to Faysal, 17 November 1919.

(85) **الكوكب**، 6 كانون الثاني/ يناير 1920، ص 5.

هكذا قبلت الجماعة الخطابية التي تضم اللجان الشعبية وحلفاءها على مضض رمز شرعية أشراف مكة - عنينا الثورة العربية - لكنهم استخدموه في معان أخرى غير تلك التي توخاها أصلًا المروجون له بإدماجه ضمن مجال خطابي مختلف. وثمة ظاهرة مماثلة حدثت مع رمز رئيس آخر كانت الحكومة العربية ومؤيدوها قد شجعوا عليه واستخدموه لتثبيت موقعهم على رأس المجتمع السوري: «الشهداء» - من سكان سورية ولبنان الحاليين الذين أعدموا لارتكاب جرائم سياسية إبان الحرب العالمية الأولى على يد جمال باشا (الكبير) الذي كان الحاكم العثماني قبل الأخير وقائد الجيش العثماني الرابع.

وعلى مر السنين، رسمت الأسطورة القائلة إن جمال باشا قد أمر بتنفيذ عمليات الإعدام حدًا فاصلًا حاسمًا في تاريخ تطور «الحركة العربية»، وباتت شائعة لدى مؤرخي «القومية العربية»؛ فقد نفذت عمليات الإعدام في الوقت الذي كان فيه الأمير فيصل في زيارة إلى دمشق، مما أقنع، كما قيل، الأمير بضرورة إطلاق الثورة العربية، والدمشقيين بضرورة إزالة نير الطغيان التركي. وكما جاء في الوصف الذي أورده جورج أنطونيوس في أعقاب عمليات الإعدام فقد،

> اهتزت البلاد وارتعدت. ولم يكن أحد يتوقع مثل هذه القسوة، ولا حتى أولئك الذين كانوا يعرفون ما انطوت عليه طبيعة جمال من وحشية، وقد ضاعف فزع الناس من هذه الأحكام أنها شملت البريء والمذنب معًا، إذ إن كثيرًا من هؤلاء الضحايا كانوا معروفين بابتعادهم عن كل ما يتصل بالخيانة. وكان الأثر المباشر لهذه الأحكام بوجه عام أنها أصابت الناس بالرعب. وسرى الفزع في نفوس الزعماء القليلين الذين لم يكن أمرهم قد اكتشف بعد: إذ إنهم لم يتصوروا - حتى في أصعب الأوقات توقعًا للشر - مثل هذا المصير لزملائهم، وأدركوا أنهم لا حول لهم ولا قوة، فأخذوا يفكرون - وقلوبهم مفعمة بالحزن - في حريتهم المخنوقة، ويتدبرون واجبهم في العمل على استخلاصها وإنقاذها، لا من أجل الحرية وحدها فقط، بل لتكون تلك الحرية وسيلة للثأر. وتألم فيصل ألمًا عميقًا.... ومهما تكن الشكوك التي كانت استقرت في نفسه وجعلته يتردد بالاقتناع بالثورة على الأتراك. فإنها قد امّحت الآن في صورة الانفعال

العاطفي، وأصبحت الصيحة التي انطلقت من فمه - حينما سمع أنباء الشنق - صيحة الحرب للثورة العربية[86].

غير أن هذه الروايات وما شابهها أغفلت، على أي حال، ذكر حقيقة مؤداها أنه حتى بعد تنفيذ الإعدامات، غالبًا ما كان الدمشقيون يكرمون جمال باشا ويحتفون به، وأن العديد من هؤلاء سيتبوأون مكانة بارزة في الأنشطة القومية في وقت لاحق. حتى إن خير الدين الزركلي الذي يعد التجسيد للقومية العربية في مرحلة ما بعد عام 1918، نظم أنشودة شكر للحاكم العثماني تضمنت هذا البيت:

أحنوا الرؤوس ورددوا النظرات　　　هـذا مثـال مفـرج الكربـات[87]

كانت المحاولات الأولية الساعية إلى إيجاد معنى للإعدامات التي أمر بها جمال باشا قد بذلها أولئك الذين شاركوا في الثورة العربية وأنصارهم ممن عملوا مع الحكومة العربية. وفي غضون أسبوع من دخول البريطانيين/ أشراف مكة إلى دمشق، أقام ممثلو الجيش العربي في بيروت احتفالًا بمناسبة توحيد المنطقتين. وتمثل الحدث المثير الذي تمحور حوله هذا الاحتفال في رفع العلم العربي فوق المدينة على يد شقيقة محمد ومحمود المحمصاني، وهما اثنان من «الشهداء» الذين شنقهم جمال باشا[88]. وكانت إقامة مراسم التأبين إحياء لذكرى الشهداء أول الاحتفالات العامة التي نظمتها الحكومة العربية في دمشق في 19 تشرين الأول/ أكتوبر من عام 1918، وقد جرت بعد مرور ثلاثة أسابيع وحسب على دخول الأمير إلى دمشق على رأس الجيش العربي. وأرسلت الفتاة في الوقت ذاته ممثلين عنها من دمشق إلى بيروت للإشراف على إقامة احتفال مماثل هناك[89]. وقد تلقت عائلات الشهداء رواتب من الحكومة، وألحق أولادهم بمدارس خاصة

(86) Antonius, *The Arab Awakening*, p. 190.

(87) العظم، **مذكرات**، ج 1، ص 69-70.

(88) USNA 59/867.00/955, «Report of Elias Khouri, First Dragoman of Beirut Consulate,» 8 September 1919; IO MSS EUR 152 (Frank Lugard Brayne Mss.)/18b, «Palestine and Syria Autumn 1918,» 7 October 1918.

(89) AD 2429/9, HC Beyrouth, 21 October 1918; FO 371/3412/177154/3222, Clayton to FO, 22 October 1918.

تديرها الحكومة العربية، وكانوا محط الاهتمام إبان الاحتفالات القومية [بذكرى عيد الشهداء] التي نظمت على شرفهم[90].

ربما كان الاحتفال الأكثر إتقانًا هو ذلك الذي أقيم في 6 أيار/ مايو من عام 1920 «إحياء لذكرى الشهداء السعداء وتأبينهم». وقد جرى الاحتفال في «ساحة الشهداء» في دمشق وسواها من المدن، حيث نصبت أعمدة مزينة بأكاليل الزهور التي كتبت عليها أسماء الشهداء. وإلى جانب الأعمدة، أمر مخططو المراسم الاحتفالية العامة بإقامة منصات يمكن أن تلقي الشخصيات المرموقة كلماتها التأبينية عليها. ووفقًا للتعليمات التفصيلية التي أوردتها جريدة **العاصمة**، فقد تألف الاحتفال من سلسلة الفعاليات المتعاقبة التالية:

> تبتدئ الحفلة بإنشاد نشيد الشهداء ثم يتبارى الخطباء في تأبين شهداء الأمة. وبعد ذلك يسير الجميع بانتظام إلى مقابر المسلمين والمسيحيين حيث توضع أكاليل الزهر على أضرحة الشهداء، ويؤلف وفد لزيارة عائلاتهم. وتقوم لجان هذه الحفلات في خارج دمشق بإرسال برقيات التعزية لهم. وفي المساء تقيم النوادي العربية حفلات تأبين حافلة. وفي اليوم التالي [الجمعة] تتلى قصة الموت الشريف عن أرواحهم، ويقيم رؤساء الدين المسيحي قداسًا عن أرواح من أعدم من إخواننا المسيحيين. وبهذه المناسبة تقدم لجنة الاحتفال – بالنيابة عن المحتفلين – بيانًا وافيًا تؤيد فيه مطالب الأمة المتعلقة بالوحدة والاستقلال تلك المطالب التي ذهب أبناؤها ضحية في سبيلها[91].

وقد حضر كل من الملك فيصل والأمير زيد الاحتفالات المقامة في دمشق[92].

---

(90) للاطلاع على المحاولات المبذولة من جانب الدولة الرامية إلى «خلق تقليد» بشأن رمز الشهداء، والاحتفال بأسر الشهداء، يُنظر: FO 371/3412/177154/3222, Clayton to FO, 22 October 1918; DU SA 493/15/5, n.d.;

الكوكب، 3 كانون الأول/ ديسمبر 1918، ص 8؛ USNA 59/867.00/955, «Report of Elias Khouri, 1st Dragoman of Beirut Consulate,» 8 September 1919;

العاصمة، 4 أيار/ مايو 1920، ص 5؛ MD 4H112/2B, Notebook entitled «Habib Bey Estephane,» n.d. (entry for 6 May 1920); USNA DC/vol. 24/845, Al-Muzaffar to U.S. consul, 4 May 1920; MD 4H114/4/374, Cousse to Gouraud, 7 May 1920; *L'Asie Française*, 15 June 1920, p. 4.

(91) **العاصمة**، 3 أيار/ مايو 1920، ص 5.

(92) **العاصمة**، 6 أيار/ مايو 1920، ص 6.

مقابل التكريمات التي منحتها الحكومة العربية والنفقات التي تكبدتها، استمدت الحكومة العربية وأنصارها المنافع المتبادلة من رعاية الدولة لإحاطة الشهداء بمظاهر التبجيل المفرط. ووفقًا لدعاية الحكومة العربية، فقد أعدم الأتراك الشهداء بسبب أنشطتهم القومية؛ وعلى هذا النحو كان الشهداء جزءًا من الكفاح ذاته الذي خاضه المشاركون في الثورة العربية، والاحتفال بذكراهم إنما هو احتفال بالصلات التي تربط الحجازيين، والعراقيين، والسوريين بعضهم ببعض، «شهداء المشانق والخنادق»، الذين لديهم هدف مشترك «في ظل جلالة الملك المحبوب [فيصل]»(93). وفي ما يتصل بالفتاة، فقد سمحت ذكرى الشهداء لهذه المنظمة ذات الطابع البيروقراطي الآخذ في التعاظم بالاحتفاظ بعباءتها الثورية: إذ أضفى رمز الشهداء الشرعية على الوضع المتميز الذي تتمتع به منظمة أصبح توزيع الرعاية يمثل علة وجودها. علاوة على ذلك، نظرًا إلى أن الشهداء كانوا ينتمون إلى الجماعات المسيحية والمسلمة على حد سواء، فقد أسهم وضع رفاتهم في مدفن القوميين العظماء في تمجيد فضائل التعاون بين الطوائف (كما يرد في شعار «الدين لله والوطن للجميع»)، إضافة إلى البرهان لدول الوفاق أن العرب تجاوزوا التعصب الديني وهم جاهزون بالتالي للاستقلال(94).

على الرغم من أن أنشطة التعبئة والدعاية التي اضطلعت بها الحكومة العربية قد ولدت القبول الواسع النطاق ذاته الذي يحظى به رمز الشهداء مثلما كان الحال عليه مع الثورة العربية، إذ كان الرمز يدل ضمنيًا على مجموعة مختلفة من المعاني ضمن الجماعة الخطابية المرتبطة باللجان الشعبية. ونتيجة لذلك، حتى أولئك الذين أعلنوا عن مواقف سياسية من داخل المجال القومي وتتعارض تعارضًا تامًا مع المواقف التي اتخذتها الحكومة - مثل أولئك الذين شجبوا تدخل غير السوريين (ولا سيما الفرنسيين والحجازيين) في الشؤون السورية،

---

(93) **العاصمة**، 29 نيسان/ أبريل 1920، ص 4.

(94) للاطلاع على التحذيرات التي أطلقها السوريون من التعصب الديني، يُنظر: MAE L:SL/vol. 6/20-21, Mercier to Picot, 10 December 1918; AD 2372/dossier: propagande anti-française/219/41/Bureau b5/d, 19 December 1918;

وللاطلاع على الشهداء بوصفهم أنموذجًا للتعاون الإسلامي/ المسيحي، يُنظر: MD 4H58/1, «Rapport hebdomadaire: 27 Avril au 3 Mai 1920».

وتطلع المتنورين إلى إيجاد نسخة طبق الأصل عن الدولة الأمة الأوروبية في سورية، والأسلوب الذي تتبعه الحكومة العربية في المساومة مع دول الوفاق واسترضائها - فاستحضروا «أرواح الشهداء» من أجل حشد الدعم لنوع خاص بهم من النزعة القومية.

دعا عبد الرحمن الكيالي في الكلمة التي ألقيت بمناسبة عيد الاستقلال التي أوردناها آنفًا، على سبيل المثال، الحضور إلى أن «يتذكروا ماضيهم»، قائلًا:

> تذكر أمسك! من كان يقطن هنا ومن كان يشنق ويحبس وينفي بلا رادع ولا حق بل لمجرد القضاء على جنسيتك. ولا تنسى هؤلاء الظالمين فإن بكاء اليتامى والثكالى لا يزال يرن بالآذان، وأن أشباح من ماتوا ضحية الجوع؛ والمرض؛ والحرب والشنق والنفي لا تزال أمام العين تشير إلى ماذا يجب أن يُعمل لكي تبقى هذه التربة طاهرة وتلك الأرواح مستريحة.

وقد خطب آخرون سواه في اليوم ذاته ورددوا صدى آراء مماثلة:

> لقد توهم الغرب أن سقوط السوريين بعد ما بذلوا الرخيص والغالي والطارف والتلاد وأراقوا دماء أكبادهم هو ركون للذل ورضوخ للاستعمار، ويا بئس ما توهم. فالسوري ما كان يقعده عن إعلان استقلاله الذي اشتراه بدم أبنائه إلا ريثما يسمع برزانة وحكمة وعقل وروية صدور قرار المؤتمر يرسل شمس الحياة الحرة فتشرق بسماء سورية المعذبة. بيد أنهم اطلعوا على نوايا الغرب وعلموا ما يدور بالأندية السياسية ويدور في خلد زعماء أوروبا فأعلنوا حقهم وهو الاستقلال[95].

خدم الشهداء في كلتا هاتين الكلمتين الغرض المتمثل في استخدام الكناية، التي أُريد بها أن ترمز إلى استشهاد أبناء الأمة السورية كافة إبان الحرب.

نظرًا إلى أنه ما زال هناك آخرون، وبخاصة أولئك الذين ينتمون إلى اللجان الشعبية وجماعات حرب العصابات ممن ينادون بالمقاومة المسلحة للخطط التي

---

(95) كلمة طاهر الكيالي في AD 2346/c1a, «Remembrance of Syrian Independence Day,» p. 26.
كما استشهد فيليكس فارس، وهو خطيب آخر، بحماسة الشهداء. Ibid., p. 12.

كانت تعدها دول الوفاق، لم يكن الدرس المستفاد من الشهداء هو أن سورية تستحق الاستقلال بسبب استشهادهم؛ بل بدلًا من أن يكونوا ضحايا يبكيهم الناس، غدا الشهداء هم القدوة الحسنة للنضال الثوري. وفي أيار/ مايو من عام 1920، في ذلك اليوم الذي خصصته الحكومة العربية لإحياء ذكرى الشهداء، نشرت صحيفة **الكنانة** التي غالبًا ما كانت تتحدث باسم اللجان الشعبية النداء التالي:

صرخة أرض الأجداد العرب

أيها الشعب السوري! تذكروا أنكم في هذا اليوم قد فقدتم أنبل أبنائكم الأحرار الذين قدموا حياتهم ليضعوكم جنبًا إلى جنب مع الأمم الحرة العظيمة. لقد نذروا أنفسهم لهذه الخاتمة العظيمة وينادونكم لكي تتذكروهم، ولتتذكروا معهم مبادئهم......

أيتها الأمة السورية! إذا أثرت بمشاعركم ذكرى أبنائكم النبلاء وذرفتم الدموع الغالية من أجلهم، فلتعلموا أنكم لن تستطيعوا الوفاء بواجبكم تجاههم إلا إذا سرتم على خطاهم وتخلقتم بأخلاقهم الحميدة. فالحكومة [الفرنسية] التواقة إلى استعماركم، وسلب ثروتكم، وقتل النزعة القومية في نفوس أبنائكم، ليس لديها الرغبة في منحكم حقكم الجلي. فلتهبوا هبة رجل واحد للدفاع عن استقلال سورية ووحدتها اللذين بدونها لا يوجد أي حق. إنهم يرغبون في استعباد أبناء الأمة. ويرغبون في أن يجعلوا فلسطين الوطن القومي لليهود! لقد غرسوا الشوك المميت في جسد أمتنا الذي يفصم وحدتنا ويدمر روحنا القومية، وازدهارنا، ونفوسنا. وإنهم يرغبون في منح الغرباء التحكم بنا بغية نشر بذور الشقاق بيننا، وإضعاف عرقنا ولغتنا، ولسوف يطلبوننا في المستقبل لتأدية الخدمة العسكرية ويسوقوننا إلى ساحات الحروب للقتال من أجل الأجنبي.

إن أجدادكم النبلاء يناشدونكم الحفاظ على تراثهم، والذود عن شرفهم والقتال من أجله. أما من يحب حياته فلسوف يغدو مهانًا[96].

---

(96) FO 371/5188/E6132/39, «Arabic Press Extracts for Week Ending May 24 1920».

لاستخدام مماثل يُنظر: MD 4H112/2b, Notebook entitled «Habib Bey Estephane,» n.d.; MD 4H114/4/374, Cousse to Gouraud, 7 May 1920.

لقد نشرت هذه المقالة بعد ثلاثة أشهر تقريبًا من الكلمة التي ألقاها الكيالي. وبحلول ذلك الوقت، كانت دول الوفاق قد وقعت اتفاقية سان ريمو التي قسمت سورية إلى مناطق منفصلة خاضعة للانتداب، مما يدل على أن الأوان قد فات لكي نتوقع من دول الوفاق أن تتأثر إما بالتضحيات التي بذلها السوريون إبان الحرب أو بالبراهين التي تبين أن المستوى الحضاري في سورية يتوافق مع معايير دول الوفاق بشأن «الاستقلال التام». وعلاوة على ذلك، فبحلول ذلك الحين كانت الحكومة البريطانية قد خفضت المعونة المالية التي تقدمها للحكومة العربية، مما قوض قدرة هذه الأخيرة على كبح جماح منافسيها ونشر الدعاية التي تدعمها. وفي ظل هذه الظروف، لعله كان من الحتمي أن المعاني التي سبق للحكومة العربية أن أضفتها على رمز الشهداء قد تفتقر إلى المصداقية لدى كثير من السوريين.

ومن المفيد الإشارة إلى أن رمز الشهداء قد احتفظ بقوته العاطفية (وبفائدته للحكومات التالية) حتى بعد زوال الدولة الفيصلية. وغداة الاجتياح الفرنسي لسورية الداخلية، أدمج مؤرخو القومية ما بين قصة إبعاد فيصل عن دمشق وقصة الشهداء في صيغة مجازية مفادها أن العرب وقعوا ضحية في أيدي أطراف خارجية (من أتراك، وغربيين، وصهاينة). ونتيجة لذلك، ما زال عشق الشهداء، على نحو ما جرى سرده في الكتب المدرسية والتواريخ الشعبية وكما يجري الاحتفال بذكراهم، يعد بمثابة مكون استدلالي رئيس في الأسطورة القومية العربية المعاصرة التي تحظى بالتمجيد على نطاق واسع[97].

«الدين لله، والوطن للجميع»

في اجتماع للنادي العربي عقد في دمشق أواخر شهر شباط/ فبراير من عام 1919 على شرف الجنرال السير إدموند أللنبي، تحدث <أفرام برصوما> مطران السريان القدماء عن معنى العروبة «إنني أنادي بدين جديد فوق كل دين، هو دين الوحدة العربية الذي يجمع أبناء البلاد على اختلاف مذاهبهم»[98]. وفي حين أن هذا الشعور

(97) جرى تفصيل تلك الأسطورة على نحو أوفى في: L. Carl Brown, «Patterns Forged in Time: Middle East Mind-Sets and the Gulf War,» in: Stanley A. Renshon (ed.), *The Political Psychology of the Gulf War* (Pittsburgh, 1993), pp. 3-21.

(98) **العاصمة**، 26 شباط/ فبراير 1919، ص 3.

ربما لم يكن من المألوف أن يصدر عن أحد رجال الإكليروس، إلا أن تصريحات من هذا القبيل كانت شائعة في المنطقة الشرقية من سورية في العهد الفيصلي. ففي شهر تشرين الثاني/ نوفمبر من عام 1919، على سبيل المثال، صرح خطيب آخر للجمهور ذاته، «إننا جميعًا ننتمي إلى ديانات وأوطان مختلفة وندين بدين الوطنية، ونعلن صراحة أننا كلنا عرب، فاللغة والوطنية يوحداننا جميعًا»[99]. وفي الأسبوع التالي، أعلنت مقالة افتتاحية نشرتها جريدة **العاصمة** بعنوان «لنرجع إلى الدين» أن الديانات التوحيدية الثلاث تسعى جاهدة لتحقيق أهداف متماثلة «فالأديان كلها ما جاءت إلا لإصلاح البشر وتنوير قلوبهم بنور الفضيلة، وإرشادهم إلى طريق السعادة». وأردفت المقالة الافتتاحية قائلةً إن الديانات الثلاث كلها متفقة على عدة مبادئ: الإيمان بالله، واليوم الآخر، والفضائل الأخلاقية، و«الروابط القومية بين أبناء البلد الواحد [و]... المصالح الوطنية بين الجميع»[100]. وقد تضمنت القصيدة التي نظمها بشير يموت، «الإخاء الوطني»، المنشورة أيضًا في جريدة **العاصمة** الآراء ذاتها:

فالدين لله، والأديان واحدة
أصولها، وبهذا الله قد حكم
عيسى وأحمد عند الله قد جمعا
أتقدرون على التفريق بينهما؟
هما بريئان من ضغن وموجدة،
لا تجعلوا الضغن والأحقاد باسمهما!
قد اتهمنا بأنا ليس يجمعنا
«حب البلاد»، فردوا هذه التهما
لا نرتضي ملجأ إلا «أخوتنا»[101].

---

(99) **العاصمة**، 11 تشرين الثاني/ نوفمبر 1919، ص 2.
(100) **العاصمة**، 20 تشرين الثاني/ نوفمبر 1919، ص 1-2.
(101) **العاصمة**، 28 آب/ أغسطس 1919، ص 4.

في حين تبنت كلتا الجماعتين الخطابيتين القوميتين قضية الوئام في ما بين الطوائف وعملتا على تعميم شعار «الدين لله والوطن للجميع» بدرجات متفاوتة من الحماس، فإن ذلك هو ما صنعته الجماعة الخطابية التي تنتمي إليها الحكومة العربية وحلفاؤها بقناعة وحماسة على وجه الخصوص[102]. وتولت الحكومة العربية والنادي العربي تعميم عرائض موقعة باسم سكان إحدى القرى أو أحد الأحياء من الطوائف والمذاهب والأديان كافة؛ ورخصت رسميًا لإقامة الاستعراضات والتظاهرات المخطط لها، التي كان يقودها الزعماء الروحيون من المسلمين والمسيحيين واليهود، ودأبت على عرض نسخ من العهد القديم والجديد بشكل واضح ولافت للنظر جنبًا إلى جنب مع نسخ من القرآن؛ بل وأشاد كتاب المقالات والافتتاحيات بالجذور المشتركة للديانات التوحيدية الثلاث وفضائلها في الصحف المدعومة ماليًا من جانب الحكومة العربية أو المنحازة إليها.

لما كانت سورية تضم أعدادًا كبيرة من غير المسلمين والمسلمين من غير أهل السنّة، فقد شجع ذلك، بطبيعة الحال، الجهود الرامية إلى بناء جماعة سياسية لا تلقي بالًا للانتماء الديني. ولكن تعزيز الوئام بين الطوائف كان له أثر إضافي تمثل في تدعيم المخططات الحكومية على الصعيدين المحلي والدولي. ففي الداخل، كانت الحكومة العربية تتطلع إلى أن تبدد مخاوف الأقليات الدينية التي كانت تعرب عن ارتيابها في مدى التزام الحجازيين تحقيق العلمانية وقلقها بشأن طموحات الشريف <حسين> في تولي الخلافة. وكان الأمير فيصل ذاته يشعر بالقلق من أن مخاوفهم إزاء الانضمام إلى دولة تضم أغلبية مسلمة قد تدفعهم

(102) الحصري، **يوم ميسلون**، ص 77. يرد هذا الشعار، على سبيل المثال، في المنشور «الاستقلال أو الموت!» المذكور آنفًا، وإنما بصفة عارضة وفي نهاية النص. وقد استخدمت اللجان الشعبية، التي، كما سيتبين أدناه، اعتمدت في كثير من الأحيان الرموز الإسلامية أو جمعت بين الشعار والرموز الإسلامية في النص ذاته، هذا الشعار بغية تبديد مخاوف الأقليات التي أثارت جرعها «حركة التطوع» وتنظيم ميليشيات مسلحة (من المسلمين)، وتساءلت، على حد تعبير بطريرك الروم الأرثوذكس، عما «إذا كان من الحكمة تسليح الذين يخشى منهم إساءة الاستعمال في ما لا يعود بالخير على الوطن». يُنظر: **العاصمة**، 7 تشرين الثاني/ نوفمبر 1919، ص 5.

إلى دعوة فرنسا لتوفير الحماية لهم، وذلكم هو إجراء من شأنه بطبيعة الحال أن يحدث آثارًا مدمرة على الوحدة السورية[103]. وأما في الخارج، فقد خدم ضمان الحماية والمشاركة السياسية الكاملة للأقليات الأغراض التكتيكية لأولئك الذين كانوا يأملون في الفوز بالاستقلال، عبر إظهارهم لدول الوفاق أن سورية كانت «أمة تستحق الحياة والاستقلال»[104]. وهكذا، وكما أوجزت جريدة **العاصمة** في بيان لها «نريد أن تعرف أوربا والعالم أجمع أن المنازعات الدينية القديمة قد ماتت وانقضت. ونحن الآن أبناء أمة واحدة ووطن واحد»[105]. وربط فيصل على الدوام في بياناته إلى الشعب السوري ما بين التسامح الديني في سورية وأي قرارات إيجابية تصدر عن مؤتمر السلام. وقال مخاطبًا الجماهير في حلب «لا يحترمنا العالم المتمدن إلا إذا احترمنا أنفسنا واحترم بعضنا بعضًا. وإذا انقسمنا إلى أحزاب وشيع فإنه يستخفّ بنا. وهو ينظر إلى الأديان كافة نظرًا واحدًا ولا يميز بين أمة وأمة»[106].

بيد أن الحكومة العربية وحلفاءها لم يكتفوا بإظهار تأييدهم لحقوق الأقليات بالاستناد إلى أسس النفعية وحسب، ولم تكن أيضًا مظاهر الاشمئزاز الواضحة التي تجلت في حوادث مثل مذبحة الأرمن التي جرت في حلب في شباط/ فبراير من عام 1919 مجرد حيل مستهترة جرى افتعالها لغرض الاستهلاك الأجنبي[107]. بدلًا من ذلك، ونظرًا إلى نزوعهم إلى الأفكار الوضعية والأساليب التبريرية الحديثة، فقد رأى المتنورون، الذين ساندوا الحكومة العربية وعبروا عن المثل العليا التي وضع برنامج الحكومة على أساسها، أن الحريات والقيود التي يفرضها العصر الحديث قد جعلت «التدين ذا تأثير أضعف في بناء الأمم

(103) سلطان، **تاريخ سورية**، ص 133-134؛ موسى، **المراسلات التاريخية**، ج 1، ص 244-245.

(104) استخدمت هذه العبارة مرتين من جانب علي رضا الركابي أثناء إقامته في حلب. يُنظر: مردم بك، **دمشق والقدس**، ص 28، 43.

(105) **العاصمة**، 7 تشرين الثاني/ نوفمبر 1919، ص 6.

(106) **العاصمة**، 16 حزيران/ يونيو 1919، ص 3.

(107) للاطلاع على أحد هذه العروض، يُنظر: برقية من فيصل إلى زيد أعيد طبعها في: **العاصمة**، 25 آذار/ مارس 1919، ص 3.

الاجتماعية والسياسية مع مرور الزمن»[108]. ونص بيان نشرته جريدة **العاصمة** على ما يلي «نحن في القرن العشرين، والوطنية الصحيحة هي فوق كل شيء، والمسلم أخو المسيحي أحب أم كره»[109]. وكان المتنورون يعتقدون أن من شأن البنى والهويات الاجتماعية القائمة على أساس المجتمع المحلي، التي هي بقايا زمن أكثر بدائية، أن تختفي بطبيعة الحال مع تعرض المجتمع السوري لمقتضيات الحداثة وبناء المؤسسات الاجتماعية المتوافقة مع الحقبة المعاصرة[110].

لم تقتصر المهمة التي اضطلع بها المتنورون على تحفيز هذه السيرورة عبر بناء مثل هذه المؤسسات فحسب، وإنما عبر حث السوريين أيضًا على تقبل رؤيتهم للدولة القومية الحديثة. وكان تعميم شعار «الدين لله والوطن للجميع»، بالتالي، جزءًا وحسب من سيرورة أوسع نطاقًا سعى المتنورون بوساطتها إلى غرس أنموذج «مدني» للأمة في نفوس السكان، وذلكم هو أنموذج تحل فيه روابط المواطنة والممارسة القانونية المشتركة والمثل السياسية محل الروابط الإثنية والدينية[111]. وكان تصورهم للأمة المتولد عن حادث تاريخي ومقتضيات الدبلوماسية، مفروضًا قسرًا من جانب نخبة سياسية واعية ذاتيًا على السكان الذين كانوا، على حد تعبير الأمير فيصل «كالطفل الصغير... لا يفقه معنى القومية والحرية، ولا ما هو الاستقلال»[112].

---

(108) **الكوكب**، 8 تشرين الأول/ أكتوبر 1918، ص 4-5.

(109) **العاصمة**، 7 تشرين الثاني/ نوفمبر 1919، ص 6.

(110) في مقالة نشرت في **العاصمة**، يقتبس فائز الخوري من هربرت سبنسر، الذي قارن اشتراكيي أوروبا بالأشخاص «الخاضعين لسيطرة الدين». وكلاهما، وفقًا لما يورده الخوري، مرتبطان بالإيمان والتفكير القائم على التمني أكثر من ارتباطهما بقوانين يمكن إثباتها علميًا، التي ينبغي أن تكون الأساس الذي يقوم عليه المجتمع. يُنظر: **العاصمة**، 14 حزيران/ يونيو 1919، ص 1.

(111) يُنظر: Anthony D. Smith, *National Identity* (Reno, 1991), pp. 9-11; Anthony D. Smith, «The Myth of the 'Modern Nation' and the Myths of Nations,» *Ethnic and Racial Studies*, vol. 11 (January 1988), pp. 8-12;

ويعني سميث بالنزعة القومية المدنية «التزامًا سياسيًا ليس بحدود معينة فحسب، أيًا كان منشأها، بل وبموقع مكاني واجتماعي معين من بين أمم إقليمية أخرى. وأساس هذا الالتزام الإيمان بأهمية مكان الإقامة والتجاور، خلافًا لما عليه الحال بالنسبة إلى الأرومة والنسب»، Smith, *National Identity*, p. 117.

(112) يُنظر تصريحات الأمير فيصل في حلب، 11 تشرين الثاني/ نوفمبر 1918، التي ترد في: الحصري، **يوم ميسلون**، ص 213.

وفقًا لما يتضح من مجموعة متنوعة من النصوص غير الرسمية، من الكتابة على الجدران وصولًا إلى المنشورات والشعارات التي تتردد في التظاهرات غير المرخصة، فقد كان برنامج القومية المدنية الذي يروج له المتنورون والهدف المتمثل في الارتقاء إلى مصاف «الأمم المتحضرة» يفتقران إلى الجاذبية المتأصلة لدى العديد من السوريين. وعلى النقيض من ذلك، تؤكد النصوص أن جانبًا كبيرًا من الخطاب الذي تستخدمه الحكومة العربية وأنصارها في تواصلها مع الشعب السوري – وهو خطاب تمثله شعارات مثل «الدين لله والوطن للجميع» – كان خطابًا يصفه م. م. باختين بأنه «خطاب سلطوي». وعلى النقيض من «الخطاب المقْنع داخليًا»، لا يمكن «الخطاب السلطوي» أن يندمج في المعتقدات الراسخة عبر التوافق أو الاستيعاب التدرجي؛ بدلًا من ذلك، ونظرًا إلى ارتباطه ارتباطًا لا ينفصم بالسلطة التي يصدر عنها، فقد حظي بالدعم على أساس صلته بتلك السلطة وحسب (وليس على أساس جدارته الذاتية)، وكان قبوله أو رفضه رهنًا بظروف تقع خارج نطاق قوة حجته أو قابلية ربطه بالمعتقدات الراسخة[113]. وإنه لمن المتوقع أن يكون مثل هذا الخطاب الذي ترعاه الدولة منيعًا نسبيًا في وجه التوافق الواسع النطاق أو الاستيعاب التدرجي: وكما يذهب إميل دوركهايم للقول في كتابه **الأخلاقيات المهنية والأخلاق المدنية** فإن من شأن التعقيد الذي تتسم به المجتمعات الحديثة أن يضمن إمكان أن تفوز البديهيات الأكثر إبهامًا أو الأشد ابتذالًا فحسب الصادرة عن إحدى الدول باستحسان واسع النطاق بين ظهراني شعب غير متجانس[114]. وهكذا، مع الإخفاق الواضح لاستراتيجية تحقيق الاستقلال عبر إثبات أن سورية كانت أمة متحضرة «تستحق الحياة والاستقلال»، وظهور اللجان الشعبية بوصفها جهات ذات مصداقية تطالب بالسلطة، وتفكك الأوضاع الداخلية، انهارت سلطة الحكومة العربية وحلفائها من المتنورين، وأما الشعارات من قبيل «الدين لله والوطن للجميع» فلم تبق سوى على نحو لا

(113) M. M. Bakhtin, *The Dialogic Imagination*, Michael Holquist (ed.), Caryl Emerson & Michael Holquist (trans.) (Austin, 1981), pp. 342-346.

(114) Emile Durkheim, *Professional Ethics and Civic Morals*, Cornelia Brookfield (trans.) (Glencoe, Ill., 1958), p. 63.

وظيفي، واقتصر ظهورها على الخطابات السياسية (الرسمية عادة) ولكنها غابت، في معظمها، عن الشوارع[115].

على النقيض من المساعي التي بذلها المتنورون لاستخدام الشعارات من أجل ترسيخ القيم غير التقليدية والحداثية، فقد أعادت اللجان الشعبية وأنصارها على الدوام تأكيد الرموز التي كانت مألوفة لدى معظم السوريين - تلك الرموز التي «يمكن أن تستنهض أنواعًا معينة من مشاعر الانتماء الجماعي القائمة بالفعل»[116] - وما فتئت تسخرها، وقد أضفت عليها معاني جديدة عبر وضعها ضمن إطار المجال الخطابي القومي. ولكن الملاحظ أنه بينما لم تستخدم اللجان الشعبية ومؤيدوها هذه الرموز إلا نادرًا، على غرار تلك الرموز ذات المنشأ الأوروبي التي يستخدمها المتنورون بكثرة في خطابهم، غير أن ذلك كان على نحو خجول. ومن عجيب المفارقات أن محب الدين الخطيب لم يكتف في مقالة نُشرت له في الصفحة الأولى من جريدة **العاصمة** بتوبيخ المتنورين نظرًا إلى عدم استخدامهم الرموز والشعارات التي كانت لها أصداء لدى السكان فحسب، وإنما لاستخدامهم أيضًا الرموز التي تعمل بالفعل على تحقيق مقاصد تتعارض مع أهدافهم. وكتب إن الرأي العام مستمدَ من تركيبة من التقاليد التاريخية والأحداث العابرة <وأردف قائلًا> «إن الذي يتغلغل في قلب الشعب... تقاليده التاريخية التي هو شديد الإيمان فيها».

> وعلى هذا فالرأي العام السوري جامع لصفتي الثبات والتقلب لأنه يقتبس الثبات من إيمانه بتقاليده الماضية وإخلاصه لمطمحه الخالد ويجنح إلى التقلب لمرونته تجاه مقتضيات الزمن محاولًا أثناء هذه المرونة الموازنة بين الدواعي الجديدة والتقاليد القديمة. فيرضى تجديده إذا لم يناقض قديمه، أو

(115) يظهر شعار «الدين لله، والوطن للجميع» في 14 في المئة من عينة من المنشورات التي وزعت إبان الفترة الممتدة بين تشرين الأول/ أكتوبر 1918 وحزيران/ يونيو 1919؛ بينما لا يظهر في أي من المنشورات التي وزعت بعد مغادرة لجنة كينغ - كرين دمشق. ومن بين المنشورات التي تعود إلى الفترة الأولى، تدعو 32 في المئة إلى الحفاظ على حقوق الأقليات أو المساواة بين جميع السوريين بغض النظر عن ديانتهم؛ في حين يتراجع هذا العدد إلى 7 في المئة بعد شهر حزيران/ يونيو 1919.

(116) E. J. Hobsbawm, *Nations and Nationalism since 1780: Programme, Myth, Reality* (Cambridge, England, 1990), p. 46.

يقاوم جهد الطاقة وحتى الموت إذا ثبت عنده وجود التناقض. وهذا هو السر في تفاؤل السوريين بما تفاءلوا به في الحوادث الجديدة من قديم الزمان حتى الآن، وهو أيضًا سبب تشاؤمهم من كل ما تشاء أن تصونه[117].

ما إن غابت النداءات الداعية إلى التناغم بين الطوائف عن المنشورات التي كانت توزع في شوارع دمشق بعد مغادرة لجنة كينغ - كرين، حتى حلت محلها الرموز الإسلامية على نحو لافت للنظر، التي تتضمن الدعوة إلى الجهاد والوحدة الإسلامية، وتوجيه التحايا للمسلمين أو «المدافعين عن الإسلام»، واقتباس آية ﴿إن الله معنا﴾ <التوبة: 40> من القرآن[118]. ويوفر المنشور التالي، الذي وزع في دمشق في خريف عام 1919، أمثلة أنموذجية على ذلك:

إلى المدافعين عن الدين

تذكروا قوله تعالى ﴿انفروا خفافًا وثقالًا وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله﴾ <التوبة: 41>. أين ذلك الجهاد؟ امتثلوا لأمر الله: ﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة﴾ <الأنفال: 60>. أين هي تلك القوة التي يتعين عليكم أن توفروها من أجل الذود عن دينكم وبلادكم؟ كفاهم كذبًا وخداعًا. وكفاكم تسامحًا وتقاعسًا. لقد كذبوا عليكم، وخدعوكم، وخذلوكم. إنهم يريدون أن يقسموكم حتى بعد أن قطعوا لكم العهود والمواثيق. ولسوف يتلعونكم بعد أن أقسموا أغلظ الأيمان أن يكونوا لكم مخلصين. إياكم أن تثقوا بأولئك الذين يعلنون بأنهم يعتنقون دينكم. واستلوا سيوفكم واشحذوها. وأعدوا بنادقكم وهيئوا ذخيرتكم. أقسم بالله أن العدو لن يكون قادرًا على الوقوف في وجهكم، لأن الله معنا، والمؤمنون سندهم هو الله عز وجل[119].

---

(117) **العاصمة**، 23 تشرين الأول/ أكتوبر 1919، ص 1-2.

(118) من بين عينة من المنشورات التي وزعت بعد مغادرة لجنة كينغ - كرين سورية، تضمنت 53 في المئة منها رمزًا واحدًا أو شعارًا واحدًا أو أكثر من الرموز أو الشعارات التالية التي لم تظهر في المنشورات التي كانت قد وزعت قبل وصول اللجنة: الدعوة للوحدة الإسلامية (22 في المئة)؛ الدعوة للجهاد (17 في المئة)؛ شعار «الله معنا» (31 في المئة). وإبان الفترة ذاتها، كان ما نسبته 22 في المئة من عينة من المنشورات موجهة إلى المسلمين أو «المدافعين عن الإسلام»؛ ولم يظهر أي من صيغتي المخاطبة في النشرات التي جمعت قبيل زيارة لجنة كينغ - كرين إلى دمشق وفي أثنائها.

(119) = AD 2344/643, Cousse to HC, 30 October 1919 (enclosures in Arabic and French).

وبحلول ربيع عام 1920 حتى الأمير فيصل أذعن لاستخدام الرموز الإسلامية ضمن النصوص الصادرة عن الحكومة العربية. ففي نيسان/ أبريل من عام 1920، على سبيل المثال، ترأس الأمير مراسم تسليم العلم إلى لواء المشاة الأول للجيش العربي. وكان منقوشًا على أحد جانبي العلم:

بسم الله الرحمن الرحيم

وجاهدوا في سبيل الله

إن الله معنا

إنا فتحنا لك فتحًا مبينًا

وعلى الجانب الآخر:

لا إله إلا الله محمد رسول الله

اللواء الأول المشاة

(سنة 1338)

وألقى فيصل كلمة بعدما عرض الجيش العلم في موكب سار في شوارع دمشق، معلنًا، «يتحتم على اللواء الذي أهديته هذه الراية أن يبرهن على أنه أهل لهذه الهدية، وأن يعرف كيف يفتديها بدمائه ذائدًا عن شرف الجندية وحمى الوطن»[120].

عزا المراقبون الأوروبيون والأميركيون إضفاء الطابع الإسلامي على الخطاب السياسي إلى انبعاث السمات المتأصلة لدى سكان سورية، وفاعلية الدعاية الكمالية التي دعت إلى الوحدة الإسلامية في وجه العدو المسيحي المشترك على حد سواء. وعلى الرغم من أن هناك شواهد تدل على أن المتمردين الأتراك قد وزعوا المال والمواد الدعائية على اللجان الشعبية وجماعات حرب

= يُنظر أيضًا: FO 371/4186/162128/495, Dispatch from the Acting Spanish Consul in Damascus, 11 December 1919.

(120) **العاصمة**، 29 نيسان/ أبريل 1920، ص 5؛ MD 4H58/1, «Rapport hebdomadaire: 27 Avril au 3 Mai 1920».

العصابات التي تتبع للجان[121]، إلا أنه من الأهمية بمكان أن نلاحظ أن استخدام الرموز الإسلامية قلما كان متأصلًا. إذ لم تخرج الرموز الإسلامية الرموز القومية من النصوص الشعبية؛ بل إن هاتين المجموعتين من الرموز كانتا ملتصقتين التصاقًا كاملًا في معظم النصوص. وبناء على ذلك، نشرت صحيفة **الكنانة**، على سبيل المثال، عشية الاجتياح الفرنسي لسورية الداخلية إعلانًا على صفحة كاملة يدعو السوريين إلى «الدخول إلى ثكنات الجنود»، مستخدمة كلتا المجموعتين من الرموز معًا.

> ثمة خطر وشيك يحدق بشرفكم، واستقلالكم، وشعائركم الدينية المقدسة، وحريتكم وما لم تثوروا وتهبوا للدفاع عنها، فلسوف يُضطهد الأول، ويختفي الثاني، ويُسحق الثالث بأقدام جحافل عدوكم - عدو الله والوطن. إن محمدًا العربي يدعوكم للتضحية بأرواحكم وأموالكم لإنقاذ بلادكم. تذكروا وصايا الله ورسوله وسيروا على نهج ابن الوليد، وطارق، وعقبة، وابن العاص، وابن الخطاب... تقدموا للأمام ولا تترددوا في الدخول إلى الثكنات، وتطوعوا في سلك الجندية، وثقوا بالله - وهو خير الناصرين. وإن نصرتم الله، فلن يتخلى الله عن أمة مؤمنة[122].

إن إدراج الرموز الإسلامية ضمن المجال الخطابي القومي الذي يحظى بشعبية واسعة أخرج الرموز تلك من السياقات التي كانت موجودة فيها من قبل وحوَّل معناها ليدل على أواصر «الأمة» التي وحدت السوريين وميزتهم من «أعداء الله والوطن» الإمبرياليين. وهكذا لم «يتراجع» السوريون عن الهوية القومية لكي يتبنوا الهوية الدينية؛ ولكن ما حدث بدلًا من ذلك هو أن سورية في مرحلة ما بعد <مؤتمر> سان ريمو باتت تعيش جوًا حماسيًا[123]، نظرًا إلى تزايد

---

(121) FO 371/4184/144109/I.4405, GHQ (Egypt) to DMI, 30 October 1919; FO 371/4184/150560/I.618/S, GHQ (Egypt) to DMI, 4 November 1919; FO 371/4185/158008, «Summaries of Telegrams,» 29 November 1919; MD 20N171/2, «Rapport hebdomadaire 18-25 Janvier 1920;» MD 4H58/1, «Rapport hebdomadaire: 9 au 16 Février 1920»; MD 4H58/1, «Rapport hebdomadaire: 17 au 23 Février 1920»; AD 2345/no no., «Le cri du droit,» 5 March 1920; MD 4H114/2/146, Cousse to Gouraud, 30 March 1920; AD 2358/526, Cousse to HC, 10 June 1920.

(122) **الكنانة**، 15 تموز/ يوليو 1920، ص 2.

(123) كتب طبيب يعمل لدى وزارة الخارجية التابعة للحكومة العربية في رسالة إلى صديقه سعيد =

أعداد السوريين المشاركين في السياسة على نحو ملحوظ، فأصبحت الروابط الإسلامية تجسد أواصر الأمة ولا تتعارض معها أو تحل محلها، وأضحى الذود عن الإسلام، شأنه شأن الدعوة المألوفة إلى الدفاع عن عفة المرأة في مواجهة هتك حرمتها من جانب الطامعين الفرنسيين، يدل ضمنًا على الدفاع عن الأمة والنقاء الطائفي[124]:

وإذا أحجم أبناء سورية الشجعان عن الموت في سبيل وطنهم

فكيف تأمن فتياتنا على شرفهن؟

وكيف يأمن أهلونا على أرواحهم؟

وكيف يسلم الوطن من دنس الأعداء[125]؟

وهكذا، وعلى النحو المبين في المدخل، بحلول ربيع عام 1920، كان «أبناء سورية الشجعان» هؤلاء الذين تطوعوا للقتال في ميسلون قد غادروا إلى الجبهة معلنين أن الدفاع عن بلادهم هو «الجهاد الوطني» الذي يفرضه مزيج من الواجب الديني والقومي.

= شقير: «يعد الخرف الفردي من بين أعظم المصائب التي أعرفها. ولكن الأسوأ من ذلك هو الخرف الكامل الذي تصاب به أي أمة.. لست نبيًا، ولكنني أرى النتيجة النهائية على نحو شديد الجلاء إن لم يعد المصابون إلى رشدهم». DU SA/493/6/51, Amin Ma'luf to Sa'id Shuqayr, 1 June 1920.

(124) لنأخذ، على سبيل المثال، المقتطف التالي من المنشور المعنون «مرارة الاحتلال: محاضرة قدمها تونسي في مدينة دمشق ليلة الجمعة 8 جمادى الثانية 1333»، الذي أعادت لجنة الدفاع الوطني بدمشق إصداره: «ترى فرنسا أنه من غير الممكن التأثير على قلوب الشعوب الإسلامية ما دام ضوء نور الإيمان تستضيء به مشكاة صدورهم، وبالتالي فإنها جعلت ارتكاب الانتهاكات بحق المشاعر والواجبات الدينية مبدأ سائدًا بحيث يصبح من الممكن لهم أن يزعزعوا المعتقدات الحقيقية في صدور الشبان». الأصل في: MD 4H114/2, «Brochures anti-françaises éditées pendant la guerre et remises un moment en circulation par le comité de la défense nationale à Damas,» 3 February 1920;

ينظر أيضًا: BL AJB/Add. Mss./49749, 21 April 1919; AD 2344/629, Cousse to HC, 23 October 1919; 4H112/2b, n.d.; MD 4H112/2b, al- Rayah: «Méfaits des soldats» (in French), 18 April 1920; MD 4H114/4, **الدفاع**، 22 حزيران/ يونيو 1920.

(125) استشهدت **العاصمة** بهذه القصيدة، التي نظمها أحمد شاكر الكرمي، بوصفها أنموذجًا لـ «شعر قومي حديث»، 13 أيار/ مايو 1920، ص 2-3.

الديمقراطية والتقدم

في مطلع ربيع عام 1920، وبالتزامن مع بدء النقاش داخل المؤتمر السوري العام الذي أعيد انعقاده مؤخرًا بشأن الاستقلال والدستور، انقسم المندوبون لدى الهيئة <التشريعية> تلك على أنفسهم إلى ثلاث كتل. وعلى الرغم من أن العدد الدقيق للأعضاء في كل كتلة كان موضع خلاف بين المراقبين والمؤرخين المعاصرين، إلا أن معظمهم يؤكدون أن أغلبية الأعضاء كانوا ينتمون إلى ائتلاف أطلق على نفسه اسم «حزب التقدم»، بينما شاركت البقية إما في «الحزب الديمقراطي»، أو في تجمع ثالث أقل تماسكًا (جرى تحديده، بشكل متباين، على أنه «الحزب الحر المعتدل» أو ببساطة، «المستقلون»، نظرًا إلى عدم انتمائهم إلى أي من الحزبين الآخرين)[126]. وكان أعضاء حزب التقدم ينتمون إلى الفتاة ويؤيدون سياسة الحكومة العربية بصورة عامة، بينما كان أعضاء الحزب الديمقراطي إما من المنتسبين إلى اللجنة الوطنية العليا أو يؤيدون أهدافها. وأما المستقلون فكانوا ينزعون إلى التصويت مع حزب التقدم.

لما كانت الحكومة العربية واللجان الشعبية قد وفرت الإطار المؤسسي الذي دعم الجماعتين الخطابيتين القوميتين الرئيستين فمن الطبيعي أن تجد الخصومة السائدة بينهما امتدادًا لها في المؤتمر السوري العام. ولكن ما قد يكون أكثر إثارة للاهتمام بشأن الخصومة داخل البرلمان هو التسميتان اللتان وقع عليهما

---

(126) يزعم محمد عزة دروزة أن حزب التقدم كان يضم في البداية خمسة وثلاثين عضوًا (يذكر بلاوي أن عدد الأعضاء قد بلغ ثلاثين عضوًا)، ثم توسع نطاق العضوية لتشمل خمسة وستين عضوًا، بينما كان كل من الحزب الديمقراطي والكتلة ذات التوجه الوسطي يضم قرابة عشرين عضوًا. ويدعي فرزات أن عضوية الحزب الديمقراطي اشتملت على ثلاثين عضوًا. وإلى جانب الذاكرة المعطوبة، فقد يعزى النزاع بشأن الأعداد إلى ثلاثة عوامل: التقلب الذي اتسم به الولاء للحزب، والطابع المتغير للسياسة التي انتهجها الحزب داخل المؤتمر، وتأخر وصول المندوبين من المناطق الواقعة خارج دمشق إلى العاصمة. يُنظر دروزة، **مذكرات**، ج 2، ص 145، 188–189؛ محمد عزة دروزة، **حول الحركة العربية الحديثة** (صيدا، 1950)، ج 1، ص 115–116؛ مصطفى بلاوي، «الأحزاب السياسية في سورية (1920–1939)»، أطروحة ماجستير، جامعة دمشق، 1985، ص 28؛ محمد حرب فرزات، **الحياة الحزبية في سوريا: دراسة تاريخية لنشأة الأحزاب السياسية وتطورها بين 1908–1955** (دمشق، 1955)، ص 75. للاطلاع على تعداد المندوبين الموجودين في دمشق، يُنظر: Russell, *The First Modern Arab State*, p. 236, n. 6.

اختيار الكتلتين. ولم يكن القرار الذي اتخذه النواب بإطلاق تسميتي «التقدم» و«الديمقراطية» على القضايا الخاصة بكل منهما قرارًا اعتباطيًا. وقد اختارت الكتلتان المتنافستان هاتين التسميتين نظرًا إلى أن كل تسمية كانت بمثابة رمز رئيس داخل جماعتها، وتوجز وتمثل كلًا من الأسس التي تقوم عليها الشرعية السياسية والأهداف الأساسية للحركة القومية لدى أولئك الذين شاركوا في تلك الجماعة.

لقد تتبعت في المدخل ما كان لمفهوم «التقدم» في الشرق الأوسط بشكل أساسي من صدى على ظهور طبقات اجتماعية جديدة وإعادة تشكيل الطبقات الراسخة التي أسست (أو أعادت تأسيس) نظرتها إلى العالم تحت تأثير توسع علاقات السوق في القرن التاسع عشر وقدرات الدولة. وقد صاغ أفراد من هذا الوسط الاجتماعي في السنوات الأخيرة من عمر الإمبراطورية العثمانية الرموز والمجال الخطابي، وشكلوا الإطار المؤسسي لإحدى الجماعتين الخطابيتين الرئيستين، وتلكم هي التي هيمنت على السياسة القومية في فترة ما بعد الحرب مباشرة. ولم يكن مفهوم التقدم العالمي لدى هؤلاء الموجودين في هذه الجماعة يحمل في طياته الأصداء الجوهرية ذاتها التي كان قد أحدثها لدى نظرائهم الأوروبيين فحسب، ولكن كما هي الحال مع القوميين المتحدرين من بيئات مماثلة في أنحاء أخرى من العالم، وفر هذا المفهوم أيضًا الأساس المنطقي الرئيس لأنشطتهم: إذ ستوفر الحركة القومية بقيادة المتنورين ووكلائهم السياسيين لسكان سورية المنافع المادية المرتبطة بالحضارة وبوساطة الاعتماد على الدعائم الثقافية ذات الصلة التي يتوقف عليها استمرار التقدم، المواءمة بين سورية ومجتمع الدول المتحضرة وبين السوريين ومشروع الحداثة الشامل.

كان ارتباط القومية بالنهوض القومي والتقدم الانساني، إذًا، موضوعًا مألوفًا يطغى على كتابات المتنورين وخطابهم. وتضمنت، على سبيل المثال، الخطب التي وزعتها الحكومة العربية على المساجد في جميع أنحاء دمشق في نيسان/ أبريل من عام 1919 طرحًا لقضية التقدم و«الحضارة» بلغة الحداثة الإسلامية لكي تلقى على مسامع المصلين الذين يؤدون صلاة الجمعة:

يشتمل الاستقلال على تدريب العقول على تفسير الحقيقة. إنه ذلك الجهد الذي يبذله الجميع من أجل مصلحة الجميع، والاحتكام إلى العلوم الحقيقية والنافعة لكي تتوسع مدارك العقل، ويُلقى حجاب الجهل جانبًا، ليتمكن الناس من عبادة الله وطاعته والخضوع له والاستفادة بأكبر قدر ممكن من أفكار التقدم والحضارة. وبوساطة الاستقلال سيكون الناس قادرين على بذل كل جهد من أجل تحقيق مصالحهم التي هي مصالح أمتهم أيضًا. ومن جملة ذلك تحسين المواصلات، وإنشاء السكك الحديد، والنهوض بالتجارة، والزراعة، وجميع الأشكال الأخرى من النشاط الاقتصادي. وذلكم هو الاستقلال الذي أقره النبي، وهو الاستقلال الذي يدعو إليه الإسلام[127].

وتضمنت نصوص أخرى رؤى للمستقبل السوري المجيد الذي سيكون مأمونًا بفضل الاستثمار في التقانة الصناعية والزراعية أو تطبيقها[128]، وامتدحت الحكومة العربية وأشراف مكة («أمراء اليوم، كما عهدناهم أمراء الأمس، يبجلون المعرفة ويسعون إلى توسيع نطاقها»)[129] نظرًا لالتزامهم بالنهوض بالعلم والمعرفة، أو أعلنت عن تشكيل جمعيات علمية وأدبية، والشروع في تنظيم سلسلة من المحاضرات، وتأسيس المدارس، وافتتاح المؤسسات المدنية مثل «دار الكتب العربية» و«متحف الآثار العربي» – وكانت تعد جميعًا في آن واحد بمثابة نماذج و(بغية جذب اهتمام دول الوفاق والمتشككين في الداخل على حد سواء والتأثير عليهم) دليلًا على التقدم الحضاري في سورية.

وفي ما يتصل بالمتنورين، فإن المواءمة بين الأمة ومقتضيات التقدم العالمي كانت تتطلب إعادة تشكيل أساسية للحياة الاجتماعية، بما في ذلك الدور المناط بالمرأة في المجتمع السوري. وقدمت صحف مثل **العاصمة** و**الكوكب** وابلًا متواصلًا من المقالات التي تتضمن مناقشة لأهمية الدور الذي تضطلع به النساء في بناء سورية الجديدة، وحثهنّ على الإعداد للاستقلال عبر الدراسة ومحاكاة نظيراتهنّ الأكثر تحررًا في الغرب. وفي هذه المقالات، دعا المتنورون النساء

(127) AD 2343/286, Cousse to HC, 24 April 1919 (مرفق النص العربي والترجمة الفرنسية).

(128) يُنظر: **الفلاح**، أيار/ مايو 1919، ص 16–18؛ **العاصمة**، 7 أيار/ مايو 1919، ص 7.

(129) **الفلاح**، أيار/ مايو 1919، ص 18.

إلى الإقبال على الثقافة والفنون، والاضطلاع بالأعمال الخيرية، ونبذ الطيش والبهرجة، من أجل تكريس أنفسهن للأمة: «إن في أيدي النساء الدمشقيات وأجيادهن من الحلي الذهبية ما تربو قيمته على مليون ليرة... فلو جمع هذا المال ووضع في أحد صناديق التوفير لكان من ناتجه دون أن يمس رأس المال ما يساعد على إقامة معهد علمي»[130]. ولكن كان يكمن وراء هذه الدعوات الجهد المبذول من أجل إحداث صورة طبق الأصل من المجالين اللذين حددا الأدوار المثالية المناطة بالجنسين في أوساط البرجوازية (غير النسوية) في أوروبا في القرن التاسع عشر - وذلكم هو مجال عام يهيمن عليه الرجال، ويعززه ويدعمه مجال الأنوثة المكرسة للحياة الأسرية:

> إن لم يجر تقييد المرأة، فستكون كنزًا زاخرًا بالمعرفة ومستودعًا للعلوم الإنسانية والفنون. بيد أنها لا ترغب بالقدرة الربانية التي ستهيئها لتكون مهندسة أو محامية أو خطيبة أو صحافية، ولكنها تتمنى أن تجعلها أمًا وربة منزل ومربية لأطفالها الرضع وأولادها. وأما أولئك الذين يحاولون ملء رأسها بشتى العلوم والفنون فعلى النقيض من ذلك يملأون الفجوة الفكرية لديها بشؤون تفصلها عما خلقت من أجله وتبعدها عن أداء وظائفها الطبيعية[131].

لما كان السوريون من ذوي النزعة القومية قد واجهوا ظروفًا تختلف عن تلك القائمة في أوروبا، فإن الأنشطة التي خصوا المرأة بها اشتملت على تلك التي كانت مفروضة على المرأة الأوروبية وأخرى سواها كانت المرأة الأوروبية ممنوعة من ممارستها على حد سواء. وجادل، على سبيل المثال، بعض المتنورين (كان ساطع الحصري وزير المعارف واحدًا من أبرز هؤلاء ومصدر إزعاج للمحافظين) بأنه ينبغي للفتيات السوريات أن يتلقين التعليم شأنهن في ذلك شأن الفتيات

---

(130) **العاصمة**، 28 آب/ أغسطس 1919، ص 5-6. يُنظر أيضًا: **العاصمة**، 5 شباط/ فبراير 1920، ص 5؛ **الكوكب**، 11 تشرين الثاني/ نوفمبر 1919، ص 11؛ **الكوكب**، 13 كانون الثاني/ يناير 1919، ص 11.

(131) **الكوكب**، 28 تشرين الأول/ أكتوبر 1919، 7-8. يُنظر أيضًا: **العاصمة**، 11 أيلول/ سبتمبر 1919، ص 1-2؛ وعرض لزيارة غيرترود بيل إلى «مدرسة بنات الشهداء» بدمشق في IO L/PS/10/802, Gertrude Bell, «Syria in October 1919,» 15 November 1919, p. 11.

الأوروبيات؛ ففي نهاية المطاف، إذا كان من المتوقع أن تربي المرأة الأطفال الذين سيبنون سورية المستقبل، فإنهن بحاجة إلى التدريب والتأهيل في مجال العلوم والثقافة القومية حتى يتسنى لهن أن يعلّمن ذريتهن. وكتب أحد كتاب المقالات الافتتاحية في **العاصمة** قائلًا «على المرأة العربية أن تعلم أن نهوض الشرق من كبوته يحتاج إلى رأس مال، وهو العلم». <مردفًا>:

> وقد قال الإمام الغزالي (رضى) ما معناه ربوا أطفالكم قبل أن تلدهم أمهاتهم بخمسين سنة فيأتوكم راجحي العقول، ناضجي الأفكار. يريد بذلك أن تتغذى الأمهات منذ نعومة أظفارهن بألبان العلوم والفضائل فينشئن أولادهن على الفضيلة والكمال وكريم الخصال[132].

ولكن أعضاء حزب التقدم استخدموا المنطق ذاته ليجادلوا بأنه ينبغي أن تكون المرأة السورية مطلعة على السياسة أيضًا. ونتيجة لذلك، دافع الحزب عن قضية حق الاقتراع للمرأة داخل المؤتمر السوري العام. وتفيد عدة روايات أن اقتراح توسيع نطاق حق الاقتراع ليشمل المرأة عجل الانقسام بين الكتل المتنافسة: فلم تقتصر معارضة الديمقراطيين وحلفائهم غير الممثلين في <المؤتمر> البرلمان على منح المرأة حق الاقتراع فحسب، وإنما شملت أيضًا الجهود التي بذلها الحصري من أجل توسيع نطاق تعليم الفتيات. وعلاوة على ذلك، شلت المناقشات المصاحبة لهذه القضية المؤتمر فعليًا قبل أسبوع من الاجتياح الفرنسي لسورية الداخلية[133]. ومن عجيب المفارقات أن فرنسا لم تمنح حق الاقتراع لسكانها من النساء إلا بعد ربع قرن من الزمان.

---

(132) **العاصمة**، 28 آب/ أغسطس 1919، ص 5-6.

(133) **العاصمة**، 12 تموز/ يوليو 1920، ص 1؛ دروزة، **حول الحركة العربية**، ج 1، ص 115-116؛ فرزات، **الحياة الحزبية في سوريا**، ص 75؛ حسن الحكيم، **خبراتي في الحكم** (عمان، 1987)، ص 46؛ وجيه الحفار، «الحكومات التي تعاقبت على الحكم في سورية»، **الشرطة والأمن العام**، السنة 1 (15 تشرين الثاني/ نوفمبر 1372هـ)، ص 10؛ AD 2374/938/CP/dossier: TEO zone ouest, «Situation politique,» 29 April 1920;

ووفقًا لما أوردته **العاصمة**، 31 أيار/ مايو 1920، ص 1، فقد وافق المؤتمر السوري العام بالتزكية على قرار يمنح المرأة حق التصويت في 29 أيار/ مايو 1920.

لم يحمل «التقدم» لدى الحزب الديمقراطي وحلفائه خارج المؤتمر السوري العام تلك الجاذبية التي كانت له عند خصومهم، كما أنهم لم يعتبروا الالتزام بهذا المبدأ معيارًا للشرعية. بل إن الحزب وحلفاءه جعلوا، في بعض الأحيان، فكرة التقدم ومناصريها في موضع السخرية. وأعلن أحد الكتاب في صحيفة **الكنانة** أن «الفرنسيين في سورية لا يبالون إن دُمرت الأرض الخاضعة لهم أم لا، وسواء كانت حياتها الاقتصادية متوقفة تمامًا أم لا، وسواء كان السكان أحياء أم يحتضرون، ولا حتى إن أبيدت القرى عن بكرة أبيها أم كانت آهلة بالسكان. إنهم يهتمون فقط بشأن ضرورة أن تمتلك السلطات هناك مصادر الثروة وتحويل السكان الأحرار إلى عبيد تحت مسمى التقدم، وإن السوريين وحدهم الذين يشعرون بآثار كل ذلك عليهم»[134]. وعوضًا عن النعم غير المؤكدة للتقدم، فقد استندت شرعية الحزب الديمقراطي واللجان الشعبية التي كان الحزب تابعًا لها إلى ادعائهما بأنهما يمثلان «إرادة الأمة».

شكل هذا الادعاء موضوعًا رئيسًا للنصوص التي وزعتها اللجان الشعبية. ففي أوائل شهر آذار/ مارس من العام 1920، عشية انعقاد المؤتمر السوري العام من جديد، أصدرت اللجنة الوطنية العليا، على سبيل المثال، منشورًا مكونًا من ورقة ذات قطع كبير مطبوعة على وجه واحد يحمل عنوان «الأمة تملي رغباتها على المؤتمر السوري» ووزعته على نطاق واسع في جميع أنحاء دمشق. وقد ذكر البيان، في المقام الأول، النواب بمهمتهم عبر استهلاله بكلمة ترحيب بـ «المؤتمر السوري النبيل الذي ينعقد أثناء هذه العاصفة السياسية لكي يردد أصداء تطلعات الأمة». وعقب عرض موجز أورد البيان مطالب الأمة، التي كان يتعين على المؤتمر أن يسنها لكي «ينال ثقة الأمة ويصبح ممثلها الحقيقي». وبعد تصدير كل لازمة بالتأكيد أن «الأمة تريد»، شدد البيان على المبادئ الديمقراطية، التي كان يجب أن تحكم سورية المستقلة:

> الأمة تريد من [المؤتمر] حكومة مدنية ديمقراطية تمثيلية..

(134) FO 371/5188/E7808/42, «Arabic Press Abstracts for Week Ending June 14 1920».

الأمة تريد من [المؤتمر] حينما يبايع أميرها المعظم ملكًا على البلاد أن يبايعه ملكًا عادلًا ودستوريًا وديمقراطيًا..

الأمة تريد من [المؤتمر] أن يستند قانونها الأساسي على مبدأ الملكية التمثيلية الديمقراطية اللامركزية..

وقد مهر البيان بتوقيع كامل القصاب «باسم الأمة السورية»[135].

من أجل تعزيز مطالبتهم بتمثيل «إرادة الأمة»، عممت اللجان الشعبية أسطورتها المؤسسة التي أسبغت عليها نعمة الكمال المثالي، على غرار ما فعلته الحكومة العربية قبلها. وقد قدمت الأسطورة اللجان باعتبارها النتيجة الحتمية للحماسة الشعبية، التي أثارتها أزمة الاستبدال. ووفقًا لما نصت عليه ديباجة ميثاق اللجنة الوطنية العليا فإنه:

لن ينجح العمل العام من أجل الأمة ما لم يكن أفراد الأمة مستعدين له. وإن [العمل العام] مشروط بالتعاضد، الذي هو أمر ضروري لكي يتعزز. وتلكم هي الظروف التي نشأت فيها مسألة التشكيلات الوطنية في العاصمة السورية. فقد كان هناك شعور بالحاجة إليها في منزل كل حي وفي قلب كل فرد. وهكذا، سارع الناس إلى تحقيق هذا المسعى على كل جبهة، واضطلع أهالي [كل] محلة بدورهم من دون أي تواطؤ، بدافع من الشعور بالواجب الوطني. وإن هذا التكوين العظيم، الذي أطلقت عليه تسمية «اللجنة الوطنية العليا»، بالإضافة إلى اللجان المتفرعة عنها، قد انبثق في مجمله عن عملهما[136].

وما إن استحدثت اللجان الشعبية حتى اضطلعت بمهمة توطيد تطلعات السوريين غير المكتملة وجعلها فعالة عبر تحويل «الأمة بأكملها إلى كتلة قوية تشعر شعورًا واحدًا وتسعى جاهدة إلى تحقيق مصلحة واحدة قوية»[137].

---

(135) النص الأصلي في المكتبة السلفية، القاهرة: ملف اللجنة الوطنية. أعيد طبعه في الأهرام، 12 آذار/ مارس 1920، وفي: USNA 165/2558-16, Military Attaché (Cairo) to Director Military Intelligence, 16 March 1920.

(136) المكتبة السلفية، القاهرة: ملف اللجنة الوطنية، «نظام اللجنة الوطنية العليا في العاصمة السورية»، 17 تشرين الثاني/ نوفمبر 1919.

(137) المكتبة السلفية، القاهرة: ملف اللجنة الوطنية، «نظام اللجنة الوطنية الفرعية في بلاد سورية»، 17 تشرين الثاني/ نوفمبر 1919.

كان أولئك الذين لهم صلة باللجان الشعبية أو متعاطفون معها يرون أن رمز الديمقراطية ينسجم مع التمثيل العام لسورية بوصفها جماعة عضوية تمتلك إرادة مشتركة مستمدة من تاريخ وهوية مشتركين. وعلى الرغم من أن المتنورين كانوا يرعون الديمقراطية أيضًا، إلا أنهم وضعوها ضمن مجال خطابي مختلف أشد الاختلاف - إذ جعلوا «التقدم» يتبوأ مكان الصدارة فيه. وبناء على ذلك، فعلى الرغم من تقبلهم للديمقراطية باعتبارها متوافقة عقائديًا مع «روح العصر»، إلا أنهم جادلوا بأن الشعب لم يكن مهيئًا للديمقراطية، وبالتالي سيكون من الضروري تهيئته بشكل مكثف (تحت رعايتهم) قبل أن يصبح في الإمكان تطبيق المبادئ الديمقراطية في سورية:

> إن كل المصائب التي أصيبت الديمقراطية بها في الممالك الأخرى نشأت عن تشييدها على غير أساس التربية الاستقلالية، إذ ليس معقولًا أن نطلب الوصول إلى المرحلة الثانية من الطريق قبل اجتياز المرحلة الأولى منه... أقول لإخواني المتنورين غير مستثن منهم أحدًا: إذا كنا صادقين في دعوى خدمة الوطن فيجب على كل واحد منا أن يوجه ما في نفسه من قوة الاندفاع نحو إصلاح التربية وإيقاظ روح الرجولية في أبناء اليوم ليكونوا رجال الغد[138].

مكن التدريب على بناء الديمقراطية التي نادى بها المتنورون، وحتى مفهومهم لما قد يبدو عليه المجتمع الديمقراطي في المستقبل[139]، من الاحتفاظ بنظرتهم الدالة على المساواة بصورة أساسية للمجتمع السوري واستكملت دعوتهم إلى

(138) **العاصمة**، 26 كانون الثاني/ يناير 1920، ص 1-2. كتب الافتتاحية، «التربية الاستقلالية - والمبادئ الدمقراطية»، التي استقينا منها هذا الاقتباس محب الدين الخطيب، مما يظهر مرة أخرى الموقف الغامض للخطيب بوصفه رئيس تحرير جريدة **العاصمة** وأمين سر اللجنة الوطنية العليا.

(139) وفقًا لما جاء في مقالة افتتاحية منشورة في العاصمة خلت من توقيع صاحبها، فإن «الديمقراطية العربية الكاملة ستبدو بأجلى مظاهرها يوم يرون جلالة الملك يصافح أبناء الأمة العربية من دان وقاص ويؤانسهم جريًا على سنة أجداده الأولين... وهكذا رأينا جلالة ملك الإنكليز يتنزل من حالق عرشه إلى بطاحه بالرد على أحد القرويين المصريين بقوله المملوء رأفة ولطافة: شكرتك يا ولدي على معايدتك لي وأتمنى لك خيرًا دائمًا. (الإمضاء من عبدكم المخلص) فيرى القارئ في هذا الجواب الذي تجلت فيه روح الديمقراطية الحق التي تتجسم مظاهرها في البلاد الإنكليزية يومًا عن يوم ما يثير العواطف استعظامًا»، **العاصمة**، 21 نيسان/ أبريل 1919، ص 1-2.

الحكم على يد الاختصاصيين والتكنوقراطيين. وعلى نحو ما سيتبين في الفصل التالي، فإن هذه النظرة طغت على خطاب المتنورين، مما حد من جاذبيته في اللحظة ذاتها التي تطلبت فيها المشاركة الشعبية الموسعة في السياسة استخدام خطاب يمكن أن يتبناه جمهور أوسع نطاقًا.

الفصل الرابع

القوى الإدماجية والتوجيهية للمجالات الخطابية القومية المتنافسة

تناول الفصل السابق تنوع المعاني التي استمدتها الجماعتان الخطابيتان القوميتان الأساسيتان من مجموعة متنوعة من الشعارات والرموز الرئيسة التي كان بعضها مشتركًا بينهما، بينما كان بعضها الآخر مقصورًا على هذه الجماعة أو تلك. ويرمي هذا الفصل إلى توضيح العلاقة المتبادلة القائمة بين الرموز هذه ومعانيها المحددة في ما يتعلق وجماعتها، ووضعها في السياق الأوسع نطاقًا للمجموعات المتكاملة من القيم، والالتزامات، والأهداف التي يفرضها المجال الخطابي لكل جماعة.

كانت هذه المهمة، في بعض وجوهها، قد بدأت بالفعل. إذ إنه من المستحيل، بالطبع، بحث الدور المحوري الذي اضطلع به الرمزان الرئيسان «التقدم» و«الديمقراطية»، على سبيل المثال، من دون الإشارة إلى الإطار الذي حوَّل هذين المصطلحين إلى رمزين أنموذجيين. ولسوف يختلف النهج الذي سنتخذه في هذا الفصل، على أي حال، عن ذاك الذي اتبعناه في الفصل السابق من ناحيتين. أولًا، يعكس هذا الفصل اتجاه الاستقصاء؛ نظرًا إلى أن المجال الخطابي ذاته يفرض مجموعة من الدلالات التي قد ينسبها المساهمون في الجماعة الخطابية إلى ما ينطوي عليه كل رمز، فينبغي أن يبدأ تحليل المجالات الخطابية بتفحص المجالات

في وحدتها الكاملة بدلًا من الوصول إلى استنتاجات بالاعتماد على رموز منتقاة وغير مترابطة. ثانيًا، سوف يكون الموضوع مَناط البحث في هذا الفصل أشد تقييدًا مما كان عليه الحال في الفصل الذي سبقه؛ وحتى على الرغم من أن المجالات الخطابية موضوع البحث قد أجازت مجموعة شاملة من المعتقدات التي تناولت قدرًا كبير من الاهتمامات العامة والخاصة، إلا أن هذا الفصل سوف يقتصر في تركيزه على نهج كل مجال خطابي في النظر إلى مشكلة معينة تتصل بتأسيس الجماعة السياسية المثالية وإعادة بناء التنظيم الملائم للمجتمع.

ما يجعل هذا النقاش حاسمًا لفهم التحول السياسي والاجتماعي في سورية ما بعد الحقبة العثمانية تلك الحقيقة المتمثلة في أن المجالات الخطابية تضطلع بما يتجاوز مجرد تصوير عالم مثالي؛ إذ إنها تلهم مكوناتها وتوفر التوجيه لأنشطتها. وكما سبقت الإشارة في الفصل الثالث، يمثل أحد الرموز التي تقع ضمن المجال الخطابي جسرًا يربط ما بين المرجع الرمزي ومجموعة معينة من المعاني. وبالتالي، يعكس المجال الخطابي البيئة التي نشأ فيها[1]. ولكن بما أن المجال الخطابي ذاته يفرض التماسك في مجموعة كبيرة من المعاني الرمزية الممكنة، فإنه، في الوقت ذاته، يعزل نفسه عن سياقه الاجتماعي ويتخذ سمات الحقيقة الأنموذجية؛ عنينا، أن المجال الخطابي هو بمثابة مصدر للسلطة الخاصة به[2]. ونتيجة لذلك، تعمل منظومة الرموز المتكاملة بوصفها خريطة توجيهية للسلوك: ونظرًا إلى أن الرموز المتضمنة قد استمدت معانيها من مجموعة من الرموز الداخلة في محتوى المجال الخطابي، فإنها تسعى إلى التمييز بين ما هو مباح وما ليس كذلك، حيث يوجه المجال أنصاره عبر إجازته لمجموعة من الأنشطة. وكما لاحظ روبرت وثناو، غالبًا ما كان المجال يؤدي الوظيفة هذه عبر وضع الرموز التي تدل على الأعمال والقيم التي يجري الدفاع عنها وتلك التي تعد مضرة جنبًا إلى جنب بصورة مباشرة

(1) Robert Wuthnow, *Communities of Discourse: Ideology and Social Structure in the Reformation, the Enlightenment, and European Socialism* (Cambridge, Mass., 1989), pp. 3, 13-14, 554-558.

(2) Bruce Lincoln, *Discourse and the Construction of Society: Comparative Studies of Myth, Ritual, and Classification* (New York, 1989), pp. 24-25;

يُنظر أيضًا: Wuthnow, *Communities of Discourse*, p. 555; Cornelius Castoriadis, *The Imaginary Institution of Society*, Kathleen Blamey (trans.) (Cambridge, Mass., 1987), pp. 368-369.

على النحو الذي يضع فيه اللاهوت المسيحي، على سبيل المثال، الفردوس والجحيم ومتطلبات الدخول لكل منهما جنبًا إلى جنب[3]. ولسوف نناقش بمزيد من التفصيل أدناه، ذلك التجاور ما بين «التقدم» و«الجمود» في المجال الخطابي للمتنورين في سورية ما بعد الحقبة العثمانية، ومثله التجاور ما بين «الأمة» وأعدائها (مثل «أولئك الذين سيبيعون الأمة بوصفها سلعةً») في مجال منافسيهم القوميين في اللجان الشعبية، التي عززت تقريظ السلوك المناسب لأولئك الذين يقعون ضمن إحدى هاتين الجماعتين الخطابيتين.

ثمة مثال يلقي الضوء على السيرورة التي يتوسط فيها المجال الخطابي التجربة الاجتماعية والمعنى الرمزي مستقى من المجال الخطابي المرتبط بالحكومة العربية وحلفائها من خارج الحكومة: فقد حوَّل المجال الخطابي لهذه الجماعة الخطابية المحددة التصنيفات الموضوعية للعمل الوظيفي والمكانة الاجتماعية التي يشار إليها بمصطلح الطبقة الوسطى إلى فئات رمزية (أي إلى متنورين ومستنيرين وما إلى ذلك) يستمد منها أتباعها عددًا محدودًا من المعاني ومسارات العمل الممكنة. وبالمقابل، فإن هذه المعاني والإجراءات المأذون بها، التي يرد وصفها أدناه، أكدت المدلولات التي تعنيها ضمنًا الصيغ الرمزية الأخرى التي شكلت المجالات الخطابية، مما يعزز شمولية المجال ذاته.

لسوف يشكل هذا المجال الخطابي - المجال الذي لا يؤطر فحسب وإنما يتموضع فيه المتنورون وحلفاؤهم - موضوع الجزء الأول من هذا الفصل.

المشهد من الأعلى

كانت الجماعة الخطابية التي تعينت هويتها بالحكومة العربية والجمعيات السياسية والثقافية المتحالفة معها تتضمن مجموعتين يمكن وصفهما بـ«الغرباء» عن المجتمع السوري على نحو ما جرى تشكيله قبل الحرب العالمية الأولى. وقد تألفت المجموعة الأولى من العسكريين وأشراف مكة وأتباعهم، وهلم جرّا،

(3) Wuthnow, *Communities of Discourse*, pp. 14-15, 554-558.

وكان هؤلاء قد وفدوا إلى دمشق من أماكن أخرى - الحجاز والعراق وفلسطين - مع الجيش العربي أو غداة انسحاب العثمانيين من سورية. واستندوا في حقهم بممارسة السلطة السياسية على مشاركتهم بالثورة العربية، وأدى حضورهم في الحكومة العربية إلى إثارة الاحتجاجات من جانب العديد من الأعيان من أبناء البلاد الذين كان ديدنهم التحكم بالسياسة المحلية. وتألفت المجموعة الثانية من الغرباء من المتنورين الذين كانوا يعتقدون بأن التعليم أو المهنة تجعلهم مؤهلين للاضطلاع بدور خاص في سورية ما بعد الحرب بصرف النظر عن أنشطتهم أيام الحرب.

وحدت المصالح المشتركة هاتين المجموعتين. فوجهتا كلتيهما، مثلًا، نقدهما القاسي إلى النظام السياسي الذي لم يعدهما بشيء يلائم طموحاتهما. ولذلك سعتا إلى إعادة بناء ذلك النظام، وإن بطرق مختلفة: ولا ريب بأنه على الرغم من أن العديد من اللاجئين قد اكتفوا بالشعور بالرضى عن إقحام أنفسهم ضمن التشكيلات الاجتماعية والسياسية التي كانت موجودة في ما مضى، إلا أن المتنورين كانوا يرون بأن التحولات التي طرأت على علاقات السلطة قد تخلفت كثيرًا عن ركب التطورات الاقتصادية والاجتماعية التي حولت المجتمع السوري على مدى نصف القرن الماضي، وبأن تقويم الوضع الراهن لن يكون ممكنًا إلا عبر إجراء تغيير جذري. وإضافةً إلى أهدافهما المشتركة، كانت كل مجموعة تمتلك سمات تكمل السمات التي تتمتع بها المجموعة الأخرى: ففي حين أن اللاجئين قد أضفوا الشرعية على المتنورين (بوساطة أسطورة الثورة العربية والقدرة على ضمان الاعتراف الدولي) وإمكانية الوصول إلى السلطة والموارد المالية، فإن اللاجئين كانوا في حاجة إلى المتنورين لوضع برنامج قومي واضح المعالم، يربطهم قدر الإمكان بالهياكل الاجتماعية والسياسية للسكان الأصليين، وإنشاء وتوجيه مؤسسات غير مألوفة ولكنها ضرورية لاضطلاع الدولة الأمة العصرية بوظائفها على النحو المناسب.

تولى المتنورون، في معظم الأوقات، وضع برنامج الحكومة العربية وصياغة مجالها الخطابي. ونظرًا، كما ناقشنا من قبل، إلى أن التقدم والبديهيات الحداثية

الأخرى قد ألفت عناصر لا غنى عنها في مخيلتهم الاجتماعية، فقد أعاد المجال الخطابي للمتنورين إنتاج الكثير من الاستقطابات الشائعة بين ظهراني المفكرين الأوروبيين في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين الذين عاشوا في بيئة مماثلة. وهكذا يظهر مجال المتنورين التباين القائم ما بين المدنية والهمجية[4]، والتقدم والجمود[5]، واعتدال العلمانية وتطرف العصبية الطائفية[6]، والترقية القائمة على الجدارة وسياسات المحسوبية[7] - وتلكم هي صيغ مجازية مألوفة لدى النخب القومية في أرجاء العالم الاستعماري القديم كافة. وفيما يتعلق بالمتنورين، فقد كانت التباينات هذه بمثابة علامات إرشادية من شأنها تحديد معالم سورية الجديدة. ولسوف تكون سورية المستقبل المشكلة على غرار الأمم «الشابة» في أوروبا والولايات المتحدة، مأهولة بسكان ملتزمين أيضًا بمبادئ التقدم، والقيم السياسية الليبرالية، بل وحتى بالمبادرة الفردية وحرية التجارة. وقد دعا أحد المساهمين في تحرير صحيفة **الكوكب** إلى القيم الأخيرة هذه على النحو التالي:

(4) يُنظر، على سبيل المثال: **العاصمة**، 7 أيار/ مايو 1919، ص 1-2، 5-6؛ **العاصمة** 24 (د. ت.)؛ MAE L: SL/vol. 15/340/92-95, Picot to Pichon, 21 July 1919; MD 7N4182/4/340, Picot to MAE, 21 July 1919؛ **العاصمة**، 28 آب/ أغسطس 1919، ص 5-6؛ **الكوكب**، 28 تشرين الأول/ أكتوبر 1919، ص 7-8.

(5) يُنظر تحليل جيلبرت كلايتون، كبير المسؤولين السياسيين الملحقين بالجيش البريطاني، في: FO 371/3054/227658, Clayton to Sir Mark Sykes, 28 November 1917:

العاصمة، 16 حزيران/ يونيو 1919، ص 3؛ **الكوكب**، 21 تشرين الأول/ أكتوبر 1919، ص 7-8.

(6) **العاصمة**، 26 شباط/ فبراير 1919، ص 3؛ **العاصمة**، 7 أيار/ مايو 1919، ص 5-6؛ MAE L: SL/vol. 6/20-21, Mercier to Picot, 10 December 1918; AD 2372/dossier: propagande anti-française/219/41/ bureau b5/d, 19 December 1918.

(7) مما جاء في كلمة ألقاها الأمير فيصل في أيار/ مايو 1919 «إني أطلب من الأمة أن لا تنظر إلى شخصياتها في المعاملات العامة. وليس لأحد منا أن يقول كنت كذا، ناظرًا لشأنه العائلي بل ينظر كل منا إلى النفع العام... ولا شك أن الشخص بذاته محترم عند الجميع. ولكن العمل يجب أن يكون بالعلم. فقد يكون الرجل وجيهًا في البلاد، وهو غير قادر على إدارة وظيفة. فليعلم كل إنسان أنني لا أتحزب لشخص، لأنه من عائلة أو أسرة ذات شأن وقوة؛ بل أنظر إلى اقتداره الشخصي لا لمقامه الاجتماعي في الأمة. فأستخدمه في العمل الذي يليق به لأن الحرمة الشخصية معنوية، والعمل عائد للأمة جميعها». **العاصمة**، 24 [د. ت.]. يُنظر أيضًا: **العاصمة**، 16 حزيران/ يونيو 1919، ص 3؛ **الكوكب**، 30 أيلول/ سبتمبر 1919، ص 7-8.

من الضروري لنا أن ندع الحكومة وشؤونها جانبًا حينما تكون منهمكة بأداء واجباتها المعتادة، إذ يجب ألا نفرض عليها ما ليس لديها قدرة عليه. بل يجب أن نوجه اهتمامنا إلى التقدم الذي سنحرزه بأنفسنا، من دون أي عون من الحكومة... غير القادرة على القيام بما نستطيع فعله. لقد حان الوقت للاعتماد على أنفسنا، والسير على خطى الأمم الحية الأخرى، التي بلغت أعلى مستويات التقدم والكمال بفضل الاعتماد على الفرد وتفانيه في العمل[8].

في حين أن بعض ثنائيات الصور المتباينة المدمجة داخل المجال الخطابي للمتنورين قد نقلت على نحو صريح أهداف الجماعة، فقد اقتصرت جماعات أخرى على نقل المثل الأنموذجية عبر الاستعارة والتلميح. فعلى سبيل المثال، كان الكتاب والخطباء في تلك الفترة غالبًا ما يقارنون بين دينامية الحداثة وجمود الماضي (العثماني) عبر الاحتفاء بحيوية الشباب، والاستخفاف ضمنًا بما يعتبرونه صبغة تقليدية متزمتة. وقد زعم النادي العربي أنه يمثل الشبان المثقفين كافة[9]، وكانت كلمة «الشبيبة» صفة مختارة تستخدم في وصف أولئك القديسين الرعاة للحركة القومية، عنينا «الشهداء»[10]. وقد صرح الأمير فيصل بوجود رابطة خاصة تربطه بشبان سورية: «إذا قلت للشبان ألقوا بأنفسكم في البحر، لفعلوا ذلك بدون أي تردد، لأنهم يعرفون أنني أنطق بالحكمة ولأن شبان البلد يدركون كل شيء»[11]. كما عكست أسماء الجمعيات السياسية التي كان المتنورون يتولون رعايتها انشغالهم بالشبان - ليس الفتاة فحسب (وهي في الواقع، جمعية الأمة

(8) **الكوكب**، 21 تشرين الأول/ أكتوبر 1919، ص 7-8. نشرت **العاصمة**، في أعقاب سلسلة من الإضرابات التي شلت نظام حافلات الترامواي، وتوليد الكهرباء، والتصنيع في دمشق، مقالًا افتتاحيًا ذهبت للقول فيه إن «الاعتصام حق من حقوق العمال يجب احترامه كما أن تنزيل الأجور وإخراج العمال من العمال حق من حقوق أصحاب المعامل». واختتمت الافتتاحية بإدانة إضراب نظمه أرباب الحرف والصنائع نظرًا لأن مطالبهم المتمثلة بالحصول على أسعار أعلى «تتضمن احتكارًا مضرًا». **العاصمة**، 16 حزيران/ يونيو 1919، ص 1-2.

(9) MD 7N4182/4, Laforcade to Pichon, 19 August 1919.

(10) AD 2343, «Protestation» (in French and Arabic), 5(?) February 1919;
الكوكب، 27 أيار/ مايو 1919، ص 9؛ **العاصمة**، 11 أيلول/ سبتمبر 1919، ص 4-6.

(11) **الكوكب**، 5 آب/ أغسطس 1919، ص 6-7. ومما هو مثير للاهتمام، أن المقال الذي أعاد طبع تأملات فيصل كان بعنوان «أهذه هي الديمقراطية؟».

العربية الفتاة، وجمعية الشباب العربي)، بل ونادي الشبيبة العربية؛ وجمعية الشبيبة السورية؛ واتحاد الشبيبة اللبنانية (الذي اندمج لاحقًا مع جمعية الشبيبة السورية)؛ وشبان بلاد ما بين النهرين؛ والشبيبة الوطنية؛ والسيف، والنار، وحماسة الشباب؛ وفتيان الجزيرة، وهي مجموعة بدأت باعتبارها تضم السوريين المقيمين في مصر الذين أسسوا الاتحاد السوري لكنهم اندمجوا لاحقًا مع الحزب الديموقراطي الذي يرأسه كامل القصاب[12].

نشأت الصيغة المجازية التي تدل على التناقض ما بين الشبان والشيوخ وترددت أصداؤها في المجال الخطابي للمتنورين نتيجة عوامل عديدة. وعلى نحو ما جرى مناقشته في الباب الأول، فقد كان التفرع الثنائي بين الشبان والشيوخ يتوافق مع صراع جيلي فعلي: إذ كان معظم الذين عرفوا أنفسهم بأنهم «متنورون» أعضاء في جماعة فتية بالمقارنة مع السلطة الأبوية - البطريركية التي كان يمارسها الأعيان الذين كانوا يمسكون بزمام السلطة في دمشق في أواخر العهد العثماني. ولكن ينبغي قراءة الصيغة المجازية هذه على مستوى آخر أيضًا: فالتناقض ما بين الشبان والشيوخ كان يوازي كفاح المتنورين وأشراف مكة من أجل قلب علاقات السلطة التي كانت قائمة من قبل في سورية (القائمة منها والمتخيلة)، وربط سورية بمشروع الحداثة العالمية، وفرض مفاهيم جديدة للمجتمع السياسي ولنظام اجتماعي كان منقسمًا بحد ذاته على نحو هرمي[13].

على المنوال ذاته، استمد المجال الخطابي للمتنورين دلالات مماثلة من صيغ مجازية قارنوا فيها ما بين مدى حيوية اليقظة - عنينا الحالة الراهنة للمتنورين التي سعى هؤلاء إلى غرسها بين سكان سورية - وحالة الجمود التي يتسم بها

(12) للاطلاع على هذه المنظمات التي غالبًا ما كانت قصيرة الأجل، يُنظر: AD 2368/10/2, Report to Lt. Wiet on Yusuf Estifan, 2 January 1919; AD 2372/no no.; MD 7N4182/4/340, Picot to MAE, 21 July 1919; FO 371/4183/136154/346-351, Lutfallah to Lloyd George, 16 September 1919.

(13) للاطلاع على أمثلة مماثلة للصيغة المجازية «الشباب» ودلالته، يُنظر: George L. Mosse, *Fallen Soldiers: Reshaping the Memory of the World Wars* (New York, 1990), pp. 54-69; Benedict Anderson, *Imagined Communities: Reflections on the Origin and Spread of Nationalism* (London, 1983), pp. 118-119; يقدم إيلي كدوري نقاشًا مختلفًا («الحركات القومية هي حملات للأطفال») في: Elie Kedourie, *Nationalism* (Oxford, 1993), pp. 82-83, 96.

السبات، ودعوا السوريين إلى «أن يستفيقوا من سباتهم وأن ينفضوا عنهم غبار الجهل الذي تراكم عبر القرون» و«إذا ما رضعت الجماهير لبن المعرفة الحقة بدلًا من أن تأخذها عن حفنة من المعلمين الجهلة الذين كادوا أن يقضوا حياتهم بين السخافات والأحاديث التافهة». وتلكم هي شكوى أحد كتاب الافتتاحيات <الذي أردف قائلاً> «لكانوا قد استيقظوا من نومهم وواكبوا الأمم الأخرى، وساروا على درب التقدم»[14]. وكما هو الحال مع الشبيبة والفتيان اتخذ المتنورون اليقظة والنهضة الجديدة عناوين تنظيمية، مثل جمعية النهضة الفكرية (التي يرأسها سامي البكري، وعبد الرحمن السفرجلاني، ونديم الصواف، ويحيى الشمعة) وجمعية النهضة الفلسطينية[15].

كان السبب الرئيس وراء وجود المتنورين، عندئذ، يتمثل في توفير «لبن المعرفة الحقة» التي أوصى بها المحرر المشار إليه آنفًا. وقد اشتكى محب الدين الخطيب على صفحات جريدة **العاصمة** من أن «السواد الأعظم من أمتنا لا يقتصر على المتعلمين، والأعيان، وتجار المدن الذين يقرأون الصحف اليومية، ويتابعون الشؤون السياسية الدولية والمحلية، ومن يهتمون بالاكتشافات العلمية والاختراعات التكنولوجية» <ثم أردف بالقول>:

> سواد الأمة هو المتكون من جماهير العمال، وسكان القرى والجبال، والعاكفين على شق الأرض واستنباتها. فهؤلاء هم الذين يجب على المتعلمين أن يصرفوا همهم إلى تنوير قلوبهم وعقولهم وترقية مواهبهم ومداركهم[16].

عمد المتنورون من أجل بلوغ أنموذجهم الأمثل للحداثة إلى شن هجوم مباشر على الممارسات الشعبية وقدموا للسوريين شعارات وعظية (من بينها

(14) **الكنانة**، 2 حزيران/ يونيو 1920، ص 1-2. يُنظر أيضًا: **الكوكب**، 27 أيار/ مايو 1919، ص 9؛ **العاصمة**، 20 تشرين الأول/ أكتوبر 1919، ص 1-2؛ FO 371/5187/500, Extracts from al-Urdunn in «Arabic Press Abstracts for the Week Ending February 9 1920»;

خير الدين الزركلي، **ديوان الزركلي: الأعمال الشعرية الكاملة** (عمان، [د. ت.])، ص 24-25. وبينما يناقش بندكت أندرسن أيضًا مدى ما تحظى به هذه الصيغة المجازية من شعبية لدى الحركات القومية، إلا أن حجته تختلف عن تلك المستخدمة هنا. يُنظر: Anderson, *Imagined Communities*, pp. 195-196.

(15) FO 371/4183/136154/346-351, Lutfallah to Lloyd George, 16 September 1919.

(16) **العاصمة**، 16 تشرين الأول/ أكتوبر 1919، ص 1-2.

«الدين لله والوطن للجميع») وأسدوا المشورة إليهم على نحو متغطرس. وكانت جريدة **العاصمة**، على سبيل المثال، قد أعادت نشر خطاب كان الراحل حديثًا آندرو كارنيغي قد ألقاه في عام 1885 «أن أنقل لفتيان هذه الأمة الناهضة جملة من اختبارات هذا العصامي الذي جاهر بها على ملأ من شبان البلاد الأميركية وأسداهم من مغازيها نصائح لا أخطئ إذا أسميتها مفتاحًا لكنوز الثراء والنجاح». ومن الصعب تخيل ما كان يمكن أن يخطر ببال السوريين في أمر النصيحة التي أسداها كارنيغي إلى الشبان بشأن العمل بجد، وادخار ما يجنونه من المال، وتجنب شرور الكحول، والمضاربة في الأسهم، وسندات الدين[17]. وفي افتتاحية على الصفحة الأولى بعنوان «خطر يتهدد حياتنا البيتية»، ألقى عدد آخر للجريدة ذاتها اللوم في انتشار المقاهي في سورية على مجموعة متنوعة من الآفات الاجتماعية، بدءًا من البطالة («لو كانت البلاد محرومة <من القهاوي> لكان العاطلون عن العمل أشد اهتمامًا في البحث عن عمل يقضون فيه تلك الأوقات») وصولًا إلى التفكك الأسري («إن للسعادة العائلية لذة وجمالًا لا يشعر بهما أولئك الذين يفرون من منازلهم إلى القهاوي فيكونون في ذلك قدوة لربة البيت في الفرار من بيتها إلى بيت جارتها»). وقد أضاف المحرر محذرًا «إن أعظم مدينة على وجه الأرض - وأعني مدينة لوندرة <لندن> - هي أكثر من القاهرة في القهاوي لأدركوا أن العمران شيء وهذه القهاوي شيء آخر»[18]. حتى إن هذه الجريدة بعد ذلك بعشرة أشهر، وعشية الاجتياح الفرنسي لسورية الداخلية، ألقت باللوم في انهيار الاقتصاد السوري على تبذير الطبقات الدنيا:

> إن تهافت الناس على الأشربة والملاهي والملابس وسلوك التبذير ووسائل التنعم مما يجعل الفلاح يرفع ثمن حاصلات أرضه ليتمكن من حفظ مركزه فيجلب البذخ والتنعم لنا شر مجتلب من غلاء ثمن حاجة وخلو عمل وقسوة في المعاملة[19].

---

(17) **العاصمة**، 25 آب/ أغسطس 1919، ص 1-2. يُنظر أيضًا «على قبر كارنيجي» في: **العاصمة**، 28 آب/ أغسطس 1919، ص 6-7. كان كارنيجي معروفًا بكونه أحد مؤيدي فلسفة هربرت سبنسر، الذي كان لمؤلفاته تأثير في أوساط المتنورين.

(18) **العاصمة**، 11 أيلول/ سبتمبر 1919، ص 1-2.

(19) **العاصمة**، 17 تموز/ يوليو 1920، ص 5-6. يُنظر أيضًا: **العاصمة**، 27 آذار/ مارس 1919، ص 4؛ **العاصمة**، 7 أيار/ مايو 1919، ص 1-2.

من أجل مكافحة الممارسات الضارة التي تتبعها الطبقات الشعبية، ناصر المتنورون وسائل الترفيه والتسلية التي زعموا أنها تفيد في رفع السوية الأخلاقية، والحضارية، والوطنية. ولم يكن من قبيل المصادفة أن وسائل الترفيه هذه يمكن للهيئات الرسمية مراقبتها والإشراف عليها بكل يسر. وعقب تأجيج الشعور الشعبي ضد اتفاق فيصل - كليمنصو، على سبيل المثال، نشرت جريدة **العاصمة** سلسلة من المقالات تدعو الحكومة العربية إلى إنشاء مضامير السباق في المدن الواقعة في جميع أنحاء المنطقة الشرقية من سورية. وجاء في المقالة أنه قبل النفير العام حصلت الموفقية لإجراء سباق خيل...

> وكنت ترى البعض من الأهالي... يمضون بكثير من أوقاتهم في هذا السبيل، فلما أعلنت الحرب العامة قضت ويا للأسف على حياة هذا الاجتهاد، فيحسن والحالة هذه بمن لهم ولع بالخيل أن يتخذوا محلًا للسباق يمضون أوقاتهم به، وذلك خير من تمضيتها في زوايا القهوات فيستفيدون من ذلك فائدة مادية وصحية ويكتسبون نشاطًا وقوة لا يعهدونهما من قبل[20].

وقد طالب المتنورون أن يحصلوا، مقابل المشورة التي أسدوها إلى الأمة، على امتيازات خاصة، مثل منحهم الترقيات في المناصب الإدارية، وأن يذعن لهم أولئك الذين كانوا في ما مضى يتقدمونهم في المكانة الاجتماعية، وأن يتوافر لهم إمكان الوصول أو الدخول إلى المراتب العليا في المجتمع. وقد أدت هذه المطالب، بطبيعة الحال، إلى جعل المتنورين على خلاف مع معظم طبقة الأعيان التقليديين - الذين وصفهم المتنورون بأنهم الأوصياء على الامتيازات ورعاة المحسوبية والاتكالية - بينما صور المتنورون أنفسهم بأنهم يمثلون النقيض لهؤلاء[21]. وتورد مقالة منشورة في صحيفة **الكوكب** بعنوان «الوطن يعلو على كل شيء»، بإسهاب أسباب العداء المستحكم الذي فصل الجماعتين عن بعضهما بعضًا، وشبه الكاتب ذلك «بالمرض الخطير الذي أصبح متجذرًا بعمق بين ظهرانينا نحن الشرقيين».

---

(20) **العاصمة**، 5 شباط/ فبراير 1920، ص 2.

(21) **العاصمة**، 26 كانون الثاني/ يناير 1920، ص 1-2.

لقد انخرط الأعيان والمتنورون [الذين أطلق عليهم في هذه المقالة أسماء مختلفة مثل علماء ومستنيرين وعصاميين][22] في خصام عنيف، وأخذ كل طرف في العمل على إزاحة خصمه ليحل محله بالقوة ويستحوذ على الزعامة والنفوذ اللذين يشتهيهما لنفسه. وقد استخدم [كل طرف] الجميع من أجل تحقيق الأهداف [الخاصة به]... وليس لنا نحن أن نطلب منهما وضع حد لخصوماتهما، والالتزام بمبدأ الوحدة أو التخلي عن فرض الهيمنة والتمسك بوثاق الوئام والوفاق، ونظرًا لأن نشوب نزاع بين طبقتين غير متآلفتين أمر من المستحيل استئصاله أو التخلي عنه. فإننا، مع ذلك نأمل بأن تتضافر التطمينات [المتبادلة] والحدود الطبيعية في تطويق هذا النزاع، وألا يمتد إلى ما يمس المصالح العامة للوطن[23].

استمر كاتب المقالة في تحليله لهذا الخصام الذي أدى إلى الانقسام ما بين النخب الراسخة وتلك المستجدة عبر وصفه لاجتماع جرت الدعوة إليه للتوصل إلى قرار حاسم بشأن «مسألة خطيرة تتصل بحياة الأمة ومستقبل البلاد». فقد انتخب المشاركون في الاجتماع أحد العصاميين لقيادتهم بدلًا من أحد الأعيان الحاضرين، مما أثار غضب الأخير «الذي لم يكن مسرورًا من أن يكون تابعًا لمحدث النعمة هذا». وعلى الرغم من أن الكاتب أخذ بتقريع العصامي لأنه لم يتعامل مع منافسه بقدر أكبر من الدبلوماسية، بيد أنه رد على ذلك الوجيه بالتعنيف الشديد مذكرًا إياه بـ:

إننا لا نتجاهل حقيقة مؤداها أن مظاهر الرئاسة أو الزعامة مهمة، بقدر ما تجلب

(22) للاطلاع على استخدام المصطلح «عصاميون» إبان فترة لاحقة، يُنظر: Joseph Vashitz, «Dhawat and 'Isamiyyun: Two Groups of Arab Community Leaders in Haifa During the British Mandate,» *Asian and African Studies*, vol. 17 (1983).

وعلى الرغم من أن هذا المصطلح، وفقًا لما أورده فاشيتز، كان يشير إلى تحقيق إنجاز اقتصادي في فلسطين في ظل عهد الانتداب، إلا أن كاتب المقالة «الوطن يعلو على كل شيء» كان يستخدمه بالتبادل مع «المستنيرون». وعلاوة على ذلك، لئن حاجَّ فاشيتز في نصوصه بالقول إن العلاقة بين الذوات (الأعيان) والعصاميين لم تكن تتسم بالعدائية، إلا أن المقالة المنشورة في صحيفة **الكوكب** تبين بأن التفرع الثنائي بين الأعيان والعصاميين في سورية ما بعد الحرب اتخذ موقع الصدارة في الثورة على الوضع الاجتماعي المبينة آنفًا.

(23) **الكوكب**، 30 أيلول/ سبتمبر 1919، ص 7-8.

> البهجة والسعادة للروح. ولكن لا يمكن السماح لها بأن تحجب عقلنا وتحول بيننا وبين أحلامنا؛ [بل ولا يمكن أن نسمح لها بأن] تقودنا إلى مغامرات لن نجني من ورائها سوى الخسارة وخيبات الأمل.

واختتمت المقالة بوضع الصراع بين الأعيان والمتنورين ضمن الإطار الأوسع نطاقًا لتطور الأنظمة الاجتماعية، محذرة طبقة الأعيان التقليديين من أنه يتعين عليها الانحناء أمام ما يتعذر تجنبه:

> آلت السلطة والنفوذ في ما مضى إلى أولئك الذين يتمتعون بالقوة البدنية؛ ومن ثم جاء زمن بات فيه الذين يفتقرون للقوة يتمتعون بالسلطة، وقد جلبت لنا العهود التالية زعماء كانوا يختلفون عن بعضهم بعضًا من حيث مواهبهم وتخصصاتهم إلى أن حل هذا العصر. [ففي الوقت الحاضر] لا يحكم سوى هؤلاء المفكرين الذين نالوا نصيبًا من النور الذي يبدد العتمة المهيمنة على صاحبها وترشده في طريقه. وإذا كان هناك مجموعة من الناس يشعرون بالأسف لرؤية أشخاص من هذا النوع يرأسون جماعتنا، فيجدر بهم ألا يأخذوا الأمر وكأنه مسألة شخصية، لأنهم يعلمون أن هذا يعكس بدقة روح العصر وأنه ضروري. وليس في مقاومة هذا فائدة أو نفع يرتجى. ويجب عليهم أن يدركوا أن المعرفة هي الطريق إلى التقدم والوسيلة إلى الارتقاء وبلوغ المراتب العليا ونيل العظمة التي يسعون إليها. وإذا كانت نفوسهم تفيض بأي حب سامٍ، فحري بذلك عندئذ أن يوجههم ويحدد شؤونهم.

إن الامتيازات التي طالب بها المتنورون وحلفاؤهم من أشراف مكة جعلتهم في حالة نزاع ليس مع الأعيان التقليديين فحسب، بل ومع أغلبية سكان سورية أيضًا. ففي شهر حزيران/ يونيو من عام 1919، على سبيل المثال، نشر فائز الخوري في جريدة **العاصمة** بحثًا يقع في صفحتين تناول فيه الاشتراكية، يعد أكثر قليلًا من مجرد دفاع مستتر عن حكم النخبة المتعلمة في المجتمع[24]. وفي هذه المقالة، انبرى الخوري - وهو أحد خريجي كلية الحقوق والكلية الحربية العليا باسطنبول، وعضو المنتدى الأدبي في اسطنبول قبل الحرب، والنادي العربي

(24) **العاصمة**، 14 حزيران/ يونيو 1919، ص 1-2.

بدمشق في العهد الفيصلي، والمناصر لفلسفة هربرت سبنسر[25]- للاعتراض على المساواة الاجتماعية التي كان الاشتراكيون الأوروبيون ينادون بها عبر طرحه سؤالًا مفاده «هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون؟» وكانت الإجابة عن هذا السؤال بالنفي. وأكد بأن الناس ينالون حقوقهم بأدائهم لواجباتهم التي بها يرتقي الوطن؛ ليخلص إلى نتيجة مفادها بأنه ليس «من المساواة أن يكون النافع لبلاده العالم العامل في وطنه مساويًا للجاهل الضار في الحقوق العامة». وقد ساق الخوري مثالين من أجل دعم زعمه بأنه يجب أن يلقى المتنورون معاملة مختلفة عن بقية أفراد المجتمع. أولًا، أشار (باستحسان ضمني) إلى النظم الانتخابية التي تمنح المتعلمين صوتًا أعظم مما تتيحه للجاهلين. وتساءل، بعدئذ، هل من العدالة أن يلقى المجرم الذي اعتدى على تاجر العقوبة ذاتها التي يلقاها المجرم الذي اعتدى على وال في ولايته أو قاض في محكمته؟ فعلى الرغم من كل شيء، يخدم الأخير رعاياه بينما يخدم الأول نفسه وحسب. وأما بالنسبة إلى الجمهور الذي كان يقصده الخوري - ألا وهم المتنورون الآخرون وموظفو الحكومة المشتركون في جريدة **العاصمة** - فقد كان الجواب واضحًا.

قسم أشراف مكة وأتباعهم، شأنهم في ذلك شأن المتنورين، المجتمع السوري إلى أولئك الذين هم، على غرارهم، يصلحون للحكم وأولئك الذين لا يصلحون إلا إلى أن يكونوا محكومين. ومع ذلك، ونظرًا إلى أنهم يفتقرون إلى المؤهلات - أو ربما الحجة - التي كان يتوفر عليها المتنورون، فإنهم لم يتخذوا صبغة النخبة المثقفة. وبدلًا من ذلك، فبوصفهم غرباء وغزاة، أكد هؤلاء القادمون الجدد إلى السياسة الدمشقية أن وجودهم كان ضروريًا من أجل تكامل وتنظيم مجتمع زعموا أنه منقسم على نفسه منذ قرون إلى جماعات مستقلة، ومحددة منظمة تنظيمًا عموديًا. وعلى الرغم من أن علي رضا الركابي كان ينحدر من أصل دمشقي، إلا أنه أعرب عن وجهة نظرهم هذه حينما كتب على صفحات جريدة **العاصمة**.

---

(25) للاطلاع على المعلومات الأساسية بشأن خوري، يُنظر: محمود الجركس، **الدليل المصور للبلاد العربية** (دمشق، 1930)، ج 1، ص 72-73.

إن الحكومة العربية... ساهرة على حفظ الأمن، وتنظيم شؤون الإدارة على الوجه اللائق، باثّة روح الاتحاد والتعاضد بين جميع أفراد الشعب على اختلاف المذاهب والأديان والأجناس، فلا فرق عندها في الحق بين القوي والضعيف، والصغير والكبير...

إن موقف الحكومة تجاه الشعب موقف الأم المشفقة على ولدها، كما أن موقف الشعب تجاه الحكومة موقف الولد البار[26].

كانت الروابط القائمة بين الحكومة العربية وسكان سورية، برأي الركابي وزملائه، «غير قابلة للانحلال لأنها معقودة بيد فيصل»[27]. ولكن فيصل كان أكثر من مجرد اللاصق الذي يوحد ما بين «الطوائف والأديان والقوميات» المتباينة في سورية. فقد كرس وجود فيصل في دمشق، حضور الحجازيين والعراقيين، فضلًا عن إفساح المجال أمام المتنورين لتحقيق مطامحهم السياسية والاجتماعية. وهكذا أصبح فيصل بمثابة أيقونة قومية، و«أب صارم إنما رحيم»، وطبيب يعالج أمراض الأمة، و«روح الحركة القومية» و«قاهر الظلم، والمدافع عن الحق، وحامي العرب، وسليل النبالة والمجد»[28]. وعده أحد النصوص النظير السوري للدكتور إدوارد جينر نظرًا إلى قدرته على «علاج» الأمة. وجعل منه نص آخر خالد

(26) **العاصمة**، 7 أيار/ مايو 1919، ص 5-6.

(27) رددت أول حكومة مدنية في سورية صدى هذا الشعور في البيان الذي أدلت به أمام المؤتمر السوري العام في 27 أيار/ مايو <آذار/ مارس> 1920: «تحررت الأمة العربية بفضل ما قام به جلالة الملك حسين المعظم وأنجاله البواسل من الأعمال العظيمة التي قلدوا بها أعناق أمتهم أطواقًا من الشكر والفخر. فهو إذًا المؤسس الأول لتاريخ العرب الجديد الذي افتتحت به هذه الأمة عصرها الذهبي الثاني فنحن نرفع لسدته الملكية فروض التبجيل والشكران ونسجل لجلالته في تاريخنا فصول الإجلال والامتنان. كما أن نجله النابغ صاحب الجلالة فيصل الأول ملك سوريا المعظم الذي أقام الدعوى السورية وأخذ على نفسه الدفاع عنها إلى الدرجة الأخيرة واصل الجهاد في تحرير هذا القطر هو المؤسس الأول للمملكة السورية وصاحب الفضل الأكبر في استخلاصها وإنشائها على قواعد الحرية والتجدد». أبو خلدون ساطع الحصري، **يوم ميسلون: صفحة من تاريخ العرب الحديث** (بيروت، 1947)، ص 124-126.

(28) USNA 165/2266-AA-45/58, Yale to War Department, Proclamation of Amir Faysal, 3 October 1918;

العاصمة، 7 أيار/ مايو 1919، ص 5-6؛ FO 3371/5032/81-83,

من: **الأهرام**، 1 شباط/ فبراير 1920؛ AD 2346/c1a, Speech Delivered by ‘Abd al- Rahman al-Kayyali in «Remembrance of Syrian Independence Day».

بن الوليد العصر الحديث عند العرب[29]. وقد أسهم فيصل ذاته في ابتداع عبادة الفرد هذه بوضع نفسه في قلب المراسم الاحتفالية، حين راح يتقبل المبايعة وكأنه خليفة عباسي[30]، ويستعرض المواكب في الاحتفالات المقامة في المناسبات القومية، ويجوب أنحاء سورية كافة في رحلات تحظى بتغطية إعلامية جيدة وتنصب أقواس النصر للترحيب به خصيصًا لهذه المناسبة. وصفوة القول، كان فيصل، في كلماته، الشخص الذي «يأتمنه [السوريون] على مصالحهم، وعهدوا إليه بالزعامة السياسية»[31]. وكان فيصل وأعضاء حكوماته وحدهم من بين كل الأطراف السياسية الفاعلة في سورية في الحقبة ما بعد العثمانية من يشيرون إلى سكان سورية بوصفهم الرعايا، وكانت تلك كلمة قد عفا عليها الزمن وتنطوي على التعالي بحلول العقد الثاني من القرن العشرين[32].

هكذا، كان المجتمع السوري بالنسبة إلى المتنورين وزملائهم في الحكومة العربية مجتمعًا ذا تفرع ثنائي، يتمايز فيه المثقفون والمتعلمون عن السوقة الرعاع على نحو صارم. وكما كتب المؤرخ كيث رايتسون، فإن مثل هذه النظرة للعالم لا تكتفي بتصور مجتمع مرتب ترتيبًا هرميًا، وهو مجتمع «حافل بالصراعات» يؤلب «الأعلى» على «الأدنى»، بل وينتج أيضًا «لغة تفكيكية» تسم غالبية السكان بالعار وتقصيهم[33]. وبعبارة أخرى، فإن ما بدأ بوصفه تمايزًا قائمًا على أساس المهارات والبراعة العسكرية قد تطور ليغدو تمايزًا قائمًا على الصفات الأخلاقية[34]. ونتيجة

---

(29) **العاصمة**، 2 أيار/ مايو 1919، ص 1؛ **الفلاح**، 1 أيار/ مايو 1919، ص 16.

(30) **العاصمة** ص 24، د. ت.؛ FO 371/4181/89850/24, Clayton to Curzon, 17 June 1919; **العاصمة**، 11 آذار/ مارس 1920، ص 3.

(31) **العاصمة**، 11 أيلول/ سبتمبر 1919، ص 4-6. يُنظر أيضًا: **العاصمة**، 16 حزيران/ يونيو 1919، ص 3؛ MAE L:SL/vol. 14/873, Picot to MAE, 24 June 1919; FO 371/5032/81-83, مقتطفات من: **الأهرام**، 1 شباط/ فبراير 1920؛ USNA 59/890d.00/8/468, Jackson to Secretary of State, 4 March 1920.

(32) **العاصمة**، 3 أيار/ مايو 1920، ص 2-3. للاطلاع على تطور كلمة «رعايا» واستخدامها، يُنظر: Ami Ayalon, *Language and Change in the Arab Middle East: The Evolution of Modern Political Discourse* (New York, 1987), pp. 48-50.

(33) Keith Wrightson, «Estates, Degrees, and Sorts: Changing Perceptions of Society in Tudor and Stuart England,» in: Penelope J. Corfie (ed.), *Language, History, and Class* (Oxford, 1991), pp. 44-47.

(34) يُقارن مع تحليل جيفري كروسموك لـ «المصطلحات الأخلاقية» في بريطانيا إبان العصر =

لذلك، أخفق المتنورون في وضع رؤية جامعة لسورية المستقبل يكون لها صدى لدى أغلبية سكان سورية. وقد أدى عجزهم عن صوغ صورة ذات دلالة ثقافية مرجعية للمجتمع السوري إلى ترك المجال مفتوحًا أمام أولئك الذين يستطيعون ذلك، مثل قادة اللجان الشعبية وحلفائهم.

المجال الخطابي للجان الشعبية

ينحدر المشاركون في اللجان الشعبية، على النحو المبين في الفصل الثاني، من مجموعة واسعة من البيئات الاجتماعية: تجار حبوب أثرياء، وبرجوازيين صغار مرتبطين بالأحياء، وأعيان من ملاك الأراضي، وعلماء - تجار، وشيوخ قبائل، وقبضايات. وقد أدى الشعور العام بالاستياء، جزئيًا، إلى توحيد هذه المجموعة المتنوعة. وبالنسبة إلى بعض أولئك الذين انضموا إلى اللجان الشعبية، فإن التدخل السياسي الأوروبي في سورية الذي توج بالثورة العربية وفرض الانتدابات الذي أصبح وشيكًا لم يقتصر على تجريدهم من معظم المكانة و/ أو السلطة التي كانوا يتمتعون بها سابقًا فحسب، وإنما أسفر أيضًا عن نكبتين توأمين تمثلتا في التقسيم الإقليمي والحكم الأجنبي (الفرنسي، والحجازي). وكان يشاطر عداء هؤلاء للنظام السياسي الجديد كثيرون سواهم من بين الصف الثاني من قادة اللجان وأعضائها العاديين الذين رزحوا تحت وطأة السلطة المدمرة لرأسمالية أواخر القرن التاسع عشر، واتساع نطاق قدرات الدولة أو كلاهما.

لم تكن عبارتا «التقدم» و«المدنية» وسواهما من الكلمات المجردة ذات المنشأ الأوروبي التي يترنم بها المتنورون وحلفاؤهم لتحظى إلا بقدر ضئيل من الجاذبية لدى هاتين المجموعتين فحسب، وإنما كانت أيضًا بمثابة رسالة تذكير بالمحن التي واجهوها. علاوة على ذلك، كانت المحاولة الساعية إلى فرض بنى ومقولات فكرية كان الكثير من السوريين يعتبرونها غريبة، إضافةً إلى الاضطرابات الاجتماعية والاقتصادية التي واجهها السوريون إبان القرن التاسع

= الفيكتوري في: Geoffrey Crossick, «From Gentleman to the Residuum: Languages of Social Description in Victorian Britain,» in: Corfie (ed.), *Language*, pp. 163-164.

عشر وبداية القرن العشرين، قد حفزت على ظهور ردة فعل أيديولوجية اتخذت صبغة تقليدية صارمة وتعي ذاتها. واستجابة لحشد من القيم الجوفاء ظاهريًا والمفاهيم الاجتماعية المستوردة التي تبناها المتنورون، لم يقتصر عمل الخطباء والكتاب الذين يحظون بشعبية واسعة على الاستناد بصورة انتقائية إلى صور غير قائمة على الأيديولوجيات حتى الآن لماض سرمدي ويتسم بالمساواة أضفوا عليها طابعًا أيديولوجيًا، وإنما راحوا يقدمون أيضًا المبادئ والحتمية الأخلاقية لإعادة بناء المجتمع والسلوك الاجتماعي اليومي عبر إحاطة العقائد المعاصرة بهالة من الثبات.

يقع في الصميم من المجال الخطابي، الذي كانت تعج به الخطب والنشرات والمقالات والبيانات الصادرة عن مروجي الدعاية المرتبطين باللجان الشعبية في سورية في الحقبة ما بعد العثمانية، مجموعة من الصور المترابطة في ما بينها: العضوانية والاستمرارية التاريخية للأمة السورية والترابط القائم بين أعضاء الجماعة القومية؛ واستقلال المجتمع المدني وأسبقيته على مؤسسات الدولة؛ ومزية القيم التقليدية وهشاشتها في مواجهة المؤامرات الغريبة والخونة، «وأولئك الذين سيبيعون الأمة بوصفها سلعة».

حسبما أوجز في الفصل السابق، كانت الجماعة القومية التي يتوخاها منظمو اللجان الشعبية والناشطون فيها أكبر من الحدود الضيقة للحي أو البلدة، ولكنها أصغر من دولة الوحدة العربية التي كان أشراف مكة ينادون بها أصلًا. وكانت هذه الجماعة جماعة سورية قومية مكونة من سكان كانوا يقيمون ضمن «الحدود الطبيعية» لسورية ويتشاطرون أوجه التقارب الطبيعي المستمدة من الثقافة والاقتصاد المشتركين. وبما أن هذه الجماعة كانت موجودة طوال قرون من الزمان، حتى حينما ذابت ضمن كيانات سياسية أكبر مثل الإمبراطورية العثمانية، فلم يكن حقها في الاستقلال المطلق قائمًا على أساس الثورة العربية، وإنما الأصل المشترك والأرض التي «ارتوت بدم آبائنا وأجدادنا»[35]:

(35) مقتبس من الكلمة التي ألقاها كامل القصاب، ويرد نصها في صحيفة **الكنانة**، 15 تموز/ يوليو 1920، ص 2-3.

لقد وجهتم منذ عدة أجيال نحو التطلع إلى الحق، وظهر الحق أمامكم وفر مثل هارب من العدالة وتبعتموه. وتسري في عروقكم دماء أسلافكم وفي قلوبكم حريتهم وخصالهم النبيلة. وإنكم تتوقون للعيش كما عاش أسلافكم، وكما يعيش الأسد في عرينه والنسر في السماء(36).

وبناء على ذلك، لم تكن الرابطة التي وحدت السوريين ذات طابع سياسي، بل إن ما وحدهم هو القاسم المشترك المتمثل في النظرة العالمية والمصالح المستمدة من العرق والتجربة التاريخية للأمة السورية.

حكم هذا المفهوم العضوي لسورية الذي تبناه الزعماء الشعبيون وأنصارهم موقفهم إزاء طبيعة الدولة وعلاقتها السليمة بالمجتمع. ولئن كانت الحكومة العربية في نظر الكثيرين تفتقر إلى الشرعية لأسباب عديدة - الدور البارز الذي اضطلع به «الغرباء»، ولا سيما الحجازيون «الهمجيون»؛ وسياستها الاقتصادية التي لا تتسم بالكفاية؛ وسياستها الخارجية التي تبدو متزلفة وتوفيقية على نحو مفرط - إلا أن «اللغة التفكيكية» التي يستخدمها المتنورون للتمييز بين النخبة الحاكمة والمهام الملقاة على عاتقها، وكانت تلك لغة تعكس هيمنة دولة متعجرفة على مجتمع منصاع، أكدت وجود انقسام بدا غير طبيعي واستفزازيًا على وجه الخصوص. وعلى النقيض من ذلك، طرحت اللجان الشعبية وحلفاؤها الوجود المستقل (للأمة) وأن لها الأسبقية على الدولة(37). ولقد برزت هذه الفكرة الأساسية مرارًا في الدعاية التي بثتها اللجان الشعبية، ابتداء من وصف كامل

(36) تضمن ذلك خطاب ألقاه فيليكس فارس ويرد نصه في: AD 2346/c1a, «Remembrance of Syrian Independence Day»;

يُنظر أيضًا المنشورات والنسخ المكتوبة التي يتضمنها ما يلي: MAE L: SL/vol. 43/62-171, Original copies of «nombreux tractes, affiches, et manifestes... répandus à profusion à travers la ville (Damas) avant et pendant le séjour des délégués (Américains),» n.d.; AD 2345, 5 March 1920; AD 2372/dossier: propagande anti-française, 8-9 March 1920.

(37) قد يكون مصطلح الأمة هو المصطلح الأكثر استخدامًا إبان العهد الفيصلي للدلالة على «الوطن». وبينما كان يشير في الأصل إلى جماعة المؤمنين المسلمين، فإنه كان واحدًا من مجموعة من المصطلحات المستمدة من الدين، وتستخدم للدلالة على مرجعيات غير دينية حينما تكون التعابير الأخرى غير متوافرة أو قاصرة أو عندما يكون هذا الاستخدام شائعًا بالفعل، كما كانت عليه الحال بحلول العقود الأولى من القرن العشرين. وقد وظفته كلتا الجماعتين الخطابيتين.

القصاب لتظاهرات كانون الثاني/ يناير من عام 1920 التي استشهدنا بها في بداية الفصل الثالث ووصولًا إلى المنشور المكون من ورقة ذات قطع كبير مطبوعة على وجه واحد الذي يحمل عنوان «الأمة تملي رغباتها على المؤتمر السوري» وظهر ممهورًا بتوقيعه أيضًا. وكتب أحد كتاب الافتتاحيات على صفحات صحيفة **الدفاع** «إنني لست معنيًا بأمر الحكومة، بقدر ما أنا معني بها بوصفها ظلًا للأمة وتحكمكم كما أنتم. وإذا كنت أنشد الإصلاح، فيجب أن أبدأ بالأمة أولًا»[38].

كانت الأمة، بالنسبة إلى الجماعة الخطابية التي تضم اللجان الشعبية وحلفاءها، ذاتية التنظيم وعادة ما تتسم بالانسجام، وقادرة على تنظيم نفسها دونما تدخل من الحكومة. وهكذا لم تكن سورية، لدى أولئك المنضمين إلى اللجان الشعبية، مجرد مجموعة من الجماعات المستقلة بذاتها التي تتطلب تدخل الحكومة أو المتنورين من أجل تفعيل اندماجها، ولم تكن كذلك مقسمة طبقيًا بشكل أفقي. وكان السوريون، بأسلافهم التاريخيين وإخوانهم المعاصرين، يشكلون (وفقًا للتعبير المجازي الشائع) أسرة. وكتب «مواطن عربي مخلص» في منشور وزع عشية وصول لجنة كينغ - كرين إلى دمشق قائلًا «إياكم أن تقبلوا بتمزيق بلدكم، وأسرتكم، وأرض أجدادكم. فسورية واحدة لا تتجزأ»[39]. وقد أعادت المادة الثالثة من ميثاق تأسيس فروع اللجنة الوطنية العليا التأكيد لهذا الموضوع، مانحة في الواقع اللجان الشعبية دور الوصي على هذه الأسرة:

> سوف تتولى اللجنة الموجودة في كل محلة، أو حي، أو جماعة توجيه سكان الحي أو الجماعة ليفعلوا ما عليهم فعله تجاه وطنهم [من أجل تحقيق] الأهداف المعلنة في المادة السابقة. وهي تولي الاهتمام بصورة خاصة إلى تدعيم الوفاق، والود، والتفاهم المتبادل بين أبناء المحلة ليكونوا أشبه بأسرة واحدة، وتمتين الروابط الوطنية والقومية بين كافة أبناء الوطن[40].

---

(38) **الدفاع**، 13 كانون الثاني/ يناير 1920، ص 1.

(39) MD 7N4182/4/340, Picot to MAE, 21 July 1919; MAE L: SL/vol. 43/86, 88.

(40) المكتبة السلفية، القاهرة: ملف اللجنة الوطنية، «نظام اللجان الوطنية الفرعية في بلاد سورية»، 17 تشرين الثاني/ نوفمبر 1919.

وكما أن الأسرة تتكون من أعضاء متمايزين ولكنهم يتسمون بالترابط ومتحدون بفضل روابط القربى، كذلك فإن سورية، وفقًا لأولئك الخطباء والكتاب الذين ينتمون إلى اللجان الشعبية، تتألف من طبقات متمايزة، لكنها متكاتفة في ما بينها - والطبقات مصطلح وإن كان يؤدي معنى «الطبقات» باللغة الإنكليزية (بمعنى Classes)، إلا أنه أقرب ما يكون لمفهوم «الطوائف الاجتماعية» (بمعنى Estates) حينما يكون واقعًا في المجال الخطابي للجان. وكان استخدام كلمتي طبقة/ طبقات، شأنه شأن استخدام الكثير من الكلمات الموجودة في النصوص القومية، لا يقتصر على جماعة خطابية بعينها. فقد استخدم الأمير فيصل، على سبيل المثال، هذا المصطلح أحيانًا مرادفًا لكلمة «معتقدات» أو «مذاهب»، كما أن الصحافي المؤيد للحكومة خليل مردم بك قسم أهالي حماه إلى طبقتين - ألا وهما «السادة» أو «الطبقات العليا» (السادة، الخاصة) و«العامة» - بالاستناد إلى ما يسميه «نشأتهم الاجتماعية»[41]. وكما هو متوقع، على أي حال، فإن دلالة المصطلح قد تغيرت بشكل ملحوظ عندما أُدمج في المجال الخطابي الذي تماهت معه اللجان الشعبية. فعلى سبيل المثال، وردت كلمة «طبقات» في مقالة نشرتها صحيفة **الكوكب** الموالية للحكومة بمعنى يقارب ذاك الذي قصده مردم بك - عنينا، تقسيم المجتمع السوري إلى شعبتين. وكتب أحد كتاب الافتتاحيات في هذه الصحيفة «هناك في سورية اليوم حزب كبير منظم يكافح بإلحاح من أجل الاستقلال والسعادة من دون توقف في وجه المصاعب»، <وأردف قائلاً>:

> ولن أبالغ إذا قلت إن طبقة العامة من الناس، والعمال، والفلاحين كلهم يساعدون هذا الحزب دون استثناء من أجل تحقيق مطالبه. ولا يعرف هذا الحزب سوى كلمة واحدة، «الاستقلال، الاستقلال» - لا وجود لأجنبي في البلاد - من دون الحاجة إلى التعليق على هذه الكلمة ودون الحاجة إلى عرضها في إطار فلسفي. إن الطبقة المتنورة تعمل ليل نهار لشرح هذه الكلمة لغويًا وسياسيًا.... وإذا ما تخلى أولئك الذين يعتنقون آراء مغايرة عن بعض

(41) **العاصمة**، 6 أيار/ مايو 1920، ص 4؛ خليل مردم بك، **دمشق والقدس في العشرينات**، شرحه وقدم له عدنان مردم بك (بيروت، 1978)، ص 148.

تفسيراتهم وسعوا إلى توطيد روابط التفاهم المتبادل، فلسوف نرى السوريين كافة يسيرون على درب واحد يخلو من العراقيل والصعوبات[42].

كان انقسام المجتمع إلى طبقات، من ناحية أخرى، يختلف بالنسبة إلى أعضاء اللجان الشعبية وحلفائهم عن هذا الانقسام من ناحيتين: أولًا، على الرغم من أن النصوص طرحت فئات مختلفة من الطبقات (تتضمن، على سبيل المثال، التجار، والتجار الأثرياء، والعمال، والفلاحين، والعلماء، وموظفي الحكومة، وما إلى ذلك)، إلا أنها تقدم على الدوام المجتمع السوري باعتباره يتكون من أكثر من جزأين. وبناء على ذلك، لم يكن المجتمع السوري منقسمًا إلى زمر هرمية ومتنازعة. وعلى النقيض من «اللغة التفكيكية» التي يستخدمها المتنورون، كان تقسيم المجتمع إلى عدد من الطبقات المتمايزة، ولكنها متجانسة في الأساس، يدل ضمنًا على نظام اجتماعي شامل للجميع وديمقراطي معًا. ثانيًا، نظرًا إلى أن لكل طبقة وظيفة مختلفة في المجتمع، كان لزامًا على الطبقات جميعها أن تعمل بانسجام لكي يقوم المجتمع بمهامه بيسر. وأما العرائض التي وزعتها اللجان الشعبية والمتضمنة التعبير عما يسمى «إرادة الأمة»، فضلًا عن الخطابات التي ألقاها خطباء يحظون بشعبية واسعة من أمثال كامل القصاب فقد أكدت العلاقة المتبادلة الأساسية بين الطبقات باستخدامها عادة عبارة «كل الطبقات» التي تعني الأمة السورية بأجمعها. وعلى النقيض من ذلك، تعاملت الدعاية التي تتولاها اللجان الشعبية مع أولئك الذين عارضوا أنشطة اللجان على أنهم طبقة منبوذة من الجماعة: «هناك بين بني البشر طبقة لا تستطيع أن ترى الحياة ممتعة إلا عن طريق احتفاظها بالنفوذ، حتى ولو أدى ذلك إلى سحق الواقع وخراب بني البشر»[43].

---

(42) **الكوكب**، 13 كانون الثاني/ يناير 1920، ص 12. يُنظر أيضًا: **العاصمة**، 11 أيلول/ سبتمبر 1919، ص 6؛ **العاصمة**، 16 تشرين الأول/ أكتوبر 1919، ص 1–2؛ **العاصمة**، 8 كانون الأول/ ديسمبر 1919، ص 1–2.

(43) **الكنانة**، 26 حزيران/ يونيو 1920، ص 2. يُنظر أيضًا: **الكوكب**، 27 كانون الثاني/ يناير 1920، ص 5؛ المكتبة السلفية، القاهرة: ملف اللجنة الوطنية، القصاب، «إشعار مهم» (باللغة العربية)، أوائل آذار/ مارس 1920؛ USNA 165/2558-16, Military Attaché (Cairo) to DMI (reprint of speech by al-Qassab from al-Ahrām), 16 March 1920; FO 371/5188/E4515/35, «Arabic Press Abstracts for Week Ending April 26, 1920»; USNA DC RG84/vol. 24/674, Shahbandar to US Consul (Damascus). Arabic Transcription of Protest Delivered by the Higher National Committee, 18 May 1920.

كانت الطبقات التي تشكل المجتمع، بالنسبة إلى الجماعة الخطابية للجان الشعبية، مرتبطة بصلات من الالتزام المتبادل. وكان يقع على عاتق المواطنين الأثرياء في سورية، على سبيل المثال، التزام مساعدة الفقراء عبر تأدية الزكاة التقليدية. وقد ناشد الشيخ محمد حمدي السفرجلاني، وهو أحد مؤسسي اللجنة الوطنية العليا، بتقديم مثل هذه الصدقات الخيرية في مقالة افتتاحية حل فيها ضيفًا على الصفحة الأولى من جريدة **العاصمة**:

> أليس من الواجب على الغني أن يساعد على تشييد المستشفيات لفقراء الأمة، والمطاعم والمدارس لتربية أطفالهم، فيكونوا <فيكونون> جميعًا أعضاء عاملين في الوطن، لا أشلاء متسولين في الطرق؟.... لذلك أستنهض أهل الخير في كل بلد بل في كل حي لتشكيل جماعات غايتها جمع الزكاة من الأغنياء ووضعها في الفقراء، وفي كل مصلحة للأمة حرصًا على التآلف بين أفرادها[44].

ولن يكون بالإمكان تخفيف أوجه الفقر في دمشق، كما تلخصها مقالة بعنوان «بقايا الأزقة» - ألا وهم الأطفال الذين تخلى عنهم أهلهم أو أهملوهم - إلا حينما يفي الأثرياء بالتزاماتهم التي هي «بمثابة الوتين من القلب الذي يسوق الدم إلى سائر الشرايين»[45].

أثر الترابط القائم بين الطبقات، إضافةً إلى صدارة الأمة السورية المحددة تاريخيًا والمنظمة ذاتيًا وتطبيق الصبغة التقليدية تطبيقًا صارمًا، بالنسبة إلى أعضاء اللجان الشعبية وداعميهم، على تكوين كل الفئات داخل المجال الخطابي الذي يوجه الأعراف والسلوك العام، بما في ذلك أولئك الذين وحدوا ما بين المسألة الجنسانية والوظيفة الاجتماعية. وفي الفترة الواقعة ما بين منتصف القرن التاسع عشر والعقود الأولى من القرن العشرين، ساهمت مجموعة متنوعة من العوامل في تغيير ترتيب الموقع الاجتماعي والاقتصادي الذي كانت تحتله المرأة في المجتمع السوري سابقًا. وقد اشتملت العوامل تلك على إعادة تشكيل الحيز الحضري؛ وتراجع الاكتفاء الذاتي في المناطق الريفية، وما صحب ذلك من

(44) **العاصمة**، 17 تشرين الثاني/ نوفمبر 1919، ص 1-2.

(45) **العاصمة**، 12 كانون الثاني/ يناير 1920، ص 1.

اتساع نطاق الصلات التي تربط ما بين المدينة والريف؛ وإعادة تنظيم الإنتاج الحرفي والتحول الذي طرأ على أنماط العمالة الناشئ عن التقانة الحديثة (مثل البدء باستخدام آلات الخياطة إلى دمشق)؛ والاختلالات السكانية الناجمة عن الحرب والهجرة؛ وأنشطة التعبئة التي تولتها الحكومة العربية وحلفاؤها[46]. وقد يسر الخطاب الذي وظفته اللجان الشعبية إعادة البناء الاجتماعي وإعادة التوازن بين الأدوار المناطة بالجنسين عبر الحض على الأنشطة والقيم المتوائمة مع الواقع الجديد، بالتزامن مع حماية هذه الأنشطة والقيم من تهمة الابتداع عبر تغليفها بـ «طابع تقليدي».

أذنت اللجان الشعبية، عبر اتخاذها هذه الإجراءات الرامية إلى إثبات أصالتها، للنساء الانخراط في مجموعة متنوعة من الأنشطة في الحياة العامة، بما في ذلك الكثير مما أنكر عليهن الاضطلاع به سابقًا. وشجعت اللجان الشعبية في دمشق وحلب، على غرار ما فعلت الحكومة العربية وحلفاؤها، على سبيل المثال، النساء على المشاركة في التظاهرات المقرر إجراؤها. ولكن، بخلاف منافسيها، أفادت التقارير بأن اللجان الشعبية أباحت للنساء، بل وشجعتهن، على تقدير الأموال وجمعها لدعم اللجان الشعبية الفرعية المحلية. علاوة ذلك، فقد التحقت النساء بالميليشيات العسكرية التي نظمتها اللجان الشعبية بل وربما جرى تجنيدهن، إن كانت الأدلة السردية وروايات المراقبين الأجانب دقيقة، ليس في قوات الاحتياط فحسب، وإنما في القوات المقاتلة أيضًا[47]. وأفيد بأن إحدى المتطوعات قالت

(46) يُنظر، على سبيل المثال: FO 371/2770/189602, I.C.E.C. (Switzerland), 19 September 1916; FO 371/3058/137867, «Internal Conditions,» 11 May 1917; FO 371/3400/100453, «Enemy Treatment of Armenians,» Clayton to Sec. of State for Foreign Affairs, 19 May 1918; FO 371/4227/77186, Report by Major Davenport (APO Amman), 22 April 1919; MD 4H112/2a, «Report on Independence Day Celebrations at Aleppo,» Lt. Kouadi, 10 March 1920; James Anthony Reilly, «Women in the Economic Life of Late-Ottoman Damascus,» *Arabica*, vol. 42 (1995), pp. 79-106; James Anthony Reilly, «Origins of Peripheral Capitalism in the Damascus Region, 1830-1914,» Ph.D. Dissertation, Georgetown University, Washington D.C, 1987, pp. 155-156, 158.

(47) MAE L: SL/vol. 21/44, Roux to MAE, 22 January 1920; مقابلات مع كامل دغمش (2 تشرين الثاني/ نوفمبر 1989) وأبو رباح الجزائري (15 تشرين الثاني/ نوفمبر 1989)، وكلاهما من قدامى المحاربين الذين شاركوا في معركة ميسلون. وتصف مقالة منشورة في جريدة **العاصمة**، 22 كانون الأول/ ديسمبر 1919، ص 3، امرأتين من العراق انضمتا أيضًا إلى الجيش. ومما =

لأخيها قبل أن تتجه إلى القتال في خان ميسلون «لقد شنت زوجة النبي الجهاد. فكيف يمكنك أن تحارب هناك وليس أنا؟»[48].

وهكذا، نجد أن المجال الخطابي للجان الشعبية قد ناط بالنساء مجموعة من المسؤوليات تختلف عن تلك التي عهد إليهن بها في المجال الخطابي للمتنورين. وعلى نحو ما ورد وصفه في الفصل السابق، فقد أكد المتنورون تحت عنوان التقدم تخصيصَ حيز مميز للأنشطة التي تضطلع بها المرأة جنبًا إلى جنب مع ذلك الحيز الذي يشغله الرجل ومكملًا له. وبناء على ذلك، قيض للنساء، من منظور المتنورين، أن يسهِمنَ في شؤون الأمة بأن يتولين الأعمال الخيرية بوساطة الجمعيات الخيرية مثل (جمعية الاقتصاد النسائي الخيري في حلب، وجمعية يقظة الفتاة العربية، وجمعية الأمور الخيرية للفتيات المسلمات في بيروت)[49]، وعبر تنظيمهن صفوف النساء المنتسبات إلى الجمعيات تلك من أجل تأسيس جمعيات قومية، وتعليم أطفالهن، والمشاركة في الأنشطة العامة تلك (التظاهرات، وحملات توقيع العرائض، والتصويت) التي من شأنها أن تعدهن للاضطلاع بالدور الذي ينتظرهن بوصفهن «أمهات الأمة». ووفقًا لمقالة نشرت في جريدة **العاصمة**، على سبيل المثال، قررت المشاركات في الاجتماع التأسيسي لإحدى الجمعيات النسائية في حلب الذي عقد في شهر كانون الأول/ ديسمبر من عام 1919 اللواتي من الواضح أنهن ينتمين إلى الطبقة العليا ما يلي: خفض الإنفاق على الملابس وسلع أخرى سواها، وإرجاء المشتريات؛ والترويج للملابس

= يؤسف له أن المقالة أغفلت ذكر ما إذا كانت الوحدة التي التحقت كل منهما فيها مكونة من أفراد من القوات النظامية أم غير النظامية.

(48) جان أليكسان، «زينب في ميسلون». وقد أخبرت المراسل حينما جرت مقابلتها بعد مرور أربعين عامًا على الهزيمة السورية: «لا أستطيع أن أصف مشاعري بدقة. لقد كنا نعلم جميعًا أن الجيش الغازي كان أقوى من جيشنا، ولكن إيماننا كان قويًا. وكنا نأمل أن نستشهد في ميدان المعركة، وأن نحيي [بذلك] الوطن». ووفقًا لما تختزنه ذاكرتها، فقد تطوعت ثلاث نساء من قريتها للقتال في معركة ميسلون.

(49) **العاصمة**، 5 شباط/ فبراير 1920، ص 5؛ Lybyer Papers, R.S. 15/13/22, «Statement of the Moslem Women Presented to the Commission at Beirut, July 8, 1919».

وتدرج الوثيقة الأخيرة اسم منظمتين أخريين تكونت منهما الجمعيات النسائية الإسلامية في بيروت، ألا وهما دار الصناعات البيروتية، ومدرسة نادي الفتيات.

الوطنية و«استخدامها» بدلًا من تلك المستوردة من أوروبا؛ والإقلاع عن ارتداء آخر صيحات الأزياء والعودة إلى ارتداء الملابس البسيطة؛ والتخلي عن العادات المسرفة، مثل رفض ارتداء اللباس ذاته في حفلتي زفاف مختلفتين؛ وإيجاد مكان لتعليم الخياطة وتصميم الأزياء، وتعيين مجلس ورئيس للإشراف على عمل الجمعيات، و«بث الروح القومية بين النساء اللواتي يربين رجال المستقبل»[50].

وعلى نحو مماثل، فعلى الرغم من تجنيد النساء «المثقفات» في الجيش العربي، إلا أن أنشطتهن – المتمثلة في العناية بالجرحى وتضميد جراحهم – كانت تحاكي الدور الذي ناطه بهنَّ المتنورون في المجتمع بشكل عام. حتى إن إحدى أولئك النساء، «نازك العابد» التي ستصبح زوجة في المستقبل للأديب البيروتي والنائب في المؤتمر السوري العام محمد جميل بيهم، منحت لقب «رئيس <نقيب> فخري» في الجيش العربي «نظرًا لخدماتها لبنات الشهداء، ولأعمالها الاجتماعية والنسائية»[51].

لم يقر المجال الخطابي للجان الشعبية، في المقابل، التقدم من حيث كونه مبدأ أنموذجيًا ولا الدول الأوروبية «المتحضرة» بوصفها نماذج أصيلة. وبناء على ذلك، ونظرًا إلى أن مجالهم الخطابي لا يعترف بأن النساء يشكلن فئة مستقلة قائمة بذاتها ضمن الأمة، فقد اعتبرت اللجان أن المساعي غير المسبوقة وذات المنشأ الأوروبي الواضح التي يبذلها المتنورون من أجل توسيع نطاق حق الانتخاب ليشمل النساء وإتاحة فرص التعليم التي ترعاها الدولة للفتيات مخادعة وباعثة على الانقسام في آن، وتمثل تهديدًا لوحدة المجتمع السوري التاريخي ونقائه. ولهذا السبب شن الحزب الديمقراطي وأنصاره حملة عنيفة مناهضة لمنح المرأة حق التصويت، وعلى سبيل المثال: مثلما جرى تداول قصص الاعتداءات التي تعرضت لها نساء سوريات على أيدي الجنود الفرنسيين المرابطين في المنطقة الغربية على نطاق واسع، فقد عدت أنشطة المتنورين بمثابة مدلول مجازي

(50) **العاصمة**، 18 كانون الأول/ ديسمبر 1919، ص 3-4؛ **الكوكب**، 11 تشرين الثاني/ نوفمبر 1919، ص 11؛ IO L/PS/10/802/12, Gertrude Bell, «Syria in October 1919,» 15 November 1919, particularly pp. 12ff.

(51) محمد جميل بيهم، **سورية ولبنان: 1918-1922** (بيروت، 1968)، ص 167.

على انتهاك الإمبريالية لسلامة الأمة. وعلى العكس من ذلك، لم يغب عن بال المتنورين عمق هذه المشاعر ولا أسبابها: وقبل أشهر من شروع الشبان الدمشقيين من الطبقات الدنيا في الاعتداء على النساء اللواتي كن يرتدين أزياء غربية، حذرت جريدة **العاصمة** النساء من مزاولة الأنشطة والقيام باستعراضات تنطوي على تباه فج والتي يمكن أن تفسر على أنها بمثابة «تحد للآخرين» وأن يتصرفن «بما يتواءم على نحو صارم مع حياة الآخرين الاجتماعية وعاداتهم» حين يغامرن بالخروج إلى الأماكن العامة[52].

بالنتيجة، لم تكن المعركة بشأن حق المرأة في التصويت والتعليم سوى إحدى الجبهات في الحرب التي شنتها اللجان الشعبية وأنصارها باسم الأمة على «الخونة الكاذبين»[53] - ألا وهم عملاء الطابور الخامس والغافلون عن الإمبريالية الغربية. ويظهر إعطاء اللجان الشعبية دلالات جديدة لمصطلحي «مشاغب» و«منكوب»[54] كيف أن هذه الجماعات استحسنت أوصافًا كانت تحمل بالأساس معاني ازدرائية وحولتها إلى رموز تؤكد استقلال الأمة وتماسكها.

لقد وظفت الحكومة العربية أولًا مصطلح «المشاغب»، مثلًا، من أجل وصف أولئك الذين تحدوا سياساتها أو تظاهروا ضدها. واستخدم علي رضا الركابي هذا المصطلح في خطاب ألقاه بمناسبة عودة فيصل بعد أول رحلة له إلى أوروبا في شهر أيار/ مايو من عام 1919، مؤكدًا أنه «لا يسعني إلا المجاهرة... بما أراه من أبناء وطني المحترمين من الاستعداد الفطري لتمثل المدنية العصرية، فمهما شاغب المشاغبون وتقوّل المفترون، فإن قابلية الأمة على أتمها»[55]. كما تبنى هذا المصطلح (مصطفى نعمة) الذي خلف الركابي في منصب الحاكم العسكري[56]، حينما دان، في ذروة أزمة الاستبدال، أولئك المشاغبين الذين «قد تناسوا وجائب

(52) **العاصمة**، 12 كانون الثاني/ يناير 1920، ص 1-2.

(53) **الكنانة**، 15 تموز/ يوليو 1920، ص 3.

(54) للاطلاع على نسخ من المنشورات المذيلة بتوقيع «منكوب» يُنظر: MAE L: SL/vol. 43/62, 64, n.d.; MD 7N4182/4/340, Picot to MAE, 21 July 1920.

(55) **العاصمة**، 7 أيار/ مايو 1919، ص 5-6.

(56) تولى عبد الحميد القلطقجي هذا المنصب لمدة بضعة أيام بين الركابي ونعمة.

حميتهم وسعوا وراء إقلاق الأفكار... في الوقت الذي يستلزم تمام السكينة»[57]. وفي معرض الرد نشرت صحيفة **الدفاع** على صدر صفحتها الأولى مقالًا افتتاحيًا لاذعًا عرف الكاتب فيه عن نفسه بأنه «مشاغب»، عاقدًا مقارنة بينه وبين خصومه:

لست أرغب بإشغال منصب في دوائر القصر.

ولست أرغب برئاسة إحدى الجمعيات الكبيرة.

ولست أرغب بالإساءة إلى من يعتقد أنه يجب أن يتقدمني،

على الرغم من أنه ليس أفضل مني.

ولست أرغب بالحصول على مال من الخزينة، على الرغم من أن افتقاري لهذه الأموال سوف يتركني نهبًا للفقر والعوز.

ولست أرغب ببلوغ مراتب الوجاهة في المدينة حيث يدخل لقب سيد أو زعيم البهجة على نفسي.

ولست أرغب بإيصال أحد الزعماء إلى السلطة، وأن أكون معه كالزبدة والعسل حلاوة وامتزاجًا.

ولست أرغب بأن أدفع ثمن الصمت.

ولست أرغب بالعودة إلى عرف يعود بالنفع علي وحدي فحسب ويلحق الأذى بالأمة جمعاء.

ولست أرغب بأن أضع نفسي في موقف أبدو فيه مثل شمشون حينما هز أعمدة المعبد مما أدى إلى انهياره، وهو يقول «علي وعلى أعدائي يا رب»[58].

لقد كان المجال الخطابي للجان الشعبية ومؤيديها في حالة تعارض تام مع جماعة المشاغبين ويمثل النقيض لأطروحة الجماعة تلك القائلة بوجود مؤامرة يدبرها «أولئك الذين سيبيعون أمتهم بوصفها سلعة»[59]. ولئن لم تكن هذه الصيغة

---

(57) **العاصمة**، 15 كانون الأول/ ديسمبر 1919، ص 5.

(58) **الدفاع**، 13 كانون الثاني/ يناير 1920، ص 1.

(59) يُنظر: AD 2372/dossier: propagande anti-française, 19 December 1918; MD 7N4182/dossier =

المجازية على وجه الخصوص مقصورة على سورية الفيصلية (قارن مع مؤامرة الخونة في الأرجنتين إبان الحقبة البيرونية)، إلا أنها كانت ذات صلة وثيقة على نحو خاص بهذه الفترة نظرًا إلى توافقها مع مناهضة الإمبريالية، والأبوية المناهضة لاقتصاد السوق اللذين تنادي بهما اللجان الشعبية ويدعمهما أنصارها، وذلكم هو ما يشير إليه القرآن ضمنًا[60]. ويورد أحد المنشورات التي وزعتها «جمعية الكف الأسود» ما يلي «ليسقط أولئك الذين باعوا وطنهم. استيقظوا، يا أيها السوريون، وتنبهوا: لقد بيع وطنكم، وعليكم الانتقام ممن فعلوا ذلك». وتضمن منشور آخر تحذيرًا للسوريين «أنقذوا الأمة قبل أن تضيع.... أطيحوا ببائعي [الأمة] قبل أن يرتكبوا جريمة الخيانة»[61].

وكما هو الحال مع «المؤامرة الأرستقراطية» التي استحضرها الديمقراطيون الراديكاليون في الثورة الفرنسية وحللها كل من فرانسوا فوريه ولين هنت من جملة آخرين سواهما[62]، حققت المؤامرة التي انخرط فيها «أولئك الذين سيبيعون أمتهم بوصفها سلعة» هدفين من أهداف اللجان الشعبية وحلفائها. أولًا عملت على إضفاء الشرعية على أنشطة اللجان الشعبية عبر رفع ما كان كثيرون يعتبرونه خلافًا لذلك مجرد تنافس على السلطة إلى مستوى صراع ذي أبعاد مبتكرة:

4/340, Picot to MAE, 14 April 1919; AD 2430/dossier confidentiel-départ, Cousse to HC, 17 May 1919 = (Arabic enclosure); AD 2329/dossier a-1, Unsigned, untitled leaflet, 25 June 1919; MAE L: AH/vol. 4/48 (undated Arabic leaflets and broadsheets); MAE L: SL/vol. 43, Original Leaflets, 21 July 1919; FO 371/4185/156060 B.II/6946 (M.I.2), DMI to Under Sec. of State, 26 November 1919,

كما اقتبس الأمير فيصل العبارة هذه في خطاب ألقاه في حزيران/ يونيو <5 أيار/ مايو> 1919 في دمشق: «قلت إن... العراق يريد استقلاله، ولا يريد معاونة أو حماية. فنحن لا نرضى في سورية أن يضيع استقلالنا بما تحتاج إليه من المعاونات في ابتداء تشكيلنا. بل إن الأمة السورية هي أمة تريد أن تستقل وتأخذ ما تحتاجه من المعاونة بثمنه»، FO 371/4181/89850/24, Clayton to Curzon, 27 June 1919.

(60) ألمح أحد كتاب الافتتاحيات في صحيفة **الدفاع** إلى هذه الصلة الأخيرة، في إشارة إلى قصة يعقوب وعيسو <سفر التكوين: الأصحاح 27>، وكتب: «لا أريد أن أبيع حقي في المولود الأول من أجل لقمة من العدس»، 13 كانون الثاني/ يناير 1920، ص 1.

(61) AD 2329/a-1, 25 June 1919; MAE L:SL/vol. 43/63, 21 July 1919.

(62) François Furet, *Interpreting the French Revolution*, Elborg Forster (trans.) (Cambridge, England, 1981), pp. 53-56; Lynn Hunt, *Politics, Culture, and Class in the French Revolution* (Berkeley, 1984), pp. 38-48.

أيتها الأمة! يا أبناء سورية - إخواني!... إن الذي يتهمكم بالتلون والتقلب هو مخادع منافق، أو خائن، أو جاهل يدعي المعرفة. ويمكن اعتباره أحمق على الأقل. إذ من الممكن أن يبيع فرد ما مبدأه ويستعبد شرفه. أما حين يتعلق الأمر بمجموع الناس، فليس هناك من مال كاف في العالم كله لشرائهم جميعًا، وليس هناك من قوة في العالم كله قادرة على تحطيمهم جميعًا، لأنهم يطالبون مع يقدمون عليها بالحق الذي منحهم الله إياه في الحياة. ومن يدافع عن حق الله أنبل من أن يباع وأقوى من أن يباد[63].

ثانيًا، وفرت المؤامرة هذه للثوريين صورة مرآة - «تناهض مبدأ» المؤامرات وترمي إلى الدفاع عن الامتياز والمصالح الضيقة - يمكن أن ينعكس عليها النظام الجديد.

من الناحية الأخرى، فعلى الرغم من أن إدانة الخونة، والمفترين، والمارقين «الذين يتحدثون إلى الأجانب [باسم الأمة] بينما يتبعون طموحات ومصالح شخصية لا تتفق و[إياها]»[64]، هي سبيل شائع تسلكه الجماعات المجبرة على مواجهة حقائق السياسة الجماهيرية لأول مرة، إلا أنه لا مناص من أن يجعلوا الجدل السياسي يتخذ طابعًا فظًا. ولقد كانت الدعاية التي استخدمها أنصار اللجان الشعبية في سورية، شأنها شأن الدعاية التي اتبعها الراديكاليون الفرنسيون قبلهم، حافلة بالصور العنيفة والدعوات إلى توخي اليقظة والحذر من أعداء الأمة. ويعد خطاب عيد الاستقلال الذي ألقاه سامي السراج في النادي العربي في حلب مثالًا على لغة التشدد هذه:

لقد أجاد أمراء البيان الكلام قبل أن أبدأ الحديث، وصاغوا أفكارًا وعزفوا على

(63) تضمن ذلك خطابٌ ألقاه فيليكس فارس، ويرد نصه في: AD 2346/c1a, «Remembrance of Syrian Independence Day».

(64) AD 2372/dossier: propagande anti-française, «To the Noble Arabs,» 19 Decembre 1918; **الدفاع**، 13 كانون الثاني/ يناير 1920، ص 1. يُنظر أيضًا: غالب العياشي، **الإيضاحات السياسية وأسرار الانتداب الفرنسي على سوريا** (بيروت، 1955)، ص 105-106، يستخدم المنشور الوارد في الاقتباس الأول، الذي قيل إنه وزع على يد حزب الاستقلال العربي، هذه العبارة بغية التحذير من أولئك الذين سيقسمون الأمة عبر الدعوة إلى الطائفية. ويبين ذلك كيف جرى استثمار العبارات المألوفة لاحقًا بإكسابها معنى جديدًا حينما أعيد تكوين سياقها.

أوتار القلوب أنغامًا رقيقة. ولكنني أود أن أحرك أوتار الحيوية في قلوب الناس. ولعل الأطفال يغفون بسبب الهدهدة المفعمة بالحيوية التي تمنحها لهم الأم وترانيمها. وإنني أسلم الناس إلى الله تعالى علهم ينامون بعد ذلك.

كم هو بعيد النوم عن مخيمات الرجال في الصحراء المهجورة حيث تجثم الوحوش الضارية وتخترق الصخور لتجد مخابئ لها، والنسور الجائعة تحوم في السماء، والثعابين والأفاعي السامة تسعى فوق الحصباء.

كم هو بعيد النوم عن أولئك الذين خرجوا ذات ليلة والقمر غائب والظلال يغطيها الضباب والظلام يزداد ظلمة ووحشة.

كم هو بعيد النوم عن أمة مثل الأمة العربية، التي بعدما ارتدت حزام السيف ونزعت قوس الشجاعة عن كتفها، راحت تلوح بسيف الفتوة فيغدو الكون خائفًا والعصر مضطربًا.

فالأسد لا ينام ملء عينيه وابن آوى يتربص بشبله(65).

لم يقتصر الطابع الفظ للخطاب السياسي، بالطبع، على الجماعة الخطابية للجان الشعبية؛ إذ إن العنف الذي اتسمت به هذه الإدانات (التي أعقبت اتفاقية فيصل - كليمنصو، وجعلت الأمير ذاته في عداد الخونة) علق أهمية كبرى على التشدد من جانب الزمر القومية كافة. وفي هذا الجو المشحون، حتى فيصل ذاته كان مرغمًا على تبني موقف متشدد حينما بات بعيدًا من مسامع الدبلوماسيين المجتمعين في باريس. وهكذا كان الأمير يوشّي خطاباته - حتى تلك التي تنصح بالتحلي بالصبر - بشعار «الاستقلال يؤخذ ولا يمنح»، الذي كان قد طرحه للمرة الأولى عقب عودته من باريس بعد التوقيع بالأحرف الأولى على اتفاقه وكليمنصو(66).

(65) AD 2346/c1a, «Remembrance of Syrian Independence Day,» pp. 17-20.

(66) يُنظر، على سبيل المثال: USNA 59/890d.00/8/468, Jackson to Sec. of State, 4 March 1920; MD/4H114/dossier 4/459, Cousse to Gouraud, 27 May 1920; FO 371/5188/E7808/42, «Arabic Press Abstracts for Week Ending June 14 1920,»

وفقًا للعدد الصادر في 29 أيار/ مايو 1920 من صحيفة **الحقيقة** البيروتية، على سبيل المثال، كرر فيصل هذا الشعار في كلمة تضمنت الفقرة التالية: «الأمة السورية أعلنت استقلالها وفقًا لمصالحها، أما الدول فمع اعترافها بهذا الاستقلال، فقد اشترطت له شروطًا تلائم مصالحها أيضًا. وعندما أعلنا استقلالنا قلنا باحترام =

يمكن القول عمومًا إن نبرة المجال الخطابي الذي وظفته اللجان الشعبية وحلفاؤها ومحتواه وصبغته التقليدية والحشد المتميز للصور ووضعها مقابل بعضها بعضًا - عنينا انفصال الأمة (ممثلة باللجان والمتعاطفين معها) عن أعدائها (ممثلين بمن «سيبيعون الأمة بوصفها سلعة»)، وتلك الروابط العضوية التي توحد الأعضاء المتنوعين في المجموعة الأولى والمخاطر المترتبة على المؤامرات التي يحيكها أولئك الذين ينتمون إلى المجموعة الثانية، وما إلى ذلك - هي التي كانت تربط بين الحركة الشعبية التي نشأت في سورية الفيصلية والحركات الشعبوية التي انبثقت في أماكن أخرى إبان فترات أخرى. فقد نشأت الحركات الشعبوية عبر التاريخ، شأنها شأن الحركات الشعبية السورية، بوصفها استجابة سياسية للتفكك المجتمعي، على غرار تلك التي حفزها الانتشار السريع وغير المتوازن للعلاقات الموجهة نحو السوق. إذ لا يقتصر الأمر على أن النطاق المتغير للتحول الاجتماعي وتوقيته ما برح يمزق المجتمع إلى شرائح متباينة ومتنافسة، بل وييسر تشكيل كتلة سياسية جديدة من بين الساخطين والمقصيين(67). وقد عكست الخيارات الخطابية المتاحة أمام هذه الكتلة السياسية الظروف المحيطة بنشأتها وضعفها في مواجهة الاضطرابات الناجمة عن سلطة رأس المال والدولة التي حرضت على إنشائها في المقام الأول. ولهذا السبب، ثمة تكرار للصيغ المجازية الشعبوية عبر الزمن. وعلى الرغم من أن المجال الخطابي للجان الشعبية كان بالكاد فريدًا من نوعه، إلا أنه يظهر بالفعل المجموعة الموحدة من الهواجس التي واجهها السكان أو شريحة منهم ممن شرعوا في إعادة بناء أنفسهم بوصفهم «الأمة» في مواجهة

= مصالح الجميع، لنكون في تآلف مع الشعوب التي حاربنا معها. ثم إن الدول وضعت شرطها، وقالوا: تعالوا لنؤلف بين مصالحنا ومصالحكم. فيظهر من هذا أن لا ضيم علينا حتى الآن، وأن أبواب المذاكرات ما زلت مفتوحة لكلا الفريقين، ويجب أن نعلم أنه ينظر إلينا اليوم كأمة مستقلة».

(67) J. B. Allcock, «'Populism': A Brief Biography,» *Sociology*, vol. 5 (September 1971), pp. 382, 386; Kenneth Minogue, «Populism as a Political Movement,» in: Ghita Ionescu & Ernest Gellner (eds.), *Populism: Its Meaning and National Characteristics* (London, 1969), p. 200; William F. Holmes, «Populism: In Search of Context,» *Agricultural History*, vol. 64 (Fall 1990), pp. 37-41; Margaret Canavan, «Two Strategies for the Study of Populism,» *Political Studies*, vol. 30 (December 1982), pp. 544-552; Angus Stewart, «The Social Roots,» pp. 180-196, and Donald MacRae, «Populism as an Ideology,» in: Ionescu & Gellner (eds.), *Populism*; Carlos M. Vilas, «Latin American Populism: A Structural Approach,» *Science and Society*, vol. 56 (Winter 1992-1993), p. 391.

«نقيض الأمة» المهيمن سياسيًا، بعدما رأوا أنفسهم ضحية التهميش الاقتصادي والاجتماعي و/ أو السياسي.

الرموز، والمجالات، والتواريخ القومية

أشار فيليب خوري في مقالة صدرت له مؤخرًا إلى أن «مكمن القصور في الدراسات التي تناولت ظهور النزعة القومية العربية إنما هو في إهمالها تفسير كيف ولماذا تحولت فكرة العروبة إلى حركة سياسية في أوج الازدهار»[68]. وعلى الرغم من أن المحاولات الساعية إلى حل هذه المشكلة كانت سببًا في إثارة نقاش واسع تخلله الجدل بين مؤرخي الشرق الأوسط الحديث، إلا أن هذا السؤال بالصيغة التي طرح فيها يعد سؤالًا لا إجابة له لأنه يقوم على افتراضين لا يصمدان أمام التمحيص مفادهما: أنه كان هناك مسار تطوري فريد من نوعه للقومية في الشرق الأوسط العربي، وأن هذه القومية كانت نتاجًا حصريًا لمجموعة معينة من المفكرين الذين نشروها حينئذ («بفظاظة ثورية»، وفقًا لإيلي كدوري[69]) بين باقي السكان.

لئن كان رواد الصالونات، وضباط الجيش الطموحون، والأدباء يقدمون الخطوط العريضة للنظام السياسي العربي في الحقبة ما بعد العثمانية، إلا أن تأثيرهم كان مقيدًا بسبب عجزهم (وعزوفهم) عن تبديد الهواجس الشعبية بلغة مقنعة. ونتيجة لذلك، فإن النزعة القومية لابتداع الأساطير القومية - النزعة القومية لدى المفكرين العروبيين والفتاة وفيصل و«الدين لله والوطن للجميع» - لم يجرِ التسليم بها من دون نقاش في سورية في مرحلة ما بعد الحرب العالمية الأولى. إذ لقيت اعتراضات على مستويات متعددة من داخل التيار القومي على يد أعضاء حزب الاتحاد السوري والمتعاونين معهم ممن لا يثقون بأشراف مكة والثورة العربية، ومن جانب الأصلانيين السوريين الذين كانوا مستائين من تدخل «الغرباء» في الشؤون السورية، ومن جانب العلماء التقليديين وحلفائهم من التجار الذين اعترضوا على فرض الدخلاء لغرورهم وخشيتهم من تهميشهم على أيدي

(68) Philip S. Khoury, «Syrian Political Culture: A Historical Perspective,» in: Donald Quataert & Richard T. Antoun (eds.), *Syria: Society, Culture, and Polity* (Albany, 1991), p. 19.

(69) Elie Kedourie, «Pan-Arabism and British Policy,» in: *The Chatham House Version*, p. 213.

النخبة الصاعدة، وكذلك من جانب كتلة سياسية غير متجانسة لم تكتف بالإفادة من الفئات الثلاث السابقة فحسب، وإنما ضمت عددًا كبيرًا من السوريين الذين عبأهم أشراف مكة وحلفاؤهم، ولكنهم أخفقوا في الفوز بتأييدهم لبرنامجهم. ولما كانت اللجان الشعبية قادرةً على التعبير عن مخاوف المجموعة الأخيرة تلك بلغة وثيقة الصلة بمتطلباتهم، لم يعد هؤلاء السوريون يقفون موقف عدم الاكتراث إزاء الخلافات القومية، ولم تتراجع مشاركتهم في الحياة السياسية، بينما كانت السلطة القسرية للحكومة العربية آخذة في التضاؤل. وقد استعان الناطقون باسم اللجان الشعبية بمجموعة متنوعة من الرموز التي كانت مثيرة للعواطف بالتزامن مع إعادة تشكيل هذه الرموز عبر إعادة صياغة سياقها ضمن المجال الخطابي المتكامل. وبوساطة هذه العملية، اكتسبت الرموز تلك معانيَ جديدة وثيقة الصلة بشعب لم يعرف الاستقرار من جراء عقود من الأزمات ويواجه مهمة إعادة بناء المجتمع.

مما لا جدال فيه أن إضافة بعد شعبي إلى الأسطورة القومية يمثل قومية تسبب قدرًا أكبر من المتاعب، وهي نزعة قومية تتحدى فيها هوية سورية «إقليمية» هوية عربية، وتزين فيها الصورة الذهنية الإسلامية أسطورة «الشهداء»، وتترك فيها الإشاعات المتداولة عن اعتداء الفرنسيين جنسيًا على نساء المسلمين أثرًا عميقًا في أذهان أولئك الذين تطوعوا للقتال في خان ميسلون لا يضارعه ما تركه مثال الثورة العربية في نفوسهم. وعلى الرغم من ذلك، إذا كان مؤرخو القومية في الشرق الأوسط العربي قد تجاهلوا هذه المشاعر، فيمكنهم أن يجدوا في الأقل العزاء في التعامي الغريب من جانب عبد القادر المظفر، الرئيس الأول لفرع النادي العربي في دمشق، الذي أخفق أيضًا في إدراك البعد الشعبي للسياسة القومية في سورية. فقبل أكثر من شهر بقليل اقتحمت حشود من الدمشقيين مقر المؤتمر السوري العام، ونهبت أسلحة من قلعة دمشق، وقاتلت الجنود الموالين في شوارع دمشق، وتجمعت بعدئذ عند محطة البرامكة قبل أن تنتقل غربًا لشن «الجهاد الوطني» ضد الفرنسيين، بعد ما أبلغ المظفر المسؤولين الفرنسيين، «إذا أردتم التحريض على التظاهر، فإنه من الصعوبة بمكان أن نجمع خمسين رجلًا معًا»[70].

(70) AD 2374/dossier: TEO zone ouest: adm., Cabinet politique/1193/CP, «Zone est: situation générale,» 15 Juin 1920.

القسم الثالث

المراسم الاحتفالية القومية

الفصل الخامس

التعبئة من فوق وخلق التقاليد

عين القسم الثاني العناصر الرمزية المشتركة أحيانًا، وذات الخصوصية في أحيان أخرى المكونة لخطاب الجماعتين القوميتين الرئيستين في سورية بعد الحرب العالمية الأولى - عنينا، جماعة الحكومة العربية وحلفاءها من المتنورين، من جهة، وجماعة اللجان الشعبية وأنصارها، من جهة ثانية - وأوجز الدلالات الفردية والمركبة التي اشتقها المشاركون في الجماعة من العناصر المكونة تلك. وغالبًا ما كان التزاحم بين الجماعتين المتنافستين لإحداث ما يعتبرانه حدودًا مناسبة وسمات لجماعتهم القومية - وما تنطوي عليه المنافسة تلك من خلق الرموز والشعارات وانتحالها، فضلًا عن المساعي المبذولة لتحديد مجموعة من المعاني الملائمة لهم - يجري في أماكن عامة أو شبه عامة. وكان الخطباء يلقون كلماتهم في النوادي الحصرية التي تقتصر على أعضائها وفي التظاهرات الشعبية؛ ويؤدي الممثلون مسرحيات تعليمية في المسارح وساحات البلدية؛ ويصغي رواد المقاهي لما يلقى على أسماعهم من افتتاحيات الصحف ويتجادلون في موضوعاتها في أثناء قراءة نفر من الزبائن الآخرين لها بصوت مرتفع؛ وأما المواكب المنظمة وفقًا لفكرة أحد اختصاصيي تنظيم المراسم الاحتفالية العامة عن التمثيل المناسب للمجتمع فكانت تسير عبر الشوارع المتعرجة للأحياء

والطرق الرئيسة[1]. ولسوف أتفحص، في هذا الفصل والفصل الذي يليه، إحدى الوسائل التي كانت تتوسل بها المجموعات القومية المتنافسة لامتحان أفكارها واثبات صحتها: عنينا، الاحتفالات الجماعية. ولا يعد تحليل الاحتفالات الجماعية أمرًا ضروريًا من أجل فهم الرسائل المختلفة التي تستعين بها الجمعيات السياسية المتنافسة لاجتذاب سكان سورية وتوجيههم فحسب، وإنما أيضًا من أجل فهم السيرورة التي بوساطتها يجري خلق الجمهور السياسي وتعبئته.

إن الاحتفال الجماعي كما عرفتاه عالمتا الأنثروبولوجيا سالي ف. مور وباربرا مايرهوف هو «مناسبة ذات طابع مسرحي، ونمط مركب من السلوك الاجتماعي الذي يكون له عادة غرض، لكنه يلمح إلى أكثر مما يقول، وله عدة معان في آن واحد»[2]. ويضطلع الاحتفال الجماعي المؤثر في المجال العلماني بالدور ذاته الذي تضطلع به الشعائر والطقوس الدينية المؤثرة: إذ إنه يربط المشارك، من حيث كونه فردًا وعضوًا في جماعة في آن، بنظام مثالي بحيث «يندمج العالم المعيش والعالم المتخيل في مجموعة واحدة من الأشكال الرمزية، التي تصبح في النهاية العالم ذاته»[3]. وهكذا، يغادر أولئك المشاركون في احتفال مؤثر العالم المدنس موقتًا ويدخلون عالمًا لا يحدث فيه سوى نشاط رمزي، وذلكم هو عالم يسير فيه الرجال في الشارع وقد تحولوا إلى موكب استعراضي[4].

توظف الاحتفالات الرموز بطريقتين: فهي لا تحتوي على الرموز فحسب، بل إن الاحتفال ذاته، بمجمله، يعد بمثابة رمز. ويمكن قراءة الرموز التي يشتمل عليها أحد الاحتفالات - ألا وهي الأعلام التي يحملها المشاركون في الاحتفال

---

(1) اقتبست مصطلح «أخصائي تنظيم المراسم الاحتفالية العامة» بغية تحديد الأفراد المسؤولين عن تنظيم المراسم الاحتفالية العامة من كتاب كريستل لين (Christel Lane) المفيد للغاية المعنون: Christel Lane, *The Rites of Rulers: Ritual in Industrial Society-The Soviet Case* (Cambridge, England, 1981).

(2) Sally F. Moore & Barbara Myerhoff, *Secular Ritual: Forms and Meanings* (Amsterdam, 1977), p. 5.

(3) Clifford Geertz, «Religion as a Cultural System,» in: Michael Banton (ed.), *Anthropological Approaches to the Study of Religion* (London, 1966), p. 28.

(4) George L. Mosse, *The Nationalization of the Masses: Political Symbolism and Mass Movements in Germany from the Napoleonic Wars through the Third Reich* (New York, 1975), pp. 50-51, 208.

أو الأزياء التي يرتدونها، أو الشعارات التي يجري الهتاف بها في أثناء سير الموكب، والمعلنة في الخطابات، أو المكتوبة على الرايات واللافتات، وما إلى ذلك - ويمكن قراءتها باستخدام الأساليب ذاتها المستخدمة في تحليل الرموز المتضمنة في نصوص أخرى. بيد أن تحليل الرمزية الموجودة في بنية الاحتفال يتطلب اعتماد منهجية إضافية، وهي منهجية اقترحها كليفورد غيرتز.

تتألف الاحتفالات، وفقًا لغيرتز، من شكلين من أشكال النمذجة: إذ يقدمان «أنموذجًا للواقع [الاجتماعي]» الذي يستلزم «التلاعب بالبنى الرمزية لتقريبها، قليلًا أو كثيرًا، لتغدو موازية للمنظومة غير الرمزية الراسخة من قبل»، و«أنموذجًا عن الواقع [الاجتماعي]»، مما يستلزم «التلاعب بالمنظومة غير الرمزية من حيث علاقاتها المعبر عنها بالرمز»[5]. وتتيح صيغة غيرتز لأولئك الذين يعكفون على دراسة الاحتفال الإفلات من الحدود الأحادية البعد للوظيفة الدوركهايمية (الواردة ضمنًا في مفهوم غيرتز للاحتفال بوصفه «أنموذجًا للواقع [الاجتماعي]»)، التي ينحصر وفقًا لها الدور الذي يضطلع به الاحتفال في التمثيل الرمزي للتضامن الاجتماعي، ومن وجهة النظر الماركسية المبتذلة (المتوافقة مع مفهوم غيرتز للاحتفال بوصفه «أنموذجًا عن الواقع [الاجتماعي]»)، التي يعد الاحتفال وفقًا لها بمثابة وسيلة تتوسل بها الجماعات المهيمنة في المجتمع من أجل فرض قيمها على الجماعات الأقل شأنًا[6]. وكما يقدر غيرتز، فإن فاعلية الاحتفال وصدقه متجذران في حقيقة مفادها أنه ليس ذا بعد واحد، بل على العكس من ذلك، فإن فاعلية الاحتفال وصدقه يتأتيان من حقيقة مؤداها أنه يعد بمثابة رمز «متعدد التأويلات»، يحتفل بالفرد في المجتمع كما هو كائن وكما يجب أن يكون على نحو متزامن.

---

(5) Geertz, «Religion as a Cultural System,» p. 28; Christel Lane, *The Rites of Rulers: Ritual in Industrial Society-The Soviet Case* (Cambridge, England, 1981), p. 12;

يصف دون هاندلمان بإيجاز الدور المزدوج الذي تؤديه المراسم الاحتفالية العامة في عنوان كتابه الموسوم: Don Handelman, *Models and Mirrors: Towards an Anthropology of Public Events* (Cambridge, England, 1990).

(6) Emile Durkheim, *The Elementary Forms of the Religious Life*, J. S. Swain (trans.) (New York, 1961), p. 245.

على الرغم من أن معظم الاحتفالات تقدم «أنموذجًا للواقع» و«أنموذجًا عن الواقع» في آن، إلا أنها نادرًا ما توازن بين وظيفتي النمذجة على نحو متساو. ومن المألوف أن تحظى الاحتفالات التوجيهية بالتمجيد من الأنظمة الجديدة و/ أو الثورية التي تسعى إلى الحط من شأن جانب «أنموذج [للواقع]» من الاحتفال الذي قد لا يؤدي إلا إلى تعزيز الانقسام الاجتماعي وأهداف النظام القديم. وهكذا، فإن الاحتفالات في مثل هذه الأنظمة، التي صممها أخصائيو تنظيم المراسم الاحتفالية العامة من أجل أن ترسخ في الذهن خريطة معينة ملائمة لأيديولوجيا النظام الجديد، تسعى إلى التأكيد لجانب «أنموذج عن [الواقع]» من الاحتفال لتصل إلى حد إقصاء كل آثار جانب «أنموذج للواقع» [من الاحتفال]. بيد أن هذا التأكيد لا يخلو من المشكلات: إذ هناك، بالطبع، تناقضات متأصلة ما بين رغبة اختصاصيي تنظيم المراسم الاحتفالية العامة في خلق احتفالات تمثل «أنموذجًا عن» الواقع يعتمد الصيغ الجاهزة المناسبة، والعملية الاحتفالية في حد ذاتها. وتعتمد فاعلية الرموز على ما تنطوي عليه من تأويلات متعددة، بيد أن هذه التأويلات المتعددة ذاتها هي التي يتعين على اختصاصي تنظيم المراسم الاحتفالية العامة الذي يعمل لدى النظام الجديد و/ أو الثوري أن يستبعدها لكي يوجه السكان نحو مجموعة من القيم المحددة. ويتولى هذا الاختصاصي، إبان عملية الإعداد للاحتفال، اختزال الرموز إلى مجرد دلالات؛ أي بمعنى آخر، لكل رمز/ دلالة وسيكون هناك، إذن، معنى/ مدلول وحسب. وهكذا، كلما اقترب الاحتفال من الطابع التوجيهي لـ «أنموذج عن المجتمع» خالص، قل احتمال أن يكون له صدى لدى السكان[7].

كانت الاحتفالات المتنوعة التي نظمتها الحكومة العربية، مثل التظاهرات، والاستعراضات، والأعمال المسرحية، بما حفلت به من نزوع نحو التوجيه وإفراط في مكونات «أنموذج عن» الواقع، تفتقر إلى القدرة على التأثير والقوة نوعًا ما لهذا السبب، وكما سيتبين أدناه، فإن الشكل الذي اتخذته هذه الاحتفالات لم يجر اختياره عشوائيًا، بل بالأحرى، إنه كان بالضرورة مشتقًا من نهج تكتيكي

(7) Lane, *Rites of Rulers*, pp. 13, 192-193, 281.

اعتمدته الحكومة العربية لتحقيق الاستقلال والتعبير عن الأنموذج الصريح للعلاقات الاجتماعية الذي هو جزء لا يتجزأ من أيديولوجية هذه الحكومة. وعلى النقيض من ذلك، ونظرًا إلى أن «الأنموذج عن» المجتمع الذي حدده أخصائيو تنظيم المراسم الاحتفالية العامة لدى اللجان الشعبية يوضح بدقة أكبر العلاقات الاجتماعية للمشاركين كما يراها هؤلاء أو يفضلونها أن تكون، بيد أنه كان بإمكان الاحتفالات التي ترعاها اللجان الشعبية الاستغناء عن العديد من العوامل ذات الطابع الإيعازي الأكثر وضوحًا المتضمنة في التظاهرات التي نظمها منافسوها، وذلكم هو ما فعلته. ونتيجة لذلك، باتت تملك قدرة على إقناع المشاركين، وإذا صدقت روايات شهود العيان، فإنه لم يكن لها مثيل في أي من الاحتفالات الأخرى التي جرى تنظيمها في سورية الفيصلية.

التعبئة من فوق: خلق الجماهير

واجهت الحكومة العربية معضلة في مسعاها الرامي إلى ترسيخ مبادئ شرعية أشراف مكة وغرس القيم القومية المرتبطة بالمتنورين في أذهان سكان سورية. فقد أرغمت الحاجة الملحة إلى تأسيس السلطة في المنطقة الشرقية والحفاظ عليها، ونشر مثل المتنورين، والبرهنة أمام دول الوفاق بأن سورية لم تكن مهيأة لتتبوأ مكانها بين الأمم المتمدنة فحسب، بل إن السوريين أيضًا متحدون في توقهم للاستقلال، وتولي أشراف مكة تمثيلهم في مؤتمر باريس، الحكومةَ على إجراء تعبئة مسيطر عليها للشعب السوري. ولكن لما كان الكثيرون ممن سبق لهم أن تولوا الإمساك بمقاليد السلطة المحلية يعتبرون أن الحكومة العربية تتألف من الأدعياء محدثي النعمة، والمتطفلين الدخلاء، أو كلاهما معًا، فلم يعد بوسع الحكومة، وممثليها ومؤيديها في المدن والبلدات في أرجاء سورية كافة، وحلفائها من المتنورين، الاعتماد على الشبكات الموجودة سابقًا من أجل تعبئة الشعب السوري لمصلحتها. علاوة على ذلك، غالبًا ما كان أعضاء الحكومة العربية ووكلاؤها، بخلاف الأعيان التقليديين والقيادة المحلية للجان الشعبية، يفتقرون إلى المعرفة بالأحياء والقرى التي كانوا يسعون إلى بسط سيطرتهم عليها. ونتيجة لذلك، تبنوا استراتيجيات متنوعة من أجل تجاوز منافسيهم أو التعاون معهم. وقد

تراوحت الاستراتيجيات تلك بين ما سبقت الإشارة إليه من توزيع الرشى على مثيري المتاعب والمنافسين المحتملين إلى تقديم العون المالي للصحف اليومية، وإعادة هيكلة المؤسسات من أجل ربط الحكومة بالسكان بشكل مباشر. وكان من شأن اتخاذ الحكومة العربية ومؤيديها هذه الإجراءات أن الأمر لم يعد يقتصر على التعجيل بإضعاف الهياكل التقليدية للسلطة فحسب، وإنما التسريع عن غير قصد بظهور اللجان الشعبية أيضًا.

لكي تتمكن الحكومة العربية من تعزيز قدرتها على دراسة أوضاع القرى والأحياء في المناطق الحضرية واختراقها، على سبيل المثال، استعانت بالمخاتير، وهم موظفون اضطلعوا تقليديًا بدور الوسطاء بين الدولة والسكان. وقد تولى المخاتير، إبان الحقبة العثمانية، جباية الضرائب، وتوزيع الهبات الحكومية، ونقل المعلومات من الحكومة إلى السكان وبالعكس. ونهض المخاتير في ظل الحكومة العربية بهذه المهام كلها بل أكثر، إذ عملوا جنبًا إلى جنب مع أعضاء الفروع المحلية للنادي العربي، ونفذوا سياسات التجنيد الإلزامي المثيرة للجدل التي فرضتها الحكومة العربية وحشدوا سكان أحيائهم من أجل المشاركة في التظاهرات والاحتفالات التي ترعاها الحكومة، وحرصوا على عرض الملصقات والشعارات التي أقرتها الحكومة في مكان بارز في كل أنحاء الأحياء والقرى التي يتولون إدارتها، وإرسال التقارير عن الأنشطة السياسية التي لا تقرها الحكومة في مناطقهم، والإشراف على إغلاق المحال التجارية في أيام الأعياد الرسمية والاحتجاجات[8]. وهكذا كان المخاتير في سورية الفيصلية يعززون التعبئة السياسية للسكان، وينشرون وجهات النظر الأيديولوجية للحكومة العربية

---

(8) **العاصمة**، 27 كانون الثاني/ يناير 1920، ص 5؛ **العاصمة**، 5 شباط/ فبراير 1920، ص 4؛ أحمد حلمي العلاف، **دمشق في مطلع القرن العشرين**، تحقيق علي جميل نعيسة (دمشق، 1976)، ص 42؛ مصطفى بلاوي، «الأحزاب السياسية في سورية (1920-1939)»، أطروحة ماجستير، جامعة دمشق، 1985، ص 26؛ Gabriel Baer, *Fellah and Townsman in the Middle East: Studies in Social History* (London, 1982), pp. 119, 134-135;

ووفقًا لما ذكره هوارد م. ساشار، فقد سعت الحكومة العربية إلى إشراك المخاتير الذين كانوا يقيمون في المنطقة الساحلية في الأنشطة الوطنية. Howard N. Sachar, *The Emergence of the Middle East: 1914-1924* (New York, 1969), p. 263.

ويفرضونها على الناس، ويتولون إخضاع القرى والأحياء في المناطق الحضرية، التي ظلت بمنأى إلى حد ما عن تدخل الحكومة في العهد العثماني، لسلطة الدولة بصفة مباشرة وعلى نحو مستمر للمرة الأولى(9).

توضح الحملة التي نفذتها الحكومة العربية وحلفاؤها للاحتجاج على التصريحات التي أدلى بها وزير الخارجية الفرنسي ستيفان بيشون علاقة العمل الوثيقة التي تربط ما بين الحكومة العربية، والموظفين المحليين، وزعماء المنظمات غير الحكومية والمخاتير. ففي 29 كانون الأول/ ديسمبر من عام 1918، وعشية بدء مؤتمر السلام في باريس، ألقى بيشون خطابًا في مجلس النواب الفرنسي أعاد فيه التأكيد لمصالح فرنسا التاريخية في سورية. وأصبح هذا الخطاب قضية مشهورة لدى الوطنيين السوريين كافة، ولا سيما أولئك المرتبطين بالحكومة العربية والمتعاطفين معها في الفتاة والنادي العربي، حيث وجدوا في هذا الخطاب فرصة سانحة لشن حملة ترمي إلى توسيع القاعدة الشعبية للحكومة.

بدأت التعبئة المناهضة لهذا الخطاب باجتماع لمخاتير دمشق دعا إليه نسيب البكري كبير مستشاري فيصل، وعضو اللجنة التنفيذية للنادي العربي في دمشق. وكان البكري قد جال في أنحاء حوران كافة إبان الحرب ووزع الأموال على مشايخ الدروز باسم الثورة العربية. وبعد دخول الجيش العربي إلى دمشق، عاد البكري من جديد للاضطلاع بدور الوسيط وهذه المرة بين الحكومة العربية والمنظمات السياسية غير الحكومية. وخصص بصفته هذه أموالًا توافرت له بفضل «حساب المخابرات السرية» التابع للحكومة من أجل تحقيق مجموعة متنوعة من الأهداف

---

(9) على الرغم من أن وظيفتهم كانت تتطلب أن يتصرفوا وكأنهم عينا الحكومة وأُذناها، إلا أن بعض المخاتير قد انضموا إلى اللجان الشعبية أو عملوا معها. يُنظر: المكتبة السلفية، القاهرة: ملف لجنة الدفاع، رسالة إلى القصاب، 18 كانون الأول/ ديسمبر 1919؛ يُنظر: المكتبة السلفية، القاهرة: ملف اللجنة الوطنية، قائد فوج (؟) إلى رئاسة اللجنة الوطنية، 20 كانون الأول/ ديسمبر 1919؛ AD 2430/dossier confidentiel-départ/634, Cousse to HC, 24 October 1919; FO 371/5076/E8007, «Note by Miss G. L. Bell - May 22, 1920,» 24 October 1919;

ووفقًا للوثائق المذكورة أعلاه، فقد شارك مخاتير من دير عطية، وقارة، ودير الزور، ومن أحياء دمشق العمارة، والميدان، والصالحية في أنشطة اللجنة الوطنية العليا أو فروعها أو لجنة الدفاع الوطني المحلية.

السرية[10]. وغداة اجتماع مخاتير دمشق بالبكري، أخذ هؤلاء المخاتير يوزعون عريضتين في أحيائهم، تتضمن إحداهما الاحتجاج على تصريحات بيشون، بينما تؤكد الأخرى اختيار فيصل ممثلًا للأمة في مؤتمر السلام[11]. ووفقًا لتقرير فرنسي، فإن اللجنة التنفيذية للنادي العربي كانت هي التي تولت صياغة هاتين العريضتين. كما شككت المصادر البريطانية بمصداقيتهما، ولم تكتفِ بالشكوى من جمع المخاتير التواقيع بمرافقة رجال الدرك، وإنما تذمرت أيضًا من أن هؤلاء قد زوروا التواقيع في هاتين العريضتين ومهروهما بأختام كان أصحابها من السكان المحليين قد تركوها في عهدتهم بغية الحفاظ عليها. وقد تلقى ضابط الارتباط الفرنسي ما مجموعه 200 من هذه العرائض ليحيلها إلى حكومة بلاده، بينما جمع زميله البريطاني 350 عريضة[12]. وكانت العرائض هذه متشابهة إلى أبعد حد مما جعل الممثل البريطاني يكتفي بإرسال عينة من العرائض الاحتجاجية على تصريحات بيشون إلى رؤسائه في لندن:

> نحن السوريين وغير السوريين من سكان المناطق المحررة، ننكر كافة أوجه الاختلاف القائمة على أساس الطبقة والدين، ونحتج بأن الحقوق العلمانية التي تطالب بها فرنسا لا أساس لها على الإطلاق، ونرفض أن يكون لأي أمة أي حق مهما كان – قديمًا أم حديثًا – داخل حدود وطننا. ولا يمكن للعلاقات الاقتصادية القائمة على حرية التجارة أن تشكل أي حق يُمارس على السكان، أو حريتهم، أو استقلالهم الوطني.

---

(10) محمود الجركس، **الدليل المصور للبلاد العربية** (دمشق، 1930)، ج 1، ص 62–63؛ المكتبة السلفية، القاهرة: ملف اللجنة الوطنية، فوزي ونسيب البكري إلى اللجنة الوطنية العليا [د. ت.]؛ AD 2367/10/1/117, Cousse to HC, 5 February 1919; DU SA 493/13/25-35, Shuqayr to Waters-Taylor, 3 September 1919; AD 2380/5/67/386, 'Ali Rida al-Rikabi to Military Governor of Aleppo, 17 February 1920; MAE L:SL/vol. 12/32-38, Cousse to HC, n.d.

(11) كان فيصل قد أرسل برقية إلى شقيقه زيد في دمشق تتضمن مطالبته بأن يحيل إليه في باريس هذه العرائض التي تفوضه العمل ممثلًا للعرب. وجاءت الاحتجاجات المناهضة لبيشون في أعقاب هذا الطلب. للاطلاع على موافقة فيصل على الحملة المذكورة أعلاه، يُنظر: سليمان موسى، **المراسلات التاريخية**، ج 2: 1919 (عمان، 1975)، ص 61.

(12) MAE L:SL/vol. 10/19-23, Cousse to HC, 12 February 1919; MAE L:SL/vol. 9/240, Picot to MAE, 13 February 1919; AD 2367/10/1/181, Cousse to HC, 5 March 1919; AD 2430/no no., Cousse to HC, 18 March 1919.

وعلى اعتبار أن كل سياسي عظيم وبخاصة رئيس الولايات المتحدة الأفخم قد أعلن أنه لم يجرِ خوض غمار هذه الحرب سوى من أجل غاية وحيدة تتمثل في حرية الشعوب وإلغاء المعاهدات التي تهدد حرية الأمم الصغيرة [،] تلك المعاهدات التي أبرمت من دون موافقتنا ولن نقرها [؟ عبارة سقطت من الأصل]. وحينما انضمت أمتنا إلى الحلفاء لم يكن لديها أي مطلب سوى القتال من أجل استقلالها. إننا نحتج بكل ذرة من كياننا على الإعلان الذي طالعنا به معالي وزير خارجية الجمهورية الفرنسية، وكلنا ثقة أن الحلفاء سوف يمدون لنا يد العون في الدفاع عن حقوقنا والحصول على استقلالنا[13].

إن الصياغة والمطالب المتماثلة الواردة في العرائض تلك تقيم البينة على أن الاتهامات الموجهة إلى فرنسا قد انبثقت جميعها من مصدر واحد.

استكملت الحكومة العربية الجهود التي بذلها المخاتير من طريق طلبها إلى النقابات الحرفية مد يد العون من أجل نشر العرائض وتضخيم الحشود في التظاهرات. ومع بداية القرن العشرين، كانت سلطة النقابات ومسؤولياتها قد تقلصت إلى حد كبير من جراء السيرورتين التوأمين المتمثلتين بتنشيط الإدارة العثمانية وتسارع اندماج الإمبراطورية في النظام الرأسمالي العالمي. لكن حتى لو لم يكن بإمكان النقابات في دمشق، كما اشتكى أحد المراقبين المعاصرين، أن تضمن الحد الأدنى من الكفاية المهنية لدى أعضائها، بيد أنه ما زال بوسعها أداء مجموعة متنوعة من وظائف الدعم والرعاية الاجتماعية وتوفير شبكة اتصال داخل الأحياء وفي ما بينها[14]. وكان أرباب كل حرفة من الحرف في دمشق، على سبيل المثال، يعدون بمثابة قنوات مهمة لنشر الأخبار والمعلومات. وكانت جولتهم الدورية تشمل الأحياء أو المناطق التي يقيمون فيها حيث يجتمعون كل أسبوع في منزل عضو مختلف من أعضاء النقابة ويناقشون الشؤون الخاصة والعامة. وبعد زيارة آخر منزل في جولتهم الدورية تلك، يعود أرباب الحرفة إلى زيارة أول منزل ويستأنفون بذلك العملية من جديد[15].

---

(13) FO 371/4179/47227/74. Clayton to Balfour, 18 March 1919.

(14) العلاف، دمشق، ص 137.

(15) يذكر حسن الأمين في مذكراته أن ثلاثة اجتماعات دورية عقدت في حي الخراب الذي كان يقطن فيه. يُنظر: حسن الأمين، **ذكريات**، ج 1: **من الطفولة إلى الصبا** (بيروت، 1973)، ص 38-43.

سعت الحكومة العربية وحلفاؤها في المنظمات مثل النادي العربي إلى الإفادة من الشبكات الجاهزة هذه باستخدام النقابات باعتبارها من الركائز التي تقوم عليها التظاهرات والاجتماعات الحاشدة[16]. إذ اضطلعت النقابات، على سبيل المثال، بدور أساسي في التظاهرة التي أقامتها بلدية دمشق من أجل تحية الأمير فيصل واستقباله لدى عودته من فرنسا في مطلع شهر أيار/ مايو من عام 1919. فقد أوعز المجلس البلدي للنقابات بالاجتماع على طول ضفة نهر بردى وفقًا لترتيب محدد سلفًا، بدءًا بالصياغ، وتجار الحبوب، وتجار الجلود، مرورًا بالمنجدين، وأصحاب الخانات والفنادق، وعمال المطاحن، والصباغين، والإسكافيين، وأصحاب المقاهي، والسائقين، وصانعي السروج، وصانعي النشاء، والحدادين، والحلاقين، والنجارين، وأصحاب الحمامات، وبائعي الخضار، وصانعي الحلويات، والخبازين، والميكانيكيين، وصانعي الأحذية، وتجار العرقسوس، والسمكريين، وعمال الحديد، والجزارين، وصانعي الفخار، والنساجين، والعاملين في المطابع، وصانعي المعجنات، وتجار القمح، وانتهاء بتجار سوق الأروام، وسوق البزورية، وسوق العطارين. وأصدرت الحكومة توجيهاتها بأنه يتعين على كل نقابة من النقابات المشاركة في التظاهرات أن تحمل علمًا كتبت عليه عبارة «يحيا الاستقلال العربي» ويتضمن اسم النقابة أو المهنة، وقد كتب، أو ألصق، أو أرفق في الأسفل. وقد طلب إلى أعضاء النقابات أن يؤدوا التحية للأمير حينما يمر أمامهم بترديدهم الهتافات «يحيا الأمير!» و«يحيا الاستقلال العربي التام!» بصيحات ملؤها التهليل. ولكي تضمن البلدية امتثالهم للتوجيهات تلك حذرتهم من أنها سوف تكلف الشرطة بمراقبة أنشطة المتظاهرين في نقاط استراتيجية[17].

---

(16) يُنظر، على سبيل المثال: **العاصمة**، 11 أيلول/ سبتمبر 1919، ص 4-6؛ AD 2430/dossier confidentiel-départ/240, Cousse to HC, 11 August 1919.

شجعت اللجان الشعبية أيضًا على مشاركة النقابات في مسيراتها وتظاهراتها. يُنظر، على سبيل المثال، وصف كامل القصاب لتظاهرة نظمت في 17 كانون الثاني/ يناير 1920 في صحيفة **الكوكب**، 27 كانون الثاني/ يناير 1920، ص 5.

(17) MAE L:AH/vol. 4/237-238, Picot to Pichon, 22 May 1919 (in Arabic and French).

بغية تيسير مراقبة الحكومة العربية للنقابات، أشرفت على إعادة تنظيم صفوف النقابات القائمة وقررت إحداث نقابات جديدة[18]. وعلى الرغم من قلة المعلومات المتوافرة عن الموقف الذي اتخذه معظم أعضاء النقابات تجاه إعادة هيكلة جمعياتهم وتسييسها، إلا أن ثمة دليلًا على أن بعض الأعضاء، وخاصة أولئك الذين ينتمون إلى الأقليات الدينية، كانوا أقل حماسةً لأنشطة الحكومة العربية وحلفائها. ولئن مثَّل أكثر من خمسين شخصًا النقابات أمام لجنة كينغ - كرين حينما زارت دمشق (وأدلوا في معظم الحالات بشهادات مؤيدة لبرنامج دمشق الذي أصدره المؤتمر السوري العام)، إلا أن اللجنة تلقت عريضة من مسيحيي حلب تضمنت التشكيك بأهلية مثل هذه الجمعيات، وتذمر هؤلاء من أن «[النادي العربي] قد نظم، بمساعدة من الحكومة، النقابات التي ينبغي أن تمثل أمامكم وتتحدث باسم الحرفيين والصناع».

> بوسعكم أن تتحققوا، بامتحان بسيط، أن هذه النقابات لا تعدو أن تكون مجموعات صغيرة معترف بها من جانب النادي العربي بغية تأييد آرائه. ويتألف هذا النادي وتلك النقابات من المسلمين حصرًا، على الرغم من أن المسيحيين أو اليهود يمارسون عددًا كبيرًا من الحرف بشكل شبه كامل[19].

على غرار ما فعلته الحكومة العربية مع أعضاء النقابات، فقد عملت على

(18) يُنظر: خليل مردم بك، **دمشق والقدس في العشرينات**، شرحه وقدم له عدنان مردم بك (بيروت، 1978)، ص 6. وقد جرت الإشارة إلى ذلك أيضًا في المنشور المكون من ورقة ذات قطع كبير مطبوعة على وجه واحد الذي نشر في جميع أنحاء دمشق من جانب المجلس البلدي عشية التظاهرة التي وصفت للتو: «يتعين على التجار أو الصُنّاع الذين لم يشكلوا نقاباتهم بعد أن يوفدوا مندوبيهم الذين سيتجمعون في الجزء الخلفي من النقابات الآنفة الذكر وأن يعملوا بمقتضى الشروط المنصوص عليها في البرنامج الراهن».

(19) MAE L:SL/vol. 43/24-32, «Rapport des Syriens Catholiques et Orthodoxes d'Alep,» 18 July 1919;

يُنظر أيضًا: Harry N. Howard, *The King-Crane Commission: An American Inquiry in the Middle East* (Beirut, 1963), p. 120;

لم يكن النادي العربي المنظمة السياسية الوحيدة التي أدركت قيمة النقابات في السياسة. فقد طالب برنامج الحزب الوطني السوري بـ «السعي لتحسين النظام الاجتماعي بتأسيس صناديق التعاون الاقتصادي والخيري وتنشيط النقابات التجارية وجمعيات العمال». محمد حرب فرزات، **الحياة الحزبية في سوريا: دراسة تاريخية لنشأة الأحزاب السياسية وتطورها بين 1908-1955** (دمشق، 1955)، ص 77.

حشد المعلمين وتلاميذ المدارس من أجل تظاهراتها واحتفالاتها، وفي وقت مبكر من ربيع عام 1919، أصبح تلاميذ المدارس - الذين كان يجري حشدهم على نحو منفصل أحيانًا، ومع مجموعات أخرى سواهم في أحيان أخرى - مكونًا يظهر بانتظام في الحشود المدينية التي تجتمع للاحتفال بالأمير أو بسياسة الحكومة العربية[20]. ولكن لما كانت طموحات الحكومة العربية والمتنورين لا تقتصر على حشد الشبان في أنشطتهم فحسب، وإنما ترمي إلى غرس محموعة متنوعة من النزعات القومية خاصة بهم في أذهانهم أيضًا، فقد اتسع نطاق الاهتمام الذي أبدته الحكومة وحلفاؤها تجاه تلاميذ المدارس إلى ما يتجاوز المناسبات الاحتفالية. فتولت الحكومة العربية، على سبيل المثال، رعاية مؤتمرات أقيمت (من قبيل المفارقة) في المدرسة الكاملية والمدارس العادية بهدف تعريف الإداريين والمعلمين بمنهاج دراسي وضع بإشراف من الحكومة، ليتسنى لهم أن ينشروه، بدورهم، بين معلمي المدارس الابتدائية الآخرين[21]. وغداة هذا الاجتماع، صدرت التعليمات بأنه يتعين على تلاميذ المدارس في جميع أنحاء هذه المنطقة استظهار المدائح بحق سورية وقيم المتنورين. ومن ذلك على سبيل المثال،

1. صليل الظبى وصرير القلم — لفك القيود وكشف الظلم
بـدونـهـمـا لا فـلاح لنـا — فـهـذا وذاك حيـاة الأمـم
2. نـحـن فـتـيـان الجـزيـرة — نـحـن شـبـاب البـلاد
قـد ورثنـا مجـدًا عـريقًا — في الـورى من عهـد عـاد
3. أنـت سـوريـة بـلادي — أنـت عـنـوان الفـخـامـة
كـل مـن يـأتـيـك يـومًا — طـامـعًا يـلقـى حمـامـه

(20) AD 2430, Cousse to Dame, 18 March 1920;
يُنظر أيضًا: FO 371/4181/89850/24, Clayton to Curzon, 17 June 1920.

(21) **العاصمة**، 27 حزيران/ يونيو 1919، ص 4. لا يعرف مدى الفاعلية الإجمالية للجهود التي بذلتها الحكومة.

4. نحن خواضو غمار الموت كشافو المحن، ما لنا غير اكتساء العز أو لبس الكفن[22]

كانت المدارس الخاصة والجمعيات السياسية غير الحكومية تشجع أيضًا على «التعليم الوطني». ففي شهر تشرين الأول/ أكتوبر من عام 1919، زارت غيرترود بيل مدرسة بنات الشهداء، وهي مدرسة خاصة تأسست في دمشق ومولت بتبرعات خيرية. وقد ضمت المدرسة في عداد طالباتها البنات اليتيمات اللواتي كان آباؤهن من أفراد الجيش العربي ولقوا مصرعهم في أثناء الثورة العربية، إضافةً إلى فتيات تتراوح أعمارهن ما بين السادسة عشرة والثامنة عشرة، وينتمين إلى «أسر دمشقية كريمة». وتضمن التقرير الذي أعدته بيل وصفًا لحفل أقيم بحضورها:

> أخرجت الفتيات والبنات الصغيرات إلى الحديقة الواسعة التي تحيط بالمنزل لينشدن الأغاني الوطنية. وأنشدت جوقة من الفتيات الأكبر سنًا أغنية موجهة إلى اليتيمات تضمنت تذكير كل واحدة منهن بأن أباها قد لقي مصرعه في سبيل الحرية، وبألا تنسى أنها «ابنة العربي» فردت الصغيرات بأنهن لن ينسين أبدًا مولدهن، أو الملك حسين الذي قاتل دفاعًا عن قومهن، وليس أخيرًا (وكان هذا المقطع الشعري قد أُعد خصيصًا من أجل اللجنة الأميركية) الرئيس ويلسون الذي وضع مبادئ الحرية وصانها[23].

لما كانت المهمة العامة المناطة بالنادي العربي تتمثل في الارتقاء بسورية إلى مصاف الأمم «المتحضرة» وغرس القيم القومية في أذهان السكان، فقد تولت فروع النادي المحلية تدريس الوطنية في أرجاء المنطقة الشرقية كافة وما وراءها. وقد اشتكى عميل بريطاني في القدس من أن النادي العربي والمنتدى الأدبي «يعلمان كلاهما الأطفال مثل الوحدة العربية، ولا سيما في مدرستي الرشيدية وروضة المعارف»، بينما كان النادي العربي في دمشق، يتولى في كل خميس، بعد انتهاء الدوام الرسمي وبدء يوم العطلة الأسبوعية تشجيع تلاميذ المدارس على التجوال في أنحاء المدينة كافة وهم يتغنون بمديح أشراف مكة:

---

(22) رضا صافي، على جناح الذكرى (دمشق، 1982)، ج 1، ص 231.

(23) IO L/PS/10/802, Gertrude Bell, «Syria in October 1919,» 15 November 1919.

أيـهـا المـولـى العـظيـم فـخـر كـل العـرب

ملكـك الملـك الفخيـم ملـك جـدك، النبـي[24]

كانت إحدى المدارس على وجه الخصوص معقلًا للتنظيم الوطني. فقد تأسس مكتب عنبر (الذي تبدل اسمه فأصبح التجهيز في شتاء عام 1918) بوصفه المدرسة الثانوية الحكومية الوحيدة في دمشق. وكانت تتولى سنويًا تعليم ما لا يقل عن ستمئة طالب (وكثيرًا ما كانت تستضيفهم) في أواخر العهد العثماني وقبيل اندلاع الحرب العالمية الأولى مباشرة. وعلى الرغم من أن هؤلاء الطلبة قد وفدوا من البلدات والقرى النائية وكذلك من المناطق المحلية، بيد أنه كان ثمة علاقة وثيقة بين المدرسة والتجار الأكثر ثراء في سوق الحميدية ممن كانوا يسجلون أبناءهم في كثير من الأحيان فيها. وكانت التظاهرات التي يتولى تنظيمها مدرسوها وتتكون في معظمها من الطلبة، تنطلق من التجهيز وتشق طريقها عبر السوق، وغالبًا ما تختتم مسيرتها عند سرايا الأمير<دار الإمارة>. وعلى طول الطريق الذي كان يسلكه موكبهم، وفقًا لأحد المشاركين فيها، «كان سكان المدينة» ينضمون إلى المسيرة، ويرددون الشعارات التي كانت تكتب ويجري التدرب عليها في المدرسة[25].

مع تصاعد حدة التوترات على طول الحدود التي تفصل ما بين المنطقتين الشرقية والساحلية إبان أزمة الاستبدال وما بعدها، استجاب المدرسون والطلبة في التجهيز، شأنهم شأن الكثير من الدمشقيين للجو السائد في المدينة الذي اتسم بطابع عسكري على نحو متزايد باتخاذ الاستعدادات للحرب. وكان الشيخ

(24) علي سلطان، **تاريخ سورية 1918-1920: حكم فيصل بن الحسين** (دمشق، 1987)، ص 108.

(25) Philip S. Khoury, *Syria and the French Mandate: The Politics of Arab Nationalism, 1920-1945* (Princeton, 1987), pp. 410-412;

فخري البارودي، **مذكرات البارودي** (بيروت، 1951)، ج 1، ص 30-31؛ ظافر القاسمي، **مكتب عنبر: صور وذكريات من حياتنا الثقافية والسياسية والاجتماعية** (بيروت، 1964)؛ مقابلة مع كامل دغمش، 2 تشرين الثاني/ نوفمبر 1989؛ مقابلة مع عبد الكريم اليافي (أحد خريجي مدرسة التجهيز)، 21 تشرين الثاني/ نوفمبر 1989. مقابلة مع إحسان حقي، 10 تشرين الثاني/ نوفمبر 1989.

عبد القادر المبارك، على سبيل المثال، وهو مدرس للغة العربية في كل من التجهيز والمدرسة الحربية، قد يسر نقل الطلبة من المدرسة الأولى إلى الثانية. وبحلول ربيع عام 1920، أشار أحد المراقبين إلى أن المدرسين والطلبة قد حولوا التجهيز «إلى ثكنة عسكرية»، وجرى توزيع الأسلحة على الطلبة الذين استخدموها في تدريباتهم اليومية، وقد أفاد في وقت لاحق أحد طلبة هذه المدرسة في تلك الفترة، ألا وهو جميل صليبا: «[كنا ونحن طلبة] ننام وبندقيتنا إلى جانب سريرنا». وقد تجمعت كتيبة من طلبة المدرسة في ما بعد ليقاتلوا بوصفهم متطوعين في معركة ميسلون[26].

لم يكن المتنورون الجماعة الوحيدة في سورية الفيصلية التي أدركت إمكان الربط ما بين الأنشطة التعليمية والتنظيمات القومية. إذ ربط الكثير من العلماء، وبخاصة أولئك الذين كانوا من أعضاء اللجان الشعبية، بينهما. ونتيجة لذلك، حذت حذوهم حتى تلك المنظمات الوطنية المعادية لسياسات الحكومة ومثل المتنورين، وبات هؤلاء ينافسون الحكومة والنادي العربي في حشد الطلبة في الأنشطة السياسية. ولم تكتف اللجان الشعبية بجمع التبرعات من تلاميذ المدارس، بل جندت المتطوعين من بين الطلبة الأكبر سنًا من أجل تدريبهم في الميليشيات المحلية. وفي دمشق، تولى المدرسون في مدارس تحفيظ القرآن، وأبرزهم أولئك الذين كانوا يعملون في جامع تنكز والمسجد الأموي، إحضار طلبتهم إلى التظاهرات التي ترعاها اللجنة الوطنية العليا ومنتسبيها. وكان الكثير من هؤلاء الطلبة، شأنهم في ذلك شأن طلبة التجهيز، قد وفدوا إلى العاصمة من القرى المحيطة بها[27].

---

(26) منير الريس، **الكتاب الذهبي للثورة الوطنية في المشرق العربي: الثورة السورية الكبرى** (بيروت، 1969)، ص 103؛ القاسمي، **مكتب عنبر**، ص 102-103.

(27) مقابلة مع عبد الكريم اليافي، 21 تشرين الثاني/ نوفمبر 1989؛ FO 371/4182/125609/M56, «Arab Movement and Zionism,» Major J. N. Camp (Jerusalem) to CPO, Cairo, 26 August 1919; **الكوكب**، 16 كانون الأول/ ديسمبر 1919، ص 11؛ **الكوكب**، 6 كانون الثاني/ يناير 1920، ص 10؛ محمد عزة دروزة، **مذكرات وتسجيلات** (دمشق، 1984)، ج 2، ص 26؛ أكرم حسن العلبي، **خطط دمشق: دراسة تاريخية شاملة** (دمشق، 1989)، ص 62-63.

لئن كانت فعالية المحاولة المبذولة من جانب الحكومة العربية، التي لم تعمر طويلًا وتعاني من ضائقة مالية، وشتى الجمعيات القومية الرامية إلى استخدام المدارس من أجل غرس القيم الوطنية في أذهان الفتيان تعد مسألة ينبغي أن تظل خاضعة للتأويل، إلا أن أحد أصحاب المذكرات قد ترك لنا سجلًا يعرض لتجربته بوصفه أحد التلاميذ الذين جرى حشدهم من أجل المشاركة في تظاهرة نظمتها الحكومة. فقد كان رضا صافي طالبًا في المدرسة الحسينية السلطانية في حمص حينما زار المدينة الأمير فيصل، الذي كان قد توج للتو ملكًا على سورية، ليتقبل مبايعة سكانها له. فاتخذ الطلبة من مدارس المدينة كافة مواقعهم تحت إشراف معلميهم على طول طريق سير الموكب. وكما هو متوقع، فإن الذي ترك الانطباع الأقوى لدى الفتى صافي لم يكن الأهمية السياسية للحدث بل أبهة موكب الأمير، والمنظر العادي للملك المخيب للآمال، وذلك القصاص الذي قد ينزل بالتلميذ إن لم يحسن الإمساك بالعلم الصغير الذي سلم لكل طفل:

> وكان على كل تلميذ أن يحتفظ بعلمه عموديًا مرفرفًا، وكانت عقوبة المتهاون في ذلك أن ينتزع العلم منه – لأنه غير جدير بشرف حمل العلم العربي – وإن أنسى <أنسَ> لا [فلا] أنسى الدموع التي كان يذرفها من يتعرض لهذه العقوبة ولا تشبثه بالعلم الذي يحمله، ولا وعوده الموثقة بأغلظ الأيمان بأنه «سيكون جديرًا بهذا الشرف، وسيحافظ على علمه المفدى مرفوعًا مرفرفًا أبدًا»[28].

لعل الصحافة كانت تمثل أيسر الوسائل التي أفادت منها الحكومة في نشر المعلومات وتعبئة السكان وأقلها تكلفة. إذ تنشر الصحف المتعاطفة مع الحكومة أو الخاضعة لسيطرتها الإعلانات عن الاحتفالات العامة، والإيعازات الموجهة إلى المشاركين فيها، والطرائق التي يجب أن تسلكها **المواكب**، فضلًا عن نصوص الكلمات التي تلقى، والعرائض التي تؤيد مطالب المتظاهرين، والقصائد الوطنية التي تعلي من شأن القضية أو العيد الذي يحتفلون به. وكانت حملات الصحف تستمر أيامًا أو حتى أسابيع من أجل تغطية المناسبات ذات الأهمية الخاصة مثل عودة فيصل إلى دمشق بعد حضوره مؤتمر باريس في ربيع عام 1919، ووصول

(28) صافي، **على جناح**، ج 1، ص 233–234.

لجنة كينغ – كرين إلى دمشق، وعودة المؤتمر السوري العام إلى الانعقاد، وإعلان استقلال سورية وتتويج فيصل ملكًا عليها.

على الرغم من أن معدل الإلمام بالكتابة والقراءة كان منخفضًا في سورية، ولا سيما في الريف[29]، ولئن كان عدد النسخ المطبوعة من كل صحيفة يجري تداولها ضئيلًا، إلا أن الصحف اضطلعت بدور مهم في التعبئة. وكان جليًا أن الحكومة العربية والمتنورين الذين يكتبون في الجريدة الرسمية، **العاصمة**، كانوا يأملون بأن يؤثروا ويوجهوا أنشطة أولئك المتعلمين السوريين الذين كان مُتصوَّرًا أن تحقيق تعبئة شعبية ونشر أيديولوجيا قومية يعتمد عليهم؛ وذلك من طريق نشر هذه الجريدة تفسيرات للنزعة القومية وسواها من الموضوعات التي تتواءم والسياسات التي تنتهجها الحكومة العربية، والرواية الخاصة بها للأحداث. ولما كان لزامًا على موظفي الحكومة كافة الذين يتقاضون رواتب تزيد على ألف قرش أن يشتركوا في جريدة **العاصمة**، فقد استحوذت الحكومة على ما كان، في الواقع، جمهورًا مقيدًا. وعلاوة على ذلك، وبما أن موظفي الرقابة لدى الحكومة كانوا يمنعون الصحف الأخرى من نشر الأخبار المحلية قبل أن يجري نشرها أولًا في **العاصمة**، فقد تمكنت الحكومة العربية بذلك من أن تنسج «رواياتها» للأحداث قبل أن يتمكن منافسوها من فعل ذلك[30].

لم يقتصر تأثير الصحف على المتعلمين وحسب، على أي حال: إذ لم تكن الصحف المتداولة تقرأ بصوت مرتفع في الأماكن غير الرسمية مثل المقاهي فحسب، ولكن مما أزعج الدبلوماسيين الفرنسيين المعينين في دمشق إلى حد كبير، أن باعة الصحف وموزعيها كانوا يصيحون من على نواصي الطرقات

---

(29) وفقًا للبيانات الفرنسية التي تراكمت بعد عشرة أعوام من بدء احتلالها لأراضي سورية الداخلية، فإنه لم يكن سوى 28 في المئة من مجموع سكان دولة سورية في عداد الملمّين بالقراءة والكتابة. وأما في جبل الدروز فقد بلغت نسبة الملمين بالقراءة والكتابة 6 في المئة. Khoury, *Syria and the French Mandate*, p. 411;

وأفاد تقرير فرنسي صادر بعد عامين من احتلال الأراضي السورية أن نسبة الملمين بالقراءة والكتابة كانت أعلى بكثير. يُنظر: Haut-commissariat de la République Française en Syrie et au Liban, *La Syrie et le Liban en 1922* (Paris, 1922).

(30) **الكوكب**، 11 آذار/ مارس 1919، ص 12.

وهم يرددون العناوين الرئيسة لأحدث طبعاتها - ولا سيما تلك التي كانت ذات طابع استفزازي على وجه الخصوص أو فاضح على غرار تلك التي تأتي على ذكر الفظائع التي يرتكبها الجنود الفرنسيون. وقد وجدت الحكومة الفرنسية أن هذه الممارسات مزعجة للغاية، مما جعلها تتقدم بشكوى رسمية إلى الحكومة العربية، مطالبة إياها باتخاذ خطوات لإيقافها. وبعد تلقيها الشكوى هذه، هددت الحكومة العربية باعتقال الباعة الذين يرفعون أصواتهم عاليًا، وهم يرددون أسماء تلك الصحف التي يبيعونها[31]. بل إن الصحف كانت تضطلع في بعض الأحيان بوظيفة اللافتات، إذ تطبع الشعارات (باللغة الإنكليزية أو الفرنسية) وتجعلها تتصدر عناوينها في صفحة واحدة أو في جانب من صفحتين متقابلتين بغية نشرها على شكل منشور مكون من ورقة ذات قطع كبير مطبوعة على وجه واحد أو من أجل حملها عاليًا بوصفها يافطة في التظاهرات.

لئن لم يشارك ناشرو الصحف ورؤساء التحرير جميعهم في الجهود الترويجية لمصلحة الحكومة العربية، إلا أن الدافع وراء مشاركة بعضهم لم يكن مصدره دومًا قناعاتهم الشخصية أو ولاءهم لأشراف مكة. وقد سعت الحكومة إلى الحصول على تأييد الصحافيين لها باستخدام أسلوب الجزرة والعصا في آن. كما قدمت الحوافز النقدية إلى الناشرين ورؤساء التحرير لكي ينشروا مقالات وافتتاحيات تحظى باستحسانها. وتتضمن سجلات، سعيد شقير، المستشار

(31) MAE L:SL/vol. 56/147, Cousse to M. l'administrateur en chef, 22 July 1919; MD 4H1/5, Commandants Sciard, Gérard, «Rapport avec annotations sur un voyage en Syrie (29 Juin-25 Juillet 1919) et compte rendu sur la situation au Levant»; MAE L:SL/vol. 56/220/152, Cousse to Picot, 1 August 1919; كان «الانتهاك من جانب الجنود» أحد العناوين الرئيسة المعتادة التي ظهرت في صحيفة الراية الحلبية. وقد نشرت القصة التالية أدناه: «يعد حي الرميلة واحدًا من أجمل أحياء بيروت. ويقع هذا الحي، الذي تقطنه خيرة الأسر المسيحية، عند الطرف المتاخم للبحر. وتتمركز في هذا الحي قوة عسكرية فرنسية بدأ جنودها من فورهم في نهب المنازل ليلًا ومطاردة النساء في وضح النهار، ومخاطبتهن بصورة تفتقر إلى التهذيب. وقد استثار هذا التصرف الهمجي سكان هذا الحي وحثهم على اتخاذ بعض الإجراءات، فتقدموا بشكوى إلى زعيم الحي الذي نقل شكواهم إلى المجلس الإداري، الذي يتولى الجنرال غورو الإشراف عليه. هل تعلمون ما الذي حصل؟ لقد حفظت الشكوى لأنه لم يجرؤ أحد على التحدث عن هذه المسألة مع الفاتح العظيم. ويوصي الآن أحد سكان الحي الآخرين بالهجرة إلى مصر أو أمريكا وبرفقتهم عائلاتهم!» MD 4H112/dossier 2b, 18 April 1920.

المالي لدى الحكومة العربية قوائم بالمخصصات المالية المرصودة لهذا الغرض، ومن بينها منحة بقيمة 480 جنيهًا مصريًا من حسابات جهاز المخابرات الخاص بالأمير قدمت الى مالكي الصحف؛ وقد سجلت «النفقات غير المنتظمة أو الاستثنائية» المرصودة للغرض نفسه المبالغ التالية 450، 400، 415 جنيهًا مصريًا في أشهر كانون الثاني/ يناير، وأيار/ مايو، وحزيران/ يونيو من عام 1919، على التوالي؛ وقدمت دفعات بقيمة 200 جنيه مصري إلى محمد كرد علي رئيس تحرير **المقتبس**، و85 جنيهًا مصريًا الى مدير تحرير صحيفة أخرى من صندوق «تبرعات» خاص. وكشفت مصادر أخرى عن تقديم مبلغ 200 جنيه مصري إلى حبيب كحالة مالك صحيفة **سورية الجديدة**، و150 جنيهًا مصريًا إلى رشدي الصالح ومعروف الأرناؤوط المالكين لصحيفة **استقلال العرب**. وأما الدفعات النقدية المقدمة إلى الصالح والأرناؤوط عشية عودة فيصل قادمًا من أوروبا، فقد مولت تكاليف توزيع خمسمئة نسخة مجانية من جريدتهما في أحياء دمشق القنوات، والميدان، والصالحية، والعمارة، وباب توما، وبيع هذه الصحيفة بأقل من تكلفتها في أحياء أخرى سواها[32].

أدت اقتصاديات نشر الصحف في سورية ما بعد الحقبة العثمانية، جزئيًا، إلى تقوية قبضة الحكومة في التعامل مع الصحافة. إذ كان متوسط عدد النسخ التي تطبعها إحدى الصحف الصادرة في دمشق 1500 نسخة، يباع منها قرابة 300 إلى 400 نسخة ويوزع الباقي مجانًا[33]. ومن دون تلقي الصحيفة إعانات مالية خارجية، فإن من شأن الطباعة وحدها أن تجعل تكلفة إصدارها باهظة. وهكذا أصبح بإمكان الحكومة العربية التي تتحكم بتوزيع مخصصات ورق الصحف ورسوم نفقات البريد والبرق، شراء النفوذ بمبلغ زهيد لا يتجاوز 25 جنيهًا مصريًا، وكمية من ورق الصحف، وتفيد التقارير أن هذا السعر قد عرضته وزارة الداخلية

---

(32) DU SA 493/13/2, 4, 5, Letter from Shuqayr to Waters-Taylor: Appendices B, D, E, 3 September 1919; MAE L:SL/vol. 5/58-61, Mercier to HC, 20 November 1918; AD 2368/10/2/66, Cousse to HC, 21 January 1919; MAE L:SL/vol. 12/32-39, Cousse to HC, 6 April 1919;

فخري نوري الكيلاني، «قِرَاءة في ملف الصحافة بين عامي 1727 و1928 في بلاد الشام» [د. م.، د. ت.] (مخطوطة مكتوبة بخط اليد).

(33) AD 2368/10/2/56, Cousse to HC, 18 January 1919.

على ناشري الصحف في حزيران/ يونيو من عام 1920. ولا غرابة، عندئذ، في أنه بعدما رفض أصحاب صحف **سورية الجديدة**، و**الكنانة**، و**لسان العرب** عرض الحكومة منحهم إعانات مالية، توقع المندوب الفرنسي لدى الحكومة العربية بأن التهديد بمراقبة المطبوعات ونقص الورق سوف يثبط من عزيمة هؤلاء[34].

جعلت معدلات الأثمان المدفوعة لشراء <ولاء> الصحافيين والصحف الإغراءات المقدمة إليهم أمرًا لا سبيل إلى مقاومته، وانضم عدد من المندوبين الأجانب ومختلف الجمعيات السياسية (مثل النادي العربي في حلب الذي كان يشرف على إصدار صحيفتين) إلى الحكومة العربية في عملية شراء التأثير. وكان الفرنسيون، الذين لم تقتصر رغبتهم على مجابهة الوطنيين والدعاية الكمالية فحسب، بل يرغبون أيضًا في وضع بيانات اقتصادية زائفة تظهر التناقض ما بين الرخاء في الساحل والمحنة التي تواجهها المنطقة الشرقية، وقدموا منحًا مالية إلى تسع صحف، في الأقل. وبذلك كان الصحافيون المغامرون، أمثال محمد كرد علي وحبيب كحالة قادرين على رفد الدعم الذي يتلقونه من الحكومة العربية بمكافآت مالية من فرنسا، في حين، أن إبراهيم حلمي <العمر>، وهو صحافي لا يقل مغامرة عنهما، وبعد خوضه غمار مغامرة الاستقلال المالي لمدة وجيزة، عرض صفحات جريدته **لسان العرب** على مندوبي فرنسا وبريطانيا مقابل مبلغ زهيد قدره 100 جنيه مصري[35].

---

(34) **الكوكب**، 11 تشرين الثاني/ نوفمبر 1919، ص 11؛ MD 4H114/4/482, Cousse to Gouraud, 2 June 1920; MAE L:SL/vol. 12/32-38, Cousse to HC, 6 April 1919.

(35) AD 2430, Picot to Cousse, 2 January 1919; AD 2368/10/2/56, Cousse to HC, 18 January 1919; AD 2368/10/2/66, Cousse to HC, 21 January 1919; MAE L:SL/vol. 12/32-38, Cousse to HC, 6 April 1919; AD 2342, «Rapport sur les troubles survenus le 28 Février 1919 à Alep-1er échelon GHQ,» 14 April 1919, AD 2209/158, Pilley to Picot, 18 April 1919: AD 2343/87, Pilley to Picot, 22 May 1919, MD 7N4184/1, «Renseignements politiques,» 20 April 1920; MD 7N4184/1, «Renseignements politiques,» 20 May 1920; MD 4H114/4/594. Cousse to Gouraud, 24 June 1920,

كتبت غيرترود بيل ما يلي عن إبراهيم حلمي <العمر>: «لقد زارني مرارًا إبراهيم حلمي، وهو بغدادي يبلغ من العمر 25 عامًا أو أصغر سنًا بالأحرى، ويعمل رئيسًا لتحرير صحيفة اسمها **لسان العرب** تصدر في دمشق. وإن معرفته باللغة العربية ذات طابع أكاديمي، حتى إن الأب أنستاس <الكرملي>، وهو خير حكم في هذا الموضوع، حاول أن يحثه على العودة إلى بغداد حينما كان يتولى رئاسة تحرير الصحيفة العربية <التي تصدرها الإدارة البريطانية>. إنه موال لبريطانيا، وقد نشر في صحيفته **لسان العرب** عددًا من المقالات =

إضافةً إلى تقديم جزرة المال، اتبعت الحكومة العربية، على أي حال، خطى دول الوفاق، فلوحت أيضًا بعصا الرقابة. إذ استمرت الرقابة التي فرضتها دول الوفاق على الصحف المنشورة في المنطقة الشرقية حتى شهر تشرين الأول/ أكتوبر من عام 1919. واشتمل قانون تنظيم الصحافة لائحة بالموضوعات المسموح بنشرها وتلك المحظور نشرها: فقد سمح للصحف، مثلًا، أن تنشر المقالات التي تدعو إلى تدخل عصبة الأمم في الشؤون السورية، إما بصورة مباشرة أو عبر قوة منتدبة. وكان بمقدورها أيضًا تأييد إنشاء اتحاد فدرالي عربي وفقًا للأنموذج السويسري، طالما أنها تتضمن التوصية بأن يجري ذلك ضمن إطار نوع من أنواع اتفاقيات الوصاية. ومن ناحية أخرى، لم يكن مسموحًا للصحف إصدار بيانات تسيء إلى أي دولة من دول الوفاق، ولا يسمح لها بنشر مقالات تدعو إلى «الاستقلال التام» أو تتضمن مشاعر «الوحدوية العربية» أو «الوحدوية الإسلامية» من دون تقديم المقالات تلك أولًا لتخضع للرقابة قبل النشر(36).

واصلت الحكومة العربية انتهاج سياسة الرقابة المباشرة التي ابتدأتها دول الوفاق. وكان لزامًا على مالكي الصحف إيداع مبلغ قدره 100 جنيه مصري لدى الحكومة قبل البدء بإصدار صحفهم للاحتفاظ به، من أجل سداد أي غرامة قد تترتب عليهم في المستقبل جراء انتهاكهم لقوانين الرقابة. كما حذرت الحكومة مالكي الصحف بأنها سوف تحملهم المسؤولية عن أي مخالفات يرتكبونها.

= المؤيدة لإدارتنا. وناقش معي إمكان حصول صحيفته على إذن بتوزيعها في المناطق الخاضعة لإدارتنا، وألح على أن دعوته الصادرة من سورية سوف تحدث تأثيرًا أكبر مما لو كانت تصدر من مطبعة الحكومة في بغداد. ومن المحتمل أنه لم يفقد الأمل في تقديمنا الدعم لصحيفته **لسان العرب** في نهاية المطاف. وألمح إلى أنه سيكون على استعداد للاضطلاع بأعمال تحريرية في بغداد إذا ما قدمنا له عرضًا مغريًا بما فيه الكفاية، غير أن متطلباته لن تكون متواضعة. لكنه، مع ذلك، شاب كفوء». IO L/PS/10/802, Gertrude Bell, «Syria in October 1919,» 15 November 1919.

(36) MAE L:SL/vol. 9/214, Hornblower (Chief Censor), 13 February 1919; DU SA 493/15/74-84. Report of the «Conférence des administrateurs en chef» (Haifa), 12-14 May 1919, MAE L:SL/vo. 56/147. Cousse to M. l'administrateur en chef, 22 July 1919;

الكوكب، 14 تشرين الأول/ أكتوبر 1919، ص 10. وحتى بعد أن أوقفت قوى الوفاق الرقابة المباشرة على الصحف، غير أنها واصلت ممارسة ضغوط غير مباشرة عبر تقديم الاحتجاجات الدبلوماسية إلى الحكومة العربية في أعقاب نشر مقالات لا ترضى عنها.

وجرى حظر إصدار أي بيانات تتضمن الإساءة إلى الشريف حسين وأبنائه، والحكومة العربية، ودول الوفاق ومندوبيها، والحركة الصهيونية، من جملة موضوعات أخرى، كما هي الحال مع إعادة نشر أخبار أوردتها أولًا وكالة هافاس الفرنسية أو صحيفة **الوقت** (*Le Temps*)[37].

على الرغم من أن الحكومة العربية لم تطبق هذه الأنظمة على نحو متواصل، إلا أنه تبين أن تأثيرها في الصحافة كان مخيفًا. ففي شهر شباط/ فبراير من عام 1919، على سبيل المثال، أوقفت الحكومة نشر صحيفة **سورية الجديدة** واستدعت أصحابها من أجل المثول أمام المحكمة العسكرية لنشرهم مقالةً بعنوان «مشاهدات» قيل إنها تضمن «إهانة للمشاعر الوطنية». كما تصرفت الحكومة على نحو مماثل وفي أوقات مختلفة تجاه صحف **الدفاع**، و**لسان العرب**، و**الأردن**[38]. ولذلك فإنه من المرجح أن تكون الصحف المعارضة قد اعتمدت أسلوبًا خاصًا بها قام على استخدام السخرية بغية إخفاء انتقاداتها (كما هي الحال مع مقالة صحيفة **الدفاع**، «هل اتفق الأمير مع فرنسا في انتدابها على سورية؟ هل هذا ممكن؟» المشار إليه في الفصل الثالث) ونشرت النصوص الكاملة للخطب بدلًا من المقالات الافتتاحية - بوصفها وسيلة دفاع ضد تهم مماثلة بالقذف والافتراء.

الأعياد العامة

كانت الحكومة العربية تنظم الاحتفالات العامة في المقام الأول من طريق حشد الشبكات المشار إليها أعلاه - ألا وهي مؤسسات الحكم وموظفيها، والنقابات، والمدارس، والصحافة - إضافةً إلى أعضاء السلك العسكري، والعمل بالتعاون مع حلفائها من الجمعيات السياسية مثل النادي العربي. وقد سعت الحكومة عبر

(37) **الكوكب**، 18 شباط/ فبراير 1919، ص 1؛ **الكوكب**، 27 كانون الثاني/ يناير 1920، ص 11؛ **الكوكب**، 11 تشرين الثاني/ نوفمبر 1919، ص 11؛ MAE L:SL/vol. 56/220/152, Cousse to Picot, 1 August 1919; WO 95/4374, Copy of telegram from Cousse to Picot, 14 October 1919; MD 4H114/1/373-374, Cousse to Gouraud, 5 December 1919; MD 4H114/4/617, Cousse to Gouraud, 30 June 1920.

(38) **الكوكب**، 27 كانون الثاني/ يناير 1919، ص 11؛ **الكوكب**، 18 شباط/ فبراير 1919، ص 1. أوقفت الحكومة من جديد إصدار صحيفة **سورية الجديدة** في تشرين الثاني/ نوفمبر 1919، في أعقاب أزمة الاستبدال. **الكوكب**، 11 تشرين الثاني/ نوفمبر 1919، ص 11.

الاحتفال بمجموعة متنوعة من الأبطال الذين ذكروا صراحة (الشهداء، والأمير فيصل، وجنود الجيش العربي)، والاحتفالات بالذكرى السنوية (مثل تلك التي تحدد مواعيد انطلاق الثورة العربية، و«تحرير» دمشق، وشنق الشهداء)، والأحداث (عودة فيصل من أوروبا في أيار/ مايو من عام 1919 وكانون الثاني/ يناير من عام 1920)، إلى صياغة سردية قومية مناسبة، وتأكيد تنظيم محدد للمجتمع والجماعة السياسية، وإضفاء الطابع الشرعي على نفسها، وترسيخ القيم التي تقرنها بالقومية. وخلاصة القول إن الحكومة العربية صممت احتفالاتها على نحو تكون فيه إيذانًا ببداية نظام سياسي واجتماعي جديد.

مما لا ريب فيه أن أشراف مكة وحلفاءهم أدركوا أهمية العمل الرمزي في تعزيز مكانتهم وتأكيد شرعيتهم. وفي غضون الأيام الأربعة الأولى من ظهورهم في المدينة نشب خلاف بين أشراف مكة والشقيقين من آل الجزائري بشأن أي العلمين سيرفع - عنينا علم الثورة العربية أم العلم الذي قدمه الشريف حسين ذات مرة إلى عبد القادر الجزائري - ليرفرف فوق المدينة، وأطلق سراح بضعة آلاف من السجناء الذين زج بهم الأتراك في السجن (في عملية أدت إلى حدوث ما سماه أحد المراقبين البريطانيين على نحو ملطف «إشكالًا أمنيًا»)، وأُرسل مندوب إلى بيروت للإشراف على عملية رفع شقيقة أحد الشهداء العلم العربي في المدينة، كما أزيل إكليل ورد من البرونز كان القيصر فيلهلم الثاني قد وضعه على قبر صلاح الدين في عام 1898، وجرت تهيئة مدخلين احتفاليين. افتتح أولهما في 1 تشرين الأول/ أكتوبر من عام 1918 وسار في المقدمة الشريف ناصر، ونوري السعيد، و«مشاهير آخرون سواهما»، فوق ظهور الجياد من حي الميدان إلى السرايا وسط «حشد كثيف» من الناس الذين، وفقًا للتقارير، أمطروا الموكب «بالزهور والعطور وكل الأمارات التي تعبر عن العاطفة» تجاه أشراف مكة. وبعد يومين توجه الأمير فيصل بنفسه على رأس موكب عبر المدخل الثاني إلى العاصمة. ووفقًا لما أفاد به مراقب بريطاني رفض الأمير أن يستقل سيارة قدمت له، و«بحس قوي بالجدارة التاريخية» شق طريقه بدلًا من ذلك ممتطيًا صهوة أحد الجياد، متصدرًا حاشية يتراوح عدد أفرادها بين ألف ومئتين وألف وخمسمئة من مؤيديه. وأضاف المراقب «أن ذلك قد أثار إعجاب سكان المدينة،

بلا ريب، بحقيقة مؤداها أن وصوله على هذا النحو كان أشد حيوية من أي موكب نظامي يتألف من كتائب لا عد لها ولا حصر تتبع المرور غير المبهر لعدد من السيارات ذات القوة العالية»[39].

إضافةً إلى الاحتفالات بذكرى الشهداء التي أقيمت في جميع أنحاء البلاد (بصورة موقتة) في شهر تشرين الأول/ أكتوبر من عام 1918 و(بثقة أكبر) في شهر أيار/ مايو من عام 1920، حددت الحكومة ثلاثة مواعيد للاحتفال بالأعياد القومية: 27 نيسان/ أبريل، الذي يصادف الذكرى السنوية لانطلاق الثورة العربية (عيد الثورة)؛ و30 أيلول/ سبتمبر، الذي يوافق الذكرى السنوية لدخول الجيش العربي إلى دمشق وتحرير سورية (عيد الفتح)؛ و8 آذار/ مارس المصادف للاحتفال بإعلان استقلال سورية وتتويج فيصل ملكًا عليها (عيد الاستقلال). ونظرًا إلى إحياء الحكومة العربية ذكرى حدثين وقعا قبل تأسيسها، فإن العيدين الأولين كانا مختلفين عن العيد الأخير: إذ خلافًا لما كان عليه الحال مع الاحتفال الثالث، الذي فرضت موعده أحداث من المسلم به الاحتفال بذكراها، فقد وقع الاختيار على الاحتفال بالذكرى السنوية لكل من عيد الثورة وعيد الفتح على نحو واع من جانب حكومة عاقدة العزم على خلق التقاليد. وكما يمكن للمرء أن يتوقع، فإن الأحداث التي لم تسهم في خلق الأساطير المتعلقة بأشراف مكة – مثل انسحاب القوات العثمانية من دمشق، وتحرير القدس (على يد القوات البريطانية) ورفع أول علم عربي فوق المدينة (على يد الشقيقين من آل الجزائري) – لم يجر اختيارها لتكون بمثابة مناسبات تذكارية، بل لم تأت الصحافة على ذكرها[40].

---

(39) AD 2429/9/no no., Telegram marked HC Beyrouth, 21 October 1918; USNA 59/867.00/955, «Report of Elias Khouri, 1st Dragoman of Beirut Consulate,» 8 September 1919;
وجيه الحفار، «الحكومات التي تعاقبت على الحكم في سورية»، **الشرطة والأمن العام**، السنة 1 (3 شوال 1372هـ)، ص 18-19. الاقتباسات مأخوذة من: FO 371/3383/169562/559ff., Clayton to FO, 8 October 1918.

(40) شهدت حلب الاحتفال مبدئيًا بأول عيد للثورة في شهر أيار/ مايو 1919. ويتسم توثيقه بالضعف. ووفقًا لما أورده ضابط الارتباط الفرنسي في حلب، فقد كان ناجي السويدي، معاون الحاكم المحلي وعضو النادي العربي يومئذ، المنظم الرئيس لهذه الفعالية. ولما كان النادي العربي قد نظم احتفالية حلب بعد أقل من ثلاثة أشهر من وقوع مذبحة الأرمن، فقد أفيد بأنها كانت بمثابة مناسبة لتعزيز المصالحة بين النخب من الجماعتين العربية والأرمنية. فالتقى ممثلو هاتين الجماعتين في مقر النادي وأصغوا لما كان =

من المثير للاهتمام أن يومًا وحسب كان يفصل في الترتيب التقويمي بين عيد الثورة وعيد الفتح جرى تخصيصه، سواء عن قصد أم عن غير قصد، للاحتفال بذكرى الشهداء، متتبعًا على نحو فضفاض بنية عرض تفصيلي محكم أعاد التأكيد للسردية القومية الرسمية والأهمية الرمزية للأعياد على حد سواء. فقد بدأ موسم الاحتفالات بإقامة احتفال بذكرى انطلاق الثورة العربية في شهر نيسان/ أبريل (النزاع الأصلي)، وتواصل باستذكار حماسة الشهداء في شهر أيار/ مايو (التقهقر الموقت)، وانتهى بتحرير دمشق في شهر أيلول/ سبتمبر (النصر النهائي). وهكذا، أعاد الاحتفال خلق مأساة استمرت عامين ونصف العام وكثفها في موسم مدته خمسة أشهر[41]. وبالنتيجة، فإن الإطاحة بالحكومة العربية في 20 تموز/ يوليو من عام 1920 وحسب هو الذي حال دون مواصلة تعزيز الأعمال البطولية لأشراف مكة عبر تكرار دورة الأعياد كل عام.

كان الاحتفال بعيد الفتح في دمشق يتألف من جزأين. أولًا، الاستعراض العسكري المكون من فرقة الموسيقى العسكرية، ووحدات الجيش العربي من فرسان ومشاة، ومعدات الإطفاء، والشرطة والدرك وطلبة المدارس العسكرية، والمهنية، والابتدائية الذين يسيرون قبالة منصة الاستعراض حيث كان يقف الأمير زيد باستعداد، ممثلًا شقيقه الذي كان من جديد في طريقه إلى أوروبا[42]. وقد وقف إلى جانب الأمير زيد في استعراض الموكب الحاكم العسكري، ورئيس ديوان الشورى الحربي، و«كبار رجال الحكومة من مُلكيين <مدنيين> وعسكريين وكذلك معتمدو دول الحلفاء، وأعيان البلاد وعظمائها»[43]. وانتصب تمثال يمثل

= يلقي على مسامعهم من كلمات تضمنت الإعراب عن الأسف لوقوع تلك «الأحداث» والإعلان بأن «الأرمن والمسلمين سيصبحون أخوة من الآن فصاعدًا». AD 2343/87/8-10, Pilley to Picot, 22 May 1919; يُنظر أيضًا: AD 2209/153, Pilley to Picot, 14 April 1919.

(41) للاطلاع على مناقشة للتسلسل التقويمي، يُنظر: Eviatar Zerubavel, *Hidden Rhythms: Schedules and Calendars in Social Life* (Chicago, 1981), p. 46; Lynn Hunt, *Politics, Culture, and Class in the French Revolution* (Berkeley, 1984), pp. 34-35.

(42) **العاصمة**، 2 تشرين الأول/ أكتوبر 1919، ص 3؛ **الكوكب**، 14 تشرين الأول/ أكتوبر 1919، ص 10. ووفقًا لما أوردته صحيفة **الكوكب** فقد كان هذا الاستعراض «أهم فقرة تخللت هذا الاحتفال».

(43) **العاصمة**، 2 تشرين الأول/ أكتوبر 1919، ص 3.

«أرواح الشهداء» بجوار منصة الاستعراض، فكان بمثابة تذكير صامت بالوثاق الذي يربط ما بين الثورة العربية، والحكومة العربية، وتضحيات «أبناء سورية». وكما ورد في جريدة **العاصمة**،

> كان سير الجند العربي مشاة وفرسانًا ومدفعيين مستمرًا على نغمات الموسيقى بنظام بديع آخذ بمجامع القلوب حتى كانت الألوف من الناس تصم مسامع الجو بشدة تصفيقها له. وكذلك تلاميذ المدارس كانت تخفق فوقهم أعلامهم العربية، وذرات النسيم تردد صدى أصواتهم الطاهرة في أناشيدهم الحماسية الباهرة.

وقد بدأ الاستعراض في الساعة العاشرة صباحًا؛ وبعد خمس وأربعين دقيقة انتهى وتفرق الحشد، وأطلقت المدفعية إحدى وعشرين طلقة إيذانًا بختام المرحلة الشعبية القصيرة من الاحتفال[44].

جرى الجزء الثاني من الاحتفال في تلك الليلة، حينما أقام الأمير حفل استقبال خاص في مقر إقامته الكائن في حي الصالحية. وكان المدعوون إليه من كبار موظفي الحكومة، ونواب المؤتمر السوري العام، وقادة الثورة العربية، و«علية القوم». «فمدت الموائد الجميلة المزدانة بأبدع الزهور، وقدمت للمدعوين كؤوس الشاي، وأطباق الحلوى، وصنوف الأثمار، فتعاطوا معها لذيذ الأحاديث هنيء المسرات». ومن أجل تذكير أولئك الذين لم يكونوا من الزعماء السياسيين ولا علية القوم أن هذه كانت في الواقع، مناسبة خاصة، أمرت الحكومة العربية بتعطيل دوائر الحكومة، وتزيين المباني الحكومية بأشرطة من المصابيح الكهربائية، كما لبست المدينة حلة من الأعلام العربية[45].

---

(44) يحدد تقرير نشرته صحيفة **الكوكب** وقت إجراء العرض عند الساعة التاسعة. **الكوكب**، 14 تشرين الأول/ أكتوبر 1919، ص 10.

(45) ينسب المؤرخون كل الفضل أو بعضه في تصميم العلم العربي إلى مصادر عديدة، وفي عدادها جمعية المنتدى الأدبي في اسطنبول (التي يزعم أنها اقترحت النمط المخطط للعلم في وقت مبكر يرجع إلى الفترة بين عامي 1909-1911)، والسير مارك سايكس من وزارة الحربية البريطانية، وحزب اللامركزية الإدارية العثماني، والفتاة، والشريف حسين، والقادة الميدانيون للثورة العربية، وأخيرًا المؤتمر السوري العام. وأيًا كانت مصادره، فقد اضطلع العلم العربي شأنه شأن الأعلام الوطنية كافة بالدور الذي تطلق عليه =

على الرغم من إجرائه بعد الاحتفال باستقلال سورية ذي الطابع المختلف من الناحية الرمزية، إلا أن الاحتفال الذي أقيم في دمشق بعد سبعة أشهر إحياء لذكرى عيد الثورة قد اتبع كسابقه النسق ذاته إلى حد كبير. ومثلما جرى في عيد الفتح، فقد أمرت الحكومة العربية بتعليق الدوام الرسمي، وإنارة دوائر الحكومة ليلًا، ورفع العلم العربي والرايات ذات الألوان الأربعة التي تذكر بالعلم في أرجاء العاصمة كافة. وكما هو الحال مع الاحتفال السابق، كان هذا الاحتفال يتألف أيضًا من جزأين: احتفال عام يبدأ باستعراض عسكري، وحفل استقبال خاص لعلية

= شيريل أورتنر تسمية «الرمز الملخص» (يُنظر الفصل 3 من هذا الكتاب)، وعلى هذا الأساس كان يشغل موضعًا يعلو على السياسة اليومية. وكانت صور العلم واستخدام ألوانه منتشرة في كل مكان. وكانت الملصقات التي تعلن عن الفعاليات البلدية وبرامج المعارضة مزينة بصور العلم، التي غالبًا ما كانت مطبوعة بالألوان، وحتى الهراوات التي يستخدمها رجال الشرطة كانت مطلية على نحو يحاكي العلم. كما اضطلع العلم بدور رئيس في التظاهرات وأيام العطل الوطنية، على نحو ما يتضح من المقتطفات التالية من مقال ظهر في صحيفة **الكوكب** في أعقاب احتفالات عيد الفتح، الذي، وفقًا لما أوردته الصحيفة، أقيم إحياء لذكرى «خلاص سورية من أيدي الأتراك ورفع العلم العربي (على أيدي أشراف مكة) عوضًا عن العلم التركي»:

لم تكن الشمس قد ارتفعت كثيرًا ونشرت أشعتها حينما رفع العلم العربي في كافة أرجاء دمشق – فوق المنازل، والمتاجر، والأندية، والفنادق، والوزارات الحكومية، والمقاهي. لقد بدت دمشق وكأنها ترتدي عباءة ذات أربعة ألوان حجبت الشمس. ولم يكن بإمكان الناس أن يركزوا نظرهم على معالم أخرى غير تلك التي تعرض الأعلام العربية. ولكن الجميع كان يعلم معنى هذه الأعلام، وأنها تمثل إعلانًا صريحًا لمطالب الأمة في حضور رجالات الدول العظمى. وحتى حافلات الترامواي وعربات السكك الحديدية كانت تحمل الأعلام فوق أسطحها... و(لقد أقيم استعراض شارك فيه) المشاة والمدفعية والفرسان والرماة بالرشاشات والشرطة والدرك ورجال الاطفاء. بيد أن ما جعل الناس أكثر سعادة وأثار معظم التصفيق والتهليل حين رؤيتهم العلم العربي الذي جلبه الجيش العربي العام الماضي ورفع للمرة الأولى، ومشاهدته محمولًا بشجاعة وثبات وفخر.

يُنظر: FO 371/2136/42812, 25 May 1919; USNA 59/867.00/955, «Report of Elias Khouri, First Dragoman of Beirut Consulate,» 8 September 1919; IO MSS EUR 152 (Frank Lugard Brayne Mss.)/18b, «Palestine and Syria Autumn 1918,» 7 October 1918;

الكوكب، 28 تشرين الأول/ أكتوبر 1919، ص 10؛ USNA 165/2558-16, Military Attaché to D.M.I., 16 March 1920; A. L. Tibawi, *A Modern History of Syria, Including Lebanon and Palestine* (New York, 1969), p. 272;

سليمان موسى، **الحركة العربية: المرحلة الأولى للنهضة العربية الحديثة، 1908–1924** (بيروت، 1986)، ص 135–140؛ خيرية قاسمية، **الحكومة العربية في دمشق بين 1918–1920** (بيروت، 1982)، ص 48؛ David Fromkin, *A Peace to End All Peace: The Fall of the Ottoman Empire and the Creation of the Modern Middle East* (New York, 1989), p. 315.

القوم من السوريين والضيوف الأجانب مقام في مقر إقامة الأمير[46]. بيد أنه طرأ تعديل جعل الاحتفال بعيد الثورة يتميز من الاحتفال بعيد الفتح: فإبان الاحتفال بالعيد الأول، استؤنفت سلسلة الفقرات العامة للاحتفال في المساء. وأما بالنسبة إلى سلسلة الفقرات التي تضمنها الاحتفال الثاني، فقد جرت عند الغروب، وجمعت الحكومة العربية من جديد حشدًا من الناس يتكون أساسًا، وفقًا لـ **العاصمة**، من الجنود وتلاميذ المدارس تحت شرفة مقر إقامة فيصل. فتقدم، أولًا، فخري البارودي، الذي كان المرافق الملكي لفيصل، بالتهنئة من الملك بمناسبة انقضاء السنة الرابعة للثورة العربية، واستعاد ذكرى الشهداء، وأبدى أطيب الأماني للأمة بالسعادة «في ظل جلالة الملك المحبوب فيصل». وبعد إلقاء ثلاث كلمات موجزة كررت موضوعات مماثلة، تحدث فيصل ذاته «بالمعهود من الدرر الملكية النفيسة، فتمنى للأمة كل سعادة وهناء في حاضرها وآتيها». وتفرق الحشد بعد مباركة فيصل لهم[47].

ثمة جانبان من جوانب هذه الاحتفالات يستحقان أن نتناولهما باهتمام خاص. أولًا، وظفت سلسلة الفقرات التي تضمنتها الاحتفالية العامة مجموعة متنوعة من الوسائل من أجل تأكيد صدارة أشراف مكة وشرعيتهم: ألا وهي عملية استعراض المواكب التي تمر تحت شرفة مقر إقامة الأمير؛ والمكان البارز الذي كان يحتله فيصل أو نائبه من بين مجموعة مختارة من المواطنين السوريين المرموقين الذين حلوا ضيوفًا على الأمير في كل من «شرفته الخاصة» (على نحو ما تجشمت جريدة **العاصمة** العناء لإبلاغ قرائها) وداره؛ وإقران فيصل والثورة

---

(46) MD. 4H58/1, «Rapport hebdomadaire, 27 Avril au 3 Mai»; MD 4H114/2/327, Cousse to Gouraud, 28 April 1920;

في أثناء الفعالية الأخيرة، ألقى كل من علي رضا الركابي، وهاشم الأتاسي، وشيخ الإسلام <المدير العام للأمور العلمية> تاج الدين الحسني، وبطريرك الروم الأرثوذكس كلمات أعربوا فيها عن شكرهم للشريف حسين ونجله على ما قدماه من خدمات للأمة، معبرين عن أملهم في أن تعترف دول الوفاق بالاستقلال السوري. وأشار فيصل في معرض رده إلى أن العرب انضموا إلى الحرب في وقت بدت فيه قضية دول الوفاق موضع شك، وأنه يطمح إلى المحافظة في المستقبل على الصداقة ذاتها التي كانت تربطه بالقوى العظمى إبان الصراع.

(47) **العاصمة**، 29 نيسان/ أبريل 1920، ص 4.

العربية بحماسة الشهداء؛ والتملق المفتعل من جانب الحشود والثناء المقدم من مواطني الطبقة المخملية؛ وتقديم التبريكات إلى الأمة. ثانيًا، إن تقسيم سلسلة الفقرات التي تشتمل عليها الاحتفالات إلى عامة وخاصة، على نحو ما بينته التقارير الصحافية، وتفضيل الأخيرة على الأولى، بالإضافة إلى المشاركة الوجيزة للجماهير والدور المنفعل الذي اضطلعوا به، قد جسد، على نحو ملموس، تقسيم الأمة إلى جزأين غير متساويين، الذي كان يؤثره خطاب «المتنورين».

كان تنظيم الاحتفالات بمناسبة استقلال سورية يعد بمثابة تحول جذري عن النهج الذي اتبع في تنظيم سواه من الاحتفالات العامة لسببين. أولًا، كانت ردة الفعل الصادرة عن فيصل تجاه استقلال سورية في أحسن الأحوال غامضةً؛ ومهما كان تصرفه العام، فإن الإعلان أرغم الأمير على الاختيار بين إغضاب دول الوفاق، أو اللجان الشعبية ومناصريها(48). ثانيًا، كانت اللجان الشعبية والمؤتمر السوري العام، وليس الحكومة العربية، من أطلق الحملة التي أدت إلى هذا الإعلان وهيمن عليها. وهكذا، على الرغم من أن الاحتفالات التي أقيمت إحياء لذكرى استقلال سورية اشتملت على العديد من العناصر الرمزية التي تضمنتها الاحتفالات المبنية آنفًا، إلا أنها حولت معناها على نحو جعل أشراف مكة يستجيبون إلى إرادة شعبية أعم.

أعاد الأمير فيصل في مطلع شهر آذار/ مارس من عام 1920 دعوة الهيئة التمثيلية <التشريعية> إلى الانعقاد «معتبرًا أن المؤتمر [السوري العام] سيكون بمثابة مخرج في ظل الصخب الشديد القائم في البلاد»(49). وألقى الأمير كلمة

---

(48) يُنظر: Malcolm Russell, *The First Modern Arab State: Syria under Faysal 1918-1920* (Minneapolis, 1985), pp. 136-140.

(49) IO L/PS/10/802/P1896/EA3004, Allenby to FO, 7 March 1920.

يذهب أللنبي إلى القول إنه «في حال رفضه أيًا من عقد المؤتمر أو القبول بتتويجه ملكًا، فإن (فيصل) يرى بأن الشعب سيتبرأ منه وبأن الأعمال العدائية ستبدأ على الفور مستهدفة البريطانيين والفرنسيين على حد سواء». وأعرب نوري السعيد، مستشار فيصل العسكري وكاتم أسراره، عن اتفاقه مع تحليل أللنبي. وقد ذكر نوري السعيد في حوار له مع أحد المندوبين البريطانيين بأن «فيصل يرى أن شعور سورية بأكملها بالسخط سيكون مبعث خطر كبير. وقد وافق على انعقاد المؤتمر في دمشق بهدف قيادة الرأي العام كي يمضي في الاتجاه الصحيح. ولم يوافق على هذا الإجراء الذي اتخذه المؤتمر إلا عندما أدرك أنه سوف يفقد موقعه =

أمام المؤتمر في 6 آذار/ مارس تضمنت مطالبته بتحديد شكل الدولة السورية في المستقبل ووضع مشروع دستور لها. ولئن أكد الأمير أن سورية نالت استقلالها نتيجة الثورة العربية وبفضل مبادئ ويلسون، إلا أنه لم يكلف المؤتمر في ذلك الحين بإعلان الاستقلال، بل يبدو أنه، في الواقع، ترك الباب مفتوحًا على مصراعيه أمام إمكان التوصل إلى حل وسط تقبله دول الوفاق(50). بيد أن الإجراءات اللاحقة التي اتخذها المؤتمر كانت تتسق مع المقترحات المقدمة من كامل القصاب في خطابه الذي وجهه للمجلس - وهو خطاب أعادت اللجان الشعبية طباعته ونشرته ووزعته في شوارع دمشق كافة تحت عنوان «الأمة تملي رغباتها على المؤتمر السوري» (انظر الفصل الثالث). واختتم القصاب كلمته بقوله «ليتمسك [المؤتمر] بكل كلمة تتضمنها رغبة الأمة، وليكن معلومًا أن منح السلطة باسم الأمة بلا ضوابط سوف يكون خطأ لا يغتفر». وفي 7 آذار/ مارس من عام 1920 صوت المؤتمر السوري العام مؤيدًا استقلال سورية ضمن حدودها الطبيعية، ومبايعة فيصل ملكًا دستوريًا عليها.

احتفل الدمشقيون بعيد الاستقلال بطريقة تتوافق مع ما طالب به القصاب بأن تكون للأمة (ممثلة بالمؤتمر السوري العام والمؤسسات المدنية) الأولوية على مؤسسات الحكم كافة(51). وفي الساعة العاشرة صباحًا من يوم 8 آذار/ مارس عقد

= بوصفه حاكم للعرب السوريين». FO 371/5034/E2522, «Record of Conversation between Major Young and Nuri as-Sa'id,» 1 April 1920.

يُنظر أيضًا: AD 2346/c1a/204, Cousse to HC, 9 March 1920; FO 371/5216/E2896, Major H. Garland, «A Talk with Sheikh Abdul Malik of the Arab Agency, Cairo,» 18 March 1920.

(50) **العاصمة**، 7 آذار/ مارس 1920، ص 1-2. تضمن الخطاب الذي ألقاه فيصل، كما ورد في جريدة **العاصمة**، ما يلي: «ليس هنالك أمة تريد استعبادنا. فرحلاتي إلى أوروبا والأحاديث والكتابات التي جرت بيني وبين ساستها، لم تبقِ في نفسي مجالًا للشبهة والتردد في نيات حكوماتها الحسنة». للاطلاع على النص الكامل لخطاب فيصل، يُنظر: حسن الحكيم، **الوثائق التاريخية المتعلقة بالقضية السورية في العهدين العربي الفيصلي والانتدابي الفرنسي، 1915-1946** (بيروت، 1974)، ص 137-139.

(51) **العاصمة**، 8 آذار/ مارس 1920، ص 2؛ MAE L:SL/vol. 25/285-290, «Extrait du journal Difah,» 9 March 1920; MD 4H112, Toulat to Gouraud, 10 March 1920;

العاصمة، 11 آذار/ مارس 1920، ص 3؛ USNA 165/2558-16, Military Attaché (Cairo) to DMI, 16 March 1920; IO MSS/Eur/F152 (Frank Lugard Brayne Mss.)/20, Pierre Bardakjy (?) to Capt. Bichon, 18 March 1920;

العاصمة، 25 آذار/ مارس 1920، ص 4؛ AD 2346/144, Cousse to Millerand, 8 April 1920;

الجركس، **الدليل المصور**، ج 1، ص 109-112.

المؤتمر اجتماعًا لاختيار وفد منه من أجل تقديم قراره إلى الأمير فيصل؛ وبعد ثلاث ساعات توجه وفد من أعضائه برئاسة هاشم الأتاسي رئيس المؤتمر، إلى مقر إقامة الأمير، حيث وجهت للأمير الدعوة لمرافقتهم إلى ساحة الشهداء[52]. وبحلول ذلك الوقت، كانت الجماهير التي تولى المجلس البلدي واللجان الشعبية والنادي العربي و«ممثلو الأمة» حشدها قد بدأت بالتجمع في الساحة هذه من أجل تأدية التحية للأمير. وتمثل الملصقات التي عرضت في أرجاء العاصمة كافة في اليوم السابق برهانًا على اعتماد المجلس البلدي على المنظمات المهنية والحرفية والمدارس في تضخيم أعداد هذا الحشد[53].

يبدو أن ترتيب الموكب الذي رافق الأمير من مقر إقامته إلى الساحة قد جرى التخطيط له بعناية. فكانت عربة الأمير تتبع صفًا من نواب المؤتمر السوري العام، ووزراء الحكومة، ورئيس المؤتمر. وكان فيصل وزيد يرتديان زيًا عسكريًا ويحيط بهما قادة الجيش العربي سيرًا على الأقدام. وامتطى أفراد من الحرس الملكي صهوات جيادهم وهم يتبعون عربة الأمير. وكان إحسان الجابري رئيس بلدية حلب <الأسبق المعين رئيسًا لأمناء بلاط الملك فيصل الأول>، يقود كوكبة من الضباط العسكريين، والأعيان، وحاملي الرماح، والحضور.

انطلق الموكب من السرايا نحو جسر الصالحية، بين صفين من الجنود؛

---

(52) من المثير للاهتمام أن الوفد كان يتألف من أفراد كانت لديهم وجهات نظر سياسية متباينة إلى حد كبير، ألا وهم: هاشم الأتاسي، وأحمد قدري، وعبد القادر الكيلاني، وعبد القادر الخطيب، وأحمد العياشي، ورياض الصلح، وتوفيق البيسار، وعبد الرحمن اليوسف، وتيدوري أنطاكي، ورشيد رضا، وصبحي الطويل، وفاتح المرعشلي، ومحمود الفاعور، وأمين بيهم، وسعد الله الجابري. غالب العياشي، **الإيضاحات السياسية وأسرار الانتداب الفرنسي على سوريا** (بيروت، 1955)، ص 50.

(53) بدأت الملصقات، التي كانت ملونة وتعرض العلم العربي بشكل بارز، على النحو التالي:

1- يجتمع كل أهالي وسكان العاصمة يوم (الاثنين) في (8) آذار/ مارس 1920 الساعة (11) قبل الظهر في شارع النصر وطريق الصالحية.

2- تسير الجماهير بقيادة رؤساء الأحزاب للمحال والمواقع المقررة.

3- يشترك كل النقابات والحرف وتلاميذ وتلميذات المدارس في التظاهرات.

4- تصطف الجماهير الساعة الثانية بعد الظهر في ساحة الشهداء.

5- في الساعة الثالثة يعلن الاستقلال من شرفة دائرة البلدية بقراءة قرار المؤتمر السوري.

USNA 165/2558-16, U.S. Military Attaché (Cairo) to DMI, 16 March 1920.

وامتدت عند الجسر صفوف تلاميذ المدارس بعيدًا حتى دار البلدية، ووقفوا هناك أشبه بكتيبة على أطراف الطريق الذي سلكه الموكب[54].

خرج محمد عزة دروزة، وكان يشغل آنذاك منصب أمين سر المؤتمر السوري العام، في تمام الساعة الثالثة، إلى شرفة دار البلدية حيث كان في انتظاره الزعماء الروحيون وشيوخ العشائر وقناصل فرنسا وإيطاليا والولايات المتحدة وإسبانيا وإيران. وتلا دروزة إعلان إنهاء الحكم العسكري في المنطقة الشرقية، ووثيقة الاستقلال، وقرار المؤتمر بتنصيب فيصل ملكًا على سورية. وبعد ذلك، أطلقت المدفعية 101 من الطلقات تحية لهذه المناسبة، ثم ألقى فيصل خطابًا «أكد فيه على إخلاصه لمصالح الأمة»، وبعد ذلك تلا أمين سر المؤتمر العراقي قرار تلك الهيئة <التشريعية> بمبايعة شقيق فيصل، عبد الله، ملكًا على العراق. وقد سلمت هذه الوثيقة باليد إلى فيصل وفقًا للمراسم الرسمية، كما لو كان هذا الإجراء تأكيدًا آخر لانفصال سورية في حدودها الطبيعية عن جارتها الشرقية.

توج هذا الجزء من الاحتفال بإجراء استعراض عسكري أمام فيصل. وبعد هذا الاستعراض، انتقل فيصل وبرفقته مجموعة منتقاة من الزعماء الروحيين إلى حجرة داخل مبنى البلدية حيث شارك هؤلاء في مراسم تقديم الولاء التي حظيت بدعاية واسعة[55]. وعلى النقيض من عهد الولاء الذي قطعه الأعيان وشيوخ العشائر وسواهم لفيصل حينما عاد من رحلته الأولى من أوروبا، كان الميثاق (الصك) الذي ربط ما بين فيصل والزعماء الروحيين الذين كانوا يتصرفون باسم الأمة متبادلًا[56]. وقد استهلت الوثيقة ديباجتها بالقول: «لما كان قد وقع اختيار الأمة السورية على تمليك سمو الأمير فيصل ابن جلالة الملك حسين الأول، على سورية بحدودها الطبيعية».

(54) **الدفاع**، 9 آذار/ مارس 1920، ص 1.

(55) نشرت الصحف المحلية تقارير مفصلة عن الحفل. يُنظر، على سبيل المثال: **العاصمة**، 11 آذار/ مارس 1920، ص 3.

(56) وفقًا لما أوردته صحيفة **الدفاع**، شارك في الحفل الرؤساء الروحيون: بطريرك كنيسة الروم الأرثوذكس، وبطريرك كنيسة الروم الكاثوليك، وأسقف السريان الكاثوليك، وممثل عن البطريرك الماروني، وممثل عن أسقف السريان اليعقوبيين، وممثل عن أسقف الأرمن اليعقوبيين، وممثل عن بطريرك الأرمن الكاثوليك، ورئيس الطائفة البروتستانتية، والحاخام الأكبر في دمشق. **الدفاع**، 9 آذار/ مارس 1920، ص 1.

حضرنا اليوم في دائرة بلدية دمشق العاصمة، لتأدية فرض المبايعة. فأصالةً ونيابة نقر بأنه مع مراعاة الشرائط السبعة التي ارتبطنا بها مع سموه في أول مقابلة بيننا يوم الاثنين في سادس شهر تشرين الأول/ أكتوبر سنة 1918 وهي: «طاعة الله؛ واحترام [كافة] الأديان؛ والحكم شورى على مقتضى القوانين والنظامات التي تسن لذلك، المساواة في الحقوق؛ توطيد الأمن؛ تعميم المعارف؛ إسناد المناصب والوظائف إلى أكفائها.

وبقبول سموه بها واحدة فواحدة - نبايعه ملكًا على هذه البلاد متعهدين بالطاعة والإخلاص لجلالته والمعاونة لحكومته بكل ما تصل إليه القدرة. وعليه أعطينا هذا الصك تحت إمضاءاتنا وأختامنا. مسترحمين صدور إرادة جلالته بنشره في الجريدة الرسمية تصديقًا منه وقبولًا بمضمونه، داعين لجلالته بطول العمر واستمرار التوفيق لما فيه خير البلاد وترقي أهلها[57].

بعد هذه المراسم، عاد فيصل للظهور ثانية من شرفة دار البلدية حيث استعرض من جديد موكبًا عسكريًا، وعلى عكس سلسلة الفقرات الاحتفالية المماثلة التي تضمنها الاحتفال بمناسبة «عيد الثورة»، تقبل الأمير (التبريكات) من مختلف الوزراء، وأعضاء المؤتمر، والزعماء الروحيين[58]. وقد عاد فيصل بعدئذٍ إلى مقر إقامته ضمن موكب سار في عكس الاتجاه الذي اتخذه الموكب السابق، وبعد أن تخلى الملك المتوج حديثًا عن عربته امتطى جوادًا وتقدم على رأس هذا الموكب، وتبعه رئيس مجلس شورى الدولة ورئيس المؤتمر اللذان استقلا عربة أحاطت بها كوكبة من الحرس الملكي.

تواصلت الاحتفالات ثلاثة أيام، أصدرت الحكومة العربية في أثنائها عفوًا عامًا عن أي فار من الجيش العربي يسلم نفسه في غضون خمسة عشر يومًا، وعفوًا جزئيًا شمل معظم السجناء (باستثناء أولئك المحكومين بجرائم مشينة

---

(57) المرجع نفسه، ص 3.

(58) كان من بين المهنئين رئيس وأعضاء مجلس الوزراء، ووفد من المؤتمر السوري، والقاضي، والمفتي، ونقيب الأشراف، وبطريرك الروم الأرثوذكس، وبطريرك الكاثوليك، وأساقفة كنائس اللاتين والسريان والأرمن القديم، ورؤساء الطائفة البروتستانتية، والحاخامات، **العاصمة**، 8 آذار/ مارس 1920، ص 2.

أو شنيعة ومروعة). وقد أمرت البلدية برفع الأعلام في أرجاء المدينة كافة، وأن تبقى الأسواق مفتوحة حتى منتصف الليل، وأن تكون المباني العامة والخاصة والمحال التجارية مضاءة حتى الساعة ذاتها. وفي المساء جابت وحدات عسكرية المدينة، وهي تحمل المشاعل[59]. وفي اليوم التالي لتتويج فيصل، أعلن المؤتمر السوري أن يوم 8 آذار/ مارس سوف يجري الاحتفال به من الآن فصاعدًا بوصفه عيدًا للاستقلال[60].

لم يقتصر الاحتفال بعيد الاستقلال على دمشق فحسب، وإنما امتد ليشمل المنطقة الشرقية بأكملها. ولما كان اختصاصيو تنظيم مراسم الاحتفالات العامة في دمشق يوعزون بتنظيم هذه الاحتفالات من طريق البرق، ويملون صيغتها، فقد تضمنت جميعها عناصر مشتركة: إذ استمرت كل منها لمدة ثلاثة أيام؛ ووفرت الحامية العسكرية المحلية، والنقابات، والمدارس القوة البشرية للمواكب؛ وأرسلت المدن النائية وفودًا إلى دمشق محملة بهدايا للملك؛ وفرضت البلديات لوائح قانونية ناظمة لأيام العطل الرسمية مماثلة لتلك المفروضة في دمشق؛ وتلا الحاكم المحلي الإعلانات الصادرة عن المؤتمر السوري، وأقام حفلات استقبال دعي إليها الأعيان المحليون. وقد سار في حلب ما يقرب من ألف عضو من أعضاء الميليشيات التطوعية في مسيرات جنبًا إلى جنب مع وحدات من الجيش النظامي، ووزعت السلطات الحكومية منشورات تتضمن الشعارات التي سيجري ترديدها، ومن بينها «المسلم أخو المسيحي واليهودي، أحب أم كره»، و«العرب كانوا عربًا قبل موسى، والمسيح، ومحمد»، و«الاستقلال وفيصل هما كنزا سورية»، وكان

(59) USNA 165/2558-16, Military Attaché (Cairo) to DMI, 16 May 1920; **العاصمة**، 25 آذار/ مارس 1920، ص 4. ووفقًا لما أورده تقرير فرنسي فقد «سعى فيصل في دمشق للإفراج عن أعضاء الحزب المعارض له. ولكن هؤلاء رفضوا المغادرة، وأعلنوا أنهم سيبقون في السجن إلى أن يتولى سدة الحكم في سورية حاكم سوري». MD 4H112/2a, Lt. Kouadi, «Report on Independence Day Celebrations at Aleppo,» 10 March 1920.

(60) AD 2346/144, Cousse to Millerand, 8 April 1920; يحدد عوني عبد الهادي موعد انعقاد الجلسة قبل يوم، وعندئذ، أقر المؤتمر السوري تصميم العلم الوطني. AD 2346/III-e, 'Awni 'Abd al-Hadi to Cousse, 31 March 1920; وبعد ثلاثة أسابيع، أكدت وزارة الخارجية السورية هذين القرارين. IO L/PS/10/802/P2905/59, Meinertzhagen to FO, 29 March 1920.

ثمة بالطبع اقتباس لمقولة «الدين لله، والوطن للجميع» (التي تجعل في هذه الحالة «الدين شأنًا إلهيًا، في حين أن الوطن ملك لأبنائه»)[61].

كان الاحتفال الذي أقيم في دمشق بمناسبة عيد الاستقلال مشابهًا، ظاهريًا، للاحتفالات التي جرت بمناسبة عيد الثورة وعيد الفتح. وقد تخلل الاحتفالات الثلاثة جميعها إقامة استعراضات عسكرية، وسلسلة من الفقرات الاحتفالية التي جرت خلف الأبواب المغلقة، ودورًا مميزًا اقتصر على الشخصيات البارزة عوض عن الدور التشاركي والمقيد المناط بالحشود. ومع ذلك، فإن الاحتفال بعيد الاستقلال الذي جرى في العاصمة قد أضفى معنى جديدًا على الخصائص المشتركة تلك. وقد أبرزت الاحتفالات التي أقيمت بمناسبة عيد الاستقلال من حيث بنيتها واستخدامها للرموز التناقض القائم ما بين «أمة» فاعلة وأمير/ ملك منفعل. وظهر هذا الموضوع جليًا في ثلاث سلاسل من الفقرات الاحتفالية المنفصلة التي تضمنتها. أولًا، رافق فيصل موكب من مقر إقامته ونقله أمام الجماهير إلى مبنى عام حيث وافق على الالتزام قرارَ المؤتمر والميثاق الذي قدمه الزعماء الروحيين للأمة. ثانيًا، استقل الأمير حينما توجه إلى مراسم تتويجه عربة سارت خلف ممثلي الأمة؛ وبعد المراسم التي جرت في مبنى دار البلدية، قاد الملك الموكب الذي اصطحبه عائدًا إلى مقر إقامته وهو يمتطي جوادًا. وأخيرًا، في حين أن الملك كان في مناسبات أخرى يمنح الأمة تبريكاته، إلا أنه في هذه المناسبة تلقى بدلًا من ذلك المباركة من الأمة. وعلى نحو ما سيتضح في الفصل التالي، فإن الكثير من الرمزية التي اشتملت عليها مراسم عيد الاستقلال هذه كانت تحمل شبهًا قويًا بتلك الرمزية التي اشتملت عليها التظاهرات المنظمة من جانب اللجان الشعبية. وهكذا، بدلًا من تأكيد سلطة أشراف مكة، عكست الاحتفالات التي جرى تنظيمها في دمشق بمناسبة عيد الاستقلال التغير الحاصل في ميزان القوى على نحو ما تجلى في سياسة الحكومة العربية وحلفائها، من جهة، وسياسة الشارع الآخذة بالبزوغ، ممثلة باللجان الشعبية بصفة خاصة، من جهة أخرى.

---

(61) يُنظر: MD 4H112/2a, Lt. Kouadi, «Report on Independence Day Celebrations at Aleppo,» 10 March 1920; USNA 59/890d.00/9/473, Jackson to Sec. of State, 13 March 1920; IO MSS Eur F152 (Frank Lugard Brayne Mss.)/20, Letter from Pierre Bardakjy(?) to Capt. Bichon, 18 March 1920; AD 2347(?)/série c/carton 5/dossier a/67/1, Trenga to HC, 20 April 1920;

صافي، على جناح، ج 1، ص 233-234.

المسرح

كان حجم الاحتفالات التي نوقشت حتى الآن، شأنها شأن الكثير من التظاهرات التي سوف يجري تناولها في الفصل التالي، يتسم بالضخامة، وبحشد العشرات، بل وقد يصل العدد، كما تنقل التقارير، إلى مئات الآلاف من السوريين، وتحول مناطق برمتها من المدن التي جرت فيها إلى فضاء احتفالي. بيد أن الحكومة العربية وحلفاءها في النادي العربي والمنتدى الأدبي صمموا الاحتفالات لتكون على قدر كبير من الخصوصية بحيث يكون أداؤها مرتبطًا بجدران مقهى أو مسرح أو دار للسينما. وشأنها شأن نظيراتها الأشد ضخامة، أدت عروض المسرح، مثل المسرحيات، وإلقاء القصائد الشعرية، والقراءات المسرحية، والصيغ المنقحة من فن خيال الظل كراكوز <وعيواظ>، بل وحتى العروض السينمائية[62]، التي كانت تقدم منفردة أو بالاقتران مع احتفالات أخرى، وظيفة بالغة الأهمية بالنسبة إلى الحكومة والمتنورين: ألا وهي غرس القيم القومية. ولهذا السبب كانت الحكومة العربية والحكومات المحلية سواء تلك القائمة داخل المنطقة الشرقية أم خارجها، بالاشتراك مع حلفائها من خارج الحكومة، يشجعون على تقديم الأعمال المسرحية ويدعمونها. وقد أنجزوا هذه المهمة متوسلين بمجموعة متنوعة من السبل. بدءًا من تنظيم الفرق التمثيلية وتشييد المسارح (مثل المسرح البلدي الذي شيدته الحكومة المحلية في رام الله) وصولًا إلى تأسيس مدرسة للتمثيل واحدة على الأقل في حلب ألا وهي المسمّاة المسرح المدرسي على نحو ملائم. وقد بلغت الحماسة التي أبدتها الحكومة العربية حيال أهمية العروض المسرحية حدًا جعل الكلية الحربية في دمشق تفاخر بمنهاجها الدراسي

(62) قدمت مقالة نشرتها جريدة **العاصمة** وصفًا لـ «حفلة السينما» التي أقامتها بلدية دمشق في «مسرح المناخ» ودعت إليها فيصل، وزيد، و<الحاكم العسكري>، وممثلي دول الوفاق، والأعيان، والمتنورين <الأدباء>، والتجار. فعرضت ثلاث روايات سينمائية. تناولت الأولى الحركة الكشفية «واستعداد طفلة صغيرة للقيام بمبادئهم المؤسسة على النشاط والذكاء وحب الخير ومقاومة الشر وإعداد الأجساد لأداء هذه الوظائف الوطنية كلها. والرواية الثانية تمثل أحوال صاحب السمو الملكي الأمير فيصل وهو في أوروبا وزيارته لمعاهدها وعودته إلى بيروت ودمشق واستقباله العظيم فيهما. والرواية الثالثة هزلية». **العاصمة**، 11 أيلول/ سبتمبر 1919، ص 6.

الذي تضمن تدريس مادة المسرح. حتى إن الطلبة العسكريين أنتجوا في ربيع عام 1919 مسرحية عبد الرحمن أو الدولة الأموية الثانية في الأندلس، التي دعي الجمهور لحضورها[63].

لئن كانت الحكومة العربية مساندًا متحمسًا للمسرح، إلا أن معظم العروض المسرحية كانت تقام برعاية النادي العربي والمنتدى الأدبي. وكانت الجماعة الأخيرة على وجه الخصوص من أشد المدافعين عن التسخير السياسي للمسرح في مرحلة ما بعد الحرب. وكان المنتدى الأدبي، وفقًا لميثاقه، قد تأسس «من أجل خير الأمة العربية وإحياء مجدها، ونشر تاريخها وتقاليدها النبيلة، وتعليم أبنائها المعرفة الحقة وتدريب عقولهم والتأليف بينهم، وترسيخ الأعمال الخيرية والمشروعات التي تعود بالفائدة على الأدب، والمعرفة، والفن، والمجتمع، والزراعة، والثقافة، والتجارة، والاقتصاد، والصحة، والأخلاق، مما من شأنه أن يعود على الأمة العربية بالنفع والخير العميم». وقد عمد أعضاء المنتدى، من أجل بلوغ هذه الغاية، إلى دمج الموضوعات القومية في نصوص المسرحيات القديمة وكلفوا الكتاب بتأليف مسرحيات جديدة[64].

قدمت مقالة نشرتها **الكوكب**، وهي صحيفة كثيرًا ما كانت تنشر التقارير عن المسرحيات التي ينتجها النادي العربي والمنتدى الأدبي، عرضًا مفصلًا للفوائد التي سوف تجنيها الأمة من تقديم مثل هذه الأعمال المسرحية. ووفقًا لهذه الصحيفة، فعلى الرغم من أن المسرحيات هذه صورت أحداثًا مستقاة من التاريخ الإسلامي، إلا أنها كانت قاصرة و«بحاجة إلى صيغة جديدة تناسب الروح القومية المنتشرة بين الأمم والشعوب». وأردفت بأنه يتعين على الكتاب المسرحيين أن يؤلفوا مسرحيات ذات «صيغة سورية». وتلكم هي مسرحيات تصور التاريخ السوري والأبطال السوريين، وتوجه النقد للقضايا المعاصرة، و«تنبه إلى أوجه

---

(63) **الكوكب**، 3 حزيران/ يونيو 1919، ص 8؛ **الكوكب**، 29 تموز/ يوليو 1919، ص 10؛ عدنان بن ذريل، **المسرح السوري منذ القباني إلى اليوم** (دمشق، 1971)، ص 94.

(64) يُنظر: **الكوكب**، 8 نيسان/ أبريل 1919، ص 11؛ توفيق برو، «المنتدى الأدبي ودوره في النضال العربي»، **المعرفة**، العدد 38 (نيسان/ أبريل 1965).

القصور في أعرافنا وسلوكنا لكي يتمكن الناس من تنقية أخلاقهم وتحسين ظروفهم». وخلصت المقالة إلى أنه بعد كتابة مثل هذه المسرحيات وأدائها وحسب، يمكن للمتحدرين [من هؤلاء الأبطال] أن يكونوا قادرين على مواصلة السعي لبلوغ هذه المثل التي وصل إليها آباؤهم»[65].

لم تكن العروض المسرحية – حتى تلك المسرحيات التي كانت تعد بمثابة دعاية سياسية – أمرًا جديدًا على سورية في الحقبة ما بعد العثمانية مباشرة. فقد اضطلع المسرح بدور مهم في النهضة الأدبية التي شهدتها سورية الكبرى، إبان الفترة الممتدة ما بين منتصف القرن التاسع عشر وحتى أواخره. وأنجز كبار الكتاب المسرحيين والممثلين، أمثال فرح أنطون (الذي ترجم مجموعة من مسرحيات أوديب إلى اللغة العربية) وخليل مطران، ترجمة أعمال سوفوكليس وموليير وشكسبير إلى العربية بوصفها جزءًا من المشروع العروبي الرامي إلى خلق هوية عربية جديدة تمتد جذورها عميقًا في الثقافة العليا والأدب العربي، وكان بعض الممثلين العرب المشهورين مثل عثمان جلال الذي اختص بأداء أعمال موليير قد حظي بجمهور كبير من المعجبين في أوساط المتعلمين. وشرعت الجمعيات السياسية/ الثقافية والفرق التمثيلية التي انتشرت في العهد الفيصلي في احتذاء حذو العروبيين عبر مواصلتها إنتاج أعمال تنتمي إلى «الكلاسيكية الجديدة»، وغالبًا ما كان يجري ذلك بدعم من الحكومة العربية والحكومات المحلية، التي كانت تسعى إلى توسيع نطاق نشر الثقافة الرفيعة في البلاد وأن تحظى بمكانة متميزة في الخارج بفضل مثل هذا النتاج. وقد تضمنت احتفالات عيد الاستقلال التي أقيمت في دمشق، على سبيل المثال، عرضين من إنتاج جديد لروميو وجولييت قدمهما الممثل المتميز سلامة حجازي. وتفيد التقارير بأن هذين العرضين قوبلا بحماسة بالغة[66].

حظيت الكلاسيكية الجديدة و«المسرح الخالص»، مع ذلك، بقبول اقتصر

(65) **الكوكب**، 12 آب/ أغسطس 1919، ص 7.

(66) رشدي صالح، **المسرح العربي** (القاهرة، 1972)، ص 69–70؛ الجركس، **الدليل المصور**، ج 1، ص 112.

على طبقة محدودة من سكان سورية وحسب[67]. ونتيجة لذلك، بدأ كتاب المسرحيات ومنتجوها من أمثال أبي خليل القباني في أواخر الحقبة العثمانية، بتجربة موضوعات وأشكال جديدة من المسرح الشعبي، ونظموا عروضًا مسرحية تجمع ما بين الموسيقى والمسرح والرقص أو تصور موضوعات تاريخية. وفي تلك الفترة الفاصلة ما بين مطلع القرن والحرب العالمية الأولى، أخذت فرق التمثيل التي تستمد الإلهام من القباني ويقودها مقلدوه تطوف المشرق العربي[68]. وقدمت فرقة مسرحية مشهورة على وجه الخصوص، بقيادة سلامة حجازي والممثل/ المخرج جورج أبيض مجموعة منتقاة من المسرحيات التاريخية مثل «صلاح الدين ومملكة القدس»، و«الحاكم بأمر الله»[69]. وكان أداء أبيض السوري المولد، الذي تلقى تدريبه وتأهيله في باريس، قد استقبل أحسن استقبال مما جعله يحظى برعاية النادي العربي وأصبح، في الواقع، الممثل الأثير لدى البلاط في الحكومة العربية[70].

كتب معروف الأرناؤوط الكاتب المسرحي والمحرض السياسي، الذي سبقت الإشارة إلى أنشطته إبان العهد الفيصلي، سلسلة من المسرحيات التي تتضمن رسائل سياسية وتاريخية، من بينها **عمرو بن العاص**، **والحرب في طرابلس**، **وعمر بن الخطاب** (التي ألفها إبان الحرب العالمية الأولى)، **وأدرنة**

---

(67) حينما وبخ النقاد الممثل جورج أبيض على استبداله قطعًا كلاسيكية بأعمال محض «ميلودرامية»، دافع هذا الممثل والمنتج عن نفسه بالقول إن الناس «لن يشجعوا إلا العروض الترفيهية اللطيفة». صالح، **المسرح**، ص 70-71.

(68) عدنان بن ذريل، **الأدب المسرحي في سورية: دراسة في المسرحية العربية السورية منذ أبي خليل القباني إلى اليوم** (دمشق، [د. ت.])، ص 14، 18؛ نديم معلا محمد، **الأدب المسرحي في سورية: نشأته -تطوره** (دمشق، 1982)، ص 9-10؛ M. M. Badawi, *Early Arabic Drama* (Cambridge, England, 1988), pp. 56-64.

(69) صالح، **المسرح**، ص 69. يُنظر أيضًا: Jacob M. Landau, *Studies in the Arab Theater and Cinema* (Philadelphia, 1958), pp. 75-80.

(70) يغدق الناقد في جريدة **العاصمة**، في معرض مراجعته لمسرحية قدمتها فرقة جورج أبيض في دمشق وحضرها الأمير زيد وعلي رضا الركابي، الثناء على أبيض «حامل لواء التمثيل العربي الراقي في السنين الست الأخيرة... الذي يبشرنا بمستقبل تمثيلي يليق بهذه الأمة الناهضة». **العاصمة**، 22 أيلول/ سبتمبر 1919، ص 4.

في النار. وعلى الرغم من أن نص هذه المسرحية الأخيرة المعنون أيضًا باسم «الرجوع إلى أدرنة»، قد اختفى، إلا أن عنوانه الفرعي كان شاهدًا على الرسالة التي يحملها: «مأساة مع مقدمة وأربعة فصول، تمثل سقوط أدرنة يوم 26 آذار/ مارس، والكوارث التي تلت ذلك جراء حرب البلقان الثالثة، واستعادة أدرنة بقيادة البطل أنور بك». ويعزى إلى الأرناؤوط أيضًا الفضل في ابتكار أسلوب درامي كان جديدًا على المسرح السوري: فقبيل بداية عرضه المسرحي أو بعيد نهايته كان يلتفت أحد الممثلين، الذي يؤدي دور قارئ الطالع أو العراف إلى الجمهور ويخاطبهم مباشرة، مدليًا إليهم بتعليق سياسي يتخذ صيغة تنبؤات مستقبلية[71].

أما المسرحيات التي قدمها النادي العربي والمنتدى الأدبي في فترة ما بعد الحرب فتضمنت مجموعة متنوعة من الموضوعات الدرامية. وكان بعضها يمثل إسهامات جريئة في خلق الأساطير عن أشراف مكة. وقد رعى النادي العربي في حمص، على سبيل المثال، عرضًا مسرحيًا قدمته فرقة من الهواة بعنوان «الثورة العربية»، بينما قدم النادي الوطني في طولكرم مسرحية بعنوان «معركة الطفيلة»، وهي مسرحية تصور الانتصار الذي حققه أشراف مكة على القوات العثمانية في شهر كانون الثاني/ يناير من عام 1918، ليكونا بمثابة نشاط خيري يعود ريعه لمصلحة الأرامل والأيتام في المنطقة. وقدم أمين الكيلاني، وهو سليل أسرة مرموقة ومنخرطة بشدة في أنشطة النادي العربي، مسرحيات في حماه وحلب مثل **وادي موسى**، و**معركة الحسا**، و**معركة معان**، التي احتفلت على نحو مماثل بمعارك مهمة شهدتها الثورة العربية[72]. وكان ثمة مسرحيات أخرى احتفلت بالفضائل القومية، وصورت المعاناة التي خبرها السوريون إبان الحرب العالمية الأولى، أو أحيت ذكرى وقائع مهمة، أو شخصيات من التاريخ، مثل الملاحم الخالدة التي سجلها صلاح الدين، وفتح إسبانيا[73].

---

(71) ابن ذريل، **الأدب المسرحي في سورية**، ص 33-36.

(72) ابن ذريل، **المسرح السوري**، ص 107؛ ابن ذريل، **الأدب المسرحي في سورية**، ص 68؛ **الكوكب**، 7 تشرين الأول/ أكتوبر 1919، ص 12.

(73) يُنظر: **الكوكب**، 3 حزيران/ يونيو 1919، ص 8؛ **الكوكب**، 29 تموز/ يوليو 1919، ص 9-10؛ MD 4H112/2b/68, Officier liaison d'Alep, «Renseignements,» 10 June 1920.

ويطالعنا ملصق يتضمن الإعلان عن مسرحيتين من كل فئة من الفئتين الأوليين شاركت في إنتاجهما جمعية الترقي والتمثيل العربي في فلسطين وجمعية الإخاء والعفاف. وقد بدأت الأمسية بتقديم مسرحية **سقوط فتاة شابة**، وهي مسرحية تصور «استسلام البطلة للرغبة والشهوة، والعذاب الذي عانته بسبب العار والانحطاط، وتوبتها في النهاية». وكانت المسرحية الثانية التي تضمنها البرنامج، تلك التي تحمل عنوان **المجاعة في سورية**، وتصور المحنة التي تعرضت لها أم وأطفالها الذين كانوا يتضورون من الجوع في زمن الحرب والتصرف النبيل من جانب أحد الجنود العرب في صفوف الجيش العثماني، الذي لم يكن أفضل حالًا منهم. وأما الرسالة الوطنية للمسرحية، فقد جرى نقلها، وفقًا لمراجعة نقدية نشرت في صحيفة **الكوكب**، بصورة مقنعة «على نحو أدمى القلوب»[74].

لعل المسرحيات الأكثر انتشارًا التي أنتجت في فترة ما بعد الحرب كانت تلك التي تصور أنشطة حاكم سورية العثماني «الشرير» جمال باشا، ومعاناة الشهداء. إذ شكلت مسرحيتا **جمال باشا السفاح**، و**جمال باشا والشهداء العرب** - ويرجح أنهما مقتبستان من نص أصلي ينسب إلى معروف الأرناؤوط[75] - أداة أساسية في المخزون الفني الذي كان في متناول النادي العربي والمنتدى الأدبي، وقدمتا على مسارح القدس ويافا وبيروت وطولكرم وحمص ودمشق. وأفيد بأن الأرناؤوط ذاته كان بارعًا للغاية في أدائه التمثيلي لدرجة أنه «أثار الرعب في نفوس جماهير دمشق»[76].

---

(74) **الكوكب**، 8 تشرين الأول/ أكتوبر 1918، ص 8.

(75) على الرغم من أنه ليس ثمة نسخ من المسرحية أو المسرحيات، إلا أن عدنان بن ذريل ذكر أن «معظم المؤرخين» يتفقون على أن المسرحية تلك (أو ربما النص الذي اقتبست منه المسرحية أو المسرحيات) كانت من تأليف الأرناؤوط. ابن ذريل، **الأدب المسرحي في سورية**، ص 36. يُنظر أيضًا: محمد، **الأدب المسرحي**، ص 20-21.

(76) ابن ذريل، **الأدب المسرحي في سورية**، ص 36؛ ابن ذريل، **المسرح السوري**، ص 107؛ **الكوكب**، 11 شباط/ فبراير 1919، ص 9؛ MAE L:SL/vol. 12/32-38, 39, Cousse to HC, 6 April 1919; **الكوكب**، 15 تموز/ يوليو 1919، ص 10-11.

على الرغم من تقديم ما يمكن اعتباره القصة ذاتها للسبب نفسه إلى حد بعيد - «حتى يتسنى للناس أن يروا في هذه المسرحية الفظائع التي كان سفاك الدماء هذا مفتونًا بها ويستخدمها ضد رجال الأمة العربية»[77] - إلا أن الأداء الفعلي للمسرحيات التي تتناول جمال باشا - كان يختلف من مدينة لأخرى. ففي طولكرم، كان إنتاج المسرحية برعاية النادي الوطني المحلي، وهو رابطة، وفقًا لمقالة نشرته صحيفة **الكوكب**، لم يؤسسها الأعيان والمفكرون فحسب، وإنما أسسوها من أجلهم أيضًا. وقبل تقديم المسرحية كان الممثلون يظهرون على خشبة المسرح بأزيائهم لينشدوا «النشيد العربي». وقد ألقى أحد أعضاء النادي بعدئذ خطابًا «[حث فيه] أبناء الوطن على الوحدة والوفاق في ما بينهم، وبإشارته إلى ما كان العرب يمتلكونه في غابر الأزمان من عظمة وحضارة، أوحى لهم بأن يبذلوا قصارى جهدهم من أجل تحقيق ذلك في المستقبل». وكان تلاميذ المدارس يعتلون خشبة المسرح في أوقات الفواصل بين المشاهد ليرددوا الأناشيد الوطنية[78]. وأما فرع النادي العربي المحلي في القدس فقد بدأ عرضه المسائي بمسرحية قصيرة يظهر فيها الممثلون، وقد ارتدوا أزياء تظهرهم وكأنهم أرواح عظماء العرب، وهم يتحلقون حول منصة الإعدام لكي يذكروا جمهور الأطفال بـ «واجبهم الوطني». واختتم النادي أمسيته بنشيد يثني على فيصل، قيل إن الأديب المحلي خليل السكاكيني نظمه وهو في طريقه للانضمام إلى الجيش العربي وبرفقته ثلاثمئة شاب:

أيها المولى العظيم ... فخر كل العرب
ملكك الملك الفخيم ... ملك جدك النبي
نحو هذا الملك سيروا ... قبل فوت الزمن

---

(77) **الكوكب**، 15 تموز/ يوليو 1919، ص 10-11.
(78) المرجع نفسه، ص 10-11.

وعلى الخصم أغيروا لخلاص الوطن

جددوا العهد القديما ذلك العهد المجيد

واسلكوا النهج القويما واتبعوا الرأي السديد

لم نعد في ذا الزمن أمة مستعبدة

ليس يجدينا التواني والليالي مسعدة

في زمان الحرب نقبل كالآتي المنهمر

وعلى الأعداء نحمل ليس فينا من يفر

إن نعش عشنا كرامًا أو نمت متنا كرام[79].

لئن كانت أوجه الاختلاف القائمة بين العرضين المقدمين في طولكرم والقدس ذات طابع بنيوي أكثر منه جوهري، إلا أنها توحي بوجود مشكلة أكثر عمقًا تواجهها الحكومة العربية ويواجهها المتنورون في مسعاهم الرامي إلى استخدام المسرح من أجل ترسيخ برنامج قومي محدد سلفًا. وقد عززت سلسلة من الفقرات الاحتفالية المقررة، والرقابة الدائمة، والسلطة المتأصلة في تخطيط الاحتفالات العامة قدرة الحكومة وحلفائها على التحكم في الشكل والمحتوى الرمزي للمراسم الاحتفالية واسعة النطاق، إذًا، جرى تحديد مجموعة واسعة من المعاني التي نقلتها إلى المشاركين والمراقبين على حد سواء. ومن ناحية أخرى، كثيرًا ما كانت الفروع المحلية للجمعيات السياسية المستقلة، ترعى أو تنتج مسرحيات وسواها من الفعاليات المنظمة في العديد من المحافل الصغيرة. وإن الطابع غير الرسمي وغير الخاضع للإشراف على تلك العروض قد زاد من إمكان إضعاف فاعلية الرسالة التي كانت الحكومة والمتنورون يسعون إلى ترسيخها في

(79) **الكوكب**، 11 شباط/ فبراير 1919، ص 9.

الأذهان أو أن يجعلوها عرضة للتشويش كليًا. كما وفرت الفعاليات المسرحية محفلًا يمكن بوساطته التعبير عن الرسائل المناهضة للحكومة، وبخاصة بعد اندلاع أزمة الاستبدال. وفي بعض الأحيان، كان الخطباء والمنتسبون إلى اللجان الشعبية يصعدون على خشبة المسرح لإلقاء الخطب؛ وفي أحيان أخرى، كانوا يعطلون الاجتماعات إلى حد كبير بإلقائهم الخطب المرتجلة والدعوات لاتخاذ الإجراءات[80]. وكما سلفت الإشارة في الفصل الثاني، كانت المسارح في حلب تعد مواقع شعبية من أجل تجنيد الشبان في صفوف العصابات المسلحة التي كانت تهيمن على الريف.

وفرت المقاهي، الواقعة على الطرق الرئيسة في قلب المدن والأسواق التي تتاخم الأزقة شبه الخاصة، مكانًا آخر لتنظيم الفعاليات المسرحية الوطنية. وفي نهاية الحرب العالمية الأولى، كان من المألوف أن يرتاد المقاهي الأكثر شعبية والواقعة في قلب المدن والبلدات، عدة مئات من الزبائن الذي يمضون الوقت في احتساء القهوة، ولعب النرد (الطاولة)، وتدخين النرجيلة، وتناقل الإشاعات والنميمة، ومطالعة الصحف، ومشاهدة عروض مسرح خيال الظل، وسوى ذلك من وسائل الترفيه والتسلية[81]. وكان الموقف الذي اتخذته الحكومة العربية إزاء هذا المنبر يتسم بالغموض والالتباس. وعلى نحو ما جرى سرده في الفصل الرابع، فقد اتهمت جريدة **العاصمة** المقاهي بإفساد الأخلاق، وتخريب الحياة الأسرية، والتشجيع على ثقافة الكسل والتبطل. علاوة على ذلك، فقد خشي بعض أعضاء الحكومة أن تفسح المقاهي المجال لإجراء مناقشات غير مقيدة، وتدبير مكائد سياسية، فاتخذوا خطوات ترمي إلى تنظيمها إبان الحكم العرفي الذي سبق الاجتياح الفرنسي. ولم يكن مثل هذه المؤامرات من قبيل الخيال: إذ إن أولئك الذين جرى الزعم بأنهم تآمروا لاغتيال الأمير فيصل في شهر حزيران/ يونيو من

---

(80) MD 4H112/2b, «Excerpts from al-Rayeh 236,» 3 May 1920; MD 4H112/2b, Notebook entitled «Habib Bey Estephane,» 13 May 1920; USNA 59/890d.00/17/507, Jackson to Adm. Bristol, 19 May 1920.

(81) مقابلة مع فخري نوري الكيلاني، 8 تشرين الثاني/ نوفمبر 1989؛ مقابلة مع أبو رباح الجزائري، 15 تشرين الثاني/ نوفمبر 1989؛ مقابلة مع عمر خادم السروجي، 31 كانون الأول/ ديسمبر 1989.

عام 1919 كانوا يضعون خططهم في لقاءات كانوا يعقدونها يوميًا في المقهى السوري بدمشق[82].

سعى بعض المتنورين، من جهة ثانية، إلى استغلال هذه المنابر الجاهزة. ففي حماه، على سبيل المثال، كان هناك ما بين خمسين إلى ستين مقهى تقدم خدماتها إبان هذه الفترة. وقد اشتهر اثنان منها على وجه الخصوص بتقديم الأعمال المسرحية. وكان صاحب أحدهما توفيق الشيشكلي، وهو طبيب من خريجي مكتب عنبر، وأحد الزعماء البارزين في النادي العربي في المدينة. وثانيهما المسمى مقهى الصالون العائدة ملكيتُه للمجلس البلدي، كان يؤجر مسرحه للفرق التمثيلية. وغالبًا ما كان هواة يؤدون العروض التي تقدم في هذين المقهيين وسواهما من مقاهٍ – وكان هؤلاء، على سبيل المثال، شبانًا ينتمون إلى أسر بارزة ولديهم شغف بالتمثيل – يتقاضون أجرًا ضئيلًا يشاركهم فيه رعاتهم في النادي العربي وأصحاب المقهى[83].

يبدو أن اللجان الشعبية، على النقيض من الحكومة العربية والنادي العربي، لم تكن ترعى العروض المسرحية المقامة في المقاهي أو الأماكن الأخرى. ويرجح أن يكون السبب وراء ذلك ذا شقين. أولًا، لم تكن كل الجماهير التي تمثلها هذه اللجان تعتبر المسرح والتمثيل عملًا لائقًا لا يدعو للخجل. فعلى سبيل المثال، حينما أنتج الدكتور أسعد الحكيم – الذي درس مادة التمثيل في المدرسة

---

(82) **العاصمة**، 15 تموز/ يوليو 1920، ص 2–3؛ AD 2324/A-1, 25 June 1919; في إحدى المسرحيات المناهضة للصهيونية، وهي بعنوان **خراب فلسطين**، التي أنتجها فرع النادي العربي في نابلس في كانون الثاني/ يناير 1920، تؤدي رعاية بطلي المسرحية لأحد المقاهي بصورة مباشرة إلى انهيارهما: فأثناء زيارة شابة صهيونية للمقهى، تجعلهما يثملان، وتسلب أموالهما؛ ومستمِدَّةً الإلهام من قول «أحد الزعماء الصهاينة»: «ابذلوا قصارى جهدكم من أجل بلدكم وأمتكم»، تخدع الرجلين وتحملهما على تسجيل ممتلكاتهما باسمها. وبعدما خسرا كل شيء، اندفعا إلى السوق وهما يهتفان: «لقد دمرت البلاد، وسلب اليهود منا أرضنا وشرفنا». ومن ثم ينتحران. Muhammad Y. Muslih, The *Origins of Palestinian Nationalism* (New York, 1988), p. 169.

(83) مقابلة مع فخري نوري الكيلاني، 8 تشرين الثاني/ نوفمبر من عام 1989؛ مقابلة مع أبو رباح الجزائري، 15 تشرين الثاني/ نوفمبر 1989. شارك الكيلاني ذاته في العروض المسرحية التي كان يقدمها الهواة في المقاهي إبان عهد الانتداب الفرنسي (أدى دور جان فالجان ذات مرة في إنتاج درامي للبؤساء في فرقة مسرحية نظمها محمد البارودي).

الكاملية بينما كان كامل القصاب لا يزال مديرًا لها - مسرحيتين، لم يكتف بإحداث ضجة في دمشق وحسب، بل إن مسرحيتاه كانتا محل استهجان من جانب مجلة **الحقائق**، بينما تولى العلماء المحافظون جمع الآراء القانونية الرسمية التي تدين مثل هذه الأنشطة[84]. ولكن ربما كان العامل الأكثر أهمية الذي حال دون رعاية اللجنة الشعبية للعروض المسرحية، يتمثل في حقيقة مؤداها أن العروض المسرحية تلك، كانت تحاكي فعليًا التقسيم غير المتكافئ للمجتمع الذي كان أشراف مكة والمتنورون يناصرونه: إذ جاهد الممثلون المشاركون في الأعمال المسرحية الذين ينحدرون عادة من شريحة تعتبر نفسها من الشباب «المتنور» أو «المثقف»، من أجل خلق حضور جماهيري واسع ممن يعتنقون المبادئ القومية، وذلك عبر توجيه جمهورهم المنفعل نحو الأساطير القومية والفضائل الملائمة، بالتزامن مع العمل على تثبيط المشاركة الجماهيرية في السياسة القومية[85]. ولم تعكس الاحتفالات التي نظمتها اللجان الشعبية، على نحو ما سيتبين في الفصل التالي، مفهومًا مختلفًا تمامًا عن التنظيم الملائم للمجتمع فحسب، وإنما جعلت الاحتفالات تلك مطابقة لذلك التنظيم من حيث شكلها ومحتواها على حد سواء.

(84) القاسمي، مكتب عنبر، ص 23.

(85) يستكشف جورج ل. موس هذا التناقض ذاته في معرض تحليله لمسرحيات الشيء في ألمانيا النازية. Mosse, *The Nationalization of the Masses*, pp. 114-118.

الفصل السادس

الجماعات المحلية تتظاهر

لم تقتصر الأنشطة الاحتفالية التي تولت الحكومة العربية وحلفاؤها رعايتها على الاحتفال بالأعياد الرسمية وتقديم الأعمال المسرحية؛ فقد خطط ونفذ أخصائيو المراسم الاحتفالية العامة المرتبطون بالحكومة تظاهرات لم تكتفِ من حيث شكلها ومضمونها، شأنها في ذلك شأن شكل ومضمون الاحتفالات التي ورد وصفها في الفصل السابق، بالإفصاح عن الأهداف السياسية التي أعلنها مخططوها فحسب، بل وأظهرت أيضًا افتراضاتهم الأساسية بشأن التنظيم الملائم للمجتمع. وعلى أي حال، بخلاف الاحتفالات التي جرى تحليلها في الفصل السابق - ألا وهي الاحتفالات التي كانت في الغالب من عمل الحكومة وداعميها - فقد تولت اللجان الشعبية وحلفاؤها أيضًا تنظيم التظاهرات. وتضيف الحقيقة التي مؤداها أن هاتين الكتلتين القوميتين كلتاهما قد تمثلتا عبر وسيط مشترك بعدًا آخر إلى دراسة الاحتفالات: إذ إن من شأن عقد مقارنة ما بين التظاهرات التي نظمتها كلتا الكتلتين جنبًا إلى جنب أن تمكن المؤرخ من أن يظهر على نحو مباشر ذلك التباين القائم ما بين المبادئ الموجهة لكل منهما. فضلًا عن أن تحليل التظاهرات مفيد لسبب آخر: فعلى نحو ما سترد مناقشته أدناه، ونظرًا إلى أن التظاهرات التأكيدية (عنينا «الاستباقية») كانت من ذلك النمط الذي تنفذه اللجان الشعبية ولا يجري إلا في مجتمعات تكون الانتماءات الواسعة الأفقية والمجتمعية موجودة فيها إما جنبًا إلى جنب مع الانتماءات العمودية والمجتمعية أو تحل محلها؛ وذلك لأن تنظيمها في سورية يوفر دليلًا يؤكد وجود تحول ضمني في العلاقات الاجتماعية

والسياسية إبان الحقبة المتأخرة من العهد العثماني وبداية ما بعد العهد العثماني. وكما جرى النقاش في المدخل، فإن مثل هذا التحول يعد شرطًا مسبقًا لظهور حركات قومية ذات قواعد جماهيرية واسعة.

التظاهرات التي أجازتها الحكومة

لم تكن التظاهرات بدعة عرفها الشرق الأوسط العربي بعد الحرب العالمية الأولى، كما لم تكن الحكومة العربية في سورية أول حكومة في المنطقة تجيز إقامة التظاهرات وتنظمها. فقد كانت سورية طوال العهد العثماني تقيم المواكب الاستعراضية <العراضات> والتظاهرات للاحتفال بعدد من الأحداث، بما في ذلك تتويج السلاطين العثمانيين وميلاد أبنائهم. ولم تقتصر الاحتفالات في تلك المناسبات على تزيين واجهات المحال التجارية ورفع حبال الزينة من زهور وأعلام فوق المباني الحكومية، وإنما تولى أعيان كل حي من الأحياء تخطيط وتنظيم المواكب الاستعراضية التي كانت تشتمل عادة على مسيرة تتجه نحو مقر الحكومة السلطانية المحلية.

كان ترتيب المسيرات والأنشطة التي يجري تنفيذها في أثناء التظاهرات تلك مشابهًا – وعلى الأرجح مقتبسًا من – تنظيم المسيرة والأنشطة التي تجري في أثناء المواكب التي تسير للاحتفال بالمناسبات الدينية والأعراس: حيث يغني المتظاهرون في المسيرات الأغاني ذاتها أو أغانيَ مماثلة لها ويلوحون بالأسلحة الاحتفالية المعتادة مثل السيوف والعصي. وعلى غرار ما كان يجري في المواكب الدينية والأعراس، كان قادة التظاهرات يعتلي الواحدُ منهم كتفي أحد المشاركين الذين يسيرون في المقدمة لكي يشرف على تنفيذ الأنشطة ويوجه المشاركين في ترديد الهتافات الاحتفالية. وكانت المسيرة ذاتها بمثابة الفعالية الرئيسة في المراسم الاحتفالية تلك، ولدى وصول أفراد المسيرة إلى وجهتهم كانوا يمكثون لمدة وجيزة فحسب لكي «يظهروا شعور الولاء ومشاطرة الحكومة بالأفراح»، على حد تعبير أحد المراقبين المعاصرين[1].

(1) أحمد حلمي العلاف، دمشق في مطلع القرن العشرين، تحقيق علي جميل نعيسة (دمشق، =

نظمت الحكومة المحلية في دمشق التظاهرات بغية تضخيم المشاعر الشعبية في أثناء الأزمات الدولية، مثل الصراعات مع القوى الأوروبية بشأن كريت (1896–1897)، والبوسنة والهرسك (1908)، وحرب طرابلس (1911)، وكان يخصص لكل ثمن من أثمان المدينة يوم للتظاهر، وبالإمكان أن يتظاهر بمفرده أو بالاشتراك مع أثمان أخرى. وقد ضمنت الحكومة على هذا النحو إقامة سلسلة من التظاهرات تستمر أسبوعًا. وكما هو الحال في التظاهرات التي سبقت الإشارة إليها، كانت الجماهير تسير أولًا إلى دار الحكومة، وهي تلوّح بأسلحتها وتهتف بشعارات من قبيل:

«نحن نصوم نحن نصلي — جزيرة كريت للعصملي»

أو «طلياني يا ابن الكلب — مين قلك تنزل على الحرب

لما سمعت بصوت العصملي — صرت تعوي متل الكلب»[2].

ويتوجه المتظاهرون بعدئذ نحو أبواب القنصليات الأجنبية، حيث يواصلون ترديد الشعارات، بينما كان زعماؤهم يقدمون عرائض الاحتجاج إلى مندوبي الدول الأجنبية. وكان من شأن الطريق الذي سلكته التظاهرة (انطلاقًا من الأحياء السكنية وصولًا إلى القنصليات الأجنبية، مرورًا بدار الحكومة) ومراسم تقديم العرائض أن مكنت الجماهير من إظهار ولائها للحكومة العثمانية أمام المراقبين الأجانب ومعارضتها لتصرفات الأوروبيين على حد سواء. وبالتوازي مع ذلك، فقد مكن إضفاء الطابع المقدس على القضية العثمانية عبر تمثيلها في الاحتفال، إضافةً إلى المشاركة الشعبية فيه، الحكومة العثمانية من حث الشعب على بذل التضحيات (مثل الإذعان للتجنيد الإلزامي والضرائب الإضافية) التي كانت ضرورية لإزالة آثار العدوان الأجنبي. وهكذا حققت التظاهرات هدفًا موجهًا داخليًا وخارجيًا في آن.

= 1976)، ص 120–123؛ J. Lecerf & R. Tresse, «Les *'arada* de Damas,» *Bulletin d'études orientales*, vol. 7-8 (1937-1938), pp. 237-264.

(2) أغفل المؤلف من قبيل السهو ذكر المصدر الذي استقى منه هذه الهتافات. يُقارن مع: العلاف، دمشق، ص 122–123. (المترجم)

نظمت الفروع المحلية لجمعية الاتحاد والترقي في شهر تموز/ يوليو من عام 1908 تظاهرات في الأحياء تأييدًا للعودة إلى نظام الحكم الدستوري. وعلى غرار ذلك، نظم معارضوهم من الاتحاد المحمدي على نحو متعجل تظاهرات للاحتفال بمحاولة الانقلاب المضاد للجمعية الذي مني بالإخفاق في عام 1909. ووفقًا لما جاء في برقية كتبها ناصيف مشاقة، نائب القنصل الأميركي في دمشق، كانت التظاهرة التي أقيمت في المناسبة الأولى حدثًا يوميًا - يبعث على الخوف بالنسبة إليه - وأفاد بما يلي «تخيلوا أن قرابة خمسمئة شاب أمي، بعضهم يحملون السيوف بأيديهم، وآخرون سواهم يحملون المسدسات، والعديد منهم يحملون البنادق المحظورة التي كانوا قد سرقوها من الحكومة، ويتبع هذا الحشد كله جمع كبير من الناس يجوبون الشوارع والأسواق وهم يطلقون الرصاص ويصيحون»، <وأردف>

> في الثامن من هذا الشهر، كانت الخطابات، على وجه العموم، ذات طابع ليبرالي بصفة استثنائية. واعتلى المنصة ضابط من «تركيا الفتاة» برتبة يوزباشي <نقيب>، واستل سيفه، وطلب من الناس الوقوف وأن يرددوا من ورائه قسمًا فحواه أنه في حال عاد الطغيان ليسود من جديد، فسوف يطيحون به مهما كلفهم ذلك من غال ونفيس. وقد أقسموا أنهم على استعداد للتضحية بزوجاتهم، وأطفالهم ودمائهم في سبيل الحرية، وبعد أن رددوا هذا القسم ثلاث مرات علت ثلاثة هتافات منادية بالحرية، والجيش، والسلطان[3].

وبعد أقل من عام حشد الممثلون المحليون للاتحاد المحمدي سكان حي الميدان الذي زين وأضيء تكريمًا لهذه المناسبة، لكي ينظموا موكبًا يجوب الحي نهارًا وليلًا وهم يهتفون «لقد منح الله تعالى النصر للسلطان»[4].

لما كانت الحكومة العربية ملتزمة بتكتيك تحقيق الاستقلال عبر إظهارها لدول الوفاق أن السوريين كانوا مهيَّئين لنيل الاستقلال وموحَّدين في رغبتهم

---

(3) نقلاً عن: Elie Kedourie, *Arabic Political Memoirs and Other Studies* (London, 1974), p. 137;
يُنظر أيضًا: Lecerf & Tresse, «Les *'arada,*» p. 261; Philip S. Khoury, *Urban Notables and Arab Nationalism: The Politics of Damascus 1860-1920* (Cambridge, England, 1983), p. 56.

(4) Lecerf & Tresse, «Les *'arada,*» p. 261.

بتحقيقه، فقد رعت تظاهرات من أجل عرض قضيتها أمام العالم الخارجي. وكانت هذه التظاهرات تنقسم إلى نوعين: تظاهرات من أجل تقديم العرائض، يشتمل الحدث الرئيس الذي تتمحور حوله على تقديم لائحة بالمطالب على نحو مباشر أو غير مباشر إلى مندوبي دول الوفاق، وتظاهرات احتفالية، تعمل فيها الحكومة العربية و/ أو المنظمات السياسية المرتبطة بها مثل النادي العربي على حشد السكان كي يظهروا ولاءهم للحكومة، أو للأمير فيصل، أو لكليهما معًا.

ظهر برنامج عمل شامل لهذين النمطين من التظاهرات في مقال فذ نشر على الصفحة الأولى من جريدة **العاصمة** عشية وصول لجنة كينغ - كرين إلى دمشق[5]؛ إذ صيغ هذا المقال المعنون بـ «الرؤيا الصادقة» في شكل حكاية تنبؤية أوجزت صورة المستقبل الباهر في الاستقلال والتقدم الذي ينتظر السوريين إذا ما استطاعوا إقناع اللجنة - وعبر اللجنة هذه، دول الوفاق - أن بإمكانهم التصرف على نحو «متحضر».

بدأ المقال بوصفٍ للكاتب وهو على مكتبه، يتأمل أخبار التظاهرات التي أقيمت في مصر لإظهار الدعم الشعبي للاستقلال المصري: «نكاد لا [لا نكاد] نرى مثل هذا التنظيم الجيد في المظاهرات لدى أكثر الأمم الغربية تقدمًا»، وسرعان ما ستتردد أصداء الملاحظة التي أبداها الكاتب لدى علي رضا الركابي ذاته في مراسلاته الشخصية[6].

> قلت لنفسي، «يا إلهي لقد اتهموا ظلمًا الشرق وشعبه بالوحشية، والافتقار إلى النضج، والعجز عن محاكاة الحضارة الغربية. فما هو أكثر دلالة على جاهزيتهم [للاستقلال] من هذه المظاهرة المنظمة والمثالية الجديرة بالإعجاب؟».

وفيما كان الكاتب مستغرقًا في نومه، تراءى له في المنام أنه التقى بعراف اصطحبه في جولة في المستقبل - وهي جولة يتخللها إلقاؤه نظرة خاطفة على الزيارة

---

(5) **العاصمة**، 7 أيار/ مايو 1919، ص 1-2.

(6) كتب الركابي إلى سعيد شقير في تشرين الثاني/ نوفمبر 1919 قائلاً: «لا أظن أن المظاهرات التي تجري في أكثر البلدان تقدمًا هي أفضل تنظيمًا وأكثر سلمية». DU SA/493/6, 25 November 1919.

المزمعة للجنة إلى دمشق. ورأى في هذا المنام أن «أبناء هذه البلاد» مسترشدين بمفكريهم و«ما قام به أبناء هذه البلاد من المظاهرات المدنية والترتيبات المنظمة إعرابًا عن شعورهم الوطني ورغائبهم القومية مما كان داعيًا إلى إعجاب الوفد واعترافه بجدارة الأمة بالاستقلال». وقد شارك السوريون جميعًا على اختلاف أديانهم ومذاهبهم (كما حرص الكاتب على الإشارة)، في هذه التظاهرة، ووضعوا على سواعدهم أو صدورهم شارة كتب عليها (نريد الاستقلال التام). وقد نقشت هذه العبارة على طرابيش الأولاد الصغار وطرزت على عصائب الفتيات الصغيرات. وعلق أصحاب الحوانيت والفنادق ودور السكن الشعار ذاته على ألواح باللغتين العربية والإنكليزية ليكون على مرأى من المارة. وكان هذا الشعار منتشرًا في كل مكان لدرجة أن المرء «ما كان يمر في أي شارع من دون أن يرى تلك العبارات على أبواب الدور وعلى الجدران».

> وقد أضحكني مرأى رجل أصلع كتب هذه العبارة أيضًا على رأسه. ورأيت أصحاب العربات والخيول قد وضعوا تلك الشعارات على جباه الخيول، وتفنن باعة الحلوى في نقشها على صفائح الحلوى والحليب. وقد أعجبني ما رأيت في الشام من قيام أهالي الصالحية بكتابة هذا الشعار بالمصابيح على جبل قاسيون ليلًا. فكنت تقرأها على بعد فرسخين. واستمر الناس على هذه الحالة إلى أن غادر الوفد دمشق.

على الرغم من أنه بينما أبرز الدمشقيون هذا الشعار وحضروا التظاهرة - يؤكد كاتب المقال لقرائه أن أولئك الذين رفضوا المشاركة أسيئت معاملتهم مما اضطرهم إلى الانضمام إلى التظاهرات - إلا أن مشاركتهم، شأنها شأن مشاركتهم في الاحتفالات العامة التي يرد وصفها في الفصل السابق، كانت منفعلة. «وكانت المظاهرة التي قام بها الأهلون مبالغين في إتقانها، ساكتة لا ضوضاء فيها ولا خطب، ولكنها كانت بصمتها وسكوتها أبلغ من أي مظاهرة تقدمتها». وقد أعجب أعضاء اللجنة بما وجدوه لدى السوريين من «ذكاء ورقي وجدارة بالاستقلال»، وعادوا إلى باريس بتوصية منح السوريين استقلالهم. «لقد قضي الأمر». واختتم الكاتب المقال بخلاصة جرى الاستشهاد بها في مدخل هذا الكتاب، مؤداها أن المستقبل الباهر للتقدم الاقتصادي الذي تحقق بفضل التقدم التكنولوجي، كان بانتظار السوريين مكافأة لهم على الجهود التي بذلوها.

وعلى نحو ما سيتبين أدناه، بينما كانت معظم التظاهرات التي نظمتها الحكومة ينسجم مع النمط الذي أوجزته مقالة «الرؤيا الصادقة»، لم يكن بوسع الكاتب إلا أن يغفل ذكر جانب من جوانب هذه التظاهرات: إذ لم تكتف الحكومة العربية بتنظيم هذه التظاهرات من أجل إثارة إعجاب دول الوفاق فحسب، وإنما توخت أيضًا من التظاهرات التي نظمتها وتولت رعايتها، والأعياد الرسمية التي أقرتها، وقد جرت مناقشتها في الفصل السابق، التأثير في قناعات المشاركين فيها والمتفرجين عليها، شأنها في ذلك شأن التظاهرات التي نظمتها الحكومة العثمانية للاحتجاج على العدوان الأجنبي. وهكذا، لئن قدمت الحكومة العربية لممثلي دول الوفاق «أنموذجًا» للمجتمع السوري (مضللًا إلى حد بعيد)، إلا أنها استخدمت، في الوقت ذاته، هذه التظاهرات لكي تقدم لسكان سورية «أنموذجًا عن» المجتمع معترف به رسميًا.

بدأت الحكومة العربية، في أغلب الأحيان، بفرض «أنموذج عن» المجتمع خاص بها حتى قبل أن يتجمع أول المتظاهرين. فعلى سبيل المثال، أسهم تداول العرائض وجمع التواقيع في تلك التظاهرات، التي كان تقديم العرائض إلى مندوبي القوى الأجنبية يشكل الحدث الرئيس الذي تتمحور حوله، في تحقيق هذه الغاية. وكما سبقت الإشارة، ونظرًا إلى أن حملة تقديم العرائض كان يجري تنسيقها بصورة مركزية على يد الحكومة العربية، وغالبًا ما كان يجري ذلك بالتعاون مع النادي العربي، فقد تضمنت كافة العرائض التي جرى تداولها في حملة بعينها مطالب تكاد تكون متطابقة. ولكن إضافةً إلى نشر المطالب التي وافقت عليها الحكومة، اتخذت العرائض صيغة موحدة تعزز مفاهيم التقسيم الطبقي الاجتماعي الذي أيدته الحكومة وحلفاؤها من المتنورين. وكانت الجملة الأولى التي تتصدر كل عريضة تعلن اسم المنطقة أو المدينة التي يجري تداول العريضة فيها (نحن الموقعين أدناه سكان....)، ومن ثم، وقبل ذكر المطالب كان يجري تعداد الفئات التي قسمت الحكومة العربية سكان المنطقة إليها (على سبيل المثال، «أعضاء كافة المذاهب» و«أعضاء كافة الطوائف» و«أعضاء كافة الأديان»). ولهذه الانقسامات، غالبًا ما كانت التواقيع التي تذيَّل بها العريضة مقسمة على نحو مماثل وفقًا لوجهة نظر الحكومة بشأن الانقسامات الطبيعية

داخل المجتمع السوري، التي لم يكن بالإمكان رأبها إلا عبر شخص الأمير فيصل[7]. وكثيرًا ما كانت الحكومة العربية تعيد استنساخ هذه الانقسامات فعليًا حينما ترتب صفوف المتظاهرين الذين قدموا يد العون في مراسم تقديم العريضة.

لما كان توزيع هذه العرائض يحظى بدعم الحكومة العربية والمنتسبين إلى النادي العربي، فقد انتشرت العرائض تلك، ومفاهيم التقسيم الطبقي الاجتماعي الذي يروجون له على نطاق واسع. ولئن سبق أن ورد وصف الدور الذي اضطلع به مخاتير الأحياء في حملات تقديم العرائض، إلا أن تداول العرائض امتد بعيدًا متجاوزًا حدود المناطق الحضرية. وإبان حملة تقديم العريضة التي سبقت تظاهرة 20 شباط/ فبراير من عام 1920، على سبيل المثال، لم تقتصر جولة وكلاء الحكومة العربية والنادي العربي على المنطقة الشرقية فحسب، بل امتدت أيضًا لتشمل المناطق المجاورة كافة. وتولى سامي العظم، وهو عضو في اللجنة التنفيذية للنادي العربي في دمشق، على سبيل المثال، وضع العرائض والإشراف على توزيعها في منطقتي قطنا (جنوب غرب دمشق) ودوما (شمال شرق دمشق). وقد اغتنم العظم فرصة توزيع العرائض لتأسيس فروع للنادي العربي فيهما، وفي المناطق المجاورة لهما. ووفقًا للتقارير الفرنسية كان قائمقام <مدير> المنطقة، عبد الله الأسطواني – وهو محام تلقى تعليمه وتأهيله المهني في اسطنبول، ونجل عبد المحسن الأسطواني، العضو في مجلس شورى الدولة في الحكومة العربية – قد أرسل ثلاثين فارسًا ليرافقوا العظم في جولاته. وجمع ممثلو النادي العربي التواقيع بالطريقة ذاتها في مناطق بعيدة مثل عمان والسلط والكرك وبيروت[8].

---

(7) جرى حفظ أصول العرائض وترجمتها في العديد من دور المحفوظات في كل من بريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة. إضافةً إلى ذلك، طبعت الكثير من العرائض في الصحف السورية مثل **العاصمة** و**الكوكب**.

(8) AD 2368/10/2/162, Cousse to HC, 21 February 1919.

وفقًا لما أوردته التقارير الفرنسية، يُزعم أن ممثلي النادي العربي انتزعوا تواقيع القرى الدرزية والمسيحية في قطنا، حيث لم يتوقع النادي الحصول على أي دعم للعريضة تلك – بوساطة تقديم العريضة هذه باعتبارها احتجاجًا على إدخال تعديلات على نظام جباية الضرائب – وهي تعديلات من شأنها زيادة العبء الضريبي المفروض على المزارعين.

تؤكد التقارير كذلك أن العريضة هذه قدمت إلى سكان القرى المسلمة في سياق تخييرهم بين حكومة فرنسية/ مسيحية وحكومة عربية/ إسلامية. وأما أولئك الذين جرى اعتبارهم متمردين محتملين فقد وضعوا =

كان الهدف من التظاهرة التي أقيمت في دمشق في 20 شباط/ فبراير من عام 1919 تقديم العرائض التي جمعها العظم وزملاؤه إلى مندوبي دول الوفاق. وعلى الرغم من أن التظاهرة، كما سنرى أدناه، لم تجر في الواقع كما خطط لها، إلا أن الحكومة العربية والنادي العربي قد وزعا بالفعل برنامجًا لهذه الفعالية يشهد على خطط الجهات المنظمة لها ودوافعها. ووفقًا لهذا لبرنامج، كان المخططون يعتزمون أن تكون مشاركة الحشد قصيرة الأمد (أقل من ساعة)، وأن يكون دورهم هامشيًا. والواقع إن الحشد سيقدم نفسه بوصفه لوحة حية جرى تنظيمها بغية جذب اهتمام الجهات التي تتلقى العرائض والتأثير عليها: إذ كان يتعين على المتظاهرين الذين جرى ترتيب صفوفهم تحت إشراف مخاتيرهم المحليين ووفقًا لخط سير محدد سلفًا، أن يسيروا في موكب ينطلق من أحيائهم باتجاه دار البلدية. وهناك بينما كانوا ينصتون بصبر وأناة للخطب التي لم تكن تلقى على مسامعهم باللغة العربية فحسب، وانما باللغتين الفرنسية والإنكليزية أيضًا - وهما لغتان يجهلهما معظم المتظاهرين - كانت وفود من المتنورين الذين اختارهم النادي العربي بعناية تقدم العرائض للمندوبين الأجانب. وعلى نحو ما ينص عليه هذا البرنامج، كان من المقرر أن يجري تقديم العرائض - وهو الحدث الرئيس الذي تمحورت حوله هذه التظاهرة - بعيدًا من الأنظار وخلف الأبواب المغلقة[9].

على مدار العام التالي - عنينا إلى أن فقدت الحكومة العربية سيطرتها على الشوارع لمصلحة اللجان الشعبية - نظمت الحكومة ومؤيدوها سلسلة من التظاهرات التي تشاركت في العديد من الخصائص الرئيسة مع تظاهرة تقديم العريضة هذه[10]. وكما هو عليه الحال في المراسم الاحتفالية التي نظمتها

= رهن الاعتقال لمدة أربع وعشرين ساعة في أثناء توزيع العريضة. وإضافة إلى ذلك، اشتكى ضابط الارتباط الفرنسي من أنه طُلب إلى سكان دوما أن يوقعوا على ورقة بيضاء فارغة كتب عليها في وقت لاحق، «نحن الموقعون <الموقعين> أدناه، نفوض الأمير فيصل بالتصرف نيابة عنا وأن يمثلنا أمام مؤتمر السلام للمطالبة بالاستقلال التام لسورية...». AD 2430/154, Cousse to HC, 19 February 1919; AD 2430, Cousse to HC, 18 March 1919.

(9) AD 2430/no no., Cousse to HC, 21 February 1919; AD 2430/dossier confidentiel-départ/65, Cousse to HC, 21 February 1919.

(10) للاطلاع على وصف لهذه التظاهرات، يُنظر: AD 2429/42, Mercier to Pichon, 11 November =

الحكومة العربية للاحتفال بالأعياد القومية الرسمية، كان طلبة المدارس الابتدائية والثانوية التي تتلقى الدعم من الحكومة؛ والجيش العربي، وموظفو الحكومة العربية؛ وأي عضو من أعضاء الجمعيات السياسية أو الخيرية المتحالفة مع الحكومة، والنقابات المعاد تشكيلها حديثًا، و«المنظمات الثقافية» مثل النادي العربي هم الذين يمثلون الركائز التي تقوم عليها هذه التظاهرات. وقد أدى حشد هذه المجموعات في التظاهرات إلى تحقيق هدفين من أهداف الحكومة العربية. أولًا، مكن الحكومةَ تنفيذ تعبئة لسكان سورية مسيطر عليها، بالتزامن مع تجاوز منافسيها – الذين يُحتمل أنها أنهكتهم – من أمثال أعضاء المعارضة المنتمين إلى طبقة الوجهاء الدمشقيين المحليين، ولاحقًا، اللجان الشعبية. علاوة على ذلك، فإن عملية حشد الجماهير في كل تظاهرة – انتقاء المشاركين وتنظيمهم وترتيب صفوفهم في المسيرة، وتحديد مشاركتهم من عدمها في مختلف الفقرات المتعاقبة لمراسم الاحتفال – قد سمحت للحكومة بتحديد الشبكات المؤسسية التي تخضع لهيمنتها وتوسيع نطاقها، بينما توفر لسكان سورية من جديد «أنموذجًا عن» المجتمع معترف به رسميًا.

إضافةً إلى ذلك، لما كانت جميع التظاهرات التي تدعمها الحكومة تتشاطر في تخطيطها هدفًا موجهًا خارجيًا – يتمثل في أن تظهر لدول الوفاق أن سكان سورية مهيأون للاستقلال ويقفون موحدين خلف الحكومة العربية والأمير فيصل – فقد نيط بتلاميذ المدارس، وأعضاء النقابات، والناشطين السياسيين، والجنود والموظفين الذين أدمجوا فيها الاضطلاع بأدوار مماثلة. وخلافًا للعديد من التظاهرات التي نظمتها اللجان الشعبية غداة أزمة الاستبدال – وكانت تلك التظاهرات ستحتفل، في الواقع، بالحشد ذاته – نادرًا ما كان المشاركون في التظاهرات التي ترعاها الحكومة محور الاحتفال أو حتى الأطراف الفاعلة الرئيسة في الفعالية. إذ غالبًا ما كانت الحكومة وحلفاؤها يحشدون المتظاهرين ليكونوا بمثابة خلفية لمحط التركيز الحقيقي، مثل تقديم العرائض. وكانوا يسندون إلى المتظاهرين في أحيان أخرى أدوارًا صغيرة في حدث يتعلق في المقام الأول بالأمير

1918; AD 2430, Cousse to Dame, 20 March 1919; MAE L:AH/vol. 4/237-238, Picot to Pichon, 22 May = 1919; AD 2430/240, 11 August 1919.

فيصل، والمتنورين، ودول الوفاق. ولما كان من شأن التظاهرات التي ترعاها الحكومة أن تنقل معناها وأن تؤدي مهماتها من دون المشاركة النشطة للحشود في الحدث الرئيس الذي تتمحور حوله، ونظرًا إلى خشية الحكومة من أن يؤدي جموح الحشد إلى تعريض مصداقيتها للخطر في أعين القوى الأجنبية، وأن يلقي بظلال من الشك على مدى استعداد السوريين للاستقلال[11]، فقد أخذ حضور الحشود في التظاهرات التي ترعاها الحكومة بالتلاشي على نحو متسق وباتت مشاركاتهم مقتصرة على أشخاص معينين.

كانت التظاهرة التي أقيمت في دمشق في ربيع عام 1919 للترحيب بالأمير فيصل لدى عودته من زيارته الأولى إلى أوروبا تعد مثالًا للتظاهرات الاحتفالية التي نظمتها الحكومة العربية وحلفاؤها. وكان فيصل الذي أمضى ما يزيد على خمسة أشهر بعيدًا من سورية، قد عاد إلى دمشق من أجل توجيه الأعمال التحضيرية للزيارة المرتقبة للجنة كينغ - كرين. وما إن وصل خبر مغادرة الأمير فيصل أوروبا متجهًا نحو دمشق، حتى بدأت الحكومة العربية بالتحضير لإقامة احتفالات الاستقبال. ووفقًا لما أورده ضابط الارتباط الفرنسي المقيم في دمشق في تقرير له «ليس من الضروري أن أخبركم أن جميع الأنشطة هنا موجهة لضمان استقبال مهيب له» <وأردف قائلًا...>

> ...دعت الشرطة بنفسها جميع السكان لرفع الأعلام العربية؛ وجرى حشد طلبة المدارس، وقد شرع في تشييد أقواس النصر وخاصة في الأرجاء كافة، وكان ثمة وعود بإلقاء عدد لا حصر له من الخطب. ومما لا شك فيه أن وصول الأمير سوف يكون حدثًا ذا أهمية فائقة في الشؤون السورية[12].

وقد أوردت الصحف المحلية، قبل عودة الأمير إلى العاصمة بعدة أيام، أنباء عن رحلته من روما إلى بيروت، كما نقلت تقارير عن الاحتفالات التي أقيمت في

(11) للاطلاع على وصف لهذه التظاهرات، يُنظر: AD 2430/no no., Cousse to HC, 21 February 1919; MD L:AH/vol. 4/237-238, Picot to Pichon, 22 May 1919; MD L:SL/vol. 43/39-41, «Renseignements d'agent,» 12 July 1919; AD 2344/c1/310, Cousse to Picot, 3 November 1919.

(12) AD 2430, Cousse to Dame, 20 April 1919.

بيروت على شرفه، ومن ثم تتبعت تقدمه نحو دمشق[13]. ولضمان استقبال يليق به في العاصمة السورية، نشرت جريدة **العاصمة** مقالةً افتتاحيةً على صدر صفحتها الأولى في 2 أيار/ مايو بعنوان «سمو الأمير فيصل المعظم»، أثنت فيه على الجهود التي بذلها فيصل في أوروبا، وسردت ما كان يتسم به من صفات بوصفه بطلًا عربيًا «كان وما زال يدأب في تأمين مستقبل الأمة» وقد «انتشل أمة بأسرها من براثن الاستعباد»[14].

لقد جرى تنسيق التظاهرة التي نظمت في دمشق لاستقبال الأمير، شأنها شأن التظاهرة الآنفة الذكر، التي هيأت الأرضية اللازمة لتسليم العرائض لمندوبي دول الوفاق، وجرت إقامتها على يد المجلس البلدي في دمشق. ونظمت لتكون احتفالًا بانتصارات الأمير، الذي وصف أحد المراقبين السوريين دخوله إلى المدينة كما يلي:

> عندما وصل سمو الأمير فيصل دمشق امتطى عربة تجرها ثمانية خيول عليها سروج من الذهب والفضة، ونصبت له أقواس النصر، وزينت جنباتها بالحلي والجواهر التي تبرعت بها سيدات دمشق. ثم فرشت له في الطرق خمسة وعشرون ألف سجادة[15].

توجهت جموع من السوريين، وفقًا لجريدة **العاصمة**، لاستقبال فيصل؛ وعلى الرغم من ذلك، لم يكن الاحتفال سوى مجرد واجهة خارجية جرى التخطيط لها بغية جذب اهتمام دول الوفاق والتأثير فيها. وبعد أن حيا الجماهير على عجل، انتقل الأمير فيصل إلى حديقة بالقرب من المكان ليخاطب مجموعة صغيرة كانت قد دعيت لحضور هذه الفعالية التي اقتصرت على المدعوين وحسب[16]. وفي الحديقة، ألقى الخطباء كلمات للترحيب به، وقصائد جرى نظمها خصيصًا لهذه

---

(13) يُنظر، على سبيل المثال: **العاصمة**، 2 أيار/ مايو 1919، ص 2.

(14) المرجع نفسه، ص 1.

(15) غالب العياشي، **الإيضاحات السياسية وأسرار الانتداب الفرنسي على سوريا** (بيروت، 1955)، ص 32.

(16) **العاصمة**، 7 أيار/ مايو 1919، ص 5-6.

المناسبة. وردًا على ذلك، توجه الأمير بالشكر إلى مندوبي دول الوفاق الذين حضروا هذه المناسبة، وعلى الدعم الذي قدمته حكوماتهم الذين «ناصروا الأمة على الأعداء، ومنحوها الاستقلال». وإضافةً إلى ذلك أثنى الأمير على الأمة السورية «لما أبدته خلال الخمسة أشهر الماضية من المحافظة على السكينة والوئام.... ليرشحنا لأن نحوز الاستقلال التام». وأقام الحاكم العسكري، بعد الاحتفال الذي جرى في الحديقة، مأدبة على شرف الأمير فيصل دعي إليها أيضًا «أركان الحكومة العسكريون والملكيون، ولفيف من العلماء والوجهاء والرؤساء الروحيين، ووفود الملحقات».

كان الاحتفال الذي أقيم لاستقبال فيصل بشقيه العام والخاص، شأنه شأن الاحتفال بالأعياد الوطنية من الناحيتين العامة والخاصة، يحاكيان التقسيم الثنائي للمجتمع السوري إلى مجموعتين: ففيما عملت مجموعة منتقاة من الأعيان ورؤساء الطوائف والمتنورين وهلم جرّا، على تدبير شؤون الدولة، أبعد اختصاصيو مراسم الاحتفالات العامة الجماهير وأسندوا إليهم دورًا منفعلًا. ومن قبيل المفارقة، عندئذ، أن هذه التظاهرة شأنها شأن سواها من التظاهرات التي نظمتها الحكومة العربية، قد أكدت حقيقة مؤداها أن القرارات السياسية الحقيقية لم تكن تتخذ بطريقة ديمقراطية ولا في الشوارع.

لم يكن يجري عرض المعنى المقصود من التظاهرات التي ترعاها الحكومة، على أي حال، بوساطة الشكل الذي كانت تتخذه وحسب. وكما هو موضح في الفصل السابق، فقد تولت الحكومة التدقيق بالشعارات التي يرددها المتظاهرون والرسائل المكتوبة على راياتهم. وإضافةً إلى ذلك، أفادت الحكومة العربية من الطابع المسرحي للتظاهرات وإسناد دور ثانوي أو منفعل للجماهير كي تغرس في الأذهان «الأنموذج الملائم عن» المجتمع السوري والسياسة القومية. ولعل هذا كان أكثر وضوحًا في العرض العسكري الذي سبق التظاهرات التي أقيمت في دمشق في 16 تشرين الثاني/ نوفمبر من عام 1919. ووفقًا للروايات الرسمية، كان الهدف من هذا العرض العسكري إظهار وحدة الشعب السوري والتأكيد من جديد على رغبته في الاستقلال التام ورفضه «لأي وطنية أو قومية سوى القومية

العربية في أي جزء من أجزاء [سورية]». وشكلت العربات ذات المنصات التي صممت لتجسد هذه الرسالة جزءًا لا يتجزأ من صفوف المشاركين في المسيرة. وحمل بعض المتظاهرين، على سبيل المثال، منضدة مزينة بألوان من العلم العربي هي الأسود والأبيض والأخضر. ووضعت الجهات المنظمة للاستعراض على المنضدة تلك نسخًا من العهد القديم والعهد الجديد والقرآن، في إشارة واضحة على وحدة الجماعات المنفصلة اليهودية، والمسيحية، والمسلمة ضمن إطار «الدين الجديد»، ممثلًا بالقومية العربية[17]. كذلك ضم الاستعراض عربة وقف فيها رجل يرتدي زيًا يمثل خريطة سورية، وقد قسمت إلى عدة أجزاء معنونة بـ«المنطقة الشرقية»، و«المنطقة الجنوبية»، و«المنطقة الساحلية»، على نحو يتطابق مع تقسيم دول الوفاق للولايات التي كانت تابعة للإمبراطورية العثمانية. وكما ورد في جريدة الحكومة الرسمية، <**العاصمة**>، «كان هذا الشخص الممثل للوطن يسأل الجمهور عما إذا كانوا يرضون بتقسيمه، وتقطيعه، أو استعماره فيجيبون بجمل تعرب عن المبادئ التي أجمع الوطن عليها»[18]. وكانت هناك عربة أخرى يستقلها عامل طباعة، يتولى طباعة الشعارات الوطنية على مطبعة ويوزعها على الجماهير، لضمان ألا يغيب عن بال السكان الموضوع المحوري للتظاهرة.

لم تحقق التظاهرات التي نظمتها الحكومة العربية القصيرة الأجل، في آخر المطاف، أيًا من أهدافها سواء تلك الموجهة داخليًا أم الموجهة خارجيًا. وحسبما يمكن التأكد منه بالاستناد إلى البرقيات التي أرسلها مندوبو الدول الأجنبية المقيمون في سورية إلى بلادهم، كان مندوبو دول الوفاق ينظرون إلى التظاهرات على أنها تبعث على الحيرة والذهول أحيانًا، والازدراء في أحيان أخرى. وكتب فرانسوا جورج بيكو في رسالة بعث بها إلى رؤسائه في وزارة الخارجية قائلًا «إنه لمن دواعي الشرف أن أرسل إليكم... نسخة من الأمر الذي أصدرته بلدية دمشق إلى الهيئات التابعة لها، والمتضمن ترتيبًا يشمل أدق التفصيلات المتعلقة

(17) AD 2344/c1/149-151, 17 November 1919.

(18) **العاصمة**، 17 تشرين الثاني/ نوفمبر 1919، ص 3-4.

بالاحتفال الذي نظمته لاستقبال الأمير فيصل. وليس في الوثيقة هذه ما يثير الاهتمام باستثناء أنها تظهر [لكم]... كيف يمكن المرء أن ينظم تظاهرة شعبية عفوية تظهر التأييد الإجماعي تجاه أي رأي ترغبون به»[19].

وعلى المنوال نفسه، وفي حين كانت الحكومة العربية عاجزة في نهاية المطاف عن غرس النمط القومي الخاص بها في أذهان الشعب السوري لمجموعة متنوعة من الأسباب لا تتصل على الإطلاق بالطريقة التي نظمت بها التظاهرات، لم تقدم التظاهرات التي أجازتها سوى القليل لتعزيز الدعم الذي تحظى به بين الجماهير. ولم تكن التظاهرات فعالة لعدة أسباب. أولًا، اعتمدت التظاهرات التي ترعاها الحكومة على لافتات توجيهية كانت ضعيفة نسبيًا بالمقارنة مع الرموز الرنانة وذات التأويلات المتعددة التي أفادت منها اللجان الشعبية. ومما زاد في تضاؤل تأثير الرسالة التي تحملها هذه التظاهرات أنه لم يكن هناك رابط متأصل بين الحدث الرئيس الذي تتمحور حوله التظاهرات - مثل تقديم العرائض - والتنظيم الفعلي للمشاركين. وليس من قبيل المصادفة: أنه بينما نيطت بالتظاهرات التي نظمتها الحكومة العربية مهمة أساسية تتمثل في إبراز الطابع «المتحضر» للشعب السوري واستعداده لأن يحكم نفسه بنفسه، وجدت الحكومة نفسها مضطرة إلى أن تبقي المتظاهرين عمليًا بمعزل عن العالم الخارجي، خشية أن يظهروا لامبالاتهم إزاء المعايير الأوروبية للحضارة وشعورهم بالإحباط تجاه النهج التكتيكي الذي اتخذته الحكومة لتحقيق الاستقلال. وإضافةً إلى ذلك، ونظرًا إلى أنه لم يكن بوسع الحكومة العربية أن تحافظ على سيطرتها على الشوارع (كما يتبين ذلك مثلًا، من وضع مجموعة من أعشاش المدافع الرشاشة في الشوارع العامة لدمشق في ثلاث مناسبات في الأقل)، فقد بذلت الكثير من الجهد في سبيل قمع التظاهرات بقدر ما بذلته من أجل الترويج لها[20]. وأخيرًا - وربما كان الأكثر

---

(19) MAE L:AH/vol. 4/237-238, Picot to Pichon, 22 May 1919.

(20) AD 2344/c1/310, Cousse to Picot, 3 November 1919; AD 2344/325, Cousse to Picot, 10 November 1919; MD 4H114/1/434, Cousse to Gouraud, 28 December 1919;

للاطلاع على وضع أعشاش المدافع الرشاشة في دمشق إبان زيارة لجنة كينغ - كرين، وبعد مغادرتها، وفي أثناء الأيام الأخيرة للحكومة العربية، يُنظر: MAE L:SL/vol. 14/897, Picot to MAE, 27 June 1919; FO 371/4182/125032, «CPO: Report on a Conversation in Cairo with Michel Bey Lotfullah on His Return =

أهمية – أن النزعة القومية التي سعت الحكومة العربية للترويج لها عبر التظاهرات لم تلق أي صدى لدى السكان.

لا تتجلى القدرة المحدودة للتظاهرات التي ترعاها الحكومة والرامية إلى غرس نظرة عالمية وأيديولوجية في أذهان الشعب السوري، ولكنها بدت دخيلة بالنسبة إلى الكثير منهم، إلا حينما تعقد مقارنة ما بين الخطط التي وضعت لإقامة التظاهرات تلك، والروايات التي تصف تنفيذها الفعلي. وفي بعض الأحيان، تولى النشطاء السياسيون الذين يعارضون سياسات الحكومة إفساد المغزى المقصود من التظاهرات التي كانت ترعاها الحكومة. وعلى سبيل المثال، ذكرت التقارير أن التظاهرات التي أقيمت في دمشق للاحتفال بعودة فيصل إلى سورية بعد أن وقع الأمير بالأحرف الأولى اتفاق فيصل – كليمنصو – قد ولدت حماسةً أقل بكثير مما ولدته تلك التظاهرات التي أقيمت احتفالًا بعودته الأولى من أوروبا – إذ إن أفرادًا مجهولين، من الواضح أنهم كانوا متضايقين من محاولة الأمير الساعية إلى التوصل إلى تسوية مع دول الوفاق والصهاينة في باريس ومن اختطاف البريطانيين لياسين الهاشمي، صعدوا إلى سطح مبنى النادي العربي وألقوا على الحشود أوراقًا طبعت عليها شعارات مناهضة للحكومة ولفيصل. وكان من بين الشعارات تلك «الموت لمن يخون فلسطين» و«صن يا فيصل تراث الأنبياء وأسلافنا» و«أين قائدك العام يا فيصل؟» و«إن الأمة العربية لا تتجزأ»[21].

رفض الجمهور ذاته، في مناسبات أخرى، الاضطلاع بالدور الذي كانت قد ناطته الحكومة وحلفاؤها به. ولم تكن التظاهرة التي أقيمت في شهر شباط/ فبراير من عام 1919 لمواكبة تقديم العرائض لممثلي دول الوفاق، في الواقع، تتسم بالشعبية ولا بالانضباط اللذين توقعهما مخططوها. ووفقًا لتقديرات أحد المراقبين الفرنسيين الذي بدت عليه أمارات السرور بوضوح، لم يحضر الاحتفال سوى ثلاثمئة أو أربعمئة مشارك، بما في ذلك عدد من المتفرجين الفضوليين،

---

from Syria August 5th 1919»; MD 4H114/dossier 5/no no., Cousse to Gouraud, 20 July 1920; MD 4H60/ = dossier 1, «Bulletin quotidien 1270,» 23 July 1920; IO L/PS/10/802/P5841, GHQ (Egypt) to WO, 24 July 1920.

(21) AD 2372/dossier: propagande anti-française, 17 January 1920.

وهو عدد بعيد كل البعد من آلاف المشاركين الذين توقعت الحكومة العربية حضورهم. علاوة على ذلك، فقد أضفى الأداء الموسيقي ورفع الأعلام والرايات طابعًا احتفاليًا على التظاهرة، مما أفسد الصفة الجدية للمناسبة[22]. وربما لهذا السبب، اقتصرت الخطب التي ألقيت على كلمتين موجهتين للجمهور وحسب، بدلًا من سلسلة طويلة من الخطب. إضافة إلى ذلك، يبدو أن المتظاهرين كانوا عبر أنشطتهم يتباهون بانفصالهم عن الموضوعات الرئيسة في الاحتفال وعدم اكتراثهم بها على حد سواء. ولئن كانت الحكومة العربية، وفقًا لما أورده أسعد داغر الذي يزعم أنه كان حاضرًا في هذه الفعالية، قد رتبت التظاهرة لكي تكون بمثابة الخلفية لعملية تقديم العرائض التي صيغت على نحو يظهر لمندوبي الدول الأجنبية أن السوريين يدعمون الجهود التي يبذلها فيصل من أجل التفاوض مع دول الوفاق بالنيابة عنهم، وأن سورية كانت مهيأة للانضمام إلى صفوف الأمم «المتحضرة» في العالم، إلا أن الحشد الذي نفد صبره راح يردد شعارًا كان في جوهره يناقض هذه الغاية: «دين محمد هو دين السيف»[23].

لم يبق الحشد، مع ذلك، منفصلًا تمامًا عن الحدث الرئيس الذي تتمحور حوله التظاهرة، بل على العكس من ذلك، تحول تركيز التظاهرة من التفويض الممنوح لهؤلاء بتقديم العرائض إلى المندوبين الأجانب الذي أحيط بقدر من الكتمان ليصبح منصبًا على تقديم جماعي لنسخ العرائض إلى الحاكم العسكري، علي رضا الركابي، الذي سيضطلع بمسؤولية إيصال العرائض تلك لهم[24]. وهكذا، سواء كان ذلك نتيجة التعديل الذي أجرته الجهات المنظمة في اللحظة الأخيرة استجابة لما أبداه السكان من لامبالاة أو كراهية، أو مقاومة فعلية أو معنوية للتظاهرة ذاتها، أو مزيجًا من ذلك كله، فإن أولئك الذين جرى حشدهم أعادوا

---

(22) AD 2430/no no., Cousse to HC, 21 February 1919; AD 2430/dossier confidentiel-départ/65, Cousse to HC, 21 February 1919.

(23) AD 2367/10/1/146, Cousse to HC, 14 February 1919; AD 2430/no no., Cousse to HC, 21 February 1919; AD 2430/65, Cousse to HC, 21 February 1919;

أسعد داغر، **مذكراتي على هامش القضية العربية** (القاهرة، 1956)، ص 105.

(24) AD 2430/no no., Cousse to HC, 21 February 1919; AD 2430/65, Cousse to HC, 21 February 1919.

صياغة الاحتفال واضطلعوا بدور المشاركين النشطين فيه، عوضًا عن أن يكونوا شهودًا على الحدث الرئيس الذي تتمحور حوله التظاهرات وحسب. وعلى نحو ما سيتبين في الجزء التالي <من هذا الفصل>، كان التغيير الذي طرأ على تسلسل الأحداث المحورية التي تضمنتها التظاهرة، وحول، في الواقع، فعالية كان الهدف منها تأكيد هيكلة محددة للمجتمع وبرنامج سياسي لتصبح فعالية تتحدى تلك الهيكلية وذلك البرنامج، مما يدلل على التوتر الكامن الذي كان حاضرًا في الاحتفالات التوجيهية كافة، ما بين غايات الذين تولوا التعبئة وتطلعات الجماهير التي جرى حشدها.

تظاهرات اللجان الشعبية

في بدايات شهر أيلول/ سبتمبر من عام 1919، تولى النادي العربي في دمشق، استجابة منه لذلك الزخم ذاته الذي عجل في عملية تشكيل ميليشيات من المتطوعين، حشد تظاهرة لا تماثل أي تظاهرة سبق أن خططت لها الحكومة العربية أو الجمعيات السياسية المتحالفة معها. وعلى الرغم من أن اتفاق الخامس عشر من أيلول/ سبتمبر، واختطاف ياسين الهاشمي ونفيه، وكون تنظيم اللجان الشعبية أمرًا ما زال متروكًا للمستقبل، إلا أن الحكومة العربية كانت ضعيفة بوجه خاص في ذلك الحين: فقد جاءت لجنة كينغ - كرين إلى سورية ثم غادرتها، وعلى الرغم من أن توصياتها ما زالت طي الكتمان، إلا أن أعمالًا استفزازية من قبيل قبول بريطانيا الانتداب على فلسطين في أواخر الصيف غذت الشكوك التي شعر بها العديد من السوريين حيال فاعلية الجهود الدبلوماسية التي تبذلها الحكومة العربية والتزامها الاستقلالَ التام ووحدة سورية. فوفقًا لصحيفة **سورية الجديدة**، على سبيل المثال،

> لم تحصل سورية من اللجنة الأميركية على أي شيء سوى الانقسام واضطراب الأذهان. فلا أحد يشك في أن أوروبا سوف تلقي بمطالب الأمة عرض الحائط، وأنها ما برحت تسعى إلى حل هذه المسألة بما يخدم مصالحها السياسية[25].

(25) نقلًا عن: Malcolm Russell, *The First Modern Arab State: Syria under Faysal 1918-1920* (Minneapolis, 1985), pp. 91-92.

لما كانت الحكومة العربية وحلفاؤها يتخذون وضعًا دفاعيًا، فلم يكن بوسعهم سوى الاستجابة لحالة التأجيج الشعبي الذي كانت الحكومة ذاتها قد غذته، بصورة غير مقصودة، عبر الجهود التي بذلتها من أجل حشد الجماهير إبان ربيع وصيف عام 1919. ونتيجة لذلك، شارك الأمير فيصل وحاشيته في التاسع من أيلول/ سبتمبر في تظاهرة أقيمت، وفقًا لتقرير أوردته جريدة **العاصمة** من أجل «تعزيز الجندية العربية.... وعزمها النهائي على التمسك بحقها في الوحدة والاستقلال حتى النهاية»(26).

تشير العديد من الأدلة إلى أن المسؤولين في الحكومة، ومن بينهم الأمير فيصل والحاكم العسكري، كانوا ينظرون إلى المشاركة في التظاهرة باعتبارها وسيلة لاستمالة الرأي العام المعارض وتهدئته. فعلى سبيل المثال، عوضًا عن تجاهل التحريض على الدفاع المسلح أو السعي إلى كبح جماحه (سرعان ما حاول البريطانيون قمعه بنقل الهاشمي إلى فلسطين بعد دعوته إلى تجنيد اثني عشر ألف متطوع)، كان ممثلو الحكومة، وفي عدادهم الكثير من أولئك الذين دلت تصرفاتهم اللاحقة على أنهم ما زالوا متمسكين بثقتهم بدول الوفاق ومفاوضات باريس، قد تبنوا الدعوة للدفاع بوصفها نابعة منهم. وفي مقابلة نشرتها صحيفة **الكوكب** على سبيل المثال، ميز علي رضا الركابي، بناء على ذلك، ما بين الدفاع الذي دعا إليه «المفكرون، والزعماء، والصالحون» – عنينا الدفاع «باستخدام كافة الوسائل الفعالة والعقلانية التي تتماشى مع المحافظة على النظام والسكينة» – والدفاع الذي ينادي به «الغوغاء». وأفادت المقالة «أنه على استعداد لأن يبذل كل جهد ممكن، سواء كان ماديًا أم معنويًا، من أجل الدفاع القومي الحقيقي عن الأمة، والانضمام إلى إخوته الوطنيين الجديرين بالثقة في خدمة الأمة، وتأسيس دفاع

---

(26) **العاصمة**، 11 أيلول/ سبتمبر 1919، ص 4-6. كانت التظاهرة هذه في الواقع ثانية التظاهرات التي نظمت في غضون عدة أسابيع لمناصرة توسيع نطاق التجنيد العسكري، وبصورة ضمنية، انتهاج سياسة خارجية أكثر قوة. ووفقًا لما أورده تقرير فرنسي غير مفصل، فقد شهدت التظاهرة الأولى التي قادها كل من الأمير زيد و<الخوري> يوسف اصطفان (أحد الخطباء الرئيسين في تظاهرة 9 أيلول/ سبتمبر)، توجه كتيبة من الجيش العربي النظامي وبرفقتها عدد يتراوح ما بين ثلاثمئة وأربعمئة مقاتل متطوع إلى دار فيصل. ولم أتمكن من الحصول على أي معلومات أخرى بشأن التظاهرة هذه. AD 2430/dossier confidentiel-départ/257, Telegram to HC, 4 September 1919.

عقلاني منظم»، ومن ثم حذر من مغبة تبني النهج البديل للدفاع: «سوف يتراجع بلدنا الحبيب إذا ما تناهشته أنياب الشقاق والأنانية والمصالح الخاصة»[27]. علاوة على ذلك، على الرغم من أن حضور مسؤولين رفيعي المستوى في الحكومة، ومن بينهم الأمير فيصل ومساعدوه المقربون إليه، قد أضفى على التظاهرة مصادقة رسمية، إلا أن إجراء دراسة متأنية للرمزية التي كانت جزءًا لا يتجزأ من التظاهرة، وتكوينها، وأنشطة المتظاهرين، ومحتوى الخطابات التي ألقاها خطباء بعينهم، يكشف عن حكومة مستعدة للإقرار بالأساس الرمزي لخصومها.

كان برنامج التظاهرة مركبًا، يتكون من سلسلة من الفعاليات المتعاقبة. ووفقًا لما جاء في جريدة **العاصمة**[28]، «بدأت المظاهرة عندما اجتمعت في تلك الساعة جماعات الأحزاب كلها، والجمعيات بأسرها، والنقابات بمجموعها، وفتيان الأحياء الوطنية... كل حي بجملته»، وكان النادي العربي قد نظم هذه التظاهرة، وتجمع هؤلاء عند مقر النادي للدعوة إلى «التجنيد في سبيل الوطن». وانضم إليهم في النادي موكب آخر، كان على نحو ما أشارت إليه الخطب التي تلت ذلك النقطة المحورية للتظاهرة، وقد ضمت هذه المجموعة من المسيرة التي تقودها وحدة من سلاح الفرسان التابع للجيش العربي النظامي، «الشبان وأبناء الأعيان» من أحياء الشاغور والميدان والقيمرية والعمارة، وأحياء أخرى سواها، كانوا قد سجلوا أنفسهم في الكتيبة، التي رعاها النادي العربي وكانت الآن تسير خلف راية النادي. وقد سارت خلفهم مباشرة، كتيبة من شبان حي القنوات المجندين حديثًا يتقدمهم جمل فوقه هودج «يعد رمزًا لمجد الأمة، ويجب أن يحميه أبناء الأمة حتى آخر فرد منهم».

سار الحشد بأكمله مسافة قصيرة، انطلاقًا من النادي العربي، نحو المكان الذي كان ينتظرهم فيه الأمير فيصل، وشقيقه، وحاشيتهما، وحيث جرى تبادل الخطب ما بين المتظاهرين وأشراف مكة. وتحدث باسم المشاركين في المسيرة

(27) **الكوكب**، 6 كانون الثاني/ يناير 1920، ص 5.

(28) يمكن الاطلاع على وصف للتظاهرة هذه، إضافة إلى نصوص الكلمات التي ألقيت في أثناء تنظيمها في: **العاصمة**، 11 أيلول/ سبتمبر 1919، ص 4-6.

ثلاثة خطباء اختارهم جميعًا النادي العربي: الشيخ عبد القادر المظفر، رئيس النادي؛ ومحمد شريقي الذي كان بوصفه شاعر النادي العربي، غالبًا ما يلقي أشعاره بالمناسبات الاحتفالية[29]؛ وكاهن ماروني سابق يدعى يوسف اصطفان، سوف يسخر في الأشهر التي تلت هذه التظاهرة خطاباته الحماسية المناهضة لفرنسا لخدمة اللجان الشعبية[30]. وبعد أن رد فيصل على الخطباء الثلاثة، انتقل الحشد إلى ساحة الشهداء لإحياء حفل آخر، لكن من دون الأمير هذه المرة. وخاطب اصطفان الجماهير مرة ثانية، وإنما من شرفة دار البلدية المطلة على الساحة التي كان المسؤولون الحكوميون يستخدمونها عادة لإلقاء خطاباتهم الرسمية. وقد استحضر اصطفان صورة الشهداء الذين، وفق ما أعلنه، «ينظرون إلى الشباب من جزيئات ترابهم ليكملوا المهمة التي بدأوها». وبعد الكلمة التي ألقاها اصطفان عادت الحشود إلى مبنى النادي العربي حيث تفرقوا من هناك.

تبدو هذه التظاهرة، للوهلة الأولى، مماثلة للاحتفالات والتظاهرات الأخرى التي خططت لها الحكومة العربية أو حلفاؤها من قبل ومن بعد: استعراض عسكري أمام الأمير، وتبادل للكلمات، واستحضار للشهداء، وعروض التوجيهية، وقائمة من الخطباء («عالم»، و«خوري»، و«شاب متعلم»، على حد تعبير العاصمة) الذين

---

(29) للاستزادة بشأن الشقيري، يُنظر: AD 2430/dossier confidentiel-départ/634, Cousse to HC, 24 October 1919;

العاصمة، 12 تموز/ يوليو 1920، ص 1؛ FO 317/5040/E13211/1171, Report by GL Easton, 18 October 1920;

محمد عزة دروزة، **حول الحركة العربية الحديثة** (صيدا، 1950)، ج 1، ص 27؛ محمد عزة دروزة، **مذكرات وتسجيلات** (دمشق، 1984)، ج 2، ص 99، 112، 143-144؛ خليل مردم بك، **دمشق والقدس في العشرينات**، شرحه وقدم له عدنان مردم بك (بيروت، 1978)، ج 2، ص 29، 47-48؛ Safiuddin Joarder, *Syria Under the French Mandate: The Early Phase, 1920-1927* (Dacca, 1977), pp. 209-211.

(30) للاستزادة بشأن يوسف اصطفان، ينظر: AD 2368/10/2, «Rapport à lieut. Wiet,» 2 January 1919; AD 2437/dossier: propagande arabe/43, «Rapport sur les journaux du 26 et 27 Mai,» 28 May 1919; AD 2430/dossier confidentiel-départ/216, 21 July 1919; AD 2430/dossier confidentiel-départ/257, Telegram to HC, 4 September 1919; AD 2430/dossier confidentiel-départ/260, Telegram to HC, 18 September 1919; MD 4H112/2B/44, «Renseignements du 8 au 15 Mai, 1920 (Ça et là dans Alep);» MD 4H112/2B, Untitled notebook by French agent; FO 371/5036/E6983/24-27/748, Shahbandar to Easton, 1 June 1920;

الكنانة، 15 تموز/ يوليو 1920، ص 3؛ MD 4H114/5/no no., Cousse to Gouraud, 20 July 1920; P. G. Angelil, «L'occupation d'Homs: Angoisses et délivrance,» *Petites relations d'orient*, vol. 6 (November 1920), pp. 180-191; FO 371/5040/E13211/212-218/1171, G. L. Easton to Curzon, 18 October 1920.

جرى انتقاؤهم بعناية ليكونوا ممثلين للفئات الأنموذجية التي تلائم «أنموذجًا عن» المجتمع أقرته الحكومة. وحتى الخطاب الذي ألقاه فيصل أمام المتظاهرين لم يكن يختلف اختلافًا كبيرًا عن الخطابات الأخرى التي سبق له أن ألقاها أو تلك التي سوف يواصل إلقاءها: فقد قدم نفسه بوصفه «الشخص الذي ائتمنتموه على مصالحكم وأسلمتموه قيادة سياستكم»، ودافع عن مصداقية دول الوفاق، وأكد للحضور أن هذه الدول لن تنكث وعودها التي قطعتها أيام الحرب. وأعلن أنه، على النقيض من روايات الصحف، لم ولن يقدم على أي عمل من شأنه أن يعرض وحدة سورية واستقلالها للخطر.

على الرغم من أوجه التشابه تلك، إلا أن هذه التظاهرة كانت مختلفة عن الاحتفالات التي تناولناها سابقًا من أوجه عدة. فقد درجت العادة في المناسبات الاحتفالية الأخرى، على سبيل المثال، أن يبدي الحشد احترامهم وإجلالهم الرمزي لفيصل، عبر تجمعهم تحت شرفة مقر إقامته أو دار الحكومة؛ ففي هذه المناسبة لم يقتصر الأمر على خروج الأمير من مقر إقامته ممتطيًا جواده ليقف في منتصف الطريق ما بين مقر إقامته ومبنى النادي العربي بانتظار الحشد فحسب، بل إن الحشد انسحب من المكان الذي كان يوجد فيه الأمير ليقيم احتفالًا خاصًا به لم يدع اليه الأمير. وجرى الاحتفال تحت الشرفة ذاتها التي ارتبطت بإعلان البيانات الرسمية. علاوة على ذلك، وبحسب ما يمكننا أن نستدل عليه من الكلمات التي ألقاها ممثلو الحشد، لم يكن اللقاء مع الأمير من أجل تقديم الالتماسات؛ وعوضًا عن أن يمثل الأمير المحور الأساسي في السلطة - مانح العطاء والشفيع لدى العالم الخارجي - اضطلع بدور الرمز للوحدة القومية والشاهد على أنشطة الأمة. وعلى حد قول يوسف اصطفان «لقد جئنا إلى هذا المكان لنجدد أمامكم وتحت هذا اللواء العربي عهدًا عقدناه بيننا وبين الوطن». وإذا كان النص الذي أوردته الجريدة دقيقًا، فقد كرر اصطفان عبارة «عهدًا قطعناه بيننا وبين الوطن» مرتين في خطابه.

ربما تميزت هذه التظاهرة عن تلك التظاهرات الوارد وصفها آنفًا بالدور المناط بالمشاركين فيها. فخلافًا لغيرها من التظاهرات والاحتفالات التي ارتبطت

بالحكومة العربية وحلفائها – وهي تظاهرات منعت فيها الحشود من المشاركة المباشرة في الفقرات الاحتفالية المتسلسلة، واضطلعت بدور منفعل بوصفها الستارة الخلفية أو، في أفضل حال، الجمهور المتفرج – أما في هذه التظاهرة، فقد اضطلع المشاركون بدور أدائي محوري. لكن لم يكن المشاركون هم المحتفلين الأساسيين فحسب، وإنما كانوا أيضًا موضوع الاحتفال. وقد أعلن عبد القادر المظفر: «لقد أصبحنا منذ هذه الساعة جنودًا... وقد اجتمع فتيان الأمة الآن إذ شعروا بأن حريتنا واستقلالنا لا يزالان بحاجة إلى أن نكون جنودًا».

ثمة جانبان لهذه التظاهرة يدلان على قرب إقامة التظاهرات التي ترعاها اللجان الشعبية. أولًا، كما هو الحال مع الكلمة الاستهلالية التي ألقاها اصطفان، فإن اللقاء ما بين المتظاهرين وفيصل، والاحتفال الذي تلاه الذي أقيم في ساحة الشهداء، كلها تبين بوضوح أن التظاهرة فصلت على نحو رمزي «الأمة» عن المؤسسة الحاكمة ومنحت الأفضلية للأولى على الأخيرة. ولما كانت اللجان الشعبية تدعي أنها تجسد الأمة وتمثل إرادتها، ونظرًا إلى أن التظاهرات التي كانوا يرعونها، إذًا، ترمز للأمة المجتمعة، فقد كان هذا الفصل والتمييز موضوعًا ثابتًا في تظاهراتها أيضًا.

ثانيًا، لم تكتف التظاهرة التي أقيمت في التاسع من أيلول/ سبتمبر بتقديم الحشد على أنه يضطلع بدور فعال فحسب، بل أكدت فاعلية دوره واستقلاليته بذاته عبر إشراكه في نشاط ذي مرجعية ذاتية تمامًا. وسيغدو استخدام المشاركين بوصفهم القوة الدافعة لتعزيز الحدث الرئيس الذي تتمحور حوله التظاهرات السمة المميزة لكل التظاهرات التي تتولى اللجان الشعبية رعايتها. علاوة على ذلك، بينما تعرضت سلطة الحكومة العربية للمزيد من الضعف في ربيع وأوائل صيف عام 1920، ازداد تخلي الحكومة عن السيطرة على شوارع المدن السورية لمصلحة اللجان الشعبية التي خففت أو حتى ألغت من التظاهرات التي كانت ترعاها الفقرات الاحتفالية التي تجسد معارضتها لسياسات الحكومة العربية و/ أو دول الوفاق. وبإلغائها كل المرجعيات التي لا صلة لها بالمتظاهرين أنفسهم، كانت اللجان الشعبية، في الواقع، تتولى رعاية التظاهرات التي لا هدف لها سوى

تقديم صورة مصغرة عن أمة موجهة ذاتيًا ومكتفية ذاتيًا. ولم يواكب الاحتفال بالأمة واستقلالها الذاتي في هذه التظاهرات الرسائل الرمزية الأخرى فحسب، وإنما حل محلها.

كانت تظاهرات تقديم العرائض تعد أولى التظاهرات الواسعة النطاق التي نظمتها اللجان الشعبية وأكثرها شيوعًا. وربما كانت هذه التظاهرات في معظم الأحيان مختلفة عن تلك التي نظمتها الحكومة العربية والقائمة على أساس سلسلة من الأحداث الرئيسة التي تتمحور حولها، ويتخللها تقديم الحشد العرائض إلى ممثلي الحكومة العربية. وكانت هذه العرائض إما أن تبت في أمرها الحكومة ذاتها، أو أن يصار إلى تمريرها إلى دول الوفاق. وكان لهذا التحول في هوية متلقي العرائض دلالات رمزية مهمة: فبوساطة تقديم لائحة بالمطالب إلى الحكومة العربية باسم الأمة، لم يكتف المتظاهرون، تحت قيادة اللجان الشعبية، بإعادة تمثيل المواجهة بين الأمة والحكومة فحسب، بل أعادوا بصورة رمزية إيجاد التوازن الملائم بين خصمين. ونتيجة لذلك، حتى تلك التظاهرات التي تضمنت تقديم العرائض وتبدأ بالتعبير عن الولاء إلى أمير جعلوا منه رمزًا – على غرار التظاهرة التي أقيمت في كانون الثاني/ يناير من عام 1920، الوارد وصفها أدناه – إنما كانت تتخذ طابعًا صداميًا أكثر منه توسليًا.

في أعقاب اختطاف الهاشمي، على سبيل المثال، تولت اللجنة الوطنية العليا المشكلة حديثًا تنظيم تظاهرة تضمنت تقديم عريضة في دمشق للاحتجاج على عملية الاختطاف هذه. وفي أثناء التظاهرة تلك سلم كامل القصاب وأسعد داغر، اللذان يمثلان اللجنة، الأمير زيد عريضة ليقدمها بدوره إلى دول الوفاق، باسم الأمة. ومن الواضح أن العريضة قد تضمنت إنذارًا لم يكن موجهًا إلى دول الوفاق وحدها: «إن الأمة تعتبر الفريق الهاشمي من أبرز ممثلي الحركة القومية التي كانت عاملًا من أهم العوامل في انتصار الحلفاء في الشرق»، ذلكم هو ما أعلنته هذه العريضة عن هذا الرجل الذي على الرغم من كونه من أوائل أعضاء العربية الفتاة، إلا أنه آثر أن يبقى في الجيش العثماني بدلًا من الانضمام إلى جيش أشراف مكة. «لن تكون الأمة مسؤولة عن العواقب التي قد تنجم عن [اعتقال] هذا الفريق، ولا

عن أي عمل آخر يتعارض مع تطلعاتها وحقوقها المقدسة»[31]. وبناء على ذلك، لم تكن نبرة هذه العريضة تتخذ طابعًا تبجيليًا ولا توسليًا، شأنها في ذلك شأن العريضة التي ورد ذكرها في الفصل الثالث والمعنونة «الأمة تملي رغباتها على المؤتمر السوري»، التي استمدت قوتها العاطفية من إعادتها التأكيد للفكرة ذات الطابع الصدامي «الأمة تريد» المستخدمة قبل كل مطلب من المطالب العديدة الموجهة إلى المؤتمر السوري.

لعل التظاهرة الأضخم التي شهدتها دمشق إبان العهد الفيصلي، كانت تلك التي قدرت السلطات البريطانية بأن عدد المشاركين فيها قد تجاوز المئة ألف شخص، ألا وهي تظاهرة تقديم العريضة التي نظمتها لجان الدفاع الوطني في 17 كانون الثاني/ يناير من عام 1920[32]. ففي اليوم الذي سبق التظاهرة كان الأمير فيصل الذي وقع بالأحرف الأولى اتفاقًا موقتًا مع رئيس الوزراء ووزير

---

(31) AD 2332/dossier a/sous-dossier Loutfallah/1, Kamil al-Qassab and As'ad Daghir to Amir Zayd, n.d. (in Arabic and French),

كان المتظاهرون في المدن الواقعة خارج دمشق يوجهون عرائضهم إلى الممثلين المحليين للحكومة العربية، الذين عهدوا إليهم مسؤولية إرسال قائمة بمطالبهم إلى العاصمة. يُنظر، على سبيل المثال، MD 4H112/2bB/215, «Manifestation de protestation contre les actes du gouvernement du littoral,» 14 April 1920;

يطالعنا محمد علي العجلوني، رئيس الحرس الملكي ومنافس الهاشمي، في مذكراته بمشهد أكثر سخرية في ما يتصل بالتظاهرات التي نظمت احتجاجًا على اعتقال الهاشمي. ففي إحدى تلك التظاهرات، التي شارك فيها طلبة المعاهد المهنية، وما إلى ذلك، وينسب تنظيمها إلى النادي العربي، يكتب قائلًا إنه كان يقف على شرفة دار الأمير فيصل حين تجمعت تحت الشرفة الحشود الصاخبة. وعندما انحنى أحد الأشخاص من الشرفة إلى الأسفل، وصاح في المحتشدين قائلًا «لماذا تريدون الهاشمي؟» رد المحتشدون بالقول «نريد معاقبته وتقطيعه لأشلاء صغيرة». محمد علي العجلوني، **ذكريات عن الثورة العربية الكبرى** (عمان، 1956)، ص 85.

(32) FO 371/5144/E360, «Letter of Proceedings #59,» Egypt and Red Sea Command, 30 January 1920.

من أجل تقدير مماثل، ينظر: **الكوكب**، 27 كانون الثاني/ يناير، 1920، ص 5. كما وصف ضابط الارتباط الفرنسي أعداد المتظاهرين بـ «الغفيرة». MD 4H114/2/37, Cousse to Gouraud, 17 January 1920. ويعزو التقرير ذاته تنظيم التظاهرة إلى تحالف مؤلف من الجماعات «المتطرفة»، بما في ذلك اللجنة الوطنية العليا، ولجنة الدفاع الوطني، والنادي العربي. وكان أحد المنشورات التي استخدمت للإعلان عن التظاهرة (محفوظ في AD 2372/dossier: propagande anti-française) يحمل توقيع «مؤتمر لجان الدفاع».

الخارجية بالوكالة جورج كليمنصو، قد وصل إلى دمشق للمرة الثانية في غضون ثمانية أشهر. ومع أن الحكومتين العربية والفرنسية لم تكونا قد نشرتا نص اتفاقية فيصل - كليمنصو، حين وصل الأمير إلى دمشق، لكن الإشاعات عن محتوى هذا الاتفاق ترددت أصداؤها على نطاق واسع في دمشق[33]. بدأت هذه التظاهرة (التي كانت الموضوع مناط البحث في مقالتين نشرتا في الصحف وأشرنا إليهما في بداية الفصل الثالث) بمسيرة انطلقت من الثكنة <القشلة> الحميدية نحو مقر الحكومة العربية. وعندما خرج فيصل من المبنى للقاء المتظاهرين في الشارع، قدموا له «مطالبهم القومية» في إطار صيغة إعلان يدعو إلى الاستقلال التام لسورية داخل حدودها الطبيعية وتجنيد «جيش وطني سوف يدافع عن استقلالها ويحافظ على الأمن داخل البلاد وخارجها»[34].

بحلول ربيع عام 1920، نظمت اللجان الشعبية، التي غالبًا ما كانت تعمل ضمن إطار تحالفات تعكس الظروف المحلية، سلسلة من التظاهرات الهادفة إلى تقديم العرائض في كافة أنحاء المنطقة الشرقية أكدت فيها الاستقلال الذاتي للأمة وسيادتها على نحو أشد صراحة. وبدلًا من تقديم العريضة إلى الحكومة لكي تتوسط لدى دول الوفاق بالنيابة عن الأمة، تجاهلت هذه الاحتجاجات الحكومة كليًا وقدمت العرائض إلى دول الوفاق بشكل مباشر. وقد نظمت اللجنة الوطنية العليا في دمشق، إضافة إلى فروعها المحلية في حلب، وحمص، وحماه تظاهرات عديدة من هذا القبيل طوال ربيع وأوائل صيف عام 1920 احتجاجًا على قضايا ذات أهمية خاصة لدى أنصارها، بما في ذلك الهجرة الصهيونية إلى فلسطين، والإجراءات التي اتخذتها فرنسا في لبنان (إصدار العملة السورية الجديدة، والقيود المفروضة على خطب الجمعة)، واتفاقية سان ريمو التي قسمت سورية إلى مناطق خاضعة للانتداب[35].

---

(33) للاطلاع على الشائعات المتداولة في دمشق، يُنظر: **الدفاع**، 17 كانون الثاني/ يناير 1920، ص 1؛ FO 371/5144/E360, «Letter of Proceedings #59,» Egypt and Red Sea Command, 30 January 1920.

(34) AD 2372/dossier: propagande anti-française, 17 January 1920; AD 2375/chemise: division de Syrie/392/2, Arlabosse to GCDS, 17 January 1920;

الكوكب، 27 كانون الثاني/ يناير 1920، ص 5.

(35) يُنظر، على سبيل المثال، IO L/PS/10/802/P4953, «Renseignements: semaine du 18 au 24 Mai 1920»; AD 2346, «Extraits des renseignements du 19 Mai 1920».

بينما واصلت اللجان الشعبية تنظيم التظاهرات التي ألمحت إلى الاستقلال الذاتي للأمة وسيادتها بالتزامن مع الاحتجاج على الإجراءات التي اتخذتها دول الوفاق أو التردد الذي أبدته الحكومة العربية، نظمت أيضًا تظاهرات اقتصرت على المناداة بالاستقلال والسيادة. وكانت هذه التظاهرات تمثل خروجًا جذريًا على التظاهرات التي يتخللها تقديم العرائض، لأنها كانت عبر إلغائها الفقرات الاحتفالية التي تشير إلى الأحداث أو السلطات الخارجية ذات طبيعة شاملة بحد ذاتها. علاوة على ذلك، وخلافًا للتظاهرات التي نوقشت أعلاه، غالبًا ما كان العديد من هذه التظاهرات ذات طابع احتفالي، ومحدودة النطاق، ومن دون قائد ظاهريًا، و/ أو نظمت على نحو عشوائي. وفي بعض المناسبات، كان المتظاهرون المسلحون يسيرون عبر الأحياء السكنية وهم يرددون الشعارات وينشدون الأغاني. وتوجت التظاهرات، في مناسبات أخرى، بإلقاء كلمات تمجد الأمة السورية، أو بأداء قسم الولاء فعليًا أو رمزيًا الذي يتعهد فيه المشاركون بالدفاع عن الوطن أو إعادة صياغة العقد الاجتماعي الذي يوحد السوريين مع بعضهم بعضًا أو يوحد بين الأمة والدولة[36]. وقد تولى كامل القصاب إدارة أحد مراسم تأدية القسم عشية الاجتياح الفرنسي. ووفقًا لتقرير أوردته صحيفة **الكنانة**، بدأت المراسم في مقر النادي العربي باجتماع ضم أكثر من ثلاثمئة مشارك. ومن هناك انطلق المدعوون بأكملهم في موكب وهم ينشدون «الأغاني الوطنية»، نحو اجتماع عقده الحزب الديمقراطي في حي مأذنة الشحم. وبعد أن ألقى كامل القصاب خطابًا ذكّر فيه بكل ما تمكنت اللجنة الوطنية العليا من تحقيقه «بالرغم من فساد الفاسدين وخداع المتغطرسين»، دعا جمهوره إلى «تجديد عهودهم». ومن ثم أدار مراسم أداء القسم لعدد يقدر بألف وخمسمئة منتسب جديد إلى الحزب[37].

(36) يُنظر، على سبيل المثال: AD 2344/327, Cousse to Picot, 10 November 1919; MAE L:SL/vol. 121/1-2, «Rapport de renseignements hebdomadaires,» 10-17 November 1919; FO 371/4185/152060/I.707S, GHQ (Egypt) to DMI, 11 November 1919; FO 371/4238/160100/8-11, «Situation in Egypt, Syria, and Arabia,» 14 November 1919; AD 2344/c1/149-150-151, 17 November 1919; FO 371/4185/158008/408-409, «Summaries of Telegrams,» 29 November 1919; USNA 59/867.00/1035/1682, US Consul (Aleppo) to Sec. of State, 1 December 1919;

الكوكب، 2 كانون الأول/ ديسمبر 1919؛ 6-7; FO 371/4186/165787/I.1224, GHQ (Egypt) to DMI, 23 December 1919; FO 371/4186/174490/FO 10 (CPO331/6), Meinertzhagen to GHQ, 13 January 1920; MD 4H114/5/700, Cousse to Gouraud, 16 July 1920; MD 4H60/1, «Bulletin quotidien 1264,» 20 July 1920; MD 4H60/1, «Bulletin quotidien 1266,» 21 July 1920.

(37) **الكنانة**، 15 تموز/ يوليو 1920، ص 3.

ازداد تعزيز المحتوى الموضوعي للتظاهرات التي اتخذت طابعًا احتفاليًا وتلك التي تخللها تقديم العرائض اللتين نظمتهما اللجان الشعبية عن طريق هيكلها الداخلي. وبخلاف التظاهرات التي نظمها خصوم اللجان - عنينا التظاهرات التي عرضت «أنموذجًا عن» المجتمع ذا طابع مثالي وغير مألوف وقدمته إلى السكان المستهدفين الذين يشكلون جمهورها المحلي - صممت التظاهرات التي نظمتها اللجان الشعبية على نحو يؤكد «أنموذجًا للمجتمع» كما خبره السكان المشاركون الذين نيط بهم دور المؤدين. ومثلت اللجنة الشعبية المحلية الركيزة الأساسية التي تقوم عليها هذه التظاهرات، وكانت مشاركة معظم الأفراد في هذه التظاهرات إنما تجري برعاية اللجان المحلية التي ينتمون إليها. ولما كانت اللجان المحلية هذه، كما هو مبين في الفصل الثاني، قد أخذت على عاتقها مسؤولية النهوض بمجموعة متنوعة من المهام اليومية المرتبطة عادة بالحكومة - الاضطلاع بمهام الشرطة، وضبط الأمن في أحياء المناطق الحضرية، وتزويدها بالمؤن، وتنظيم الميليشيات المحلية، وهلم جرّا - ونظرًا إلى أن هذه اللجان كانت مرتبطة بعضها ببعض وفقًا لهيكل هرمي يضم لجان الأحياء، ولجان الدفاع الجهوية، واللجنة الوطنية، فقد أعادت هذه التظاهرات، في الواقع، إنشاء «أنموذج للمجتمع» بالتزامن مع وضعها برامج عمل فعالة من حيث الغرض وقومية من حيث النطاق[38].

سمحت اللجان الشعبية في التظاهرات المنظمة تنظيمًا أكثر إتقانًا لمجموعات أخرى غير اللجان الحفاظ على هوياتها الفردية أو المؤسسية في صفوف المسيرة. ومع ذلك، ولما كانت هذه المجموعات قد وضعت خلف طليعة تمثل اللجان الشعبية، ونظرًا إلى أن مواقعها في التظاهرة كانت تبدو عشوائية وتخلو من الترتيب الهرمي، فإن الأفراد والمجموعات ممن لا صلة لهم باللجان قد جرى إدراجهم على نحو رمزي ضمن اللجان، وبالتالي ضمن الأمة السورية. وعلى سبيل المثال، رتبت لجان الدفاع الوطني صفوف التظاهرة التي أقيمت في 17 كانون الثاني/

(38) للاطلاع على تحليل مماثل، يُنظر: Mary Ryan, «The American Parade: Representation of the Nineteenth-Century Social Order,» in: Lynn Hunt (ed.), *The New Cultural History* (Berkeley, 1989), pp. 137-138.

يناير على النحو التالي: تتصدر المسيرة أرامل وبنات الشهداء والعلماء وسواهم من القادة الروحيين، كما لو أنهم يكرسون قدسية هؤلاء الذين يمثلون الوحدة الروحية للأمة. وسار خلف هؤلاء مباشرة أعضاء اللجان الشعبية وممثلو اللجنة الوطنية العليا. وختامًا، تلا ذلك، من دون ترتيب ظاهر الأعيان وأعضاء المجلس البلدي، والموظفون الحكوميون، وممثلو الأحزاب السياسية، وطلبة المدارس المهنية والإعدادية، والتجار، والحرفيون، وفي النهاية رؤساء النقابات وزعماء الأحياء[39].

لقد أثارت التظاهرات من هذا النمط الذي رعته اللجان الشعبية الحماسة إبان تلك الفترات التي تضاءلت فيها المشاركة في التظاهرات التي ترعاها الحكومة. ففي التاسع من تشرين الثاني/ نوفمبر من عام 1919، على سبيل المثال، جذبت تظاهرة انتهت بوصول المشاركين إلى مقر إقامة فيصل وهم يصيحون «إلى الحرب، إلى الحرب» حشودًا يتراوح عدد المشاركين فيها ما بين خمسة عشر ألفًا وعشرين ألفًا. وفي اليوم التالي، لم يشارك سوى جزء ضئيل من ذلك العدد في تظاهرة بلغت ذروتها في تقديم رئيس بلدية دمشق عريضة إلى القناصل الأجانب[40]. وقد أشار مراقب فرنسي إلى ظاهرة مماثلة حينما جرى التنافس بين التظاهرات التي نظمتها الحكومة العربية وتلك التي نظمتها اللجان الشعبية يومي 16 و17 كانون الثاني/ يناير من عام 1920 غداة عودة الأمير فيصل إلى دمشق قادمًا من أوروبا[41]. ولا يمكن أن تعزى مثل هذه الحوادث ببساطة إلى قدرة اللجان الشعبية على تعبئة الموارد على نحو أكثر فاعلية من الحكومة العربية، أو قدرتها على ممارسة الضغط الاجتماعي على سكان تلك الأحياء التي تنشط فيها؛ إذ كانت هذه القدرات، على

---

(39) يمكن الاطلاع على ترتيب سير التظاهرة التي نظمت في 17 كانون الثاني/ يناير 1920 في نشرة محفوظة في: AD 2372/dossier: propagande anti-française, 17 January 1920;
يُنظر أيضًا التقرير الذي نشره القصاب في صحيفة الكوكب، 27 كانون الثاني/ يناير 1920، ص 5.

(40) AD 2344/296, Cousse to HC, 28 October 1919; AD 2430/dossier confidentiel-départ/325-326, Cousse to HC, 1o November 1919; FO 371/4185/152060/I.707S, GHQ (Egypt) to DMI, 11 November 1919; FO 371/4238/160100, Admiralty Report, «Situation in Egypt, Syria, and Arabia,» 14 November 1919.

(41) MD 4H114/2/37, Cousse to Gouraud, 17 January 1920.

الرغم من كل شيء، مستمدة من المكانة المرموقة التي تتمتع بها اللجان الشعبية بالفعل. إضافةً إلى ذلك، على الرغم من أن قدرة الحكومة على ممارسة الإكراه والإقناع قد تراجعت نتيجة الصعوبات المالية المستمرة، إلا أنها لم تتبدد تمامًا. وفي الواقع، أفادت التقارير أن التظاهرة التي أقيمت في 16 كانون الثاني/ يناير برعاية الحكومة تألفت بأكملها من أفراد الشرطة، والدرك، والجيش العربي، وتلاميذ المدارس، ورؤساء النقابات. ويمكن القول عمومًا إن التظاهرات التي تولت اللجان الشعبية تنظيمها، في ذلك الحين، كانت ناجحة نظرًا لأنها أعادت تمثيل بناء المجتمع عبر الفعالية الاحتفالية ورمزت إليه من الناحية الشكلية، مما عكس الترتيب الاجتماعي الذي كان يتوخاه المشاركون فيها على نحو أكثر دقة مما عكسته التظاهرات التي نظمتها الحكومة العربية.

أيد هذا الاستنتاج أسعد داغر الذي عقد في مذكراته مقارنة بين أنشطة وسلوك المشاركين في التظاهرات التي ترعاها الحكومة العربية وأولئك المشاركين في التظاهرات التي ترعاها اللجان الشعبية. ووفقًا لما أورده داغر، تصرف المتظاهرون الذين جرى اقتيادهم إلى العاصمة من القرى المحيطة بدمشق، أثناء التظاهرات التي نظمتها الحكومة العربية غداة أول حملة لتقديم العرائض التي شملت كل أبناء الأمة، وكأنهم في نزهة - فراحوا يصيحون ويطلقون الأعيرة النارية في الهواء، وما إلى ذلك. بينما ظهر المشاركون في التظاهرات اللاحقة التي نظمتها اللجان الشعبية ولاحظها داغر، بمظهر أكثر انضباطًا وتركيزًا على القضايا القومية. وإضافة إلى ذلك، أشار داغر إلى أنه في أثناء التظاهرات الأخيرة حلت «روح التعاون ضد الأجانب» محل «روح المنافسة» التي توجد عادة بين الشبان من مختلف الأحياء، وأن الجهات المنظمة للموكب لم تكن بحاجة إلى الاعتماد على شبكات المحسوبية العمودية من أجل التعبئة[42].

يمكن القول عمومًا إن داغر وجد في هذه التظاهرات التي ترعاها اللجان الشعبية دليلًا على أن الصلات الأفقية، والجمعياتية، والقومية التي تربط المشاركين بعضهم ببعض قد حلت محل الروابط التي كانت عمودية، و«بدائية» (عنينا تلك

(42) داغر، مذكراتي، ص 105، 107.

القائمة على أساس القرابة أو على أساس المجتمع المحلي)، وذات طابع محض محلي. ولئن كان من الصعب أن نأخذ ذكريات داغر جميعها على محملها الظاهر - فالأسلوب الذي يكثف فيه الزمن الفاصل بين المظاهرتين في روايته، على سبيل المثال، يلقي بظلال من الشك على قدرته على تذكر تفاصيل الأحداث التي وقعت قبل ما يزيد على ثلاثة عقود من نشر مذكراته - إلا أن مصداقية استنتاجه بأن هذه التظاهرات تظهر بوضوح تحولًا أساسيًا في العلاقات السياسية والاجتماعية بين السوريين، يحظى بالمزيد من الدعم بوساطة العمل الذي أنجزه تشارلز تيلي.

يمكن إيجاز الحجة التي ساقها تيلي على النحو التالي: هناك في كل المجتمعات عدد محدود من الخيارات المتاحة للتعبير عن المعارضة. وثمة عاملان يحددان تنوع ونطاق الأنشطة التي تشكل «مخزونًا كبيرًا من العمل الجماعي المثير للنزاع»: مدى تغلغل العلاقات الرأسمالية في المجتمع (وبالتالي، فإن تأثيرها لا يقتصر على تنظيم العلاقات الاقتصادية فحسب، بل يمتد ليشمل العلاقات الاجتماعية أيضًا) وقوة وانتشار المؤسسات الحديثة للحكم (التي تحدث تأثيرات مماثلة)[43]. ونظرًا إلى أن هذه العوامل ذاتها تحدد في الوقت نفسه تنظيم علاقات السلطة، ولما كانت «أشكال العمل الجماعي، وتواتره، وهيئة موظفيه تعتمد على نحو وثيق على البنية القائمة للحكومة والسياسة»[44]، فإن الأعمال الجماعية المثيرة للنزاع لا تقتصر على تجسيد وإظهار العلاقات السياسية والاجتماعية التي تقوم عليها، لكنها بخلاف ذلك تظل خفية، بل تحدث تحولات في طابع الأعمال الجماعية الموازية وتكشف عن التغيرات التي تطرأ على هذه العلاقات.

يتضمن هذا المخزون الكبير من العمل الجماعي المثير للنزاع في

---

(43) Charles Tilly, *The Contentious French* (Cambridge, Mass., 1986), p. 10; Charles Tilly, Louise Tilly & Richard Tilly, *The Rebellious Century, 1830-1930* (Cambridge, Mass., 1975), pp. 253-254;
وفقًا لما أورده تيلي فمن الأهمية بمكان ملاحظة أن المخزون الكبير من العمل الجماعي المثير للنزاع قد يتعايش في المجتمع من جراء الانتشار غير المتزامن وغير المتكافئ للرأسمالية ونفوذ الدولة. يُنظر:
Tilly, Tilly & Tilly, *The Rebellious*, p. 54.

(44) Charles Tilly, *From Mobilization to Revolution* (Reading, Mass., 1978), p. 170.

المجتمعات التي لا تكون الرأسمالية فيها نمط الإنتاج الوحيد أو المهيمن، وحيث تتوازن علاقات السوق المركزية مع علاقات أخرى أو تندرج ضمنها، وحيث تكون بنى الدولة إما ضعيفة أو بعيدة، وفقًا لتيلي، أعمالًا جماعية تنافسية محلية، غالبًا ما تكون قائمة على أساس المجتمع المحلي و/ أو منظمة تنظيمًا عموديًا مثل النزاعات والخصومات ما بين القرى. ومع اتساع نطاق العلاقات الرأسمالية وتدخل الدولة، تندلع المقاومة الشعبية على نحو متزايد في هيئة أعمال جماعية تفاعلية قصيرة الأجل، مثل احتلال الأراضي والثورات المناهضة للضرائب. وعلى الرغم من أن الانفجارات تلك، كانت في كثير من الأحيان أوسع مدى مقارنة بالأعمال الجماعية التنافسية، إلا أنها ذات طابع دفاعي بصورة أساسية، ومحافظة من الناحية الاجتماعية. وأخيرًا، فإن الثورة التنظيمية المرتبطة بانتصار «التجار وصانعي الدولة» – وهي ثورة، من قبيل المفارقة، تعزز توسيع نطاق الحياة الجمعياتية، وفي بعض الأحيان، انبثاق الأحزاب أو الحركات الجماهيرية – تجعل من وجود الأعمال الجماعية المثيرة للنزاع ذات الطابع القومي من حيث المدى والقائمة بذاتها والمركبة من حيث البنية أمرًا ممكنًا. وتتسم هذه الإجراءات بأنها استباقية؛ إذ ليس القصد منها إظهار الاستياء الشعبي فحسب، أو تحدي السلطة القانونية، بل تمكين المشاركين الذين يسعون إلى السيطرة على مؤسسات الدولة من التعبير عن مطالبهم في الحصول على «الحقوق، أو الامتيازات، أو الموارد التي لم يكونوا يتمتعون بها من قبل»[45].

كانت كل لجنة شعبية محلية، وكل حي تنظمه إحدى اللجان، في سورية ما بعد الحقبة العثمانية، تعكس وفي الوقت ذاته تقدم أنموذجًا مصغرًا عن تنظيم جماعة قومية مرتبطة أفقيًا. ونتيجة لذلك، باتت التظاهرات المعارضة التي قدمت «أنموذجًا للمجتمع» بديلًا للمجتمع السياسي خيارًا أتاحه «المخزون الكبير من العمل الجماعي المثير للنزاع» للشعب السوري. وإنه لمن دواعي السخرية، إذًا، أنه بينما جعلت الحكومة العربية الخطاب ذا الطابع العصري متطابقًا مع تأكيد مناصرة وتمثيل تحالف سياسي «تقليدي» مرتبط بشكل جماعي، ومترابط على نحو عمودي،

(45) Tilly, Tilly & Tilly, *The Rebellious*, pp. 49-54, 253-254.

فإن اللجان الشعبية استخدمت «خطابًا يضفي الطابع التقليدي» من أجل الدفاع عن التآلف الاجتماعي السياسي الذي كان حديث العهد نسبيًا في سورية.

الاحتفالات والتحول في السياسة السورية

يقدم جورج ل. موس في كتابه **تأميم الجماهير** تعريفًا لـ «السياسة الجديدة» التي انبثقت في أوروبا في القرن الثامن عشر بأنها أسلوب سياسي يلازم بطبيعة الحال تطور مفهوم السيادة الشعبية ومساواة «الأمة» مع «الإرادة العامة». ويرى موس «أن الإرادة العامة سوف تغدو ديانة علمانية، حيث يعبد الناس ذواتهم، وتسعى السياسة الجديدة إلى جذب الشعب للمشاركة الفاعلة في السرانية القومية عبر الطقوس والمهرجانات والأساطير والرموز التي قدمت تعبيرًا ملموسًا للإرادة العامة»[46]. وإضافةً إلى إحداث تحولات طويلة الأجل في الممارسات الاقتصادية والإدارية التي ساهمت في تحويل السياسة السورية عبر تغيير وجه المدن، وتوسيع التعبئة العامة، وانهيار تماسك الأحياء، وأساليب التنظيم الاجتماعي القائمة سابقًا، وتوسيع دور الدولة وقدراتها، وما إلى ذلك، فقد أدت الأنشطة التي اضطلعت بها الحكومة العربية، وحلفاؤها، ومنافسوها إبان العهد الفيصلي إلى التعجيل بظهور السياسة الجديدة في سورية.

كانت الحكومة العربية وحلفاؤها أول من استخدم تقنيات التنظيم الجماعي على نطاق واسع إبان الحقبة ما بعد العثمانية في مسعاهم الرامي إلى البرهنة أمام دول الوفاق بأن برنامجهم يحظى بدعم غالبية سكان المنطقة الشرقية. وقد أصدروا مراسيم تقضي بتحديد أيام العطل بهدف الاحتفال بذكرى تلك الأحداث التي من شأنها تأكيد سردية قومية ملائمة. ونشروا المخاتير والدرك في كل المناطق الحضرية، والقرى القريبة من المدن الكبيرة لجمع الحشود من أجل هذه الاحتفالات وسواها، وحثهم على التوقيع على العرائض، وإرغام أصحاب المتاجر ومالكي المنازل على عرض اللافتات و/ أو الشعارات السياسية في

(46) George L. Mosse, *The Nationalization of the Masses: Political Symbolism and Mass Movements in Germany from the Napoleonic Wars through the Third Reich* (New York, 1975), pp. 1-2.

واجهات محالهم ومنازلهم. ولما كانوا يبدون الحذر تجاه الاعتماد على الهياكل القائمة إما للحكم أو التعبئة، فقد بنوا أو أعادوا بناء المدارس، والنقابات، وأجهزة الدولة، وعندئذ، جمعوا تلاميذ المدارس، وأعضاء النقابات، وموظفي الحكومة من أجل الخروج في التظاهرات. ويمكن القول عمومًا إنه إضافةً إلى الأنشطة الحكومية الأخرى - نشر الرموز القومية، والتجنيد الإلزامي، وإعادة تنظيم البنى البلدية، وإصلاح التعليم، وهلم جرّا - مكنت التعبئة من أجل الاحتفالات الحكومة العربية من التوسع إلى مناطق كانت في السابق غير خاضعة نسبيًا لإشراف الدولة ورقابتها، مما حطم النزعة الشديدة المحلية للسياسة القائمة على أساس الأحياء، ومهد الطريق لظهور اللجان الشعبية.

بيد أنه على الرغم من أن الحكومة العربية وحلفاءها كانوا المبادرين إلى استخدام الاحتفالات في العهد الفيصلي، إلا أن نظرتهم للعالم ونهجهم التكتيكي لتحقيق الاستقلال حالا دون تحقيقهم لأكثر من تعبئة جزئية للسكان وترزح تحت قيود صارمة. بينما لم يكن ثمة قيود من هذا القبيل حدت من أنشطة التعبئة التي تولتها اللجان الشعبية. ففي خريف عام 1919، وبالتزامن مع الإخفاق الواضح من جانب الحكومة العربية في الحيلولة دون تقسيم سورية، وفرض الانتدابين البريطاني والفرنسي على بلاد المشرق العربي، أفادت اللجان الشعبية من الأنشطة الرامية إلى التعبئة، التي كانت الحكومة العربية قد اضطلعت بها في السابق، في إطلاق شرارة ثورة تنظيمية عبر إضفائها الطابع المؤسسي على علاقات السلطة الأفقية والجمعياتية والقومية التي لها صلة وثيقة بحياة العديد من السوريين في المناطق الحضرية. وتلكم هي العلاقات التي أبرزتها اللجان واحتفلت بها في تظاهراتها. وكما هي الحال مع المهرجانات الألمانية، وهي مهرجانات كما يصفها موس، تمثل «تشييء الإرادة العامة» - فقد كانت التظاهرات التي نظمتها اللجان الشعبية دليلًا على ظهور «السياسة الجديدة» في سورية ومحفزًا لها على حد سواء.

خاتمة

بدأ هذا الكتاب بوصفٍ لما تعرضت إليه مؤسسات الحكومة العربية ورموزها من اعتداءات مادية وقعت في دمشق، وحلب، وحمص، وحماه عشية الاجتياح الفرنسي لسورية الداخلية في شهر تموز/ يوليو من عام 1920. وكما جرت مناقشة ذلك في المدخل، حالت خصوصية الأهداف، والشعارات التي أطلقت، والأنشطة السابقة منها واللاحقة للحشود دون تجاهل هذه الأحداث برمتها أو رفضها بوصفها أنشطة ذات طابع فوضوي من جانب «عامة دهماء» لا يختلفون عن سواهم من الرعاع في شيء. وأثارت محاولة إدماج الأحداث في سياق سرد شامل للقومية في الشرق الأوسط العربي تساؤلات بشأن التقاليد التأريخية؛ ومع ذلك، فإذا كان ما يسمى بـ «الحركة القومية العربية» كيانًا متجانسًا على النحو الذي قدمت به في معظم الكتابات المعيارية التي تتناول نشأتها والمراحل الأولى لتطورها، فلماذا وقعت مثل هذه الاعتداءات؟ والإجابة عن هذا السؤال، كما يجب أن يكون جليًا الآن، أن الافتراض بوجود «قومية عربية» و«حركة قومية عربية» فريدتين من نوعهما وغير متمايزتين بعضهما من بعض إنما هو أمر لم تؤيده الأدلة. وعلى النقيض من أولئك المؤرخين الذين ينحون إلى تأصيل القومية العربية أو يعتبرون القوميات الأخرى التي نشأت بين ظهراني سكان المنطقة غير مكتملة إلى حد ما، أو «اقتطاعًا غير طبيعي لقومية عربية حقة»، فقد سعيت إلى تحديد كل من الأسباب الكامنة وراء النشأة الأولى للبنى البديلة للأمة والقومية العربية في سورية إبان أواخر القرن التاسع عشر ومطالع القرن العشرين وخصائص هذه البنى على نحو ما تجلت في أعقاب الحرب العالمية الأولى مباشرة.

لقد تضمن القسم الأول من هذا الكتاب عقد مقارنة ما بين التشكيلات القومية التي شهدتها فترة ما قبل الحرب وفي أثنائها واللجان الشعبية التي انبثقت إبان السنة الثانية من العهد الفيصلي. ولم يكن أي من الفتاة والنادي العربي في دمشق مهيئًا بنيويًا أو أيديولوجيًا لقيادة أو توجيه السياسة الشعبية البازغة التي تمثل مصالح سكان سورية الذين يساورهم القلق والمسيسون على نحو متعاظم. ولم يقتصر الأمر على إصابة الفتاة بالشلل جراء الانشقاقات الداخلية وأوجه القصور التنظيمية فحسب، بل ومع تدهور قدرة الحكومة العربية على الهيمنة على السياسة السورية غداة القرارات التي اتخذت في باريس، والتلاعب من وراء الكواليس بسياسة الحكومة واختيار الموظفين اللذين كانا الشغل الشاغل لهذه المنظمة، حتى وإن كان بالإمكان تحقيقهما، فقد أصبح لا صلة لهما بالمستقبل السوري على نحو متزايد. كما تسببت مشكلات مماثلة بتقويض فعالية النادي العربي في دمشق، على الرغم من أن أنشطة التعبئة التي اضطلعت بها تلك المنظمة باسم الحكومة العربية - التي تشكل جزءًا أساسيًا من مبرر وجود النادي العربي - قد يسرت بالتأكيد الأنشطة التي زاولتها في ما بعد اللجان الشعبية وأثرتها.

على النقيض من الفتاة والنادي العربي، لم تكن اللجان الشعبية مستقلة عن الحكومة العربية تنظيميًا ووظيفيًا فحسب، بل وكانت بنيتها تعكس الطابع المتغير للسلطة السياسية المدينية في سورية وتجسد وعيًا بديلًا للجماعة «القومية» إنما على نحو لم يكن واضحًا في السابق. وقد جرى في دمشق ومدن أخرى سواها، اختيار المندوبين إلى اللجنة الوطنية العليا وقيادة لجانها الفرعية عبر إجراء انتخابات منحت كل الذكور البالغين حق الاقتراع. وهكذا، أقرت اللجان تمكين نمط جديد من القيادة القومية، وأدمجت في السياسة القومية أعدادًا كبيرة من السوريين الذين كانوا حتى ذلك الحين مستبعدين منها، باستثناء المشاركة التي تعوزها الحماسة في النشاط السياسي المنظم. وفي سياق تلك السيرورة جسدت اللجان الشعبية المبدأ التمثيلي، وأزالت التمييز القائم بين الحاكم والمحكوم الذي ميز بنية النادي العربي والحكومة العربية وأنشطتهما التمثيلية، كما هو موضح في القسم الثالث، وحتى في تلك الأحياء والقرى التي كان فيها تنظيم الفروع المحلية للجان الشعبية يحاكي على ما يبدو النظم الاجتماعية التي كانت قائمة من قبل،

غيرت اللجان أوجه العلاقات تلك عبر إدماجها شبكات القرابة أو التبعية السياسية في آلة سياسة قومية اضطلعت بوظائف الحكم وفضلت العملية الانتخابية. وهكذا كان انبثاق اللجان الشعبية إيذانًا بإحداث تحول في علاقات السلطة - وفقًا لتعريف «السياسة الجديدة» الذي صاغه جورج ل. موس - التي اعتمدت عليها السياسة الجماهيرية.

بيد أن اللجان الشعبية لم تتمكن من استقطاب الدعم عبر بنيتها وحسب؛ بل بالأحرى، على النحو الذي نوقش في القسم الثاني، كانت اللجان، شأنها شأن الحكومة العربية والنادي العربي، تعد بمثابة المحور المؤسسي لجماعة خطابية قائمة بذاتها. وأكدت استقلال هذه الجماعة وديمومتها عبر توفيرها منتدى ودعمًا لمروجي الدعاية، وبوساطة حشد الناشطين الذين يشاطرونها التفكير ذاته في جماعة حقيقية ملموسة ومتعاضدة، ومن طريق تحويل أفكار هذه الفئة إلى مؤسسات وإجراءات ملموسة. وعلى النقيض من ذلك، أضفى المجال الخطابي الذي ولفه ونشره مروجو الدعاية والناشطون المرتبطون باللجان الشعبية، الشرعية على اللجان وأنشطتها عبر إقرار الرؤية للجماعة القومية والتنظيم الاجتماعي التي قدمتها اللجان.

كان المجال الخطابي الذي ارتبطت به اللجان الشعبية يتناقض على نحو حاد مع المجال الخطابي لمن يطلقون على أنفسهم اسم المتنورين. وعلى الرغم من أن المتنورين سعوا إلى نشر رؤية خاصة بهم للمجتمع والمستقبل السوري اتسمت بأنها ذات طابع وعظي وشامل في آن، إلا أنها كانت رؤية مدعومة بصور التقدم العالمي والقيم الليبرالية ومنافع «الحضارة»، وما إلى ذلك. وكانت، بعبارة أخرى، رؤية لم تمنح سوى القليل للعالم الذي تسكنه غالبية السوريين. وبالمقابل، وظف أولئك المنتسبون إلى اللجان الشعبية أو المتعاطفون معها خطابًا ذا طابع تقليدي لنقل صورة عن مجتمع سوري عضوي متناغم ومعرض للتهديد من جانب الإمبرياليين الأجانب والمؤامرات التي كان يحيكها «أولئك الذين سيبيعون أمتهم بوصفها سلعة». وكانت المكانة المرموقة التي تبوأها أولئك المنتسبون إلى اللجان، والمشاركة الواسعة النطاق في الأنشطة التي ترعاها اللجان مثل

الاجتماعات والانتخابات والتظاهرات وأنشطة الميليشيات إبان فترات الأزمات السياسية (مثل اندلاع أزمة الاستبدال، والتوقيع بالأحرف الأولى على اتفاقية فيصل - كليمنصو، وإعلان استقلال سورية، والأيام الأخيرة التي سبقت الاجتياح الفرنسي)، والموقع البارز الذي شغلته الصيغ المجازية التي بدأت باستخدامها أو روجت لها اللجان في الخطاب القومي الشعبي، كلها تدل على قدرة اللجان على التعبير عن قومية تتوافق مع المعتقدات التي يؤمن بها الكثير من السوريين، وإعادة صياغتها في آن واحد.

لقد جمع القسم الثالث، الذي تناول بالدرس، المراسم الاحتفالية، الموضوعات التي جرى طرحها في القسمين السابقين. إذ نظمت الحكومة العربية وحلفاؤها الاحتفالات بالأعياد الرسمية، والأعمال المسرحية، والتظاهرات بغية تحقيق أهداف موجهة داخليًا وخارجيًا في آن. فمن ناحية، استخدمت الحكومة ومؤيدوها من المتنورين الأماكن العامة وشبه العامة من أجل أن تغرس «القيم الوطنية» في أذهان السكان، وأن تظهر رمزيًا ما كانوا يعتبرونه التنظيم الملائم للمجتمع، وأن تنشر تمثيلًا محددًا للسردية القومية من شأنه أن يبرز حقهم في الحكم. ومن ناحية أخرى، أقاموا مراسم احتفالية بغية جذب اهتمام المراقبين الخارجيين والتأثير فيهم من أجل إظهار أن الأمة «متحضرة» (أي، مهيأة للاستقلال وفقًا للمعايير التي وضعتها عصبة الأمم ومبادئ ويلسون) وموحدة من الناحية البرنامجية. ومن أجل ضمان أن تبقى هذه المراسم الاحتفالية منظمة وأن تتسم بالشفافية، منعت الحكومة العربية وحلفاؤها معظم السوريين فعليًا من المشاركة الفعالة فيها وناطوا بهم دور المتفرج أو الخلفية لحدث درامي كانوا مرتبطين به على نحو عرضي وحسب. ونتيجة لذلك أعادت هذه المراسم الاحتفالية على نحو مؤثر تفعيل الهوة التي فصلت النخب القومية عن باقي السكان - وتلكم هي هوة جعلت، بصرف النظر عن أنشطة دول الوفاق، إخفاق المشروع القومي الذي توخاه أشراف مكة والمتنورون قدرًا محتمًا.

وفي حين أن العديد من التظاهرات التي نظمتها اللجان الشعبية كانت تماثل ظاهريًا تلك التي نظمتها الحكومة العربية وحلفاؤها، ألغت تظاهرات أخرى

سواها سلاسل من الفعاليات المرتبطة بتقديم العرائض أو الاحتجاجات. ولم تقتصر هذه التظاهرات على تصور تنظيم للمجتمع وسردية قومية يتناقضان تناقضًا حادًا مع تنظيم المجتمع والسردية القومية اللذين قدمتهما التظاهرات التي ترعاها الحكومة، بل كانت إلى حد كبير ذاتية المرجع. وعبر إلغائها سلسلة المراسم الموجهة خارجيًا وبوساطة إزالة الفارق بين المتفرج والمشارك، أعادت هذه التظاهرات على نحو رمزي تشكيل الأمة في عالم مصغر وأكدت تحولًا أساسيًا للعلاقات الاجتماعية في المناطق الحضرية في سورية مما جعل العمل الجماعي المستمر والاستباقي المثير للنزاع أمرًا ممكنًا.

على الرغم من تضخم الحماسة التي أثارتها اللجان الشعبية إبان السنة الثانية من العهد الفيصلي إلا أنه لم يقيض لا للجنة الوطنية العليا ولا للهياكل الأساسية الحضرية للجان الدفاع الوطني أن تصمد لمدة أطول بعد الاجتياح الفرنسي لسورية الداخلية؛ إذ إن قمع اللجان الشعبية في المدن، الذي بدأ حتى قبل أن تعبر القوات الفرنسية الحدود الفاصلة ما بين المنطقتين الغربية والشرقية، كان سريعًا وشاملًا. ففي 12 تموز/ يوليو من عام 1920 أعلنت وزارة الداخلية في الحكومة العربية عن إغلاق مكاتب اللجنة الوطنية العليا نظرًا إلى أنها «تأسست بدون أن تراعي أحكام القانون»[1]. وأمرت الحكومة بأن يجري «ضبط أوراقها وإجراء

(1) ليست الحكومة العربية هي الجهة التي أصدرت قراري حظر عمل اللجنة الوطنية والنادي العربي، ومصادرة وثائقهما، وملاحقة مؤسسيهما قانونيًا في 12 تموز/ يوليو 1920؛ وذلك قبل أن تجتاح القوات الفرنسية مناطق سورية الداخلية كما يشير المؤلف. والواقع إن هذين القرارين صدرا في تاريخ لاحق للتاريخ الذي ذكره المؤلف ومن جانب عطا الأيوبي وزير الداخلية في حكومة علاء الدين الدروبي، التي تشكلت في 25 تموز/ يوليو بالتزامن مع دخول القوات الفرنسية بقيادة الجنرال غوابيه إلى العاصمة دمشق إيذانًا بوقوع سورية تحت الانتداب الفرنسي بعد موقعة ميسلون. ويمكن إدراج هذين القرارين في سياق مسعى حكومة الدروبي الرامي إلى تكريس القطيعة بين عهد المملكة السورية العربية المنهارة وحقبة الانتداب الفرنسي. للاطلاع على البلاغ الرسمي الصادر عن رئيس الوزراء الدروبي بتشكيل حكومته في 25 تموز/ يوليو 1920، يُنظر الوزارة الجديدة، **العاصمة** السنة 2، العدد 142، الخميس 29 تموز/ يوليو 1920، ص 1. وللاطلاع على قراري حكومة الدروبي بحظر عمل اللجنة الوطنية والنادي العربي، يُنظر اللجنة الوطنية، **العاصمة**، السنة 2، العدد 143، 2 آب/ أغسطس 1920، ص 2؛ النادي العربي، ص 2 من المصدر المذكور. (المترجم)

المعاملة القانونية بحق مؤسسيها»[2]. وبالتزامن مع إمكان اتخاذ الحكومة المزيد من الإجراءات القمعية، بل وحتى تشديدها، ولا سيما بعد فرض نظام الأحكام العرفية في اليوم التالي[3]، فر من العاصمة العديد من قادة اللجنة في دمشق. وكان من بين هؤلاء كامل القصاب، الذي تفيد التقارير أنه فر إلى القنيطرة حيث لجأ إلى محمود الفاعور[4]. ومع تقدم جيش الجنرال غورو، فر آخرون سواه إلى فلسطين أو مصر أو العراق أو الأجزاء الشرقية من سورية.

دخلت القوات العسكرية الفرنسية حلب في 23 تموز/ يوليو من عام 1920، بينما دخلت دمشق بعد ذلك بيومين. ووسعت سلطات الاحتلال نطاق قمع اللجان الذي كان قد بدأ في ظل الحكومة العربية. وفي أوائل شهر آب/ أغسطس، أصدرت محكمة عسكرية حكمًا غيابيًا بإعدام شريحة واسعة من الزعماء القوميين. وكان من بين الذين صدرت أحكام بحقهم نشطاء بارزون من اللجنة الوطنية العليا ولجان الدفاع الوطني: كامل القصاب، وعلي خلقي (الذي كان في الحجاز برفقة القصاب في أثناء الحرب وقاد عصابة قوامها خمسمئة فرد من المتاولة والبدو في منطقة مرجعيون إبان العهد الفيصلي)[5]، وأحمد مريود، ومحمود الفاعور، وشكري الطباع، ورشيد طليع، وعمر بهلوان (تاجر وعضو في اللجنة الوطنية

(2) **العاصمة**، 12 تموز/ يوليو 1920، ص 2. وفقًا للمصدر نفسه <**العاصمة**، 2 آب/ أغسطس 1920، ص 2>، فقد اتخذت الحكومة العربية إجراءات مماثلة بحق النادي العربي نظرًا إلى أنه، وإن «كان تأسس على ما يعلم لأجل مقاصد علمية وأدبية... ولكنه قد اشتغل بالأمور السياسية خلافًا للمبدأ الذي تأسس من أجله».

(3) أصدر وزير الدفاع السوري يوسف العظمة في 12 تموز/ يوليو 1920 بلاغًا عامًا يتضمن الإعلان عن حالة الطوارئ أو الأحكام العرفية. يُنظر بلاغ عام، **العاصمة**، السنة 2، العدد 140، 15 تموز/ يوليو 1920، ص 1-2. (المترجم)

(4) الجنرال تشارلس جوزيف إدوارد أندريا، **ثورة جبل الدروز وتمرد دمشق**، ترجمة وتعليق حافظ أبو مصلح (بيروت، 1985)، ص 32. غادر القصاب بعد ذلك بوقت قصير القنيطرة متجهًا إلى حيفا.

(5) للاستزادة عن خلقي، يُنظر: «Rapport journalier de Damas,» 25 November 1919; MD 4H114/2/141, Cousse to Gouraud, 26 March 1920; IO L/PS/10/802/P5598/48, Wratislaw to Secretary of State, 22 June 1920; FO 371/5049/E6473/216ff., Report of French Liaison Officer, 18-24 May 1920; MAE L:SL/vol. 33/119, Gouraud to Millerand, «Note au sujet des rapports entre le haut-commissionaire de la République Française en Syrie-Cilicie et l'emir Fayçal,» 22 September 1920; MD 4H114/8, Arlabousse to Catroux, 13 October 1920.

العليا في دمشق)[6]، وعبد القادر سكر، وتوفيق يازجي (<صاحب> ورئيس تحرير صحيفة **الدفاع**، التي دعمت أنشطة اللجان الشعبية)، وعثمان قاسم (الذي قيل إنه قاد الهجوم على قلعة دمشق الذي جرت مناقشته في المدخل)[7]، وياسين دياب، وعيد الحلبي، ونبيه العظمة، وسامي السراج، وصبحي بركات، ومنيب الناطور. كذلك صدرت أحكام بالإعدام بحق 23 مقاتلًا شاركوا في أحداث جبل عامل وتل كلخ. وكان من بين هؤلاء عبد الله الكنج الدندشي، وخالد رستم، وحسن إبراهيم الدندشي، وهم جميعًا أعضاء في لجنة الدفاع الوطني المحلية[8].

إلى جانب إصدارهم أحكامًا بالإعدام، اعتقل الفرنسيون وسجنوا عددًا من قادة الصف الثاني للجان الشعبية ومؤيديها بناء على مجموعة متنوعة من التهم، تشتمل على اللصوصية والحيازة غير القانونية للأسلحة. وكان من بين المعتقلين توفيق البيسار، والحاج نوري الجسري، وهما عضوان في المؤتمر السوري العام من عكار وحلب، على التوالي، وعملا بوصفهما وسيطين بين النادي العربي في حلب والعصابات المسلحة العاملة خارج المدينة[9]. ولاحق الفرنسيون أعضاء سابقين في اللجان الشعبية بدمشق بحماسة خاصة: لخشيتهم من أن يؤدي نجاح البدو والقوات غير النظامية في المنطقة المتاخمة <لدمشق> وفي حوران إلى اندلاع تمرد شعبي في العاصمة، واعتقلت السلطات الفرنسية ما يسمى بـ «المحرضين» بأعداد غفيرة في غضون شهر من احتلالها للعاصمة السورية[10].

---

(6) خير الدين الزركلي، **ما رأيت وما سمعت** (القاهرة، 1923)، ص 14-16.

(7) للاستزادة عن قاسم، يُنظر: أحمد قدري، **مذكراتي عن الثورة العربية الكبرى** (دمشق، 1956)، ص 248؛ إحسان الهندي، **معركة ميسلون** (دمشق، 1967)، ص 61-62؛ AD 2324/a1, 25 June 1919; FO 371/4183/136154, Lutfallah to Lloyd George, 16 September 1919; AD 2375/chemise: division de la Syrie, 1919-1920/361a, Col. Sousselier to GC, 7 February 1920.

(8) أوصى الفرنسيون في 9 آب/ أغسطس 1920 بإعدام ستة وثلاثين عضوًا من أعضاء المنظمات القومية والحكومة العربية؛ على الرغم من ذلك، يذكر خير الدين الزركلي أسماء ثمانية وخمسين شخصًا صدرت بحقهم أحكام بالإعدام. MD 4H109/1, Général Gouraud, 12 August 1920; الزركلي، **ما رأيت**، ص 14-16؛ إحسان الهندي، **كفاح الشعب العربي السوري، 1908-1948** (دمشق، 1962)، ص 89.

(9) FO 861/68, «Report on the Situation in Aleppo,» 9 September 1920.

(10) MAE L:SL/vol. 116/1726-1733, Gouraud to Guerre section orientale, 28 August 1920.

وكانت الأحكام التي أصدرتها المحاكم العسكرية قاسية: إذ تلقى أحد المحكوم عليهم، وكان الفرنسيون قد اتهموه بالتخطيط للإغارة على إحدى القرى، حكمًا بالسجن لمدة عشرين عامًا؛ بينما جرى ترحيل متهم آخر عن سورية بعدما دين بارتكاب الجريمة ذاتها[11]. ولم تكتف سلطات الاحتلال بفرض هذه الأحكام وإيقاع عقوبات شديدة مماثلة من أجل معاقبة أولئك الذين تعتبر أنهم يمثلون خطرًا عليها وحسب، وإنما بغية ترويع بقية السكان، وحسبما ورد في أحد التقارير الفرنسية، «ضرب عنق» الأسر الأكثر نفوذًا في سورية التي تكن مشاعر معادية للفرنسيين. ويمكن القول عمومًا إن سلطات الاحتلال قد اعتمدت استراتيجيا ترمي صراحة إلى ضمان أن «السوريين قد استوعبوا أن السياسة محفوفة بالمخاطر وأنه من الحكمة في بعض الأحيان أن يقفوا موقف المتفرجين»[12].

إضافة إلى المحاكم العسكرية، اتخذت السلطات الفرنسية مجموعة من الإجراءات المتنوعة لتهدئة السكان، وتعزيز الدعم لمكانتها بوصفها سلطة انتداب، وإزالة تأثيرات تنظيم اللجنة والدعاية التي اتبعتها. وفي دمشق، على سبيل المثال، شجعت سلطات الاحتلال رضا العابد على تأسيس ناد على غرار النادي العربي في دمشق الذي جرى حله، من أجل نشر الدعاية المؤيدة للفرنسيين على نحو متكتم. وتعهدت السلطات بتمويل تلك المساعي الصحافية التي كان يبذلها محمد كرد علي في دمشق، ووزعت معونات شهرية تتراوح قيمتها ما بين 20 و40 جنيهًا مصريًا إلى ست صحف في حلب (**التقدم**، و**الصاعقة**، و**الأمة**، و**البريد السوري**، و**النهضة**، وصحيفة **لو فرانكو سيرين** (*Le Franco - Syrien*))، ويرجح أنها قدمت إغراءات إلى صحيفتي **فتاة العرب**، و**سورية الجديدة** الصادرتين في دمشق. واستبدلت زعماء الأحياء والقرى الذين شقوا عصا الطاعة بآخرين سواهم، وحشدت تأييد القبائل الصديقة (مثل قبيلة عنزة) للعمل بوصفها قوات غير نظامية في المعركة ضد وحدات حرب العصابات التي نظمتها اللجان الشعبية، ووزعت

(11) MD 4H109/dossier 1, Gouraud to Générals commandants 2ème et 4ème divisions, 12 August 1920.

(12) MAE L:SL/vol. 33, La Marine dans le Levant, «Rapport hebdomadaire sur la situation politique,» 20 August 1920.

العرائض في حلب من أجل إظهار أن «الإرادة الشعبية» تفضل الحكم الذاتي لهذه الولاية، ونظمت تظاهرات حاشدة إيذانًا بنهاية «التعصب والتشدد» اللذين اتسم بهما الحكم العربي ومن أجل استعراض القوة العسكرية التي تتمتع بها فرنسا[13]. ومن المفارقات، حينئذ، أن الكثير من الاستراتيجيات التي كانت الحكومة العربية وحلفاؤها واللجان الشعبية سباقة في اتباعها دعمًا منها للجهود الرامية إلى تعبئة الشعب السوري والإشراف عليه، وكسب تأييده، قد طبقت على يد المحتلين الفرنسيين من أجل ترسيخ سلطتهم.

كان من شأن الأوضاع الفوضوية التي وجدها الفرنسيون في سورية الداخلية أن يسرت لهم مخططاتهم. فقد واجه معظم السوريين ممن يسكنون في المناطق الحضرية سلسلة من الصعوبات التي أرهقتهم في حياتهم اليومية وأحبطت المقاومة المنظمة للاحتلال؛ وذلك إبان الأيام الأخيرة قبل دخول الجيش الفرنسي إلى مدنهم. إذ لم يعمل نظام الأحكام العرفية الذي فرضته الحكومة العربية على عرقلة الأنماط المعتادة للنشاط المديني فحسب، وإنما حد أيضًا من قدرة السكان على مقاومة الفرنسيين: إذ فرضت الحكومة العربية قبل أن تولي الأدبار حظرًا للتجول وأغلقت الأسواق وحظرت نشر الأخبار، ومنعت التجمعات السياسية، وفرقت التظاهرات، واعتقلت المعارضين، واستولت - في حدود قدرتها - على وسائل النقل وصادرت مخزونات الأسلحة. وحتى في حال اختار السوريون مقاومة هذه الإجراءات، فقد كان من شأن تدفق أعداد كبيرة من البدو إلى مدن المنطقة الشرقية - قدرت أعدادهم بعشرة آلاف في دمشق والمناطق المتاخمة لها وثلاثة آلاف في حلب، وألف وخمسمئة في حمص وحماه - أن ثنى عددًا كبيرًا من الناس عن المغامرة بالخروج من منازلهم[14]. وقد عمت الفوضى لدى انسحاب الأمير فيصل وحاشيته إلى قرية

---

(13) MD 4H109/1, «Projet d'instructions pour le général Goybet,» 30 July 1920; MD 4H60/1, «Bulletin quotidien 1324,» 11 August 1920; FO 861/67, «General Report on the Situation at Aleppo,» 21 August 1920; FO 861/68, «Report on the Situation at Aleppo,» 9 September 1920; MAE L:SL/vol. 33, Capitaine de Lestapis, «Notes de la presse 10,» 15 September 1920.

(14) العاصمة، 15 تموز/ يوليو 1920، ص 1-2؛ IO L/PS/10/802/P6248, Consul General, Beirut to FO, 16 July 1920; FO 371/5037/E8509, Mackereth to FO, 16 July 1920; MD 4H114/dossier 5, Cousse to Gouraud, 17 July 1920; MD 4H60/dossier 1, «Bulletin quotidien 1260,» 19 July 1920; MD 4H60/1, «Bulletin quotidien 1266,» 21 July 1920; FO 371/5037/E8880/80, Mackereth to FO, 23 July 1920; Jules Kersante, «Syrie: L'occupation d'Alep,» *Petites relations d'orient*, vol. 6 (Novembre 1920).

الكسوة جنوب دمشق، وانهيار مؤسسات الحكم المحلي. وحاول أصحاب المتاجر ردع اللصوص برفعهم الأعلام الإيطالية فوق متاجرهم في دمشق. وفي حمص، جرى إجلاء العائلات التي كانت تعيش في ضواحي المدينة من منازلها، ووضعت المتاريس في وسط المدينة فيما تولى المتطوعون المسلحون أعمال الحراسة؛ أما في حلب فقد عهد إلى القنصل الأميركي مهمة إقناع القائد العسكري المحلي ورئيس الشرطة بالبقاء في منصبيهما وتسيير دوريات مسلحة من أجل الحفاظ على النظام[15]. وينبغي ألا يكون مفاجئًا، في ظل هذه الظروف، أن يستخدم المراقبون الأجانب، على العموم، تعبيرات من قبيل «متجهم» و«متعب» في وصف المشاعر التي عبر عنها العديد من السوريين في أثناء الاجتياح[16].

كانت هناك، بطبيعة الحال، استثناءات: إذ اشتبك أهالي اثنين من أحياء دمشق - الميدان والشاغور - مع القوات الفرنسية في معارك بالأسلحة النارية في اللحظات الأولى لاحتلال العاصمة السورية؛ كما استمر الصراع الدائر في المناطق الريفية الذي شنه أمثال إبراهيم هنانو، وصالح العلي، ومحمود الفاعور، وغيرهم. وتشهد المصادر الفرنسية على محاولات سرية - ربما كانت حقيقية، وربما نتاج خيال استعماري - اضطلعت بها مجموعة متنوعة من النشطاء السياسيين لإعادة تجميع عناصر الحركة الوطنية الذين أصبحوا يعملون بصورة سرية[17]. ولم تكن المخاوف التي أبداها الفرنسيون ضربًا من الوهم تمامًا: ففي 30 آب/ أغسطس من عام 1920 توغل رتل استطلاع من قوات «الجتا» في قلب مدينة حلب، ولم يشعل الشرارة التي أدت الى معركة مسلحة مع القوات الفرنسية

---

(15) MD 4H60/dossier 1, «Bulletin quotidien 1266,» 21 July 1920; FO 371/5039/E10316, J. B. Jackson, 30 July 1920; P. G. Angelil, «L'occupation d'Homs: Angoisses et délivrance,» *Petites relations d'orient*, vol. 6 (November 1920); Kersante, «Syrie: L'occupation d'Alep».

(16) MD 4H58/dossier 2, «Rapport hebdomadaire: 29 Juillet à 4 Août»; MD 4H60/dossier 1, «Bulletin quotidien 1324,» 11 August 1920; 23.12 MD 4H60/dossier 1, «Bulletin quotidien 1327,» 12 August 1920; MAE L:SL/vol. 33, «Rapport hebdomadaire sur la situation politique,» 20 August 1920; FO 861/67, «General Report on the Situation at Aleppo,» 21 August 1920; Angelil, «L'occupation d'Homs»; Kersante, «Syrie: L'occupation d'Alep».

(17) يُنظر: MD 4H58/2, «Rapport hebdomadaire: 29 Juillet à 4 Août»; MD 4H114/5/714, Toulat to HC, n.d.; MD/4H60/1, «Bulletin quotidien 1324,» 11 August 1920; MD 4H60/1, «Bulletin quotidien 1327,» 12 August 1920; MAE L:SL/vol. 116/1726-1733, Gouraud to MD, 28 August 1920.

فحسب، بل وسرت إشاعة مفادها أن الرتل كان بمثابة مقدمة لهجوم شامل شنه الأتراك على المدينة، الذين كانوا عازمين على تحريرها من الهيمنة الفرنسية. وفي الوقت ذاته تقريبًا، نصب مهاجمون مجهولون كمينًا وقتلوا علاء الدين الدروبي رئيس الوزراء، وعبد الرحمن اليوسف رئيس مجلس الشورى، اللذين كان فيصل قد عينهما في آخر حكومة عربية تشكلت وظلا في منصبيهما ليتعاونا مع قوات الاحتلال[18].

على الرغم من هذه الأحداث إلا أن المقاومة التي واجهها الفرنسيون لم تكن دفاعية وغير منظمة فحسب، بل وذات طابع سلمي أيضًا. وتشير مصادر فرنسية وبريطانية إلى انتشار التهرب من الأمر الذي وجهوه للسوريين بتسليم أسلحتهم، وعلى الرغم من التهديدات التي أطلقوها، إلا أن أعدادًا كبيرة من المسلمين القاطنين في حلب تجنبوا التوقيع على عريضة فرنسية تدعو إلى الحكم الذاتي لحلب. وبدلًا من ذلك، وزعوا عريضة موجهة إلى القنصل الأميركي المحلي تتضمن الشكوى من المناورات التي يتبعها الفرنسيون والمطالبة بتدخل دول الوفاق الأخرى لمصلحة السكان السوريين[19]. كما انخرط السوريون في أعمال تخريبية محدودة مناهضة لمحتليهم. ووفقًا لإحدى القصص، على سبيل المثال، حينما وصل الجنرال غورو إلى دمشق للمرة الأولى، عمد أبو شكري الطباع، وهو والد أحد منظمي اللجنة الوطنية العليا ممن قاتلوا في معركة ميسلون، ورفيق له إلى حل وثاق جياد عربة الجنرال[20].

مما حد من شعور الكثير من السوريين بالتحدي ما خبره هؤلاء من العجز إبان الأشهر الأولى من الاحتلال الفرنسي، على نحو ما تجلى أخيرًا في شائعات سرت على نطاق واسع تنبئ بالتحرير بل وبحدوث معجزة. وكان من أكثر الشائعات انتشارًا في المنطقة الشرقية في أواخر صيف عام 1920 أنباء عن توافر تقارير تفيد بأن البريطانيين قد أصدروا إنذارًا نهائيًا للفرنسيين يطالبون فيه

(18) FO 861/68, Report on the Situation at Aleppo, 9 September 1920; Philip S. Khoury, *Syria and the French Mandate: The Politics of Arab Nationalism, 1920-1945* (Princeton, 1987), pp. 98-99.

(19) FO 861/68, «Report on the Situation at Aleppo,» 9 September 1920.

(20) حسن الأمين، **ذكريات**، ج 1: **من الطفولة إلى الصبا** (بيروت، 1973)، ص 28.

المحتلين بالانسحاب من المنطقة الشرقية، وبأن القوات البريطانية احتلت بلدة درعا الجنوبية استعدادًا للتقدم شمالًا، وأن عصابات المقاتلين الذين تدعمهم تركيا كانوا يستعدون لغزو حلب، وبأن نهاية العالم قد دنت(21).

بيد أنه لئن أظهرت حكايات عن اندلاع أعمال مقاومة متفرقة وشائعات عن التحرير، في أعقاب المناوشات التي جرت لمدة وجيزة في خان ميسلون، أن سكان المنطقة الشرقية لم يردوا على الاجتياح والاحتلال الفرنسي بموقف سلبي موحد أو يستسلموا لحكم القدر، إلا أنها بالكاد تشكل دليلًا على أن تعبئة الشعب السوري التي جرت طوال الأشهر السابقة، كانت ذات أهمية متفردة. وفي سياق سرد هذه الأحداث، ووصف البنى المتعارضة للأمة والقومية التي تنافست من أجل الهيمنة إبان العهد الفيصلي الذي دام اثنين وعشرين شهرًا، لم يكن في نيتي أن أقدم مثل هذا الدليل. ولم يكن في نيتي أيضًا الاستعاضة عن أسطورة قومية بأخرى. وبدلًا من ذلك، فإن ما يشكل الأساس الذي تقوم عليه هذه الدراسة هو المحاجة بأن العهد الفيصلي يستحق الاهتمام لسببين: أولًا، كان الزمن الفاصل بين انسحاب القوات العثمانية من سورية وبداية الاحتلال الفرنسي الذي استمر ربع قرن يمثل حلقة محددة على نحو واضح في تاريخ القومية في الشرق الأوسط العربي كان الصراع في أثنائها على القضايا القومية جليًا ومثيرًا للنزاع بوجه خاص. وبالتالي توفر هذه الفترة لمحة كاشفة بصفة خاصة عن النطاق الأوسع لذلك التاريخ. ثانيًا، أدت عملية تعبئة الشعب السوري التي جرت في هذه الفترة إلى تسريع وتعزيز سيرورتين كانتا جاريتين على قدم وساق منذ منتصف القرن التاسع عشر: نشر إطار الدولة الأمة لإعادة بناء المجتمعات التي تعطلت بفعل اضطرابات اجتماعية وسياسية، وتحول علاقات السلطة على نحو ييسر نشر الأيديولوجيات القومية.

بحلول القرن العشرين، كانت الشروط المسبقة اللازمة لتحقيق نجاح قومي كبير موجودة بالفعل في معظم أنحاء الشرق الأوسط العربي. وعلى مدى نصف القرن المنصرم، كان عدد من العوامل - تكامل التوسع في الأسواق على الصعيدين

(21) MD 4H58/2, «Rapport hebdomadaire: 29 Juillet à 4 Août»; MD 4H60/1, «Bulletin quotidien,» 12 August 1920; FO 861/68, «Report on the Situation at Aleppo,» 9 September 1920.

الإقليمي والعالمي، وتعزيز قدرات الدولة، ونمو التجمعات الحضرية، والبدء باستخدام التقنيات الحديثة في مجال المواصلات والاتصالات، وتكثيف تسليع العمل البشري، وما إلى ذلك - قد عجلت بانهيار النظام الاقتصادي القائم على النزعة شديدة المحلية، وحد من الفاعلية الإجمالية لروابط المحسوبية المحلية المشكلة بصورة غير رسمية، وأفسد نظام حياة فئة متزايدة من السكان. ولئن لم يكن ظهور هذه الشروط المسبقة كافيًا في حد ذاته لضمان انتشار الأيديولوجيات القومية، إلا أنه عزز احتمال أن يجد المنظمون القوميون، إذا ما توافرت الظروف المناسبة، جمهورًا منفتحًا على أفكارهم. وبمرور الوقت، وتعاظم أعداد المتضررين من عمليات التغيير، ازداد اتساع ذلك الجمهور.

على الرغم من أن توسيع ما يطلق عليه بندكت أندرسن اسم «المنظومة الثقافية» للقومية بين سكان الشرق الأوسط العربي كان عملية طويلة الأمد، إلا أنها لم تكن عملية مستمرة ولا غير متمايزة. وبدلًا من ذلك، كانت عملية عرضية، أملتها الأزمات ونفذها المنظمون الذين تعلموا ممن سبقهم ووسعوا نطاقها. وقد ركز هذا الكتاب على كل من الأزمات الطويلة الأجل منها والمباشرة التي غذت أحد هذه الأحداث، وعلى أنشطة النشطاء السياسيين الذين حددوا وشكلوا جماعة قومية احتضنت على نحو موقت معظم الشعب السوري. وأثبتت الأنشطة الرامية إلى التعبئة التي اضطلع بها هؤلاء النشطاء إبان العهد الفيصلي أنها المقدمة والسلف للعديد من الوحدات المماثلة. وتعد الثورة السورية الكبرى بين عامي 1925 و1927، وثورة فلسطين الكبرى بين عامي 1936 و1939 مجرد مثالين فحسب على الانتفاضات القومية اللاحقة التي يمكن تتبع جذورها إلى الأحداث التي نوقشت في هذا الكتاب[22].

(22) انخرط عدد من أولئك الذين شاركوا في الأحداث التي جرى سردها في هذا الكتاب لاحقًا في الانتفاضات الوطنية التي اندلعت في ما بعد في سورية وفلسطين. وكان من بين أعضاء اللجان الشعبية وأنصارها إبان الفترة الممتدة بين عامي 1919 و1920 الذين اضطلعوا بأدوار بارزة في الثورة السورية الكبرى التي امتدت بين عامي 1925 و1927 كل من عبد القادر سكر، ورمضان شلاش، ومحمد الأشمر، وعيد الحلبي، وحسن الخراط، وأحمد مريود.

كان الشيخ عز الدين القسام، وهو العالم المشهور الذي شكلت الجهود التنظيمية التي بذلها ومصرعه =

لئن كان التفاعل بين المحددات المحلية والإقليمية والدولية الذي أثار كل حادثة وشكلها فريدًا من نوعه، وعلى الرغم من أن الفرضيات الأيديولوجية التي ألهمت القوميين النشيطين في أثناء الأحداث تلك - ونشرها هؤلاء بدورهم - كثيرًا ما كانت متباينة، إلا أنه كان ثمة قاسمان مشتركان بينها جميعًا. أولًا، لم تكتف التأثيرات المتفاوتة والمتباينة المترتبة على العمليات التحوّلية المبينة أعلاه بتحديد شكل تحالف المتمردين، وإنما حددت أيضًا البرنامج الذي وضعته والاستراتيجيات التي استعانت بها في تحقيق ذاك البرنامج. ونتيجة لذلك، استفاد كل تحالف من الصيغ المجازية الخطابية ونظم نفسه وأنشطته على نحو يعكس السمات المميزة لحركات التمرد الشعبوية في جميع أنحاء العالم[23]. ثانيًا، شجع كل تمرد على إحداث تحول اجتماعي آخر كفل فعليًا، في حالة غياب حل سياسي شامل، حدوث حركات تمرد مماثلة في المستقبل. لقد كانت الأحداث التي شهدها العهد الفيصلي، بعيدًا من كونها - حالة فضول تاريخية منعزلة - تعد إيذانًا بظهور سياسة قومية شعبية في الشرق الأوسط العربي، ظلت مستمرة، بصورة أو بأخرى، حتى يومنا هذا.

= لاحقًا على يد البريطانيين في عام 1935 في أثناء غارة مشؤومة عاملًا رئيسًا في اندلاع الثورة الفلسطينية الكبرى، على اطلاع من كثب على أنشطة اللجان الشعبية في سورية. ولم يكتف القسام بالمشاركة في أنشطة حرب العصابات التي نفذها عناصر غير نظامية تابعون لصالح العلي في اللاذقية في منطقة اللاذقية إبان العهد الفيصلي فحسب، وإنما، بعد الاجتياح الفرنسي لسورية الداخلية، فر إلى حيفا بمساعدة من كامل القصاب. وقد واصل الاثنان تعاونهما في المنفى، حيث درسا معًا في البداية في مدرسة البرج الإسلامية (إلى أن شجر الخلاف بينهما في عام 1925)، وبعدئذ راح يتجول في الريف داعيًا إلى مقاومة البريطانيين والصهاينة. يُنظر: أدهم آل جندي، **تاريخ الثورات السورية في عهد الانتداب الفرنسي** (دمشق، 1960)؛ محمد مطيع الحافظ ونزار أباظة، **تاريخ علماء دمشق في القرن الرابع عشر الهجري** (دمشق، 1986)؛ Khoury, *Syria and the French Mandate*, pp. 174-182;

سميح حمودة، **الوعي والثورة: دراسات في حياة وجهاد الشيخ عز الدين القسام، 1868-1935** (عمان، 1987)، ص 42-43، 45، 50.

(23) يمكن الاطلاع على مجموعة منتقاة من الصيغ المجازية التي استخدمت إبان الثورة الفلسطينية الكبرى في: Nels Johnson, *Islam and the Politics of Meaning in Palestinian Nationalism* (London, 1982); Ted Swedenburg, *Memories of Revolt: The 1936-1939 Rebellion and the Palestinian National Past* (Minneapolis, 1995).

ملحق

تراجم الأعلام الواردة في متن الكتاب

أبو تايه، عودة (1858-1924): أحد أشهر فرسان البدو في عصره، زعيم حويطات التوايهة الذين يقيمون عادة حوالى معان. اضطلع بدور مهم في عمليات الثورة العربية الكبرى.

أبو السعود، حسن (الشيخ) (القدس 1897 - القاهرة 1957): مفتٍ ومرب. اضطلع بدور بارز في الحركة الوطنية الفلسطينية، وعمل وزيرًا للأوقاف في حكومة عموم فلسطين. لازم الحاج أمين الحسيني وأمين سره.

أبو الشامات، محمود (1841-1922): فقيه حنفي، وشيخ الطريقة الشاذلية بدمشق. كان مقربًا من السلطان عبد الحميد الثاني.

أبيض، جورج (بيروت 1880 - القاهرة 1959): أحد رواد المسرح العربي في مطلع القرن العشرين، وكان أول نقيب للممثلين في مصر، ودرس في «معهد الفنون المسرحية» بالقاهرة.

الأتاسي، هاشم (1875-1960): الرئيس السوري. مولده ووفاته بحمص. تخرج في «مكتب المُلكية الشاهانية» (الكلية الملكية) باسطنبول، الذي كان يعد واحدًا من أرقى المعاهد العلمية الجامعية في عاصمة السلطنة العثمانية، وتُدرس فيه العلوم الإدارية والسياسية. تدرج في مناصب الإدارة العثمانية حتى بلغ درجة «متصرف» (محافظ). انتخب رئيسًا للمؤتمر السوري العام (1920). وشكل الوزارة في عام 1920 ثم في عام 1949. ترأس الجمعية التأسيسية (1928). وقد أصبح رئيسًا للجمهورية السورية بين عامي 1936-1939 ثم

بين عامَي 1950-1951، وللمرة الثالثة في عام 1954. تولى قيادة «الكتلة الوطنية» التي قادت الحركة الوطنية المناهضة للانتداب الفرنسي في سورية. لقب بـ«أبي الدستور» نظرًا للدور البارز الذي اضطلع به في إنجاز أول دستور عرفته سورية الطبيعية في عام 1920 حين كان رئيسًا للجنة صياغة الدستور في المؤتمر السوري، وكذلك أول دستور لسورية بحدودها الحالية في عام 1928 حين كان رئيسًا للجمعية التأسيسية، بينما جرى إنجاز ثاني دستور عرفته سورية في عام 1950 حين كان رئيسًا للدولة، وبقي العمل بهذا الدستور ساريًا حتى إعلان الوحدة السورية – المصرية (1958).

الأتاسي، وصفي (1882-1933): سياسي. مولده ووفاته بحمص. تخرج في الكلية الملكية باسطنبول. وتدرج في مناصب الإدارة العثمانية حتى بلغ درجة «قائمقام» (مدير منطقة). وكان نائبًا في مجلس النواب العثماني (المبعوثان). عين في العهد الفيصلي متصرفًا على مدينة حماه، وانتخب نائبًا عن حمص في المؤتمر السوري.

أرسلان، عادل (1887-1954): سياسي. تخرج في كلية الحقوق بالآستانة. انتخب نائبًا في مجلس المبعوثان العثماني، وعين مساعدًا لرئيس الحكومة السورية بدمشق في العهد الفيصلي. شارك في الثورة السورية الكبرى (1925-1927). وتولى بعض الوزرات في سورية بعد جلاء الفرنسيين. شغل منصب نائب رئيس الوزراء في عهد حسني الزعيم.

الأرناؤوط، معروف (بيروت 1892 – دمشق 1948): أديب سوري، من أعضاء المجمع العلمي العربي بدمشق. صاحب ومؤسس صحيفة **فتى العرب** الصادرة بدمشق بين عامي 1920 و1958.

الأسطواني، عبد المحسن (1853-1963): رجل دين مسلم، من دمشق. تولى أمانة الفتوى بدمشق في العهد العثماني. وكان نائبًا في مجلس المبعوثان العثماني. عمل نائبًا لرئيس مجلس الشورى في العهد الفيصلي، ثم تولى رئاسته في بداية عهد الانتداب. أخيرًا، عين قاضيًا شرعيًا في دمشق.

الأسعد، كامل (1870-1924): سياسي، كان يعد زعيمًا شعبيًا في جنوب لبنان. تولى عدة مناصب في العهد العثماني، وكان نائبًا في مجلس المبعوثان العثماني، ومقربًا من أحمد جمال باشا (الكبير).

الأشمر، محمد (1892–1960): مجاهد سوري، دمشقي المولد. نشأ نشأة دينية. واشتهر أيام الثورة السورية الكبرى (1925–1926)، وشارك في الثورة الفلسطينية الكبرى (1936–1939). وكان من أعضاء الوفد السوري في مؤتمر أنصار السلم في فرسوفيا (1950) وأقام بعد ذلك في حوران، بسورية.

الأطرش، سلطان (باشا) (1891–1982): قائد الثورة السورية الكبرى (1925–1927). ابن محارب قديم أعدمه الأتراك في عام 1910. انضم إلى الحكم العربي بقيادة فيصل، وأعلن ثورته الأولى على الفرنسيين في عام 1922 إثر حادثة أدهم خنجر المتهم بمحاولة اغتيال الجنرال غورو، ثم نظم ثورته الثانية على الفرنسيين في عام 1925، التي عمت في جميع أنحاء سورية.

أللنبي، إدموند (السير) (1861–1936): قائد، وسياسي بريطاني. اشتهر بالدور البارز الذي اضطلع به في الحرب العالمية الأولى؛ فقد قاد قوة التجريدة المصرية في الاستيلاء على فلسطين وسورية الداخلية في عامي 1917 و1918.

أنطون، فرح (1874–1922): كاتب، باحث، صحافي، روائي. ولد وتعلم في طرابلس الشام. وانتقل إلى الإسكندرية في عام 1897، فأصدر مجلة **الجامعة**، وتولى تحرير **صدى الأهرام** ستة أشهر، وأنشأ لشقيقته روز أنطوان حداد مجلة **السيدات** وكان يكتب فيها بتواقيع مستعارة. ورحل إلى أميركا في عام 1907، فأصدر مجلة وجريدة باسم **الجامعة** ثم حجبهما. وعاد إلى مصر، فشارك في تحرير بضع جرائد، وكتب عدة روايات تمثيلية، وعاود إصدار مجلته، فاستمر إلى أن توفي في القاهرة. له مؤلفات عدة.

أنطونيوس، جورج (الإسكندرية 1893 – القدس 1942): باحث في تاريخ نهضة العرب الحديثة. لبناني الأصل. ولد بالإسكندرية، وتعلم فيها في كلية فيكتوريا ثم بجامعة كمبردج. عين في إدارة المعارف بفلسطين بعد الحرب العامة الأولى. وزار أميركا، فألقى محاضرات عن تاريخ العرب ونهضتهم الحديثة. وكان من أمناء الوفد العربي لمؤتمر فلسطين في لندن (1939) وتوفي بالقدس. له كتاب بالإنكليزية ترجمه علي حيدر الركابي إلى العربية بعنوان **يقظة العرب**.

الإنكليزي، عبد الوهاب (1878–1916): سياسي، من الشهداء الذين أعدمهم جمال باشا. تخرج في الكلية الملكية بالآستانة، وبلغ درجة قائمقام ثم عمل

مفتشا للإدارة في ولاية بيروت، ونقل منها إلى ولاية بروسة، قاوم سياسة الاتحاديين.

الأيوبي، شكري (باشا) (1851–1922): قائد وسياسي دمشقي، أمير لواء في الجيش العثماني، من مؤسسي جمعية «الإخاء العربي العثماني». اعتقل بعد إعدام شهداء 6 أيار، بتهمة الخروج على سياسة الدولة، والتآمر لإشعال ثورة عربية، فحكم عليه بالإعدام ولم تصادق الحكومة القرار، ثم تسلم زمام الحكم في دمشق مدة يومين قبل دخول الأمير فيصل، وعقب تنحي الأمير سعيد الجزائري، وعين بعدئذ حاكمًا عسكريًا في بيروت ثم حلب في العهد الفيصلي.

الأيوبي، عطا (1876–1950): سياسي. مولده ووفاته بدمشق. تخرج في الكلية الملكية بالآستانة. وتدرج في مناصب الإدارة العثمانية حتى بلغ درجة «متصرف». وشغل مناصب وزارية عديدة في عهد الانتداب الفرنسي. تولى رئاسة الحكومة السورية مرتين؛ أولاهما في عام 1936، وثانيتهما في عام 1943. عرفت عنه الوسطية، وأقام علاقات جيدة مع الوطنيين من ذوي النزعة الراديكالية والمعتدلة وسلطات الانتداب الفرنسي في وقت واحد.

البارودي، فخري (1887–1966): سياسي دمشقي، عين في العهد الفيصلي حاجبًا لدى الملك فيصل، وكان أحد مؤسسي «الكتلة الوطنية» في سورية، وانتخب نائبًا في البرلمان السوري، كما كان من أبرز داعمي الحركة الفنية في سورية.

باقي زادة، محمد نجيب (1878–1963): سياسي، واقتصادي حلبي. تخرج في المكتب الإعدادي بحلب. أسس في أثناء عمله مفتشًا للمعارف أولى المدارس الخاصة المتكاملة حتى التجهيز الثانوية في حلب العثمانية. انتمى إلى جمعية الاتحاد والترقي. وفي طور الحكومة العربية سار مع جمعية العربية الفتاة ضمن رؤيته لتوطيد علاقاتها بالكماليين ضد المحتلين الأوروبيين، وكان من مؤسسي فرع النادي العربي بحلب، كما أسس دار الأيتام الإسلامية بحلب. انتمى إلى الكتلة الوطنية في عهد الانتداب الفرنسي. أسس محلًا تجاريًا لاستيراد وبيع المعدات الزراعية والصناعية.

البخاري، جلال (1890–1916): ضابط، من الشهداء الذين أعدمهم جمال باشا. ولد وتعلم بدمشق. وتخرج في كلية الحقوق بالآستانة، وكان من مؤسسي

المنتدى العربي فيها. ولما نشبت الحرب (1914) جند ضابطًا احتياطيًا في الجيش الرابع. وقاوم سياسة الاتحاديين.

البرازي، حسني (حماه 1895 - تركيا 1975): سياسي من حماه. تخرج في كلية الحقوق بالآستانة. وساهم في الحركة الوطنية والحياة الحزبية فاشترك في تأسيس كل من العربية الفتاة، والعهد السوري، والاستقلال، والكتلة الوطنية. وفي العهد الفيصلي عين متصرفًا لحمص ثم تولى مفتشية العدلية. وكان وزيرًا للداخلية (1926)، ووزيرًا للمعارف (1934)، ومحافظًا للإسكندرون (1936-1938)، ورئيسًا لمجلس الوزراء ووزيرًا للداخلية (1942)، وأمينًا عامًا في القصر الجمهوري في عهد حسني الزعيم، ومحافظًا لحلب (1949)، ثم نائبًا للحاكم العسكري. أصدر صحيفة **الناس** في دمشق (1954). لم يكن من المتحمسين للوحدة مع مصر، فاتهمه عبد الحميد السراج بالإعداد لانقلاب عسكري، فأقام مضطرًا في بيروت، فصدر في حقه حكم الإعدام من المحكمة العسكرية، ثم صدر العفو عنه في منتصف الستينيات بسبب تقدمه في السن، إلا أنه لم يعد إلى سورية قط، بل ظل متنقلًا في منفاه بين لبنان وتركيا حتى توفي في تركيا.

البرهاني، سعيد (الشيخ) (1892-1967): فقيه، مربٍّ، شيخ الطريقة الشاذلية. درَّس في العديد من مدارس دمشق وريفها، ودرَّس في الجامع الأموي، وكان عضوًا مؤسسًا في رابطة العلماء، وساهم في تأسيس جمعية «العقيبة الخيرية» (1956).

البساط، توفيق: سياسي، من الشهداء الذين أعدمهم جمال باشا. من مواليد صيدا، بها تعلم وببيروت ثم بالآستانة. كان من أعضاء «المنتدى الأدبي» فيها، ومن أعضاء جمعية «العربية الفتاة» السرية. قاوم سياسة الاتحاديين.

البكري، فوزي (باشا): سياسي. مولده ووفاته بدمشق. كان أحد قادة الجمعية العربية الفتاة في دمشق وأركان الثورة العربية الكبرى. عين وزيرًا للداخلية في أول حكومة عربية تشكلت في الحجاز. وانتُخب نائبًا عن دمشق في المؤتمر السوري العام (1919-1920)، ثم الجمعية التأسيسية (1928). منحه الملك الأردني عبد الله لقب الباشوية.

البكري، نسيب (1888-1966): سياسي دمشقي، شارك في تأسيس جمعية «العربية الفتاة» وأصبح سكرتيرًا لها، والتحق بالثورة العربية ليصبح مستشارًا للأمير فيصل، ثم برز في الحركة الوطنية في سورية ليشارك في تأسيس «الكتلة الوطنية»، ويصبح نائبًا في البرلمان ووزيرًا في عدة حكومات سورية.

بيشون، ستيفان (1857-1933): وزير خارجية فرنسا مرتين؛ أولاهما (1909-1911)، وثانيتهما في حكومة كليمنصو (1917-1920).

بيل، غيرترود (1868-1926): كاتبة، وشاعرة، وعالمة آثار، ورحالة، ومحللة سياسية ودبلوماسية بريطانية، عملت مستشارة للمندوب السامي البريطاني ببغداد. اضطلعت بدور بالغ الأهمية في الصيغة التي أخذتها المنطقة العربية في أعقاب الحرب العالمية الأولى.

بيهم، محمد جميل (1887-1978): مؤرخ، باحث، من كبار الشخصيات اللبنانية. حصل على درجة الدكتوراه من معهد الآداب في جامعة باريس بموضوع الانتدابات. وعمل في حقول السياسة والاجتماع والفكر. مثل لبنان في المؤتمر السوري بدمشق (1919-1920). وتولى رئاسة المجمع العلمي اللبناني. انتمى إلى المحافل الماسونية ثم انسحب منها.

التميمي، أمين (1892-1944): سياسي فلسطيني. ولد في نابلس، وتعلم في اسطنبول، حيث تعرف على أعضاء المنتدى العربي، وجمعية العربية الفتاة، ثم التحق بالأمير فيصل في سورية، واضطلع بدور بارز في الحركة الوطنية الفلسطينية، وبعد قمع الاحتلال الإنكليزي للثورة الفلسطينية الكبرى هرب إلى لبنان، ثم العراق واشترك في ثورة رشيد عالي الكيلاني (1941)، وقبض عليه الإنكليز، ونفوه إلى معتقل في أفريقيا، وتوفي في معتقله.

التميمي، رفيق (نابلس 1889 - دمشق 1957): سياسي، مؤرخ من رجال التعليم والعاملين في الحركة العربية الحديثة. تخرج في الكلية الملكية بالآستانة، وجامعة السوربون بباريس، وساهم في القضية العربية، وانتخب نائبًا في المؤتمر السوري العام، وعين أستاذًا للتاريخ في الجامعة السورية، وتعاطى المحاماة، ورأس مكتب الهيئة العربية العليا لفلسطين. له كتب.

الجابري، إحسان (حلب 1879 – القاهرة 1980): سياسي. تخرج في كلية الحقوق بالآستانة. وعين كاتبًا (أمين سر) في ديوان السلطان محمد الخامس فمحمد السادس. وفي العهد الفيصلي عين رئيسًا لبلدية حلب ثم كبيرًا لأمناء الملك فيصل. أُخرج مع فيصل من سورية في عام 1920، ثم انتخب عضوًا في الوفد العربي الدائم في جنيف للدفاع عن القضية الفلسطينية. وعاد إلى سورية في عام 1937 فعين محافظًا للاذقية، وترأس اتحاد الدول العربية (1958).

الجابري، عبد الحميد (1864–1951). رجل دين مسلم، من حلب. شغل عددًا من المناصب القضائية في العهد العثماني، وانتخب في العهد الفيصلي نائبًا في المؤتمر السوري، وشارك في الحركة الوطنية إبان عهد الانتداب الفرنسي، وكان عضوًا مراسلًا للمجمع العلمي العربي بدمشق. له مؤلفات في الفقه الإسلامي والأدب العربي وديوان شعر.

الجزائري، سعيد (الأمير) (1885–1970): سياسي، حفيد المجاهد الجزائري الأمير عبد القادر الجزائري (1808–1883) الذي عاش وأقام في سورية. مولده ووفاته بدمشق، بها تعلم وباسطنبول، ونصب نفسه حاكمًا على مدينة دمشق إبان الفترة الانتقالية الفاصلة بين خروج الجيش العثماني ودخول القوات العربية مع نهاية الحرب العالمية الأولى (1918). وكان أحد المرشحين لعرش سورية، كما رشحه أبناء بلده الجزائر لتولّي المُلْك فيها قبيل الاستقلال، وترأس لجنة الدفاع عن الخط الحديدي الحجازي، وجمعية مهاجري أفريقيا الشمالية، وأصدر مجلة **الوحدة الإسلامية** في بيروت ثم منعتها السلطات الفرنسية. له مذكرات.

الجزائري، سليم (1879–1916): ضابط، ومن الشهداء الذين أعدمهم جمال باشا. ولد بدمشق وتعلم في المدرسة العسكرية، ومدرسة الهندسة البرية بالقسطنطينية وبرع في الرياضيات وألف كتبًا في المنطق، وعين أستاذًا في المدرسة الجربية، واشترك في عدة حروب، وقاد اللواء السابع عشر فاللواء الثامن عشر في الحرب العالمية الأولى. ساهم في تأسيس جمعية فتيان العرب والجمعية القحطانية وجمعية العهد وغيرها. وقاوم سياسة الاتحاديين.

الجزائري، طاهر (الشيخ) (1852–1920): أديب، باحث، لغوي. مولده ووفاته بدمشق. وهو ابن الشيخ صالح الذي هاجر من الجزائر بعد نفي الأمير

عبد القادر. عمل معلمًا في المدرسة الظاهرية الابتدائية (1877)، وعمل مع مدحت باشا على إصلاح التعليم ومحو الأمية، حيث عينه الوالي مفتشًا عامًا للمعارف. واشترك في تأسيس الجمعية الخيرية مع بعض العلماء، التي كان لها كبير الأثر في افتتاح تسع مدارس في دمشق، اثنتان منها للإناث (1879). أسس دار الكتب الوطنية الظاهرية بدمشق وعمل مديرًا لها، وأسس مع آل الخالدي المكتبة الخالدية في القدس. كان عضوًا في المجمع العلمي العربي بدمشق، وكانت له مراسلات مع مستشرقين من جنسيات مختلفة. له مؤلفات.

جمال باشا (الصغير) (1873-1941): قائد عسكري عثماني، عين قائد فيلق في سورية ضمن الجيش الرابع بقيادة جمال باشا (الكبير)، ونيطت به مهمة التوجه إلى قناة السويس، ثم حل بديلًا عن جمال باشا في قيادة الجيش الرابع بعد إقالته من منصبه (1918)، وشارك في المعارك ضد القوات البريطانية في فلسطين، وقد تقهقر الأتراك وألقيت عليه مسؤولية ذلك.

جمال باشا (الكبير) (1872-1922): وزير البحرية العثمانية في عهد الاتحاديين. تخرج في الكلية الحربية وانتمى إلى حزب الاتحاد والترقي واضطلع بدور فعال في تهيئة انقلاب عام 1908 الذي أعاد العمل بالدستور في الدولة العثمانية، فأصبح من أكثر رجال الحزب نفوذًا. عين حاكمًا عسكريًا في أضنة فبغداد ثم اسطنبول. شغل منصب ناظر البحرية (وزير)، ولما نشبت الحرب العالمية الأولى عين قائدًا للجيش الرابع وحاكمًا عسكريًا في سورية، وهناك نكل بنخبة من ساسة ومفكري بلاد الشام، وأعدم عددًا كبيرًا منهم، فلقب بـ«السفاح». عاد إلى تركيا، ولما انتهت الحرب بخسارة ألمانيا وتركيا هرب على متن باخرة ألمانية. وفي عام 1922 اغتاله أرمني في تفليس.

الجويجاتي، حمدي (الشيخ) (1898-1991): رجل دين مسلم، من دمشق. شارك في الثورة السورية الكبرى، وسجن في قلعة دمشق زمن الفرنسيين، أسس في الثلاثينيات مصنعًا للنسيج، وتولى إدارة الجامع الأموي، ثم عين خطيبًا وإمامًا في عدد من مساجد دمشق، وكان له دور كبير في الحد من نشاط الجماعة الإسلامية الأحمدية (القاديانية) بدمشق، وأخرج سلسلة رسائل في الرد على من أراد الخروج على المذاهب الأربعة سماها **الإصابة**.

حجازي، سلامة (1852-1917): مسرحي مصري وأحد أعلام النهضة العربية الحديثة، وهو مطرب وملحن وصاحب فرقة موسيقية وتمثيلية اعتمدت خاصة على الغناء والطرب ما بين نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين.

حداد، جبرائيل (باشا) (1890-1923): أحد قادة الجيش البريطاني في مصر إبان الحرب العالمية الأولى، وهو من أصل سوري. وعند تشكيل الحكومة العربية بدمشق (1918-1920) أشار أللنبي على فيصل بالاستعانة بحداد في تنظيم قوات الشرطة والجندرمة (الدرك) في سورية.

الحسني، تاج الدين (الشيخ) (1890-1943): الرئيس السوري. مولده ووفاته بدمشق. كان والده الشيخ بدر الدين الحسني (1851-1935) من أكثر رجال الدين تأثيرًا وشعبية في بلاد الشام، وينحدر من أسرة إدريسية النسب أتت من المغرب في مطالع القرن التاسع عشر، وتصاهرت مع عائلات ذات نفوذ ومكانة بدمشق، فكانت والدته من آل العاني، وجدته لأبيه من آل المنير الكزبري. انتخب في عام 1913 عضوًا في المجلس العمومي لولاية سورية، وشغل منصب المدير المسؤول لصحيفة **الشرق** التي أصدرها جمال باشا (الكبير) في دمشق لتكون الناطقة بلسان الجيش العثماني الرابع إبان الحرب العالمية الأولى. في العهد الفيصلي انتخب نائبًا عن دمشق في المؤتمر السوري العام (1919-1920)، وعينه الملك فيصل الأول في عام 1920 مديرًا عامًا للأمور العلمية في دائرة شبيهة بالمشيخة الإسلامية في العهد العثماني كانت مرجعًا أعلى لدوائر الأوقاف والفتوى والمحاكم الشرعية والخط الحجازي، إلى جانب تدريسه في معهد الحقوق. وفي بدايات عهد الانتداب الفرنسي عين عضوًا في مجلس الشورى، ثم في محكمة التمييز، وبعد ذلك صار قاضيًا شرعيًا لدولة دمشق. تولى رئاسة الحكومة أربع مرات ما بين 1928 و1936، ثم رئاسة الجمهورية السورية (1941-1943). شهد عهدُه الإعلان عن استقلال سورية من الانتداب الفرنسي في أيلول/ سبتمبر من عام 1941. عرف عنه اهتمامه بالعمران.

الحسين بن علي (الشريف) (اسطنبول 1854 - عمان 1931): من أحفاد أبي نمي ابن بركات، الحسني الهاشمي، أول من قام في الحجاز باستقلال

العرب عن الدولة العثمانية أيام حكم الاتحاديين، وآخر من حكم مكة من الأشراف الهاشميين. ولد في اسطنبول عندما كان أبوه منفيًا فيها، وانتقل معه إلى مكة، وعمره ثلاث سنوات. في عام 1893 استدعي إلى العاصمة اسطنبول حيث عمل في مجلس الدولة. وفي عام 1908، وبعد الانقلاب العثماني، عينه السلطان عبد الحميد الثاني أميرًا لمكة. وبعد خلع السلطان في عام 1909، اختلف مع سياسة الاتحاديين وجرت بينه وبين البريطانيين مراسلات وعدوه فيها بتأسيس مملكة عربية مستقلة عن الأتراك تمتد من جبال طوروس حتى اليمن، وقد عرفت بمراسلات الحسين - مكماهون. أعلن ثورته العربية الكبرى في الحجاز ضد الاتحاديين في عام 1916، وعلى الرغم من نجاح الثورة والانتصار بدخول ولده الأمير فيصل دمشق في عام 1918، ولكن طموحاته العربية لم تتحقق من جانب الحلفاء الذين اعترفوا به ملكًا على الحجاز فقط. ولما رفض التصديق على معاهدة فرساي لعام 1919، واحتج على وعد بلفور وإنشاء كيانات خاضعة لانتداب بريطانيا وفرنسا في سورية والعراق وفلسطين، حرم نفسه من دعم الحلفاء، ونفي إلى قبرص. وكان أن غزت مملكته الحجازية قوات ابن سعود. وفي آذار/ مارس من عام 1924، وعندما ألغيت الخلافة العثمانية على يد مصطفى كمال، أعلن الملك حسين نفسه خليفة على جميع المسلمين في تشرين الأول/ أكتوبر من عام 1924، ولكن كان الجميع قد تخلوا عنه.

الحسيني، أمين (الحاج) (القدس 1895 - بيروت 1974): المفتي العام للقدس، ورئيس المجلس الإسلامي الأعلى، ورئيس اللجنة العربية العليا، وأحد أبرز الشخصيات الفلسطينية في القرن العشرين. ولد وتعلم بالقدس، وأقام سنتين بين الجامع الأزهر ودار الدعوة والارشاد التي أنشأها محمد رشيد رضا بمصر. وتخرج ضابطا احتياطيًا في اسطنبول. وعاد إلى القدس بعد الحرب العالمية الأولى. انتخب رئيسًا لـ «النادي العربي» في القدس، وهو أول تنظيم سياسي في فلسطين، ولم تقم حركة وطنية في فلسطين أو من أجلها إلا كان هو مدبرها في الخفاء أو في العلن. وكان الحركة الدائمة في اللجان والوفود إلى المؤتمرات، وفي الثورات.

الحصري، ساطع (صنعاء 1879 - بغداد 1969): مفكر وكاتب سوري من حلب، يعد أحد أهم رواد القومية العربية. تخرج في الكلية الملكية باسطنبول. وتولى وظائف إدارية وتعليمية عديدة، وعمل مديرًا لدار المعلمين في اسطنبول. وقضى ثماني سنوات في البلقان، وعمل ضد السلطان عبد الحميد الثاني. تولى مرات عديدة وزارة المعارف في العهد الفيصلي، وعمل على تعريب التعليم. وبعد سقوط فيصل ذهب معه إلى العراق حيث وضع أسس التربية العراقية. وأخرجه الإنكليز من العراق إثر ثورة رشيد عالي الكيلاني إبان الحرب العالمية الثانية. وفي عام 1943 وضع أسس التعليم في سورية. ثم عمل أستاذًا زائرًا في معهد التربية التابع للجامعة العربية. وله مؤلفات كثيرة عن القومية العربية.

الحكيم، حسن (1886-1982): سياسي دمشقي. تلقى علومه في مدارس دمشق واسطنبول، تولى وظائف مالية في العهد العثماني، وعين مفتشًا للمالية بعد تشكيل الحكومة العربية بدمشق، ثم مديرًا للبريد والبرق في المملكة السورية العربية. وكان من مؤسسي حزب الشعب برئاسة الدكتور عبد الرحمن الشهبندر. عين وزيرًا للمعارف في عام 1939. وتسلّم رئاسة الحكومة مرتين؛ أولهما بين عامي 1941 و1942، وثانيتهما في عام 1951. وشهدت رئاسته الأولى للحكومة الإعلان عن استقلال سورية عن الانتداب الفرنسي في أيلول/ سبتمبر من عام 1941. وكان أحد واضعي دستور سورية لعام 1950. صدرت مذكراته في جزأين.

الحكيم، خالد (حمص 1878 - دمشق 1944): مهندس عسكري، ومفكر. تعلم في اسطنبول. تولى أعمالًا في إنشاء الخط الحجازي. قاتل الإيطاليين في طرابلس الغرب، ودخل في جمعية الفتاة. والتحق بالثورة العربية الكبرى. وبعد معركة ميسلون في سورية أقام في شرق الأردن. وحكم عليه الفرنسيون بالإعدام غيابيًا. عمل مستشارًا للملك عبد العزيز آل سعود.

الحكيم، أسعد (الدكتور) (1886-1979): أديب، وباحث. تعلم في دمشق وبيروت وفرنسا. وكان أول متخصص بالأمراض النفسية في سورية. ترقى في المناصب الطبية، ودرس بكلية الطب، وعين عضوًا في المجمع العلمي العربي بدمشق. وكان من مؤسسي جمعية العربية الفتاة. وله عدد من المؤلفات.

الحلبي، عيد (1899–1999): تاجر، ورجل دين مسلم، من وجوه دمشق، إمام وخطيب جامع القيمرية، اليد اليمنى للشيخ كامل القصاب، هيأ الرجال والسلاح لمتطوعي معركة ميسلون.

حماد، توفيق (الحاج) (1860–1934): سياسي من أعيان نابلس. تولى رئاسة بلدية نابلس ثم انتخب نائبًا في مجلس المبعوثان. اضطلع بدور بارز في الحركة الوطنية الفلسطينية إبان الاحتلال البريطاني.

حوراني، ألبرت (1915–1993): مفكر، وباحث، ومؤرخ إنكليزي من أصل لبناني. ولد وتعلم في مدينة مانشستر بإنكلترا، ثم تابعها بجامعة أكسفورد، حيث تخصص بالدراسات العربية والإسلامية، وبعد أن تخرج فيها التحق بالجامعة الأميركية ببيروت حيث درس العلوم السياسية والتاريخ، وعاد إلى بريطانيا مع اندلاع الحرب العالمية الثانية فعمل في وزارة الخارجية، ثم في المكتب العربي، كما عمل أستاذًا في مادة تاريخ الشرق الأوسط الحديث في جامعة أكسفورد، ودرّس في جامعة شيكاغو وجامعة بنسلفانيا وجامعة هارفرد. صدر له العديد من الكتب المرجعية، من أهمها وأشهرها **تاريخ الشعوب العربية** و**الفكر العربي في عصر النهضة**.

حيدر، سعيد (بعلبك 1890 – دمشق 1957): صحافي وسياسي. وتعلم ببعلبك ودمشق، وتخرج في كلية الحقوق باسطنبول. اشتغل بالقضية العربية، فكان عضوًا في حزب الفتاة، وحزب الاستقلال العربي، ثم انضم إلى حزب الشعب الذي أسسه الشهبندر في أوائل عهد الانتداب الفرنسي، وأصدر بالاشتراك مع أخيه يوسف صحيفة **المفيد**، ودرس الحقوق الدستورية في معهد الحقوق بدمشق، وعين رئيسًا لمجلس الشورى، وانتخب عضوًا بالمجلس النيابي السوري.

الخالدي، صبحي بركات (أنطاكية 1889 – اسطنبول 1940): سياسي من مدينة أنطاكية، اتخذ حلب مقرًا لإقامته طوال فترة نشاطه السياسي في سورية. مثل أنطاكية في المؤتمر السوري العام، وتزعم المقاومة المناهضة للفرنسيين في أنطاكية، ثم عين نائبًا عن دولة حلب في مجلس الاتحاد السوري (1922)، فرئيسًا للمجلس التمثيلي لدولة حلب (1922–1924)، وفاز بمقعد في

انتخابات المجلس التمثيلي لولاية حلب (1926) التي شهدت مقاطعة واسعة من الناخبين الحلبيين، وانتخب نائبًا عن مدينة حلب في انتخابات المجلس النيابي لعام 1932 بضغط من سلطات الانتداب. كما شغل مناصب رئيس حكومة دولة الاتحاد السوري (1922-1924)، ورئيس الدولة السورية ورئيس الوزراء معًا (1925). وأخيرًا، تولى رئاسة البرلمان السوري (1932-1936) ليغادر بعد ذلك مقر إقامته في حلب نهائيًا ميممًا شطر اسطنبول، حيث انتخب نائبًا في البرلمان التركي. ويعزو القنصل البريطاني بدمشق في تقرير سري في شتاء عام 1922 العفو المفاجئ الذي مُنح له إلى أحد البنود السرية لاتفاقية أنقرة بين الفرنسيين والأتراك (1921)، وأن الكماليين مارسوا لاحقًا ضغوطات على الفرنسيين من أجل تعيينه رئيسًا للاتحاد السوري، مشيرًا إلى أنه كان يمثل الحركة الكمالية في سورية.

الخراط، حسن (1861-1925): من أشهر المجاهدين في الثورة السورية (1925). كان أميًّا فقيرًا، عمل في الحراسة. وشارك في الثورة وخاض معاركها بدمشق وغوطتها الشرقية. كانت له عصبة اتخذت قريتي عقربا وبيت سحم مقرًا لها. وجرح مرتين ولقي مصرعه بعد معركة مع الفرنسيين قرب يلدا. ولما استقلت سورية سميت إحدى مدارسها الرسمية باسمه.

الخضراء، صبحي (صفد 1895 - دمشق 1954): سياسي فلسطيني. تخرج في الكلية العسكرية باسطنبول. وخدم في الحرب العالمية الأولى في الجيش العثماني على جبهة سيناء وقناة السويس، ووقع لفترة من الزمن في أسر القوات البريطانية. التحق بالثورة العربية، وكان مع طليعة القوات العربية التي دخلت دمشق في تشرين الأول/ أكتوبر من عام 1918. عُيّن في العهد الفيصلي نائبًا ثم مديرًا للأمن العام ومرافقًا للملك فيصل. وأصدرت سلطات الاحتلال الفرنسي حكمًا بإعدامه. اضطلع بدور بارز في الحركة الوطنية الفلسطينية إبان الاحتلال البريطاني. لجأ بعد وقوع النكبة إلى دمشق معينًا مديرًا لمؤسسة اللاجئين الفلسطينيين العرب.

الخطيب، خالد (الدكتور) (حماه 1900 - عمان 1933): طبيب، وشاعر، ومناضل وطني. تخرج في كلية الطب بدمشق. تعرض للاعتقال والسجن، وحُكم

عليه بالإعدام من سلطة الانتداب الفرنسي على إثر معركة ميسلون، ثم خفف حكم الإعدام إلى السجن المؤبد، فسجن في جزيرة أرواد مع رفاقه الثوار، ثم أفرج عنه بعد ثمانية عشر شهرًا، فاشترك في ثورة حماه، وفي معارك دمشق (الغوطة)، ثم نزح إلى عمان، فالقاهرة، فإلى عمان، وفيها افتتح عيادة، ولكن القدر لم يمهله فمات هناك ونقل جثمانه إلى دمشق. له ديوان شعر.

الخطيب، زكي (1887-1990): محام، وسياسي، تخرج في الكلية الملكية باسطنبول، عين في عدد من المناصب الإدارية المهمة، ونفي إلى ديار بكر لمقاومته سياسة التتريك، وعين في العهد الفيصلي مدير رسائل ديوان الحاكم العام، ثم رئيسًا لديوان وزارة الداخلية في عهد الانتداب الفرنسي، ثم نحي بسبب مواقفه الوطنية، وبرز في الحركة الوطنية، وشارك في تأسيس «الكتلة الوطنية» ثم انسحب منها، وأصبح نائبًا في البرلمان ووزيرًا في عدة حكومات سورية.

الخطيب، سيف الدين (1888-1916): حقوقي، ومن الشهداء الذين أعدمهم جمال باشا. ولد في دمشق وبها تعلم، وتخرج بالحقوق في اسطنبول، وكان من مؤسسي المنتدى العربي فيها. حكم عليه في ديوان عاليه العرفي، وشنق في بيروت.

الخطيب، صلاح الدين (1877-1994): قاض، تخرج في كلية الحقوق باسطنبول، وتقلب في عدد من الوظائف القضائية، شارك في معركة ميسلون.

الخطيب، عبد الرحمن (1889-1947): رجل دين مسلم، صوفي، خطيب الجامع الأموي، وجامع السنانية، ومدرس في المدرسة التجارية بدمشق.

الخطيب، عبد الرزاق (1855-1953): مقرىء حافظ، تاجر في البزورية.

الخطيب، عبد القادر (1879-1932): رجل دين مسلم، وسياسي. خطيب الجامع الأموي، ومدرس البخاري فيه، ومحافظ دار الكتب الوطنية، وعضو المجلس البلدي، ورئيس غرفة تجارة دمشق في العهد العثماني، ونائب رئيس المؤتمر السوري، ومدير الأوقاف العام في عهد الانتداب.

الخطيب، كمال (1874-1920): رجل دين مسلم، تولى إمامة وخطابة جامع الخريزانية في سوق مدحت باشا، القريب من متجره الذي كان يبيع فيه زيت الكاز. خطب في الناس في معركة ميسلون واستشهد فيها.

الخطيب، محب الدين (دمشق 1886 - القاهرة 1969): من كبار الكتاب الإسلاميين. ولد في دمشق، وتعلم بها والآستانة، وشارك في إنشاء جمعية بدمشق سميت «النهضة العربية». رحل إلى صنعاء فترجم عن التركية وعمل في بعض مدارسها. ولما أعلن الدستور العثماني (1908) عاد إلى دمشق. ثم زار اسطنبول ومنها قصد القاهرة (1909) فعمل في تحرير صحيفة **المؤيد**. وانتدبته إحدى الجمعيات العربية في أوائل الحرب العامة الاولى للاتصال بأمراء العرب فاعتقله الإنكليز في البصرة سبعة أشهر. وأعلنت في مكة الثورة العربية (1916) فقصدها وحرر جريدة **القبلة** وحكم عليه الأتراك بالإعدام غيابيًا. ولما جلا العثمانيون عن دمشق، عاد إليها (1918) وتولى إدارة جريدة **العاصمة**. وفر بعد دخول الفرنسيين (1920) فاستقر في القاهرة وعمل محررًا في صحيفة **الأهرام**. وأصدر مجلتيه **الزهراء** و**الفتح** وكان من أوائل مؤسسي «جمعية الشبان المسلمين». تولى تحرير مجلة **الأزهر** ست سنوات. وأنشأ المطبعة السلفية ومكتبتها، فأشرف على نشر عدد كبير من كتب التراث وغيرها. صدر له العديد من المؤلفات. وضمت خزانة كتبه نحو عشرين ألف مجلد مطبوع تغلب فيها النوادر.

الخليل، عبد الكريم (1892-1916): محام، ومن الشهداء الذين أعدمهم جمال باشا. ولد وتعلم في بيروت، ودرس الحقوق في اسطنبول. وانتخب رئيسًا للمنتدى الأدبي فيها. احترف المحاماة. وكان من دعاة استقلال العرب عن العثمانيين.

الخوري، فارس (حاصبيا 1877 - دمشق 1962): سياسي بارز، ومن رواد القضية العربية. تولى مرارًا رئاسة الوزارة ورئاسة مجلس النواب في سورية. وكان أستاذًا في كلية الحقوق وعضوًا في المجمع العلمي العربي بدمشق. شارك في تأسيس حزب الشعب، ثم كان عميدًا للكتلة الوطنية. له مواقف مشهودة في الدفاع عن القضايا العربية في الأمم المتحدة.

داغر، أسعد (1886-1958): كاتب صحافي، ومترجم، من طلائع النهضة القومية العربية، ومن مجيدي الترجمة عن الفرنسية. من أهل «تنورين» بلبنان. ولد بها، وتعلم ببيروت، وقصد اسطنبول لدرس الحقوق، فكان فيها من شباب

«المنتدى الأدبي»، وواصل برسائله جريدة **المقطم** بمصر. أعلنت الحرب فخشي أذى الاتحاديين، فتسلل إلى باخرة حملته إلى مصر. فعمل محررًا في **المقطم**. وحكم عليه العثمانيون بالإعدام (غيابيًا). ذهب بعد الحرب إلى سورية، فأصدر جريدة **العقاب**. وخرج من دمشق، ليلة دخول الفرنسيين (1920) فعاد إلى مصر ورأس تحرير القسم الخارجي في جريدة **الأهرام**، أكثر من ربع قرن. ودعي إلى العمل مديرًا لشؤون الصحافة في الأمانة العامة لجامعة الدول العربية، فتولى ذلك بضعة أعوام، انتهت بإصداره جريدة **القاهرة** يومية إلى أن توفي. ونقل جثمانه إلى «تنورين». له كتب، منها **مذكراتي على هامش القضية العربية**.

الدروبي، علاء الدين (حمص 1870 – درعا 1920): سياسي، ورجل دولة. تخرج في الكلية الملكية بالآستانة، وكان السوري الوحيد من بين خريجي الكلية تلك الذي بلغ منصب «الوالي»، حينما جرى تعيينه في عام 1913 واليًا على البصرة، في خطوة عدت آنذاك بمثابة تنازل من جانب الاتحاديين نتيجة تصاعد ضغط الحركة القومية العربية. وكان آخر منصب شغله في العهد العثماني تعيينه نائبًا لوالي سورية بين (1914–1916). وفي العهد الفيصلي عين أول وال عربي على دمشق (1918–1919). ونشط في «حزب الاستقلال العربي»، الواجهة العلنية لجمعية «العربية الفتاة». ولئن كان متماهيًا مع البرنامج القومي الاستقلالي إلا أنه كان من ذوي النزعة الأرستقراطية، فنأى بنفسه عن الأفكار الاجتماعية الحديثة التي ميزت النخبة الجديدة ذات النزعة الديمقراطية الشعبية وطبعت العهد الفيصلي بطابعها، وانضم إلى صفوف «الحزب الوطني السوري» ذي النزعة المحافظة. وكان مقربًا من فيصل، فجعله كبيرًا لمستشاريه طوال عهد الإمارة، ثم ما لبث أن دخل الحكومة بعد تنصيب فيصل الأول ملكًا، فعين رئيسًا لمجلس الشورى في حكومة الركابي المشكَّلة في 19 آذار/ مارس من عام 1920، ثم أُسندت إليه وزارة الداخلية في حكومة الأتاسي المشكَّلة في 3 أيار/ مايو. كلفه الملك فيصل برئاسة الحكومة إثر دخول الجنرال غوابيه دمشق محتلًا في 25 تموز/ يوليو، في مسعى من فيصل لإبرام تسوية سياسية مع الفرنسيين تتيح له الاستمرار في الحكم عبر اختياره شخصية ذات نزعة سياسية معتدلة تكون مقبولة من جانب الفرنسيين. وقد ظلت حكومة الدروبي، التي ضمت عددًا من الشخصيات الوطنية، ومن بينها

فارس الخوري وعطا الأيوبي ويوسف الحكيم، تمارس تصريف الأعمال بعد مغادرة الملك فيصل البلاد في 28 تموز/ يوليو. وفي محاولة من الحكومة لإحباط مسعى زعماء حوران لفك ارتباط منطقتهم عن سورية وإلحاقها بالأردن، وفقًا لرواية يوسف الحكيم، ترأس الدروبي وفدًا حكوميًا رفيعًا لمفاوضة الحورانيين. وسافر الوفد إلى حوران يوم 21 آب/ أغسطس 1920، وعند وصوله إلى قرية خربة غزالة، أطلق أحد الجنود السنغاليين المرافقين للوفد النار على جمع من الحورانيين الموجودين في المحطة، خوفًا من البنادق التي كانت بين أيديهم؛ فجرى تبادل لإطلاق النار بين الفريقين أسفر عن مصرع كل من رئيس الحكومة الدروبي ورئيس مجلس الشورى اليوسف.

دروزة، محمد عزة (نابلس 1887 - دمشق 1984): مفكر وكاتب ومناضل قومي عربي فلسطيني. عمل في السياسة منذ إعلان الدستور العثماني (1908)، فشارك في تأسيس الجمعيات والأحزاب الاستقلالية العربية الوحدوية النضالية في بلاد الشام، مثل جمعية العربية الفتاة وحزب الاستقلال العربي، كما شارك في أنشطتها. أمين سر المؤتمر السوري العام (1919-1920)، وأحد واضعي الدستور السوري الأول. عارض سياسة التتريك وقاد العديد من الأنشطة المناهضة للانتداب البريطاني على فلسطين وسياسة تقسيم الأراضي العربية. ترك أكثر من خمسين كتابًا في شؤون شتى تتعلق بالعروبة والإسلام والتاريخ العام.

الدملوجي، عبد الله (الدكتور) (1890-1971): سياسي عراقي. ولد في الموصل، وتخرج في كلية حيدر باشا الطبية باسطنبول، وشارك في الجمعيات السرية العربية، وعمل طبيبًا خاصًا للملك عبد العزيز آل سعود، عندما كان أميرًا لنجد، ثم عينه مستشارًا له، وعهد إليه وعهد إليه بإدارة الشؤون الخارجية بعد دخول الحجاز، وفي عام 1928 عاد إلى العراق حيث انتخب نائبًا في البرلمان ووزيرًا للخارجية في عدة حكومات.

دياب، أحمد (1930): تاجر دمشقي، ترأس جمعية ملّاكي مياه عين الفيجة، وكان عضو اللجنة المؤسسة لها. ساهم في تشكيل اللجنة الوطنية العليا، وكان أحد الذين حكم الفرنسيون عليهم بالإعدام (1920)، ثم صدر العفو عنهم.

رضا، محمد رشيد (القلمون 1865 - القاهرة 1935): أحد رواد الإصلاح الإسلامي في العصر الحديث. تتلمذ على يد الشيخ محمد عبده، وأصدر في القاهرة مجلة **المنار** لبَثّ آرائه في الإصلاح الديني والاجتماعي. أنشأ مدرسة «الدعوة والإرشاد»، واشترك في تأسيس حزب الاتحاد السوري. ثم قصد سورية في العهد الفيصلي، وانتخب رئيسا للمؤتمر السوري فيها. وغادرها على أثر دخول الفرنسيين إليها (عام 1920) فأقام في مصر مدة. ثم رحل إلى الهند والحجاز وأوروبا. ثم استقر في مصر ومات فيها ودفن. صدر له العديد من المؤلفات.

الركابي، علي رضا (باشا) (1868-1942): من رؤساء الوزارات. مولده ووفاته في دمشق. تعلم بها، وتخرج بالكلية الحربية في الآستانة. تولى وظائف عسكرية، في القدس، فالمدينة ثم بغداد والبصرة. وكان من حملة الفكرة العربية، قبل الحرب العامة الأولى، فدخل في جمعية «العربية الفتاة» وجمعية «العهد» السريتين. ولمّا دخل الجيش العربي دمشق (1918) كان على اتصال به، فعين حاكمًا عسكريًا ثم رئيسا للوزارة، ثم استقال. وبعدما فرض الانتداب الفرنسي على سورية لزم بيته. وأنشئت حكومة شرق الأردن في عمان فقصدها في عام 1922 وتولى رياسة الوزارة فيها مرتين.

الزركلي، خير الدين (بيروت 1893 - القاهرة 1976): كاتب ومؤرخ وشاعر دمشقي. تتلمذ على طاهر الجزائري ومحمد كرد علي وغيرهما، وأصدر جريدة **لسان العرب**. وبعدما فرض الانتداب الفرنسي على سورية حكم عليه بالموت بتهمة مناهضة الانتداب، فاضطر إلى مفارقة بلده والرحيل إلى مصر. وفي عام 1921 تجنس بالجنسية الحجازية ثم السعودية. مثّل السعودية في الجامعة العربية. أشهر مؤلفاته **معجم الأعلام** وديوانه الشعري.

الزهراوي، عبد الحميد (1855-1916): من زعماء النهضة السياسية في سورية، وأحد شهداء العرب في ديوان عاليه. ولد بحمص، وقاوم السياسة الحميدية قبل الدستور العثماني، وعمل بالصحافة، نفته السلطة الحميدية إلى دمشق، فأقام يكتب إلى جريدة **المقطم** المصرية، فعلم به والي دمشق ناظم باشا فأرسله مخفورًا إلى اسطنبول، وتوسط في أمره أبو الهدى الصيادي، فأعيد إلى حمص، ثم فر إلى مصر إلى أن أُعلن الدستور العثماني فانتخب نائبًا عن حماه

في مجلس المبعوثان، واشترك في تأسيس حزب «الحرية والاعتدال» و«حزب الائتلاف» المناوئين للاتحاديين، وأصدر جريدة **الحضارة** الأسبوعية. ولما ظهرت الحركة الإصلاحية في سورية، وانعقد المؤتمر العربي الأول في باريس، انتخب الزهراوي رئيسًا له. ثم استماله الاتحاديون وأقنعوه بعزمهم على الإصلاح، وجعلوه من أعضاء مجلس الأعيان العثماني. ونشبت الحرب العامة الأولى، فقبضوا عليه وجيء به إلى «ديوان عاليه العرفي» فحكم عليه بالموت، ونفذ به الحكم شنقًا في دمشق. له مؤلفات مطبوعة.

زيد (الأمير) (اسطنبول 1898 - باريس 1970): أصغر أبناء الشريف الحسين بن علي من زوجته التركية. تربى تربية عسكرية، وكانت له مساهمته الفاعلة مع إخوته في الثورة العربية الكبرى. وكان في تشكيلة الجيش العربي الذي دخل دمشق في نهاية الحرب العالمية الأولى بقيادة فيصل الأول، وأجلى عنها الأتراك. وُلِي ولاية عهد المملكة السورية العربية في دمشق عام 1920، ثم تقلد مناصب وزارية ودبلوماسية عدة في العراق والأردن.

سايكس، مارك (1879-1919): سياسي ودبلوماسي بريطاني، درس اللغات والعلوم الشرقية في جامعة كمبردج، وقام برحلات واسعة في أنحاء الدولة العثمانية وألّف بضعة كتب عنها. وكان قبل الحرب العالمية الأولى قنصلًا في السفارة البريطانية في اسطنبول لفترة قصيرة. انتخب عضوًا في مجلس العموم عن حزب المحافظين، ثم عمل في وزارة الخارجية في مناصب مختلفة وعينه اللورد ملنر مستشارًا للشؤون الشرقية في مكتب رئيس الوزراء. اشتهر اسم مارك سايكس بأنه أحد طرفي معاهدة سايكس - بيكو.

السراج، سامي (1893-1960): صحافي. من أهل حماه. أصدر بعد الحرب العالمية الأولى جريدة **العرب** في حلب. ولما احتل الفرنسيون سورية، حكموا غيابيًا بإعدامه. ورحل إلى القاهرة، وإلى شرق الأردن، وأُبعد إلى الحجاز. ورجع إلى مصر يكتب في بعض جرائدها. وأخرجته حكومة صدقي باشا، فنزل بالقدس، ورجع إلى حماه (1954)، فكان مديرًا للمركز الثقافي إلى أن توفي.

سعيد، أمين (1890–1967): صحافي مؤرخ من أهل اللاذقية. ولد وتلقّى دراسته الابتدائية بها. وعمل مع أبيه في مطبعة صغيرة له وجريدة أسبوعية (1909). وذهب إلى دمشق (1916) ولما ثارت سورية (1925) كان في القاهرة يكتب في جرية **المقطم** بإمضاء (مكاتب سياسي شرقي)، وأصدر مجلة **الشرق الأدنى** مدة ثم عاد إلى دمشق، وأصدر جريدة **الكفاح**.

السعيد، نوري (باشا) (1888–1958): زعيم عراقي شهير، تخرج في مدرسة بغداد الحربية وفي مدرسة الأركان باسطنبول، وعمل ضابطًا عثمانيًا، والتحق بالثورة العربية في الحجاز (1916) ونُصّب قائد أركان الحرب تحت إمرة الأمير فيصل بن الحسين قائد الحملة، ثم عمل معه في الحكومة العربية بدمشق، والتحق بفيصل الذي نُصّب ملكًا على عرش العراق، حيث كان من أبرز مؤسسي العراق المعاصر، وشارك في الحكومة العراقية وزيرًا ورئيسًا للوزراء مرات عدة اغتيل في انقلاب 14 تموز/ يوليو 1958 الذي أدى إلى إسقاط النظام الملكي العراقي.

السفرجلاني، عبد الرحمن (1878–1972): مدرس، مولده ووفاته في دمشق. تعلم بها وتخرج بكلية العلوم في اسطنبول. وعمل في سلك التعليم. كان له نشاط في الجمعيات السرية العربية قبل الحرب العالمية الأولى، وسُجن للتحقيق معه نيِّفًا وشهرين في ديوان عاليه العرفي. وشارك في عدة جمعيات خيرية. ووضع كتبًا مدرسية في العلوم الرياضية والطبيعية والأدبية والوطنية والماسونية (قبل أن يخرج منها).

السكاكيني، خليل (القدس 1878 - القاهرة 1953): أديب فلسطيني، كان من حملة الفكرة العربية قبل الحرب العالمية الأولى، ونُفي إبانها إلى دمشق، ومنها انضم إلى الحملة التي التحقت بالأمير فيصل، ولكنه لم يدخل دمشق مع الجيش الشمالي وإنما سافر إلى مصر، ثم عاد إلى القدس بعد الحرب فعمل في إدارة المعارف، وانتقل بعد نكبة فلسطين إلى القاهرة وتوفي فيها. كان عضوًا في المجمع العلمي العربي بدمشق ومجمع اللغة العربية بالقاهرة. صدر له العديد من المؤلفات.

سكر، عبد القادر (1867–1951): أحد أعيان دمشق، وقادة الثورة السورية الكبرى، وزعيم عصبة مجاهدي حي الميدان.

سلوم، رفيق رزق (حمص 1891 – بيروت 1916): كاتب، من الشهداء الذين أعدمهم جمال باشا. درس في المدرسة الأكليريكية الأرثوذكسية في البلمند بلبنان، وفي مطلع عام 1909، التحق بالكلية الأميركية في بيروت وتعرف إلى عبد الحميد الزهراوي فأرسله الأخير إلى اسطنبول لدراسة الحقوق فنشر المقالات في العديد من الدوريات العربية. وانتسب إلى الجمعيات العربية، وكان أحد الأحرار الذين حاكمهم جمال باشا وسيق إلى عاليه ليلقى الموت في ساحة البرج ببيروت.

السويدي، ناجي (1882–1942): سياسي عراقي. تخرج في كلية الحقوق بالآستانة. وخدم في الإدارة العثمانية، وعُين في العهد الفيصلي معاونًا للحاكم العسكري في حلب (1919)، ثم واليًا عليها (1920). وأصبح رئيسًا لوزراء العراق (1929–1930).

شامية، توفيق (1885–1963)، سياسي، ولد في دمشق لإحدى أشهر وأغنى الأسر المسيحية الدمشقية، ودرس في الجامعة الأميركية ببيروت، شارك في تأسيس حزب الشعب الذي أسسه الشهبندر ثم الكتلة الوطنية، وتولى عدة مناصب وزارية بين عامي 1928 و1944.

الشريقي، محمد (1895–1970): سياسي، وشاعر، من أوائل العاملين في الحركة العربية. ولد في اللاذقية وتعلم بها وببيروت وحصل على شهادة الحقوق من معهد دمشق. مثّل اللاذقية في المؤتمر السوري العام. ونزح إلى الأردن (1922) فأصدر في عمان جريدة **الشرق العربي**، وتدرج في المناصب إلى أن كان وزيرًا للخارجية فوزيرًا للبلاط. تولّى سفارات عدة آخرها في تركيا (1962) وظل مقيمًا في عمان إلى أن توفي.

الشعلان، نوري (1847–1942): شيخ مشايخ الرولة (من عنزة) التي كانت تسيطر على الصحراء السورية بين دمشق ونجد. اضطلع بدور بارز في عمليات الثورة العربية الكبرى.

شقير، سعيد (باشا) (1868-1934): اختصاصي مالي لبناني. تعلم في الجامعة الأميركية ببيروت، ودرس فيها، وانتقل إلى مصر (1889) فشارك في تحرير جريدة **المقطم** مدة، وعيّنه الإنكليز في بعض الوظائف إلى أن عمل مديرًا عامًا لحسابات حكومة السودان، وعهد إليه فيصل بتنظيم مالية الحكومة العربية.

شلاش، رمضان (باشا) (قرية الشميطية في دير الزور 1882 - دمشق 1961): عسكري. ابن شلاش العبد الله السليمان شيخ عشائر البوسرايا. تخرج في الكلية الحربية بالآستانة. واشترك في حرب ليبيا، ثم انشق عن الجيش العثماني ملتحقًا بالثورة العربية الكبرى. عُيّن في عام 1919 حاكمًا عسكريًا للرقة حيث قام بثورة ضد الإنكليز. وبعدما فرض الانتداب الفرنسي على سورية رحل إلى عمّان وحكم الفرنسيون بإعدامه غيابيًا. ونشبت الثورة السورية الكبرى (1925) فخاضها مع السوريين وانتهى أمره بالتسليم. منحه الشريف حسين لقب «باشا».

الشمعة، رشدي (1865-1916): سياسي، وكاتب، من الشهداء الذين أعدمهم جمال باشا في دمشق. ولد وتعلم بدمشق، وانتُخب نائبًا عنها في مجلس المبعوثان العثماني، وقاوم سياسة الاتحاديين. وكتب روايات تهدف إلى إذكاء الروح القومية العربية، ونشر كثيرًا من المقالات.

الشهابي، عارف (1889-1919): كاتب من الشهداء الذين أعدمهم جمال باشا. تعلم في دمشق والآستانة، وحمل شهادتي الحقوق والملكية، قاوم سياسة الاتحاديين، وشارك في إنشاء «المنتدى الأدبي»، وكان من أعضاء جمعية «العربية الفتاة» السرية.

الشهبندر، عبد الرحمن (1882-1940): طبيب، وسياسي من دمشق انتمى إلى الاتحاديين في البداية فلمّا اتضحت سياستهم نحو العرب ناوأهم وهرب في أثناء الحرب العالمية الأولى إلى العراق فمصر. وعاد إلى سورية في عام 1919، وعيّن وزيرًا للخارجية في وزارة الأتاسي. وبعد سقوط الحكومة العربية في سورية ذهب إلى مصر ثم عاد إلى دمشق فاعتقله الفرنسيون في جزيرة أرواد لمهاجمته سياستهم في حفلة أقيمت لكرين الأميركي. فلما أُطلق سراحه شارك في إنشاء «حزب الشعب» في دمشق. واضطلع بدور بارز في الثورة السورية الكبرى (1925-1927)، وهمَّ الفرنسيون بالقبض عليه،

ففر إلى جبل الدروز، معقل الثورة، ومنه إلى شرق الأردن، ثم إلى القاهرة. واختلف فيها مع أكثر العاملين لاستقلال سورية، من أصدقائه الأقدمين، فتناولت الصحف موقفه، ما له وما عليه. وانصرف إلى الاشتغال بالطب زمنًا. ثم أراد الاستقرار في دمشق فعاد إليها (1938)، وبينما كان في عيادته قبيل الظهر، دخل عليه ثلاثة أشخاص فقتلوه، لكن اعتُقلوا بعد ذلك وأُعدموا.

الشيشكلي، توفيق (الدكتور) (1884–1940): سياسي. ولد في حماه وتعلم بها وبحمص وتخرج بكلية الطب بدمشق. وكان خطيبًا متأدبًا له نشاط اجتماعي وسياسي وصحافي. شارك في تأسيس «الكتلة الوطنية».

صافي، رضا (1905–1988): أديب من أهل حمص. عمل في التعليم والصحافة الأدبية، وأسس مجلة **الأمل** في الأربعينيات.

صليبا، جميل (1902–1976): أكاديمي ومؤرخ سوري، ولد في لبنان وعاش في دمشق، درس في جامعة السوربون في باريس، ونال درجة الدكتوراه في الفلسفة من جامعة باريس. عمل في جامعة دمشق عميدًا لكلية الآداب، ثم انتُدب محاضرًا في المركز الإقليمي لليونيسكو في بيروت. توفي في بيروت ودُفن في دمشق.

الصواف، نديم (1898–1974): رجل دين مسلم، من دمشق، تخرج في الكلية الصلاحية بالقدس. عمل في مديرية الخط الحجازي، ونشط في العمل الاجتماعي فكان من مؤسسي «جمعية النهضة الأدبية»، و«جمعية الهداية الإسلامية»، و«جمعية إسعاف طلبة العلوم الشرعية».

الطبّاع، شكري (1865–1932): تاجر، عضو اللجنة الوطنية العليا، وأحد أبرز الدعاة للجهاد في معركة ميسلون، وأرسل ولده أنيس وابن أخيه صبري إليها، وحُكم عليه بالإعدام فهرب إلى مصر ثم عاد بعد العفو. عُرف عنه صلته الوثيقة بالهاشميين، وساند بجمع التبرعات والأسلحة والعتاد للمجاهدين في الثورة السورية.

طلس، عبد الوهاب (1883–1935): رجل دين مسلم، من حلب. درس في المدرسة الخسروية. تولى إدارة أوقاف الجامع المعروف بالمدرسة الحلوية، وكان له درس في الجامع الأموي الكبير بحلب.

طليع، رشيد (1877-1926): تخرج في الكلية الملكية بالآستانة. وتدرج في مناصب الإدارة العثمانية حتى بلغ درجة «متصرف»، وكان نائبًا عن حوران في مجلس المبعوثان العثماني. وفي العهد الفيصلي عُين متصرفًا وحاكمًا عسكريًا في حماه، ثم وزيرًا للداخلية بالنيابة في دمشق، فواليًا على حلب. وعند دخول الفرنسيين انسحب مع نبيه العظمة إلى جبل حوران، ودعاه الشريف عبد الله بن الحسين إلى عمان، وعهد إليه بإنشاء حكومته الأولى في شرق الأردن، واستقال بسبب الإنكليز، ثم انتقل إلى مصر، وعاد إلى سورية واشترك في الثورة السورية الكبرى.

العابد، رضا (1869): أحد أعيان دمشق، ورجال الإدارة العثمانية، عُرف من مناصبه منصب قائمقام قضاء الكرك.

العابد، نازك (دمشق 1887 - بيروت 1959): إحدى رائدات الحركة النسائية في سورية، تعلمت مبادئ العربية والتركية في المدرستين الرشديتين بدمشق والموصل حينما كان والدها مصطفى باشا العابد متصرفها، كما درست الفرنسية في مدرسة الراهبات في حي الصالحية بدمشق، وتعلمت مبادئ الإنكليزية والألمانية. اضطلعت بدور مهم في الحياة السياسية إبان العهد الفيصلي، وناصرت إعطاء المرأة حق الانتخاب عندما طُرح في المؤتمر السوري. شاركت في تأسيس «مدرسة بنات الشهداء»، و«جمعية الهلال الأحمر النسائية»، وعيّنها الملك فيصل، رئيسة لـ «جمعية النجمة الحمراء»، وعشية التعبئة الشعبية لمواجهة الاجتياح الفرنسي الوشيك أنشأت مشفى للجرحى وهيأته في غضون بضعة أيام.

عبد الحميد الثاني (السلطان) (1842-1918): آخر من امتلك سلطة فعلية من سلاطين آل عثمان. تولى الحكم في (10 شعبان 1293هـ - 31 آب/ أغسطس 1876)، وخُلع عن العرش بانقلاب نفذه الاتحاديون في (6 ربيع الآخر 1327هـ - 27 نيسان/ أبريل 1909). ولئن أقام نظام حكم سلطاني ذا طبيعة أوتوقراطية على صعيد التنظيمات «السياسية»، إلا أن عهده شهد تحقيق الكثير من الإنجازات الضخمة على صعيد التنظيمات «العمرانية». وكانت حقبته، ولا سيما في ولايات بلاد الشام ومتصرفياتها، مرحلة ازدهار حضري

وتمديني واقتصادي؛ فشهدت ارتفاعًا كبيرًا في معدلات النمو السكاني والتعليمي، وتحسنًا كبيرًا في شبكة المواصلات والاتصالات، واندماجًا نسبيًا للسوق الداخلية مقارنة بما كانت عليه قبل عهده. كذلك شهد عهده تنفيذ أكبر برامج العمران والتحضر والتمدين في تاريخ الدولة العثمانية منذ عهد السلطان العظيم سليمان القانوني، على نحو يمكننا معه وصف عبد الحميد الثاني بـ «السلطان المعمار»، وهي التسمية التي يطلقها عليه المؤرخ السوري جمال باروت. كما شهد عهده عددًا من الأحداث المهمة؛ إذ فقدت الدولة العثمانية أجزاء واسعة من ممتلكاتها في البلقان وقبرص ومصر وتونس وبلغاريا والبوسنة والهرسك، وتوثق العلاقات العثمانية - الألمانية، ومد خط سكة حديد الحجاز الذي ربط دمشق بالمدينة المنورة، كما مُدَّت كل من سكة حديد برلين - بغداد وسكة حديد الروملي. وقد اختلف الرأي العام والخاص فيه وفي حكمه؛ فهناك من كان يؤيده ولم يزل، ويصفه بـ «السلطان المظلوم»، وبالمقابل، هناك من كان يعارضه ولم تزل لديه مآخذه على نهجه في الحكم، ويصفه بـ «المستبد» و/ أو بـ «السلطان الأحمر».

عبد الله بن الحسين (الملك) (1882-1951): ثاني أبناء الحسين بن علي شريف مكة المكرمة وملك الحجاز، وشقيق فيصل الأول ملك العراق. مؤسس الأسرة الهاشمية الأردنية. نُصب أولًا أميرًا على شرق الأردن (1921)، ثم نودي به ملكًا على المملكة الأردنية الهاشمية (1946). اغتيل في عام 1951.

عبده، محمد (1849-1905): فقيه ومفكر إسلامي من مصر، يعد أحد رموز التجديد في الفقه الإسلامي، ومن دعاة النهضة والإصلاح في العالم العربي الإسلامي، ساهم بعد التقائه بأستاذه الأفغاني في إنشاء حركة فكرية تجديدية إسلامية في أواخر القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين تهدف إلى القضاء على الجمود الفكري والحضاري وإعادة إحياء الأمة الإسلامية لتواكب متطلبات العصر، من مؤلفاته رسالة التوحيد، وتفسير للقرآن جمعه تلميذه رشيد رضا.

العسلي، شكري (1868-1916): من زعماء النهضة العربية الحديثة وأحد الشهداء الذين أعدمهم جمال باشا في دمشق. تخرج في الكلية الملكية بالآستانة، وعُين

قائمقامًا في أقضية عدة إلى أن انتُخب نائبًا عن دمشق في مجلس المبعوثان، ثم مارس المحاماة، وأصدر جريدة **القبس**، وعُين مفتشًا إداريًا في ولاية حلب ولواء دير الزور. ونقم عليه الاتحاديون بسبب مطالبته باللامركزية، فلما نشبت الحرب العالمية الأولى أحيل إلى الديوان العرفي، وأُعدم.

العظم، رفيق (1865-1925): مفكر، من رواد الحركة الإصلاحية العربية، ولد بدمشق، ورحل إلى مصر، فسكنها واشترك في كثير من الجمعيات الإصلاحية والسياسية والعلمية، وانتُخب عضوًا بالمجمع العلمي العربي بدمشق. صدر له العديد من المؤلفات.

العظم، محمد فوزي (باشا) (1858-1919): زعيم سياسي دمشقي. تلقى تعليمه في المدارس الرسمية حتى بلغ شهادة «الرشدية» (الثانوية)، وانتظم في سلك الإدارة العثمانية، متقلبًا في العديد من المناصب الرفيعة، فكان على التتابع: كاتبًا في ديوان مجلس إدارة ولاية سورية (1879-1885)؛ ناظرًا لنفوس ولاية سورية (1886-1891)؛ رئيسًا لبلدية دمشق (1892-1900)؛ مديرًا للإنشاءات لدى الخط الحديدي الحجازي في ولاية سورية (1900-1908). وفي عام 1911، عُين رئيسًا لدارة بلدية مقاطعة بك أوغلي الواقعة في القسم الأوروبي من العاصمة اسطنبول، وظل في هذا المنصب حتى انتخابه نائبًا عن دمشق في مجلس المبعوثان العثماني في عام 1912. وفي 21 تموز/ يوليو من عام 1912 أُسند إليه منصب ناظر الأوقاف الهمايونية (وزير) في الحكومة الائتلافية التي شكّلها الصدر الأعظم الغازي أحمد مختار باشا، ولم تدم هذه الحكومة أكثر من ثلاثة أشهر فقدمت استقالتها بعد الهزيمة التي مني بها الجيش العثماني في البلقان ونشوب اضطرابات في السياسة الداخلية، ثم أعيد انتخابه نائبًا في مجلس المبعوثان العثماني في عام 1914. وبعد الانهيار العثماني أصبح مستشارًا للأمير فيصل بن الحسين ومن ثم انتُخب رئيسًا للمؤتمر السوري العام. وقد اعتبره مراقب بريطاني في عام 1918 «الرجل الأكثر نفوذًا في دمشق». وهو والد خالد العظم (1903-1965) أحد أبرز الزعماء السياسيين إبان حقبة الجمهورية الأولى من تاريخ سورية المعاصر، الذي رأس الحكومة في سورية ست مرات، وتولى كرسيًا وزاريًا أكثر من عشرين مرة، وانتُخب غير مرة نائبًا في البرلمان السوري.

العظمة، عزة (1967): ضابط في الجيش العثماني، تخرج في المدرس الحربية بدمشق، ثم في اسطنبول، وعند إعلان الحرب العالمية عُين قائدًا لكتيبة الصنائع العسكرية في قلعة دمشق، وبعد دخول الجيش العربي عُين مديرًا لمدرسة الصنائع التجارية. انتدبه أهالي دمشق في عهد الانتداب لرئاسة لجنة مقاطعة شركة الجر والتنوير الكهربائي، فحُكم عليه بالنفي إلى بيت الدين في لبنان، ثم أعيد إلى دمشق بعد أشهر.

العظمة، نبيه (1886-1964): سياسي دمشقي، تخرج في الكلية الحربية باسطنبول، واشترك في الحملة على قناة السويس (1915)، ثم في جبهة فلسطين. وفي العهد الفيصلي تولى منصب مدير شرطة حلب، وآزر في منصبه هذا ثورة الشمال بقيادة هنانو (1920)، وبعد أن احتل الفرنسيون حلب في 23 تموز/يوليو من عام 1920 لاحقه هؤلاء فانتقل إلى جبل العرب، ومنه إلى الأردن. وتنقل بين الأردن والحجاز ومصر والمملكة العربية السعودية الوليدة، حيث اضطلع بأدوار سياسية بارزة. شارك في الثورة الفلسطينية الكبرى (1936). عُين وزيرًا للدفاع في حكومة سعد الله الجابري (1946)، وأسس الحزب الوطني بدمشق.

العظمة، يوسف (1884-1920): قائد عسكري، تخرج في الكلية الحربية في الآستانة، والتحق ببعثة أركان في ألمانيا. ونفذ عددًا من المهمات العسكرية في بلغاريا والبلقان والنمسا ورومانيا. وأصبح مرافقًا لوزير الحربية أنور باشا. وعُين في أواخر الحرب العالمية الأولى رئيسًا لأركان حرب الفيلق التركي الأول الذي دافع عن مضيق الدردنيل. ولمّا وضعت الحرب أوزارها عاد إلى دمشق، فاختاره الأمير فيصل مرافقًا له، ثم عينه معتمدًا عربيًا في بيروت، فرئيسًا لأركان الحرب العامة مع ترقيته إلى رتبة «عميد»، ثم ولي وزارة الحربية (1920). شكل جيشًا وطنيًا قاده إلى خان ميسلون للدفاع عن دمشق والتصدي لقوات الانتداب الفرنسي المتقدمة. وقد استشهد في تلك المعركة غير المتكافئة.

العلاف، أحمد حلمي (1898-1959): مؤرخ، حقوقي، مولده ووفاته بدمشق. صدر كتاب له محققًا بعد وفاته بعنوان **دمشق في مطلع القرن العشرين**.

العلي، صالح (الشيخ) (1883-1950): قاد أولى الثورات التي اندلعت في سورية ضد الفرنسيين في منطقة جبل العلويين (1919-1921)، التي تلقت الدعم من الحكومة العربية بدمشق.

العمر، إبراهيم حلمي (1890-1942): صحافي عراقي. ولد وتعلم ببغداد. وانصرف إلى الكتابة والعمل الصحافي في فترة مبكرة من حياته، واعتقله العثمانيون إبان الحرب العالمية الأولى، وعمل في صحافة الحكومة العربية بدمشق التي أصدر فيها صحيفة **لسان العرب**، وعاد إلى العراق مواصلاً إصدارها في عهد الملك فيصل الأول، ثم أصدر صحيفته الشهيرة **المفيد**.

الغزي، كامل (الشيخ) (1853-1933): مؤرخ حلب، تولى رئاسة تحرير **فرات**، الجريدة الرسمية بحلب في العهد العثماني، وانتُخب عضوًا في المجمع العلمي العربي بدمشق، وعُين مديرًا لدار الكتب الوطنية بحلب، وتولى رئاسة جمعية العاديات وتحرير مجلتها. صدرت له العديد من المؤلفات.

غورو، هنري (الجنرال) (1867-1946): قاد الجيش الفرنسي ضد تركيا في نهاية الحرب العالمية الأولى، واختير لإشغال منصب المفوض السامي للانتداب الفرنسي على سورية ولبنان (1919-1923)، وساهم في إسقاط المملكة السورية العربية، وإعلان دولة لبنان الكبير.

فيصل بن الحسين (الملك) (1885-1933): ملك سورية (1920)، وملك العراق (1921-1933). اضطلع إبان الحرب العالمية الأولى بدور محوري في الثورة العربية، وأقام أول حكومة عربية بدمشق في أعقاب الانهيار العثماني (1918)، ونودي به ملكًا على المملكة السورية العربية (1920)، ولكن الفرنسيين اجتاحوا مملكته الفتية واحتلوا العاصمة دمشق (تموز/ يوليو من عام 1920)، فاضطر إلى مغادرة البلاد. نودي به، بعدئذ، ملكًا على العراق (آب/ أغسطس من عام 1921). وفي عهده نال العراق استقلاله من الانتداب البريطاني (1932).

فيلهلم الثاني (القيصر) (1859-1941): قيصر الرايخ الثاني وملك بروسيا، تُوج قيصرًا بعد وفاة والده فريدريش الثالث، دخل بألمانيا الحرب العالمية الأولى، وأُجبر على التنازل عن العرش في عام 1918، ونُفي إلى هولندا.

القباني (أبو خليل) (1833-1903): مسرحي سوري. يعد رائد المسرح العربي الحديث. هاجر إلى مصر (1883). كان يؤلف التمثيليات الغنائية ويلحن أغانيها. من أشهر أعماله: «مسرحية الحاكم بأمر الله» (1884).

قدري، أحمد (1893-1958): طبيب، من أوائل العاملين في الحركة العربية. مولده ووفاته في دمشق. تعلم بها وباسطنبول ثم بباريس. وكان من مؤسسي جمعية «العربية الفتاة». عمل طبيبًا خاصًا للأمير، كما كان نائبًا منتخبًا عن أهالي الخليل في المؤتمر السوري (1920). ولما احتل الفرنسيون سورية (1920) رحل إلى مصر، وحكم الفرنسيون بإعدامه غيابيًا. وعُين في القاهرة «قنصلًا» عامًا للعراق (1930)، وأسس المفوضية العراقية بباريس (1935)، وتولى إدارة الكلية الطبية ببغداد (1936). عاد إلى سورية في عام 1943 وعُين أمينًا عامًا لوزارة الصحة. صدرت له عدة مؤلفات، من بينها مذكراته.

القصاب، كامل (1873-1954): رجل دين مسلم، من زعماء الحركة الوطنية الاستقلالية في سورية. درس العلوم الدينية والعربية، وأنشأ المدرسة الكاملية في دمشق لبعث الروح العربية في العهد العثماني، وفي أثناء الحرب العالمية الأولى كان من منتسبي جمعية الفتاة، ثم سافر إلى مصر فكان أحد مؤسسي حزب الاتحاد السوري، وأحد السبعة الذين شملتهم بريطانيا بتصريحها الذي عُرف بـ «العهد للسوريين السبعة»، وهُم، إضافةً إليه: مختار الصلح، وحسن حمادة، ورفيق العظم، وعبد الرحمن الشهبندر، وخالد الحكيم، وفوزي البكري. وترأس اللجنة الوطنية العليا في دمشق إبان العهد الفيصلي. وغادر سورية بعد ميسلون وحكم الفرنسيون عليه بالإعدام، ثم سافر إلى السعودية وتسلم إدارة المعارف فيها. وبعدها سكن في حيفا وأنشأ فيها مدرسة، وبعد العفو عن المحكومين في سورية عاد إلى دمشق. وعمل في أيامه الأخيرة رئيسًا للجنة العلماء.

القوتلي، شكري (1891-1967): الرئيس السوري. تخرج في الكلية الملكية باسطنبول. كان من أوائل العاملين في الحركة العربية إبان الحرب العالمية الأولى، وقعت عليه مظلمة في عهد جمال باشا (الكبير) كادت أن تدفع به إلى الانتحار. كان من أركان «الكتلة الوطنية»، التي قادت الحركة الوطنية

الاستقلالية في سورية إبان الانتداب الفرنسي. رئيس الجمهورية السورية (1943–1949) و(1955–1958). تنازل عن الرئاسة عند قيام الوحدة بين سورية ومصر (1958). قضى سني حياته الأخيرة في بيروت، وبها توفي.

كحالة، حبيب (1898–1965): من أعلام الصحافة السورية، أصدر صحيفة **سورية الجديدة** (1919–1923)، ثم الصحيفة الأسبوعية الساخرة **المضحك المبكي** (1929–1966). انتمى إلى الحزب الوطني، وانتُخب نائبًا عن دمشق (1947)، وعضوًا في المجلس الأعلى لطائفة الروم الأرثوذكس.

كرد علي، محمد (1876–1953): مؤرخ وبحاثة، يعد أحد أركان النهضة الفكرية العربية المعاصرة. ولد وتوفي بدمشق. عمل في الصحافة، وكان أول رئيس للمجمع العلمي العربي بدمشق، وشغل مناصب وزارية عديدة في عهد الانتداب الفرنسي. صدرت له العديد من المؤلفات.

كرين، تشارلز ر. (1858–1939): رجل أعمال أميركي ثري، ومستعرب شهير. دخل معترك الشؤون السياسية الداخلية والدولية، وكان مجال اهتمامه الخاص منصبًا على شرق أوروبا والشرق الأوسط. كان عضو «الهيئة الأميركية من اللجنة الدولية حول الانتداب في تركيا» المشكَّلة برئاسة الأكاديمي هنري كينغ رئيس كلية أوبرلين بولاية أوهايو الأميركية، والمعروفة اختصارًا باسم «لجنة كينغ – كراين»، التي عيّنها الرئيس الأميركي وودرو ويلسون في أثناء انعقاد الصلح في باريس (1919) للوقوف على آراء أبناء المناطق غير التركية في الدولة العثمانية المنفرطة، تحديدًا سورية وفلسطين، والأرمن في مستقبل بلادهم.

كليمنصو، جورج (1841–1929): رجل دولة، وسياسي فرنسي. درس في كلية الطب، وأصبح وزيرًا للداخلية (1906)، ثم ما لبث أن أصبح رئيسًا للوزراء (1906–1909)، وترأس الحكومة للمرة الثانية (1917–1920).

الكواكبي، مسعود (1865–1929): رجل دين مسلم، من حلب، انتُخب نائبًا في مجلس المبعوثان العثماني (1908–1912)، وعُين نقيبًا لأشرافها (1909–1919)، وكان من مؤسسي «حزب الحرية والائتلاف» المعارض للاتحاديين. وانتُخب رئيسًا لـ«النادي العربي» في العهد الفيصلي. وكان من أعضاء المجمع العلمي العربي بدمشق. وله أبحاث في مجلة المجمع.

الكيالي، سامي (1898-1972): أديب وناقد وصحافي من حلب، كتب في الرحلة والنقد والتاريخ، وأصدر مجلة **الحديث** الشهرية الأدبية الثقافية (1927-1959)، وكان مديرًا لدار الكتب الوطنية بحلب. صدر له العديد من المؤلفات.

الكيالي، طاهر (1893-1969): المعروف بالشيخ طاهر الطيار الكيالي. رجل دين مسلم، قاض شرعي، وأديب. درس في الأزهر. وعمل في الصحافة في العهد الفيصلي فأصدر صحيفة **المصباح** في حلب (1919-1920)، وكان من الشخصيات التي تعاقبت على رئاسة فرع النادي العربي بحلب، كما انتُخب عضوًا في اللجنة الوطنية بحلب في تشرين الثاني/ نوفمبر من عام 1919. زاول المحاماة في عهد الانتداب الفرنسي. وانتظم في سلك القضاء الشرعي في عهد دولة الاستقلال الثاني بعد عام 1945. وهو غير الشيخ محمد طاهر المنلا الكيالي علّامة إدلب ونقيب أشرافها، الذي ستأتي ترجمته.

الكيالي، عبد الرحمن (1887-1969): طبيب من رجال السياسة في سورية، حلبي المولد والوفاة، تخرج بالجامعة الأميركية، وقام بالطبابة العسكرية في حماه إبان الحرب، ثم كان رئيس أطباء المستشفى الوطني في حلب إبان العهد الفيصلي، وعلى أثر فتنة الأرمن بها في 28 شباط/ فبراير 1919، اعتقله الإنكليز. وكان من أركان «الكتلة الوطنية» التي قادت الحركة الوطنية الاستقلالية في سورية إبان الانتداب الفرنسي. وانتُخب نائبًا عن حلب (1928، 1934)، واختير وزيرًا للعدل والمعارف (1936)، ووزيرًا للعدل للمرة الثانية (1943). ترأس فرع الحزب الوطني بحلب. وارتبط اسمه بـ«الشركة السورية للغزل والنسيج» التي تأسست بمدينة حلب في عام 1933، التي كانت كبرى الشركات الصناعية السورية في قطاع الغزل والنسيج حتى مطلع الستينيات حينما صدر قرار تأميمها. وكان من أعضاء المجمع العلمي العربي المراسلين بدمشق، وزوال مهنة الطب إلى آخر حياته، ووضع كتبًا.

الكيالي، محمد طاهر (1864-1944): المعروف بالشيخ طاهر المنلا الكيالي، رجل دين مسلم، ومحدث، وفقيه، ولغوي. مفتي إدلب، ونقيب أشرافها، ورئيس علمائها، ومدرّسها العام. اضطلع بدور بارز في قيادة ثورة الشمال التي كان يتزعمها إبراهيم هنانو.

كيوان، عبد القادر (1875–1920): رجل دين مسلم، وخطيب مسجد بني أمية بدمشق، وشهيد معركة ميسلون، وهو ناظم النشيد الوطني «نحن لا نرضى الحماية» الذي لحنه الموسيقي مصطفى كامل الصواف.

كيوان، نجيب (1871–1934): رجل دين مسلم، شيخ الحنفية في عصره، درس في محراب الحنفية في مسجد بني أمية وفي غيره من مساجد دمشق، وعمل في متجره قرب القلبقجية.

كيوان، ياسين (1893–1920): رجل دين مسلم، مقرئ، خطيب القلبقجية، استشهد في معركة ميسلون.

لطف الله، ميشيل (1880–1961): وجيه، كان له نشاط سياسي إبان الثورة السورية الكبرى (1925–1927)، حيث أنشأ مع بعض السوريين مكتبًا في القاهرة للعمل من أجل القضية السورية إلا أن مسعاه كشف عن رغبته في أن يكون له أو لأحد إخوته إمارة سورية، فأعرض عنه معظم من كان معه.

لورنس، توماس إدوارد (1888–1935): ضابط وكاتب بريطاني، يُعرف بـ «لورنس العرب»، قام بدور فاعل في قيادة الثورة العربية (1916) عبر تقديم النصح والإرشاد للعسكريين لتوجيه مسار الثورة العربية لمصلحة قوات الحلفاء. دوَّن ذكرياته عن الثورة العربية في كتابه المعنون **أعمدة الحكمة سبعة**. قضى في حادث دراجة بخارية.

الماضي، معين (1887–1957): سياسي فلسطيني. تخرج في الكلية الملكية في اسطنبول. من أوائل العاملين في الحركة العربية في العهد العثماني. انتقل إلى دمشق بعد إعلان الحكومة العربية، وساهم في تأسيس النادي العربي، وكان نائبًا في المؤتمر السوري العام. برز في الحركة الوطنية إبان الانتداب البريطاني على فلسطين. وعاش في دمشق بعد النكبة الفلسطينية (1948) حتى مماته.

المبارك، عبد القادر (الشيخ) (1887–1945): أديب، ولغوي، جزائري الأصل. مولده ووفاته في دمشق. اشتغل بالتعليم. وكان من أعضاء المجمع العلمي العربي بدمشق.

المحمصاني، محمد (1888–1916): حقوقي، من شهداء العرب في عهد الترك. من أهل بيروت، بها تعلم، وحصل على شهادة دكتوراه في الحقوق من باريس.

وكان من مؤسسي «جمعية العربية الفتاة»، ومن أعضاء المؤتمر العربي الذي انعقد في باريس (1913)، وعاد إلى بيروت فعمل في المحاماة. ودخل في «الجمعية الإصلاحية». وهو من القلائل الذين تنبهوا للحركة «الصهيونية»، وكتبوا محذرين من استفحالها. اعتقله العثمانيون إبان الحرب العامة الأولى، فحوكم في الديوان العرفي بعاليه بتهمة التحريض على الانفصال عن الدولة العثمانية، والتظلم من الترك. وأُعدم شنقًا مع أخيه محمود المحمصاني (1884–1916) الذي كان أيضًا من أنصار الفكرة العربية.

مردم بك، جميل (دمشق 1895 – القاهرة 1960): أحد أبرز السياسيين السوريين. تعلم بفرنسا وكتب منها إلى صحف دمشق بإمضاء (طالب سياسة)، ثم كان مستشارًا خاصًا للأمير فيصل في دمشق (1919)، وحكم الفرنسيون بإعدامه لمّا دخلوا سورية (1920)، فأقام في القاهرة 12 عامًا، وعاد إلى دمشق، فكان وزيرًا للمالية، واستقال (1939). وترأس الوزارة ثلاث مرات في عهد القوتلي. وأطاح به الانقلاب العسكري الذي قام به حسني الزعيم، فهرب إلى القاهرة مؤسسًا له بعض الأعمال التجارية والخاصة حتى وفاته في مصر ونُقل جثمانه إلى دمشق ودُفن فيها.

مردم بك، خليل (1890–1959): أديب ولغوي. ولد وتوفي في دمشق. رئيس المجمع العلمي العربي بدمشق (1953–1959). وشغل مناصب وزارية عديدة. صدر له ديوان شعر، إضافةً إلى العديد من المؤلفات.

مردم بك، راشد (باشا) (1870–1947): أحد أعيان دمشق. تقلب في العديد من المناصب الإدارية في العهد العثماني، وعُين عضوًا في مجلس الشورى في العهد الفيصلي، وشارك في تأسيس الحزب الوطني ذي النزعة المحافظة (1920).

مردم بك، رضا (1881–1963): أحد أعيان دمشق. شارك في تأسيس جمعية النهضة العربية بدمشق. انتسب إلى جمعية «العربية الفتاة» إبان العهد الفيصلي، وكان أحد مؤسسي محفل قاسيون الماسوني التابع للشرق الأعظم الفرنسي (1922). وأصدر صحيفة **الزمان** بدمشق (1925).

مردم بك، سامي (باشا) (1870–1956): أحد أعيان دمشق. تقلب في العديد من المناصب الإدارية في العهد العثماني، وكان نائبًا في مجلس المبعوثان

العثماني (1917)، وعضو اللجنة الوطنية العليا في العهد الفيصلي (1919-1920)، وشارك في تأسيس الحزب الوطني ذي النزعة المحافظة (1920)، وعُين عضوًا في مجلس الاتحاد السوري الفدرالي ونائبًا لرئيسه صبحي بركات (1922)، وانتُخب نائبًا في المجلس التمثيلي لدولة دمشق (1923). اعتزل السياسة لفترة، لكنه عاد وانخرط في العمل الوطني، وكان رئيسًا للجنة الاقتصادية، التي أخذت على عاتقها مواجهة السياسات الجمركية للانتداب، وشارك في تأسيس شركة أهلية مساهمة تهدف إلى جر مياه نبع عين الفيجة إلى دمشق.

المرعشي، فاتح (1885-1954): سياسي من مدينة حلب. تولى رئاسة غرفة تجارة وزراعة وصناعة حلب أواخر العهد العثماني (1915-1918). وكان من جماعة أنصار الحركة الكمالية بحلب في العهد الفيصلي، وعضوًا في اللجنة الوطنية (1919)، ومثّل قضاء أعزاز في المؤتمر السوري العام (1920)، واضطلع بدور بارز في دعم ثورة الشمال بقيادة هنانو، وحكم عليه الفرنسيون بالإعدام غيابيًا، فالتجأ إلى تركيا، وسكن في عينتاب، وعاد إلى وطنه بعد أن أُبرمت معاهدة عام 1936.

مريود، أحمد (1886-1926): سياسي من الجولان السوري، وأحد شهداء الثورة السورية الكبرى. أنشأ في القنيطرة صحيفة **الجولان** قبل الحرب، ودخل في جمعية «العربية الفتاة» السرية، والتحق بالثورة العربية الكبرى، وانتُخب نائبًا في المؤتمر السوري العام بدمشق، وكان أحد قادة الثورات الاستقلالية بسورية زمن الانتداب الفرنسي.

المصري، عزيز علي (باشا) (1879-1965): قائد عسكري، من طلائع رجال الحركة العربية. مولده ووفاته في القاهرة. تخرج في الكلية الحربية في اسطنبول (1904)، وانضم إلى جمعية تركيا الفتاة قبيل إعلان الدستور، واضطلع بدور بارز في عقد صلح دعان بين الإمام يحيى حميد الدين، ممثل الزيدية، والحكومة العثمانية (1911)، وحارب في ليبيا (1911-1913)، ثم عاد إلى اسطنبول حيث شارك في تأسيس «حزب العهد» العربي، واستقال من الجيش العثماني (1914)، ثم ما لبث أن اعتُقل بتهمة الخيانة والتواطؤ مع الإيطاليين في ليبيا،

وأُطلق بعد ذلك بعد ممارسة السفارة البريطانية في اسطنبول ضغوطات على الحكومة العثمانية بصفته «مصريًا»، وعاد إلى القاهرة، وتفرغ للعمل السياسي العربي، ثم أصبح في مصر رئيسًا للأركان برتبة فريق (1937-1940)، وتقاعد بعد مضايقة الإنكليز له، وبعد ثورة تموز/ يوليو 1952، عُين وزيرًا مفوضًا في موسكو (آذار/ مارس 1953)، ورقي إلى رتبة سفير (نيسان/ أبريل 1954)، وعاد إلى القاهرة، حيث توفي.

مطران، خليل (1872-1949): أحد أبرز شعراء النهضة الأدبية الحديثة. هاجر وهو بعدُ في صدر الشباب إلى مصر، هربًا من ملاحقة السلطات العثمانية له. عُرف بطول النفس وبراعة التصوير. وترجم بعض مسرحيات شكسبير نثرًا. لُقب بـ«شاعر القطرين»، أي مصر وبلاد الشام.

المظفر، عبد القادر (1880-1949): رجل دين مسلم، وأحد أعلام الحركة الوطنية إبان الانتداب البريطاني على فلسطين. انتسب إلى «جمعية الاتحاد والترقي»، وأصبح رئيسًا لـ«جمعية الإخاء والعفاف». اختاره الحاج أمين الحسيني رئيسًا للمجلس الإسلامي الأعلى.

المؤيد العظم، بديع (1870-1965): سياسي، مولده ووفاته بدمشق، تخرج في كلية الحقوق بالآستانة. وكان من موظفي إدارة الديون العامة في الآستانة، ثم عُين مديرًا للديون العامة في ولاية الموصل، وبعد إعلان الدستور جيء به مفتشًا للجمارك بالآستانة. وفي أثناء الحرب العالمية الأولى انتُخب نائبًا عن دمشق في مجلس المبعوثان العثماني. وفي العهد الفيصلي عُين عضوًا في مجلس الشورى. وفي عهد الانتداب الفرنسي انتُخب رئيسًا للمجلس التمثيلي - البرلمان في دولة دمشق، ونائبًا لرئيس دولة الاتحاد السوري الفدرالي ثم تولى وزارتي العدلية والاقتصاد.

ناصر (الشريف) (1890-1934): من أشراف المدينة المنورة. زار دمشق برفقة الأمير فيصل أيام الحكم العثماني وتعرّف هناك سرًا إلى بعض حملة الفكرة العربية. ولمّا قامت ثورة الشريف حسين في مكة كان الشريف ناصر أول من نادي بها في المدينة، ثم لحق بفيصل وكان نائبًا له في قيادة جيشه في زحفه إلى الشمال، فخاض المعارك، ودخل دمشق قبل فيصل وطارد بقايا الجيش

العثماني إلى حلب. وقد أقام في دمشق حتى احتلال الفرنسيين لها فغادرها إلى مكة ثم إلى بغداد حيث أقام إلى حين وفاته.

نعمة، مصطفى (إدلب 1878): ضابط عسكري من مدينة إدلب السورية، تخرج في الكلية الحربية بالآستانة. وفي العهد الفيصلي عُين قائد فرقة عسكرية، فحاكمًا عسكريًا، ثم رئيسًا لمجلس الشورى العسكري. وفي عهد الانتداب الفرنسي أسند إليه منصب المدير العام للنافعة (الأشغال العامة والمواصلات) في دولة حلب (1921-1922).

هاشم، إبراهيم (باشا) (1886-1958): قانوني، مولده بنابلس، تعلم بها وتخرج بكلية الحقوق في اسطنبول. من أعضاء جمعية «الفتاة»، تولى مناصب قضائية في بيروت ويافا، واختبأ بنابلس إبان الحرب العالمية الأولى، وكان بعدها رئيسا لمحكمة الجنايات بدمشق. وبعد ميسلون دعي للعمل في عمان في شرق الأردن، فتولى وزارة العدلية ثم رئاسة الوزراء عدة مرات.

الهاشمي، ياسين (باشا) (بغداد 1882 - بيروت 1937): تخرج ضابطًا باسطنبول ثم برلين. وحارب في البلقان. ودخل جمعية العهد والفتاة. وظل في صفوف العثمانيين حتى سقوط دمشق، حيث كان جريحًا، واختبأ فيها حتى دخول الأمير فيصل الذي عيّنه رئيسًا لديوان الشورى الحربي (عام 1918) وثار العراق على الإنكليز، فأمد الثورة بالعون والرأي، فدعاه القائد البريطاني في دمشق في 22 تشرين الثاني/ نوفمبر من عام 1919 إلى تناول الشاي في منزله، بالمزة (من ضواحي دمشق)، فلما أراد الخروج من منزل القائد كانت على الباب سيارة مسلحة، حملته مكرهًا إلى المعسكر البريطاني في اللد بفلسطين، واختفى أثره. وهاجت دمشق تطالب بإعادته، فأُطلق بعد قرابة ستة أشهر، فأقام في القاهرة أيامًا وعاد إلى دمشق في 16 أيار/ مايو من عام 1920، وبقي فيها إلى أن دخلها الفرنسيون وغادرها فيصل. وبعد العهد الفيصلي تولى رئاسة وزراء العراق مرتين، وكان وزيرًا للمواصلات ووزيرًا للخارجية، ونائبًا في البرلمان العراقي. وظل في العراق حتى عام 1936، إلى أن أطاح بحكومته بكر صدقي في انقلابه (1936)، فرحل إلى بيروت وتوفي فيها، ودفن في دمشق.

هنانو، إبراهيم (1869–1935): زعيم سياسي. ولد في بلدة كفر حارم غربي حلب، وأتم دراسته الثانوية في حلب، والعالية في اسطنبول. وتدرّج في مناصب الإدارة العثمانية حتى بلغ درجة قائمقام، وكان عضوًا في المجلس العمومي لولاية حلب (1913)، وانتمى إلى «جمعية الاتحاد والترقي». وفي العهد الفيصلي انضم إلى جمعية «الفتاة»، وعُين بوظيفة مكتوبجي (أمين عام) في ولاية حلب، وانتُخب مندوبًا عن قضاء حارم في المؤتمر السوري العام (1919–1920). وبعدما احتل الفرنسيون مدينة أنطاكية فجّر هنانو ثورته في خريف عام 1919 في ريف حلب الغربي التابع حاليًا لمحافظة إدلب. وإثر الاحتلال الفرنسي لحلب (12 تموز/ يوليو من عام 1920) نسق مع الكماليين في تركيا الذين كانوا يخوضون حربًا تحررية لتحطيم اتفاقية سيفر. وإثر انقطاع الدعم الكمالي التركي بسبب الاتفاق التركي – الفرنسي أخذت ثورته تذوي، فاضطر للجوء إلى الأردن، ثم سلمته السلطات البريطانية إلى الفرنسيين في آب/ أغسطس من عام 1921، وسيق إلى حلب، فحوكم محاكمة شغلت سورية عدة شهور وانتهت باعتبار ثورته «سياسية مشروعة». انتقل بعد ذلك إلى ميدان النضال السياسي، فكان أحد أبرز زعماء الكتلة الوطنية في سورية. وانتُخب نائبًا عن حلب في الجمعية التأسيسية (1928).

ويلسون، وودرو (1856–1924): عُين أستاذًا في جامعة برينستون ثم رئيسًا لتلك الجامعة، وانتُخب حاكمًا لولاية نيوجرسي، فرئيسًا للجمهورية (1913–1924).

اليعقوبي، محمد الشريف (1865–1943): رجل دين مسلم، وفقيه مالكي، وداعية، وصوفي شاذلي نقشبندي، درس في الجامع الأموي وأمَّ فيه في محراب المالكية، وتولى قيادة فرسان المغاربة في معركة ميسلون، ونشط في المجال الدعوي في دمشق وقرى جبل لبنان وبيروت، وشارك في تأسيس الكلية الشرعية، وبقي رئيسًا لها مدى حياته، وأسس عددًا من المدارس في دمشق بالاشتراك مع «الجمعية الغراء».

اليوسف، عبد الرحمن (باشا) (1871–1920): أحد كبار أعيان دمشق، ومحافظ الحج الشامي، سبط سعيد باشا شمدين الذي تخلى له عن جميع ثروته الطائلة من بعده، واعتنى بتعليمه إلى أن تقلد وظيفة جده المذكور بعد عجزه

عنها في عام 1892، وهو المنصب الذي شغله حتى عام 1918. وعُرف من مناصبه أيضًا تعيينه عضوًا في مجلس إدارة ولاية سورية. ولمّا أعيد العمل بالدستور انتُخب نائبًا عن دمشق في مجلس المبعوثان العثماني في الانتخابات التكميلية، التي أجريت في عام 1909 لملء المقعد النيابي الشاغر باستقالة الشيخ سليمان أفندي الجوخدار، ثم أعيد انتخابه نائبًا عن دمشق الشام في الدورة التشريعية الثانية (1912) لمجلس المبعوثان. وفي عام 1914عُين عضوًا في مجلس الأعيان. وبعد قيام الحكومة العربية بدمشق في عام 1918 انتُخب اليوسف مندوبًا عن دمشق في المؤتمر السوري العام. وأسس «الحزب الوطني السوري» بدمشق ذي النزعة المحافظة. أخيرًا، عُين رئيسًا لمجلس الشورى في الحكومة التي شكلها علاء الدين الدروبي بعد معركة ميسلون ودخول الجنرال غورو دمشق في تموز/ يوليو من عام 1920. ولم يطل عهد هذه الحكومة كثيرًا، فقبل أقل من شهر على تأليفها اغتيل الرئيس الدروبي ومعه رئيس مجلس الشورى اليوسف في حادثة (خربة غزالة) بحوران، وقد سبقت الإشارة إليها في ترجمة الدروبي أعلاه.

مراجع الملحق

1 – العربية

آل تقي الدين الحصني، محمد أديب. **كتاب منتخبات التواريخ لدمشق**. 3 ج. بيروت: دار الآفاق الجديدة، 1979.

آل الجندي، أدهم. **أعلام الأدب والفن**. دمشق: مطبعة الاتحاد، 1958.

______. **تاريخ الثورات السورية في عهد الانتداب الفرنسي**. دمشق: مطبعة الاتحاد، 1960.

باروت، محمد جمال. **التكون التاريخي الحديث للجزيرة السورية: أسئلة وإشكاليات التحول من البدونة إلى العمران الحضري**. الدوحة/ بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2013.

______ (مقدم ومحقق). **شعاع قبل الفجر: مذكرات أحمد نهاد السياف**. بيروت: [د. ن.]، 2005.

بصري، مير. **أعلام السياسة في العراق الحديث**. لندن: دار رياض الريس للكتب والنشر، 1987.

بعلبكي، منير. **معجم أعلام المورد**. بيروت: دار العلم للملايين، 1992.

الجركس، محمود. **الدليل المصور للبلاد العربية**. دمشق: مطبعة بابيل، 1930.

الحافظ، محمد مطيع ونزار أباظة. **تاريخ علماء دمشق في القرن الرابع عشر الهجري**. دمشق: دار الفكر، 1986.

الزركلي، خير الدين. **الأعلام: قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين**. ط 11. بيروت: دار العلم للملايين، 1995.

سلطان، علي. **تاريخ سورية 1918-1920: حكم فيصل بن الحسين**. دمشق: دار طلاس، 1987.

شيلشر، ليندا. **دمشق في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر**. ترجمة عمرو الملاّح ودينا الملاّح. دمشق: الناشر خاص، 1998.

الصواف، محمد شريف. **موسوعة الأسر الدمشقية**. دمشق: بيت الحكمة، 2008.

عنتابي، محمد فؤاد ونجوى عثمان. **حلب في مئة عام**. حلب: معهد التراث العلمي العربي، 1993.

عياش، عبد القادر. **معجم المؤلفين السوريين في القرن العشرين**. دمشق: دار الفكر، 1985.

فارس، جورج (تحرير). **من هم في العالم العربي؟**. دمشق: مكتب الدراسات السورية والعربية، 1957.

______. **من هم في سورية؟**. دمشق: مطبعة العلوم والآداب، 1951.

فرفور، محمد صالح. **أعلام دمشق في القرن الرابع عشر الهجري**. دمشق: دار الملاح ودار حسان، 1987.

2- الأجنبية

Çankaya, Mücellitoğlu Ali. *Yeni Mülkiye Tarihi* ve *Mülkiyeliler, 1859-1968*. VIII Cilt, Ankara: Mars Matbaası, 1968-1969.

Priestland, Jane (ed.). *Records of Syria 1918-1973*. 15 vols. Chippenham: Archive Editions, 2005.

المراجع

1 - العربية

آل تقي الدين الحصني، محمد أديب. **كتاب منتخبات التواريخ لدمشق**. 3 ج. بيروت، 1969.

آل جندي، أدهم. **تاريخ الثورات السورية في عهد الانتداب الفرنسي**. دمشق، 1960.

______. **شهداء الحرب العالمية الكبرى**. دمشق، 1960.

إبراهيم باشا، جميل. **نضال الأحرار في سبيل الاستقلال**. حلب، 1959.

ابن ذريل، عدنان. **الأدب المسرحي في سورية: دراسة في المسرحية العربية السورية منذ أبي خليل القباني إلى اليوم**. دمشق، [د. ت.].

______. **المسرح السوري منذ القباني إلى اليوم**. دمشق، 1971.

ألكسان، جان. «زينب في ميسلون». **الجندي**. 19 نيسان/ أبريل 1976.

الأمين، حسن. **ذكريات**، ج 1: **من الطفولة إلى الصبا**. بيروت، 1973.

أندريا، تشارلس جوزيف إدوارد. **ثورة جبل الدروز وتمرد دمشق**. ترجمة وتعليق حافظ أبو مصلح. بيروت، 1985.

بابيل، نصوح. **صحافة وسياسة: سورية في القرن العشرين**. لندن، 1987.

البارودي، فخري. **مذكرات البارودي**. 2 ج. بيروت، 1951.

برو، توفيق. «المنتدى الأدبي ودوره في النضال العربي». **المعرفة**. العدد 38 (نيسان/ أبريل 1965).

بصري، مير. **أعلام السياسة في العراق الحديث**. لندن، 1987.

بلاوي، مصطفى. «الأحزاب السياسية في سورية (1920–1939)». أطروحة ماجستير. جامعة دمشق. 1985.

بيهم، محمد جميل. **سورية ولبنان**: 1918–1922. بيروت، 1968.

الجركس، محمود. **الدليل المصور للبلاد العربية**. دمشق، 1930.

جمال باشا. **مذكرات جمال باشا**. تعريب علي أحمد شكري. القاهرة، 1923.

الحافظ، محمد مطيع ونزار أباظة. **تاريخ علماء دمشق في القرن الرابع عشر الهجري**. دمشق، 1986.

الحصري، أبو خلدون ساطع. **يوم ميسلون: صفحة من تاريخ العرب الحديث**. بيروت، 1947.

الحصري، خلدون ساطع. **مذكرات طه الهاشمي**، 1919–1944. بيروت، 1967.

الحفار، وجيه. «الحكومات التي تعاقبت على الحكم في سورية». **الشرطة والأمن العام**. السنة 1 (2 رمضان 1372هـ – حزيران/ يونيو 1373).

الحكيم، حسن. **الوثائق التاريخية المتعلقة بالقضية السورية في العهدين العربي الفيصلي والانتدابي الفرنسي**، 1915–1946. بيروت، 1974.

______. **خبراتي في الحكم**. عمان، 1987.

الحكيم، يوسف. **ذكريات**، ج 3: **سورية والعهد الفيصلي**. بيروت، 1966.

حمودة، سميح. **الوعي والثورة: دراسات في حياة وجهاد الشيخ عز الدين القسام**، 1868–1935. عمان، 1987.

الخطيب، محب الدين. **المؤتمر العربي الأول**. القاهرة، 1913.

______. «مذكرات محب الدين الخطيب». **الثقافة** (الجزائر). 1–3 (كانون الثاني/ يناير 1972 – آب/ أغسطس – أيلول/ سبتمبر 1973).

داغر، أسعد. **مذكراتي على هامش القضية العربية**. القاهرة، 1956.

دروزة، محمد عزة. **حول الحركة العربية الحديثة**. صيدا، 1950.

______. **مذكرات وتسجيلات**. دمشق، 1984.

رضا، رشيد. **مختارات سياسية من مجلة «المنار»**. تقديم ودراسة وجيه كوثراني. بيروت، 1980.

الرفاعي، أنور. **جهاد نصف قرن: سمو الأمير سعيد الجزائري**. دمشق، [د. ت.].

الريحاني، أمين. **ملوك العرب، أو رحلة في البلاد العربية**. بيروت، 1951.

الريس، منير. **الكتاب الذهبي للثورة الوطنية في المشرق العربي: الثورة السورية الكبرى**. بيروت، 1969.

الريماوي، سهيلة. **التجربة الفيصلية في بلاد الشام**. عمان، 1988.

______. **جمعية العربية الفتاة السرية: دراسة وثائقية، 1909-1918**. عمان، 1988.

الزركلي، خير الدين. **ديوان الزركلي: الأعمال الشعرية الكاملة**. عمان، [د. ت.].

______. **ما رأيت وما سمعت**. القاهرة، 1923.

______. **الأعلام: قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين**. [د. م.]، 1984.

زكريا، أحمد وصفي. **عشائر الشام**. دمشق، 1983.

سعيد، أمين. **الثورة العربية الكبرى: تاريخ مفصل جامع للقضية العربية في ربع قرن**، ج 2: **نضال بين العرب والفرنسيين والإنكليز**. القاهرة، 1934.

______. **ثورات العرب في القرن العشرين**. القاهرة، 1960.

السفرجلاني، محيي الدين. **فاجعة ميسلون والبطل العظيم يوسف العظمة**. دمشق، 1937.

سلطان، علي. **تاريخ سورية 1918-1920: حكم فيصل بن الحسين**. دمشق، 1987.

السويدي، توفيق. **مذكراتي: نصف قرن من تاريخ العراق والقضية العربية**. بيروت، 1969.

الشهابي، قتيبة. **دمشق: تاريخ وصور**. دمشق، 1986.

الشهابي، مصطفى (الأمير). **محاضرات في الاستعمار**. [د. م.]، 1956.

صافي، رضا. **على جناح الذكرى**. دمشق، 1982.
صالح، رشدي. **المسرح العربي**. القاهرة، 1972.
عبيدات، محمود. **أحمد مريود: 1886-1926**. لندن، 1997.
العجلوني، محمد علي. **ذكريات عن الثورة العربية الكبرى**. عمان، 1956.
عسكر، إحسان. **نشأة الصحافة السورية: عرض للقومية في طور النشأة من العهد العثماني حتى قيام الدولة العربية**. القاهرة، 1972.
العظم، خالد. **مذكرات خالد العظم**. بيروت، 1973.
العظمة، عبد العزيز. **مرآة الشام: تاريخ دمشق وأهلها**. لندن، 1987.
العلاف، أحمد حلمي. **دمشق في مطلع القرن العشرين**. تحقيق علي جميل نعيسة. دمشق، 1976.
العلبي، أكرم حسن. **خطط دمشق: دراسة تاريخية شاملة**. دمشق، 1989.
العمري، صبحي. **ميسلون: نهاية عهد**. لندن، 1991.
العياشي، غالب. **الإيضاحات السياسية وأسرار الانتداب الفرنسي على سوريا**. بيروت، 1955.
______. **تاريخ سوريا السياسي من الانتداب إلى الانقلاب: 1918-1954**. بيروت، 1955.
الغزي، كامل. **نهر الذهب في تاريخ حلب**. 3 ج. حلب، 1923-1926.
الغصين، فائز. **مذكراتي عن الثورة**. دمشق، 1956.
فاضل، إلياس ورامز محيثاوي. **الكتاب الذهبي للمجاهدين السوريين**. دمشق، 1972.
الفرحاني، محمد. **فارس الخوري وأيام لا تنسى**. بيروت، 1965.
فرزات، محمد حرب. **الحياة الحزبية في سوريا: دراسة تاريخية لنشأة الأحزاب السياسية وتطورها بين 1908-1955**. دمشق، 1955.
القاسمي، ظافر. **مكتب عنبر: صور وذكريات من حياتنا الثقافية والسياسية والاجتماعية**. بيروت، 1964.
قاسمية، خيرية. **الحكومة العربية في دمشق بين 1918-1920**. بيروت، 1982.

قدري، أحمد. **مذكراتي عن الثورة العربية الكبرى**. دمشق، 1956.

قصاب حسن، نجاة. **حديث دمشقي 1884-1983**. دمشق، 1988.

كرد علي، محمد. **خطط الشام**. 6 ج. دمشق، 1983.

الكواكبي، نزيه. «المظهر العمراني لدمشق في المنتصف الثاني للقرن التاسع عشر»، في: **دمشق: دراسات تاريخية وآثارية** (دمشق، 1980).

الكيلاني، فخري نوري. «قراءة في ملف الصحافة بين عامي 1727 و1928 في بلاد الشام». [د. م.، د. ن.] (مخطوط مكتوب بخط اليد).

محمد، نديم معلا. **الأدب المسرحي في سورية: نشأته - تطوره**. دمشق، 1982.

مردم، خليل (بك). **دمشق والقدس في العشرينات**. شرحه وقدم له عدنان مردم بك. بيروت، 1978.

موسى، سليمان. **المراسلات التاريخية**، ج 1: 1914-1918. عمان، 1973.

______. **المراسلات التاريخية**، ج 2: 1919. عمان، 1975

______. **المراسلات التاريخية**، ج 3: 1920-1923. عمان، 1978.

______. **الحركة العربية: المرحلة الأولى للنهضة العربية الحديثة، 1908-1924**. بيروت، 1986.

الهندي، إحسان. **كفاح الشعب العربي السوري، 1908-1948**. دمشق، 1962.

______. **معركة ميسلون**. دمشق، 1967.

2 - الأجنبية

Abrahamian, Ervand. *Iran Between Two Revolutions*. Princeton, 1983.

Adamson, Walter L. *Hegemony and Revolution: A Study of Antonio Gramsci's Political and Cultural Theory*. Berkeley, 1980.

Allcock, J. B. «'Populism': A Brief Biography.» *Sociology*. vol. 5 (September 1971).

Althusser, Louis. *For Marx*. London, 1969.

Anderson, Benedict. *Imagined Communities: Reflections on the Origin and Spread of Nationalism*. London, 1983.

Angelil, P. G. «L'occupation d'Homs: Angoisses et délivrance.» *Petites relations d'orient*. vol. 6 (November 1920).

Antonius, George. *The Arab Awakening: The Story of the Arab National Movement*. London, 1938.

Arjomand, Said Amir. «Traditionalism in Twentieth-Century Iran,» in: *From Nationalism to Revolutionary Islam* (London, 1984).

Ayalon, Ami. *Language and Change in the Arab Middle East: The Evolution of Modern Political Discourse*. New York, 1987.

Badawi, M. M. *Early Arabic Drama*. Cambridge, England, 1988.

Baer, Gabriel. «Village and Countryside in Egypt and Syria: 1500-1900,» in: A. L. Udovitch (eds.), *The Islamic Middle East 700-1900* (Princeton, 1981).

_______. *Fellah and Townsman in the Middle East: Studies in Social History*. London, 1982.

Baker, Ray Stannard & William E. Dodd (eds.). *Public Papers of Woodrow* Wilson, vols. 5-6: *War and Peace: Presidential Messages, Addresses, and Public Papers (1917-1925)*. New York, 1927.

Bakhtin, M. M. *The Dialogic Imagination*. Michael Holquist (ed.). Caryl Emerson & Michael Holquist (trans.). Austin, 1981.

Bernstein, Michael André. *Bitter Carnival: Ressentiment and the Abject Hero*. Princeton, 1992.

Berque, Jacques. *Egypt, Imperialism and Revolution*. Jean Stewart (trans.). New York, 1972.

Bourdieu, Pierre. *Outline of a Theory of Practice*. Richard Nice (trans.). Cambridge, England, 1972.

_______. «The Disenchantment of the World,» in: *Algeria 1960*, Richard Nice (trans.) (Cambridge, England, 1979).

_______. *The Logic of Practice*. Richard Nice (trans.). Stanford, 1990.

_______. *Language and Symbolic Power*. John B. Thompson (ed.). Gino Raymond & Matthew Adamson (trans.). Cambridge, Mass., 1991.

Breuilly, John. *Nationalism and the State*. Chicago, 1982.

Brown, L. Carl. «Patterns Forged in Time: Middle East Mind-Sets and the Gulf War,» in: Stanley A. Renshon (ed.), *The Political Psychology of the Gulf War* (Pittsburgh, 1993).

Calhoun, Craig Jackson. «The Radicalism of Tradition: Community Strength or Venerable Disguise and Borrowed Language 7.» *American Journal of Sociology*. vol. 88 (March 1983).

Canavan, Margaret. «Two Strategies for the Study of Populism.» *Political Studies*. vol. 30 (December 1982).

«The Case of Emir Feisal.» *Current History*. vol. 13, no. 2 (February 1921).

Castoriadis, Cornelius. *The Imaginary Institution of Society*. Kathleen Blarney (trans.). Cambridge, Mass., 1987.

Chatterjee, Partha. *Nationalist Thought and the Colonial World: A Derivative Discourse?*. Minneapolis, 1986.

_______. «Colonialism, Nationalism, and Colonized Women: The Contest in India.» *American Ethnologist*. vol. 1, no. 6 (1989).

_______. *The Nation and Its Fragments: Colonial and Postcolonial Histories*. Princeton, 1993.

Choueiri, Youssef M. (ed.). *State and Society in Syria and Lebanon*. New York, 1993.

Clark, John et al. «Sub Cultures, Cultures, Class,» in: Tony Bennett et al. (eds.), *Culture, Ideology, and Social Process: A Reader* (London, 1981).

Cleveland, William L. *The Making of an Arab Nationalist: Ottomanism and Arabism in the Life and Thought of Sati' al-Husri*. Princeton, 1971.

Cohen, Anthony P. *The Symbolic Construction of Community*. London, 1985.

Coke, Richard. *The Arab's Place in the Sun*. London, 1929.

Comaroff, John L. «Of Totemism and Ethnicity.» *Ethnos*. vol. 52 (1987).

Commins, David Dean. «Religious Reformers and Arabists in Damascus, 1885-1914.» *International Journal of Middle East Studies*. vol. 18 (1986).

_______. *Islamic Reform: Politics and Social Change in Late Ottoman Syria*. New York, 1990.

Corfie, Penelope J. (ed.). *Language, History, and Class*. Oxford, 1991.

Cotler, Julio. «State and Regime: Comparative Notes on the Southern Cone and the 'Enclave' Societies,» in: David Collier (ed.), *The New Authoritarianism in Latin America* (Princeton, 1979).

Davis, Eric. «The Concept of Revival and the Study of Islam and Politics,» in: Barbara Freyer Stowasser (ed.), *The Islamic Impulse* (Washington, D.C., 1987).

Davis, Natalie Zemon. «The Rites of Violence: Religious Riot in Sixteenth-Century France.» *Past and Present*. vol. 59 (1973).

Dawn, C. Ernest. *From Ottomanism to Arabism: Essays on the Origins of Arab Nationalism*. Urbana, 1973.

Deringil, Selim. «Legitimacy Structures in the Ottoman State: The Reign of Abdulhamid II (1876-1909).» *International Journal of Middle Eastern Studies*. vol. 23 (1991).

Di Tella, T. S. «Populism and Reform in Latin America,» in: C. Veliz (ed.), *Obstacles to Change in Latin America* (Oxford, 1962).

Doumani, Beshara. *Rediscovering Palestine: Merchants and Peasants in Jabal Nablus, 1700-1900*. Berkeley, 1995.

Drake, Paul W. «Requiem for Populism?,» in: Michael L. Conniff (ed.), *Latin American Populism in Comparative Perspective* (Albuquerque, 1982).

Duara, Prasenjit. *Rescuing History from the Nation: Questioning Narratives of Modern China*. Chicago, 1995.

Dubois, Jean. *Le Vocabulaire politique et social en France de 1869 à 1872: À travers les oeuvres des écrivains, les revues et les journaux*. Paris, 1962.

Duggan, Stephen P. «Syria and Its Tangled Problems.» *Current History*. vol. 13, no. 2 (February 1920).

Durkheim, Emile. *Professional Ethics and Civic Morals*. Cornelia Brookfield (trans.). Glencoe, Ill., 1958.

_______. *The Elementary Forms of the Religious Life*. J. S. Swain (trans.). New York, 1961.

Eagleton, Terry. *Ideology.* London, 1991.

Eley, Geoff & Ronald Grigor Suny (eds.). *Becoming National: A Reader.* Oxford, 1996.

Esherick, Joseph W. & Jeffrey N. Wasserstrom. «Acting Out Democracy: Political Theater in Modern China.» *Journal of Asian Studies.* vol. 49 (November 1990).

Fawaz, Leila Tarazi. *Merchants and Migrants in Nineteenth Century Beirut.* Cambridge, Mass., 1983.

Femia, Joseph V. *Gramsci's Political Thought: Hegemony, Consciousness, and the Revolutionary Process.* Oxford, 1987.

Fromkin, David. *A Peace to End All Peace: The Fall of the Ottoman Empire and the Creation of the Modern Middle East.* New York, 1989.

Furet, François. *Interpreting the French Revolution.* Elborg Forster (trans.). Cambridge, England, 1981.

Geertz, Clifford. «Religion as a Cultural System,» in: Michael Banton (ed.), *Anthropological Approaches to the Study of Religion* (London, 1966).

_______. «After the Revolution: The Fate of Nationalism in New States,» in: *The Interpretation of Cultures* (New York, 1973).

Gellner, Ernest. *Nations and Nationalism.* Ithaca, 1983.

_______. «The Sacred and the National,» in: *Encounters with Nationalism* (Oxford, 1994).

_______ & John Waterbury (eds.). *Patrons and Clients in Mediterranean Societies.* London, 1977.

Gelvin, James L. «Demonstrating Communities in Post-Ottoman Syria.» *Journal of Interdisciplinary History.* vol. 25, no. 1 (Summer 1994).

_______. «The Social Origins of Popular Nationalism in Syria: Evidence for a New Framework.» *International Journal of Middle East Studies.* vol. 26 (November 1994).

_______. «The Ironic Legacy of the King-Crane Commission,» in: David W. Lesch (ed.), *The Middle East and the United States: A Historical and Political Reassessment* (Boulder, 1995).

_______. «The Other Arab Nationalism: Syrian/Arab Populism in Its Historical and International Contexts,» in: James Jankowski & Israel Gershoni (eds.), *Rethinking Nationalisms in the Arab World* (New York, 1997).

Gontaut-Biron, Roger de. *Comment la France s'est installée en Syrie (1918-1919).* Paris, 1923.

Graham-Brown, Sarah. «Agriculture and Labour Transformation in Palestine,» in: Kathy Glavanis & Pandeli Glavanis (eds.), *The Rural Middle East: Peasant Lives and Modes of Production* (London, 1989).

Gramsci, Antonio. *Selections from the Prison Notebooks.* Quintin Hoare & Geoffrey Nowell Smith (eds.) (trans.). New York, 1987.

Guha, Ranajit. *Elementary Aspects of Peasant Insurgency in Colonial India.* Delhi, 1983.

_______. «On Some Aspects of the Historiography of Colonial India,» in: Gayatri Chakravorty Spivak, *Selected Subaltern Studies*, Ranajit Guha (ed.) (Oxford, 1988).

Habermas, Jurgen. *The Structural Transformation of the Public Sphere: An Inquiry into a Category of Bourgeois Society.* Thomas Burger & Frederick Lawrence (trans.). Cambridge, Mass., 1993.

Haim, Sylvia. *Arab Nationalism: An Anthology.* Berkeley, 1962.

Handelman, Don. *Models and Mirrors: Towards an Anthropology of Public Events.* Cambridge, England, 1990.

Haut-commissariat de la République Française en Syrie et au Liban. *La Syrie et le Liban en 1922.* Paris, 1922.

Hobsbawm, E. J. *Primitive Rebels: Studies in Archaic Forms of Social Movement in the Nineteenth and Twentieth Centuries.* New York, 1959.

_______. *The Age of Empire, 1875-1914.* New York, 1987.

_______. *Nations and Nationalism since 1780: Programme, Myth, Reality.* Cambridge, England, 1990.

_______ & Terence Ranger (eds.). *The Invention of Tradition.* Cambridge, England, 1983.

Hofstadter, Richard. *Age of Reform.* New York, 1955.

Holmes, William F. «Populism: In Search of Context.» *Agricultural History.* vol. 64 (Fall 1990).

Hourani, Albert. «The Arab Awakening Forty Years After,» in: *Emergence of the Modern Middle East* (Berkeley, 1981).

_______. *A History of the Arab Peoples.* Cambridge, Mass., 1991.

_______. *Problems of the Modern Middle East in Historical Perspective: Essays in Honour of Albert Hourani.* John Spagnolo (ed.). Reading, England, 1992.

Howard, Harry N. *The King-Crane Commission: An American Inquiry in the Middle East.* Beirut, 1963.

Hroch, Miroslav. *Social Preconditions of National Revival in Europe: A Comparative Analysis of the Social Composition of Patriotic Groups Among the Smaller European Nations.* Ben Fowkes (trans.). Cambridge, England, 1985.

Hunt, Lynn. *Politics, Culture, and Class in the French Revolution.* Berkeley, 1984.

Hurewitz, J. C. *The Middle East and North Africa in World Politics: A Documentary Record*, vol. 2: *British-French Supremacy, 1914-1945.* New Haven, 1979.

Ionescu, Ghita & Ernest Gellner (eds.). *Populism: Its Meaning and National Characteristics.* London, 1969.

Izutsu, Toshihiko. *Ethico-Religious Concepts in the Qur'an.* Montreal, 1966.

James, Daniel. *Resistance and Integration: Peronism and the Argentine Working Class, 1946-1976.* Cambridge, England, 1988.

Joarder, Safiuddin. *Syria Under the French Mandate: The Early Phase, 1920-1927.* Dacca, 1977.

Johnson, Nels. *Islam and the Politics of Meaning in Palestinian Nationalism.* London, 1982.

Kandiyoti, Deniz. «Identity and Its Discontents: Women and the Nation,» in: Patrick Williams & Laura Chrisman (eds.), *Colonial Discourse and Post-Colonial Theory: A Reader* (New York, 1994).

Karpat, Kemal H. «The Transformation of the Ottoman State, 1789-1908.» *International Journal of Middle East Studies*. vol. 3 (1971).

Kasaba, Resat. «Populism in Turkey, 1946-1961,» in: Ellis Goldberg, Resat Kasaba & Joel S. Migdal (eds.), *Rules and Rights in the Middle East: Democracy, Law, Society* (Seattle, 1993).

Kedourie, Elie. «The Capture of Damascus, 1 October 1918,» in: *The Chatham House Version and Other Middle Eastern Studies* (Hanover, N.H., 1970).

_______. «Pan-Arabism and British Policy,» in: *The Chatham House Version and Other Middle Eastern Studies* (Hanover, N.H., 1970).

_______. *Nationalism in Asia and Africa*. London, 1971.

_______. *Arabic Political Memoirs and Other Studies*. London, 1974.

_______. *Nationalism*. Oxford, 1993.

Kersante, Jules. «Syrie: L'occupation d'Alep.» *Petites relations d'orient*. vol. 6 (Novembre 1920).

Khalidi, Rashid. «Arab Nationalism in Syria: The Formative Years, 1908-1914,» in: William W. Haddad & William Ochsenwald (eds.), *Nationalism in a Non-National State: The Dissolution of the Ottoman Empire* (Columbus, 1977).

_______. «'Abd al-Ghani al-'Uraisi and *Al-Mufid*: The Press and Arab Nationalism before 1914,» in: Marwan Buheiry (ed.), *Intellectual Life in the Arab East, 1890-1939* (Beirut, 1981).

_______ et al. (eds.). *The Origins of Arab Nationalism*. New York, 1991.

Khoury, Philip S. *Urban Notables and Arab Nationalism: The Politics of Damascus 1860-1920*. Cambridge, England, 1983.

_______. *Syria and the French Mandate: The Politics of Arab Nationalism, 1920-1945*. Princeton, 1987.

_______. «Syrian Political Culture: A Historical Perspective,» in: Donald Quataert & Richard T. Antoun (eds.), *Syria: Society, Culture, and Polity* (Albany, 1991).

Kohn, Hans. *A History of Nationalism in the East*. London, 1929.

Kubik, Jan. *The Power of Symbols against the Symbols of Power: The Rise of Solidarity and the Fall of State Socialism in Poland*. University Park, 1994.

Laclau, Ernesto. *Politics and Ideology in Marxist Theory: Capitalism-Fascism-Communism*. London, 1977.

Landau, Jacob M. *Studies in the Arab Theater and Cinema*. Philadelphia, 1958.

Landes, Joan B. *Women and the Public Sphere in the Age of the French Revolution*. Ithaca, 1988.

Lane, Christel. *The Rites of Rulers: Ritual in Industrial Society-The Soviet Case*. Cambridge, England, 1981.

Lasswell, Harold D. et al. (eds.). *Language of Politics: Studies in Quantitative Semantics*. New York, 1949.

Lawrence, T. E. «The Destruction of the Fourth Army.» *Arab Bulletin*. no. 106 (22 October 1918).

_______. *Evolution of a Revolt.* Stanley Weintraub & Rodelle Weintraub (eds.). London, 1968.

Lecerf, J. & R. Tresse. «Les *'arada* de Damas.» *Bulletin d'études orientales.* vols. 7-8 (1937-1938).

Lesch, Anne Mosely. *Arab Politics in Palestine, 1917-1939: The Frustration of a Nationalist Movement.* Ithaca, 1979.

Lincoln, Bruce. *Discourse and the Construction of Society: Comparative Studies of Myth, Ritual, and Classification.* New York, 1989.

Link, Arthur S. (ed.). *The Papers of Woodrow Wilson.* vols. 56, 58. Princeton, 1987.

Loder, John de Vere. *The Truth about Mesopotamia, Palestine, and Syria.* London, 1923.

Longrigg, Stephen Hemsley. *Syria and Lebanon under French Mandate.* London, 1958.

Lukitz, Liora. «The Antonius Papers and *The Arab Awakening,* Over Fifty Years On.» *Middle Eastern Studies.* vol. 30 (October 1994).

Luxemburg, Rosa. «The Mass Strike, the Political Party, and the Trade Unions,» in: *Rosa Luxemburg Speaks,* Mary-Alice Waters (ed.) (New York, 1970).

MacCallum, Elizabeth P. «The Arab National Movement.» *Muslim World.* vol. 25 (October 1935).

Mach, Zdzislaw. *Symbols, Conflict, and Identity: Essays in Political Anthropology.* Albany, 1993.

Mallon, Florencia E. *Peasant and Nation: The Making of Postcolonial Mexico and Peru.* Berkeley, 1995.

Meinertzhagen, Richard. *Middle East Diary, 1917-1956.* New York, 1960.

Moghadam, Val. «Islamic Populism, Class, and Gender in Post-revolutionary Iran,» in: John Foran (ed.), *A Century of Revolution: Social Movements in Iran* (Minneapolis, 1994).

Monroe, Paul et al. *Reconstruction in the Near East.* New York, 1924.

Moore, Sally F. & Barbara Myerhoff (eds). *Secular Ritual: Forms and Meanings.* Amsterdam, 1977.

Mosse, George L. *The Nationalization of the Masses: Political Symbolism and Mass Movements in Germany from the Napoleonic Wars through the Third Reich.* New York, 1975.

_______. *Nationalism and Sexuality.* Madison, 1985.

_______. *Fallen Soldiers: Reshaping the Memory of the World Wars.* New York, 1990.

Mouzelis, Nicos. «On the Concept of Populism: Populist and Clientalist Modes of Incorporation in Semiperipheral Polities.» *Politics and Society.* vol. 14 (1985).

Muslih, Muhammad Y. *The Origins of Palestinian Nationalism.* New York, 1988.

Nairn, Tom. «The Modern Janus.» *New Left Review.* vol. 94 (1975).

Nietzsche, Friedrich. *The Will to Power.* Walter Kaufmann (ed.). Walter Kaufmann & R. J. Hollingdale (trans.). New York, 1967.

_______. *On the Genealogy of Morals.* Walter Kaufmann (ed.). Walter Kaufmann & R. J. Hollingdale (trans.). New York, 1969.

Ortner, Sherry B. «On Key Symbols.» *American Anthropologist.* vol. 75 (1973).

Owen, Roger. *The Middle East in the World Economy, 1800-1914.* London, 1981.

Ozouf, Mona. *Festivals and the French Revolution.* Alan Sheridan (trans.). Cambridge, Mass., 1988.

Ozveren, Y. Eyup. «Beirut.» *Review.* vol. 16 (Fall 1993).

Pascual, Jean-Paul. «La Syrie à l'époque ottomane (le XIXe siècle),» dans: André Raymond (éd.), *La Syrie d'aujourd'hui* (Paris, 1980).

Peukert, Detlev J. K. *The Weimar Republic: The Crisis of Classical Modernity.* Richard Deveson (trans.). New York, 1989.

Philipp, Thomas. *The Syrians in Egypt, 1725-1975.* Stuttgart, 1985.

__________ (ed.). *The Syrian Land in the 18th and 19th Century: The Common and the Specific in the Historical Experience.* Stuttgart, 1992.

Polk, William R. & Richard L. Chambers (eds.). *Beginnings of Modernization in the Middle East: The Nineteenth Century.* Chicago, 1968.

Porath, Yehoshua. *The Emergence of the Palestinian-Arab National Movement, 1918-1929.* London, 1974.

Reilly, James Anthony. «Origins of Peripheral Capitalism in the Damascus Region, 1830-1914.» Ph.D. Dissertation. Georgetown University. Washington D.C., 1987.

_______. «Women in the Economic Life of Late-Ottoman Damascus.» *Arabica.* vol. 42 (1995).

Rengger, N. J. *Political Theory, Modernity and Postmodernity.* Oxford, 1995.

Robin, Regine. *Histoire et Linguistique.* Paris, 1973.

Roded, Ruth. «Ottoman Service as a Vehicle for the Rise of New Upstarts among the Urban Elite Families of Syria in the Last Decades of Ottoman Rule.» *Asian and African Studies.* vol. 17 (1983).

Rothenberg, Winifred Barr. *From Market-Places to a Market Economy: The Transformation of Rural Massachusetts, 1750-1850.* Chicago, 1992.

Rowe, William & Vivian Schelling. *Memory and Modernity: Popular Culture in Latin America.* London, 1991.

Rudé, George. *The Crowd in History: A Study of Popular Disturbances in France and England, 1730-1848.* London, 1964.

Ruedy, John. *Modern Algeria: The Origins and Development of a Nation.* Bloomington, 1992.

Russell, Malcolm. *The First Modern Arab State: Syria under Faysal 1918-1920.* Minneapolis, 1985.

Ryan, Mary. «The American Parade: Representation of the Nineteenth-Century Social Order,» in: *The New Cultural History,* Lynn Hunt (ed.) (Berkeley, 1989).

Sachar, Howard N. *The Emergence of the Middle East: 1914-1924.* New York, 1969.

Sahlins, Marshall. *Historical Metaphors and Mythical Realities: Structure in the Early History of the Sandwich Islands Kingdom.* Ann Arbor, 1981.

Said, Edward W. «Third World Intellectuals and Metropolitan Culture.» *Raritan*. vol. 9 (Winter 1990).

_________. *Culture and Imperialism*. New York, 1994.

Scheler, Max. *Ressentiment*. Lewis A. Coser (ed.). William W. Holdheim (trans.). New York, 1961.

Schilcher, Linda Schatkowski. *Families in Politics: Damascene Factions and Estates of the 18th and 19th Century*. Stuttgart, 1985.

_______. «Violence in Rural Syria in the 1880s and 1890s: State Centralization, Rural Integration, and the World Market,» in: Farhad Kazemi & John Waterbury (eds.), *Peasants and Politics in the Modern Middle East* (Miami, 1991).

_______. «The Impact of the Railways on the Grain Trade of Southern Syria, 1890-1925,» in: Thomas Philipp & Birgit Schaebler (eds.), *Infrastructures and Communication: Processes of Integration and Separation in Bilad al-Sham from the Eighteenth Century to the Mandatory Period* (Gotha, Forthcoming).

Scott, James. *Weapons of the Weak: Everyday Forms of Peasant Resistance*. New Haven, 1985.

Sharabi, Hisham. *Arab Intellectuals and the West: The Formative Years 1875-1914*. Baltimore, 1972.

Shibutani, Tamotsu. *Improvised News: A Sociological Study of Rumor*. Indianapolis, 1966.

Sluglett, Peter & Marion Farouk-Sluglett. «The Application of the 1858 Land Code in Greater Syria: Some Preliminary Observations,» in: Tarif Khalidi (ed.), *Land Tenure and Social Transformation in the Middle East* (Beirut, 1984).

Smith, Anthony D. «The Myth of the 'Modern Nation' and the Myths of Nations.» *Ethnic and Racial Studies*. vol. 11 (January 1988).

_______. *National Identity*. Reno, 1991.

_______. «Gastronomy or Geology? The Role of Nationalism in the Reconstruction of Nations.» *Nations and Nationalism*. vol. 1 (March 1995).

Swedenburg, Ted. «The Role of the Palestinian Peasantry in the Great Revolt (1936-1939),» in: Edmund Burke III & Ira M. Lapidus (ed.), *Islam, Politics, and Social Movements* (Berkeley, 1988).

_______. *Memories of Revolt: The 1936-1939 Rebellion and the Palestinian National Past*. Minneapolis, 1995.

Tabak, Faruk. «Agrarian Fluctuations and Modes of Labor Control in the Western Arc of the Fertile Crescent, c.1700-1850,» in: Çağlar Keyder & Faruk Tabak (eds.), *Landholding and Commercial Agriculture in the Middle East* (Albany, 1991).

Tauber, Eliezer. «The Struggle for Dayr al-Zur: The Determination of Borders between Syria and Iraq.» *International Journal of Middle East Studies*. vol. 23 (1991).

_______. *The Arab Movements in World War I*. London, 1993.

_______. *The Emergence of the Arab Movements*. London, 1993.

_______. *The Formation of Modern Syria and Iraq*. London, 1995.

Terdiman, Richard. *Discourse/Counter-Discourse: The Theory and Practice of Symbolic Resistance in Nineteenth Century France*. Ithaca, 1985.

Tergeman, Siham. *Daughter of Damascus.* Andrea Rugh (intro. & trans.). Austin, 1994.

Thompson, E. P. «Eighteenth-Century English Society: Class Struggle Without Class.» *Social History.* vol. 3 (May 1978).

_______. *Customs in Common: Studies in Traditional Popular Culture.* New York, 1991.

Tibawi, A. L. *A Modern History of Syria, Including Lebanon and Palestine.* New York, 1969.

Tibi, Bassam. *Arab Nationalism: A Critical Enquiry.* New York, 1971.

Tilly, Charles. *From Mobilization to Revolution.* Reading, Mass., 1978.

_______. *The Contentious French.* Cambridge, Mass., 1986.

_______, Louise Tilly & Richard Tilly. *The Rebellious Century, 1830-1930.* Cambridge, Mass., 1975.

Torre, Carlos de la. «The Ambiguous Meanings of Latin American Populisms.» *Social Research.* vol. 59 (Summer 1992).

Turner, Bryan S. «Politics and Society in the Middle East,» in: *Capitalism and Class in the Middle East: Theories of Social Change and Economic Development* (London, 1984).

Turner, James. «Understanding the Populists.» *Journal of American History.* vol. 67 (September 1980).

Turner, Victor. «Hidalgo: History as Social Drama,» in: *Dramas, Fields, and Metaphors: Symbolic Action in Human Society* (Ithaca, 1974).

Vashitz, Joseph. «Dhawat and 'Isamiyyun: Two Groups of Arab Community Leaders in Haifa During the British Mandate.» *Asian and African Studies.* vol. 17 (1983).

Vatter, Sherry. «Militant Journeymen in Nineteenth-Century Damascus: Implications for the Middle Eastern Labor History Agenda,» in: Zachary Lockman (ed.), *Workers and Working Classes in the Middle East: Struggles, Histories, Historiographies* (Albany, 1994).

Vilas, Carlos M. «Latin American Populism: A Structural Approach.» *Science and Society.* vol. 56 (Winter 1992-1993).

Weber, Max. *The Theory of Social and Economic Organization.* Talcott Parsons (ed.). A. M. Henderson & Talcott Parsons (trans.). New York, 1947.

_______. *From Max Weber: Essays in Sociology.* Ed., trans., and introduced by H. H. Gerth & C. Wright Mills. New York, 1958.

White, Hayden. «Interpretation in History.» *New Literary History.* vol. 4, no. 2: *On Interpretation: II* (Winter 1973).

_______. *Metahistory: The Historical Imagination in Nineteenth Century Europe.* Baltimore, 1973.

_______. *Tropics of Discourse: Essays in Cultural Criticism.* Baltimore, 1978.

Wolf, Eric R. *Peasant Wars of the Twentieth Century.* New York, 1969.

Wuthnow, Robert. *Communities of Discourse: Ideology and Social Structure in the Reformation, the Enlightenment, and European Socialism.* Cambridge, Mass., 1989.

Zamir, Meir. *The Formation of Modern Lebanon*. Ithaca, 1985.

Zeine, Zeine N. *The Emergence of Arab Nationalism with a Background Study of Arab-Turkish Relations in the Near East*. Delmar, 1958.

_______. *The Struggle for Arab Independence: Western Diplomacy and the Rise and Fall of Faisal's Kingdom in Syria*. Delmar, 1960.

Zerubavel, Eviatar. *Hidden Rhythms: Schedules and Calendars in Social Life*. Chicago, 1981.

Zubaida, Sami. *Islam, the People, and the State: Political Ideas and Movements in the Middle East*. London, 1993.

3 – المحفوظات

بريطانيا

British Library, London (Arthur James Balfour Papers).
Foreign Office, London.
India Office, London.
Sudan Archives, University of Durham, England (Shuqayr Papers, F. R. Wingate Papers).
War Office, London.

سورية

مركز الوثائق التاريخية، دمشق.

فرنسا

Archives diplomatiques, Nantes, France.
Ministère de la défense, Vincennes, France.
Ministère des affaires étrangeres, Paris.

مصر

المكتبة السلفية، القاهرة (ملفات اللجنة الوطنية، لجنة الدفاع، الفتاة، كامل القصاب).

الولايات المتحدة

Boston University Archives (William Yale Papers).
National Archives of the United States, Washington, D.C.
University of Illinois, Urbana-Champaign (Albert H. Lybyer Archives).

المقابلات

الجزائري، أبو رباح. دمشق، 15 تشرين الثاني/ نوفمبر 1989.

حقي، إحسان. دمشق، 10 تشرين الثاني/ نوفمبر 1989.

الحلبي، عبد الرزاق (الشيخ). دمشق، 3 كانون الثاني/ يناير 1990.

الخطيب، عدنان. دمشق، 8 تشرين الثاني/ نوفمبر 1989.

الخطيب، محمد رضا. دمشق، 6 كانون الثاني/ يناير 1990.

دغمش، كمال. دمشق، 2 تشرين الثاني/ نوفمبر 1989.

الدقر، عبد الغني. دمشق، 2 كانون الثاني/ يناير 1990.

السروجي، عمر خادم. دمشق، 31 كانون الأول/ ديسمبر 1989.

الطباع، محمد مراد. دمشق، 2 كانون الثاني/ يناير 1990.

عرفة، ياسين (الشيخ). دمشق، 2 كانون الثاني/ يناير 1990، 4 كانون الثاني/ يناير 1990.

القاسمي، أحمد (الشيخ). دمشق، 6 تشرين الثاني/ نوفمبر 1989.

الكيلاني، فخري. دمشق، 8 تشرين الثاني/ نوفمبر 1989.

اليافي، عبد الكريم (أحد خريجي مدرسة التجهيز). دمشق، 21 تشرين الثاني/ نوفمبر 1989.

مراجع المترجم

باروت، محمد جمال. **التكون التاريخي الحديث للجزيرة السورية: أسئلة وإشكاليات التحول من البدونة إلى العمران الحضري**. الدوحة/ بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2013.

سالنامه دولت عليه عثمانيه. دفعة 62، 1324 هـ. در سعادت: مطبعه احمد احسان، 1322هـ مالية/ 1906م.

شيلشر، ليندا. **دمشق في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر**. ترجمة عمرو الملاح ودينا الملاح. دمشق: الناشر خاص، 1998.

العاصمة. السنة 1، العدد 58 (15 أيلول/ سبتمبر [د. ت.]).

العاصمة. السنة 2، العدد 11 (18 آذار/ مارس 1920).

العاصمة. السنة 2، العدد 122 (3 أيار/ مايو 1920).

العاصمة. السنة 2، العدد 140 (15 تموز/ يوليو 1920).

العاصمة. السنة 2، العدد 142 (29 تموز/ يوليو 1920).

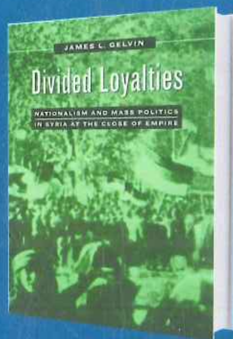
العاصمة. السنة 2، العدد 143 (2 آب/ أغسطس 1920).

العلاف، أحمد حلمي. **دمشق في مطلع القرن العشرين**. أعده للطبع وعلق عليه ووضع فهارسه وقدّم له علي جميل نعيسة. دمشق: وزارة الثقافة والإرشاد القومي، 1976.

المصباح (حلب). السنة 1، العدد 86 (30 تشرين الثاني/ نوفمبر 1919).

فهرس عام

هذا الكتاب



يقدم منظورًا جديدًا ومختلفًا لموضوع القومية في البلدان العربية، ويشرح دور المجموعات غير النخبوية في السياسة القومية في الشطر الأول من القرن العشرين. يعتمد المؤلف مصادر غير مستخدمة سابقًا، فيوثق ظهور شكل جديد من التنظيم السياسي - اللجنة الشعبية - التي انتشرت في مدن سوريا الكبرى وقراها في أعقاب الحرب العالمية الأولى.

يقوّم المؤلف، بما يتعدى السرد، حقبة من تاريخ القومية في الشرق الأوسط العربي. فيقدم في فحصه المنشورات والكتابات على الجدران والخطب والشائعات والافتتاحيات رؤى جديدة بشأن البناء الرمزي للمجتمعات الوطنية. ويساهم تحليله الاحتفالات - الوطنية، والتظاهرات، والمسرح - في فهمنا لظهور السياسة الجماهيرية، وفي فهم القومية في المنطقة وخارجها.

المؤلف

جيمس ل. غيلفين، حائز الدكتوراه من جامعة هارفرد (1992). أستاذ مساعد للتاريخ في جامعة كاليفورنيا، لوس أنجلوس. متخصص في تاريخ الشرق الأوسط الحديث، ولا سيما مسائل القومية والتاريخ الاجتماعي والثقافي. من مؤلفاته: *The New Middle East: What Everyone Needs to Know* (**الشرق الأوسط الجديد: ما يحتاج الجميع إلى معرفته**)؛ *The Israel-Palestine Conflict: A History* (**الصراع الإسرائيلي - الفلسطيني: تاريخ**)؛ *The Modern Middle East: A History* (**الشرق الأوسط الحديث: تاريخ**).

المترجم

عمرو الملّاح، كاتب وباحث ومترجم سوري. مهتم بالدراسات التاريخية والتراثية خصوصًا بتاريخ سوريا في الحقبة العثمانية المتأخرة. يحمل إجازة في اللغة الإنكليزية وآدابها. يعمل في حقل الترجمة منذ عام 1994. عمل مترجمًا وخبيرًا في الشؤون الإعلامية لدى عدد من البعثات الدبلوماسية في دمشق. له عدد من الأعمال المترجمة المنشورة.

فلسفة وفكر
اقتصاد وتنمية
لسانيات
آداب وفنون
تاريخ
علم اجتماع وأنثروبولوجيا
أديان ودراسات إسلامية
علوم سياسية وعلاقات دولية

السعر: 18 دولارًا
ISBN 978-614-445-406-0
9 786144 454060

المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات
Arab Center for Research & Policy Studies